تاريخ العرب
والعالم
ايار (مايو)

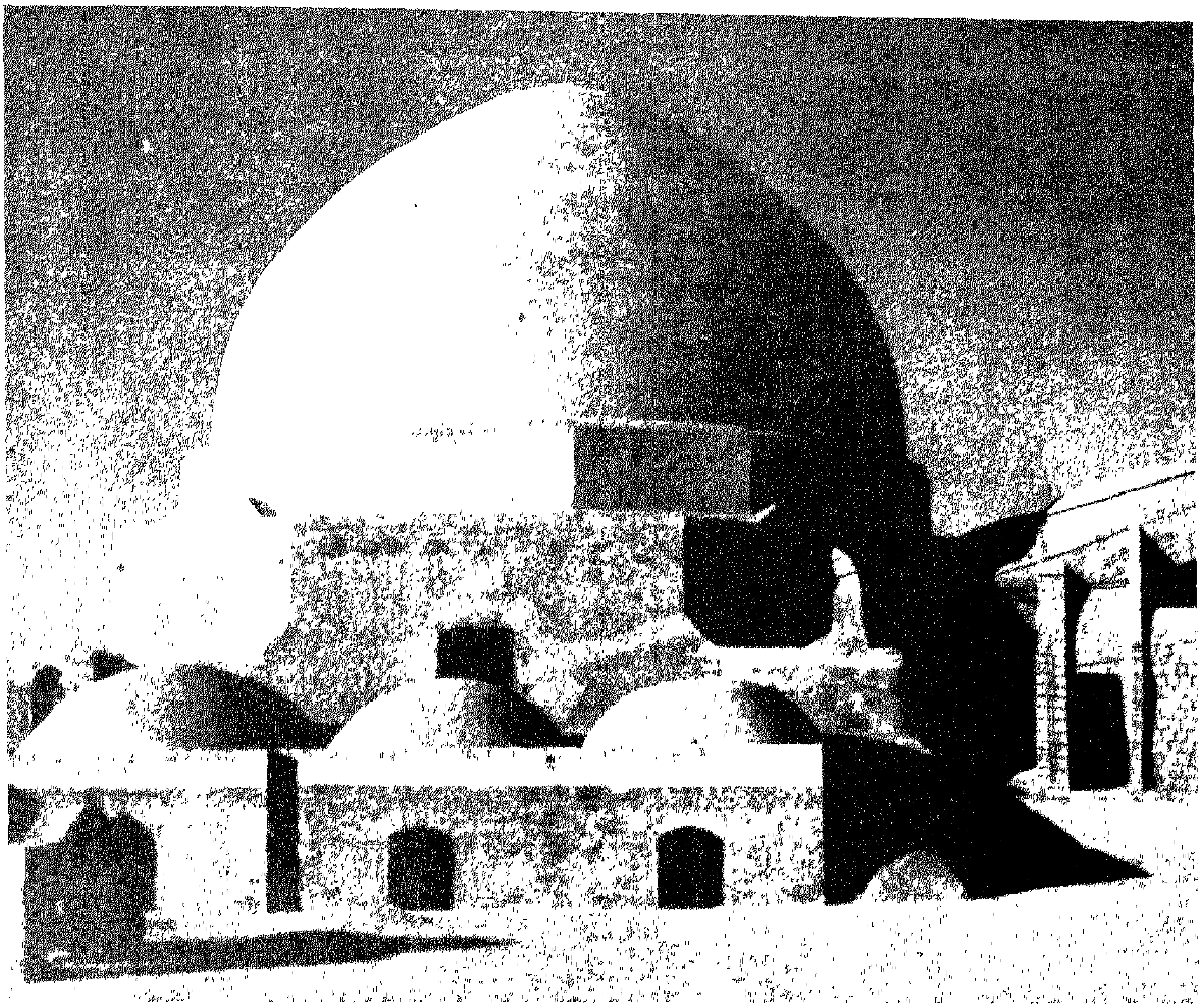

□ قبة مالك شاه، للمسجد الجامع في أصفهان ــ إيران (١٠٨٠م)
من كتاب: Islamic Art, An Introduction, David James

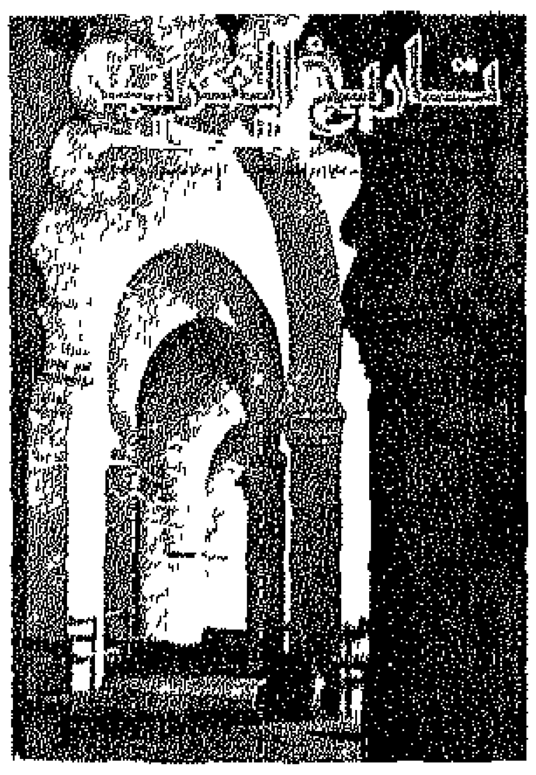

الغلاف الاول
□ الجامع الكبير في تلمسان - الجزائر من كتاب
EL ISLAM
y el arte musulmán
Alexandre Papadopulo

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ٩١/٩٢ ● ايار ـ حزيران ١٩٨٦

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها فاروق البربير

المستشار . د أنيس صايغ المدير المسؤول . محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات علي عبدالساتر

المخرج الفني . سالم زين العابدين

الانتاج مطبعة المتوسط.

التوزيع. الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	١٢ ل.ل.	سوريا	١٢ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ ل. ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 8, No. 91/92 • May - June 1986

ANNUAL SUBSCRIPTION ; $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعىٰ في الالقاب الصفات العلمية فقط ■

□ **الجامع الأسعدي بطرابلس وصفحة من العلاقات بين المسلمين والنصارى**
د. عمر عبدالسلام تدمري ٢

□ **صُوَرٌ من المجتمع العربي**
د. نقولا زيادة ١٢

□ **معاهدات:**
الاتفاقية المالية الليبية ـ البريطانية
قسم التوثيق والأبحاث ٢٨

□ **مواقف الاحتلال الفرنسي من اللغة العربية في افريقيا السوداء**
د. عـمّار هلال.................................. ٣٢

□ **مدن عربيه تحت الاحتلال:**
النبي يوشع
قسم التوثيق والأبحاث ٤٧

□ **من الأرشيف:**
روائع سورية تطوق اميركا ٤٨

□ **الصابئة**
د. غادة المقدم عدرة........................ ٥٥

□ **الملاحة البحرية في العصور الإسلامية**
خالد بن محمد القاسمي ٦٤

□ **ورقة من تاريخ الاستشراق**
(الحلقة الثانية والأخيرة)
هانز هاينريش شيدر (١٨٩٦ ـ ١٩٥٧)
بقلم: أوميليان بريستاك
ترجمة: محمد علي حشيشو ٧٦

□ **اللغة العربية دورها وأهميتها في القرون الوسطى وفي ايامنا الحاضرة**
بقلم: د. بيلاوسكي
ترجمة: الأستاذ محمد بن زيان ٨٦

□ **من أدب الرحلات عند العرب**
مطالعة في رسالة ابن فضلان
فاضل خليل إبراهيم ٩٠

□ **رسائل الماجستير والدكتوراه:**
بعلبك في العهد الأيوبي
د. هولو جودت فرج............................ ٩٢

□ **كتب وردتنا** ٩٦

بوابة الجامع الأسعدي بطرابلس

الجامع الأسعدي بطرابلس

وصفحة من العلائق بين المسلمين والنصارى

د. عمر عبد السلام تدمري

حَفِل تاريخ طرابلس بصفحات مشرقة من العلائق الودّية والتسامح والمحبّة بين أهلها من المسلمين والنصارى، والشواهد على ذلك كثيرة، يتبيّنها كلّ من يقرا تاريخ هذه المدينة العربية بصفاء ذِهْنٍ كصفاء عروبة أبنائها مسلمين ونصارى.

ومن سِفْر تاريخ طرابلس الحافل الطويل ننتزع هذه الواقعة التاريخية التي لا تخفى دلالاتها على من يحبّ دراسة العلائق الدينية والاجتماعية والحضارية بين الأمم والشعوب، وإن كانت احداثها قد جرت في عصر اتّصف بأنه من أحلك العصور التي مرّت على الوطن العربي وأظلمها.

في سنة ١٨٢٤، تولّى على طرابلس «سليمان باشا العظم» منتقلاً إليها من حماه، بعد أن قاسى أهلها كثيراً من عسفه وظلمه، ولم يحتملوا جوره واستبداده عندما كان قائمقاماً عليهم، وكانت الأخبار السيّئة عن ظلمه وبطشه سبقت وصوله إلى طرابلس، ولذا بادر أهاليها من المسلمين والنصارى إلى الفرار منها والالتجاء إلى الجبال والقرى البعيدة، ممّا تسبّب بشلل الأعمال الادارية وتعطيل الحياة في الدوائر الحكومية، والمصالح الأخرى، فانزعج الوالي من هذا الموقف غير الودّي نحوه وأضمر لأهل طرابلس الشّر، وعزم على الانتقام منهم بتدمير دُورهم، فبدأ أعماله التخريبيّة بهدْم دار «آل غُرَيِّب» التي كانت طرابلس تفاخر بها مباني مدن الشام لِما اشتملت عليه من فخامة البناء والهندسة المعماريّة، وتزيينها بالزخارف والنقوش، وما تحتويه من المفروشات الثمينة والاعلاق النفيسة، ولقد اعتبرها الامير «بشير الشهابي» الكبير بأنها إحدى الدُّور الثلاث الشهيرة في بلاد الشام وقتذاك، إذ قال يوماً لصاحبها «نعمة الله غُرَيِّب»: «يا أخي أبا الياس، بيتك في طرابلس وسرايا بتدّين (سراي بيت الدّين) وبيت العضم (العظم) بالشام، هم (هي) زينة بلاد الشام»!.

وكان «نعمة الله غُرَيِّب» قد فرّ بأسرته إلى البترون واقام فيها سبع سنين، بضيافة «الامير بشير» ولما علم والي طرابلس بمكانه، بعث أحد أعوانه لاغتياله، وهو على هيئة الشحّاذين وابناء السبيل، غير أنّ أحد أبناء «نعمة الله» اكتشف الحيلة وقبض على الرجل، وبعد ان ضربه ليعترف، قدّم له الطعام وأطلقه قائلاً له: «قل إلى افنديك ما نظرته بعينك، وسمعته بأُذنك، وكفاه تهديدنا بهدم بيتنا، إذا ما رجعنا إلى طرابلس، ليعمل ما يريد، نحن خمسة أخوان نعمّر خمسة بيوت عِوّضه»، فلما بلغ ذلك الوالي ازداد غضبه،

وأمر بهدم تلك الدار الرائعة، ونهب موجوداتها الثمينة من فضّيّات وفسيفساء وقيشاني، وأبواب الجوْز، والمفاتيح الفضية، ونقل أجمل وأنفس الآثار منها على ظهور (٣٤)، أربعة وثلاثين جملًا، وأودعها قصور آل العظم في حماه ودمشق، ولم يبق من هذه الدار ـ على ضخامتها ـ سوى قبْو واحد، ثم شرع بعدها بهدم دار «آل الصرّاف» ولكنّ أصحابها تداركوا ذلك بالوساطات ودفع المال، وصادف ذلك موسم الحج، ولما كانت إمارة ركْب الحجاج إلى بيت الله الحرام (الجَرْدة) من مهام والي طرابلس في ذلك الوقت، فقد اضطر «سليمان باشا العظم» إلى إقامة أخيه «حسين بك» قائمقاماً على طرابلس مدّة غيابه، وأعطاه التعليمات بأن يهدم بعض دُور أعيان المدينة.

وفيما كان العمّال في طريقهم لهدْم دار «آل صَدَقَة» إذ بالثورة والهياج قد عما المدينة، وأخذا بالناس كلّ مأخذ، فقاموا بمحاصرة «حسين بك» في السراي، من جهة «باب تلّ الرمل» حيث المنطقة المعروفة الآن بحيّ السراي العتيقة ـ وهي سراي الأمير محمد عند مسجد الرفاعيّة الجديد ـ وفتحوا سواقط المياه في الجنائن المحيطة بالسراي، فغمرت الطرق والدروب، وانتشرت الروائح الكريهة داخل السراي، فلم يحتمل «حسين بك» البقاء فيها، وخشي على نفسه وصول الأهالي الثائرين، ولذا اضطر أن يخرج هارباً عبر أقذار المياه وأوساخها، وعند ذلك أطلق عليه الأهالي لقب «القُلَيْطيّ»..!

* * *

وصل «حسين بك» إلى المنطقة المعروفة بـ «البَدّاوي» شمالي طرابلس، وهناك قام باستدعاء «علي بك الأسعد المرعبي» أحد أعيان عكار، فاجتمع لهما جيش كبير أخذ يستعدّ لمهاجمة المدينة، وتزعّم الثورة رجل من حيّ «باب التبّانة» اسمه «الشيخ دَنّون» وسار في منتصف النهار ليهاجم الجيش في «البدّاوي» ولكنّه ارتدّ منكسراً، واقتحم «حسين بك» المدينة وانتقم من أهلها انتقاماً مروّعاً.

وفي تلك الأثناء عاد «سليمان باشا» من الجَرْدَة (الحجّ) مريضاً، فلم يلبث أن تُوفيّ بطرابلس، فانتهز «علي بك الأسعد» الفرصة، وحصل على عرائض وفتاوى شرعيَّة من الأهالي ومن المشايخ الذين بدأوا بالعودة إلى المدينة، وعمّ له بذلك تقلُّد الولاية، وقبض على أزمّة الأمور.

ويبدو أن الوالي الجديد أراد أن يكسب إلى جانبه عواطف أكثرية الأهالي من المسلمين، عندما فكر ببناء جامع على أنقاض دار «آل غُرَيِّب» وظنّ، بحمقه، أن المسلمين سيرضون عن عمله هذا وبذلك يفرّق بين أهليها، المسلمين والنصارى، ليسهُل عليه بعد ذلك قيادُهم، ولا شك في أنه عندما أراد بناء الجامع كان يهدف بذلك إلى الانتقام من خصمه اللدود «مصطفى آغا بربر» عبر صديقه الحميم «نعمة الله غُرَيِّب» صاحب الدار، إذ نجح «علي بك الأسعد» في استصدار أمر بإعدام «مصطفى بربر» وحجْز ممتلكاته، وعندما علم «مصطفى بربر» بذلك فرّ إلى جُبّة بشَرّي، ومن هناك أرسل كتاباً إلى الأمير «بشير الشهابي» مع صديقه «نعمة الله غُرَيِّب» ووصل الكتاب أخيراً إلى الوزير العثماني «عبدالله باشا» حيث أمر بالصفح عن «مصطفى بربر» وهكذا اعتبر «علي بك الأسعد» أن «نعمة الله غريب» لعب الدور الرئيسي في استصدار أمر الصفح عن خصمه، لصداقته الحميمة بـ «مصطفى بربر» ودالّته على الأمير «بشير الشهابي»، فقام بتحويل داره إلى جامع في سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م. وتمّ بناء المئذنة في وسط أرض الجامع، فوق القبو الوحيد الذي لم يُهدَم من الدار، كما بنى محراباً في القبو المذكور.. وعرف الجامع في ذلك الحين باسم «الجامع الأسعدي» نسبة إلى بانيه «علي بك الأسعد» بينما أطلق عليه العامة اسم «جامع الشُؤم» لشؤم طالعه!.

لبث «علي بك الأسعد» والياً على طرابلس إلى أن عُزل عنها في سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م،

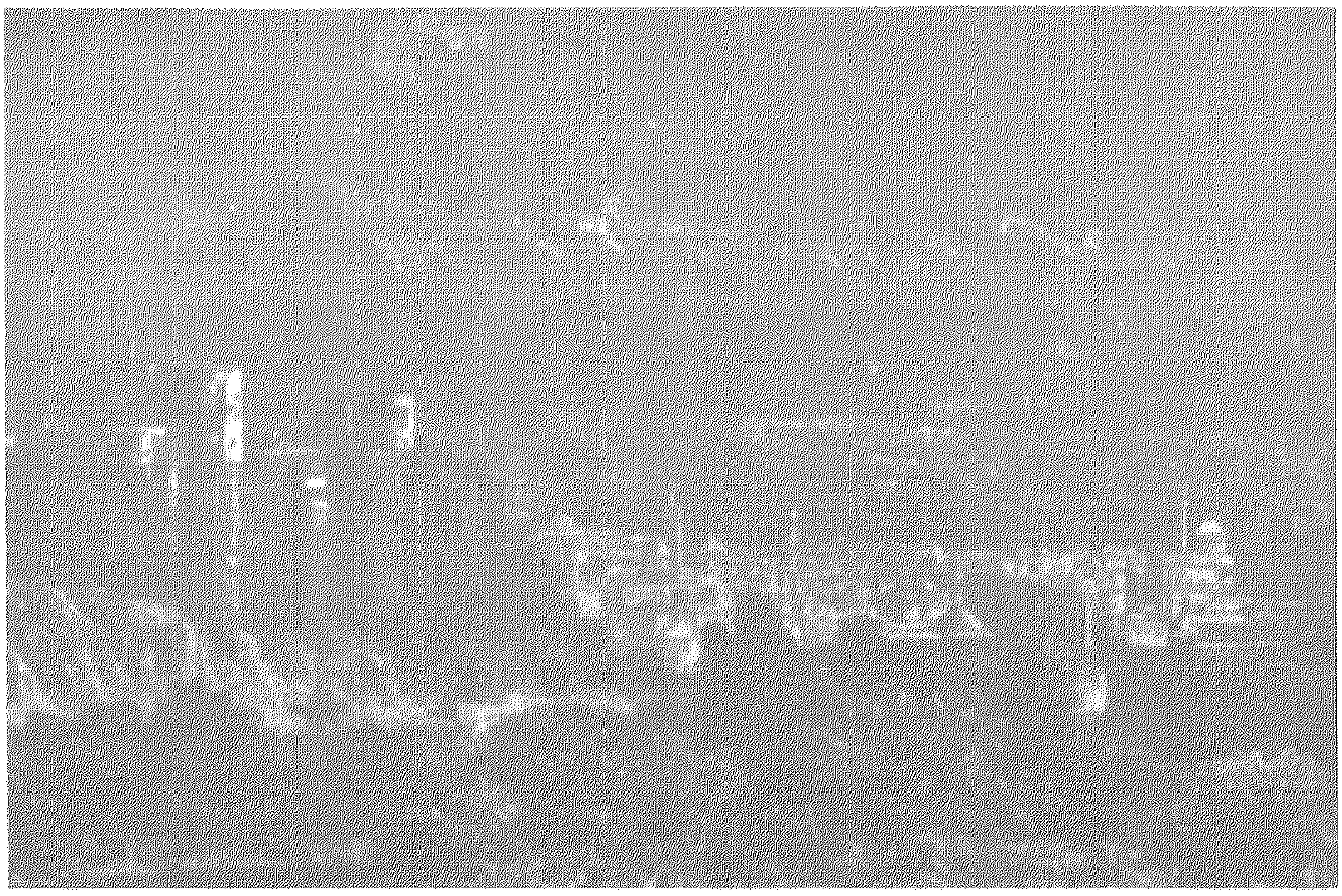

□ طرابلس القديمة خلال القرن التاسع عشر.

وتولّاها بعده «محمد أمين باشا مير ميران طرابلس».

وما أن عاد «آل غُريّب» إلى طرابلس في سنة ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م. بعد إقامتهم (٧) سبع سنين في البترون، حتى تعرّضت البلاد لحملة الجيش المصري بقيادة «إبراهيم باشا ابن محمد علي الكبير»، فسقطت طرابلس في يده سنة ١٨٣٢م، ولما كان بحاجة إلى مكان يضع فيه الذخيرة العسكرية قريباً من السراي التي ينزل فيها، فقد وقع اختياره على دار «آل غريّب» لاتساع أرضها حول المئذنة، ولقربها من سراي طرابلس، فوضع الذخيرة فيها، لذلك أصبحت الدار تعرف بـ «دار الشونة»، وهو اسم مستودع الذخائر في اللهجة المصرية، وظلّت هذه التسمية تُطلق على الدار حتى بعد خروج المصريين من طرابلس سنة ١٨٤٠م، ولعلّ الناس حرّفوا «الشونة» إلى «الشوم»!.

وفي سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م، تقدّم أحفاد «آل غُرَيِّب» بكتاب إلى مجلس الحكم الشرعي يطلبون فيه الموافقة والإذن لهم بإقامة حائط يفصل بين بناء الجامع وبين دار لهم ملاصقة للجامع، إذ كان باب الجامع مجاوراً لباب دارهم مما يجعلهم محرجين في فتح باب الدار عند الحاجة لكثرة المتردّدين على الجامع، واقتصر كتابهم على هذا الطلب فحسب!.

الفتـــوى

وهنـا تتجلّى روح التعـاطف والمـودّة بين مسلمي ونصارى طرابلس، كما تتجلّى عـدالة التشـريع الاسـلامي، وصدْق أحكـام العلمـاء المسلمين وأعيانهم، إذ أصدر مفتي طرابلس في ذلك الوقت فتوى شرعيّة بعدم جواز الصلاة وإقامة الشعائر الدينية في الجامع الذي أقيم على أرض اغتُصبت من أصحابها ظلماً وعدواناً. كما لُوحظ في تلك الفتوى أنّ مئذنة الجامـع بارتفاعها مطلّة مباشرة على نوافذ دار آل غريّب، ممـا يجعل النسـاء داخلهـا عُـرْضـة لانـظار المؤذّنين، ولذا أُشير في الفتوى بسدّ كُوّتين في

المئذنة تنفتحان لجهة الدار، وتُوِّجت الفتوى بالحكم الشرعي الذي ينصّ على أنَّ من حقٍّ أصحاب الاستدعاء أن يتصرّفوا في حقّهم وملكهم، وأنّ القبو الذي أقيمت عليه المئذنة هو ملكهم، ولهم حقّ إرجاعه إلى ملكهم، وإزالة المنارة (المئذنة) والمحراب، والتصرُّف المطلق في ذلك.

ولقد حفظت لنا سجلّات المحكمة الشرعية بطرابلس نصّ هذه الفتوى، كما يحتفظ أحد أبناء آل غُريّب بصورة عن تلك الفتوى، وتوجد نسخة مصوَّرة عنها محفوظة في مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت، ونشرها الدكتور «أسد رستم» في كتاب «الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا» وننقلها هنا كاملة لأهمّيّة ما تنطوي عليه من دلالات لها قيمتها، كصفحة مشرقة من تاريخ طرابلس وتاريخ علمائها.

نصّ الفتوى

«مذاكرة بمجلس شورى طرابلس الشام، في ١٤ ش (شعبان) سنة ١٢٥١هـ». تقدم عرضحال من أولاد الياس غريب، مضمونه:

لا خفي حضراتكم من خصوص بيت الداعيين لجنابكم، المعروف لبيت غريّب، فكان سابقاً أخذ منه جانب بعد هدمه في مدّة «حسين بك» متسلم طرابلس، في مدّة ولاية «سليمان باشا عظم زاده» ثم بعدها في مدّة ولاية المرحوم «اسعد زاده علي باشا»[1]، تحسّن عنده بناء مناره في البيت المرقوم، وجعله جامعاً لاقامة الصلوات الخمس، فكل ذلك وعبيدكم مفوّضين الأمر لله تعالى.

وبجانب الجامع المذكور سَكَنٌ حايد عن الجامع المذكور، وهو بيد هولاي الداعيين، فيلزم إلى بنا حايط يكون فاصل بينهما وبين الجامع لأجل الحجز بينهما، حيث أن استطراق الجامع من جهة، واستطراق الشقّة التي بيدنا من جهة ثانية، فنلتمس الكشف عليه لبناء حايط ليكون [معلوم] الوضع طولاً وعرضاً كما يتحسّن لكم تأمروا لهولاي الداعيين، وبعد ذلك يبقى الأمر لمن له الأمر.

هذا مضمون الأعراض.

قرّر جناب مفتي افندي ما قرّروه مقدّموا الأعراض من حيثيّة هدم دارهم في مدّة «عظم زاده سليمان باشا» ثم وفي مدّة «اسعد زاده علي باشا» أخذ منه جانب وجعل فيه مناره لأجل ان يجعله جامعاً، وأن جميع ذلك وقع استحساناً منهما، فهو حقيقي، وما توقع بوقتها في سكن المذكورين فهو ناشي عن محض نفسانيه، وخط نفس، خالياً عن مراعاه الأصول المرعيّه والشريعه المحمّديه، كما هو مستفيض بين كافة الناس.

ثم وقد حصل لي غاية الوقوف على ما توقع لهولاي المذكورين من ظلامتهم وتشتّت حالهم في مدّة المشار إليه، وكما يذكروا حيث لهم طمع في ما أخذ من دارهم وجعل جامعاً، وأن يكن لا نفع به، فهو جامع صورة لكونه مأخوذ ظلماً، ويرغبوا في بناء حايط فاصل بينه وبينا ما بيدهم من سكنهم الأصلي، ويلتمسوا الكشف على ذلك، براة لذمتهم، وينبغي إجابتهم نظراً لمعدلة هذه الدولة العليّة، أيّدها الله في دفع ورفع مغدوريه، مثل هذه واضحة الثبوت، ثم وينبغي أن أهل المجلس كافة أن يتوجهوا للكشف على ذلك، حتى أن هذا الفقير أكون بمعيّتهم، دفعاً لهذه المغدوريه الوخيمة التي لحقت المذكورين سابقاً، ثم وبعد الكشف والنظر إلى التماس المعرضين في بنا الحايط الفاصل فيما بين هذا الجامع وبين الشقة الباقية من سكنهم، وبيان موضع بنايه، ثم ويكون من طرف الشرع الشريف كاتب معيّن لأجل أن يعمل على موجب الكشف المذكور إعلام شرعي، ثم ويعمل على موجبه جُرنال (صحيفة) يتضمّن الاعراض عن واقعة الحال للأعتاب الشريفه، وكما يصدر الأمر السامي، يكون على مقتضاه العمل، ويبقى الأمر لمن له الأمر، والراي لحضرات أرباب المجلس.

صدق على ذلك أهالي المجلس.

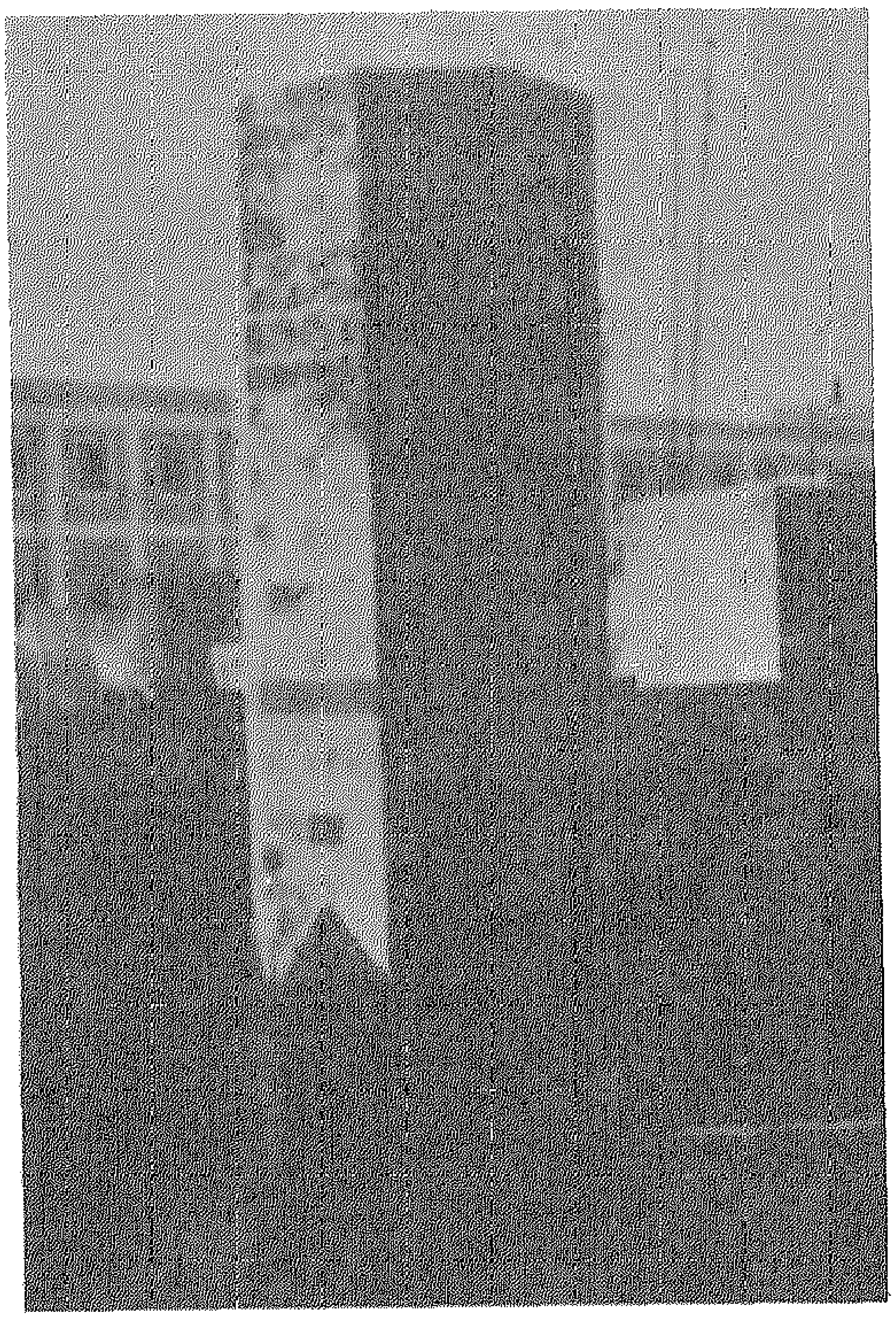

□ مئذنة الجامع الاسعدي.

ففي يوم الجمعة في ٢١ ش (شعبان) سنة ٢٥١ (١٢٥١هـ/١٨٣٥م) توجّه (للكشف) كل من حضرة مفتي أفندي، وحضرة نقيب(٢) أفندي، وحضرة إبراهيم أفندي سندروسي زاده، وبقية أهل المجلس الحاج مصطفى ضناوي، والحاج علي شقص، والشيخ محمد العادلي، والسيد مصطفى منقاره، والخواجة نصرالله زُريق، والخواجة اسحق خلاط، ووجد حين الكشف جناب قاضي أفندي، وجماعة من أهل الخبرة والمعرفة، فكشف على جميع الدار الشهيرة بدار أولاد غريب، فإذا هي مهدومة، وأحجارها ذاهبة، وهي صحراء، فيها بعض بنا من الردم، ولم يبقى (يبق) من أصلها سوى قبو من ناحية الدار من جهة الشمال، وهو الذي بنا على ظهرها «أسعد زاده علي باشا» منارة لأجل الأذان، وداخل القبو عمل به محراب (محراباً) للصلاة، فتكيّل عرض القبو المذكور فبلغ عرضه ١٦ ذراع (ذراعاً) بذراع المعماري، ومثل ذلك طوله، ثم كشف على المناره الراكبه على ظهر القبو المذكور، فروي أن وضع حايط فاصل ما بين الدار، دار المذكورين والقبو المذكور فتتعطل طريقها.

فروي غبّ(٣) الكشف أن يعمل لها سلّم من جهة مدخل الباب الذي بقرب باب القبو، ثم وبحسب التماس المذكورين في وضع جدار فاصل ما بين القبو الذي عليه المنارة، وبين دارهم، فإذا يكون وضعه من طرف العضاضة التي هي أحد عضايد القبو المذكور أخذ بالطول إلى كتف الباب الذي ستوصل منه إلى الجامع بعد نقل الباب الذي كان أحدثه «علي باشا» إلى جانب الجامع ليكون أيسر في بناء الحايط وجد وضع الحيط من جهة ابتداية مما يلي طاقتين القبو المذكور الذي هو الجامع، مع سماكة البناء ذراع وثلث، وطول الحايط إذا بني فطوله ٢١ ذراعاً بذراع المعماري إلى أن يتوصل إلى كتف الباب، وفراغه من جهة الباب ٣ أذرع ونصف مما عدا البنا، ثم كشف على عمل حوض الماء فروى أن يبنا (يبنى) بزاوية مدخل الجامع حوض لسيق (لصيق) العضاضة وفايض مايه إلى ادبخانه التي تبنا (تُبْنى) تحت سلم المادنة (المئذنة).

ثم لوحظ في الكشف أن المنارة المذكورة لسبب ارتفاعها جداً، وتصرف المذكورين في بناء دارهم لاسكان حريمهم، فيظهر الكشف منها على مقرّ الحريم، أن ما يلي الدار من كوّة المادنة هو من جهتين فقط، وهما كوّتين، فاستحسن لدى الكشف فسدّهما لأجل رفع الضرر من الكشف على مقرّ الحريم.

هذا ما ظهر بالكشف على المحلّ المرقوم.

قرّر مفتي أفندي زاده أنه ظهر بالكشف على الجامع المذكور، وعلى المنارة، وعلى بقية الدار المرقومة الذاهبة أحجارها الباقي أساس بنايتها إذا بني الحايط المذكور فاصلاً ما بين دار المدعيين المالكين الدار، وبين القبو الذي جعله المرحوم «علي باشا» جامعاً على الوجه الذي ظهر بالكشف، فلا بأس في بناء الحايط أعلى

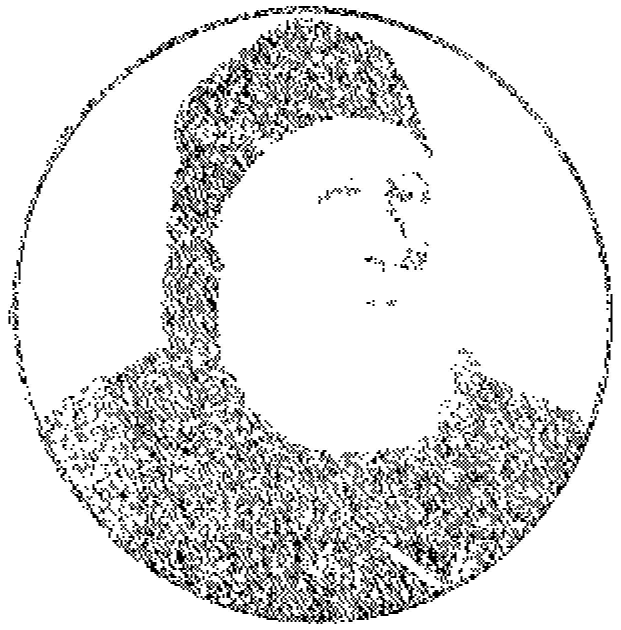

□ إبراهيم باشا، الذي حوّل دار «آل غريّب» إلى «دار الشونة».

لوجه المشروح الأجل أن يتصرفوا في خالص حقهم، وإن يكن حقهم أيضاً القبو الذي أحدث به الباشا المذكور والمنارة والمحراب، فوضعه غير صحيح شرعاً، ولأصحابه تملُّك ذلك وإرجاعه إلى ملكهم، **ولهم شرعاً إزالة المنارة والمحراب** والتصرّف في القبو المذكور بأنواع التصرّفات الشرعية، ولا كن (لكن) أصحابه لم يدّعوا ولم يطلبوا زوال ما أحدثه الباشا المولى إليه، وإن يكن وضعه بغير حق، ولم يلتمسوا الا بناء الحايط المشروح كي يكون فاصلاً ما بين عَرَصَة دارهم المهدّمة وبين القبو المذكور.

فـإذاً، ينبغي إجابة التماسهم بحسب استدعايهم، وحينئذ يتقدّم هذا الجُرنال للاعتاب السعيده الحكمداريّه، وينبغي على هذا البنا ايضاً أن يحرّر بالالتماس من حاكم الشرع الشريف، حيث ظهر بالكشف لديه ما تقرّر من الايضاح، إعلاماً شرعيا ليدرج في هذا الجرنال، وغبّ تقديم ذلك للاعتاب، فكما يصدر الأمر الشريف يكون العمل، والأمر لمن له الأمر.

صدق على ذلك كافة اهل المجلس.

* * *

وفي يوم ٢١ من شهر شعبان، صدر هذا الاعلام بالفتوى ونصّه كما هو مُعَنْوَن:

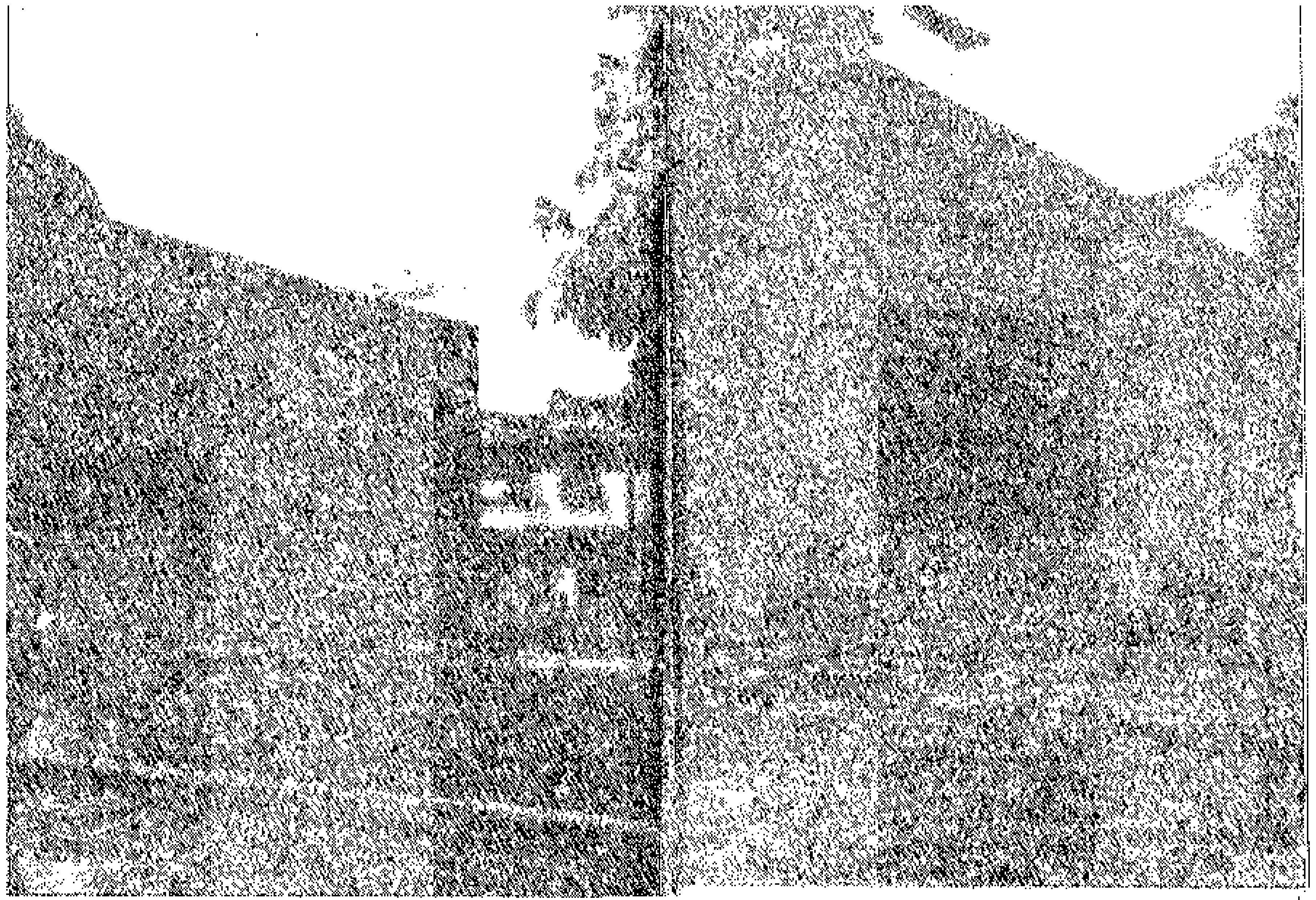

□ البداوي بجامعها من بناء الأمير دمرداش.

إعلام إلى بيت غريّب

المعروض لسعادتكم الرحيم، الدستورانيّة، ومراحم شيم دولتكم الآصفية، أدام الله تعالى ظلّ عدلكم على البريّة، بحرمة سيّدنا محمد عليه افضل صلاة وأشرف تحية. آمين.

هو أنه قد حصل الكشف بالالتماس على جميع الدار الشهيرة بدار أولاد غريّب، فإذا هي مهدومة وذاهبة أحجارها، ولم يبق سوى قبو كان وضع له المرحوم علي باشا العكاري محراباً وبنى في ظهره منارة وسمّاه جامعاً لأجل الصلاة[4] فيه.

وبحيث مالكي الدار المذكورين في بناء حايط فاصل ما بين القبو المذكور وبين عرصة الدار.

فنظر إلى محل الحايط الذي يلتمسوا وضعه، فإذا مبدوه من لصيق العضاضة بعيداً عن كوّتي القبو مقدار ذراع بذراع المعماري ما عدا سماكة الحايط، وطوله إحدى وعشرين ذراعاً واصلاً إلى كتف الباب الذي يتوصّل منه إلى القبو المذكور، وذلك بحسب التماسهم، بما أن وضع المنارة والمحراب في محلّ دارهم كان بدون مسوغ شرعي كما هو مستفيض الثبوت، بناء على مالكي الدار المذكورة بينوا الحايط المذكور من مالهم لأنفسهم، وبينوا حوض ماء ودكانه مع سلّم يتوصّل منهما إلى المنارة، ثم من خصوص المنارة وإطلالها على الدار المذكورة، وهو مقرّ النساء، فنظر بالكشف أنه لا بأس سدّ كوّتين منها مما يلي الجهة التي يطلّ منها على الدار المذكورة.

فسألنا عن ذلك كله جناب عمدة العلماء الاعلام الكرام[5]، والمدّرسين الفخام، السيد محمد كامل أفندي زيني[6]، زاده المفتي بالمحمية[7] حالاً بما نصّه:

«في دار لجماعة من أهل الذّمة هدمها حاكم السياسة[8]، وأبقى منها مكاناً على حدة، وجعل فيه محراباً، وجعل على ظهره منارة للاذان، قصد بذلك أن يكون جامعاً لأجل إقامة الصلاة فيه، فلم يُصَلّ فيه، وبقي على ذلك مشغراً، والآن فمالكو الدار يريدون البناء له في عَرَصَة دارهم المهدومة، ويلتمسون الكشف عليها من طرف الشرع القويم ويريدون[9]، بناء حايط فاصل بين الجامع المذكور[10]، وبين عرصة الدار، إذا تركوا بدون سدّ يبقى الكشف منهما بذلك على مقرّ النسا في النظر. فهل والحالة هذه يجابوا إلى ذلك كله شرعاً أم لا؟ افيدوا».

□ مصطفى آغا بربر، صديق نعمة الله غريّب.

أجاب:

«الحمد لله وحده، نعم، حيث الحال ما ذكر، فلهم بناء الحايط للفصل بين عرصة الدار وبين المكان المذكور، ولهم سدّ الكوّتين من المنارة المطلّتين على عرصة الدار لمنع الكشف عن مقرّ النساء، يحرم، بل لهم إزالة المنارة والمحراب من مكان الموضوع ذلك ظلماً بدون مسوّغ شرعي، فسدّ الكوّتين من المنارة بالطريق الأولى، **حتى أن الصلاة في المكان المذكور مكروهة شرعاً** لأنه مغصوب، ولا يكون المكان المذكور جامعاً بمجرّد وضع المنارة والمحراب بوجه الغصب.

والحال ما ذُكر، حتى إذا طلبوا إزالة ذلك واخذهم لمكانهم يتصرّفوا فيه، فإنهم يجابوا إلى ذلك شرعاً بدون توقّف، بل يجب إزالة هذه الظلامة على ولاة الأمور، ضاعف الله لهم الأجور والله تعالى أعلم».

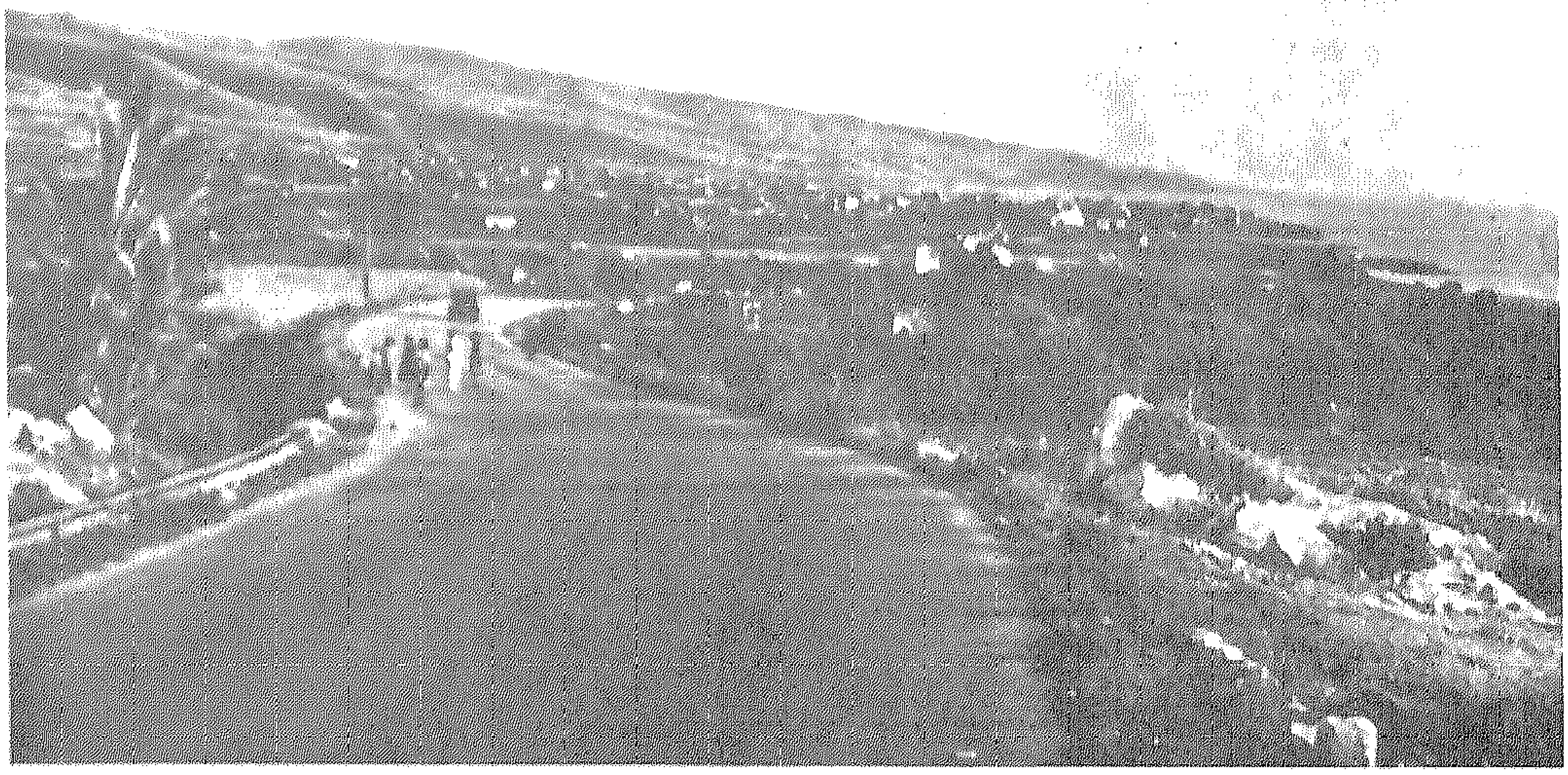

□ البترون، حيث سكن «ال غريب» مدة سبع سنين.

فاقتضى الأعراض بواقعه الحال للأعتاب الشريفه، غبّ الكشف الشرعي على ذلك، باقي الأمر لمن له الأمر.

تحريراً في اليوم الحادي والعشرين من شهر شعبان المعظم سنة إحدى وخمسين ومايتين والف».

* * *

وفي ٢٩ شعبان من السنة المذكورة، ورد إعلام ممهور من جناب قاضي أفندي، وهذه صورته حرفياً.

«قرّر جناب نقيب أفندي، بحيث والحالة هذا، وحصل الكشف، وصدر الاعلام الشرعي المتضمن به الفتوة (الفتوى) المصطر (المسطر) بهذا الجرنال، فينبغي أن يبيّض هذا الجرنال ويرسل لجناب الحاج «يوسف آغا»(١١) متسلّم طرابلس حالاً، كي يقدّمه للأعتاب السنيّه الحكمداريه، وعند صدور الأمر الشريف يصير العمل بموجبه، (والراي) لحضرات أرباب المجلس، (فصدّق) على ذلك جناب مفتي أفندي، وإبراهيم أفندي سندروسي زادة، والشيخ محمد العادلي، والحاج علي شقص، (وبقية أهل المجلس).

بنده: السيد محمد كامل (زيني) المفتي بطرابلس.

بنده: السيد محمد درويش نقيب بطرابلس.

بنده: الحاج مصطفى ضناوي.

بنده: الحاج علي شقص.

بنده: الشيخ محمد العادلي.

بنده: الشيخ إبراهيم السندروسي.

بنده: السيد مصطفى منقارة.

بنده: نصر الله زريق ــ غايب.

بنده: اسحق خلاط».

وبناء على الفتوى الشرعية فقد توقّف بناء الجامع، وامتنع الناس عن أداء الصلاة فيه، وبقيت المئذنة حتى بضع سنين غير مكتملة البناء، ونُقلت حجارتها ــ وهي من الرخام ــ إلى حمص فيما بعد، وجاء هذا الحكم العادل ليوثّق العلائق بين مسلمي طرابلس ونصرانيّها من الروم الأرثوذكس، ويحفظ لآل غريّب حقهم في

ملكية الجامع، وتجاه هذه البادرة أبقى آل غريب على بناء الجامع كما هو، تنتصب مئذنته بين ابراج الكنائس الكثيرة في حارة النصارى.

وجاء في «تاريخ آل غريب» المخطوط، لعبدالله غريّب، ما نصّه:

«إنّ الدولة العليّة لم تأذن بالصلاة فيه لمخالفة ذلك للنصوص الشرعية، وكان لعلماء طرابلس وسادتها وأعيانها تأثير عظيم يمنع إقامة شعائر الصلاة في هذا المكان الذي هُدم وأخذ ظلماً وعدواناً».

* * *

وأخيراً، باع آل غريّب الدار وأرض الجامع لاثنين من النصارى، ثم قام النصرانيان ببيع أرض الجامع لأحد المسلمين، فقام بتكملة بناء الجامع، وتم ذلك في سنة ١٩٨٢، ويعرف الجامع الآن بجامع «شرف الدين» نسبة إلى صاحبه الذي أتم بناءه بعد أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان. ●

الحواشي

(١) زادة: كلمة فارسية بمعنى «ابن» أو «ولد» وقد تقدّم اسم الأب على الابن، والمعنى الصحيح «علي بن اسعد» وهو الأسعد المرعبي، وسيأتي «عظم زادة سليمان» أي «سليمان بن العظم».
(٢) نقيب: اي نقيب السادة الأشراف.
(٣) غبّ: بمعنى «فوراً» او «مباشرة بعد».
(٤) هكذا في الأصل.
(٥) في الأصل «الكرم».
(٦) في الأصل «ذيني» بالذال، وهو تصحيف.
(٧) المحية: يقصد بها ؟رابلس.
(٨) حاكم السياسة: اصطلاح شائع بلغة السجلّات لوالي المدينة.
(٩) في الأصل «يد يدون».
(١٠) في الأصل «المذكو».
(١١) آغا: كبير، أو رئيس، بالتركية.

المصادر والمراجع

● تاريخ سورية، لجرجي يني، طبعة بيروت ١٨٨١.
● تاريخ آل غريب، نسخة مخطوطة بيد عبدالله غريب (١٩٤٠)، محفوظة لدى حفيده عبدالله غريب (طرابلس).
● الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا — للدكتور أسد رستم — المجلد ٣، منشورات الجامعة الأميركية ببيروت.
● سجل المحكمة الشرعية بطرابلس، رقم ٥٤ — لسنتي ١٨٣٥ و ١٨٣٦ — صفحة ٩٥ — حسب ترقيم «رابطة إحياء التراث الفكري في طرابلس والشال» للسجلات.
● فتوى محمد كامل زيني مفتي طرابلس — نسخة لدى السيد سالم زيني (طرابلس)، ونسخة لدى السيد عبدالله غريب (طرابلس).

● «إنّي لم استعملك على دماء المسلمين، ولا على أعراضهم، ولكني استعملتك لتقيم فيهم الصلاة، وتقسم بينهم وتحكم فيهم بالعدل».

(الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه)

ابو ذر الغفاري (؟ — ٦٥٢)

● صحابي هاجر بعد وفاة النبي إلى بادية الشام. ولما ولي عثمان سكن دمشق ودعا الفقراء إلى مشاركة الأغنياء في أموالهم فاضطرب هؤلاء فشكاه معاوية إلى الخليفة عثمان فاستقدمه إلى المدينة حيث دأب على دعوته. فأمره عثمان بالرحلة إلى إحدى قرى المدينة.

كان المجتمع الذي نشأ عن الفتوح العربية وإقامة هذه الدولة الواسعة، مجتمعاً نشيطاً ديناميكياً متنوع العناصر متعدد الثقافات. وفيه قامت حضارة ظلت قروناً طويلة مرشد العالم في حياته الفكرية والعلمية، وقد عبر الكتّاب والأدباء ورجال الدين وأهل الحكم عن التطورات التي مرت بهذا المجتمع الفريد.

والصور التي يضعها الدكتور نقولا زيادة امام القارىء في هذا المقال إن هي إلا قليل جداً من كثير جداً من اوصاف للحياة في هذا المجتمع. ولنا ملء الأمل أن يتقدم الزملاء بصور أخرى لتتكون منها اللوحة الاجتماعية الكبرى للحياة العربية الاسلامية.

صور من المجتمع العربي ٥

د. نقولا زيادة

مكة في أيام عمر بن الخطاب

شرفت مكة بأن اختيرت مكاناً لتلقي النبي الوحي من الله. ولقي الرسول فيها الكثير من العنت والجهد والاضطهاد حتى انه تركها إلى المدينة، ولحق به فيما بعد كبار الصحابة وغيرهم من المسلمين، لكن مكة اعيد لها مركزها إذ اتخذت قبلة المسلمين في صلاتهم، وظل لها المكان الذي يحج إليه. ولما تم فتحها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، عاد إليها الكثير من أهميتها في تجارتها التي كانت لها مواسمها، وعادت مركزاً من مراكز التفقه في الدين. ولكن المدينة زاحمتها كعاصمة للدولة الاسلامية والامبراطورية التي قامت على أيدي الخلفاء الراشدين.

ولما بدأت فتوح العرب في تلك الأيام نفر أهل مكة كما نفر غيرهم من أهل القبائل إلى القتال في سبيل الدين الجديد، ومن ثم فقد أسهمت في الاستشهاد كما أسهم غيرها، وعملت في سبيل بناء الدولة كما عمل غيرها، وانتشر رجالها يشغلون مناصب القيادة والادارة كما انتشر رجال غيرها. ولما أفاء الله على المسلمين أصاب مكة ما أصاب غيرها. وبذلك تدفقت الثروة إليها كما تدفقت إلى مدن الحجاز الأخرى، وضم ذلك إلى ما كانت تجنيه من تجارة، وما ينالها من مواسم الحج ولما جاء عمر بن الخطاب وفرض العطاء على ما هو معروف نال أولئك الذين كانوا فيها ما نال غيرهم.

وهكذا فإن السياسة التي اتبعها النبي من الابقاء على الحج وعكاظ، وهما موسمان هامان لها، ومن أشراك المكيين في شؤون الدولة الجديدة، ظلت السياسة التي سار عليها خلفاؤه الأدنون من بعده. إنما ارتفعت أنصبة المكيين،

□ مكة المكرمة قبلة المسلمين والمكان الذي يحج إليه

كما ارتفعت أنصبة غيرهم، لأن الفيء ازداد والغنائم كثرت، وواردات الدولة أخذت تتسرب إلى القوم عطاء وفيئاً وتجارة، وزاد على ذلك أن الأغنياء كانوا يخرجون الزكاة على الوجه الشرعي فكانت بعض أموالهم تصل إلى ايدي العامة أيضاً.

وإذا كان العرب قد تخلوا أيام النبي وبعده عن الكثير من عادات الجاهلية ومؤسساتها الاجتماعية من مثل العصبية القبلية وما تجره معها من حقائد وضغائن، فإن بعض هذه لم يلبث أن أخذ قرنه يذر ثانية، لذلك كانت سنوات خلافة عمر بن الخطاب فترة صراع جدي بين خصال الجاهلية وفضائل الحياة الاسلامية الجديدة، لا من حيث النظرة ولكن من حيث التطبيق العملي، ولا من حيث التأثر بالاسلام قوة روحية، ولكن من حيث خلق مجتمع جديد يرى في هذه القوة الروحية ومثلها أساساً لحياة جديدة. ومن هنا كانت الفترة التي ولي فيها عمر شؤون الدولة الاسلامية والمسلمين فترة هامة جداً. وعمر المشهور عنه أنه كان شديداً في الحق، كان عليه أن يشتد أكثر عندما كان يرى الخطر ملماً بالأمة الجديدة.

فما هي صفات الحياة الاجتماعية في ذلك الوقت في مكة؟ وما الذي كان يشعر به المرء إذ يسير في أسواقها وطرقاتها؟ وما الذي كان يلمسه ويراه؟

ثروة في أيدي فئة أتاحت لها مساهمتها في سابقة الاسلام ولاحقته، واشتراكها في التجارة والادارة أن تتمتع بها. وإلى ذلك كانت ثمة فئات من الناس لا تكاد تحصل على ما تتبلغ به. ولعلّ عام الرمادة، وهو العام الذي أصاب فيه القحط الجزيرة، ونال منه الحجاز أذى كبيراً مما يمثل لنا ذلك. حقاً إن قلة المواد الغذائية شملت الجميع، ولكن الفقير كان معرضاً للشر والأذى أكثر من الغني.

ولكن في الأحوال العادية كانت أسواق مكة تمتلىء بالمتاجر على تباين أنواعها واختلاف أشكالها. فهذه الأحجار الثمينة تحمل إليها من

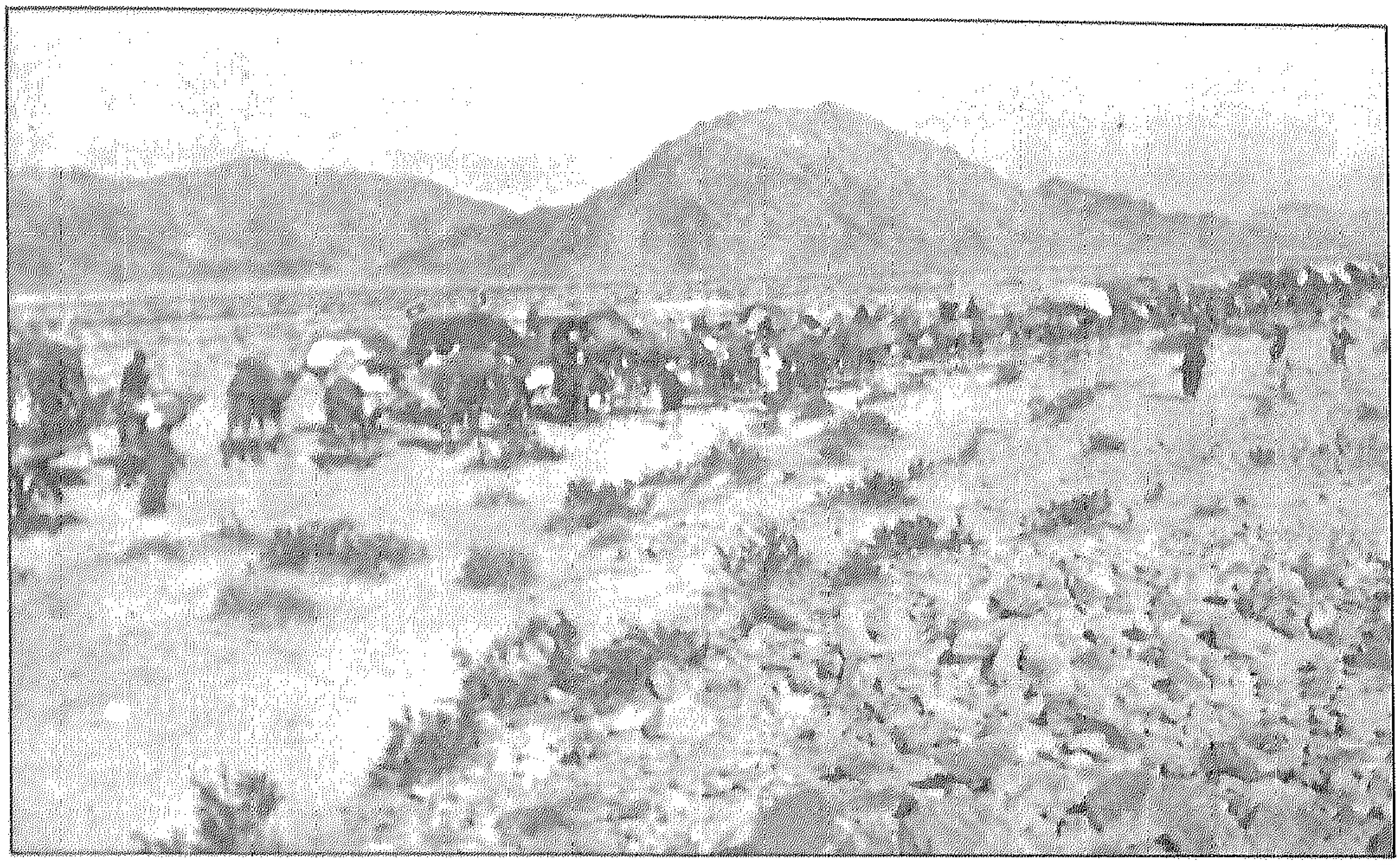

□ القوافل متجهة نحو مكة، تحمل الحجيج والبضائع المختلفة.

الهند وما وراءها، وهذا الرقيق ينقل إليها من شرق افريقية، وهذا السبي يصل إليها مما يغنمه الجيش الفاتح. وهذه البهارات لا تنقطع والبخور وعود الند يملأ الحوانيت. ففي أيدي البعض ثروة، وعندهم رغبة في الاستمتاع بالحياة، خاصة وان العطاء كان سخياً، فلماذا لا يقبلون على الشراء، ولماذا لا يقبل التجار على البيع؟

وهذا موسم الحج. فيه يتنادى المسلمون إلى زيارة البيت الحرام، وفيه يقبلون من أنحاء البلاد التي قبلت الدين الحنيف أداء للفريضة، فما الذي كان المار في أسواق مكة يشعر به في مثل هذه الأحوال؟

إيمان عميق تراه وقد ران على قلوب الجميع، سكاناً أصليين وزواراً، وتمسك بأهداب آداب الحج والزيارة، وأخذ بالابتهال إلى الله تعالى توبة واستغفاراً، وقيام بالليل تعبداً وتقرباً إلى العلي القدير. وكل هؤلاء الحجاج لا بد أن تقضي لهم حاجات من طواف ومأكل ومقام، ولذلك فأهل مكة في دوران وعمل في سبيل أن يقدموا ما يحتاجه الناس. ولم يكن الحجاج بعد قد اعتادوا على نقل البضائع إلى مكة في هذه المواسم، لذلك كانت حوانيت البلد يتوجب عليها أن تقدم لهم حاجاتهم جميعها.

وفي موسم الحج كان عمر يأتي مكة لا حاجاً فحسب، ولكنه كان يأتي ليتخذ من هذا الموسم فرصة لضرب المثل الصالح للحجاج كي يحملوا معهم إلى بلادهم القدوة الحسنة من الرجل الذي كان يتولى أمورهم لكنه يشتد على نفسه كما كان يشتد على أصغر رجل في الأمة. يضاف إلى ذلك أنه كان يفيد من الموسم هذا في أن يعقد مؤتمراً للعمال القائمين على إدارة الولايات ليطلع منهم على أخبارها مباشرة، وليقدم لهم النصح والارشاد، أو ليجزرهم ويعنفهم أن عرف منهم أو عنهم أنهم أساءوا التصرف. وقد جاء في كتاب «الفاروق عمر» للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكل قوله:

«وكان عمر يجمع عمّاله بمكة في موسم الحج من كل عام، يسألهم عن أعمالهم، ويسأل الناس عنهم، ليرى مبلغ دقتهم في الاضطلاع بواجبهم وتنزههم حين أدائه عن الافادة لأنفسهم أو لذويهم، فقد كانت النزاهة مقدمة عنده على

كل شيء. ولذلك كان يحصي أموال الولاة قبل ولايتهم، فإذا زادت بعدها زيادة تضع نزاهتهم موضع الشبهة، قاسمهم مالهم، وقد يستولي على كل زيادة فيه، ثم يقول لهم: نحن إنما بعثناكم ولاة لم نبعثكم تجاراً».

ولكن هل اقتصرت الحياة في مكة في أيام عمر على ثروة وتجارة وحج وعبادة؟ لا فقد كان فيها بعض أهل العلم الذين كانوا يقرأون القرآن ويفسرونه للناس، وكان فيها من يروي الأحاديث ويشرحها للحاضرين، وكان ثمة مجاورون يقضون بعض الوقت هناك في التعلم والأخذ.

وكان في مكة شيء كثير من متع الحياة. ولعلّ أشيعها في ذلك الوقت الغناء. وكان موقف عمر منه موقف من أدرك قيمة مثل هذا الشيء من ألوان المتاع السائغ عند قومه. فالعرب كانوا يحبون الغناء إقامة وسفراً، والصوت الرخيم كان ينعشهم دوماً، وقد شاع هذا بين بدوهم وحضرهم. وكانت مجالس الغناء تعقد في مكة والمدينة. وقد نقل الدكتور هيكل رواية فيها توضيح لموقف عمر من هذه القضية. قال:

«وكان عمر نفسه، على ما عرف من شدته وغلظته، يطرب للغناء ويردده أحياناً. خرج رهط من الشبّان في ركب فيه عمر وعثمان وابن عباس، وفيه رباح الفهري الذي كان يجيد الحداء والغناء. فلما أمسوا سأل الشبان رباحاً أن يحدو لهم فأبى وقال: مع عمر؟ قالوا: احد، فإن نهاك فانته فحدا فلم يعترض عمر، بل طرب لسماعه. فلما كانت ساعة السحر قال له كفّ! هذه ساعة ذكر. وسأل الشبان رباحاً في الليلة الثانية أن ينصب لهم نصب العرب، وقالوا له حين أبى خوفاً من عمر: انصب فان نهاك فانته. وسمع له عمر حتى ساعة السحر ثم قال له: كفّ! فإن هذه ساعة ذكر. وسأل الشبّان رباحاً في الليلة الثالثة أن يغنيهم غناء القيان، فلم يكد يبدأ حتى صاح به عمر: كفّ فإن هذا ينفّر القلوب!.

بغداد في أيام الرشيد

● أراد أبو جعفر المنصور أن يكون لدولته، التي انشأها أبو العباس السفاح، عاصمة تعبر عن وجودها، بعد أن ملّ إفساد الكوفة لجنده وتدخل أهل واسط في شؤونهم، فبنى بغداد سنة ١٤٥ للهجرة.

وبنى المنصور مدينته مدورة حتى تكون الرعية، على طبقاتها، على أبعاد متساوية من الجامع والقصر اللذين كانا يتوسطان المدينة. وكانت أسواق المدينة في وسطها.

لكن الأسواق لم تلبث أن نقلت إلى الكرخ، وهي الضاحية الأولى لعاصمة العباسيين. ذلك أن المنصور أراد أن يوسع الشوارع في الداخل، كما أنه رغب في تقليل الضوضاء في وسط العاصمة.

وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على أن الأسواق كانت عامرة بالمتاجر والحوانيت، ويكثر فيها الباعة والمشترون. ولا غرابة في ذلك. فقد كانت عاصمة دولة الخلافة، بمن فيها من أهل الادارة والقضاء وبمن فيها من الجند. ومن ثم فإنك تجد في أسواقها بضائع الصين — خزفاً وحريراً ومسكاً، ومتاجر الشمال عسلاً وشمعاً وفرواً وعبيداً وبضائع الهند — جواهر وطيباً وعطوراً وافاوية ومعادن وأصباغاً، ومتاجر الشام — قماشاً وفواكه وزجاجاً وأدوات معدنية، وبضائع افريقية — عاجاً وتبراً وعبيداً، وغلات فارس عطوراً وبقلاً، ومنتوجات ارمينية — خشباً وحديداً مصنوعاً. وحاصلات مصر أرزاً وحنطة وكتاناً.

وإذا صح هذا والدولة العباسية بعد تتلمس طريقها في أيام المنصور، فإنه ولا شك أمعن في الصحة بعد أن اطمأن العباسيون إلى دولتهم وكيانهم في أيام الرشيد، وانهالت على

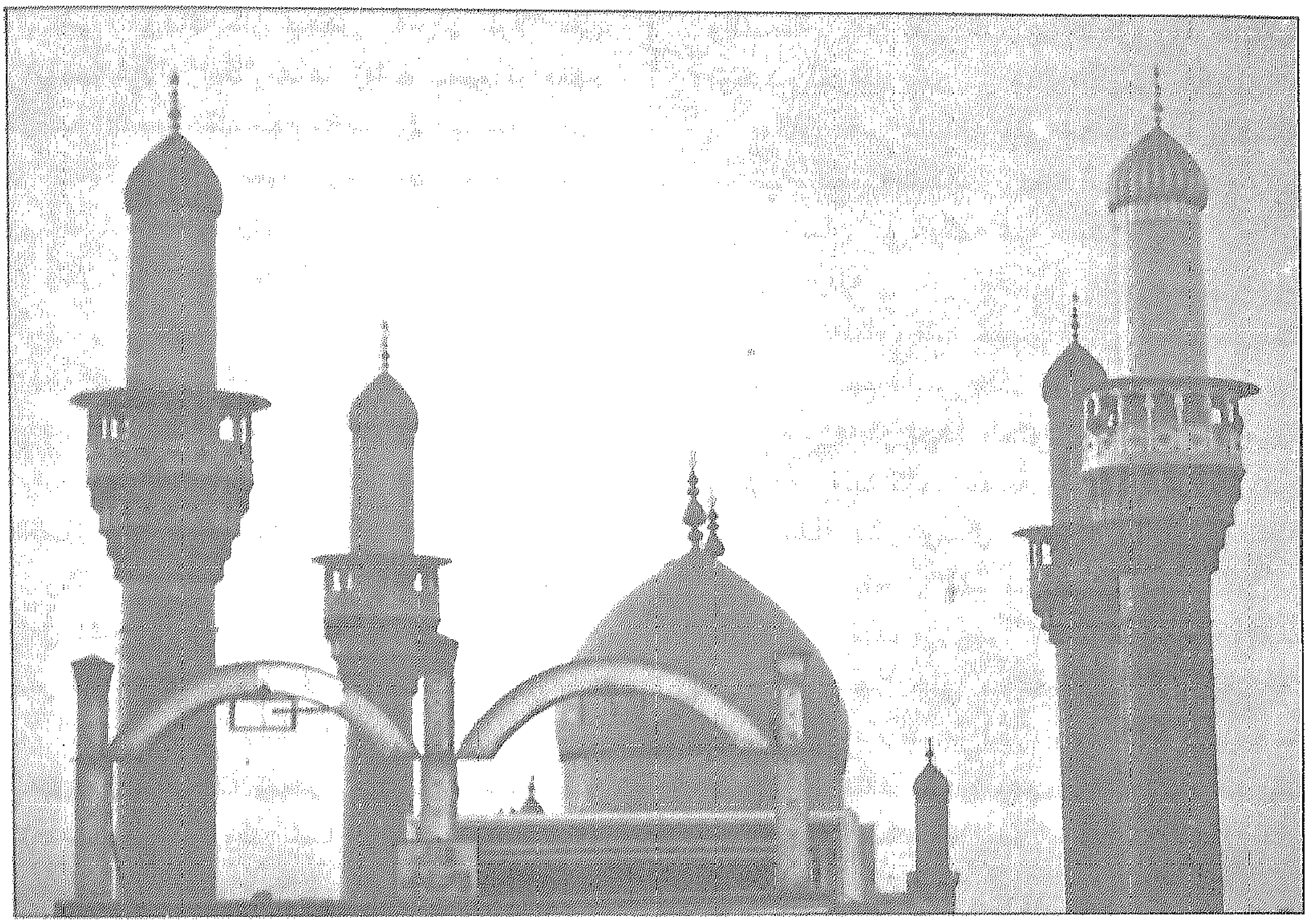

□ بغداد العباسية، مدينة المنصور.

العاصمة ثروة كبيرة من هذه الرقاع الواسعة التي قبلت سيادة العباسيين، ألم يشر الرشيد على غيمة مرت به ويقول لجلسائه فلتذهب حيث شاءت فإن خراجها لا بد أن يصل إلى يدي؟

وها نحن أولاً نختار بغداد في أيام الرشيد فما الذي نراه فيها، وما الذي تقع أعيننا عليه؟.

هذه دور بغداد غير الرسمية، أي البيوت التي يقطنها الناس عادة، تبنى على شكل يكاد يكون واحداً. فبين البيت والشارع دهليز مسقوف، يفضي إلى صحن واسع قائم الزوايا عرضه يبلغ ثلثي طوله، وتتصل به القاعة الكبرى وحولها غرف صغيرة. وتحيط بالصحن غرف مربعة متجاورة تستعمل للسكن والمرافق المنزلية المتنوعة. وتشمل الدور على الآبار، وقد يغلب عليها الحمامات. ونجد الدور من طابق واحد. في الصغير من هذه الدور يسكن متوسطو الحال من أهل بغداد. وقد ذكر صاحب مصارع العشاق أن الرجل وزوجته من عامة الناس كان يكفيهما ثلاثمئة درهم في السنة لمعيشتهما. وقد روى أنه في أيام المنصور كان الكبش يباع بدرهم واحد، والحمل بأربعة دوانق. وقد كان باستطاعة المرء أن يبتاع ستين رطلاً من التمر بدرهم، ويمثل هذا المبلغ الضئيل كان يشتري الرجل ستة عشر رطلاً من الزيت أو ثمانية أرطال من السمن. فالمعيشة كانت رخيصة، وكانت في الحياة وسعة والمال وفير والعمل كثير.

والذي ينتقل في أسواق بغداد كانت عيناه تقعان على أنواع السلع جميعها على نحو ما ذكرنا. لكن السوق التي لفتت نظر الكثيرين وتحدث عنها الكتاب هي سوق البطيخ. والواقع أن هذه السوق كانت تباع فيها الفواكه بأنواعها، إلا أن البطيخ كان أشيعها استعمالاً ولعل السبب يرجع إلى أن هذا النوع من الفاكهة كان كثيراً، وهو أبقى من غيره على تقلبات الطقس بسبب ثخن قشره. ويبدو أن بغداد كانت فيها أربعة أسواق للبطيخ، كانت أكبرها سوق الكرخ،

بسبب ازدحام عامة الناس في هذه الضاحية. إذ ان بغداد المنصور المدورة أصبحت في أيام الرشيد يقطنها الأثرياء ورجال الدولة بعد أن وسعت جادتها وطرقها.

وكان المار ببغداد يرى فيها من الخدم أربعة انواع هم الصقالبة والسودان والروم والصين. وفيهم جميعاً الخصيان. ومنذ أن أمر المنصور

□ سوق قديم في بغداد العباسية.

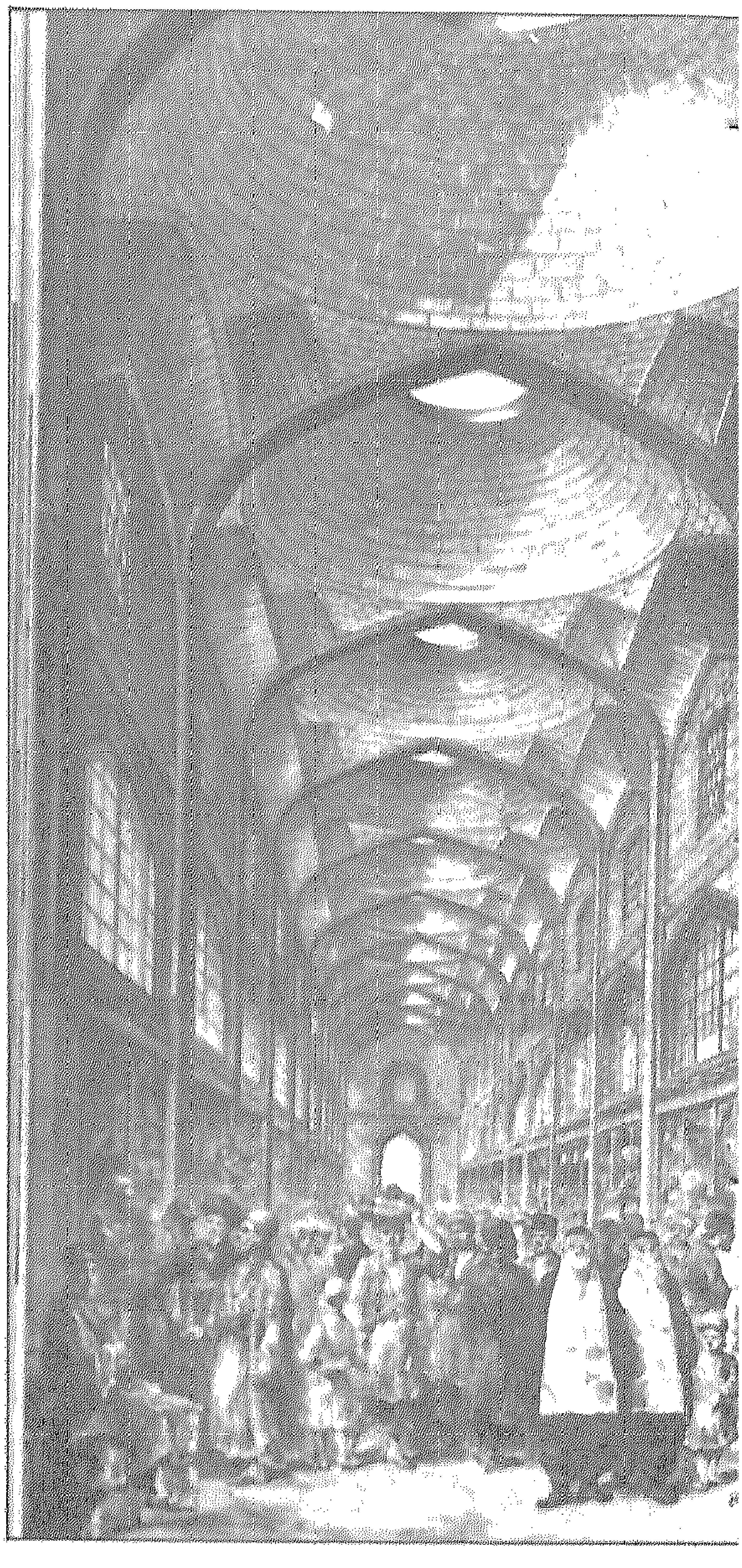

بلبس القلانس الطوال أصبح هذا زي أهل الثراء.

وإذا مر بك رجل يلبس الثياب المصبغة عرفت أن فيه شذوذاً عن عادة البغداديين. إذ ان سراة الناس كانوا يلبسون الثياب البيض. وإذا كان المرء يلبس الأزرق فهو في حالة حداد. وإذا كان الرجل يلبس الدراعة فهو من الكتاب، وإذا لبس الطيلسان فهو من العلماء. أما القواد فكانوا يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة. وكانت الجوارب يلبسها الرجال والنساء على السواء. وكانت العامة تلبس الخفاف الحمر، لكن الخاصة كانت تعتبر لبسها معيباً.

كانت أوقات الفراغ يصرفها أصحاب الثروات في مجالس الغناء والشراب ولعب الشطرنج أما عامة الناس فكانوا يلعبون النرد وقد يلعب ذلك للكسب. وقد يتاح لهم سماع الغناء في اماكن خاصة بذلك.

كان أكثر شرب أهل بغداد من ماء دجلة. وكان السقاؤون يأخذونه اما من النهر رأساً أو من مواضع تحمل الماء إليها نهيرات صغيرة. وكانت ثمة قناتان يجري فيهما الماء إلى المدينة وكلاهما مغطاة ومحكمة العقد. وقد شوهد أحد سقاة الماء مرمياً بباب صاحب الأمر مقيداً فمر به رجل متزر بمنديل مصري، معتم بمنديل دبيقي بيده كيزان خزف رقاق وزجاج مخروط فسأل عنه فيما إذا كان ساقي الحاكم، فقيل له انه ساقي العامة. فأومأ إليه طالباً ماء، فتقدم وسقاه فشم من الكوز رائحة مسك، فأراد صاحبه على أن يدفع له ديناراً لكن الساقي ابى وقال: «أنت أسير، وليس من المروءة أن آخذ منك شيئاً».

وكان الحمار شائع الاستعمال للتنقل داخل المدينة في بغداد. وكان اكبر محمل يقف فيه الحمارون بحميرهم عند باب الكرخ. وكان التنقل بالقوارب في بغداد مألوفاً. وكانت شوارع بغداد يشرف عليها أصحاب الشرطة، وكانوا يقومون بالطواف طوال الليل إلى صلاة الفجر.

مع ابن حوقل في صقلية

● في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي زار ابنُ حوقل، الجغرافيُ العربي المشهور، جزيرة صقلية. وقد ترك وصفاً ممتعاً لهذه الجزيرة التي كانت تحت حكم العرب آنذاك. قال الرحالة الجغرافي:

ومن مدنِ صقلية المدينةُ الكبرى المسماةُ بلرم، وعليها سورٌ عظيم من حجارة، شامخٌ منيع، يسكنها التجار. وفيها مسجد الجامع الأكبر، وكان بيعة للروم قبيل فتحها. وتجاهها مدينة تعرف بالخالصة ذات سور من حجارة، وليس كسور بلرم. يسكنها السلطانُ واتباعه، وفيها حمامان، ولا أسواقَ فيها ولا فنادق، وفيها مسجد جامع صغير مقتصد. وبها جيشُ للسلطان، ودارُ صناعة للبحر، والديوان. ولها أربعةُ أبواب من قَبولها ودبورها، وغربَها وشرقَيها البحر، وسور لا باب له. وثمة حارة تعرف بحارة الصقالبة، وهي أعمر من المدينتين اللتين ذكرتهما وأجل؛ ومرسى البحر بها. وبها عيون جارية بينها وبين صقلية، ومياه كالحد بينهما. وحارةٌ تعرف بحارة المسجد المعروف بابن سِقلاب، وهي كبيرة أيضاً، وليس بها مياهٌ جارية، وشربُ أهلِها من الآبار، وعلى طرفِها الوادي المعروفُ بوادي عباس، وهو عظيم كبير. ومطاحنهم عليه كثيرة وبساتينُهم وأجنتهم غيرُ منتفعةٍ به. والحارة الجديدة وهي كبيرة تقارب حارة المسجد، وليس بينهما فرق ولا فاصلة ولا عليهما ولا على حارةِ الصقالبة سور. وأكثر الأسواق فيما بين مسجد ابن سِقلاب والحارة الجديدة: كسوق الزياتين بأجمعِهم والدقاقين والصيارفة والصيادنة والحدادين والصياقلة، وأسواقِ القمح والطرازيين والسماكين والأبزاريين. وثمة أيضاً أسواقُ طائفةٍ من القصابين وباعةِ البقل وأصحابِ الفاكهة والريحانيين والجراريين والخبازين والجداليين.

وثمة طائفة من العطارين والجزارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضاشريين والخشابين خارج المدينة. وببلرم طائفةٌ من القصابين والجرارين والأساكفة، وبها للقصابين دون المائتي حانوت لبيع اللحم، والقليل منهم في المدينة برأس السماط ويجاورهم القطانون والحلاجون والحذاؤون، وبها غير سوق صالح. ويدل على قدرِهم وعددِهم صفةُ مسجد جامِعهم ببلرم، وذلك أني حزرت المجتمع فيه إذا غص بأهله بلغ سبعة آلاف رجل ونيفاً لأنه لا يقوم فيه أكثر من ستة وثلاثين صفاً للصلاة وكل صف منها لا يزيد على مائتي رجل.

وبصقلية من المساجد في مدينة بلرم والمدينة المعروفة بالخالصة والحارات المحيطة بها من وراء سوريهما، عامرة أكثرها قائمة على عروشها بحيطانها وأبوابها نيف وثلاثمائة مسجد، يتَواطأ أهلِ الخبرة منهم في علمها، ويتساوون في معرفتها وعددها. وبظاهرها، مما حف بها ولاصقها، وبين اجنَّتِها وابراجِها، محالُ كانت متصلةً بالاقرب فالأقرب منها على الوادي المعروف بوادي عباس، ومجاورةً للمكان المعروف بالمعسكر في ضمن البلد متبددةً في فحص عباس، وبعضُها في إثر بعضٍ إلى المنزل المعروف بالبيضاء، وهو قرية تشرف على المدينة، وبينهما نحو نصف فرسخ.

وكنت ذكرت أحوال الخالصة وأبوابَها وما فيها، ولم أذكر بلرم وهي المدينة القديمة. وأشهر أبوابها بابُ البحر، وسمي بذلك لقربه من البحر، ويليه باب أحدثه أبو الحسين احمدُ بنُ الحسن لشكوى أهل هذه الناحية بعد مخرجهم، فعمله على نشز مطل على نهر وعين تدعى عين شفاء، وبها يعرف هذا الباب وقتَنا هذا. ثم باب يعرف بشنتغات وهو باب قديم وإليه باب يعرف بباب رَوْطة، ورَوْطة نهر كبير يُهْبَطُ من هذا الباب

هذا المبنى القديم في «بالرمو» عاصمة صقلية
كان مسجداً إبان الفترة الإسلامية في تاريخ
الجزيرة المتوسطية

□ منزل قديم في «بالرمو» عاصمة صقلية كان مسجداً خلال الحكم ا

إليه، وأصله تحت هذا الباب، وفيه ماء صالح عليه أرحيةٌ كثيرةٌ متقاطرةٌ. ثم بـابُ الرياض وهـو أيضاً محـدث استحـدثـه أبـو الحسين أحمدُ بن الحسن. كان بجواره بابٌ يعرف بابن قُرْهُب في موضع غير حصين. وكانت المدينة قوتلت عليه قديماً، فدخل على أهلها منه معرةٌ وضـررٌ جسيم، فسـده أبـو الحسين وازاله. وبجواره باب الأنباء وهو أقدم أبوابها، وإليه باب السودان تجاه الحدادين ثم باب الحديد ومنه المخـرج إلى الحارة المجـاورة. وإليـه بـاب استحـدثه أبـو الحسن أيضاً ولم يسم بـاسم ويخرج منه إلى حـارة أبـي جَمِين، وجميعها تسعة أبواب. وهذه المدينة مستطيلةٌ ذاتُ سوقٍ قد أُخِذَ من شرقِها إلى غربِها، يعرف بالسِماطِ مفروشٌ بالحجارة، عامـرٌ من أوله إلى آخره، بضروب التجارة، ويطيف بها عيون كثيرة منصبة من غربها إلى شرقها، ويكون مقدارها ما يدير رَحى وعلى مائها غير رحى تطحن في غير مكان. ويجاور مصبَ ماءِ هذه العيونِ، من حيث بدوء مسيلها إلى حيث مصبها في البحر، أراضٍ كثيرة، تَغْلُبُ عليها السِباخُ، وآجامُ فيها قصبٌ فارسي وبحائـر ومقاث صـالحة. وفي خـلال أراضيهـا بقـاعٌ قـد غلب عليهـا البـربيـر، وهو البَرديُ المعمول منه الطوامير، ولا أعلم لما بمصرَ من هذا البربيـرِ نظيـراً على وجه الأرض إلا ما بصقلية منه، وأكثره يفتل حبالاً لمـراسي المراكب، وأقله يعمـل للسلطان منه طواميرُ القراطيس، ولن يزيدَ على قلة كفايته.

تونس في أيام الحفصيين

● ورثت تونس قرطاجة. أورثها مكانها تقريباً ومكانتها الأغالبة إذ اتخذوا منها دار صناعة. وأدركت هي أهمية المكان والزمان فلبست لكل حالة لبوسها، ودارت بالجامع الأعظم يتوسـط القلب منها، فكانت حوله أسواقهـا وجاداتهـا الكبرى ــ أي مراكـز البيع والشـراء وسبيل التنقـل. وتقلب عليهـا من الدول الكثيـر من صنهاجة إلى العبيديين إلى الموحدين، حتى جاء الحفصيون فأخذوا بيدها وحمت ذمارهم، ورفعوا اسمها فحفظت شعارهم. بحيث أصبح الاسمان ــ تـونس والحفصيـون ــ صنـوين. والدولة الحفصية طال في تونس أمدها ثلاثة قرون من مطلع الثالث عشر إلى مختتم الخامس عشر. وبذلك أتيح للصحبة أن تثمر. مر بها العبدري فقـال عنها انهـا كانت ملتقى الركـاب سواء أصحروا في موكب أم أبحـروا في مـركب، وأرجاؤها رياض جليت بها الغروس وانتشرت فيها أنواع الفواكه المختلفة.

وهذه الأسواق التي كانت تدور بـالجامـع الأعظم، أي جامع الزيتونة، إنما تدل أسماؤها على أفعالها، وإن كانت سقوفها تحاول إخفاء أحمالها. فسوق العطارين كانت تباع فيه الأفاوية والعـطور والبخور. فـإذا أراد الرجـل شـراء القمـاش انتقل إلى سـوقه، حيث كـان البيع بالمفرق. أما إذا كان المشتري تاجـراً يريـد الابتياع بالجملة قصد القيصريـة. وثمة سوق الغزل وسوق الجبـة وسوق الصـاغة وسـوق الكتبية. وكل من هذه الأسواق الأخيـرة كان يختص لا ببيع المنتوج فقط ولكن بصنعه. وإذا تذكرنا ما كانت تشغله هذه الأسواق من مسافات عرفنا مدى انتشار الصناعات هناك. وعلى مقربة من الجامع كانت تقوم حوانيت العدول الذين كانوا أعواناً للناس في تقديم ظلاماتهم للقضاة، وتدوين العقود فيما بين المتعاقدين.

هذه الأسواق كلها كان يعمل فيها التوانسة. أمـا التجار المسيحيون، وهم أجـانب بطبيعـة الحال، فكانوا يقيمون على مقربة من باب البحر غربـي المدينة، حيث بنيت الفنادق التي كانوا

□ صناعة الخرف في اسواق تونس.

يؤمونها كل بحسب بلاده. وهذه الفنادق كان يفصلها عن دار الصناعة الحفصية منتزه متسع كان يفد إليه المهرجون والزمارون والطبالون عند الأماسي حيث كان الناس يخرجون للنزهة، فيسر هؤلاء ويتعيش أولئك.

على ان الفنادق هذه كانت تكاد تقتصر على التجار المسيحيين الطارئين. لكن كان ثمة فئة من التجار المسيحيين المقيمين إقامة دائمة في تونس بسبب المعاهدات التي عقدها الحفصيون مع المدن التجارية الكبرى ــ جنوه والبندقية وبيزا وغيرها. هؤلاء كانت بيوتهم في جنوب المدينة الشرقي فيما سمي «ربض النصارى».

وتونس الحفصيين لم تكن مدينة صناعة وتجارة وثراء فحسب، بل كانت مركز علم وثقافة ايضاً. فقد قال عنها العبدري الرحالة انك لا تنشد ضالة للعلم إلا وجدتها ولا تلمس بها

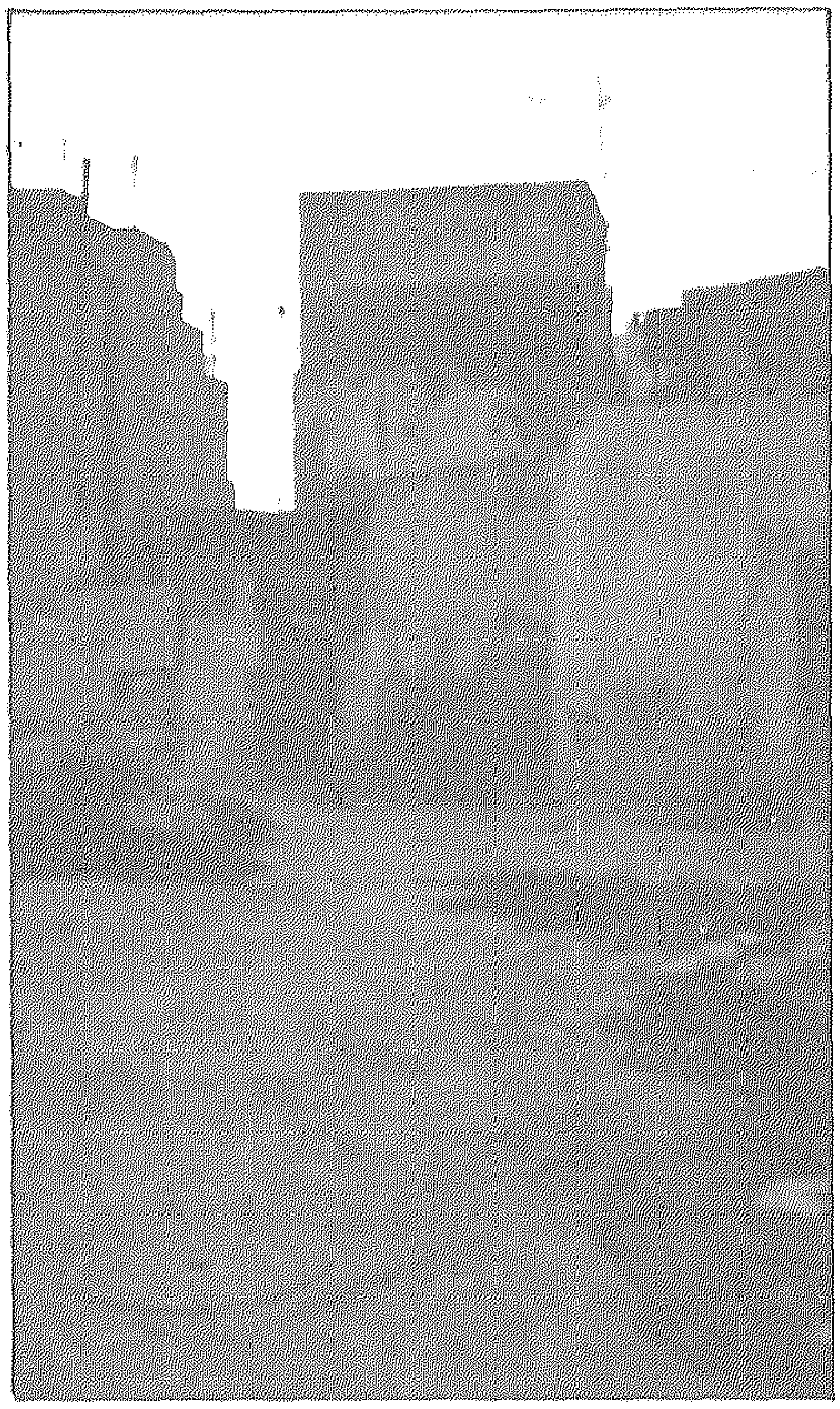

□ مساكن حفصية في تونس.

بغية إلا استفدتها. وكل فن من فنون العلم قائم بتونس.

ويبدو أن أهل تونس كانوا في ذلك الوقت ــ كما هم إلى الآن ــ أهل لطف وإيناس لا يستشعر المرء في بلدهم غربة.

وقد وفد على تونس، في أواخر عهد الحفصيين، عدد كبير من أهل الأندلس. فأدخلوا إلى البلاد مزيداً من العناية بالحدائق والبساتين. واتسعت المدينة بحيث أنه كان يقطنها، على حسب ما وصل إلينا، بضع مئات من الآلاف.

وكان أهل هذه المدينة دوماً شديدي العناية بالثوب الأنيق والنزهة اللطيفة والتزين بالزهور، وهي عادات لا يزال الزائر لتونس يشاهدها ويلمسها إلى يوم الناس هذا.

وقد أشار أكثر من رحالة إلى مطعوم

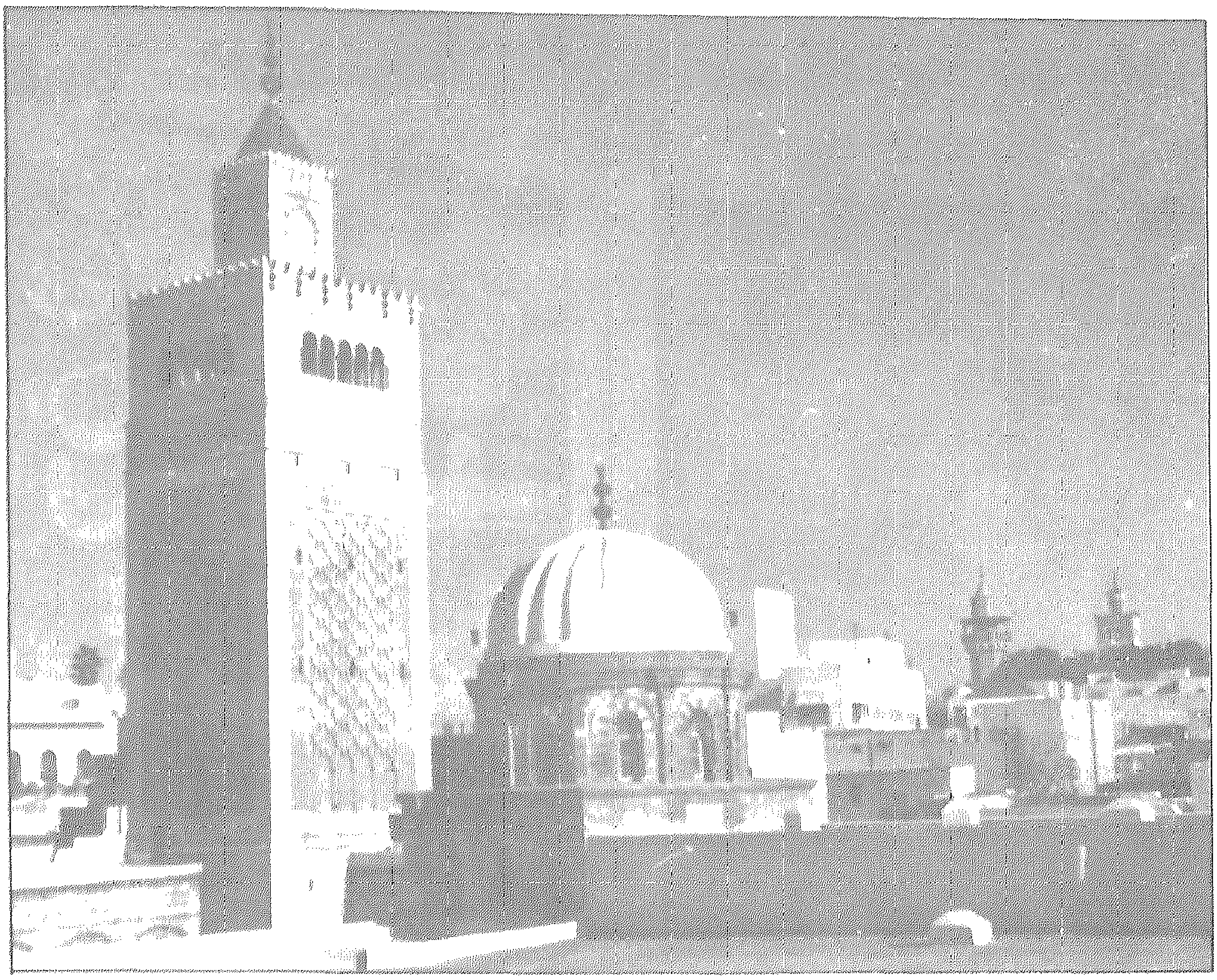

□ جامع الزيتونة في تونس.

التونسيين وعنايتهم بالتأنق في مأكلهم ومشربهم. ولننقل وصفاً لنزهة في ضاحية من ضواحي المدينة تركه لنا الرحالة عبدالباسط بن خليل إذ زار تونس سنة ٨٦٦ للهجرة (سنة ١٤٦٢ للميلاد). قال الرحالة:

«وفي يوم الأحد سابع عشرينه (ربيع الأول) جمع التاجر العظيم الخواجا الحاج أبو القاسم... نزيل تونس وكبير التجار بها جماعة من أعيان التجار من أصحابه والحجاج وعمل لهم ضيافة حافلة بمكان من أجنة تونس يقال له رأس الطابية... وكنت في ذلك اليوم ممن دعي لهذه الضيافة، فرأيت هذا الجنان في غاية الاتقان والحسن... وبه بركة ماء عظيمة كبيرة جداً... ثم هيأوا من جملة هذه الضيافة مأكولاً يقال له المجبنة من مآكيل الأندلس. وصفته جبن طري يدعك بالأيدي حتى يصير كالعجين. ثم يعجن السميد عجناً محكماً مملوكاً جيداً حتى يصير في قوام عجين الزلابية أو أغلظ قواماً منه بيسير. ثم يؤخذ منه قطعة تبسط بالكف بلطافة ولباقة ثم يجعل عليها قطعة من الجبن المدعوك، ويجمع حتى يصير الجبن حشواً لها ثم يبسط قليلاً ثم يلقى في الطاجن وهو على النار بالدهن، فيقلى ثم يرفع ويرش عليه السكر المدقوق ناعماً ومعه اليسير من الكمون. وعمل ذلك بين يدي الحاضرين، وتولى عمله بعض من الجماعة من ظرفائهم، وكان يوماً معدوداً... اجتمع فيه عدة من طلبة العلم والتجارة، وحصلت مذاكرات علمية أدبية تاريخية إلى غير ذلك».

وتونس الحفصيين لا تزال حية في تونس اليوم بجامعها ومعاهدها وأسواقها وجاداتها وذوقها وظرفها.

مراكش في أيام الموحدين

● قامت دولة المرابطين في جنوب المغرب أوائل القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد)، وفي أواسط القرن استفحل أمر يوسف بن تاشفين. فلما رسخت في الملك قدمه، سمت همته إلى بناء مدينة يتخذها مستقراً لجنده ومركزاً لملكه. فبنى مراكش لكنه لم يُدِر سوراً حولها. فكان ذلك من عمل ابنه علي.

على أن علي بن يوسف لم يكتف بأن أدار سوراً حول المدينة بل انه بنى مسجداً جامعاً كبيراً وأقام لنفسه قصراً. ودارت بالمسجد والقصر أسواق، وانتظمت هذه الأسواقُ الصناعات والمتاجر، ثم كثر التجار فعملت لهم قيصرية كبيرة وانشئت فنادق يأوي إليها التجار الغرباء عن المدينة.

ولم يطل أمد المرابطين. فقد جاءهم الموحدون وقد دبر ابن تومرت دعوته ونظم لهم الادارة. فلما توفي وخلفه في الحكم ابن عبدالمؤمن بدأت مراكش بالتوسع. ولما انتهى الأمر إلى المنصور، وكانت مملكة الموحدين قد شملت شمال افريقية بأجمعه وأكثر اسبانية الاسلامية، تدفقت الثروة إلى العاصمة. وأراد المنصور لعاصمته أن تكون عظيمة حرية بدولة إسلامية كبيرة، فانتقل إلى جنوب المدينة الأصلية حيث عمر قصبة جديدة اختص نصفها بقصوره وقصور أبنائه وأحفدته. وجعل فيها مسجداً جامعاً كبيراً وقيصرية ضخمة وأسواقاً تُحمَلُ إليها المتاجر من السودان جنوباً ومن اسبانية وغيرها شمالاً. وانتعشت حركة البناء بقدوم أصحاب الفن والمعمار من اسبانية، وزادت الصناعات نشاطاً وازدهاراً. فكانت المصنوعات الجلدية والفخار والذهب والفضة في مقدمة ما تنتجه المدينة. وكان السكر ينقى في مراكش بحيث انه كان فيها أربعون معصرة لقصب السكر الذي كان يحمل إليها من منطقة نفيس. وكانت المدينة تعج بالبنائين والحدادين والنجارين المهرة الذين كانوا يلبون حاجات المجتمع والقصر الملكي. والمنبران والمحرابان في جامع الكتبية وجامع الموحدين من خير ما صنع في دنيا العرب وأجمله.

وقد كانت المياه متوفرة في المدينة. فالمياه الجوفية كانت كثيرة. إلا أن الموحدين نقلوا الماء من أغمات في قني ضخمة.لذلك كثرت البساتين الواسعة كبستان المسرة الذي كان يحتوي أصنافاً منوعة من الأشجار والفواكه والزهور. بحيث أن دخْلَ شجر الزيت المستخرج من زيتونه كان يقدر بثلاثين ألف دينار في العام الواحد. وكان في كل بستان حوض عظيم متسع يستعمل للسباحة ولتدريب الجند عليها.

وكان لجامع الكتبية منارة عالية، لا تزال قائمة إلى الآن، يزيد ارتفاعها عن المئة من الأمتار. وكان يحيط به من الحوانيت الكثير، لكن اكثرها كان للوراقين وهم باعة الكتب والورق وما إلى ذلك. وقد قدرت دكاكين الكتبيين وحدها بنحو مئتين.

عني الموحدون بالعلم والتعليم. ذلك انهم كانوا بحاجة إلى معلمين ووعاظ وشراح لمذهب ابن تومرت وإداريين وكتاب وموظفين وأئمة للمساجد الكثيرة. وقد كان في أيام عبدالمؤمن عدد كبير من الطلاب يقسمون إلى فئات ثلاث:

١ ــ الطلبة أبناء الأمراء يتعلمون في مدرسة الأمراء الملوكية ليترسم بعضهم إلى الوظائف الملوكية العليا من الامارة إلى الوزارة.

٢ ــ الطلبة المصامدة الذين هم من قبيلة مصمودة البربرية قبيلة الموحدين. وهؤلاء يزيدون عن ثلاثة آلاف يتعلمون في المدرسة الادارية تعلماً خاصاً ليتخرجوا في وظائف الدولة.

٣ ــ طلبة الحضر أو البلدية أي طلبة

المدن وهم يتعلمون في بعض الوظائف الشرعية دون الوظائف الادارية المخزنية.

ولكل صنف من الثلاثة رئيس أو مقدم أو مزوار يسمى سلطان الطلبة ينتخب على عام عادة .

ومثل عناية الموحدين بالعلم كانت عنايتهم بالأدب والفلسفة والفقه والشعر. فقد كان في بلاطهم ابن رشد وابن طفيل الفيلسوفان وابن زُهر الطبيب وغيرهم. وكانت المساجد ودور العلم كثيرة. وكان الطلاب يقيمون في مدارس خاصة ينفق عليها من بيت المال.

واهتم الموحدون بصحة السكان — فقد بنى المنصور مستشفى كبيراً في مراكش وصفه صاحب المُعْجِب بقوله:

«وبنى المنصور بمدينة مراكش مارستانا ما أظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه تخيّر ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسطه، إحداها رخام أبيض. ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجاً عما جلب إليه من الأدوية. وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نَقَهَ المريض فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنياً دفع إليه ماله وتركه وسببه ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت. . وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل البيت، يقول: كيف حالكم

□ رواق في مدرسة ابن يوسف الأثرية في مراكش.

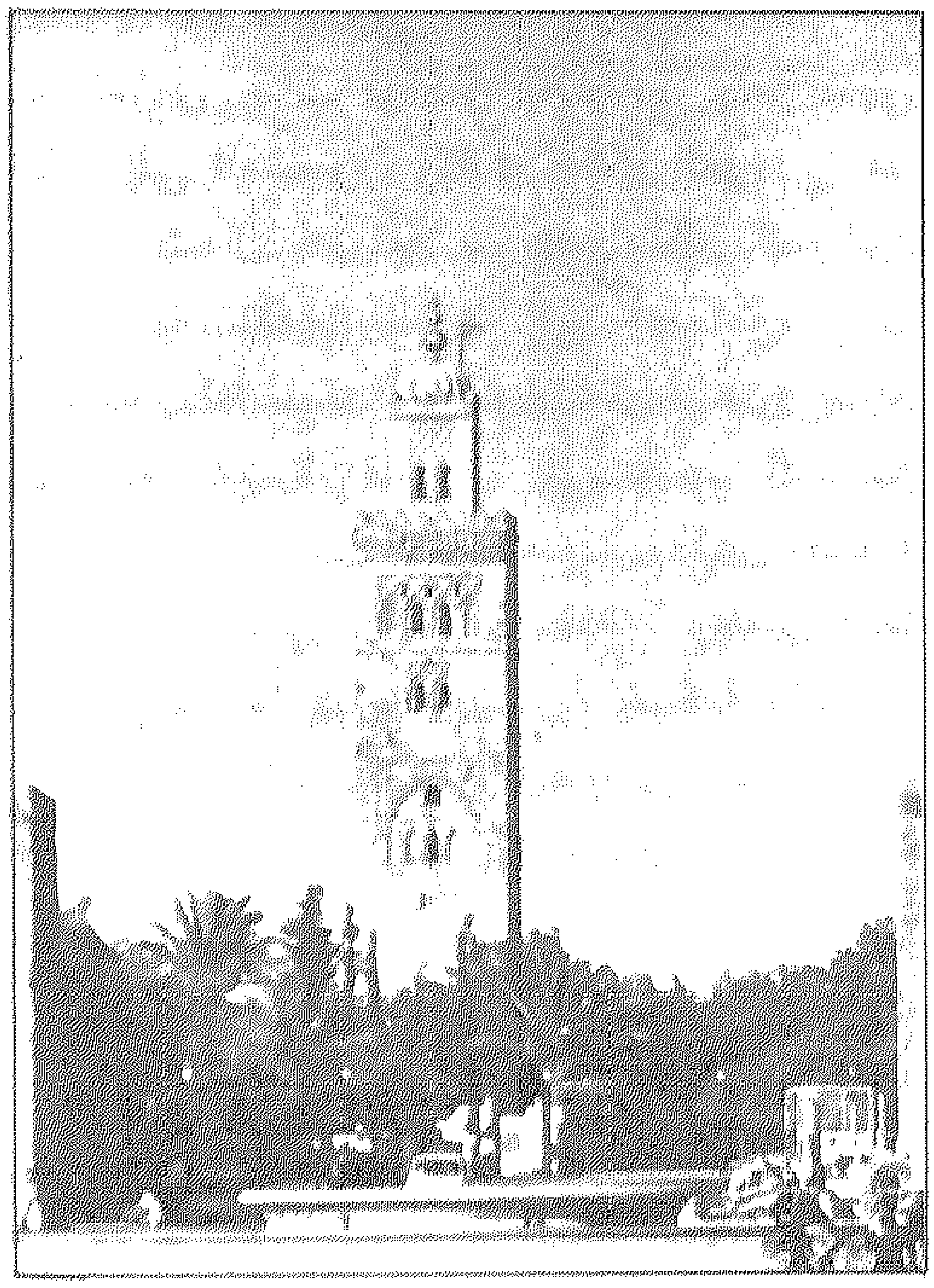

□ منارة «جامع الكتبية» من المعالم الأثرية الاسلامية التي تزهو بها مراكش.

وكيف القومة عليكم إلى غير ذلك من السؤال، لم يزل مستمراً على هذا إلى أن مات رحمه الله».

وقد أشرنا من قبل إلى بستان المسرة الذي قال عنه المؤرخون أنه كان ثلاثة أميال طولاً ومثلها عرضاً. وكان فيه كل فاكهة تشتهى. وأنشأ فيه صهريجاً واسعاً كالبحيرة كان يمرن فيه الجنود وشيوخ الموحدين على العوم والتجديف.

ومع ان مراكش تخلى عنها بنو مرين كعاصمة لأنهم اتخذوا فاس بديلاً عنها، فقد عاد إليها رونقها أيام السعديين. وقد بنى المنصور الذهبي قصر البديع لأنه أراد أن تكون لأهل البيت به مأثرة وشفوف على من سبقهم من المرابطين والموحدين.

«ولما عزم على الشروع فيه أحضر أهل العلم ومن يتسم بالصلاح فتحينوا أوان الابتداء ووقت الشروع فيه فكان ابتداءُ الشروع في تأسيسه في شوّال خامس الأشهر من خلافته عام ستة وثمانين وتسعمائة (١٥٧٨) واتصل العمل فيه إلى عام إثنين وألف ولم يتخلل ذلك فترة. وحشد له الصناع من بلاد الافرنجة. فكان يجتمع كل يوم فيه من أرباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق كثير حتى كان ببابه سوق عظيم يقصده التجار ببضائعهم ونفائس أعلاقهم. وجلب له الرخام من بلاد الروم فكان يشتريه منهم بالسكر وزناً بوزن. وكان المنصور قد اتخذ معاصر للسكر ببلاد حاحة وشيشاوة وغيرهما وأما جبصه وجيره وباقي انقاضه فانها جمعت من كل جهة وحملت من كل ناحية حتى انه وجدت بطاقة فيها ان فلاناً دفع صاعاً من جيرٍ حَمّلَه من تنبكتو وظّف عليه في عمار الناس. وكان المنصور مع ذلك يحسن إلى الاجراء غاية الاحسان ويجزل صلة المعلمين بالبناء ويوسع عليهم في العطاء ويقوم بمؤمن أولادهم كي لا تتشوق نفوسهم وتتشعب افكارهم.

وهذا البديع دار مربّعة الشكل وفي كل جهة منها قبة رائقة الهيئة واحتف بها مصانع أخرى من قباب وقصور وديار فعظم بذلك بناؤه وطالت مسافته. ولا شك أن هذا البديع من أحسن المباني وأعجب المصانع. وفيه من الرخام المجزع والمرمر الأبيض المفضض والأسود ما يحير الفكر ويدهش النظر. وكل رخامه طلي رأسها بالذهب الذائب وموّه بالنضار الصافي، وفرشت أرضه بالرخام العجيب النحت الصافي البشرة. وجعل في أضعاف ذلك الزليج المنوع التلوين حتى كأنه خمائل الزهر أو برد موشى من عمل صنعاء وتستر. وأما سقوفه فتجسم فيها الذهب وطليت الجدارات به مع بديع النقش ورائق الرقم لخالص الجبص، فتكاملت فيه المحاسن وأجرى بين قبابه ماء غير آسن».

وأنت تزور مراكش اليوم فترى الكثير من آثار السلف فتقف مشدوهاً لما قاموا به ومعتزاً بما بنوه.

في دور العلم

● كانت دور العلم في مقدمة الأمور التي عني بها المسلمون، وكان المسجد أول مكان اتخذ لتعليم القرآن الكريم والحديث الشريف، فكان أول دار علم في الاسلام. والحديث عن دور العلم في الاسلام حديث طريف لا أطمع في أكثر من إجماله الآن.

وليس من السهل أن يجمل المرء أخبار المدارس التي انتشرت، في مدى ستة قرون أو أكثر، من الهند إلى البرانيس، ومن طوروس إلى عدن، في مثل هذه الصفحات القليلة. هذه المدارس التي كانت مناراً يهتدى به في ظلمات الجهل الحالكة، التي كانت تكتنف العالم الخارج

عن نطاق الدول الاسلامية في القرون الوسطى.

وقد تركزت دور العلم في عواصم الاسلام الكبرى في بغداد والقاهرة وقرطبة، وفي عواصم الأقاليم والدويلات التي نشأت في ظلال الخلافة العباسية مثل نيسابور ودمشق والقدس والقيروان وغرناطة واشبيلية.

كانت علوم الدين واللغة تشمل، بالاضافة إلى ما يتبادر إلى الذهن مباشرة، التشريع والتاريخ والمسائل المالية، لأن كل هذه كانت جزءاً أساسياً لازماً لفهم القرآن الكريم وأحكامه في الادارة والجزية والزكاة. وكانت العلوم الأخرى، التي سميت العلوم المنقولة، تشمل الرياضيات والطب والفلك. وهذان العلمان كانا يدرسان دراسة علمية عملية في البيمارستانات أي المستشفيات والمراصد.

كان المسجد أول دار للعلم كما قلنا قبلاً. لكن ذلك لم يطل. فقد لوحظ أن المناقشة قد تؤدي إلى الخروج عن الأدب الذي تجب مراعاته لبيت الله، فخرج الناس إلى غيره لمثل هذه المحاولات. وكان ذلك في القرن الرابع الهجري. وفي زمن نظام الملك الوزير السلجوقي، أي في القرن الخامس الهجري، بنيت المدارس الرسمية. لكن قبل ذلك كان قد بنى الخلفاء والأمراء دوراً للعلم والحكمة، كانت تحوي كل منها مكتبة تفتح لطلاب العلم وأهله، وبعضها يجري فيها أرزاق على المشتغلين بالعلم، وبعضها كانت مراكز للنقل والترجمة. ونلاحظ أنه منذ أواخر القرن الرابع الهجري كان لكل جامع كبير مكتبة. وكانت هذه المكتبة يغلب أن تسمى «خزانة الحكمة». ثم زيد التعليم على هذه الخزائن. فمن ذلك ما روى ياقوت في الارشاد أن أبا القاسم الفقيه الموصلي، أسس داراً للعلم في بلده وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم، ووقفها على طلاب العلم، فلم يمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب، وكان من المعسرين، أعطاه ورقاً وورقاً. وكان أبو القاسم نفسه يجلس فيها، ويجتمع إليه الناس فيملي عليهم شعره وشعر غيره وحكايات وطرفاً من الفقه.

وتلا فترة خزائن الحكمة هذه عصر زهت فيه دور للعلم كانت مراكز للبحث. وفي مقدمتها بيت الحكمة البغدادي ودار العلم القاهرية.

أما المدارس التي عرفها الشرق الاسلامي فيما بعد فأهمها النظامية في بغداد التي أنشأها نظام الملك السلجوقي وكان الغرض منها نشر المذهب الشافعي، ولذلك كان اتجاهها دينياً فقهياً قبل أي أمر آخر. وتمثل النظامية دوراً جديداً في المدرسة الاسلامية من حيث إشراف الدولة عليها إشرافاً تاماً. فقد كانت نفقاتها من الخزانة الرسمية كما كان اختيار أساتذتها ومدرسيها بيد الخليفة. ومن كبار من درس فيها الغزالي وبهاءالدين صاحب كتاب المحاسن اليوسفية.

وفي السنة ٦٣١هـ (١٢٣٤م) أنشأ الخليفة العباسي المستنصر بالله المدرسة التي عرفت باسمه. وقد ترك لنا الرحالون والمؤرخون أخبار المستنصرية فحصلنا لها على صورة تكاد تكون تامة. فقد فاقت كل ما سبقها من حيث فخامة البناء وسعته، وجمال التأسيس واناقته، وكان فيها أربعة أروقة كبيرة كل واحد منها خاص بواحد من المذاهب السنية الأربعة. ولكلٍ فقيه خاص يرأسه. كان عدد طلابها ثلاثمائة، موزعين بالتساوي على الأروقة الأربعة وكلهم كانوا يتلقون العلم بالمجان، ويعطى لكلٍ دينار واحد ينفق منه على شؤونه. أما الطعام فكان يتناوله الجميع من مطبخ المدرسة الكبير. لكن العناية بالطلاب لم تقتصر على الأكل والمسكن بل كانت الأقلام والمحابر والأوراق والمصابيح تقدم لهم، وكان في المدرسة مكان تحفظ فيه المياه الباردة للشرب. أضف إلى كل هذا الحمام الذي كان مفتوحاً للطلبة، والمستشفى التابع للمدرسة لمعالجة المرضى منهم، وكان له طبيب خاص.

والظاهر أن المدرسة المستنصرية سلمت من يد هولاكو لما احتل بغداد ودمرها سنة ٦٥٦هـ

(١٢٥٨م). فقد رآها ابن بطوطة بعد ذلك بنحو مائة عام ووصفها بقوله: «وفي آخر سوق الثلاثاء المدرسة المستنصرية ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله... وبها لكل مذهب ايوان. (ويكون) جلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط، ويقعد عليه المدرس وعليه السكينة والوقار. لابساً ثياب السواد معتماً وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة».

وقد ازدهرت دور العلم في الأندلس في عهد العرب، فقد كانت مكتبة صاحب الأندلس في القرن الرابع الهجري يتألف فهرسها من اربع وأربعين كراسة، في كل منها عشرون ورقة ولم يكن بها سوى أسماء الكتب. ومع اننا لا نعرف إلا الشيء اليسير عن جامعة قرطبة التي بلغت شأوها في زمن عبدالرحمن الناصر والحكم، فهذا اليسير الذي وصل إلينا يدلنا على الدور الذي لعبته في توجيه الحياة الفكرية في الأندلس، وتهيئة الجو العلمي للترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية التي تمت في اسبانية في القرون التي تلت ذلك. وكان طلابها يعدون بالمئات ويفدون إليها من افريقية واسبانية. ولم يقتصر التعليم فيها على العلوم الدينية واللغوية، بل تناول مواضيع الطب والرياضيات والفلسفة، وفروعاً أخرى من العلم. وكان من كبار أساتذتها أبو بكر بن معاوية والقالي صاحب الأمالي وابن القوطية.

ومن طريف أخبار دور العلم في اسبانية ما وصل إلينا عن مدرسة طليطلة التي انشأها الفونس الحكيم في القرن الثالث عشر الميلادي. فقد بنى مدرسة وعين رئيساً لها ابا بكر الريقوتي من أعلم أهل زمانه، فكان يحاضر طلابه في أرض مملكة قشتالة الاسبانية في جميع أنواع العلوم باللغة العربية. وهذه المدرسة ظهرت فيها أول جماعة من التراجمة الذين نقلوا من العربية إلى اللاتينية وغيرها علوم أهل الأندلس، وخصوصاً الفلك. فهذه الجامعة العربية اللاتينية كانت حجراً أساسياً في نشر الحركة العلمية في اسبانية ومن ثم في أوروبة.

ودور العلم الاسلامية كانت في الغالب غنية لأن بانيها كان يقف عليها الأرض أو العقار أو جزءاً من ضريبة المدينة، فقد كانت حصن الأكراد في سورية موقوفاً دخلها على المدارس.

وقد حفظ لنا المؤرخون أخبار دور العلم والمدارس، ونحن إذا ضممنا ما ذكروه إلى بعضه البعض وجدنا انها قاربت الأربعمائة عدداً. فقد كان في القدس مثلاً أربع وأربعون مدرسة، وفي بغداد أربعون وتجاوزت مدارس دمشق المائة. وقد كان في دمشق في القرن السادس الهجري مثلاً ثلاث مدارس فنية: إثنتان للطب وواحدة للهندسة وكان في حلب مدرسة للطب.

وكانت المدارس الحكومية تعطى فيها للأساتذة مرتبات ثابتة، لكن بعض العلماء كان يرفض أخذ الأجر ثمناً للتعليم. فقد امتنع النووي في القرن الثامن أن يأخذ رزقاً لتدريسه في المدرسة الأشرفية. وكان بعض العلماء يورق ويأكل من كسب يده. إلا أن التعليم صار على توالي الأيام مهنة يعيش منها المشتغلون بها. وقد أورد الجاحظ أن النحوي العروضي كان يكتفي بستين درهماً أجرة للتعليم في الشهر. أما مؤدبو الأمراء فلم يرضوا بأقل من الف درهم كيحيى بن ثعلب. وكان لعبدالله بن طاهر مؤدب رزقه في الشهر سبعون ديناراً، وذلك في القرن الثالث الهجري. وكان ابن دريد في القرن الرابع الهجري يتناول أربعين ديناراً في الشهر.

حَفلَ سجل تاريخ الشعوب العربية الحديث بالكثير من العهود المجحفة والاتفاقيات السلبية التي نجحت الدول الكبرى، كانجلترا وفرنسا وأميركا، في فرضها عليهم في محاولة لربط تلك الشعوب بسياستها الاستعمارية وبالتالي السيطرة عليهم واستغلال ثرواتهم.

ومن بين تلك العهود والاتفاقيات، الكثير مما يجدر ذكرها وإلقاء الضوء عليها في سبيل استرجاع عِبَرها ودروسها لتكن لنا نبراساً في طريق بناء مستقبل أمتنا. وما معاهدات ليبيا مع كل من بريطانيا وأميركا وفرنسا، إلا نموذجاً من تلك المعاهدات التي تكشف لنا حقيقة السياسة التي اتبعها المستعمر آنذاك وما فتىء يحاول إتباعها ولكن بأساليب مختلفة. وفيما يلي ننشر نص الاتفاقية المالية الليبية ــ البريطانية ومن ثم نص معاهدة تحالف ليبيا مع بريطانيا. الأولى: تمّ عقدها قبل أن يتحقق استقلال ليبيا الناجز بهدف ربط ليبيا بعجلة المساعدات المالية الخارجية كوسيلة فعّالة لإقرار الأوضاع العسكرية الأجنبية التي كانت قائمة في ذلك الحين. وقد تمّ عقدها في ١٣ كانون أول / ديسمبر ١٩٥١ بين الحكومة الليبية المؤقتة وبريطانيا، وقد وقّعها من الجانب الليبي محمود المنتصر رئيس الوزراء، ومن الجانب البريطاني، ت. ر. بلاكلي المعتمد البريطاني في طرابلس الغرب.

أما معاهدة تحالف ليبيا مع بريطانيا فقد عقدت في بنغازي في ٢٩ تموز ــ يوليو ١٩٥٣.

الاتفاقيّة الماليّة الليبيّة ـ البريطانيّة

المادة الأولى: يسري مفعول هذه الاتفاقية حال توقيعها ويستمر مفعولها حتى الواحد والثلاثين من مارس ١٩٥٣ إلا إذا أبدلت قبل هذا التاريخ باتفاقية بين حكومتي المملكة المتحدة والليبية.

المادة الثانية: وضعت هذه الاتفاقية للتأكد من أن ليبيا ستتمتع بحالة استقرار مالي وتطور اقتصادي منتظم.

المادة الثالثة: ولتحقيق الغاية المبينة في المادة السابقة من هذه الاتفاقية تقدم حكومة المملكة المتحدة مساعدة مالية لليبيا بالشكل الآتي بشرط أن تدار شؤون ليبيا المالية بطريقة ملائمة لادراك ذلك القصد وبشرط أن تكون حكومة المملكة المتحدة مزودة بالمعلومات التامة عن احتياجات ليبيا:

(أ) تمد حكومة المملكة المتحدة خلال السنة

المالية التي تبدأ في أول أبريل ١٩٥٢ المؤسسة الليبية العامة للتنمية والاستقرار التي ستؤسس بمقتضى قانون ليبي وقد تمد أيضاً خلال السنة المالية التي تبدأ في أول أبريل ١٩٥٢ الشركة المالية الليبية التي ستشكل بنفس الطريقة، بمبالغ لا تزيد في مجموعها عن ٥٠٠ الف جنيه استرليني للغاية التي من أجلها ستشكل هاتان المؤسستان وطبقاً لما ينص عليه قانون كل منهما.

(ب) ستقدم حكومة المملكة المتحدة تغطية مقدارها مائة في المائة من الاسترليني للاصدار الأول من العملة الليبية وفقاً لترتيبات تكون مقبولة لدى حكومتي المملكة المتحدة وليبيا.

(ج) تستمر حكومة المملكة المتحدة في تقديم المساعدات المالية للحكومات أو الادارات في برقة وطرابلس الغرب، حتى اليوم الواحد والثلاثين من مارس ١٩٥٢، إذ أن في النية أن تمول إدارات الولايات من واردات الحكومة الليبية العامة لتمكينها من ممارسة السلطات المنقولة إليها تدريجياً.

(د) وفيما يتعلق بالسنة المالية التي تبدأ في أول ابريل ١٩٥٢ فإنه بدون مساس بحق ليبيا الذي لا ريب فيه في تحديد ميزانياتها، فإن حكومة المملكة المتحدة ستتقدم بمساعدة مالية لحكومة ليبيا بمبلغ يعادل في مقداره أي عجز في ميزانيات الحكومة الليبية وإدارات الولايات مجتمعة، بشرط أن تطلب الحكومة الليبية مثل هذه المساعدة وعلى أن يكون قد حصل الاتفاق بين حكومتي المملكة المتحدة والليبية بأن ميزانيات الحكومة الليبية وإدارات الولايات لتلك السنة قد وضعت بحكمة واقتصاد ونحو الغرض المبين في الفقرة الثالثة من هذه الاتفاقية. وفي حالة عدم الوصول إلى اتفاق فحكومة المملكة المتحدة بالرغم من ذلك تقدم للحكومة الليبية أي مبلغ ضروري لدعم الاقتصاد الليبي بشرط أن تطلب الحكومة الليبية مثل هذه المساعدة.

المادة الرابعة: ومن ثم فلبلوغ القصد المبين في المادة الثالثة من هذه الاتفاقية توافق الحكومة الليبية على أن يكون للمالية والاقتصاد موظف أعلى، وللحسابات مدقق عام «بريطانيين» ويجب أن يكون هذان موظفان في الحكومة الليبية خاضعين لقوانين الخدمة المدنية الليبية. وكافة الشؤون المتعلقة بتعيينهما يجب أن تكون خاضعة للتشاور بين حكومتي المملكة المتحدة والليبية.

المادة الخامسة: للموظف الأعلى للمالية والاقتصاد أن يقابل رئيس وزراء ووزير مالية الحكومة الليبية ويكون الموظف الرئيسي للمالية والاقتصاد في تلك الحكومة.. ويكون المدقق العام للحسابات المدقق الرئيسي لحسابات الحكومة الليبية.

* * *

نص معاهدة التحالف مع بريطانيا

● معاهدة الصداقة والتحالف بين صاحب الجلالة ملك المملكة الليبية المتحدة،

وبين صاحبة الجلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية وممالكها وأراضيها بالنسبة للمملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية.

إن صاحب الجلالة ملك المملكة الليبية المتحدة «المشار إليه فيما بعد بصاحب الجلالة ملك ليبيا» وصاحبة الجلالة ملكة بريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية وممالكها وأراضيها «المشار إليها فيما بعد بصاحبة الجلالة البريطانية».

حيث إن المملكة الليبية المتحدة أصبحت في يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ دولة مستقلة ذات سيادة بموجب قراري الجمعية العمومية للأمم المتحدة المؤرخين في اليوم الحادي والعشرين من نوفمبر ١٩٤٩ واليوم السابع عشر من نوفمبر ١٩٥٠.

ولما كانت الرغبة الصادقة تحدوهما لتوثيق عرى الصداقة والعلاقات بين جلالتيهما.

ورغبة منهما في عقد معاهدة صداقة وتحالف لهذا الغرض، ولغرض تقوية ما يمكن كل منهما أن يساهم به لحفظ السلم والأمن الدوليين وفقاً لأحكام ميثاق الأمم المتحدة ومبادئه.

قد عينا بناء على ذلك مفوضين عنهما: صاحب الجلالة ملك ليبيا **السيد محمود المنتصر رئيس الوزراء ووزير الخارجية**.

عن المملكة الليبية المتحدة، صاحبة الجلالة البريطانية، **السر كراليك كبرايد. ك. سي. ام جي ــ او. بي آي ــ ام. سي.**، مندوبها فوق العادة ووزيرها المفوض، عن المملكة المتحدة البريطانية وايرلندا الشمالية.

اللذين بعد أن أبرز كل منهما أوراق تفويضه للآخر فوجداها صحيحة قد اتفقا على ما يلي:

المادة الأولى: يسود سلم وصداقة وتحالف وثيق بين الفريقين الساميين المتعاقدين توطيداً لتفاهمها الودي وصلاتهما الطيبة.

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بعدم اتخاذ موقف إزاء البلاد الأجنبية يتناف مع التحالف أو قد يخلق مصاعب للفريق الآخر.

المادة الثانية: إذا اشتبك أي الفريقين الساميين المتعاقدين في حرب أو نزاع مسلح يهب الفريق السامي المتعاقد الآخر لنجدته كتدبير دفاعي مع مراعاة دائماً أحكام المادة ٤.

في حالة خطر أعمال عدائية داهم محدق بأي من الفريقين الساميين يتفق الفريقان فوراً على تدابير الدفاع اللازمة.

المادة الثالثة: يعترف الفريقان الساميان المتعاقدان بأنه من مصلحتهما المشتركة الاستعداد لدفاعهما المتبادل والتأكد من أن بلديهما في حالة تمكنهما من القيام بدورهما في صيانة السلام والأمن الدوليين. ولهذه الغاية يقدم كل منهما للآخر كافة التسهيلات والمساعدات التي في وسعه بشروط يتفق عليها. وفي مقابل التسهيلات التي يقدمها صاحب الجلالة ملك ليبيا للقوات البريطانية المسلحة بليبيا بشروط يتفق عليها، تقدم صاحبة الجلالة البريطانية مساعدة مالية لصاحب الجلالة ملك ليبيا بشروط يتفق عليها ــ كما سبق ذكره.

المادة الرابعة: ليس في هذه المعاهدة ما يرمي إلى الاخلال أو يخل بأي حال بالحقوق والالتزامات التي تترتب أو قد تترتب عل أي من الفريقين الساميين المتعاقدين بموجب ميثاق الأمم المتحدة أو بموجب أي اتفاقيات أو عهود أو معاهدات دولية قائمة بما في ذلك فيما يخص ليبيا ميثاق جامعة الدول العربية.

المادة الخامسة: تبرم هذه المعاهدة وتوضع موضع التنفيذ على أثر تبادل وثائق الإبرام الذي يتم في أقرب وقت ممكن.

المادة السادسة: تظل هذه المعاهدة نافذة لمدة عشرين سنة إلا إذا عدلت أو بدلت بمعاهدة جديدة أثناء تلك المدة باتفاق كلا الفريقين الساميين المتعاقدين ويعاد النظر فيها على كل حال في نهاية عشر سنوات. ويوافق كل من الفريقين الساميين المتعاقدين في هذا الخصوص على أن يتذكر المدى الذي يمكن فيه ضمان السلام والأمن الدوليين عن طريق الأمم المتحدة. ويجوز لأي الفريقين الساميين المتعاقدين أن يشعر الفريق الآخر بالطرق الدبلوماسية قبل نهاية مدة تسع عشرة سنة بالإنهاء في آخر مدة العشرين سنة المذكورة. فإذا لم تنه المعاهدة بهذه الطريقة تظل سارية المفعول مع خضوعها للتعديل أو الإبدال حتى مرور سنة واحدة بعد أن يشعر أحد الفريقين الساميين المتعاقدين بالطرق الدبلوماسية الفريق الآخر بإنهائها.

المادة السابعة: إذا قام أي خلاف على تطبيق هذه المعاهدة أو تفسيرها وإذا عجز الفريقان الساميان المتعاقدان عن فض الخلاف بمفاوضات مباشرة، فإن الخلاف يرفع إلى محكمة العدل الدولية، إلا إذا اتفق الطرفان على طريقة أخرى لفضه.

وإقراراً لذلك وقع المفوضان المذكوران أعلاه على هذه المعاهدة وبصماها بختميهما.

حررت في صورتين ببنغازي في اليوم التاسع والعشرين من يوليو ١٩٥٣ باللغتين الانكليزية والعربية وكلا النصين متساو في صحته.

التوقيع: محمود المنتصر

التوقيع: اليك كركبرايد

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

صدر العدد الاول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

الاشتراكات

- للأفراد في لبنان .... ١٠٠ ل.ل.
- للأفراد في الوطن العربي .... ٣٥ دولاراً
- للأفراد في دول العالم الأخرى .... ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في لبنان .... ٢٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي .... ١٠٠ دولار

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل – شارع السادات – بيروت – لبنان – ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣

□ أطفال إحدى قبائل السنغال، يطلعون على كتاب فرنسي تمهيدي.

كانت المستعمرات الفرنسية في غرب إفريقيا السوداء في سنة ١٨٥٤ للميلاد تشمل جزيرة غوري وبعض المناطق التابعة لها، مثل ريفيسك (Rufisque)وجوال (Joual)، وبور تيدال (Port Tedal)، وسان لويس (St Louis) إضافة إلى بعض النقاط التجارية على نهر السينغال (Le Senegal).

أما في سان لويس فكان الفرنسيون يدفعون ضريبة سنويةً للقبائل الفلانية (Les Peuls). واستمر الوضع كذلك حتى مجيء الحاكم الفرنسي فيديرب[١] (Faidherbe) وتعيينه حاكماً عاماً على كامل إفريقيا السوداء الغربية.

وبمجرد قدومه إلى السينغال، نقض فيديرب المعاهدة المبرمة بين حكومته والقبائل الفلانية المتعلقة بدفع الضريبة السنوية لهذه القبائل مقابل الوجود الفرنسي في المنطقة. ولم يكتفِ فيديرب بنقض المعاهدة فقط، بل شن على قبائل الفلان حملة عسكرية واسعة استطاع في النهاية أن يخضعها للنفوذ الفرنسي[٢].

مواقف الاحتلال الفرنسي من اللغة العربية في افريقيا السوداء

د. عمّار هلال

يعتبر فيديرب أول فرنسي يسيطر على الأحداث السياسية المحلية للسينغال، وذلك منذ بداية سنة ١٨٥٤م. كما أن التوسعات العسكرية التي قام بها في غرب إفريقيا السوداء انطلاقاً من السينغال، شكلت اللبنة الأولى للسيطرة الفرنسية التامة على المنطقة، فضلاً عن أن التوسعات العسكرية التي حققها فيديرب، قد أخضعت مناطق واسعة في غرب إفريقيا السوداء، للنفوذ المباشر الفرنسي. وقدر فيديرب عدد سكان إفريقيا الغربية السوداء، الذين أخضعهم للسلطة الفرنسية في سنة ١٨٥٦، أي بعد سنتين فقط من تعيينه على رأس الادارة الفرنسية في المنطقة، بما يقرب من خمسين ألف نسمة[٣].

وعموماً ففي خلال عشر سنوات استطاع فيديرب أن يفرض سيطرته التامة على القطر السينغالي بأكمله، وأن يكون جيشاً من الأهالي السينغاليين لضرب المقاومة الوطنية في البلاد[٤].

وإلى جانب النشاط السياسي والعسكري الذي قام به فيديرب في الجزء الغربي للقارة السمراء، فقد وضع الركائز الأولى للتعليم الفرنسي في المنطقة، بحيث أسس سنة ١٨٥٥م. مدرسة الرهائن (L'ecole des otages) التي اختصت بتعليم أبناء رؤساء القبائل الافريقية المناوئين للاحتلال الفرنسي في البلاد، الذين أبعدهم عن المسرح السياسي إما بالنفي، أو الاعتقال، أو القتل.

كما أنشأ فيديرب أول مدرسة ـــ لائكية ـــ في السينغال إلى جانب المدرسة التبشيرية التي كانت موجودة قبل مجيئه إلى السينغال[٥]. ثم ازداد اهتمام الفرنسيين أكثر فأكثر بعد عهد فيديرب بالقطاع التعليمي الفرنسي وسعوا جاهدين لنشر ثقافتهم ولغتهم بين الأوساط الافريقية.

ولكن ما هو موقف الادارة الفرنسية من التعليم العربي، أي اللغة العربية، في غرب إفريقيا بعد احتلالها التام للمنطقة؟

عندما اتى الفرنسيون إلى غرب إفريقيا سنة ١٨١٦ للميلاد، لم يجدوا فيها أي تعليم آخر يذكر سوى التعليم العربي المتمثل في الكتاتيب القرآنية. وكان تعليم اللغة العربية منتشراً، ومزدهراً في المنطقة قبل الاحتلال الفرنسي للبلاد. وقد كانت كل قرية، وكل حي من أحياء المدن الكبيرة في غرب إفريقيا تحتوي على مدرستها العربية الخاصة بها.

ولقد تأكد فيديرب بنفسه من هذه الظاهرة، ولم يطمئن إليها إطلاقاً[٦]، فأصدر مراسيم وقرارات تعتبر في أشد الخطورة بالنسبة للتعليم العربي عامة واللغة العربية خاصة في الجزء الغربي لافريقيا السوداء.

ولعل ما يعطينا صورة واضحة عن مواقف الادارة الفرنسية من اللغة العربية في مستعمراتها القديمة بغرب إفريقيا هي قراراتها الرسمية إزاءها، والتي أصدرها الحكام الفرنسيون بدءاً بفيديرب (١٨٥٧) وانتهاء بوليام بونتي (W. Pontet) سنة ١٩١١.

أما عن الأول فقد أصدر بتاريخ ٢٢ حزيران ١٨٥٧ قراره المشهور الذي أعطاه عنوان: «إصلاح التعليم في الكتاتيب القرآنية»[٧]. لكننا سنلاحظ بعد حين أن عنوان هذا القرار متناقض تماماً مع محتواه. ويمكننا تلخيص قرار فيديرب كما سيأتي:

أولاً: نص القرار على أنه ابتداء من تاريخ صدوره، لا يستطيع أي شخص أن يباشر مهنة التعليم في المدارس العربية في السينغال، وفي غيره من المناطق الخاضعة للسيطرة الفرنسية من دون أن يمنح ترخيص خاص من قبل الحاكم الفرنسي العام للبلاد. وحدد القرار شروطاً ومقاييس لا بد أن تتوفر في المترشح للتعليم في المدارس العربية الحرة. وبالنسبة لمدينة سان لويس بالسينغال مثلاً، لا تمنح رخص التعليم إلا للمترشحين السينغاليين، الذين هم أصلاً من سان لويس نفسها، أو للذين يكونون قد أقاموا فيها مدة من الزمن لا تقل عن سبع سنوات، أما خارج هذا النطاق فلا تمنح أي رخصة لأي كان ممن يرغب في ممارسة مهنة التعليم العربي في البلاد.

ثانياً: لا تمنح رخص التعليم في المدارس العربية إلا للأشخاص المترشحين رسمياً لهذه المهنة، والذين تتوفر فيهم شروط ثقافية ومهنية معينة، الشيء الذي تثبته أو تنفيه لجنة خاصة تمتحن المترشحين، والتي تتكون من شيخ البلدية وشخصية دينية إسلامية ومواطن مثقف ثقافة عربية عالية.

ثالثاً: على كل مترشح للتعليم في المدارس العربية الحرة أن يرفق بالطلب إجبارياً شهادة تثبت حسن سيرته، (والمقصود بذلك هو إعطاء فكرة عن السلوك السياسي للمترشح وموقفه من الاحتلال الفرنسي في البلاد) تسلم له من طرف شيخ البلدية. ولا تسلم هذه الشهادة إلا بعد تحريات دقيقة تقوم بها السلطات المعنية بالأمر.

رابعاً: ونص القرار على أن اللجنة الثقافية ــ البيداغوجية التي تتولى أمر امتحان المترشحين، هي التي تتولى أيضاً مراقبة وتفتيش المدارس العربية الحرة. وبموجب قرار حزيران ١٨٥٧ أصبح لزاماً على كل معلمي المدارس العربية الحرة أن يبعثوا شهرياً بقوائم تلاميذهم إلى الادارة الفرنسية المعنية بأمر التعليم العربي.

خامساً: نصت المادة الخامسة من القرار المذكور، على أنه منذ صدوره يتوجب، وبصفة غير قابلة للنقاش، على كل معلمي اللغة العربية في غرب إفريقياء السوداء، أن يرسلوا تلاميذهم الذين بلغوا سن الثانية عشرة أو أكثر إلى الدروس المسائية الفرنسية، التي تنظمها المدارس «اللائيكية» أو مدارس الرهبان البيض.

سادساً: منع قرار فيديرب الازدواجية في المدارس العربية منعاً باتاً. ونص على أن تكتب على مدخل كل مدرسة العبارة التالية: «مدرسة عربية».

ويقف بعض المؤلفين الفرنسيين موقفاً متشائماً من سياسة فيديرب في غرب إفريقيا السوداء، ويعتبرونها مرنة كثيراً إزاء قضية الاسلام واللغة العربية في المنطقة. وقد ندد هؤلاء المؤلفون بسياسة فيديرب في غير مناسبة.

والواقع أن الحقيقة ليست كما يدعي المؤلفون الفرنسيون، لأن سياسة فيديرب، وذلك كما يتجلى واضحاً من خلال قراره الذي تطرقنا له، كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى عرقلة اللغة العربية وإضعافها في الجزء الغربي للقارة السمراء، بغرض إحلال اللغة الفرنسية محلها.

وقبل أن يقف فيديرب نفسه هذا الموقف من اللغة العربية في غرب إفريقيا السوداء، سبقه إلى ذلك مؤلفون فرنسيون أمثال بول مارتي (P. Marty) ولو شانتولي (Le Chantelier) وغيرهما. وعموماً فقد كان موقف الفرنسيين موحداً ومنسقاً استهدف القضاء التام على اللغة العربية في إفريقيا السوداء. وقد لعب هؤلاء دوراً مناوئاً للغة الضاد جماعات ووحدانا سواء على المستوى الرسمي أو غير الرسمي.

والحق أن السياسة الاستعمارية التي اتبعها فيديرب للتعليم العربي في غرب إفريقيا السوداء عشية احتلالها، قد استوحاها من كتاب[٨] الفه السيدان فريدريك كارير[٩] (F. Carrere) وبول هول[١٠] (P. Holle).

ولتوضيح تأثر فيديرب بهذين الكاتبين واتخاذ كتابهما كأرضية لسياسته الاستعمارية التي فرضها على اللغة العربية في غرب إفريقيا السوداء، يجدر بنا أن نلخص ما جاء من افكار هامة في كتابهما.

أولاً: يرى المؤلفان أنه من الضروري طرد كل معلمي الكتاتيب القرآنية (الغرباء) من السينغال، ويقصدان بذلك المعلمين الذين قدموا إلى البلاد من مختلف أنحاء إفريقيا الشمالية، اعتقاداً منهما، أن هؤلاء يشكلون خطراً على مستقبل

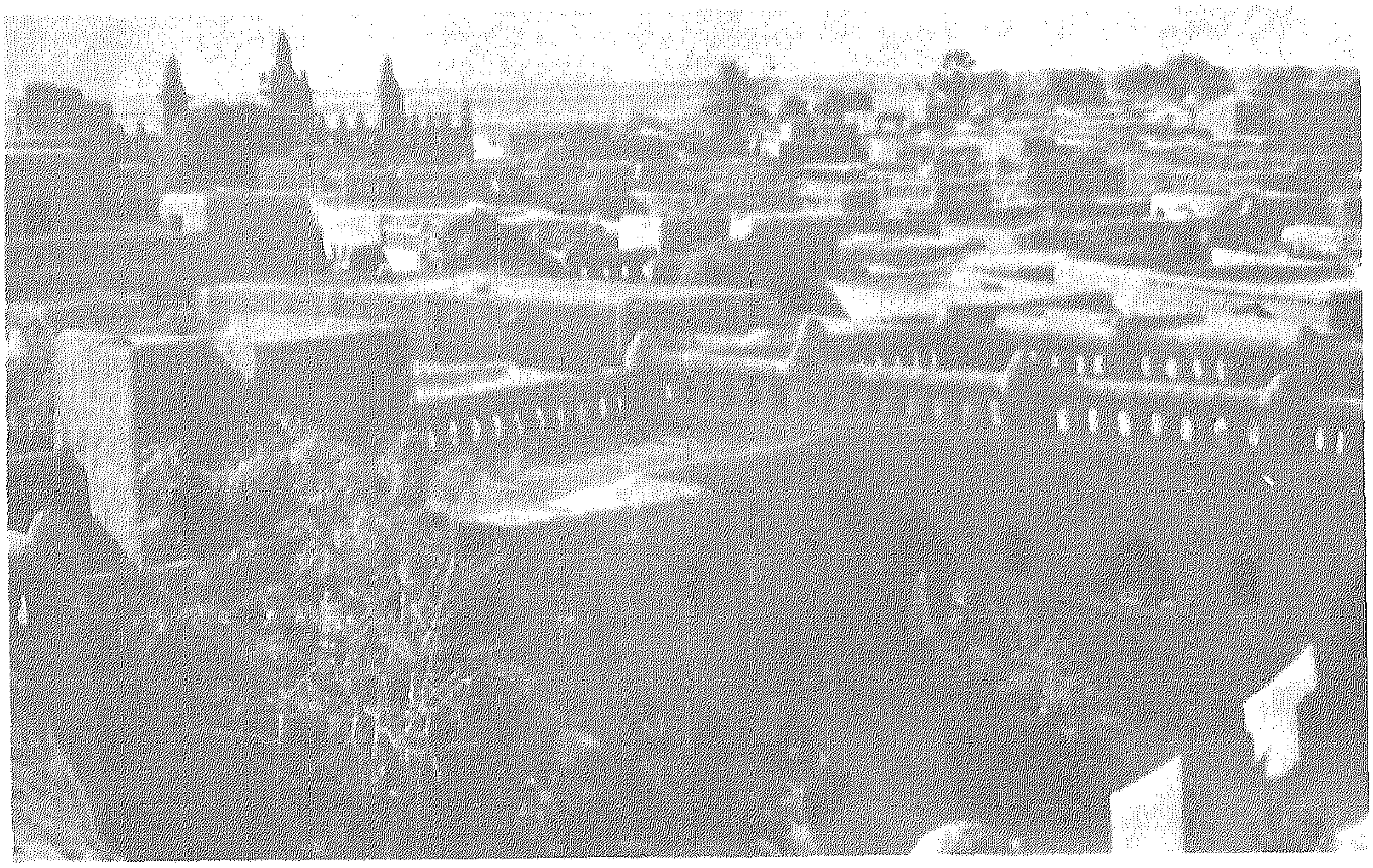

□ إحدى المدن التقليدية المنتشرة في غرب افريقيا السوداء.

الحضارة الغربية في المنطقة، وهم الذين يحرضون الأهالي الأفارقة على عدم الاقبال على تعلم اللغة الفرنسية في المدارس الحكومية، وهم بالتالي يمثلون عائقاً كبيراً أمام «الفرنسة».

ثانياً: يلح كارير وهول في كتابهما على اتخاذ إجراءات صارمة ضد مهنة التعليم في الكتاتيب القرآنية، وضد كل من يمارس هذه المهنة الأخيرة في غرب إفريقيا السوداء.

ثالثاً: أما في صدد نشر اللغة الفرنسية بين الجماعات الافريقية اقترح المؤلفان فتح المدارس الفرنسية في كل حي من أحياء المدن الهامة في المنطقة، وإقرار إجبارية التعليم الفرنسي.

رابعاً: أما عن كيفية جذب التلاميذ الأفارقة إلى المدارس الفرنسية فقد اقترح السيدان كارير وهول، أنه يمكن توظيف معلمي اللغة العربية مؤقتاً في المدارس الفرنسية، لتعليم اللغة العربية حتى يطمئن التلاميذ والآباء الأفارقة لهذه المؤسسات. ومتى تعوّد التلاميذ على المؤسسات الفرنسية تنتهي مهمة معلمي اللغة العربية ويستغنى عنهم نهائياً.

خامساً: وقف المؤلفان من الدين الاسلامي في غرب إفريقيا موقفاً مناوئاً، وذهبا إلى القول بأنه هو سبب تأخر الجماعات الافريقية وأن الاسلام هو الذي حال دون تقدمهم وتحضرهم، لحد أنه جعل منهم «برابرة». وتمنيا تهديم مسجد مدينة سان لويس، الذي بني سنة ١٨٤٧ للميلاد.

سادساً: أما فيما يخص السياسة الاسلامية التي كانت فرنسا تزعم تطبيقها في مستعمراتنا الاسلامية، وذلك في عهد نابوليون الثاني، فقد وقف المؤلفان منها موقفاً مضاداً ونبذا فكرة إنشاء المحاكم الاسلامية في غرب إفريقيا السوداء من أساسها. وأخيراً تشاءم الكاتبان من اللباس التقليدي لسكان غرب إفريقيا واقترحا استبداله بالزي الأربي.

والمؤكد أن فيديرب قد قرأ كتاب كارير وهول ثم أرسله إلى وزير المستعمرات الفرنسية معلقاً على أهم ما جاء فيه من أفكار وبالتالي نفذ برنامج شخصين استعماريين فرنسيين، جمعت فيه الخبرة العسكرية والاطلاع على شؤون إفريقيا الغربية الثقافية، والدينية، والاجتماعية.

وقرار فيديرب هذا، والذي جاء خصيصاً لمناهضة وعرقلة انتشار اللغة العربية في الجزء الغربي لافريقيا السوداء، أي في ما كان يسمى سابقاً بإفريقيا الغربية الفرنسية، ليس الوحيد

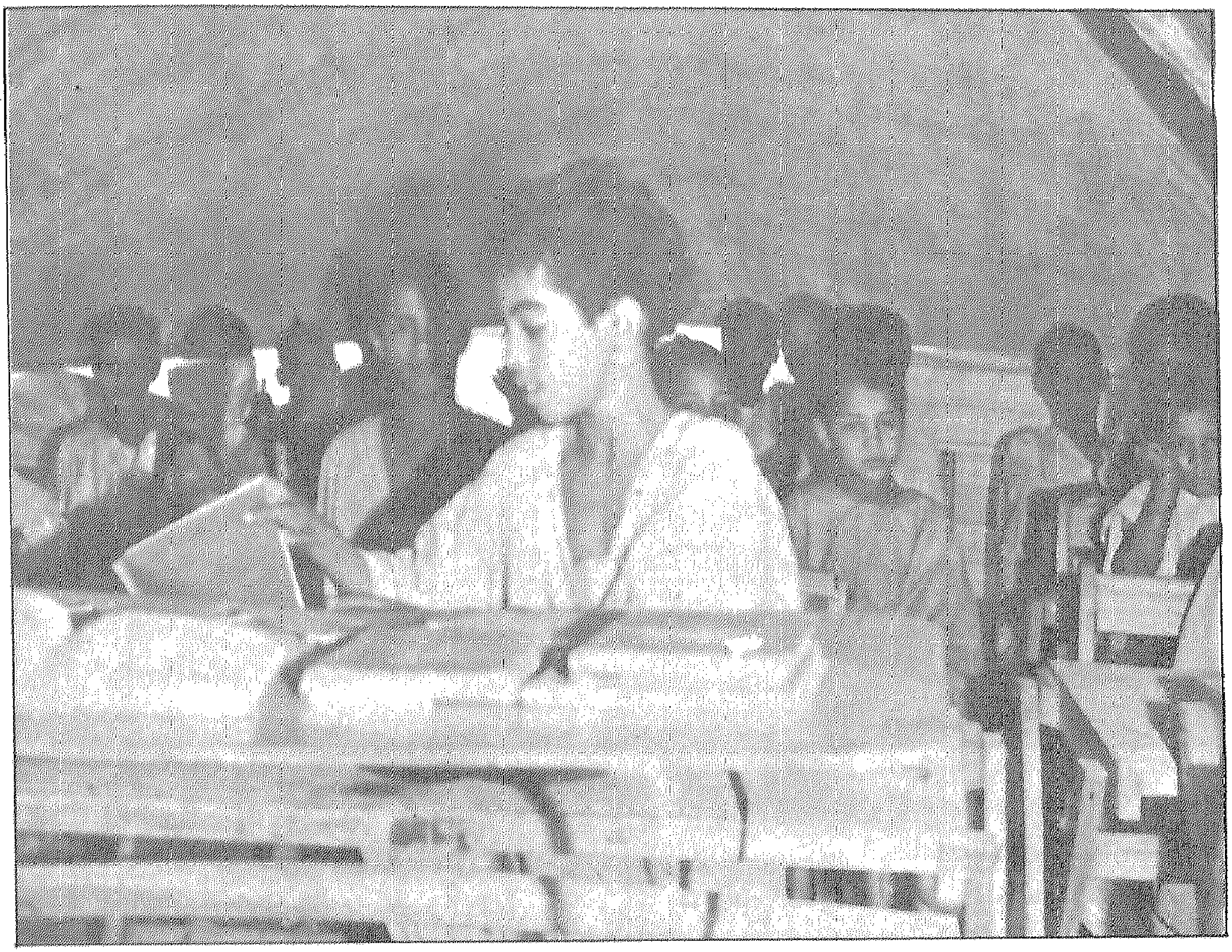

□ صف في إحدى المدارس البدائية في مقاطعة موريتانيا.

من نوعه، بل تلته مراسيم وقرارات أخرى استعمارية أصدرها خلفاء فيديرب، دارت كلها حول فكرة رئيسية، تمثلت في مناهضة، ومناوأة وإضعاف اللغة العربية في المنطقة بكل الطرق والوسائل.

أدرك الاحتلال الفرنسي بسرعة وبكل بساطة منذ أن وطأت أقدامه أرض إفريقيا الغربية السوداء أهمية اللغة العربية في المنطقة[11]، والمكانة المرموقة التي تحتلها بين الأوساط الشعبية الافريقية[12]، فعمدت الادارة الفرنسية إلى اتخاذ اللغة العربية كوسيلة لجذب التلاميذ الأفارقة إلى مدارسها، في وقت كادت هذه الأخيرة أن تخلو تماماً من التلاميذ، الشيء الذي أدى إلى غلق العديد من هذه المؤسسات.

وقد اتخذت الادارة الفرنسية عدة إجراءات هادفة بغرض استغلال اللغة العربية لصالح تعليمها ونشر لغتها بين الأوساط الافريقية، منها تعليم اللغة العربية وإدراجها في البرامج التعليمية لمدارس الرهبان البيض، وذلك ليطمئن التلاميذ الأفارقة لمعلّميهم الجدد، ولا ينفرون من أشخاص غرباء عنهم لغةً وديناً وفكراً[13].

وقد دفعت الضرورة ببعض الرهبان البيض[14] إلى أن يتعلموا اللغة العربية، ليتمكنوا من الاتصال المباشر بالأهالي الأفارقة، عن طريق التخاطب والتفاهم معهم. وتعلم جل هؤلاء الرهبان البيض اللغة العربية على معلمي الكتاتيب القرآنية في البلاد.

وبالاضافة إلى هذا وذاك، لجأت الادارة الفرنسية إلى استعمال بعض المعلمين الفرنسيين الذين يحسنون بعض اللغة العربية، لتدريسها في المدارس الحكومية الفرنسية في غرب إفريقيا السوداء، رغم أن حظهم من التمكن من العربية كان ضئيلاً جدًّا.

ومن هؤلاء المعلمين الفرنسيين الذين

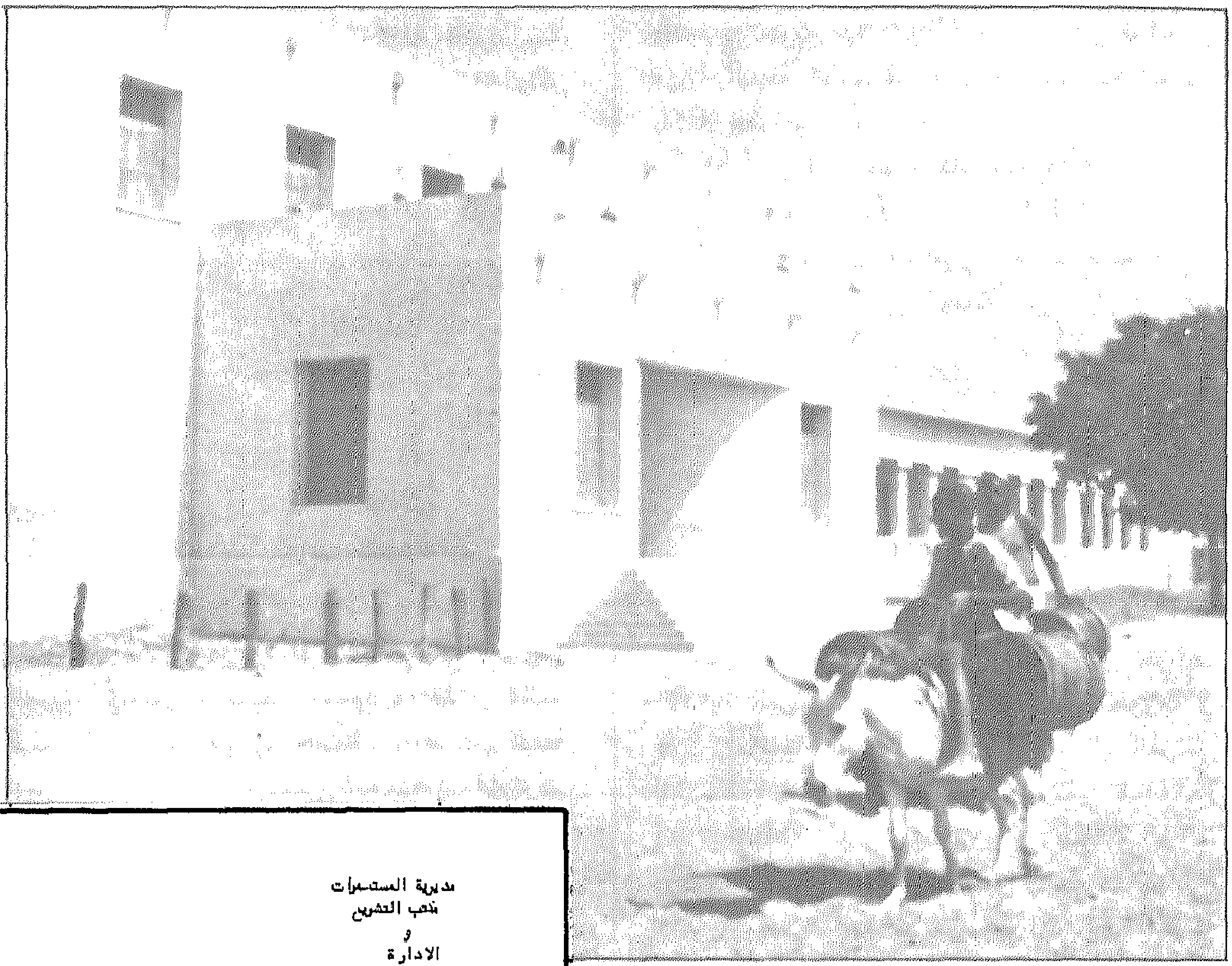

□ مدرسة ثانوية حديثة، بناها الفرنسيون في النيجر عام ١٩٥٣.

استعملتهم الادارة الفرنسية في تدريس اللغة العربية، السيد أنجيلي (Engely) الذي قدم إلى السينغال في سنة ١٨٨٣م. وقد كان معلماً للغة الفرنسية في مدينتي سكيكدة وعنابة بالجزائر[١٥].

والجدير بالذكر أن السيد أنجيلي كان من أشد المناوئين للغة العربية. وكادت مهمته أن تقتصر على بث الدعايات بين التلاميذ السينغاليين للاقبال على تعلم اللغة الفرنسية وعدم النفور منها، وعلى التنديد «بمزايا وقيمة اللغة العربية الثقافية والأدبية!»[١٦].

أما عن مساعي الادارة الفرنسية في غرب إفريقيا، التي استهدفت إقصاء اللغة العربية من المجالين الثقافي والأدبي في المنطقة، فإلى جانب قرار فيديرب الذي تطرقنا له سابقاً، أصدر نظيره الحاكم الفرنسي العام لغرب إفريقيا، السيد فاليير (Valiere) قراراً بتاريخ ٢٨ شباط ١٨٧٠

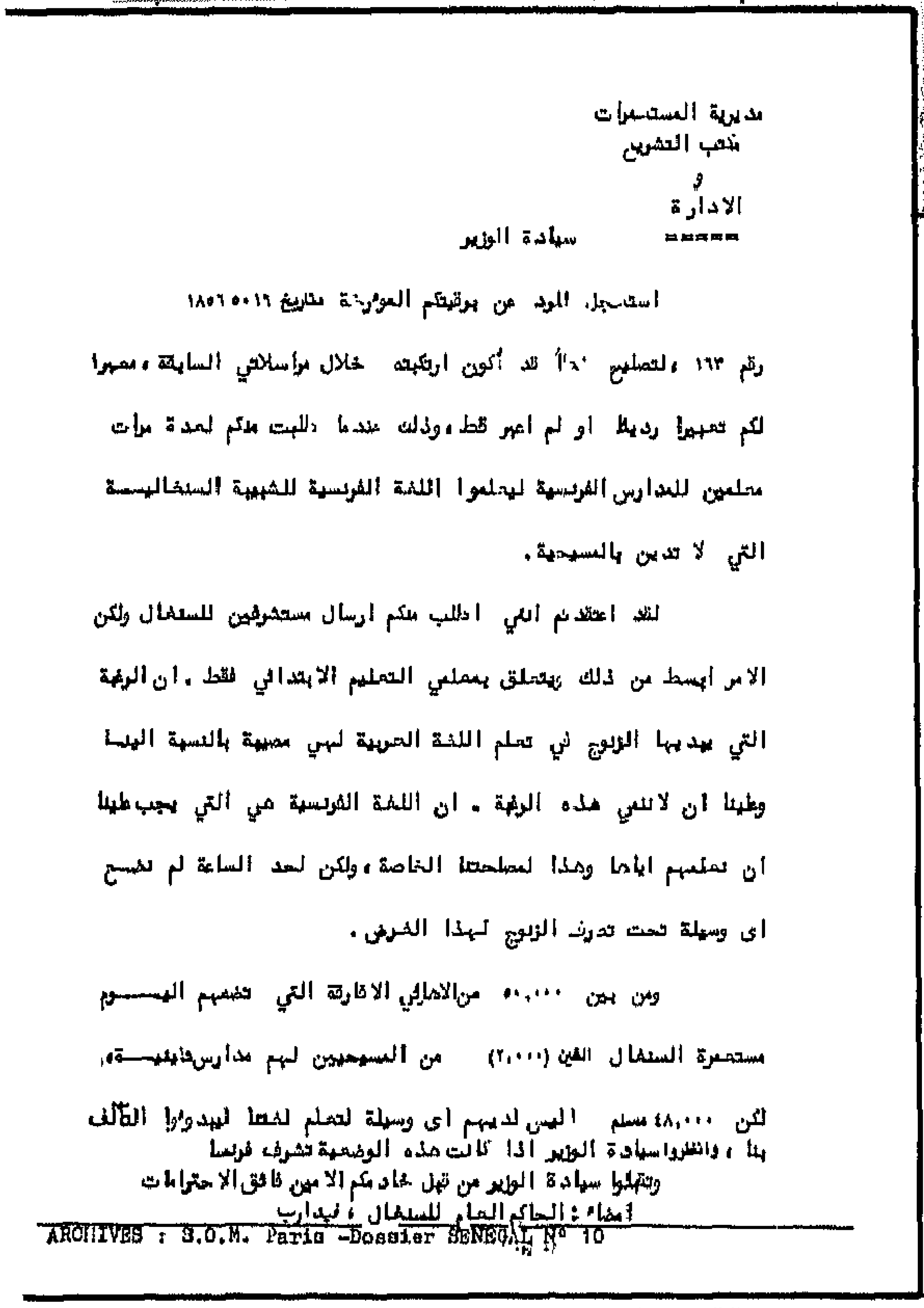

مديرية المستعمرات
شعب التشريع
و
الادارة
=====   سيادة الوزير

استعجل الرد عن برقيتكم المؤرخة بتاريخ ١٦-٥-١٨٥٦

رقم ١٦٣، لتصليح خطأ قد أكون ارتكبته خلال مراسلاتي السابقة، معبرا لكم تعبيرا رديئا او لم اعبر قط، وذلك عندما طلبت منكم لعدة مرات معلمين للمدارس الفرنسية ليعلموا اللغة الفرنسية للشبيبة السنغالية التي لا تدين بالمسيحية.

لقد اعتقدتم انني اطلب منكم ارسال مستشرقين للسنغال ولكن الامر ابسط من ذلك يتعلق بمعلمي التعليم الابتدائي فقط. ان الرغبة التي يبديها الزنوج في تعلم اللغة العربية لهي مصيبة بالنسبة الينا وعلينا ان لا نلبي هذه الرغبة. ان اللغة الفرنسية هي التي يجب علينا ان نعلمهم اياها وهذا لمصلحتنا الخاصة، ولكن لحد الساعة لم نفسح اي وسيلة تحت تدرف الزنوج لهذا الغرض.

ومن بين ٥٠,٠٠٠ من الاهالي الافارقة التي تضمهم المستعمرة السنغال الفين (٢,٠٠٠) من المسيحيين لهم مدارس ابتدائية، لكن ٤٨,٠٠٠ مسلم ليس لديهم اي وسيلة لتعلم لغتنا ليبدوا التآلف بنا، وانظروا سيادة الوزير اذا كانت هذه الوضعية تشرف فرنسا
وتقبلوا سيادة الوزير من قبل خادمكم الامين فائق الاحترامات
امضاء: الحاكم العام للسنغال، فيدارب
ARCHIVES : S.O.M. Paris -Dossier SENEGAL N° 10

□ ترجمة رسالة الحاكم العام في خصوص تعليم اللغة الفرنسية للسنغاليين المسلمين غوري وجويليه ١٨٥٦.

للميلاد، ضمنه إجبارية تعلّم اللغة الفرنسية، ليس فحسب للأطفال الصغار الأفارقة ولكن أيضاً لمعلمي اللغة العربية أنفسهم، وذلك ليعلموها بدورهم لتلاميذهم في المدارس العربية الحرة[١٧].

كما نص القرار المذكور على أن التلاميذ الأفارقة الذين يزاولون تعليمهم العربي في المدارس العربية الحرة، والذين لا يستطيعون التمكن من اللغة الفرنسية في مدة لا تفوق سنتين اثنتين يفصلون نهائياً عن المدارس الحرة، ويلتحقون بالمدارس الفرنسية الحكومية ليتعلموا اللغة الفرنسية فقط.

وإذا كان قرار فيديرب في سنة ١٨٥٧ قد أقر امتحانات بيداغوجية وثقافية على معلمي المدارس العربية في غرب إفريقيا السوداء، فقرار فالبير هذا قد أخضعهم إلى امتحان عسير للغة الفرنسية. وأضحت رخص التعليم في المدارس العربية الحرة بمقتضى هذا القرار لا تمنح للمترشح إلا بعد نجاحه في امتحان اللغة الفرنسية.

ولكن لم يسبق للأفارقة أن تعلموا هذه اللغة، بالاضافة إلى أن التعليم الفرنسي نفسه حديث في البلاد، فقد بدأ جدياً في عهد فيديرب (١٨٥٤ — ١٨٦٥)، أي عندما أصدر فالبير قراره هذا كان عمر التعليم الفرنسي لم يتجاوز ١٦ سنة. فكيف إذن يُخضع معلمو العربية للامتحان في لغة لا يعرفونها ولم يسبق لهم أن درسوها قط، ذلك ما يصعب فهمه منطقياً، لكن ظاهرياً فواضح من هذا القرار أنه استهدف عرقلة المسيرة الطبيعية لتعليم اللغة العربية في غرب إفريقيا والحيلولة دون انتشار مدارسها في المنطقة من جهة وإجبار معلمي اللغة العربية على تعلم اللغة الفرنسية من جهة أخرى.

فشل محاولات خنق التعليم العربي

إذا كان الحاكم الفرنسي فيديرب قد أقر سنة ١٨٥٧م إخضاع معلمي اللغة العربية في غرب إفريقيا لامتحانات مهنية وبيداغوجية، ونظيره فالبير قد أقر إجبارية تعلّم اللغة الفرنسية على معلمي العربية سنة ١٨٧٠م، فإن الحاكم الفرنسي جوبير (Jouber) فقد أصدر قراراً في نهاية السنة الأخيرة، يعتبر من الناحية العملية مكملاً للقرارين السابقين.

وقد نص قرار جوبير بالخصوص على إجبارية تعلّم تلاميذ اللغة العربية الأفارقة، اللغة الفرنسية، وذلك في المدارس العربية نفسها، أي إدراج تعليم اللغة الفرنسية من بين المناهج التعليمية العربية في هذه المدارس الأخيرة.

وعموماً فقد اعترى الغموض والابهام قرار جوبير هذا، ولم يستند صاحبه إلى الواقع الافريقي الثقافي عند صياغته ولا حتى إلى المنطق العقلي، بل تغلبت عليه الروح الاستعمارية المناوئة للغة العربية خاصة وللثقافة والحضارة الاسلامية عامة.

ولعل ما يعطينا صورة واضحة عن مواقف الادارة الفرنسية من اللغة العربية وتطورها في غرب إفريقيا السوداء، إبان الاحتلال الفرنسي للمنطقة، هو قرار الحاكم الفرنسي ماتيفير (Mathiver) الذي أصدره في سنة ١٨٩٦م. والذي استهدف على الخصوص وضع حد نهائي، «كما يعتقد صاحبه»، لمنافسة المدارس العربية الحرة للتعليم الفرنسي في البلاد.

وفي هذا المجال نص القرار المذكور وبإلحاح على ضرورة غلق المدارس العربية خلال الساعات التي تعمل فيها المدارس الفرنسية.

وقد اعترف ماتيفير صراحة أنها الوسيلة الوحيدة، التي يمكن استعمالها لجلب الأطفال الأفارقة إلى المدارس الفرنسية من جهة ووضع حد «لاحتكار اللغة العربية» الميدان الثقافي في غرب إفريقيا السوداء.

ولم تكد سنة ١٩٠٣ تنتهي حتى أصدر غي ريسون (Guy Risson) برنامجاً مكملاً لقرار ماتيفير الذي استهدف التنقيص من عدد المدارس العربية في غرب إفريقيا. ولم يختلف هذا القرار جوهرياً عن سابقيه. وكان يرمي أساساً إلى التخفيض من عدد المؤسسات العربية التعليمية في السينغال، ثم تعميم هذا القرار على كامل غرب إفريقيا السوداء.

والغريب أن بعض الكتاب الفرنسيين يطلقون على هذا البرنامج الأخير اسم: «تنظيم المدارس العربية الحرة».

وفي الحقيقة فإن الشيء الذي أدى بريسون إلى إصدار برنامجه هذا في ١٥/٧/١٩٠٣، هو تزايد عدد المدارس العربية الحرة في السينغال باطراد، رغم الاجراءات والقرارات التي كانت الادارة الفرنسية قد اتخذتها من قبل.

وتعتبر النتائج التي وصل إليها مشروع ريسون من أخطر النتائج السلبية للغة العربية في غرب إفريقيا السوداء. والجدول التالي[١٨] يعطينا صورة واضحة عن ذلك[١٩]:

اسم الدائرة	عدد معلمي اللغة العربية قبل سنة ١٩٠٤	عدد التلاميذ	عدد معلمي اللغة العربية المرخص لهم سنة ١٩٠٤
سان لويس	١٠٧	٢,٠٠٠	٢٨
دكار	٤٢	٦٥٦	١٧
غودي	٣	٨٣	٢
ريفيسك	٥٠	٣,٣٨٣	٤

ولحسن حظ اللغة العربية في غرب إفريقيا، لم يؤثر قرار ريسون هذا عملياً في مسيرتها الطبيعية إلا فترة قليلة دامت سنة واحدة ثم تبين للادارة الفرنسية عدم جدواه خاصة بعد تصميم معلمي اللغة العربية على متابعة رسالتهم التعليمية بأي شكل من الأشكال، وحتى إذا اقتضى ذلك تحويل منازلهم لايواء التلاميذ وتعليمهم اللغة العربية.

وأمام هذا الموقف الصارم للمعلمين السينغاليين، بالاضافة إلى أسباب أخرى سياسية وثقافية باء قرار ريسون بالفشل رغم المساعي الحثيثة لصاحبه واحتجاجاته الشديدة للحكام الساميين الفرنسيين.

وليست هذه المرة الوحيدة التي وقف فيها معلمو اللغة العربية في السينغال وقفة رجل واحد للدفاع عن ثقافتهم ولغتهم العربيتين، بل هناك كثير من المناسبات التي برهن من خلالها معلمو اللغة العربية على تمسكهم الثابت وعدم عدولهم عن اللغة العربية أدبياً وثقافياً وفكرياً.

والطريف هو أنه في شهر حزيران من

□ **الحفر على الخشب، إحدى الحرف التي أعيد إحياؤها في غرب افريقيا السوداء.**

سنة ١٩٠٦ أصدرت الادارة الفرنسية في السينغال، منشوراً جاء فيه أنه باستطاعة كل معلم من معلمي اللغة العربية في البلاد، أن يربح سنوياً مبلغاً مالياً مقداره ٣٠٠ فرنك فرنسي، إذا تطوع بأن يعلم تلاميذه اللغة الفرنسية مدة ساعتين أسبوعياً.

وقد وزع هذا المنشور بصورة واسعة على كل معلمي اللغة العربية في السينغال، ولكن لم يترشح ولو معلم واحد. ولم يستجب للنداء الفرنسي معلم واحد من معلمي اللغة العربية. ولم تؤثر الاغراءات المادية في نفوسهم، كما لم تكن للتهديدات والضغوط التي استعملتها الادارة الفرنسية من قبل لصرفهم عن تعليم اللغة العربية ونشرها بين الأوساط الافريقية، أي مفعول على نشاطاتهم الثقافية والتعليمية.

ورغم المراسيم والقرارات الفرنسية التي أتينا على ذكرها، والتي استهدفت القضاء المبرم على لغة الضاد في غرب إفريقيا السوداء، فإن عدد المدارس العربية قد ازداد بصفة تجذب الانتباه إما خلال سنوات صدورها بالذات أو خلال السنوات التي تلت الصدور.

فمثلاً خلال سنة ١٨٩٩ قدرت الاحصائيات الرسمية للادارة الفرنسية عدد المدارس العربية في مدينة «سان لويس» بالسينغال وحدها بما يقرب من ٩٠ مدرسة يلتحق بها حوالي ١٢٨٠ تلميذاً و ٤٩٤ تلميذة[٢٠].

أما عن تلاميذ المدارس الفرنسية الحكومية في نفس المدينة فلم يتجاوز عددهم خلال السنة ذاتها المذكورة ٤٢٠ تلميذاً مسجلاً رسمياً في هذه المؤسسات[٢١].

أما مدينة ريفيسك في السينغال فقد قدر عدد المدارس العربية فيها خلال ذات السنة المذكورة بخمس مدارس يذهب إليها حوالي ٧٣ تلميذاً و ١٧ تلميذة. وفي مدينة غوري قدرت المدارس العربية بأربع التحق بها حوالي ٥٠ تلميذاً و ١٢ تلميذة.

وعلى ما يبدو فإن إحصائيات التعليم العربي في السينغال لسنة ١٩٠٧، هي التي تعطينا صورة واضحة عن وضعية هذا التعليم، وبالتالي عن تطور وانتشار اللغة العربية في البلاد من جهة وعن الوضعية التي آل إليها التعليم الفرنسي من جهة أخرى[٢٢].

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الاحصائيات الرسمية للادارة الفرنسية نستطيع القول بأن تفوق التعليم العربي على التعليم الفرنسي أمر لا يختلف فيه اثنان وحقيقة تاريخية لا ينكرها ناكر، وذلك حتى السنة المذكورة، بل خلال الفترة الاستعمارية للبلاد الممتدة ما بين سنتي ١٨١٦ و ١٩٠٧ الميلاديتين. ومن ثمة يمكن اعتبار اللغة العربية لغة تقليدية في البلاد. علماً أنها سادت الأوساط الشعبية منذ تسعة قرون خلت، وأن حوالي ٤٥ في المائة من السينغاليين آنياً يحسنونها كتابة ومخاطبةً.

وليس هناك أدلّ على أمر تفوق اللغة العربية في السينغال على منافستها اللغة الفرنسية، وذلك رغم مساعي أصحاب هذه اللغة الأخيرة لاحباط اللغة الأولى وعرقلة تطورها وانتشارها في البلاد، أكثر من الوثائق الرسمية للادارة الفرنسية، ومن

جدول مقارنة عدد تلاميذ التعليم العربي والفرنسي في السينغال بين سنتي ١٩٠٧ ــ ١٩٠٩

مستعمرة السينغال	عدد تلاميذ المدارس العربية			عدد تلاميذ المدارس الفرنسية			عدد البنات من بين المجموع		
السنة	١٩٠٧	١٩٠٨	١٩٠٩	١٩٠٧	١٩٠٨	١٩٠٩	١٩٠٧	١٩٠٨	١٩٠٩
التلاميذ	٩,٠٨٢	١٠,١٧١	١٠,٩٣٣	٨٧١	١,٠٣٧	٧٨٩	٢١	٥٥٥	٣٥٤

ملحـــق:

مستعمرة السنغال **سنة ١٩٠٧**

إحصائيات التعليم العمومي(١)

تعليم اللغة العربية في المدارس والكتاتيب القرآنية للأهالي السنغاليين

المستعمرة	تعليم عمومي			تعليم حر					المجموع العام		
	مدارس ذ(*)	أساتذة ذ	تلاميذ ذ	عدد التلاميذ ذ	أ(*)	مدارس	أساتذة	تلاميذ	مدارس	أساتذة	تلاميذ
سان لويس	٥	٢	٧٥	١,٣٢٦	١٦٠	٤٦	٤٦	١,٤٨٦	٥١	٤٨	١,٥٦١
دكار	١	١	٢٦	٤١٥	١٢	٣٧	٢٧	٤٢٧	٢٨	٢٨	٤٥٣
قوري	—	—	—	٣٤	١٠	٢	٢	٤٤	٢	٢	٤٤
ريفيسك	—	—	٤٧	٥١٩	٣١	٢٠	٢٠	٥٥٠	٢١	٢١	٥٩٧
اسكال	٢	٣	١٦٢	٤٠٥	٤	٣٤	٣٤	٤٠٩	٣٧	٣٧	٥٧١
المنطقة المحمية	—	—	—	٨,٢٠٤	٢٨٣	١,٢٦٢	١,٢٦٢	٨,٤٨٧	١,٢٦٢	١,٢٦٢	٨,٤٨٧
المجموع	١٠	٧	٣١٠	١٠٩٠٣	٥٠٠	١,٣٩١	١,٣٩١	١١٤٠٣	١,٤٠١	١,٣٩٨	١١,٧١٣

(*) ذ: ذكور.

(*) أ: إناث.

(١) الأرشيف: (S.O.M) باريس ملف السنغال رقم ١٠.

بينها هذا الجدول الذي ننقله حرفياً، والذي يقارن بين عدد تلاميذ المدارس العربية وعدد تلاميذ المدارس الفرنسية في السينغال بين سنتي ١٩٠٧ ــ ١٩٠٩.

والحق أن هذه القرارات قد كانت لها أرضية خصبة أعدهـا الكتاب الفـرنسيون المعـروفون بمناوأتهم للغة العربية خاصة وللحضارة العربية وثقافتها عامة. وقد سبق أن أشرنا إلى كتاب السيدين كارير وبول هـول الذي كان المـرآة العاكسة لأفكار فيديرب إزاء اللغة العربية في غرب إفريقيا السوداء. والكاتبان المذكوران ليسا الوحيدين من نوعهما في هذا المجال، بل كاد الكتاب الفرنسيون خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن الحالي أن يتفقوا على أمرين اثنين: المناوأة والاقلال من شأن اللغة العربية الأدبـي والثقـافي وإخفاء انتشـارها في غـرب إفريقيـا السـوداء، من ذلك كتب السيد لويس سنولي (Louis Sonolet) سنة ١٩١٢ يقـول، وبالحرف الواحد، ما يلي(٢٣):

«... إنه إلى جانب التعليم الفرنسي في إفريقيا الغربية نجد تعليماً آخر أكثر انتشاراً من الأول، وهو التعليم العربـي في الكتاتيب القرآنية. وعدد تـلاميذه يقـدر بحـوالي ٣٥ الف تلميـذ. وفي السينغال وحده يقدر عدد الكتاب بثلاث مائة (٣٠٠) كُتّاب. اما في السـودان الغربـي فقـد يصل عددها إلى ٨٠٠ كتّاب. وفي غينيا وحدها يصل عدد الكتاتيب القرآنية إلى ١٢٠٠ كتاب. ولا داعي للتوقف أمام هذه الأرقام.. وهل يجب علينا (يقصد الفرنسيين) أن نخاف عاقبة تعليم كهذا يعتمد على إشارات في أغلب الأحيان يغادر التـلاميـذ الكتـاب بعـدهـا وهم لا يـدركـون معانيها...».

وواضح من هذا الكلام أن السيد سونولي يريد الاستنقاص والتقليل ليس فحسب من قيمة

اللغة العربية الأدبية والثقافية، بل كذلك من قيمة معلميها والمشرفين على مهنة التعليم العربي كافة في غرب إفريقيا السوداء.

أما عن عدد الكتاتيب القرآنية الذي ذكره فيما يخص سواء غرب إفريقيا بأكملها أو غينيا أو السينغال، فالأرقام التي أعطاها سونولي بعيدة كل البعد عن الحقيقة. ففيما يتعلق بغرب إفريقيا تشير المصادر التاريخية الموثوق بها إلى أن عدد تلاميذ اللغة العربية خلال هذا التاريخ قد تجاوز أكثر من ٨٢٠٠٠[٢٤] تلميذ، وليس كما يدعي سنولي ٣٥ ألفاً فقط. أما عن غينيا فتشير الاحصائيات الرسمية[٢٥] إلى أن عدد تلاميذ التعليم العربي قد بلغ سنة ١٩١٣ حوالي ٢٣٧٧٧ تلميذاً. وهو عدد لا تستطيع إطلاقاً ٨٠٠ محل أو كتّاب استيعابه، علماً أن بعض معلمي الكتّاب في البلاد كان يقتصر تعليمهم على بضع تلاميذ فقط، أحياناً لا يتجاوزون العشرة. وكذلك الشأن فيما يخص السنغال، فالوثائق الرسمية للادارة الفرنسية تذكر رقم ١٠٩٣٣ تلميذاً[٢٦]. ومن المؤكد أن مثل هذا العدد لا تستطيع استيعابه ٣٠٠ محل صغير للتدريس.

وعموماً فالأرقام التي أعطاها سنولي، إما أن يكون قد أعطاها عن عمد، قصد التنقيص من شأن انتشار اللغة العربية في غرب إفريقيا السوداء وإما أعطاها خطأ للاحصائيات الرسمية للادارة الفرنسية.

ويلخص السيد لو شانتوليي (Le Chantelier) آراء الحكام الفرنسيين في غرب إفريقيا أمام انتشار اللغة العربية والدين الاسلامي خاصة كما سيأتي[٢٧]:

«... يجب أن تكون سياسة فرنسا بالنسبة للاسلام ولغته في الداخل وفي الخارج متحفظة أشد التحفظ، متبعةً طريقاً فعالاً، وبدون تردد إزاءه وذلك قصد التنقيص من احتمالات انتشاره التدريجي في إفريقيا السوداء...».

وكتب السيد بانجير (Binger) مدير الشؤون الافريقية في مجلة أصدرها هو نفسه تحت عنوان: «نكبة الاسلام» يشرح نفس الفكرة السابقة ويلح على تطبيقها وعنوان المجلة يدل على محتواها[٢٨].

وكتب السيد روبير ارنو (R. Arnau) وكان آنذاك رئيساً لمصلحة الشؤون الاسلامية لمدينة دكار (Dakar) في سنة ١٩١٢ منددداً بانتشار اللغة العربية والدين الإسلامي في غرب إفريقيا قائلاً وبالحرف الواحد[٢٩]:

«... يجب أن تكون سياسة فرنسا سياسةً صارمة في إفريقيا الغربية.. ويجب وضع حد لنشاط معلمي الكتاتيب القرآنية والمرابطين في البلاد.. فإذا تعاطفنا مع هؤلاء سينتهي الأمر باندماج الأفارقة التدريجي في الاسلام. وبهذا نكون قد أخذنا بيد الاسلام ودفعنا عجلة تقدمه إلى الأمام...».

هذه هي بعض الأفكار والكتابات التي كوّنت الأرضية «الخصبة» التي انطلق منها الحكام الفرنسيون لغرب إفريقيا السوداء لاتخاذ مواقفهم وإصدار قراراتهم ومراسيمهم التي سطّرت الخط السياسي والثقافي للتعليم العربي في البلاد.

مواقف الكنيسة من اللغة العربية

في كلامنا عن مواقف الكنيسة من اللغة العربية سنقتصر على وثيقة تاريخية عثرنا عليها خلال الأبحاث التي قمنا بها في مجال إعداد هذه الدراسة. وليس المجال هنا لتناول هذا الموضوع بالتفاصيل الكافية.

وعموماً فموقف الكنيسة الكاثوليكية من انتشار اللغة العربية خاصة ومن الدين الاسلامي عامة في غرب إفريقيا السوداء يتضح جلياً من خلال التقرير أو الرسالة التي بعثها السيد باربيي (Barbier) المسؤول السامي القديم للبعثات التبشيرية في السينغال، وذلك بتاريخ ٢٩ أيار ١٨٥٦، إلى السيد مايسترو (Meistro) مدير المستعمرات الفرنسية[٣٠].

ومحتوى رسالة باربيي هذه، عبارة عن مساندة وتأييد لكتاب السيدين كارير وهول، الذي صدر سنة ١٨٥٥ بباريس تحت عنوان: (La Sénégambie Francaise) وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الكتاب وتأثر فيديرب به في سياسته العامة إزاء الثقافة العربية وحضارتها.

ويؤكد باربيي في رسالته هذه على استعمال وسائل جدية للقضاء على المساجد والمحاكم

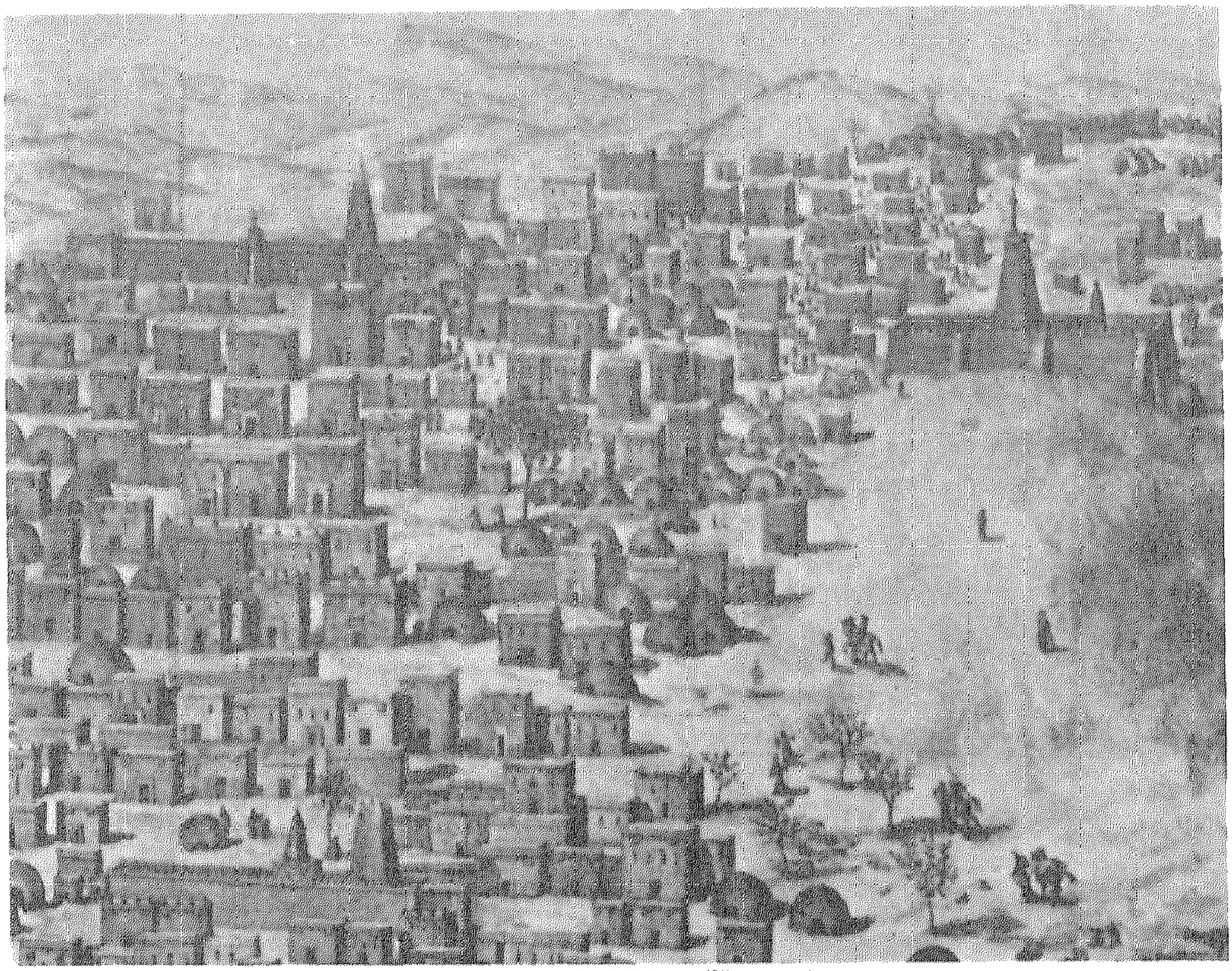

□ تمبكتو عام ١٨٢٨.

الاسلامية. وعرقلة فكرة تثقيف الشبيبة الاسلامية ثقافة عربية في غرب إفريقيا السوداء، بل يؤكد على الوقوف ضد هذه الفكرة ونبذها من أساسها.

كما يقترح صاحب الرسالة على وزير المستعمرات الفرنسية طرد معلمي اللغة العربية «المرابطون» «الغرباء» من السينغال، وتقليص الأحياء التي تدرس فيها اللغة العربية في كل مدن السينغال عامة، وفي مدينة سان لويس خاصة بحيث يكون التعليم العربي مقتصراً على حيين فقط من أحياء كل مدينة.

ويعتبر باربيي معلمي اللغة العربية مصدراً من مصادر المشاغبة والبلبلة في مدينة «سان لويس» وعائقاً كبيراً أمام انتشار الحضارة الغربية في السينغال.

ويقول باربيي في رسالته هذه على وجه الخصوص ما يلي:

«... يجب أن نفرض رقابة شديدة على معلمي اللغة العربية في السينغال على مختلف أنواعهم ونزعاتهم الدينية وذلك بجعل مساعدين لهم من — اللائيكيين — الذين تعلموا في — أديرة — سانت إسبري (St Esprit) وسان كور (St Cœur).

وكل واحد يستطيع أن يلاحظ الخطأ، والتناقض اللذين وقع فيهما باربيي من خلال هذا الاقتراح، حيث يسمي، ويعتبر من تعلم، وتربى وتغذى بلبان الأديرة المسيحية «لائكياً».

ويقف بول مارتي المتخصص في الشؤون الاسلامية هو الآخر موقفاً متشائماً من فتح المدارس العربية في غرب إفريقيا قائلاً بالحرف الواحد:

«... من الخطأ فتح المدارس العربية في إفريقيا السوداء.. إنها تنير العقول المضادة لنا.. علينا أن نترك الاسلام يتطور ويسير في طريقه المظلمة والتي هي أقل خطراً بالنسبة إلينا...».

وخلاصة القول أن الفرنسيين لعبوا دوراً

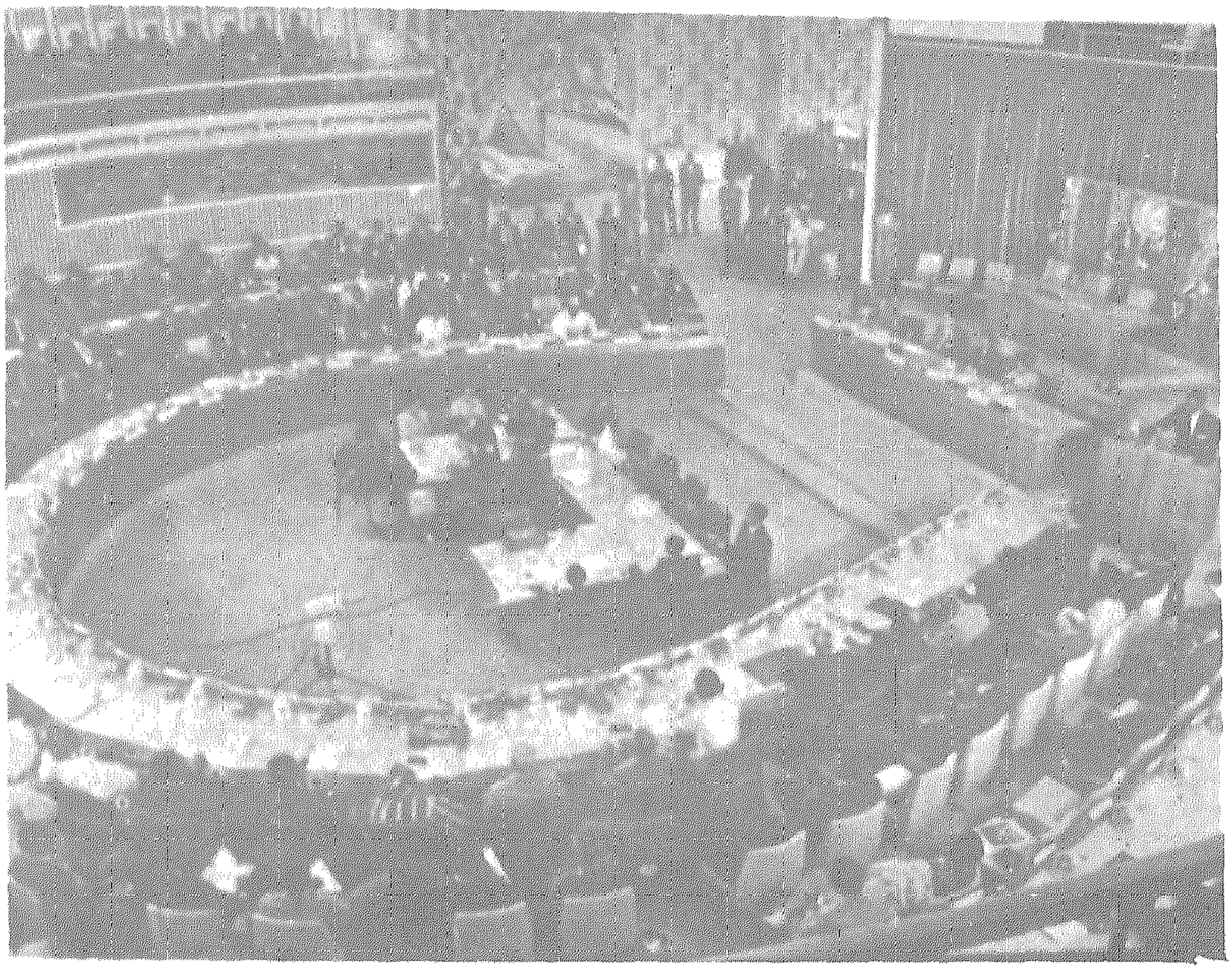

□كان الاستعمار في الماضي، يسرح ويمرح في افريقيا.. اما في الستينات فلقد بدا التغيير الكبير، وكان من ملامحه «منظمة الوحدة الافريقية» ويبدو في الصورة رؤساء الدول الأفريقية اثناء انعقاد الجلسة الاولى للمنظمة في ايار/مايو عام ١٩٦٣.

نشيطاً ومكثفاً قصد القضاء على وجود اللغة العربية في غرب إفريقيا كأفراد وكجماعات سواء على المستوى الرسمي أو غير الرسمي.

فعلى المستوى الرسمي قد ذكرنا أمثلة ونماذج من كتابات بعض الفرنسيين التي كانت تكن الحقد والضغينة للعربية باعتبارها عاملاً هاماً من عوامل التثقيف والتحضير بالنسبة للأهالي الأفارقة الزنوج في غرب إفريقيا.

ومن أصحاب هذه النزعة المعادية للغة العربية والتي اخذت منها موقفاً سلبياً منذ التواجد الفرنسي الاستعماري في الجزء الغربي للقارة السمراء، فريديريلو كارير وبول هول، وليسيان هوبير، وأرنو، ومارتي وغيرهم.

أما على المستوى الرسمي فقد شكلت كتابات المؤلفين الفرنسيين المناوئين للغة العربية في غرب إفريقيا السوداء حجر الزاوية بالنسبة لصياغة الأفكار الرئيسية لمختلف القرارات والمراسيم التي أصدرها الحكام الفرنسيون خصيصاً لعرقلة المسيرة الطبيعية للغة العربية في البلاد.

ومن أشهر هذه القرارات التي تمثل السياسة العامة وتكشف عن مواقف الادارة الفرنسية من اللغة العربية في غرب إفريقيا قرار فيديرب الذي اصدره سنة ١٨٥٧، وقرار نظيره جوبير الذي اصدره سنة ١٨٧٠، وقرار فالبير الذي أصدره في نهاية نفس السنة الأخيرة، وقرار ماتيفير الذي اصدره سنة ١٨٩٦م، ومشروع ريسون الذي وضعه حيز التنفيذ سنة ١٩٠٣م.

وقد جاءت هذه القرارات مكملة لبعضها البعض استهدفت كلها إحباط اللغة العربية وإقصاءها عن الميدانين الثقافي والتعليمي في غرب إفريقيا السوداء.

وإذا كانت النتائج السلبية لهـذه القرارات بالنسبة للعربية لم تبرز إلى الوجود في الأمـد القريب أو المتوسط، فإن نتائجها الخطيرة أخذت في الظهور خاصة بعد انتهاء الحرب الكـونية الأولى، وكانت من بين العوامل المساعدة عـلى إضعاف اللغة العربية في غرب إفريقيا السوداء.

□ مقتطف من رسالة السيد باربـي (BARBIER) مسؤول سامي قديم للبعثات التبشيرية في السنغال بتاريخ ٢٩ ايار ١٩٥٦[١].

اساند بكل قوايا طلب السيد كاربر[١]

القاضي باستعمال وسائل جديدة للوصول الى تهديم المسجد ،(ص ٣٥٦)،
والاستغناء نهائيا عن فكرة انشاء محكمة اسلامية (ص ٣٦٣) ،وكذلك تنفيـذ
الوسيلة السهلة التي اقترحها لتثقيف الشبيبة الاسلامية ، طرد المرابطين
الشرفاء ، تقليص الاماكن التي يعلم فيها هؤلاء المرابطون ، وحصرهم في
حيين من احياء سان لويس، وقبولهم كأساتذة بعد امتحانهم ، ومراقبتهم
ـ وضع مساعدين لهم من المعلمين اللائكيين لكي يتعلموا اللغة الفرنسية
(ص ٣٦١) . ولكن يجب ان يكون هؤلاء اللائكيين ذوي اخلاق يعتمد عليها
لذلك يمكننا ان نتجه الى السيد المسؤول السامي للبعثات التبشيرية
سان اسبري (St Esprit) وسان كور دوماري (StCoeur de Marie)
كما فعلنا عندما ،اقتضى الامر بالمارتينيكان La Martinique) وقادلوب
(Gadaloupe)

وقد اطلب انتباهكم سيادة المدير ،اذا سمحتم لي الى مشروع
السيد كاربير القاضي (بانشاء القرى المسيحية عبر نهر السنغال (ص ٣٧٢)
امضاء :
باربي

(١) ARCHIVES .: S.O.M Paris Dossier Senegal N°10

الهوامش

(١) Faidherbe Louis Léon César: ولد في مدينة ليل (Lille) بتاريخ ٣ جوان ١٨١٨ وتوفي في باريس بتاريخ ٢٩ سبتمبر ١٨٨٩ للميلاد.

(٢) William B. Cohen: Empereurs sans sceptre. Paris, 1973, p.22.

(٣) Archives: S.O.M. Paris, dossier Senegal I No. 10.

(٤) Delavignette: Les Techniciens de la colonisation. Vendome, 1945, p. 87.

(٥) A. Gouilly, L'Islam en A.O.F., Paris, 1958, p. 129.

(٦) انظر رسالة فيديرب إلى وزير المستعمرات الفرنسية المؤرخة بتاريخ ١٨٥٦/٧/٩، الملحقة للمقال. وهي وثيقة تاريخية ننشرها لأول مرة.

(٧) Denise Bouche: Thése-Lille. 1975 L'Enseignement, dans les territoire Français de L'A.O.F. (1816-1919).

(٨) F. Carrère et P. Holle: De la sénégambie Française, Paris, 1855.

(٩) فريدريك كارير: موظف بالادارة الفرنسية، رئيس مصلحة الشؤون القضائية بمدينة سان لويس بالسنغال.

(١٠) بول هول: رحالة فرنسي، عسكري متقاعد، كان يسكن مدينة سان لويس.

(١١) Vincent Monteuil: L'Islam noir, Paris, 1958, p.222.

(١٢) Archives: S.O.M., Paris. Dossier Senegal No. 10 et 10 bis.(*)

تشمل الملف عدة وثائق رسمية للإدارة الفرنسية حول هذا الموضوع. انظر رسالة فيديرب مثلاً، المؤرخة بتاريخ ١٨٥٦/٧/٩ التي نشرناها في هذا المقال.

(١٣) Denise Bouche, op. cité, pp. 313-315.

(١٤) من الرهبان البيض الذين تعلموا العربية على معلمي الكتاب: القسيس اندري كورسيني (A. Corsini)، الذي اختص في تعليمها في مدارس اديرة بالورمال (Les Fréres Palormell).

(١٥) للمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع انظر مقالاتنا في مجلة الجيش الشهرية تحت عنوان: تشبث الجزائريين بثقافتهم ولغتهم عبر العصور عامة وخلال العهد الفرنسي خاصة.إعداد: من حزيران إلى تشرين الاول ١٩٨٠.

(١٦) Denise Bonche, pp. 313-315.

(١٧) DeniseBonche, op. cité, p. 298.

(١٨) Archives: S.O.M. Dossier Senegal No. 10 bis.

(١٩) يقتصر الجدول فقط على بعض المراكز الهامة في السينغال.

(٢٠) Archives: S.O.M. dossier Senegal No. 10.

(٢١) Archives, op.cité.

(٢٢) انظر ملحق إحصائيات تعليم اللغة العربية في السنغال سنة ١٩٠٧ في آخر المقال — ينشر لأول مرة —.

(٢٣) Louis Somolet: L'A.O.F. C.A.H. Paris 1913, p. 80 à 84.

(٢٤) Albert Sarraut: Lamise en valeut des colouies Française Paris, 1958, pp. 299 et 400.

(٢٥) Archives: S.O.M. Dossier Guinee No. 10.

(٢٦) Archives: S.O.M. Dossier Senegal No. 10 et 10 bis.

(٢٧) A. Gouilly: L'Islam en A.O.F., p. 250.

(٢٨) A. Gouilly: op.cité, même page.

(٢٩) R. Arnauld: L'Islam et le politique musulmane Française, Paris, 1912., p. 44 et mile.

(٣٠) Archives: S.O.M. Paris Dossier Senegal No. 10.

انظر الو ثيقة في آخر المقال — وثيقة تنشر لأول مرة —.

«أتاتورك، مصطفى كمال (١٨٨١ — ١٩٣٨)»

● مؤسس تركيا الحديثة. ولد في سالونيك. قاد حركة المقاومة العسكرية والسياسية ضد معاهدة سيفر المعقودة في ١٠ آب (أغسطس) ١٩٢٠ والتي تضمنت بنوداً سلخت بموجبها عن تركيا أراض واسعة ووضعت قيود شديدة على سيادتها. تمكن مصطفى كمال من طرد القوات اليونانية من الأراضي التركية التي كانت قد احتلتها في أعقاب الحرب العالمية الأولى كما الغى الخلافة العثمانية وأصبح رئيساً لجمهورية تركيا. أسس حزب تركيا الفتاة. أدخل الحروف اللاتينية في اللغة التركية. لقبته الجمعية الوطنية أتاتورك أي «أبو الأتراك».

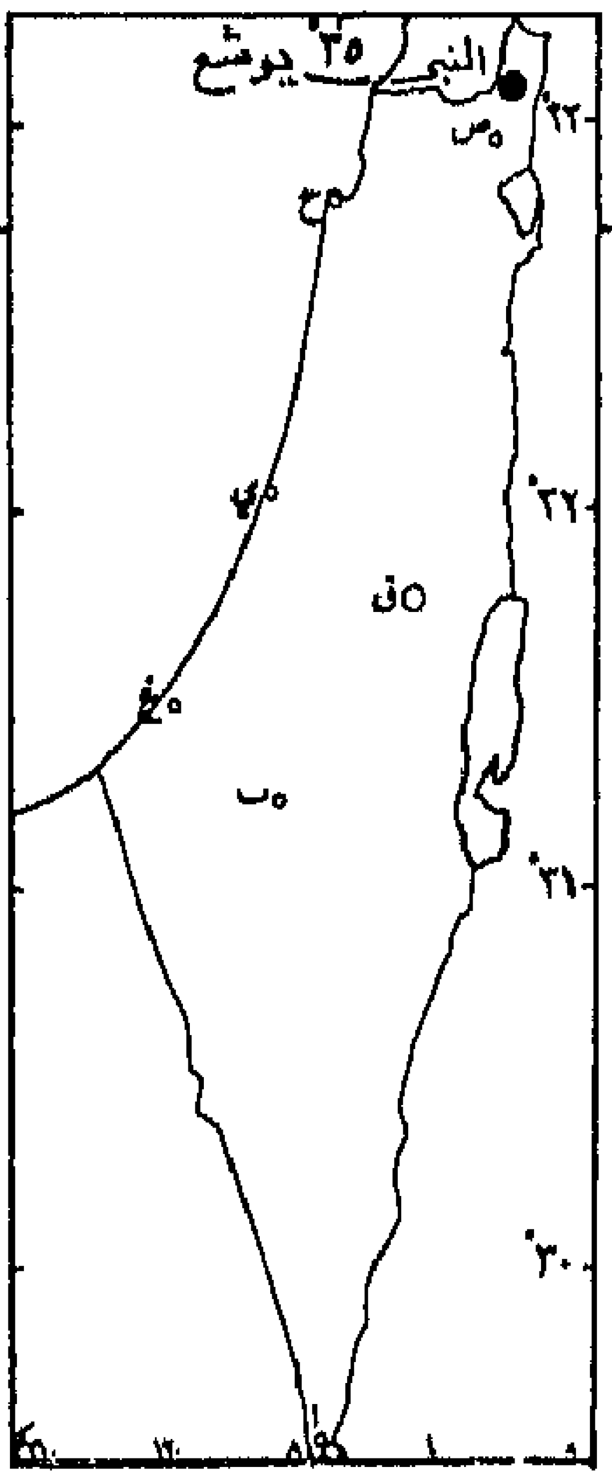

النبي يوشع

سمّيت بذلك نسبة إلى المزار الموجود فيها ويقال إنه قبر يوشع ابن نون. وهي قرية عربية تقع في شمال شرق مدينة صفد وتبعد عنها ٣١ كم كلها طريق معبدة.

أنشئت قرية النبي يوشع في جبال الجليل الأعلى عل ارتفاع ٣٨٠م عن سطح البحر في منطقة تشرف على سهول الحولة الشمالية وتقع على بعد ٣,٥ كم غربي نهر الأردن. ومن شرقها يبدأ وادي خلّة المغر رافد وادي العروس الذي يمر بشمالها على بعد نصف كيلومتر وينتهي في المستنقعات الواقعة شمالي بحيرة الحولة. ويتميز هذا الوادي بشدة انحدار سفوحه في المنطقة الواقعة في شمال وشمالي شرق القرية.

والنبي يوشع قرية صغيرة كان فيها ١٢ مسكناً في عام ١٩٣١. وفي عام ١٩٤٥ بلغت مساحة القرية ١٦ دونماً ومساحة أراضيها ٣,٦١٧ دونماً لا يملك الصهيونيون منها شيئاً.

كان في النبي يوشع ٥٢ نسمة من العرب في عام ١٩٣١، وارتفع العدد إلى ٧٠ نسمة في عام ١٩٤٥.

ضمت القرية جامعاً، وأنشأ البريطانيون في شمالها مخفراً للشرطة، ولم يكن فيها مدرسة، وقد اعتمد اقتصادها على الزراعة وتربية المواشي، وكان يقام فيها في الخامس عشر من شعبان من كل عام احتفالات تشبه احتفالات النبي روبين في يافا.

هاجم الصهيونيون مركز شرطة النبي يوشع في ليلة ١٩٤٨/٣/٢٥، ولكنهم فشلوا في احتلاله وقُتل منهم ٤٠ فرداً. وفي ١٧ أيار احتلت القوات الصهيونية القرية والمخفر بعد أن اضطر المجاهدون العرب للانسحاب منها لقلة الذخيرة والعتاد والأفراد (ر: النبي يوشع، معركة)، وقام الصهيونيون بتدمير القية وتشلايد سكانها العرب. ويستخدم المخفر حالياً مركزاً للشرطة يطلق عليه اسم «متسُودَت يشع».

● الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، الطبعة ١٩٨٤.

روائع سورية تطوف أميركا

يطوف الولايات المتحدة حالياً معرض هام للآثار والفنون السورية، يركز على غنى الحضارة السورية القديمة وما ساهمت به لاحقاً في الحضارة الغربية. ويكتسي المعرض أهمية خاصة لأنه يلقي الضوء على تطور أول أبجدية أدت إلى اختراع الكتابة، كما يضم أول قاموس ثنائي اللغة، وأول نظام حسابي يستعمل في مركز حضري. كل ذلك ــ وكثير غيره ــ نشأ وتطور في مهد الحضارة الذي يعرف بالهلال الخصيب، والذي يمتد من نهر الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط نزولاً حتى الصحراء العربية.

سمي المعرض «من إيبلا إلى دمشق: فنون وآثار سورية القديمة». ويلقي الضوء على المنطقة التي شهدت مهبط ثلاثة من الأديان الرئيسية هي المسيحية والاسلام واليهودية، كما يعطينا فكرة عن مجتمع غني ارتكز على الزراعة والتجارة. والأهم من كل ذلك أن الأبحاث التي تمت إعداداً لهذا المعرض قد أدخلت ثورة ــ كما يقال ــ على فهمنا المعاصر لحضارات الشرق الأدنى وجذورها.

المحطة الأولى للمعرض كانت في غاليري والترز للفنون بمدينة بلتيمور، حيث زاره حوالي ٣٠,٠٠٠ شخص لكي يطلعوا على إنجازات سورية الحضارية الواسعة التي تمتد على مدى أكثر من ١٠,٠٠٠ سنة. وفي المحطة الأولى من جولته عبر الولايات المتحدة التي تغطي سبع مدن وتستغرق عامين، اجتذب المعرض جمهوراً يزيد بنسبة تتراوح من ١٠ إلى ٢٠ ٪ عما اجتذبته المعارض الأخيرة المماثلة.

يغطي المعرض أكثر من مئة قرن من الزمن ويظهر «المساهمات الفريدة لشعب من أكثر شعوب العالم القديم تقدماً من الناحيتين الثقافية والاقتصادية». فهو يتتبع تطور الكتابة والدين والتجارة والحرف والحياة في المدن منذ فجر الحضارة حتى القرون الوسطى.

يضم هذا المعرض، الذي يطوف الغرب للمرة الأولى، حوالي ٣٠٠ قطعة أثرية يرجع تاريخ بعضها إلى عام ٨٠٠٠ق. م. وأخذ معظمها من الحفريات الأثرية التي تمت خلال السنوات الخمسين الماضية. وعندما يتأمل الزائر الأدوات الحجرية والتماثيل والفسيفساء واللوحات

□ نقش على حجر كلسي فوق مدفن اغمات ويعود لحوالي ١٥٠ ــ ٢٠٠ م.

الجدارية والجواهر المصنوعة من الذهب واللازورد وغيرها من الكنوز، يتعرف على تطور المنطقة الثقافي لغاية القرن السابع عشر الميلادي.

ويقول يلبرت هيلرز، أستاذ اللغات السامية في جامعة جونز هوبكنز بمدينة بلتيمور، إن اكتشافات إيبلا مهمة لأنه لم يكن هناك من يتوقع العثور على «مثل هذا المجتمع المزدهر والمتعلم والمتطور في تلك الحقبة من الزمن».

ويقول الدكتور عفيف بهنسي مدير عام المتاحف والاثار في سورية: «إن تاريخ التطور الثقافي في أرض سورية يمتد آلاف السنين في الماضي، ويقدم نظرة فريدة على التراث الثقافي المشترك بين كافة الشعوب». ويعالج المعرض مختلف نواحي الحضارة السومرية التي تعتبر أقدم حضارة في العالم، كما يعالج الحقبات التاريخية التكوينية لسورية القديمة بما فيها بداية الزراعة والمدن الأولى ومطلع الحضارة الإسلامية.

وتعاون الدكتور بهنسي مع علماء ألمان من أجل تنظيم هذا المعرض وفقاً لتسلسل زمني يتبع الحقبات الثقافية، وهي: حقبة ما قبل التاريخ التي تمتد من حوالي عام ٨,٠٠٠ إلى

٣,٠٠٠ق. م. وتتضمن نشأة المدن والحضارة والكتابة، الحقبة الديناستية الأولى والحقبة الأكادية من عام ٣,٠٠٠ إلى ٢,١٠٠ق. م. حيث ازدهرت مدينتا إيبلا وماري، الحقبة السورية القديمة من عام ٢١٠٠ إلى ١٦٠٠ق. م. وتركز على نشأة ممالك الأموريين، والحقبة السورية المتوسطة التي تمتد من عام ١٦٠٠ إلى ١٢٠٠ق. م. وتعالج السياسة والتجارة على صعيد دولي.

ويستمر المعرض في سرده للتاريخ فيقدم لنا: الحقبة السورية الجديدة التي تمتد من عام ١٢٠٠ إلى ٣٣٠ق. م. حيث يظهر الآراميون والحثيون الحديثون والآشوريين، والحقبتين الاغريقية والرومانية من عام ٣٣٠ق. م. حتى عام ٤٠٠م حين ظهر اليونانيين والرومان في المنطقة، وأخيراً الحقبة الإسلامية من عام ٦٠٠ إلى ١٦٠٠ م، حيث تظهر سورية الحديثة ومختلف الفنون الإسلامية.

لم تبدأ الجهود للكشف عن آثار سورية إلا في عام ١٩٤٦ حين أحرزت البلاد على الاستقلال. وقد وصف المعرض بأن واحد من أهم المعارض التي أقيمت مؤخراً، ليس فقط بسبب قدم عهد المعروضات بل لأن العديد منها لم يكتشف إلا منذ عهد قريب في الحفريات الأثرية العديدة التي تجري حالياً في سورية. ويشتمل هذا المعرض المتجول في الواقع على العديد من الأعمال الفنية التي تشاهد للمرة الأولى خارج سورية.

في عام ١٩٧٥، وعلى بعد حوالي ٥٠ كيلومتراً جنوبي حلب، عثر علماء الآثار للمرة الأولى على كتابة تبين أن الموقع الذي يحفرون فيه يدعى إيبلا، التي كانت في الماضي مملكة غنية جداً. وتبين فيما بعد أن الموقع غني بالآثار، إذ عثروا فيه على أكثر من ١٥,٠٠٠ لوحة مسمارية تضم السجلات الادارية لاقتصاد متطور مركزي التنظيم.

ومن أبرز المعروضات لوحة من الأجر عمرها ٤٥٠٠ سنة عليها كتابات مسمارية باللغتين الايبلية والسومرية، اعتبرت أقدم قاموس ثنائي اللغة في العالم. وتشكل هذه الأجرة أقدم وثيقة مكتوبة في التاريخ السوري الذي يعود إلى الحقبة

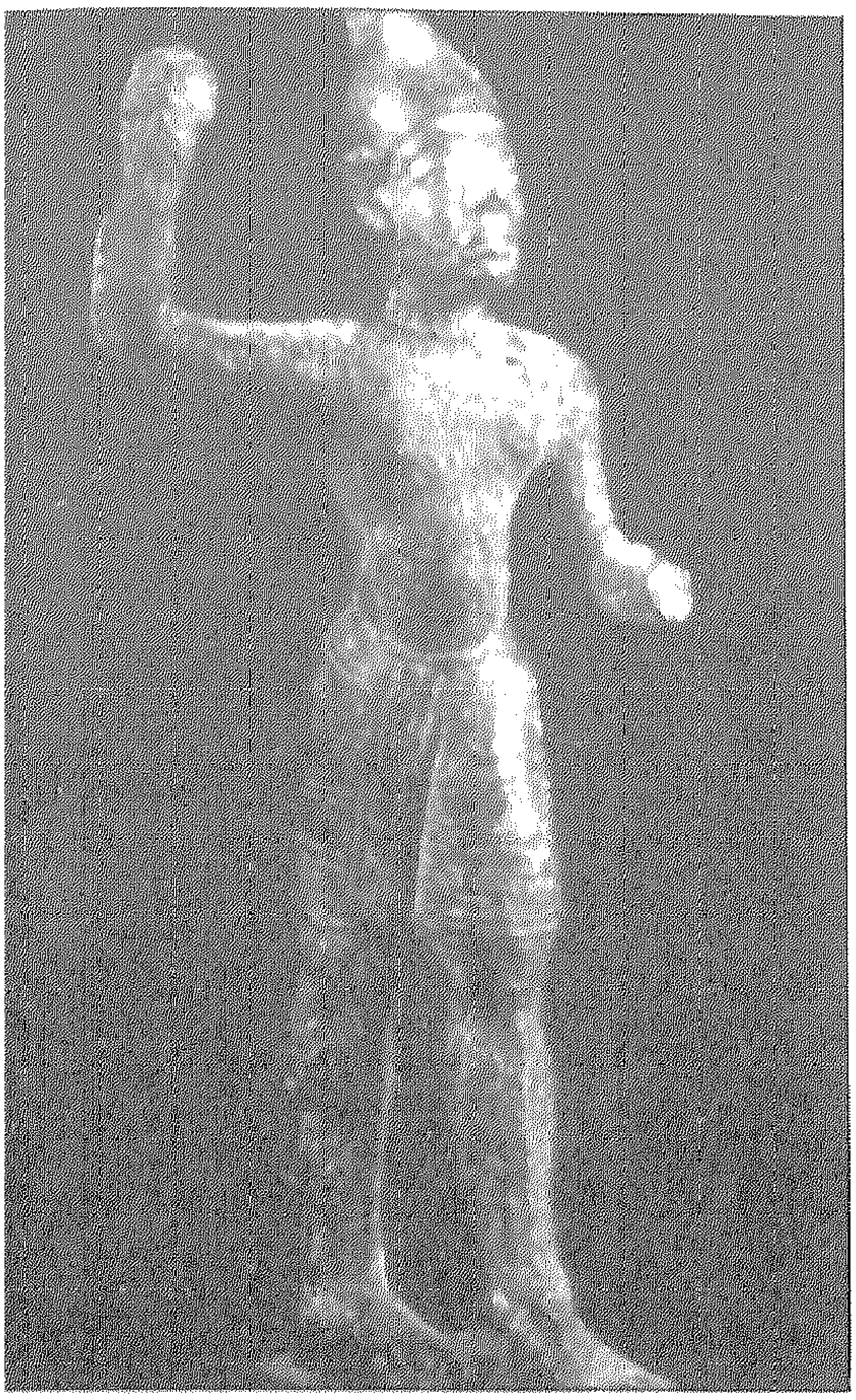

□ أحد آلهة اوغاريت، عثر عليه جنوبي المدينة ويعود لحوالي ١٤٠٠ ــ ١٢٠٠ ق.م.

المتدة من عام ٣٠٠٠ إلى عام ٢١٠٠ق. م.

كانت الحياة التجارية النشيطة في سورية القديمة تحتاج إلى سجلات مما أدى إلى اختراع اللغة المكتوبة. وخلال هذه الفترة نشاهد تطور الكتابة من خلال الأختام والدمغات.

يقول ألن ريدير ليمان، المسؤول عن شؤون الفن القديم في غاليري والترز، أن الحضارة السورية قد علقت دائماً أهمية على اللغة المكتوبة باعتبارها تساهم في غنى المجتمع، وتشكل عاملاً من عوامل الاستقرار السياسي والاجتماعي، وقد تجلى ذلك لاحقاً في الخط العربي الجميل. وأضاف يقول: «يشكل هذا المعرض جزءاً من التاريخ السوري تم تجاهله لوقت طويل». بعض من أهم الوثائق المكتوبة التي تضمنها المعرض جاءت من مدينة أوغاريت القديمة التي كانت

□ تمثال امرأة مصنوع من المرمر المطعم بالأصداف
يعود لحوالي ٢٦٠٠ ــ ٢٣٥٠ ق.م

□ انزو، النسر المصنوع من اللازورد والذهب والقار والنحاس، يعود لحوالي عام ٢٥٠٠ ق. م

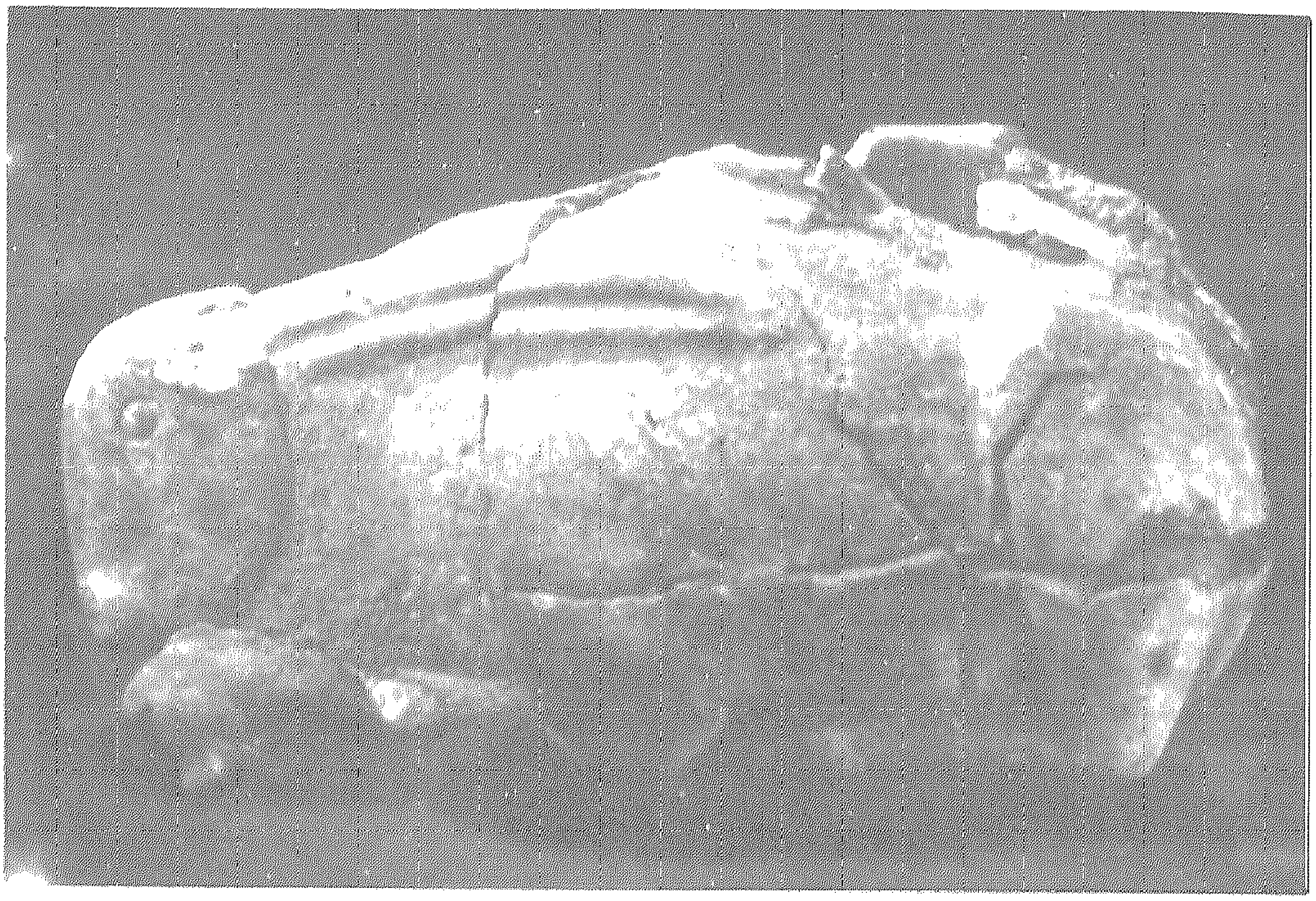

□ وعاء على شكل أرنب مصنوع من المرمر ويعود لحوالي ٦٤٠٠ ـــ ٥٩٠٠ ق.م.

□ نص قانوني على أجرة،
تعود لحوالي
٢٣٥٠ ـــ ٢٣٠٠ ق.م.

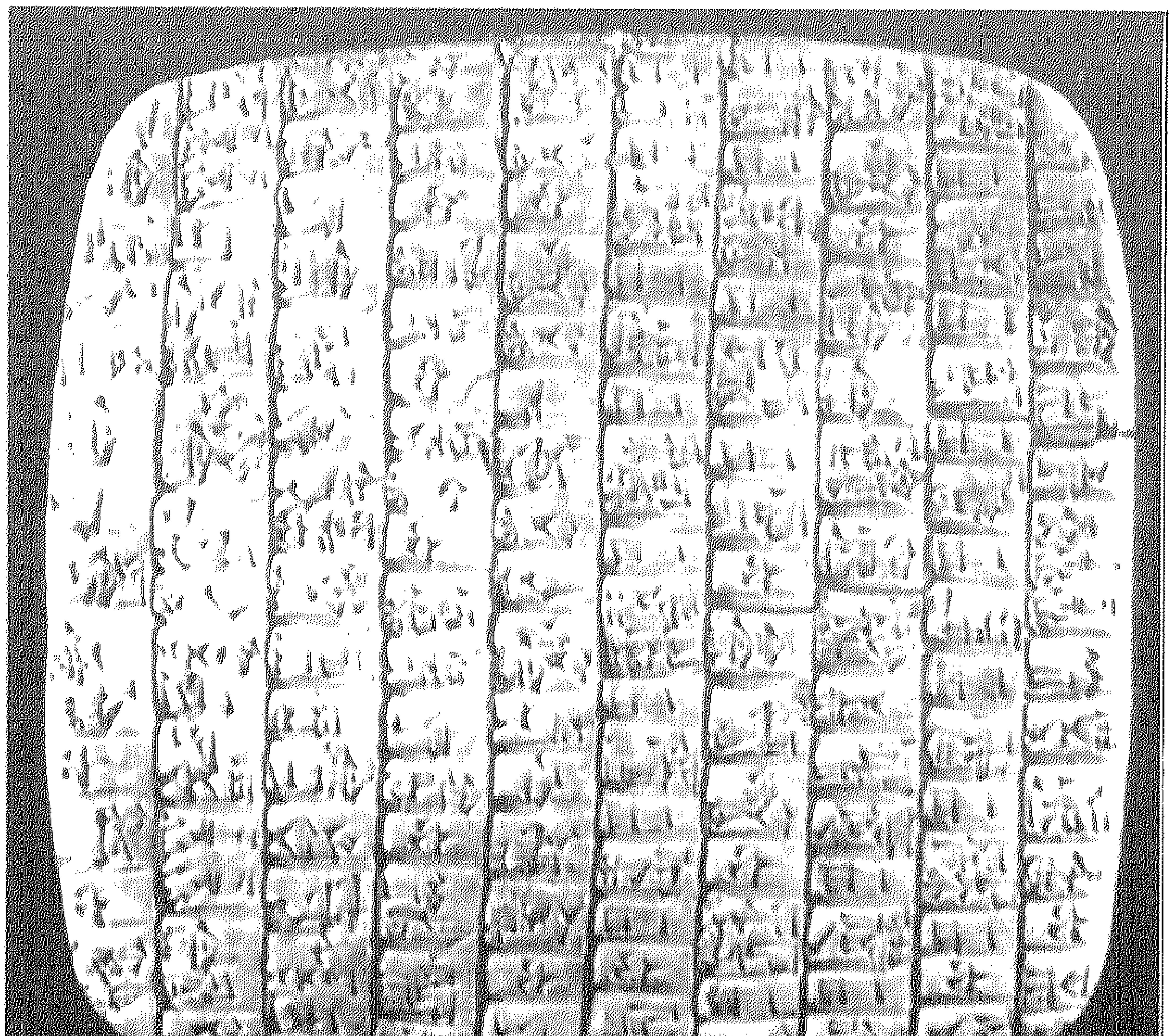

ميناء مهماً في المنطقة. صنعت هذه الوثائق من الطين وتعود اثنتان منها إلى عام ١٢٥٠ق. م. أحدهما تمثل مرسوماً ملكياً بالطلاق، بينما تمثل الثانية شراء إعفاء من الخدمة العسكرية. وهناك وثيقة تعود إلى عام ١٣٠٠ق. م. وتتعلق ببيع أرض ملكية.

وخلال طواف المعرض عبر الولايات المتحدة خلال العامين القادمين، يحل بمتحف التاريخ الطبيعي في مقاطعة لوس أنجلوس بولاية كاليفورنيا، فإلى متحف الفنون الجميلة في ريتشموند بولاية فيرجينيا، ثم إلى متحف الفنون في سينسيناتي بولاية أوهايو، ثم معهد الفنون في ديترويت بولاية ميشيغن، وينهي جولته في المتحف القومي للتاريخ الطبيعي التابع لمؤسسة سميثسونيان في واشنطن في خريف عام ١٩٨٧.

وقد قال روبرت برغمان مدير غاليري والترز: «يكاد هذا المعرض يعتبر من عدة نواح بمثابة كتاب مدرسي أساسي لأنه يضم الأشياء الأساسية في حضارته.

«لم يقم السوريون بمجرد اختيار بعض الأعمال التي تمثل حضارتهم، بل اختاروا بعضاً من أفضل الأعمال القديمة التي بقيت في سورية وهي ممتازة. ما عليك إلا أن تتجول في المعرض لتتجلى لك روعتها. إنه معرض عظيم يثير المشاعر. لدينا هنا الآن بعض من أفضل الأعمال التي تمثل حضارة سورية القديمة. هذا امتياز رائع نخص به. من هنا تنبع قوة المعرض، من كونه الأفضل».

ويضم المعرض ثروة من الأعمال الفنية التي عثر عليها في القصور والمعابد والمدافن القديمة في سورية. من أروع هذه الأعمال: إناء للمساحيق التجميلية مزود بمقبض على شكل بطة ومصنوع من العاج، عثر عليه في القصر الملكي بأوغاريت، وجه مصنوع من الرخام والصدف واللازورد عثر عليه في معبد بماري ويعود إلى الفترة ٢٦٠٠ ــ ٢٣٥٠ق. م.، عقد ذهبي مطعم بالعقيق والعقيق الأحمر والأحجار الاصطناعية الملونة وقد عثر عليه في أحد المدافن بمدينة ماري التي كانت في الماضي مركزاً سياسياً ودينياً هاماً.

وفي المعرض أيضاً: تعويذة على شكل القنفذ صنعت من المرمر الأبيض وعثر عليها في تل براك، افريزان مطعمان بالصدف والعاج والاردواز، شظايا رسوم جدارية على الجص عثر عليها في ماري وتعود إلى الفترة الممتدة من ١٩٠٠ إلى ١٧٥٠ق. م. بالاضافة إلى العديد من النقوش البارزة الجنائزية المصنوعة من الحجر الكلسي الأبيض عثر عليها في تدمر.

لقد اعد هذا المعرض مع الفيلم الوثائقي الذي يرافقه من أجل تعريف الجمهور الأميركي بتاريخ سورية العظيم، وأملاً في تحفيزه على استكشاف المزيد من ثرواتها الحضارية الواسعة. وقال السفير السوري في الولايات المتحدة رفيق جويجاتي أن الأميركيين قد اظهروا اهتماماً واضحاً بالمعرض وأنه وجد الترحيب الأميركي مرضياً. ●

إبراهيم باشا (١٧٨٩ ــ ١٨٣٩)

● قائد مصري. الابن الأكبر لمحمد علي. قائد الحملة المصرية ضد الوهابيين (١٦ ــ ١٨١٩) أخمد ثورتهم. قائد الجيش المصري ضد الثوار اليونانيين الذين قضى على ثورتهم (٢٥ ــ ١٨٢٨). اكره على الانسحاب عند نزول الفرنسيين في المورة. فتح فلسطين والشام، ووصل إلى كوتاهية (٣٢ ــ ١٨٣٣). حينما تجدد القتال ١٨٣٩ بين المصريين والأتراك انتصر إبراهيم باشا في معركة نزيب في حزيران (يونيو) ١٨٣٩. اضطر إلى الانسحاب لتدخل الدول الأوروبية. عيَّنه محمد علي نائباً عنه في حكم مصر ١٨٣٩، ولكنه توفي في نفس العام.

الصابئة

د. غادة المقدّم عدره

اختلف الباحثون في تعريف كلمة الصابئة ومن جملتهم العرب. وكان اختلاف هؤلاء في المبنى واتفاقهم في المعنى، وقد تعددت التفسيرات لهذه الكلمة ومنها ما قاله العلامة ابن القيم الجوزية في كتابه «إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان» ــ بما معناه ــ: «واصل دين هؤلاء أي الصابئة فيما زعموا أنهم يأخذون محاسن ديانات العالم ويخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً وعملاً، ولهذا سموا صابئة أي خارجين، فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين وتفصيله إلا ما رأوه فيه من الحق». ويقول البيروني في كتابه «الآثار الباقية»: «أما الصابئة على وجه الحقيقة فهم الذين تخلفوا ببابل من جملة الأسباط أيام كورش. ويذكر البيروني أن اسمهم مشتق من هاران بن ترح أخي إبراهيم عليه السلام، وأن إبراهيم النبي قد ظهر فيهم. ويقول البيروني أن مؤسس هذه الطائفة هو بوداسف الفيلسوف وهو قد ظهر عند مضي سنة من ملك طمهمورث بأرض الهند وأمر بالكتابة الفارسية ودعا إلى ملة الصابئين فاتبعه خلق كثير.

كانت كفار قريش تسمي النبي (صلعم) صابئاً والصحابة الصبأة. يقال: صبأ الرجل بالهمز إذا خرج من شيء إلى شيء. وصبا يصبو كدعاً يدعو إذا مال. ومنه قوله: وإلّا تصرف عني كيدهن اصب إليهن اي أَمِل والمهموز والمعتل يشتركان. فالمهموز ميل عن الشيء. والمعتل ميل إليه، واسم الفاعل من المهموز صابىء بوزن قارىء. ومن المعتل صابٍ بوزن قاض، وجمع الاول صابئون كقارئون. والثاني صابُون كقاضون، وقد قُرىء بهما.

وقال سيف الدين أبو الحسن الآمدي في كتاب «أبكار الأفكار»: والاشبه في تسمية هذه الطائفة صابئة لميلهم وانحرافهم عن سنن الحق في نبوة الأنبياء واتخاذهم آلهة غير الله تعالى أخذاً من قول العرب: صبا الرجل: إذا مال وانحرف.

وقال السهيلي في «شفاء الغليل»: تنسب الصابئة إلى «صابىء بن لامك» علم اعجمي وهو أخو نوح.

وقيل: صبأ من دين إلى دين يصبأ مهموز بفتحتين، خرج فهو صابىء، ثم اطلق هذا اللقب على طائفة يقال أنها تعبد الكواكب في الباطن وتنسب إلى النصرانية في الظاهر. والصابئة والصابئون يدّعون أنهم على دين صابىء بن شيت بن آدم.

وفي القاموس المحيط يقول الفيروزآبادي في المجلد الأول: فعل صبأ: صُبأ وصُبوا خرج من

دين إلى دين آخر والصابئون يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام وقبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار وقدّم طعامه فاصبأ ولا اصبأ، ما وضع أصبعه فيه واصبأهم هجم عليهم وهو لا يشعر بمكانهم».

إذا هذا هو راي العرب بالاجمال في معنى لفظة الصابئة واشتقاقها.

اما راي البّحاث الاجانب فقد فسروا هذه الكلمة تفسيراً مختلفاً، فنرى نُربر في مقدمة كتاب «المصحف الناصري» يقول بما معناه: على الأغلب ان كلمة الصابئة مشتقة مما قاله العرب من «صبغ أي عمّد وادخل في الماء» وهذا الاشتقاق ليس ببعيد فإن الغين المعجمة في العربية هي في سائر اللغات السامية بالعين المهملة ولما كانت العين المهملة كثيراً ما تُبدل من الهمزة وبالعكس فإنه من المحتمل أن تكون لفظة الصابئة بمعنى الصابغة. ولكن هناك من يعترض ويرد على أن هذا الاشتقاق غير صحيح لان لفظة الصابئة لفظة قديمة وسنة الصبغ لم تكن موجودة عند الصابئة في اطوارها الاولى وهي مقتبسة من المسيحية.

اما نولدكي ذهب إلى أن: كلمة صابئة مشتقة من صبّ الماء إشارة إلى اعتمادهم بالماء لأنهم يعمّدون كالنصارى وقد رُد على نولدكي كما رُدَّ على نربر.

أما العالم اللغوي الالماني جسنيّوس فقد قال: ان كلمة صابئين مشتقة من صباوت العبرانية اي جند السماء للدلالة على انهم يعبدون الكواكب وهذا راي فيه كثير من الاحتمال كما يقول الاب الباحث انستاس الكرملي البغدادي، ذلك أن كلمة صابئة مشتقة من «صبأ» وهي لفظة قديمة أيام كانت اللغات السامية لغة واحدة أو لغة مختلطة ومشتركة بين كل الساميين.

إذاً نخلص إلى القول إلى ان لفظة الصابئة كما اتفق على تفسيرها العرب وأغلب البحّاث الاجانب هي عبادة الاجرام المضيئة اي الكواكب والاجرام السماوية. مثل ضاء: صبأ ومثل أضاء: اصبأ وغيرها من المعاني العربية المتفرعة من نشوء الضياء.

هذا بالنسبة لاشتقاق كلمة صابئة واصلها ومعناها، ومن الملاحظ ان للصابئة أسماء اخرى متعددة، فإذا تكلموا باللغة العربية يسمون أنفسهم صابئة، ويحرفون هذه الكلمة فيقولون

□ حصن الاخيضر الاموي، يقع جنوبي شرقي بغداد.

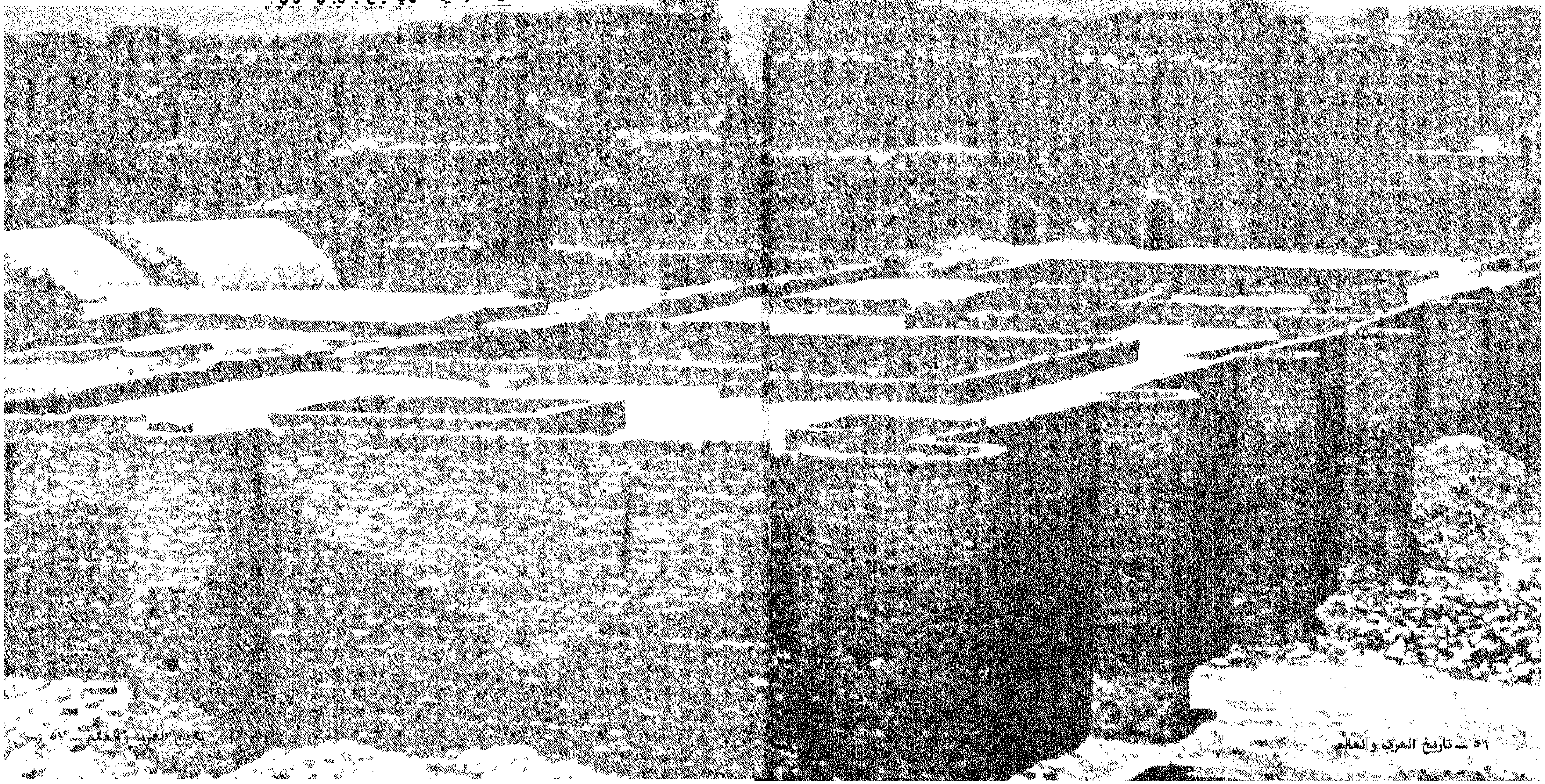

«صُبّه» والمفرد منها صُبي أما إذا تكلموا لغتهم فيسمون أنفسهم «مندايا» والواحد منها «مندايي» وكلمة مندايا مشتقة من فعل معناه بالعربية علم ودرى وعرف وفهم أي المندايي هو العارف الداري وبلفظة أخرى «ادرى» (Gnostique) وهذا يوضح إلى انهم ليسوا إلا فرقة من الادريين.

إذاً لفظة «مندا» الدراية والعلم والمعرفة وبالفرنسية (Gnose) ومن ذلك اسم «مندا دهيي» أي معرفة أو دراية الحياة (La gnose de la vie)

وكما اختلف العلماء والبحاث في اسمها واشتقاقها كذلك تفرقوا واختلفوا في عدد هذه الفرق، فإذا ما تأملنا قليلاً نرى أن الصابئة وإن كثرت شعبها واختلفت أسماؤها والقابها فإنها ترجع إلى أربع فرق كبرى كما قال وميز بينها سيف الدين علي بن أبي علي الآمدي في كتابه «كتاب أبكار الأفكار» وهو غير مطبوع. قال الآمدي:

«**الفرقة الأولى** من الصابئة هم أصحاب الروحانيات وزعم هؤلاء أن الكواكب الفلكية هي هياكل هذه الروحانيات ولكل روحاني هيكلاً يخصه، ولكل هيكل فلكاً يكون فيه.

الفرقة الثانية من الصابئة: هم أصحاب الهياكل وقد قالوا إذا كان لا بد للإنسان من متوسط فلا بد من أن يكون ذلك المتوسط مما نشاهده ونراه حتى نتقرب إليه، والروحانيات لا نستطيع رؤيتها، لذلك لا بد من متوسط بينها وبين الإنسان. وأقرب شيء إليها هياكلها فهي الآلهة والأرباب المعبودة والله تعالى رب الأرباب وإليه التوسل والتقرب. فالتقرب إليها تقرب إلى الروحانيات وهي كالأرواح بالنسبة إليها، لهذا كله دعوا إلى عبادة الكواكب السبعة السيارة، ثم عرفوا عنها وعن أحوالها وطبائعها، ومطالعها ومغاربها، ثم تقربوا إلى كل الهياكل وهي عندهم أحياء ناطقة بحياة الروحانيات، وهذه الهياكل هي المدبرة لكل ما في عالم الكون والفساد. وهي تحتاج إلى فاعل مختار قديم، وليس في عالم الكون والفساد فاعل قديم مختار إلا الأفلاك والكواكب ولذلك حكموا بكونها أحياء ناطقة.

الفرقة الثالثة: «أصحاب الأشخاص» وهؤلاء قالوا بوسيط مرئي للكواكب وإن كانت مرئية، إلا أنها قد ترى في وقت دون وقت لطلوعها وأفولها وظهورها وصفائها نهاراً. فدعت الحاجة إلى وجود أشخاص مشاهدة نُصبَ أعيننا تكون لنا وسيلة إلى الهياكل تؤدي بنا إلى الروحانيات ومن ثم إلى الله تعالى. فاتخذوا لذلك أصناماً مصورة على صور الهياكل السبعة.

الفرقة الرابعة: «الحلولية» زعمت هذه الفرقة أن الاله المعبود واحد في ذاته وإنه أبدع إجرام الأفلاك وما فيها من الكواكب، وجعل الكواكب مدّبراً لما في العالم السفلي، فالكواكب آباء أحياء ناطقة، والعناصر امهات، وما تؤديه الآباء من الآثار إلى الأمهات تقبلها بأرحامها فتحصل في ذلك المواليد وهي المركبات.

ويخلص الآمدي إلى القول فيقول: وعلى الرغم من تعدد الصابئة واختلاف آرائها ومبادئها إلا انها تتفق على أشياء عدة منها: وجوب ثلاث صلوات، وتحريم لحم الخنزير والكلب والجزور وما له مخلب من الطير، ونهوا عن الجمع بين امرأتين، وعن الطلاق إلا بحكم حاكم شرعي الخ...

أما البيروني فيحدثنا عن وجود مذهبين مختلفين للصابئة: أحدهما مذهب الحرنانية وقد دعوا بالصابئة منذ عهد المأمون، ومذهب الصابئة الحقيقي، ويروي البيروني[1]، عن بعض الصابئة: ونحن لا نعلم منهم إلا أنهم أناس يوحدون الله وينزهونه عن القبائح ويصفونه بالسلب لا بالايجاب، فيقولون لا يحد ولا يرى ويظلم ولا يجوز. ويسمونه بالأسماء الحسنى مجازاً، إذ ليس له عندهم صفة بالحقيقة، وينسبون التدبير إلى الفلك واجرامه ويقولون بحياتها ونطقها وسمعها وبصرها ويعظمون الأمور.

ويذكر المسعودي في «مروج الذهب» (الجزء الأول)[2]، انه في عهد أحد ملوك الفرس الأول ويدعى طمهمورث بن نجهان ظهر رجل فيلسوف يقال له بوداسف أحدث مذهب الصابئة وقال: إن معالي الشرف الكامل والصلاح الشامل ومعدن الحياة في هذا السقف المرفوع، وإن الكواكب هي المدبرات والواردات والصادرات وهي التي في

□ البيروني.

بروزها من أفلاكها وقطعها مسافاتها واتصالها بنقطة وانفصالها عن نقطة سبب ما يكون في العالم من الآثار وفي النجوم السيارة وفي فلاكها التدبير الأعظم، فيقال أن هذا الرجل أول من أظهر مذهب الصابئة من الحرانيين والكيماريين.

أما الشهرستاني فقد قدم لنا وصفاً دقيقاً قيماً وممتعاً عن الصابئة أصحاب الروحانيات ثم قارن بينهم وبين مذهب الحنفاء أصحاب الجسمانيات.

فقال: «أما الصابئة فمذهبهم إن العالم صانعاً فاطراً حكيماً مقدساً عن سمات الحدثان، ونحن بأنفسنا لا نستطيع التوصل إليه فلا بد أن نتقرب إليه بالمتوسطات المقربين إليه، وهؤلاء هم الروحانيون المقدسون جوهراً وفعلاً وحالة ومعنى. مقدسون في الجوهر أنهم بعيدون ومنزهون عن المادة وحركات المكان وتغيرات الزمان، جبلوا على الطهارة وفطروا على التقديس والتسبيح، لا يعصون الله أبداً ويفعلون ما يأمرهم الله به، وهم مقدسون فعلاً لأن الروحانيات هم الواسطة وتوجيه المخلوقات إلى الكمال، فهم مقدسون لأنهم يستمدون هذه القدسية من الله ويفيضون بها على الخلق فيقول الشهرستاني: فأحوال الروحانيات من الروح والريحان واللذة والراحة والبهجة والسرور في جوار رب الأرباب، كيف يخفى. وهم يقضون حياتهم في التسبيح والتهليل ويأتنسون بذكر الله، لا طعام ولا شراب ولا حياة مادية إنما قيام وركوع وسجود، حالة لا تبدل فيها من البهجة واللذة خاشعة أبصارهم لا ترفع ولا تطرف، وناظرة عيونهم لا تغمض وبعضهم «كروبي» أي مقرب من عالم الفيض، وبعضهم روحاني في عالم البسيط، ونلاحظ هنا أن الشهرستاني يستخدم

الفاظ الصوفية لعله لاحظ ما بين الاثنين من صلات من التصور الروحي العام.

هذا ما أخبرنا بـه الشهرستاني في الملل والنحل، أما المسعودي في كتابه «مروج الذهب» يقول: فأقاموا على ذلك (أي اقاموا على عبادة الله والملائكة) برهة من الزمان وجملة من الأعصار حتى نبههم بعض حكمائهم إلى أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى. وانها حية ناطقة وان الملائكة تختلف في ما بينها وبين الله وإن كل ما يحدث في هذا العالم فإنما هو على قدر ما تجري به الكواكب على أمر الله فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم. فمكثوا على ذلك دهراً. فلما «رأوا الكواكب تختفي بالنهار وفي بعض أوقات الليل لما يعرض في الجو من السواتر أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم ان يجعلوا لها أصناماً وتماثيل على صورها وأشكالها فجعلوا لها أصناماً وتماثيل بعدد الكواكب المشهورة».

وهذا الفرع من الصابئة استقل عن الأصل بعد انفصاله عنه فدعي بالمجوسية وهذه العبادة نابعة قديماً من عبادة النجوم كما يؤكد المؤرخون ومنهم المسعودي الذي قال: انه وجد ناراً يعظمها اهلها وهم معتكفون على عبادتها فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم في عبادتهم فأخبروه انها واسطة بين الله وبين خلقه.. وانها من جنس «الالهية النورية» وجعلوا للنور مراتب وفرقوا بين طبع النار والنور، وإن بالنور صلاح هذا العالم وشرف النار على الظلمة ومضادتها لها ومرتبة الماء وزيادته على النار بإطفائه ومضادته لها وانه اصل لكل شيء ومبدأ لكل تمام».

ويذكر المسعودي فرقة أخرى من الصابئة وهم الصابئة الحرانية فقال في «مروج الذهب»: وقد حكى رجل من ملكية النصارى من أصل حران يعرف بالحارث بن سنبساط للصابئة الحرانيين أشياء ذكرها من قرابين يقربونها من الحيوان ودُخن للكواكب يبخرون بها».

ومن المؤرخين العرب الذين كتبوا وأرّخوا قصص وحكايات الشعوب ابن النديم فقد ذكر في

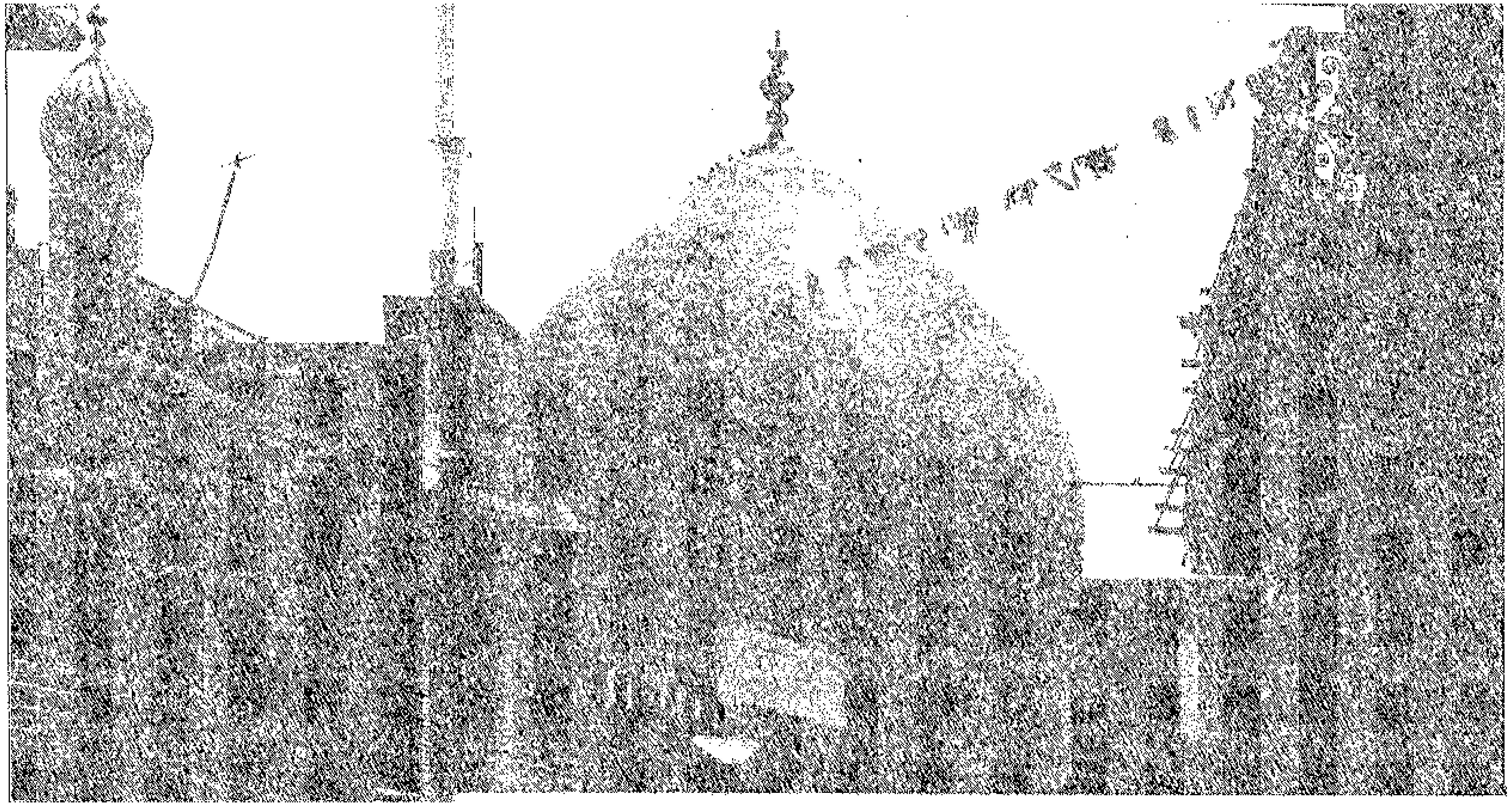

□ بغداد بلد التمازج القديم والحديث.

الفهرست وصفاً دقيقاً لمذاهب الحرانيين الكلدانيين المعروفين بالصابئة مما لا يتسع المجال لسرد كل القصص التي وردت في المقالة التاسعة من كتاب الفهرست.

وبعد أن استعرضنا آراء العلماء والمؤرخين ننهي بما قاله الأب انستاس الكرملي عن هذه الفرقة وديانتها: «بحثنا عن هذه الأمة وديانتها وعشنا بين أصحابها وكهنتها وسألنا شيوخها وخاصتها، وفروخها وعامتها، وما زلنا نتتبع تلك الحقائق ونستقصي الدقائق فتنجلي من عندها كل الجلاء فالصابئة إذاً ديانة «تغيرت» على كر الأعصار «وتبدلت» متنقلة من أطوار إلى أطوار، بموجب ما حلّ بها من الاغيار، فتفرع منها فروع عديدة، واتسع معنى لفظة الصابئة فشملت شيعاً غير زهيدة، كما شملت لفظة اليهودية والنصرانية والمحمدية فرقاً مختلفة، يرجع إليها أصحابها في امور مهمة آراؤهم فيها مؤتلفة، وعليه فقد مرت ديانة الصابئة بأربعة أطوار كبرى وهي:

١ ـ طور عبادة النجوم وهي أول ديانة وجدت وهذا يدلنا على أن الصابئة قديمة الوجود.

٢ ـ طور عبادتها برموز وأصنام. ونرى عند الصابئة أسماء نجوم وأصنام روحانيين لم تكن معروفة إلا في عهد القدماء من البابليين الآشوريين فنتج عن ذلك أن الصابئة الحاليين حفظوا خلفاً عن سلف تلك الأسماء.

٣ ـ طور إدخال آراء فلسفية فيها بعد انتشار آراء فلسفة اليونان، فزاد أئمة الصابئة على معتقداتهم شيئاً من تلك المذاهب.

٤ ـ طور إدخال آراء نصرانية فيها أو الطور الأخير.

كما قلنا إن نشأة ديانة الصابئة كانت قديمة قبل تفرق الانسان على وجه الأرض، وذلك عندما كان الانسان لا يتكلم إلا لساناً واحداً أو السنة قليلة ويستدل على ذلك من وحدانية اسم الجلالة عند اختلاف الشعوب وتصحيفه وتحريفه ومن أسماء جميع الأصنام القديمة التي ترد إلى أصل واحد يقرب من الأصل السامي ويراد به النور او العلو مما تتصف به الأجرام العلوية مما يدل على انهم لما جهلوا الله الذي لا يرى بالأبصار الهوا تلك الاجرام النيرة وعبدوها ثم نقلوها إلى ذوات مجسمة أي إلى أصنام سموها بها. ولما ظهر الدين المسيحي وانبث نور الايمان، اقتبس الصابئة آراء من النصرانية.

أما لغتهم فالصابئون الذين يقرأونها قليلون ولكنهم كلهم يتكلمونها ولا يعلمونها للغرباء وهذه اللغة فرع من الفروع السامية قائمة بذاتها.

أما بالنسبة إلى حياتهم الاجتماعية فهم منفصلون الآن عن غيرهم من الطوائف تمام الانفصال لغة وديناً فلا يتزوجون من غير قومهم ولا يقبلون دخيلاً في ملتهم ويقتصرون من الحرف على الصياغة وتربية المواشي وبناء نوع من القوارب، وهم طوال القامة رجالاً ونساء حسان المنظر سمر الألوان لا يميزون في لباسهم عن المسلمين واليهود المساكنين لهم إلا في أيام الأعياد فإنهم يلبسون البياض.

أما مكان وجودهم: فقد كان الصابئة في أيام الخلفاء الراشدين والعباسيين منتشرين في بلاد سوريا وما بين النهرين والعراق وبلاد إيران وشرقي بلاد العرب وجنوبيها. أما اليوم فقد حصروا في بقعة من العراق وفي بلدات صغيرة مثل العمارة وجعله صالح (أو قلعة صالح

أو الجلعة وهي بلدة حديثة على بعد ثلاث ساعات عن العمارة للمنحدر من البصرة) وأبو خصيب (على بعد ساعة ونصف ساعة عن البصرة) -وشطرة المنتفق وسوق الشيوخ والناصرية، وهي بلدة حديثة وتسمى المقير وبلدات أخرى متفرقة وقبل سنوات عدة كان الصابئة أيضاً في مدن كثيرة من بلاد فارس فاضطهدهم العجم فتشتتوا في مدن العراق وبقي منهم بقية في المحمرة والحويزة فقط. أما عدد الصابئة فكما يقول الأب انستاس الكرملي: «قد أحصيت بنفسي عدد الصابئة بلدة بلدة فوجدتهم لا يزيدون على ١٨٠٠ نسمة وهم يسيرون إلى الانقراض سيراً حثيثاً».

وبعد لا بد من سؤال بعد أن تعرفنا على الصابئة وديانتهم وحياتهم الاجتماعية ولغتهم وغيرها من المعلومات عن هذه الفرقة.

هل الصابئون الذين ذكرهم القرآن في عداد أهل الكتاب هم نفس الصابئين الذين يدور الكلام عليهم في هذا المقال.

فالقرآن الكريم ذكر الصابئة ذكراً صريحاً. من ذلك ما جاء في سورة البقرة: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً أجرهم عند الله ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

ويشرح لنا ابن النديم في الفهرست في المقالة التاسعة إذ قال: «قال أبو يوسف أيشع القطيعي النصراني، في كتابه في الكشف عن مذاهب الحرانيين المعروفين في عصرنا بالصابئة: إن المأمون اجتاز في آخر أيامه بديار مضر يريد بلاد الروم للغزو، فتلقاه الناس يدعون له وفيهم جماعة من الحرانيين، وكان زيهم إذ ذاك لبس الأقبية، وشعورهم طويلة. أنكر المأمون زيهم، وقال لهم: من أنتم من الذمة. فقالوا: نحن الحرانية فقال: أنصارى أنتم؟ قالوا: لا. قال: فيهود أنتم، قالوا: لا. قال: فمجوس أنتم، قالوا: لا. قال لهم أفلكم كتاب أم نبي؟ فجمجموا في القول: فقال لهم: فأنتم إذاً الزنادقة، عبدة الأوثان، وأصحاب الرأس في أيام الرشيد والدي، وأنتم حلال دماؤكم، لا ذمة لكم، فقالوا: نحن نؤدي الجزية، فقال لهم: إنما تؤخذ الجزية ممن خالف الاسلام من أهل الأديان الذين ذكرهم الله عز وجل في كتابه، ولهم كتاب فأنتم ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء فاختاروا الآن أحد أمرين، أما أن تنتحلوا دين الاسلام أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه وإلا قتلتكم عن آخركم. فإني قد أنظرتكم[٣] إلى أن أرجع من سفرتي هذه فإن أنتم دخلتم في الاسلام أو في دين من هذه الأديان التي ذكرها الله في كتابه وإلا أمرت بقتلكم واستئصال[٤] شأفتكم. ورحل المأمون يريد بلد الروم فغيروا زيهم وحلقوا شعورهم وتركوا لبس الأقبية. وتنصر كثير منهم ولبسوا زنانير. وأسلم منهم طائفة وبقي منهم شرذمة بحالهم وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى انتدب لهم شيخ من أهل حران فقيهاً، فقال لهم: قد وجدت لكم أشياء تنجون بها وتسلمون من القتل، فحملوا إليه مالاً عظيماً من بين مال لهم أحدثوه منذ أيام الرشيد إلى هذه الغاية، أعدّوه للنوائب فقال لهم إذا رجع المأمون من سفره فقولوا له نحن الصابئون فهذا اسم دين قد ذكره الله جلّ اسمه في القرآن فانتحلوه فأنتم تنجون به».

أخيراً لا بد من القول إن البحث عن الصابئة ومذاهبها بحث يحتاج إلى أكثر من مقال واحد، لذلك نكون في هذه الصفحات القليلة أعطينا صورة مصغرة تحتاج إلى مقالات أخرى لاحقة لاستكمال البحث العلمي لهذا الموضوع. ●

المراجع

- الشهرستاني: الملل والنحل ــ الطبعة القديمة.
- محمد علي النشار: نشأة الفكر الفلسفي، ج ١ ــ الطبعة الرابعة دار المعارف.
- ابن النديم: الفهرست، تحقيق رضا تجدد ــ طهران.
- المسعودي: مروج الذهب، ج ١، منشورات الجامعة اللبنانية.
- البيروني: الآثار الباقية ــ الطبعة القديمة.
- الأمدي: ابكار الأفكار ــ الطبعة القديمة.
- القاموس المحيط للفيروز ابادي.
- ابن القيم الجوزية: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان.
- المشرق ــ مقالة للأب انستاس الكرملي.

الهوامش

(١) الآثار الباقية، ص ٢٠٥ ــ ٢٠٧.
(٢) مروج الذهب، ج ٢١١، ص ٢٦٣.
(٣) ذكرت في ابن النديم: انظرتكم بدلاً من نذرتكم.
(٤) ذكرت في ابن النديم: استيصال بدلاً من استئصال.

نصيحة (*)

رَحَل الحجاج إلى عبدِالملك بن مَرْوان ومعه إبراهيمُ بن محمد بن طلحة، فلما قدم على عبدِالملك سلّم عليه بالخلافة، وقال: قدمتُ عليك يا أميرَ المؤمنين برَجُل الحجاز في الشَّرف والأبوَّة، وكمال المروءة والأدب، وحسنِ المذهب والطاعة، والنصيحة مع القرابة، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة، فافعلْ به يا أميرَ المؤمنين ما يستحقُّه مثلُه في أبوَّته وشرفه.

فقال عبدالملك: يا أبا محمد؛ قد أذْكَرْتنا حقَّاً واجِباً، ائذنوا لابراهيم!

فلما دخل وسلَّم بالخلافة أمره بالجلوس في صَدْرِ المجلس، وقال له: إن أبا محمد ذكَّرنا ما لم نَزَلْ نعرفهُ منك من الابوة والشرف، فلا تَدَعْ حاجةً في خاصّةِ أمرك وعامَّته إلا سألتَها.

فقال إبراهيم: أما الحوائجُ التي نبتغي بها الزُّلْفَى، ونرجو بها الثواب، فما كان خالصاً لِلّهِ ولنبيِّه.

ولكنْ لك يا أميرَ المؤمنين عندي نصيحةٌ، لا أجدُ بُدّاً من ذكرى إياها! قال: أهي دون أبي محمد؟ قال: نعم، قال: قم يا حجّاج.

فنهض الحجاجُ خجِلاً لا يُبْصِر اين يضع رِجْلَه.

ثم قال عبدالملك: قل يابْنَ طلحة. قال: تالله يا أمير المؤمنين، إنك عَمَدت إلى الحجاج، في ظُلْمِه وتعدِّيه على الحق، وإصغائه إلى الباطل، فولّيته الحَرَمين، وفيهما مَنْ فيهما من أصحابِ رسول الله، وأبناء المهاجرين والانصار، يَسومُهم[1] الخَسفَ، ويَطَؤُهم بطَغام[2] أهل الشام، ومن لا رَأْيَ له في إقامةِ الحق، ولا إزاحةِ الباطل.

فأطرق عبدُالملك ساعةً، ثم رفع راسه، وقال: كذبتَ يا طلحة، ظن فيك الحجاجُ غيرَ ما هو فيك! قُمْ فربما ظُنَّ الخيرُ بغير أهله!.

قال ابنُ طلحة: فقمتُ وأنا ما أُبْصِر طريقاً، واتبعني حَرَسِيّاً[3]، وقال له: اشدُدْ يدك به. فما زلتُ جالساً حتى دعا الحجاج.

فما زالا يتناجيان طويلاً، حتى ساء ظني، ولا أشكُّ أنه في أمري، ثم دعا بي، فلقيَني الحجاج في الصَّحْن[4] خارجاً، فقبّل بين عيني، وقال: أحسنَ الله جزاءك! فقلت في نفسي: إنه يَهْزأ بي. ودخلتُ على عبدالملك، فأجْلسني مجلسي الأول، ثم قال: يابنَ طلحة، هل اطّلَع على نصيحتِك أحد؟ فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ولا أرَدْتُ إلا الله ورسولَه والمسلمين، وأميرُ المؤمنين يَعْلَمُ ذلك.

فقال عبدالملك: قد عزلتُ الحجاج عن الحرمين، لما كرهتَه فيه، وأعلمتُه أنك استقللتَ ذلك عليه، وسألْتَني له ولايةً كبيرة، وقد ولّيتُه العراقين، وقرّرْتُ له أن ذلك بسؤالك، ليلزمَه من حقك ما لا بدَّ له من القيام به، فاخْرُجْ معه غيرَ ذامٍّ لصُحْبَتِه.

(*) المستطرف:١ — ٢٢٦.
(١) يسومهم: يوليهم إياه ويريدهم عليه.
(٢) الطغام: اوغاد الناس.
(٣) الحرسي: واحد حرس السلطان.
(٤) صحن الدار: وسطها.

الملاحة البحرية في العصور الإسلامية

خالد بن محمّد القاسمي

٦٤ ـــ تاريخ العرب والعالم

تطاولت أقلام الكثير من المستشرقين ورددت لها السنة وأقلام دخيلة على العرب... وقالوا بأن العرب قديماً لم يكونوا أهلاً لركوب البحر.. واستشهدوا بما ورد في مقدمة ابن خلدون الذي قال: «إن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وروكوبه والروم والافرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التغلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته... الخ»، ونسجوا حول هذه الكلمات نسيجاً مزيفاً من الاتهامات وفسروا بذلك كثيراً من الحقائق التاريخية حسب نسجهم المزعوم.

والحقيقة التي لا جدال فيها أن العرب سكان شبه الجزيرة العربية كانوا فريقين من الناس.. البدو وهم الذين يقيمون في البادية ولا يصفو عيشهم إلا في ذلك الجو الفسيح، ولا تحجب فيه عنهم السماء ولا الهواء وأطلق عليهم المؤرخون اسم الأعراب والحضر وهم سكان المدن. وقد كان بالجزيرة العربية مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن فكان فيها مأرب وصنعاء ويقول عنها اليمنيون أنها أقدم مدينة على وجه الأرض وفيها زبيد وعدن وصعدة ومخا وشبام وغير ذلك، وفي شمال اليمن مكة المكرمة وهي تهامية، والطائف والمدينة المنورة وهما حجازيتان، وخيبر، وفي نجد حائل وفي العروض حجر قصبة اليمامة والقطيف بالبحرين... ولسنا في مجال يسع لسرد ما كان لأهل السواحل البحرية من هذه المدن من صلات بحرية تجارية وصلت حتى الهند وبلاد الصين منذ فجر التاريخ.

أما ابن خلدون فهو بلا شك يقصد الغزو الحربي المنظم في شكل هجوم أساطيل بحرية واشتراكها في معارك بحرية. وليس ركوب البحر وثقافته بصفة عامة.. لأنه إن كان يقصد تعميم صفة الركوب والثقافة فقد وقع في خطأ علمي ظاهر.. لأن الملاحة البحرية وعلوم البحار لا يقتصر مجال تطبيقها على الحرب البحرية وإنما تطبيقها أساساً يأتي من السفر والتجارة.. ولم يعرف الإنسان استخدام الملاحة وعلوم البحار حرباً إلا بعد أن ظهرت القرصنة والعدوان على سواحل الدول الآمنة وحب السيطرة من الدول الغازية.

ومما يؤيد هذا الرأي استطراد ابن خلدون في مقدمته في بقية الفقرة التي استشهد بها المدعون المزيفون... وقد ورد بها ما يلي:

«فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولاً لهم وتحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها فشرهوا إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن فيه والموانىء وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر...الخ».

ثم إن ابن خلدون الذي عاش في القرن الثامن الهجري (٧٣٢ ــ ٨٠٨هـ) لم ينشأ في بيئة بحرية تجعله ضليعاً بمعرفة أسرار الحياة البحرية وحكماً في أمور التاريخ البحري وفلسفته.. فأين مقامه وزمانه من معاوية ابن أبي سفيان رائد البحرية الإسلامية ومؤسس أول أسطول عربي إسلامي غزا به قبرص سنة ٢٨ هجرية فهل يحتكم لابن خلدون الذي عاش بعدها بما يقرب من ثمانمائة سنة منتسباً إلى أسرة أندلسية حضرمية الأصل أقامت في إشبيلية واشتهرت بالعلم والسياسة.. وتنقل هو نفسه بين بلاد المغرب والأندلس وتولى أعمالاً سياسية في فاس وغرناطة وتلمسان ولقي دسائس ووشايات ثم توجه إلى المشرق مستقراً في مصر ودرس في الأزهر وتولى قضاء المالكية. ثم الف في التاريخ.

أيكون من الانصاف والتاريخ.. أن نطلق اسم العرب عامة على كل من لم يركب البحر لبعده عن السواحل.. ونهمل من كانت له صلات تجارية وحضارية بحرية واسعة منذ فجر التاريخ وصلت حتى أقاصي الهند والصين.. أم من الدقة واتباع الأسلوب العلمي أن نخصص علم وفن الملاحة البحرية وركوب البحار لمن يحارب ويقاتل.. دون من يسافر ويتاجر ويحمل البضائع والمتاع بحراً.

أم من الحق وسرد التاريخ المنزه عن الأغراض أن نهمل غزوات وإغارات أهالي البحرين ومن جاور السواحل من العرب على الجزر والبلاد المحيطة بهم ونهمل ذكر معاوية ابن أبي سفيان الذي أسس أول أسطول في الاسلام وفتح الله على يديه للمسلمين فتحاً مبيناً.

التطاول على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وقد بلغ التطاول مداه حين تعدى صفة العرب إلى شحص أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه.. أحد العشرة المبشرين بالجنة وثاني خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ووصفته كثير من الروايات المغرضة بأنه كان يخشى البحر لا يأمر أحداً من المسلمين ركوبه أبداً. وان لم يكن غريباً مثل هذا التطاول على المستشرقين إلا أنه يكون مستهجناً من الأقلام العربية الناقلة له أما من دون تعليق منها أو بتعليق يزيد الطين بلة.

ونورد بعض أمثلة تلك الكتابات ما جاء بكتاب «العرب والملاحة في المحيط الهندي» للدكتور جورج فضلو حوراني وهو عالم أميركي من أصل عربي ألف كتابه على أساس رسالة دكتوراه ونشر ضمن مجموعة كتب مؤسسة فرانكلين في مصر عام ١٩٥٨. وكتاب «فن الملاحة عند العرب» لحسن صالح شهاب الصادر عن مركز الدراسات والبحوث باليمن ونشرته دار العودة — بيروت والذي أورد فيه الكاتب ما رواه المستشرقون من روايات تتهم عمر بن الخطاب ثم روى ضداً لها روايات تؤيد الدفاع عن عمر بن الخطاب نفياً لما رواه الأولون.. لكنه اختتم الحديث بعبارة محيرة قد تزيد من بلبلة القارىء من عامة المسلمين وغير المتخصصين فيقول:

«إن هذه الأخبار والروايات المتناقضة تجعل من الصعب على الدارس ترجيح كفة البعض منها على البعض الآخر ومن ثم فإنه لا يصح الجزم بصحة أو عدم صحة ما قيل عن خوف عمر بن الخطاب ونهيه عن ركوب البحر».

وأراد الكاتب الناقل بهذا تحري الدقة والحياد فزاد الطين بلة، وكنت أفضل له السكوت وعدم الخوض في مثل هذه المواضيع.. فإن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب في هذه الحالة.

وأيضاً كتاب «الملاحة وعلوم البحار عند العرب» للدكتور أنور عبدالعليم وهو من سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت وقد ورد في مجال حديثه بالفصل الخامس «الأساطيل العربية وفنون الحرب البحرية» صفحة ٧٨:

«وكان عمر يخشى البحر ويحذر المسلمين من الهجوم بحراً وغضب حين حاول أحد قواده وهو العلاء بن الحضرمي — وكان حاكماً على البحرين — الهجوم على فارس من البحر وهزم العلاء في تلك الواقعة كما سبق الإشارة وفقد من رجاله الكثيرين فغضب عليه الخليفة وعزله من القيادة».

وقد كان من الأجدر أن ترد عبارته الختامية للفصل الأول — وهو بعنوان «الملاحة في المنطقة العربية قبل الإسلام» — في موضعها بعد هذا الذي ذكره في الفصل الخامس حيث يقول في هذه العبارة صفحة ٢٢:

«على أنه لا يوجد في التراث العربي القديم ولا في القرآن الكريم من الآيات ما ينهي المسلمين أو يثنيهم عن ركوب البحر والجهاد فيه. وحين نهى الخليفة عمر بن الخطاب معاوية عن الغزو البحري من سواحل الشام فلم يكن ذلك عن خوف أو خشية وإنما كان بعد نظر ابن الخطاب إذ تبين له عدم خبرة العرب في مبدأ الأمر في المعارك البحرية إذا ما قورنوا بالبيزنطيين أو الفرس.. ولعل هذا هو السبب كذلك في فشل الحملة التي شنها العلاء بن الحضرمي حاكم البحرين على فارس أيام عمر...».

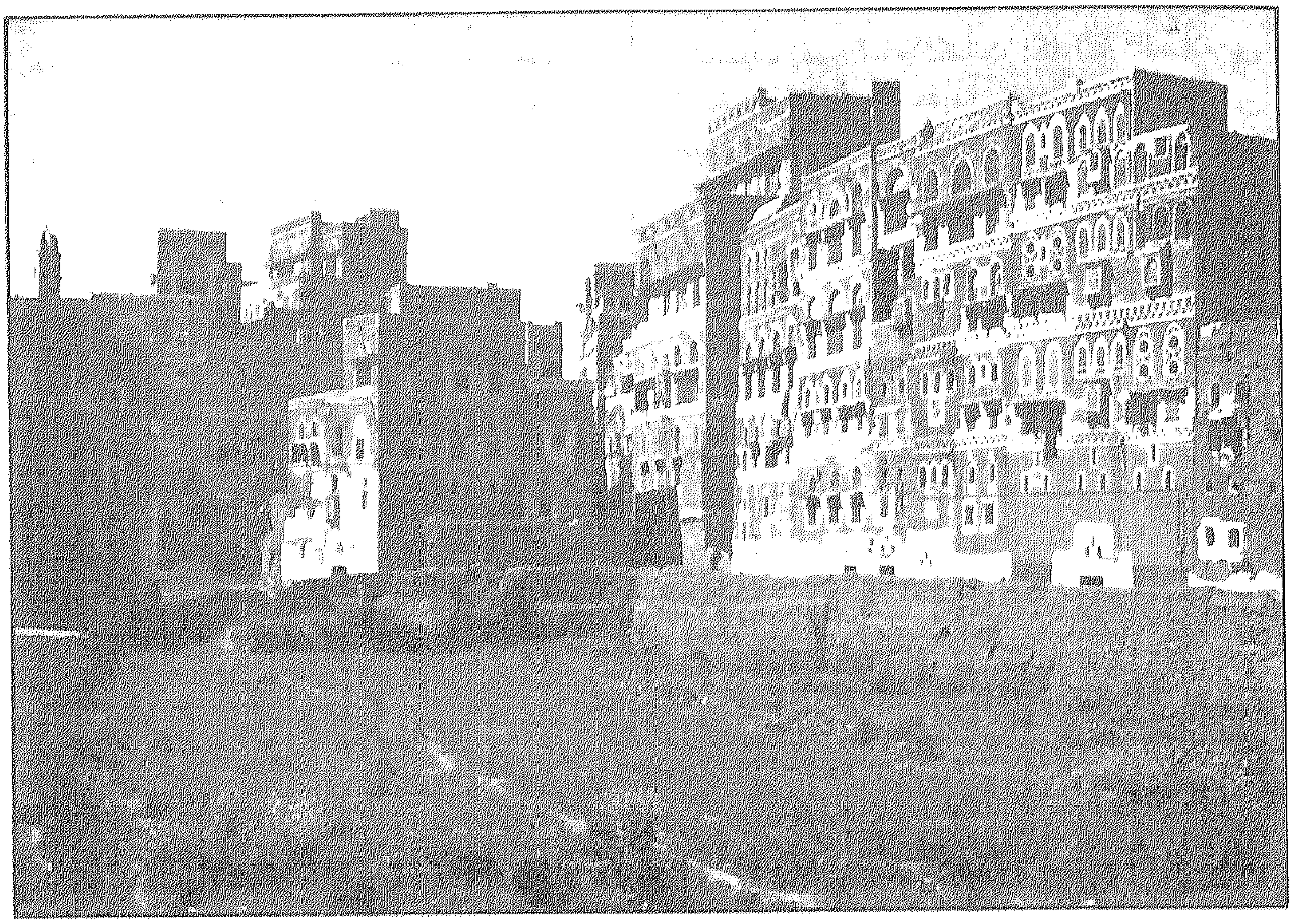

□ صنعاء، التي يقول عنها اليمنيون انها اقدم مدينة في العالم.

عمر بن الخطاب والعلاء بن الحضرمي

ونزيد على ذلك بذكر بعض كلمات المرحوم الشيخ محمد الخضرمي من محاضراته في تاريخ الأمم الإسلامية لنتعرف على أدب الحديث عن أصحاب رسول الله حيث يقول في وصف حادثة العلاء بن الحضرمي:

«كان العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يباري سعد بن أبي وقاص، فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكاسرة وأخذ حدود ما يلي السواد، سر العلاء أن يصنع شيئاً في الأعاجم يكون له به من الشهرة والسيارة ما لسعد فندب أهل البحرين إلى فارس فتسارعوا إلى ذلك وفرقهم أجناداً فحملهم من البحر بغير إذن عمر. وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازياً».

ونقف هنا عند دقة اختيار المرحوم الخضري لألفاظه لحسن أدبه في سرد التاريخ والكلام عن أصحاب رسول الله فنجد أن:

أولاً: كان لتوضيحه المغزى النفسي من وراء تصرف العلاء بن الحضرمي من محاولته غزو فارس أثراً واضحاً في فهم سلوكه وفي استنكار الفطرة القديمة للقارئ المسلم لهذا السلك الذي يطلب به شهرة دنيوية ومجداً بين أهله وعشيرته... مع ما لا نذكره للعلاء من فضل في حروب الردة.

ثانياً: إن عبارة «فحملهم من البحر بغير إذن عمر» توضح كثيراً ما اقترفه من إثم يستحق عليه العقاب بالعزل.. فأين تلك الدولة التي يتصرف فيها الولاة بغير إذن الخليفة وتضيع وحدتها وقوتها وتنظيمها بين أيدي هؤلاء الولاة كل منهم يعمل لحسابه الخاص.. وليس لمصلحة المسلمين وأخذ برأي خليفة المسلمين والمسؤول عنهم.. ولو حدث مثل ذلك في عصرنا الحديث لاختفى الوالي أو العامل ولم يعرف له الناس

طريقاً. أي أن العزل له من عمر كان قمة في الرحمة به والرفق بهؤلاء الولاة الذين لم يتعودوا وحدة الكلمة بعد تحت راية واحدة في صدر الدولة الإسلامية.

ثالثاً: نلاحظ الفارق الشاسع بين استخدام كلمة «يخشى البحر» وما يكون لها من وقع سيء وأثر بغيض في نفس المسلم مما تأباه فطرة الايمان بالله ورسوله وعدالة أصحابه وخاصة في نفوس العامة من القراء المسلمين وبين استخدام عبارة «لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازياً» وما فيها من وضوح لأولي الألباب من الفاهمين.. وحتى ما تتركه من علامات استفهام في عقول العامة من المسلمين قد تدفعهم للبحث وراء أسباب ذلك النهي من عمر.. ولكنه لن يوقع في النفوس شيئاً من انتقاص مثل هذا الصحابي الجليل.

ويستطرد المرحوم الشيخ محمد الخضري ليزيد الحقيقة وضوحاً وبياناً فيقول:

«عبرت تلك الجنود واصطخر وبازئهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقاتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لأنه قد حيل بينهم وبين الرجوع إلى البحرين فوجدوا شهرك الفارسي قد أخذ عليهم الطرق من مواطنهم وامتنعوا.

وبلغ ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل إليه بعزله وكتب إلى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسيِّر جنداً لتخليص من أرسلهم العلاء... الخ».

عمر بن الخطاب
ومعاوية بن أبي سفيان

بل ان ما ذكر من نهي عمر بن الخطاب لمعاوية عن غزو الروم بحراً.. واتخاذه كحدث يؤيد خوف عمر من البحر.. نعتبره يؤيد عكس ذلك تماماً.. فلو كان عمر يخشى البحر ما أرسل لعمرو بن العاص يسأله عن البحر وراكبه بعد الذي وقع من العلاء بن الحضرمي.. ولو كانت المسألة خوفاً فطرياً يتعلق بشخص عمر رضي الله عنه وهو ما نسميه في علم النفس الحديث بالهيدروفوبيا (Hydro Phobia) أي الرهبة والخوف من الماء لكانت حادثة العلاء بن الحضرمي تزيده تعقيداً نفسياً فيخاف ركوب البحر أكثر مما كان في باديء الأمر.

لكنه لما كان معاوية كثيراً ما يتمنى غزو الروم من البحر فقد طلب ذلك من الخليفة عمر بن الخطاب الذي بعث إلى عامله على مصر عمرو بن العاص يقول له عبارة تنطق معانيها بكذب المفترين ومن لم يهبهم الله نوراً في بصيرتهم يفهمون به الكلمات ويفرقون بين معاني العبارات.

فقال لعمرو: «صف إلي البحر وراكبه فإن نفسي تنازعني إليه» ولم يقل «فإن نفسي ترهبه منذ حادثة العلاء بن الحضرمي».

فكتب إليه عمرو بن العاص عبارات أوجز فيها وأبلغ تعكس مفهوم المسلم السوي في أن كل ما على الأرض وفي الكون إنما هو من صنع الله.. وإن الخوف لا يجب إلا لله ولا شك أن عمر أمير المؤمنين يفهم هذا الكلام أولى.

فقال عمرو: «إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير. إن ركن خرق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود ان مال غرق وان نجا برق».

وهنا يأتي رد الخليفة المسؤول عن أرواح المسلمين العالم بأحوالهم ودرايتهم ومجال ثقافتهم الحربية لا رد الخائف بفطرته.. فقال: «لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً».

معركة ذات الصوارى
مصداقاً لرأي عمر بن الخطاب

ويؤيد رأي عمر بن الخطاب في ثقافة المسلمين الحربية البحرية ما وقع منهم في معركة ذات الصوارى عام ٣٤هـ/ ٦٥٤م.. أي بعد مقتل عمر بن الخطاب في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣هـ بأكثر من عشر سنين.

فالناظر إلى أسلوب العرب في هذه المعركة على عهد معاوية يجد أنهم استخدموا فيها أسلوب القتال البري فربطوا السفن إلى بعضها البعض لتصبح ميداناً أشبه بميادين القتال البرية بعدما فشلت أساليبهم القتالية في حرب الروم

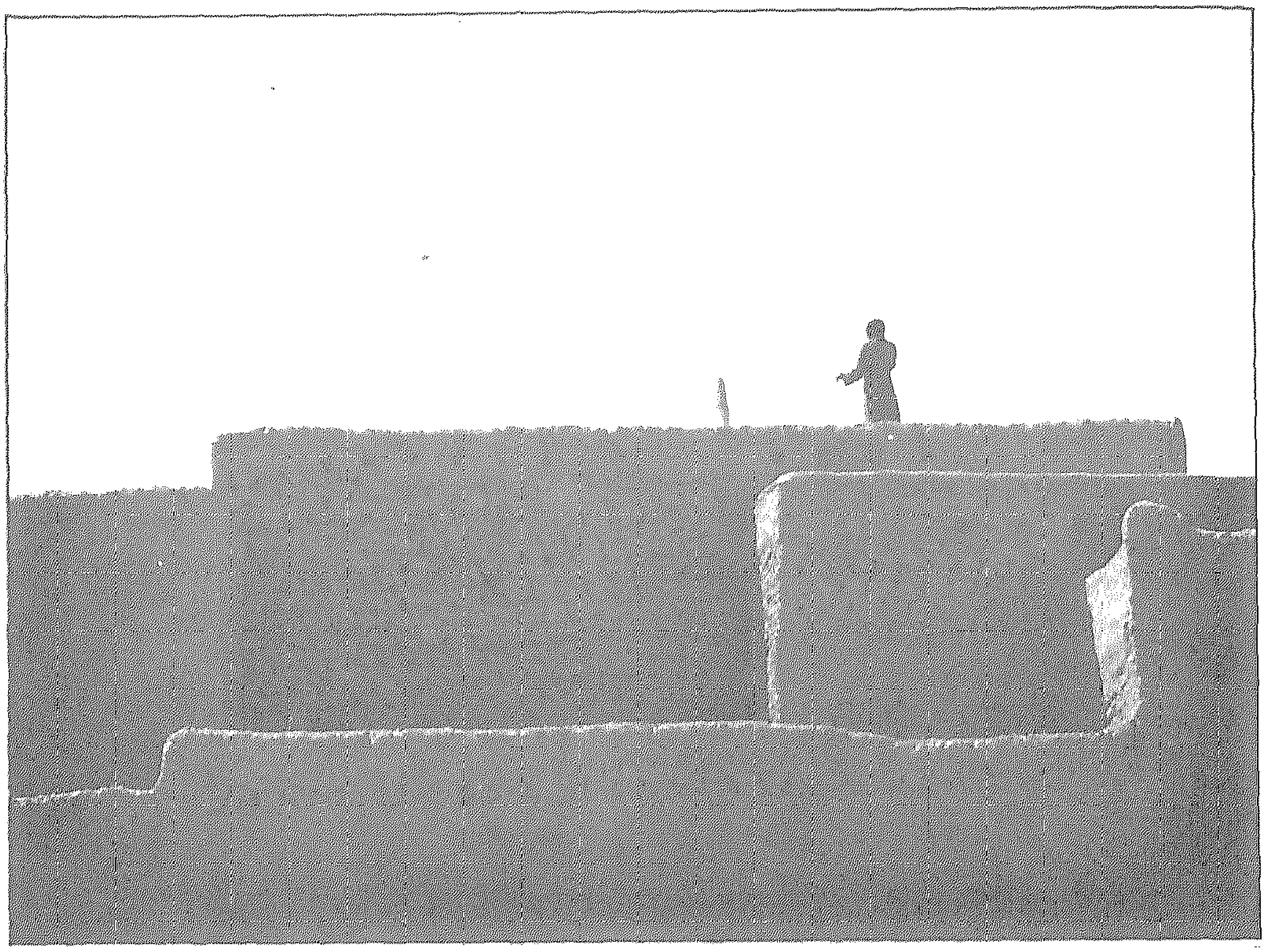

□ الحضر، سكان المدن.

باستخدام النبال ثم الحجارة — مما يؤيد بعد نظر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن الوقت لم يكن قد حان لقتال المسلمين في البحر — إلا أن النصر من عند الله كما هو الحال دائماً لما كان في نفوس المسلمين من قوة عقيدة وحب للاستشهاد لرفع راية الحق في سبيل الله.. وهذا هو الجوهر الذي يغيب عن الناظر لظواهر الأمور يدركه المتدبر لبواطنها ولبها.

عمر بن الخطاب في مدرسة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم

وهل كان عمر بن الخطاب أحد الذين تعلموا في مدرسة رسول الله صلى الله عليه وسلّم يجهل ما دار بين المصطفى رضوان الله عليه وبين أم درام بن ملحان الصحابية الجليلة الأنصارية من أهل قباء التي كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذهب إلى قباء استراح عندها، وهي خالة خادمة أنس بن مالك الصحابي الجليل.
روى البخاري في كتاب الجهاد من صحيحه ومسلم في كتاب الامارة عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نام عندها القيلولة ثم استيقظ وهو يضحك لأنه رأى أناساً من أمته غزاة في سبيل الله يركبون ثبج البحر الأخضر — أي وسطه بمعظمه — ملوكاً على الأسرة.

ثم وضع رأسه فنام واستيقظ وقد رأى مثل الرؤيا الأولى، فقالت له أم درام: «ادع الله أن يجعلني منهم».. فقال لها عليه الصلاة والسلام: «أنت من الأولين».

قال الحافظ بن كثير: «يعني جيش معاوية حين غزا قبرص ففتحها أيام عثمان سنة ٢٨ — عقب إنشاء الأسطول الأول في التاريخ».

وكانت معهم أم درام في صحبة زوجها عبادة بن الصامت — ومعهم من الصحابة أبو الدراداء وأبو ذر وغيرهم وماتت أم درام شهيدة في سبيل الله وقبرها بقبرص يزار إلى

اليوم ويعرف باسم-«قبر المرأة الصالحة».

فميقات الغزو البحري الأول في الإسلام كما يبين من قول المصطفى عليه الصلاة والسلام «أنت من الأولين» لم يحن بعد في خلافة عمر بن الخطاب الذي تعلم في مدرسة الرسول الكريم ونهل من فيض ينبوعه الذي لا ينضب والذي لا ينطق عن الهوى إنما هو وحي يوحى علمه شديد القوى.

عمر بن الخطاب المتدبر لآيات القرآن الكريم

وعمر بن الخطاب الذي خطت الدموع خطين أسودين على وجنتيه من كثرة البكاء خشية الله وحده.. المتدبر لآيات القرآن الكريم يعلم علم اليقين أن البحر مخلوق من مخلوقات الله لا سلطان لأحد عليه إلا الواحد القهار — يرهب به من يشاء ويذلله لمن يشاء.. ألم يتدبر رضى الله عنه قوله تعالى:

في سورة النحل (الآية ١٤): بسم الله الرحمن الرحيم «وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون» صدق الله العظيم.

وفي سورة الشورى (الآية ٣٢ والآية ٣٣): بسم الله الرحمن الرحيم «ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام. إن يشأ يسكن الريح فيظللن راكد على ظهره ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور» صدق الله العظيم.

كما كان يعلم وصف القرآن لهول البحر في عصف موجه واضطراب حاله والظلمات التي تحيط برواده وفي ذلك تشبيه لأعمال الكافرين حالهم عند لقاء ربهم.. كما ورد بسورة النور (الآية ٤٠). بسم الله الرحمن الرحيم: «أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور». صدق الله العظيم.

إلا أن هذا لا يعني نهي المؤمنين عن ركوبه والخوف من ارتياده وخوض غماره.

حسن الأدب مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

بالاضافة إلى ما ورد بالقرآن الكريم من آيات كثيرة تدل على عدالة الصحابة وجلال قدرهم كالآية التي جاءت بسورة (التوبة ١٠٠). بسم الله الرحمن الرحيم: «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه» صدق الله العظيم.

فقد ورد في الأثر الصحيح أيضاً الكثير من الروايات التي تحض المسلمين على حسن الأدب مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها حديث الامام الشافعي بسنده إلى أنس بن مالك قال: «فجعلهم أصهاري وجعلهم انصاري وأنه سيجيء في آخر الزمان قوم ينتقصونهم الا فلا تناكحوهم، إلا فلا تناكحوا إليهم، الا فلا تصلوا معهم، إلا فلا تصلوا عليهم، عليهم حلت اللعنة».

وما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك أحدهم ولا نصيفه» وكذلك حديث أبي زرعة وهو عبيدالله بن عبدالكريم الرازي من موالي بني مخزوم وأحد أعلام الأئمة قال:

«إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق، رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا حق، والقرآن حق وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة.

قال الحافظ الكبير أبو بكر بن الخطيب البغدادي:

«والأخبار في هذا المعنى تتسع وكلها مطابقة لما في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة والقطع على تعديلهم ونزاهتهم. فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له.

على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله

فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والنضرة وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد والمناصحة في الدين وقوة الإيمان واليقين القطع على عدالتهم والاعتقاد لنزاهتهم، وانهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين».

فأين نحن وهؤلاء.. وأين نحن من عمر بن الخطاب.. حتى نردد عبارات الفاسقين الزنادقة عليه بلا بيان أو تعليق أو حتى نضعه موضع النقد والتحليل وننصب له الميزان لتقيم أعماله وصفاته.. فما ميزاننا بني على شواهدنا ومحسوساتنا وما ألفناه من حياة العصر الذي نعيشه.. وحتى ان تجردنا أو حاولنا التجرد من تلك الأهواء فلن نستطيع الوصول إلى ذلك النور الرباني الوهاج الذي كان يملأ قلوب هؤلاء الأفذاذ.. وكفى بنا إن كنا نريد خير ديننا ودنيانا أن نحاول الاقتداء بهم لأزنة أعمالهم ونتعشق سيرتهم. لا نعرضها بأقلامنا معرض النقد والتحليل.. لا ندعي الحياد والتاريخ فنقع في قواصم تأخذ منا بركة الدنيا وخيرة الآخرة ــ فاللهم اعصمنا من هذه الزلات نتلمس خطى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من نور أصحابه وتابعيهم وتابعي تابعيهم إلى يوم الدين.

تطور السفن العربية

مما لا شك فيه أن نشأة صناعة السفن كغيرها من الصناعات إنما هي وليدة الحاجة والبيئة ففي البحرين ومسقط والدول الخليجية والتي تطل على البحر بشكل أو آخر نشأت هذه الصناعة لتسد حاجات البشر الأصلية في الصيد بأنواعه والانتقال من جزيرة إلى أخرى أو من ساحل إلى آخر ويحدثنا التاريخ أن هذه الصناعة نقلها الفينيقيون معهم عندما نزحوا إلى شواطىء البحر المتوسط وساعدهم في ذلك بالطبع وجود الأشجار فيما يعرف الآن بلبنان وهي الأشجار الصالحة للزراعة ثم تطورت بمعرفة هؤلاء الفينيقين ثم العرب أنفسهم للتنقل بها للتجارة فأصبحت تحمل مواد التجارة وقد لعبت موج البحار في البحرين وعمان وغيرها من الدول الخليجية دوراً كبيراً في تطوير هذه الصناعةوفي

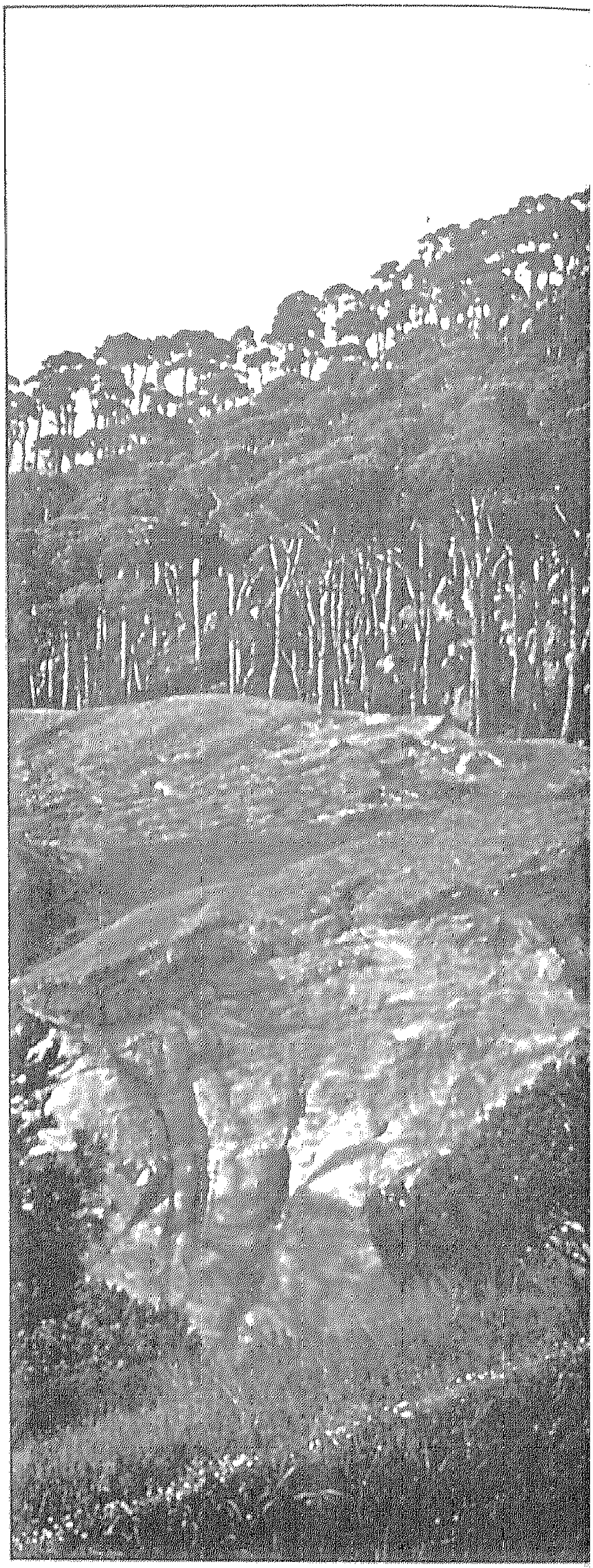

□ غابات لبنان التي استعان العرب باشجارها لصناعة اسطولهم البحري.

تكبير حجم هذه السفن التي أصبحت لهذه البلاد أساسية في توفير القوت تجارة وصيداً.

ثم تأتي بعد ذلك الحاجة إلى دفع الأعداء الطامعين في خيرات هذه البلاد فتطورت لذلك سفنهم لتحمل العدد الكبير من الرجال المحاربين وتحمل مع ذلك المؤن والمعدات. ومما لا شك فيه انه في القرن الثالث الهجري سيطرت الأساطيل العربية على البحر المتوسط علاوة على الخليج العربي وكانت أساطيلهم من القوة والضخامة بحيث يبدو أسطول البيزنطيين أمامها واهناً لا حول له ولا قوة. وكان الأسطول العربي الإسلامي في القرنين الثالث والرابع الهجريين في هذين البحرين وخاصة المتوسط حيث كانت سفينة تمخر عبابه شرقاً وغرباً وتحط قلاعها أنى شاءت من جزره الكثيرة فقبرص وكريت وصقلية ومالطة وكورسيكا وسردينيا وجزر البليار في أيدي العرب المسلمين، حتى يمكن القول بأن البحر الأبيض المتوسط كان بحيرة عربية إسلامية وعلى الرغم من كثرة المعارك بين الأسطولين الاسلامي والبيزنطي فإن حصيلة هذه المعارك كانت في صالح العرب المسلمين. وكذلك فإن المعلوم تاريخياً أن الأسطول الاسلامي كان يشتمل على الأنواع المتعددة اللازمة للقتال ومزوداً بكل الأسلحة المعروفة للقتال في ذلك العصر وكانوا هم المتفوقين في صناعتها واتقانها وعلى الرغم من خروج العباسيين من الصراع البحري في القرن الرابع الهجري فإن ذلك لم يؤثر كثيراً على سلطان العرب المسلمين في البحر فقد كانت لهم أساطيل قوية في سواحل الشام ومصر وشمال افريقيا وكريت وصقلية وأكبر قوة بحرية للمسلمين كانت للفاطميين في شمال افريقيا. فقد أولوا الأسطول عناية فائقة وضم هذا الأسطول سفناً تسمى (الشواني) وهي كبيرة فيها أبراج وقلاع لها مائة مجداف وتحمل ١٥٠ رجلاً و (الشلندرات) وهي كبيرة مسطحة وتحمل الرجال والسلاح والطرادات (قوية سريعة وصغيرة) و (الجرافات) وفيها مطاحل البارود (والمجانيق) وقد استطاع هذا الأسطول هزيمة الأسطول البيزنطي عدة مرات وكانت إحداهما موقعة المجاز في مياه صقلية.

والكلام عن أنواع المراكب الحربية يطول فيه

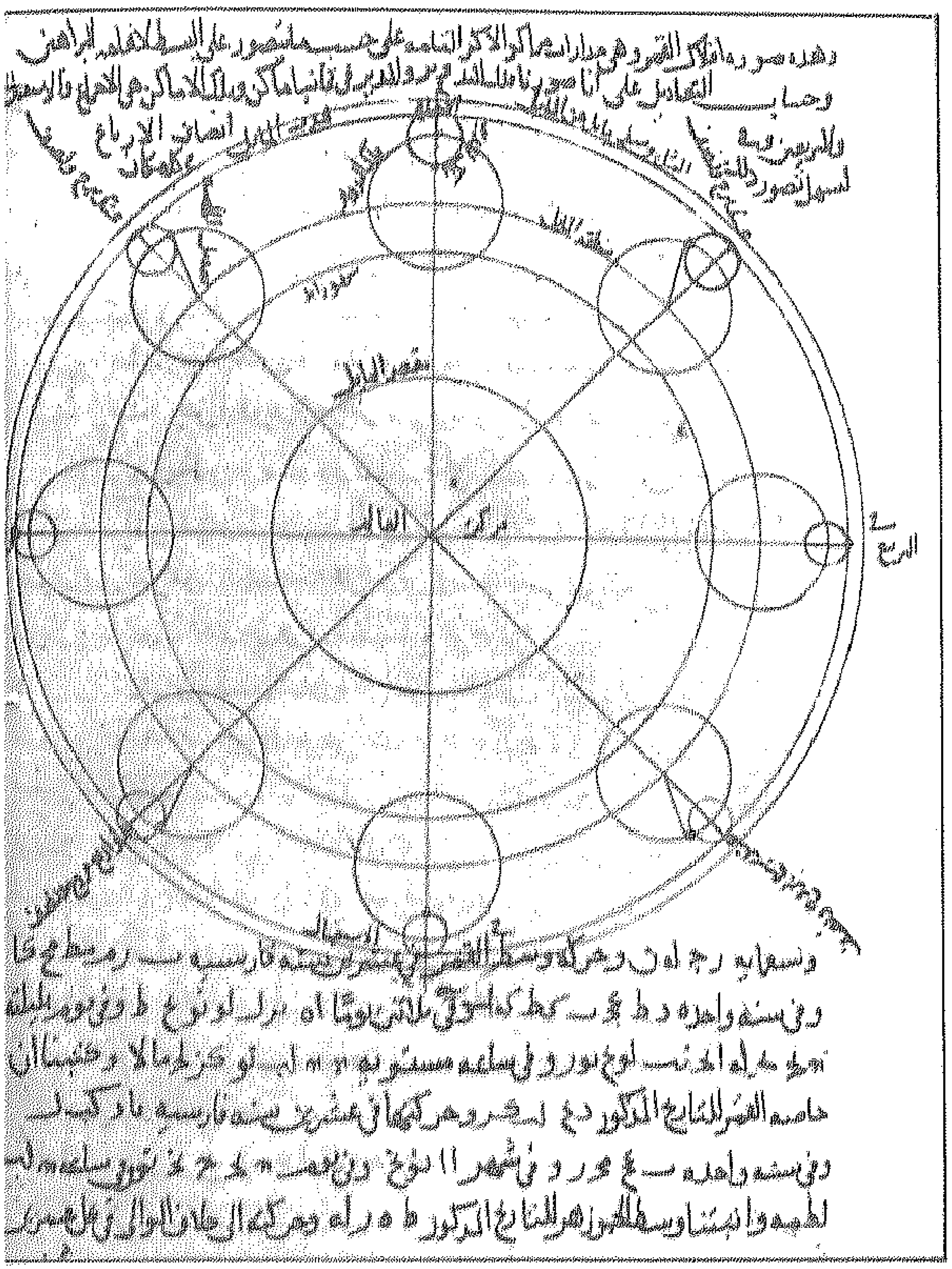

□ مخطوطة فلكية تبين حركة الكواكب.

الحديث وله مكان آخر وإن كانت نشأة الأسطول الاسلامي الحربي كانت أيام الخليفة المسلم عمر بن الخطاب وعلى يد معاوية ابن أبي سفيان.

الملاحة الفلكية عند العرب

● دور الفلك في الملاحة البحرية

يلعب الفلك ودراسته دوراً هاماً في الملاحة البحرية وذلك عند تحديد موقع السفينة بعيداً عن السواحل في البحر ويستخدم الملاحون آلة «السدس البحري» في تحديد ارتفاع الاجرام السماوية بعد التعرف عليه ثم يقارن هذا الارتفاع المرصود بقيمة الارتفاع المحسوب من الجداول البحرية في نفس زمن الرصد وتمثل قيمة الفرق بين هذين الارتفاعين قيمة الفرق في موقع السفينة الحقيقي أو المرصود عن الموقع الحسابي (الذي بنيت عليه الحسابات) أي ان الملاح يجب عليه الالمام بالآتي:

١ ــ معرفة المجموعات النجمية وطريقة انتظامها في السماء.

٢ ــ وقت شروق وغروب المجموعات خلال فصول السنة ليلاً ونهاراً.

٣ ــ تمييز النجوم الملاحية ــ وهي الألمع غالباً ــ ضمن المجموعات النجمية والقدرة على اختيار أنسب هذه النجوم في وقت الرصد ليعطي افضل دقة لموقع السفينة.

٤ ــ القدرة على تحديد أوقات الرصد الصباحية والمسائية والمعروفة بفترات الشفق البحري والشفق المدني.

٥ ــ اتقان استعمال آلة رصد ارتفاعات النجوم والكواكب (آلة السدس البحري).

٦ ــ الالمام بطريقة استعمال الجداول البحرية المستخدمة لايجاد ارتفاعات واتجاهات الاجرام السماوية وطرق حل المسائل الفلكية المتعلقة بتحديد الموقع.

٧ ــ اتقان توقيع السفينة فلكياً على الخرائط البحرية والقدرة على تحليل دقة هذه المواقع الفلكية.

□ نموذج لمخطوطة حسابية، وقد كانت العلوم الرياضية تلعب دوراً كبيراً في الملاحة البحرية.

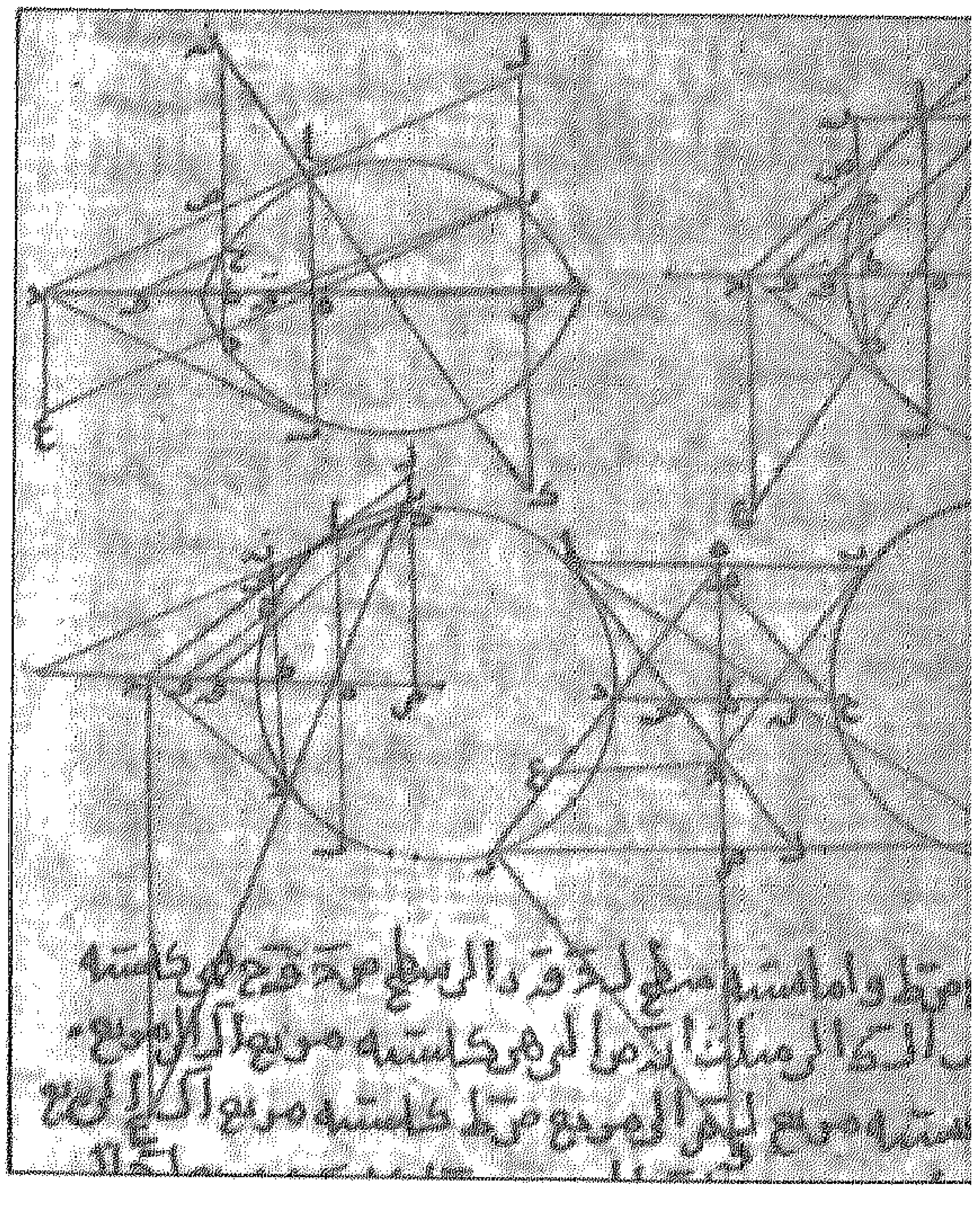

• الفلك في اللغة العربية

ورد ذكر النجوم واستخدام الفلك في الملاحة بتعريفها المتداول بين الناس في القرآن الكريم في مواضع عدة ــ نذكر منها قوله سبحانه جل وتعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: «وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون». صدق الله العظيم.

فقد خلق الله النجوم وهي جملة الاجرام السماوية ليهتدي بها الناس أثناء الليل سواء كانت ضمن الملاحة البرية أو الملاحة البحرية. وفي قوله تعالى: «فصلنا الآيات» معنى بيان الأدلة والبراهين لقوم يعلمون هذه الآية رقم ٩٧ من سورة الأنعام عن هداية النجوم للناس في البر والبحر هي آية مكية أي نزلت قبل هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام (عام ٦٢٢ ميلادية).

وقال تعالى في سورة الرحمن «الشمس والقمر بحسبان» وهي في الآية (٥) من سورة الرحمن.

وفي هذا إشارة إلى منازل القمر لحساب الأشهر وحركة الشمس لحساب السنين.

وقد عرف ابن خلدون في مقدمة علم الفلك فقال: «علم الهيئة علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة (في رأي العين) والمتحركة والمتحيرة بين فروعه علم الأزياج والزيج جدول فيه حساب مواقع النجوم والكواكب واحداً مع حسبان حركاتها في كل زمن وكل وقت والكواكب المتحيرة هي التي تتغير في السماء فتتقدم حيناً على الشمس وتتأخر عنها حيناً كما يتقدم بعضها على بعض مرة بعد مرة. تختلف مواقعها في السماء بين حين وآخر».

وقد كان العرب قديماً يعبرون باسم الكوكب عن الجرم السماوي سواء كان نجماً أو كوكباً حسب التعريفات الحديثة فالنجم يشع ضوءاً من ذاته وبذلك من مسافات شاسعة أما الكوكب فيكون قريباً نسبياً من الأرض يضيء بواسطة الأشعة الضوئية المنعكسة عليها من الشمس. أما علم الفلك في القاموس فهو العلم الذي يبحث في أحوال الاجرام العلوية والفلكي هو المنسوب إلى الفلك أو العالم بعلم الفلك.

وهنـاك فلك البروج وهي دائـرة تـرسمهـا الشمس في سيرها في سنة واحدة وتقسم الدائرة إلى إثني عشر برجاً كل واحد منها ٣٠ درجة وسمـاه المعاصـرون الدائرة الكسـوفيـة وفلك التدوير عند الأقدمـين هو دائـرة يسير عليهـا الكوكب السيار بينما يتحول مركز الفلك عـلى دائرة ثانية تحيط بالأرض تدعى فلك لاوج واصل الكلمة من فعل «فلك» ويعني استدار، الفلك هي السفينة، والفلك هو مدار النجوم وجمعـه فِلَك وفُلُك وأفلاك.

النجم عند العرب وعند الاطلاق هو الثريا وهي مجموعة كواكب في عنق مجموعـة الثور وسميت كذلك لكثرة مكان تجمعها، ومنها اشتق الفعل «نجم» أي رعى النجوم وراقبها أما أصل الفعل «نجم» بمعنى ظهر وطلع فيقال: «نجمت الكواكب» أي طلعت ونجم النبتة والسن والقرن كذلك.

ويقال: «نجم في بني فلان شاعر أو فارس إذا نبغ و«نجم السهم أو الرمح» أي نفذ «كوكب الحديد» أي برق الحديد وتوقد، وهي تعني أيضاً للسيف والماء، شدة الحر سيد القوم وفارسهم كما تعني نقطة بيضاء تحدث في العين، فيقال لصاحبها الكوكب، وكواكب البئر هي عينها التي تنبع منها الماء ويقال ذهبوا تحت كل كوكب أي تفرقوا ويقال: «يوم ذو كوكب» إذا وصف بالشدة كـأنه أظلم مـا فيه من الشـدائد حتى رئيت الكواكب السماء، والكواكب وجمعها كواكب أي ما طال من النبات وغير ذلك. أما الكوكبة فهي الجماعة، أما في الفلك فهي النجم.

وقد استخدم العرب كلمة «كوكبة» للدلالة على المجموعات النجمية أو المجموعة التي تتكون من الكواكب.

• الفلك في العلوم الرياضية عند العرب

تلعب العلوم الرياضية دوراً كبيراً في الملاحة البحرية، وقد أثرت التنويه عنها في هذا الفصل لارتباطها بالتوقيع الملاحي وحساباته وخاصـة التوقيع باستخدام الفلك بيد أنه لا يخفى أثرها الكبير في بقية نواحي الملاحة الأخرى كحسابات المد والجزر وكذلك رسم الخرائـط والنظريـات

□ ابن خلدون.

الأساسية المختلفة للأجهزة الملاحية وغيرها.

وقد كان العرب في العصر العباسي وهو عصر النهضـة وازدهار العلوم يقسمـون العلوم إلى قسمين رئيسين:

(أ) العلوم الأصليـة: وهي التي كـانت معروفة لديهم قبـل الاسلام مثـل علوم اللغة والتاريخ والفراسة.

(ب) العلوم الدخيلة: وهي التي لم تكن موجودة عند العرب في الجاهلية ودخلت عليهم بعد الاسلام وهي معظم العلوم العقلية ولهـا أربعة أقسام.

١ ــ المنطق.
٢ ــ العلم الطبيعي.
٣ ــ العلم الآلهي.
٤ ــ عـلوم التـعـاليـم (الريـاضـيـات والطبيعيات).

وفي مجال العلوم بصفة خـاصة أسـدت الحضارة العربية خدمات جليلة إلى العالم الحديث فمع ان الاغريق وضعوا النظريات

الرياضية وعمموها ونظموها إلا ان العرب قد خلقوا روح البحث والابتكار وجمعوا علوم المعرفة اليقينية وطرائق العلم الدقيقة وأسسوا أساليب الملاحظة العلمية الدائبة — ويقول بريفو في كتابه تكوين الانسانية: «ان العلم الأوروبي مدين بوجوده للعرب».

كما يقرر جورج سارطون في كتابه «مقدمة لتاريخ»، «العلم عندما امسى الغرب مستعداً استعداداً كافياً للشعور بالحاجة إلى معرفة اعمق، وعندما أراد ان يجدد صلاته بالفكر القديم، التفت أول ما التفت لا إلى المصادر الاغريقية ولكن إلى المصادر العربية».

والرياضيات أم العلوم التجريبية كلها، ولم يكن لدى العرب في الأصل اي رياضيات خاصة بهم إلا تلك التي توارثها العالم كله عن البابليين والسومريين والمصريين إلا انها لاقت على أيدي العرب دون غيرهم ذلك التقدم الذي مكنها آخر الأمر من أن تصبح الأساس الذي قام عليه العلم الغربي الحديث وإلا تأخرت مستكشفات كوبرنيكوس وكبلر وديكارت ولايبنتيز عن الظهور تأخراً كبيراً.

وعلى سبيل المثال وليس الحصر يمكن إيجاز الاسهام العربي في الرياضيات بما يلي:

١ — نقل علم الحساب الاغريقي وتبسيطه.

٢ — اصطناع الأرقام العربية والنظام العشري مما سهل استخدام علم الحساب في الحياة اليومية.

٣ — اختراع علم الجبر.

٤ — وضع أسس حساب المثلثات وخاصة حساب المثلثات الكروية أما علماء العرب في هذا المجال فمنهم الخوارزمي والبتاني وأبو الوفاء البيروني وبنو موسى بن شاكر. ●

□ اسطوانة تبين فلك البروج.

ورقة من تاريخ الاستشراق

هانز هاينريش شيدر

(١٨٩٦ - ١٩٥٧)

(الحلقة الثانية)

أوميليان بريستاك
ترجمة محمد علي حشيشو

□ جوتة في غرفة مكتبه وهو يملي على كاتبه يوهان.

إيران والكتاب المقدس:

ويربط بين المؤلفين «عزرا»[٥٩] و «مساهمات إيرانية»[٦٠] (١٩٣٠) نفس الموضوع الرئيسي: إيران والكتاب المقدس، وكذلك شخصية الانسان الرئيسي الذي يدور حوله البحث. ففي تحليل فلهوي لكلمة «الكاتب» (Soper) يتم البرهان على أن عزرا، المجدد الفكري للجالية اليهودية، استخدم هذا اللقب كدلالة رسمية على وظيفته في المملكة الأخيمينة. إلا أن الجالية اليهودية اتخذت هذا اللقب بمعنى «الكاتب العالم». وبذلك يصبح هنا لقب «الكاتب» رمزاً لمكانة عزرا الفريدة الخاصة بين الحكومة الايرانية والمجتمع اليهودي. إن ما فتن شيدر في دراساته للكتاب المقدس هو إنجاز اليهود الفريد من نوعه في حقل الدين، ذلك الانجاز الذي يعتبره مضاهياً لانجاز الاغريق في الميدان الفكري (ولانجاز الألمان في حقل الموسيقى). إن العملين «عزرا» و «مساهمات إيرانية» لا يعتبران رمزاً لطريقة بحث شيدر فحسب، وإنما كذلك لطبيعته الفكرية: فهنا يؤدي الجو اللاهوتي الذي نشأ فيه شيدر في منزل والديه إلى إيقاظ الاهتمام بعلم الدين الذي يمثل بدوره وفي الوقت نفسه ربطاً بين الدراسات السامية والدراسات الايرانية ويطرح بذلك وجهات نظر جديدة في التاريخ العالمي! لقد ظلت «مشكلة إيران والكتاب المقدس» حتى وفاة شيدر القضية الرئيسية التي تشغل باله. وقد صمم سلسلة من الدراسات الخاصة الأخرى حول هذه المسألة. إلا أنه لم يتمكن لسوء الحظ من نقل الأفكار الجاهزة في فكره إلى الورق. ومع ذلك فإن المؤلفين غزيران جداً من الناحية اللغوية البحتة أيضاً. فقد أدرك شيدر لأول مرة كنة «الآرامية الامبراطورية» (وكان ماركفارت هو الذي وضع هذه التسمية). والمقصود هنا هو لغة إدارية موحدة كانت تستخدم في جميع دواوين الدولة الأخيمينية وتخلو من أي اختلاف في اللهجة ولم تكن لغة للمخاطبة وإنما للتدوين وتتألف من رموز صورية يستطيع كل قوم قراءتها بلغته الخاصة. وفي جدال طويل مع ف. ك. اندرياز أظهر شيدر أن الكلمات والأسماء الايرانية في «الآرامية الامبراطورية» لم تكن متقدمة كثيراً في طريق تطورها إلى اللغة الفارسية الوسطى (المساهمات الايرانية، ٢٥٥ ــ ٢٧٣). ويربط بحثه حول تاريخ تطور الاصطلاح العربي «زنديق» مؤلفه «المساهمات الايرانية» (٢٧٤ ــ ٢٩١) بمؤلفاته المانوية. والأكثر أهمية بالنسبة لتاريخ الأديان هو رأي شيدر النقدي حول مسألة التاريخ الأصلي للتعميد المسيحي. فقد استطاع أن يثبت بطلان موضوعه رايتزنشتاين القائمة، وهي اشتقاق تعميد يوحنا وتعميد المسيحية الأصلية في تنوعه من التعميد المانديوي: إذ أن التعميد المسيحي جاء من التعميد اليهودي لمعتنقي الدين الجدد[٦١].

شيدر والشعر:

لقد أفرد شيدر «لقوة الشاعر التنظيمية» مكانة خاصة. فهو يرى أن الشاعر يستطيع ويجب أن «يعطينا ما لا يستطيع أن يعطينا إياه العلم التجريبي في البحث والنقاش والافصاح ولا الفلسفة في المعادلات التجريدية التي تستخدمها في لغتها المدرسية: ألا وهي الرموز التي لا ينضب معينها والتي تشبع روحنا وتهدىء من قلق خاطرنا، الرموز التي تشير إلى علاقات كل شيء بكل شيء. إن وحدة الحياة، والعلاقات الأزلية والبسيطة بين الله والعالم، وبين العالم والـ «أنا» بين الاجتماع والانفراد، إن هذه الأمور هي التي تشغل بال الشاعر والتي ــ بتشكيلها والتعبير عنها ــ يربطنا بالمطلق»[٦٣] وهكذا فقد افتتن شيدر لأمد طويل بالحوار الدائر لدى ر. ا. شرودر بين الانساني والمسيحي، بين الانسان المتعشق للجمال والمتدين. وقد أهدى له ــ بالاضافة إلى بضع دراسات ــ عام ١٩٣٨ كتابه «تجربة غوته للشرق» وعام ١٩٤٨ الكتاب الذي ألفه مع زوجته «طريق إلى ت. س. إيليوت»؛ وكما سبق وقلنا فإن ر.ا. شرودر مترجم أعمال إيليوت أيضاً.

وفي فترة بريسلاو ــ كونغزبيرغ كان شيدر شديد التعلق بهوغو فون هوفمانزتال. وقد كرس

له دراستين وكتاباً ضخماً كان قد أعلن عنه عام ١٩٣٣، غير أنه لم يسمح بنشره، وقد وصف فيه طريق هوفمنزتال من جو جمالي خالص إلى احتلال العالم الفكري الغربي، إلى الارتباط الشخصي بقيمه الأخلاقية والدينية. ويكتب شيدر في رثائه لهوفمنزتال عام ١٩٢٩: «لقد كان شاعراً يحيل القدرة اللانهائية على التجربة والألم في طبيعته وفي جيله منذ بداية الظهور إلى فكرة خالصة ويشكلها في كلمات خالصة، شاعراً انفتح امامه ــ بفضل وعيه الطبيعي لثبات النظام الأخلاقي ــ الطريق إلى عالم من الأشكال يحتوي جميع المناحي الانسانية على اختلاف ألوانها، وهو طريق اجتازه بطاقة تهذيب ذاتي للنفس تعتبر فريدة في عصرنا»[٦٣] وأصبح هوفمنزتال شاعر قدرة أيضاً. لقد استيقظ الاهتمام بأعمال هوفمنزتال منذ عام ١٩٢٧ عندما اشترك شيدر بدراسة هذه الأعمال مع الباحثة الشابة المختصة بالشاعر غريته فارايننتش[٦٤] (Dr. Grete Waranitsch) (المولودة عام ١٩٠٣) التي أصبحت منذ ذلك الحين حرمه الوفية المضحية ورفيقة عمره وشريكته في البحث في حقل الأدب.

الفترة الدينية والنزعة الانسانية:

لقد بدأت الفترة البرلينية بداية تعد بالآمال والوعود الزاخرة. فقد استطاع شيدر الآن أن يوجد مع كثير من أصدقائه (ك. هـ. بيكروف. بانغ وغيرهما) في مكان واحد. كما أن زملاء القسم في تلك الجامعة البارزة استقبلوه بحفاوة وود كبيرين. وأصبح «جاره» المباشر بعد حين أستاذه الفاحص السابق في بريسلاو وسلفه في كونغزبيرغ ريشارد هارتمان[٦٥] (Richard Hartmann) وسرعان ما اصبح شيدر عضو الندوة الشهيرة (Kranzchen). ويدل فهرس أسماء ومواضيع أعضاء هذه الندوة (ويظهر اسم شيدر كثيراً فيه) الذي طبع عام ١٩٣٩ على مدى نشاط وأهمية هذه المؤسسة الخاصة التي أنشأها الأساتذة البرلينيون بالنسبة للتطور العلمي. وأصبح شيدر ناشر عدد كبير من المتسلسلات النشرية التي يجب أن نخص بالذكر منها «الأبحاث الايرانية» (Iranische Forschungen) و «امبراطورية المغول العالمية» (Das Mongolische Weltreich). ومن مؤلفاته الخاصة في تلك الفترة نذكر: تحقيقه ودراسته لنقوش آريارامنس الفارسية القديمة[٦٧]، ودراسته الخاصة بسلف ماني: باردسانس الرهاوي، وأربع دراسات من حقل الأديان الشرقية (زرادشت ــ المانوية ــ محمد في (OLZ) ١٩٣٢، ص ١١٧٧ ــ ١١٨٥؛ (DLZ) ١٩٣٢، ص ٢١١٣ ــ ٢١٢٧) وأخيراً الدراسة «ايرانيكا»[٦٩] (Iranica) ويذكر شكلها الخارجي بمؤلفه «دراسات إيرانية»: فهي تحتوي على مسألتين منفصلتين من حيث الزمان والمكان (وهما اللقب الأخيميني «عين الملك»، ص ٣ ــ ١٩، والاسم الصيني (Rom' Fu-lin)، من عهد (T'ang)، ص ٢٤ ــ ٦٨)[٧٠] وبحثان آخران أيضاً، وتتصل جميع هذه الموضوعات بالمانوية، وبفضل مقدرته الخاصة في إيجاد الصلاة والروابط، أدرك شيدر كلمة (Frwm) فروم (From) في البارسية والصوغدية وهي الكلمة التي سبق لـ ب. بيليوت[٧١] (P. Pelliot) أن طالب بأنها الشكل الايراني الشمالي الشرقي لكلمة (Rom'Horm) في الايرانية الوسطى وهي الكلمة التي يقوم عليها اسم (Fu-lin) الصيني. والمهم أيضاً البحثان الآخران حيث يبحث في الأول (بالنفي) مسألة التعميد المانوي المزعوم (ص ١٩ ــ ٢٤)، وفي الثاني يتناول بالبحث مذهب الديناوارية التابع للمانوية الشرقية. واستطاع أن يبرهن بالحجة القاطعة القاطعة أن مؤسس هذا المذهب هو سداد أورمزد حوالي سنة ٦٠٠ ق. م. لقد ختم شيدر محاضرة افتتاح مدرجه التدريسي في جامعة لايبزغ بعنوان «فكرة تاريخ الأديان الشرقية» (٣١/٥/١٩٣٠، لم تنشر، وكان شيدر قد جاء إلى لايبزغ خلفاً لـ ا. فيشر[٧٢] (A. Fischer) بالكلمات التالية: «إن الحوار بين المسيحي والانساني هو الموقف الذي تواجهه حياتنا الفكرية». ولم تكن هذه الجملة مجرد كلمات «أكاديمية» فحسب، وإنما كانت اعترافاً ذاتياً عما يؤمن به بنفسه. وعندما نطق بهذه الكلمات كان الاتجاه المسيحي الذي بدأ في بريسلاو قد ولى. وكان الجانب الانساني هو الفائز في الصراع. وكانت فكرة الثقافة

الانسانية قد طرحت على شيدر بواسطة غوته، الذي كان قد تمكن من اختيار سعة أفق التنبؤي من قبل أثناء عمله على أطروحة إجازة التدريس الجامعي حول حافظ وشعره: ونعني بذلك حكم غوته على شعر حافظ. لقد رافق الكتاب المقدس غوته ــ كما رافق شيدر ــ طيلة حياته؛ وكان ــ كشيدر أيضاً ــ يعرفه بجميع تفاصيله. ورغم أنه كان يعتبره وحي منزل من الله، ولكنه لم يكن بالنسبة مصدر الوحي الوحيد، تماماً كما كان شيدر يرى ذلك أيضاً في تلك الفترة. وبذلك أصبح غوته بالنسبة لشيدر الضمانة الكبرى لديانة الفكر تلك، التي اعتقد أنها توجد في ذاتها بين العلم والايمان.

ثم جاءت فترة ١٩٣٣ ــ ١٩٣٤. وبقي شيدر في برلين وتولى مؤقتاً مهمة إدارة معهد الدراسات الشرقية (١٩٣٣ ــ ١٩٣٥) إنه لا يستطيع الحياة دون أن يتوفر لديه حقل واسع من النشاط والفاعلية، حتى وإن اضطر في سبيل ذلك إلى دفع ثمن من التكيف للوسط الجديد وخداع النفس والتخلي عن امتلاك خط واضح. وأخذت الصراعات الداخلية تشوش عليه وقدرته على التركيز. ورغم أنه نشأت مساهمات هامة في حقل تاريخ اللغة والكتابة الايرانية[٧٣]، وفي حقل النقوش الايرانية[٧٤]، ودراسات تاريخية ــ طوبوغرافية مليئة بالآراء المحفزة[٧٥]، وتقييم لتعاليم زرادشت[٧٦]، ودراسة حول الزرفانية[٧٧]، ودراسات عن المانوية[٧٨] وعن المسيحية[٧٩]، وأبحاث عديدة، منها ما يعالج أيضاً مشاكل العالم الشرقي[٨٠] منها ما يتناول ابحاث الاستشراق الالمانية[٨١] ــ إلا أنه لم يكتب لأي من هذه الموضوعات المطروقة أن ينمو ويترعرع. وهو في جميع الصعوبات التي يواجهها يجد العزاء لدى غوته. فقد جذبا بسحر الشرق ــ ثم الشعور بالغربة وعملية الاندماج فالابتعاد التاريخي ومحاولة إنقاذ الذات باتخاذ «السلوك الانتاجي» في زمن عاصف ــ هنا اكتشف شيدر عند غوته عدة مشكلات كمشكلاته نفسها. ومن أكثر المسائل اهمية بالنسبة لشيدر في ذلك العهد مفهوم غوته حول تاريخ العالم[٨٢] ــ وهي المسألة التي كان عليها أن تصبح العمل «المنتج» الذي سيشغل شيدر منذ الآن. وإذا كان في الماضي قد رأى التاريخ بالدرجة الأولى كتاريخ للأفكار والأديان، فقد أصبح التاريخ السياسي يحتل المرتبة الأولى الآن ــ وبعد أن شهد السلطة السياسية. وكمعلمين يهتدي بهم في هذا الاتجاه اختار ادوارد غيبون[٨٣] (Edward Gibbon) وليوبولد رانكه[٨٤] (Leopold Ranke)، وياكوب بوركهارت[٨٥] (Jacob Burckhardt) ويوليوس فلهاوزن[٨٦] (J. Wellhausen) وفلهلم (فاسيلي فلاديميروفتش) بارتولد[٨٧] (Wilhelm (Vasilij Vladimirovie) Barthold). وكان الموضوعان الرئيسيان: «الامبراطورية الفارسية الكبرى» و «محمد» (دخول العرب في التاريخ العالمي). ولكن الموضوعين لم يتخطيا حدود الدراسات الأولية الصغيرة[٨٨]. ومع ذلك فإنهما يستحقان القراءة حتى في هذه الصيغة. وأود هنا أن أشير فقط إلى التفسير الذكي لعبارة «في العام نفسه» في نقش دارا. غير أن العمل على غوته و «ديوانه» جاء بثماره أيضاً. فقد نشأ من ذلك أعظم مؤلف له في هذه الفترة: «تجربة غوته للشرق»[٨٩] (Goethes Erlebnis des Ostens)؛ وفي أعوام حياته الأخيرة رسم أن يصدر طبعة ثانية يوسع فيها الفصلين: «غوته والكتاب المقدس» و «النظرة الحياتية والشكل الوجداني عند حافظ».

مرحلة ما بعد الحرب الثانية:

ثم جاءت فترة غوتنغن وهي فترة الهبوط (١٩٤٦ ــ ١٩٥٧). فقد ذكرته الأعوام التي أعقبت الحرب العالمية الثانية كثيراً وبصورة حية جداً بتجاربه كطالب يبحث عن الحقيقة بعد انهيار الدولة والعقيدة السائدة بعد الحرب العالمية الأولى. وهكذا فقد رأى من واجبه أن يسعف هذا الشباب بالعون في المحاضرات العامة ذات الصيغة الانسانية من حقل التاريخ الفكري والتاريخ السياسي الأوروبي والأوروبي الآسيوي. وقد سعى بوجه خاص إلى تمهيد الطريق أمام الجيل الجديد من مواطنيه للتعرف على ت. س. إيليوت وعلى المؤرخ الجامع ا. ج. توينبي (A.J. Toynbee) وكثيراً ما كان مزاجه يدفعه إلى التفوه بأقوال لا مبالاة فيها، كانت تفهم خطأ أحياناً، وتثير له المتاعب الكبيرة

من جهات مختلفة، وكان من نتيجتها أيضاً أنه منع عن إلقاء الخطب مدة عام تقريباً. وقد سبب له هذا وغيره من التجارب المأساوية شعوراً بالأسى والكدر، وأضيف إليه المرض والآلام العضوية التي لم يعد قادراً على الخلاص منها. وبذل محاولات يعتريها التشنج لتحقيق جزء من مشاريعه على الأقل. إلا أنه لم يتمكن من تأليف بحث جديد عن أناشيد الـ (Gashas) الزردشتية على الورق، ولا من تحقيق مشروعه الكبير في تأليف دراسة تاريخية حول دخول العرب في التاريخ العالمي؛ ولم يعرف إلا فصل منه على شكل محاضرة، وهو الذي عالج فيه القبائل الآوارية الآسيوية (Avaren). ولم تتحقق كذلك محاولاته لوضع كتاب في قواعد الفارسية الوسطى ودراسة حول التصوف الاسلامي، كما لم يتمكن من تأليف بحث شامل جديد عن المانوية استناداً إلى المصادر الجديدة[٩٠].

كانت آخر تجربة شعرية لشيدر هي أعمال ت. س. إيليوت التي تعرف عليها منذ عام ١٩٤٦. وأصبح إيليوت بالنسبة له ما كان هوفمنزتال في فترة بريسلاو ــ كونغزبيرغ وما كان غوته في الفترة البرلينية. وبذلك نشأت دراساته العديدة حول إيليوت وكذلك الكتاب الذي اشترك مع زوجته في تأليفه «طريق إلى ت. س. ت» إيليوت (Ein Weg zu T.S. Eliot) (هاملن، ١٩٤٨، ١٦٠ صفحة). أما الشيء الذي فتن شيدر في إيليوت فهو التغلب بقوة الشعر على عصره وأهواله في «الرباعيات الأربع». فكما فعل بيتهوفن في رباعياته الأخيرة: السمو فوق صعيد الموسيقى بوسائل الموسيقى نفسها، أراد إيليوت أن ينير بوسائل الشعر عالماً سامياً أعلى من مستوى الشعر نفسه، لا يمكن إدراكه إلا بالايمان. وهنا يظهر التحول الديني لأول مرة، ذلك التحول الذي يتم في شيدر نفسه في أعوامه الأخيرة. ويتحقق ختام ذلك بانتقاله إلى المذهب الكاثوليكي عام ١٩٥٥.

كتب شيدر في رثائه لماركفارت عام ١٩٣٠: «لم يكن معلماً في المعنى المألوف للكلمة. ومن حضر محاضراته ودروسه كمبتدىء أصيب

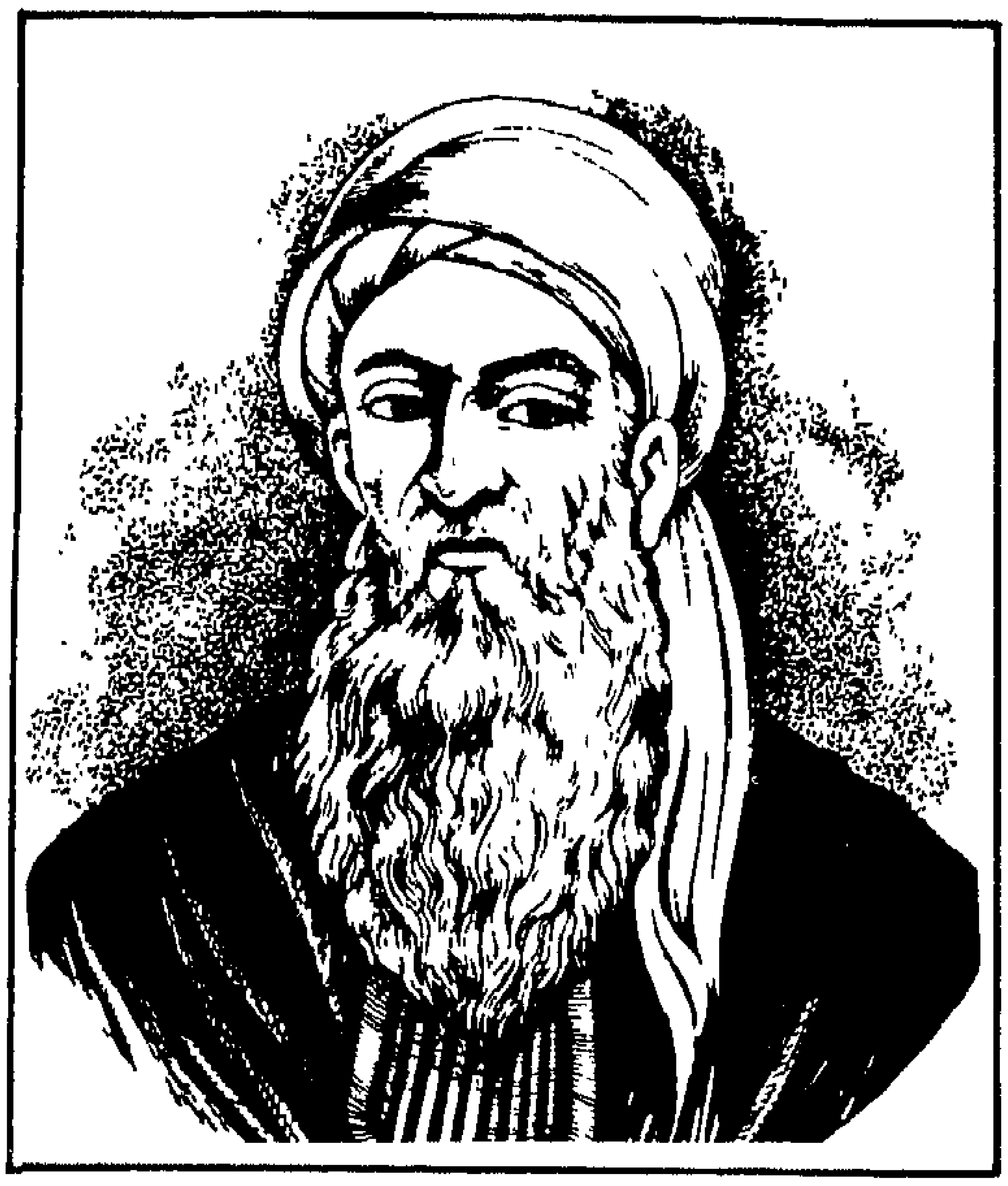

□ ابن الهيثم.

بالدوار. ولكن كلما حاول المرء أن يتعلم عنده، كلما ازداد فهمه له»[٩١] غير أن هذه الكلمات تنطبق تماماً عليه نفسه. إذ أن كاتب هذه السطور يستطيع أن يشهد أنه في درس واحد لمدة ساعتين في مادة الفارسية الوسطى حدث «عرضاً وبالمناسبة» تناول مسائل أخرى أيضاً كمشاكل الأدب الفرنسي الحديث، وتاريخ الصين القديم، والتاريخ الروسي، وتصنيف اللغات الأفريقية وغير ذلك، تبعها نقاش لآراء شبنجلر وف. ك. أندرياز ودوستويفسكي وغيرهم أيضاً. ولم يكن لشيدر تلامذة أتباع. ومن استطاع أن يصمد لديه، كان لا بد أن يكون قد جاءه وهو باحث تام الاعداد. ورغم أنه يوجد عدة علماء يشعرون بالانجذاب إليه، ويقدرونه كأستاذهم ــ إلا أنه لا توجد له مدرسة مستقلة به فقد كان أكثر عالمية وأوسع شمولاً من أن يعطي مدرسة ما اتجاهاً معيناً. وكان شديد التركيز على نفسه شديد الاندفاع. وكان يعيش دوماً بين الحدود المتطرفة. وقد اشتهرت الألقاب الوصفية (Epitheta) التي كان يبدعها من وحي اللحظة ويسجلها كتابة فوراً، وكان يصف فيها أفكار شركائه في البحث، وتلامذته أيضاً. وكان بحثه الدائم عن «المواهب الجديدة» الناجم عن

□ لوحة مخطوطة عليها أبيات فارسية، أواخر القرن السادس عشر.

□ صفحة من الشهنامة ـــ مخطوطة فارسية

حسه الفطري يؤدي إلى إحساس «ذوي مواهب الأمس الجديدة» بالكبت والاهمال إزاء «مواهب اليوم» و «الغد» رغم أن استعداده الودي للعون وحبه للضيافة لم يكن لهما حد غير أن كل لقاء معه، سواء أكان ذلك في الدرس، أم في منزله، كـان دوماً تجـربة لا تنسى، وأثـراً للمعرفـة وتصحيحـاً للرؤية وحـافـزاً لاكتشـاف أفكـار جديدة[٩٣].

إن قائمة من المؤلفات المهداة إليه وأسماء مؤلفيها الذين يمثلون حقـولاً مختلفة عـديدة لتعتبر أفضل دليل على تأثيره على البيئة المحيطة به:

1926: Joachim Wach, Die Typenlehre Trendelenburgs und ihr Einflub auf Dilthey. Rubingen.

Eberhard Zwirner, Zum Begriff der Geschichte. Eine Untersuchung uber die Beziehungen der theoretischen zur praktischen Philosophie, Leipzing.

1928: Martin Plessner, Der Oikonomikos. Heidelberg.

1931: C.H. Becker, Das Erbe der Antike im Orient und Okzident, Leipzig.

Julius Stenzel, Metaphysik des Altertums. Munchen und Berlin.

Wilhelm Eilers, Gesellschaftsformen im altbabylonischen Recht, Leipzig.

Gunther Raphael, Quartett Nr. 3 in A-dur fur 2 Violinen, Viola und Violoncell. Op. 28, Oeipzig.

H.S. Nyberg, Hilfsbuch des Pehlevi, II. Glossar. Upsala.

1934: P. Kraus, Beitrage zur Islamischen Ketzergeschichte. Das Kitab az-zummurrud des Ibn ar-Rawandi, Rom (Rivista, Bd. 14, 93-379).

Hans Jakob Polotsky, AbriB des manichaischen Systems. Stuttgart. (Pauly-Wissowa, Real-Encycl., Suppl. VI, 241-72).

1943: Bertold Spuler, Die Goldene Horde, Leipzig.

وبعد وفاته:

لقد كان شيدر يتمتع بطلاقة في أغلب اللغات الأدبية الأوروبية والآسيوية (بما في ذلك الروسية والصينية). إلا أنه كان كذلك بليغاً في الألمانية — وهو شيء نادر في تاريخ أدب الاستشراق! وكان حماسه للروائع العلمية التي كان يبدعها زملاؤه في الاختصاص من الأجانب يبلغ حداً بحيث لم يكن يعتبر الأمر مضيعة للوقت في أن يترجم دراسات موسعة بكاملها إلى الألمانية ليتيح بذلك الفرصة أمام الأوساط المثقفة الألمانية للاطلاع على هذه الكنوز(٩٣).

لقد كتب صحافي سويسري عام ١٩٢٨ بمناسبة محاضرة ألقاها شيدر في زوريخ ما يلي: «إن الجمهور العام لا يعرف حتى الآن إلا جزءاً يسيراً من علمه ومعارفه.. إلا أن قسماً كبيراً منها يكمن كوعود ضخمة أو مشاريع لم يكتمل أكثر من نصفها، وكل ذلك أجزاء من برنامج هائل لا يمكن لانسان واحد أن يحققه إلا إذا اقتصد في قواه بعناية. وهنا يكمن الخطر، إذ أن قوة هائلة مدمرة للذات تنبض في جوانح شيدر؛ وهي تبرق في كل لحظة في نقده، إلا أنها، كما أكد لي وكما أعتقد، أكثر ما تكون تأثيراً في محاضراته وإلقائه الشفوي»(٩٤).

ومما يؤسف له أن الأمر حدث كما تنبأت به هذه الكلمات العرافة. مما يؤسف له؟ كلا، إذ لم يكن بالوسع أن يكون الأمر غير ما كان عليه! ونحن، الذين كان من حظنا أن نشهد شيدر، مدينون لهذا التنبوء في أن تصبح هذه الأجزاء الرائعة تراثنا المشترك. ●

الهوامش

(٥٩) Esra der Schreiber, Tubingen, 1930, VIII, 77.

(٦٠) Iranische Beitrage I, Halle, 1930, Schriften d. Konigsb. Gel. Ges., 6. Jhg., H. 5, XI, 199-296.

(٦١) Gnomon, Bd. 5, 1929, 353-70.

انظر جواب رايتسنشتاين: Archiv f. Rel. wiss., Bd. 27, 3-4, 1929, 241-77.

(٦٢) Neue Schweizer Rundschau, 1929, H. 8, 573.

(٦٣) نفس المرجع. كذلك: In memoriam Hugo von Hofmannsthal, Antike, Bd. 5, 1929, 221-41.

(٦٤) قدمت ارملة شيدر لمؤلف هذه المقالة مساعدات كثيرة كفتح خزائن ارشيف زوجها ومراسلة اصدقائه القدامى للحصول على تفاصيل عن مراحل حياته.

(٦٥) ريشارد هارتمان: مستشرق ولد عام ١٨٨١ وعمل استاذاً في لايبزغ وكونجزبيرج وهايدلبرج وغوتنغن: اشتهر ببحوثه حول الاسلاميات وكتب مؤلفات حول التصوف والاسلام عموماً. انظر فكر وفن ٦.

(٦٦) Kranzchen (1929-39) Berlin 1-100, 1939.

(٦٧) Uber die Inschrift des Araramnes, SBAW 1931, 23, 635-45; SBAW 1935, 19, 494-96.

(٦٨) Z.f. Kirchengesch., 3. Folge, II, Bd. 51, 1-2, 1932, 21-74.

(٦٩) Iranica (Abh. d. Ges. d. Wiss. zu Gottingen, 3. Folge, Nr. 10), Berlin 1934.

(٧٠) ترجمت هذه الدراسة إلى الصينية.

(٧١) ب. بيليو: مستشرق فرنسي تخصص في لغات الشرق الاقصى وعاش من ١٨٧١ إلى ١٩٤٥ وعمل منذ عام ١٩١١ استاذاً في الكوليج دو فرانس بباريس أحضر معه مخطوطات قيمة من رحلاته في آسيا الوسطى بين ١٩٠٦ و ١٩٠٨.

(٧٢) ا. فيشر: مستشرق ولد عام ١٨٦٥ في هاله وتوفي عام ١٩٤٩ في لايبزغ. درس في هاله وبرلين وماربورغ. عمل مدرساً للغة العربية منذ عام ١٨٩٦ في معهد اللغات الشرقية في برلين. ثم انتقل استاذاً إلى جامعة لايبزغ حيث خلف المستشرق المعروف فلايشر في كرسي علم اللغات الشرقية. وكان فيشر عارفاً ممتازاً باللغة العربية ابتداء من الشعر الجاهلي حتى اللهجات الحديثة وقد قام بأبحاث قيمة لدراسة هذه اللهجات. انظر فكر وفن.

(٧٣) Beitrage zur iran. Sprachgeschichte, in Ung. Jahrb., Bd. 15, 1935, 560-88; Ein Parthischer Titel im Soghdischen, BSOS Bd. 8,, 1935, 737-49, Eine verkannte aramaische Praposition (began), OLZ 1938, 593-99; Ein indogerman. Liedtuypus in den Gathas, ZDMG, Bd. 94, 1940, 399-408; Altperisch aruvastam «Rustigkeit», OLZ 1940, 289-93; Die Veroffentlichung der Kopenhagener iran. Handschriften, OLZ 1940, 145-50; Mittel-und neupers. bas «seil», OLZ 1941, 193-201; Beitrage zur mittelpers. Schrift-u. Sprachgeschichte, ZDMG Bd. 96, 1942, 1-22; Ein iran. Lehnwort in den Inschriften von Manikiala, ZDMZ Bd. 97, 1943, 330-32.

(٧٤) Uber einige altpers. Inschriften, SBAW 1935, 489-506; Die Jonier in der Bauinschrift des Dareios von Susa, Jahrbuch d. Deutschen Archaol. Inst. 1932: 1 / 2, 269-74; Die Grundungsurkunden des Sassaniderreiches und der zoroastr. Staatskirche, ZDMG, Bd. 95, 1941, 14-18.

(٧٥) Turkische Namen der Iranier, Die Welt d. Islams, Festschrift F. Giese, 1941, 1-34; Zwei altiran. Ortsnamen ZDMG, Bd. 96, 1942, 127-38.

(٧٦) War Daqiqi Zoroastrier? in Festschrift G. Jakob, 1932, 288-303; Gott und Mensch in der Verkundung Zarathustras, in Corolla (Festschrift L. Curtius), 1937, 187-200; Zarathustras Botschaft von der rechten Ordnung, Corona, Jhg. 9, 1940, 575-602.

(٧٧) Der iran. Zeitgott und sein Muthus, ZDMG, BD. 95, 1941, 268-99

(٧٨) Der Manichaismus und spatantike Religion, in Z.f. Missionskunde, Jhg. 50, 3, 1934, 65-85; Der Manichaismus nach neuen Funden und Forschungen in Orient. Stimmen zum Erlosungsgedanken, 1936, 80-109.

(٧٩) Historische Theologie und Religionsgeschichte, Z.f. syst. Theologie, Bd. 9, 3 (Festschrift E. Schaeder), 1931, 567-79.

(٨٠) Geschichte der islam. Staaten, SA aus Propylaen-Weltgeschichte, 1933, Bd. 3, 211-48; Bd. 5, 511-52; Bd. 9, 237-98; Der Vordere Orient, in Handbuch der Kulturgeschichte, hrsgb. v. H. Kindermann, 1937, 161-250; Der Orient in der Zeitenwende, Corona, Jhg. 7, 3, 1936 / 37, 277-304; Imperium und Kalifat, Corona, Jhg. 7, 5, 1936 / 37, 540-63.

(٨١) Deutsche Orientforschung, Der Nahe Osten, Bd. 1, 8-9, 1940, 129-34; Orientforschung, Studien, z. Auslandskunde, Bd.1, 2, 1944, 75-84.

(٨٢) راجع بهذا الخصوص شيدر في طبعة (E. Beutler) للديوان الغربي الشرقي: West-ostl. Divan, 1943, 788-805. وكذلك: Goethes Entdeckung der Geschichte und der Orient, in Neue Zurcher Zeitung, 28.8.1949, Sonderausgabe, SA, S. 18-20.

(٨٣) إداوارد غيبون: مؤرخ انجليزي عاش بين ١٧٣٧ و ١٧٩٤، واشتهر بمؤلفه تاريخ انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها». وقد كتبه بروح فولتير الناقدة. ويحتوي على معلومات واسعة عرضت بأسلوب خلاب حكم ثاقب.

(٨٤) ليوبولد فون رانكه: مؤرخ الماني عاش بين ١٧٩٥ و ١٨٨٦.

(٨٥) راجع التعليق ١.

(٨٦) يوليوس فيلهاوزن: مستشرق وعالم لاهوت بروتستنتي، ولد في هاملن عام ١٨٤٤ وتوفي في غوتنغن عام ١٩١٨، ويعتبر أهم عالم مختص بالعهد القديم في القرن التاسع عشر. اصبح استاذاً للاهوت في غرايفزفالد في ١٨٧٢ واستاذ اللغات الشرقية في هاله عام ١٨٨٢ ثم في ماربورغ وغوتنغن. له مؤلفات وابحاث ممتازة في اللاهوت والعهد القديم. وكمستشرق بارز اكتشف في الاناجيل آثاراً ذات أصول آرمية. وكعالم باللغة العربية وعلوم الاسلام فقد شرح فلهاوزن

«بقايا الوثنية العربية» والف أول تاريخ نقدي للفترة الاسلامية الاولى في كتابة «الامبراطورية العربية وسقوطها» كما الف أيضاً كتاب «الأحزاب الدينية السياسية المعارضة في بواكر عهد الاسلام» انظر وفكر وفن.

(٨٧) فلهلم بارتولد: مستشرق روسي تخصص في تاريخ الأتراك ولغتهم وكذلك في تاريخ آسيا الوسطى عموماً. عاش بين ١٨٦٩ و ١٩٣٠ وعمل أستاذاً في لننغراد منذ عام ١٩٠١.

(٨٨) Das Persische Weltreich Vortrage d. Friedrich-Wilhelms-Unibersitat zu Breslau, 1940 / 41, 39s.

وقد تترجم نفس الكتاب إلى الفارسية على يد الدكتور منشى زاده، طهران، ١٩٥٥، ص ٥٢، Muhammed, in Arabische Fuhrergestalten. 1944, 1-72.

وكان أول بحث الفه شيدر عن محمد قد ظهر عام ١٩٢٣ في: Kampfer Grobes Menschentum aller Zeiten, Bd. 1, 115-38.

(٨٩) ظهر في لايبزغ عام ١٩٣٨. ومما له صلة بهذا المجال أيضاً المقالات التالية: Der Osten im West-ostlichen Divan, in GOETHE, Westostl Divan, Hrsgb. v. Beutler, Weisbaden, 1943, 2. Aufl. 1948, 787-839; Des Epimenides Erwachen, in Goethe-Kalender auf das Jahr 1941, 219-63.

ثم الخطاب الاحتفالي في كوتنغن: Goethe als Mitmensch, 1949, 15S.

(٩٠) لم يستطيع أن يصدر إلا دراسات قصيرة اهمها:

Der Manichaismus und sein Qeg nach Osten, in Glaube und Geschichte (Festschrift F. Gogarten), 1947, 236-54; Des eigenen Todes sterben, Nachrichten der Akad. d. Wiss. in Gottingen aus d. J. 1945-47, 24-36; Die Kantaer, in: Die Welt des Orients, Heft, 4, 1949, 288-98.

(٩١) Ung. Jahrb., Bd. 10, 1930, 119.

(٩٢) يجد المرء في كثير من المؤلفات إشارات بان الدراسات والأبحاث المعنية تمت بإيحاء من شيدر أو بمساهمة منه او تعليقاً يقول بأن المؤلف مدين بالحل المعني إلى بيان شفوي او تحريري من شيدر حول المسألة المذكورة، كما فعل مثلاً ب. أ. فرانكة (O. Franke) في تاريخ الامبراطورية الصينية (Geschichte d. chin. Reiches) في المجلد الثالث، ١٩٣٧، ص ٢٨٥، ٣٥٨؛

وكذلك: F. Altheim, Weltgeschichte Asiens im griech. Zeitalter, Bd. 1, Halle 1947, 53-54. Anm. 18.

ولبيان مدى اهتمام زملاء شيدر في البحث بمراسلاتهم العلمية معه ـــ وقد كان شيدر حريصاً على الرد على رسائله برعاية وعناية ـــ ما قاله هـ. س. نيبرغ (Nyberg) بهذا الخصوص: «إن الرسائل الطويلة التي كنت اتبادلها معه (شيدر) في هذه الاعوام، والتي لم تكن نبحث فيها (Iranica) وحدها فحسب، بل وكذلك كل ما يتعلق بالشرق والاله والانسان على الاطلاق، كانت بالنسبة لي اغنى مصدر للعلم والحفر والسعادة الفكرية» (من كتاب Hilfsbuch des Pehlevi, Bd. 2, s. XIII.

(٩٣) أود هنا أن اذكر أهم الترجمات التي قام بها شيدر. فمن اللغة الدانمركية ترجم ما يلي:

V. Thomsen, Altturkische Inschriften aus der Mongolei, ZDMG Bd. 78, 1924, 121-75; S. Kierdegaard, Uber den Begriff der Ironie, Munchen, 1929, 283 s.; F. Buhl, Das Leben Muhammeds, Leipzig 1930, 2. Aufl. Wiesbaden 1954, viii, 379s.; V. Gronbech, Werke 1. Zeitwende; 2. Jesus der Menschensohn), Stuttgart 1942, 157S.

ومن اللغة السويدية ترجم:

H.S. Nyberg, Die Religionen des alten Iran, Leipzig 1938, X, 506S.; T. Andrae, Die letzten Dinge, Leipzig 1940, 2. Aufl. 1942, 240S.

ومن الانجليزية:

A.D. Nock, Paulus, Zurich und Leipzig 1940, 203S.; M. Rostovtzeff, Geschichte der Alten Welt, 2. Bde, Wiesbaden 1941-42, 500, 502S.

ومن الايطالية:

E. Rossi, Die Kulturarbeit Italiens im Nahen Osten, Der Nahe Osten, Jhg. 1, 8-9, 1940, 134-39.

ومن الروسية:

W. Barthold Zur Geschichte der der pers. Epos, ZDMG Bd. 98, 1944, 121-57.

(٩٤) E.H. Hans Heinrich Schaeder (Zu seiner Vorlesung am 4. Juni) in: Neue Zurcher Zeitung, Morgenausgabe 2. 6. 1928, Nr.1007.

اللغة العربية
دورها وأهميتها في القرون الوسطى وفي أيامنا الحاضرة

الدكتور بيلاوسكي ترجمة محمد بن زيان

□ القرآن الكريم،
حافظ اللغة العربية وسبب انتشارها الواسع.

على كل فإن هذه اللغة التي طالما بقيت على الفطرة أصبحت منذ القرن الثامن الميلادي موضوع البحث والدراسة وكان الباعث على ذلك في المرحلة الأولى هو الحرص على الضبط والتدقيق في تفهم كلام الله سبحانه وتعالى وشرحه فكان ارتباط علمي اللغة والدين وثيقاً لذلك السبب، ثم ما لبث أن فك هذا الربط فاستقل علم اللغة وانشئت له المدارس والمراكز فاشتهرت من بينها في القرن التاسع للميلاد خاصة البصرة والكوفة في العراق، وقد تميز فقهاء اللغة في البصرة بطريقة كانت تغلب عليها الصبغة النظرية بينما كان مذهب الكوفيين يكتسي صبغة تجريبية فكانوا — مثلاً — يكثرون من جمع العناصر المستمدة من اللهجات لتعزيز وجهة نظرهم..

ولقد نشأ من هذا التنافس ازدهار في علم اللغة وتطور اللغة العربية لم يسبق له نظير، وظهر من بين أعلامه **الخليل بن احمد** صاحب

تحت هذا العنوان ونقلاً عن اللغة البولونية ننشر مقالاً ممتعاً بقلم الدكتور بيلا وسكي رئيس قسم اللغة واللهجات العربية والإسلام بجامعة فرسوفيا.

ومن أهم ما أبرزه في هذه الدراسة القيمة عن تطور لغة الضاد أنها أحدث اللغات السامية وأعظمها ثروة، وقد تحولت بصورة مدهشة من لهجة كان البدو يتكلمون بها في صحراء شبه جزيرة العرب إلى لغة ثقافية وحضارة وعلم فانتشرت حيثما انتشر القرآن الكريم والاسلام حتى أضحت هي اللغة القومية والرسمية أو على الأقل لغة الدين في الامبراطورية العربية الشاسعة الأطراف من الصين والهند شرقاً إلى محيط الأطلس وإسبانيا غرباً.

والدكتور بيلاوسكي شديد الميل إلى النظرية الحديثة التي ترجع أصلاً لغة القرآن الكريم إلى نجد بدلا من مكة وإن كان النحاة وكل من تبعهم أجمعوا على أن لهجة قريش هي التي كانت أصل العربية، معللاً ذلك بازدهار الشعر الجاهلي في الربوع النجدية وحيوية اللغة فيها وفصاحة أهلها وبلاغتهم.

أول معجم وهو «كتاب العين»، **وسيبويه** مؤلف «الكتاب» وهو من أعظم ما ظهر من المؤلفات في النحو كما يدل على ذلك تعدد شروحه وبقاؤه حتى الآن أساساً من أسس دراسة النحو.

وقد اتبع فقهاء اللغة في وضع كتبهم نظماً مختلفة أهمها ثلاثة:

أولاً ــ النظام السيميائي المرتكز على جمع المترادفات حول موضوع ما كالخيل والابل والنخيل والصحراء...

ثانياً ــ النظام المرتكز على مخارج الصوت واللفظ كما هو مطبق في كتاب «جمهرة اللغة» لابن دريد (المتوفى سنة ٩٣٤ ميلادية) وفي «تهذيب اللغة» **للأزهري** (المتوفى سنة ٩٨٠م) وكان هذا المؤلف الأخير من أمهات كتب اللغة ومن المصادر الكبرى التي أصبحت منهلاً للمعاجم الموضوعة بعد ذلك مثل «لسان العرب» **لابن منظور**» (القرن الثالث عشر بعد الميلاد) الذي رتبت فيه الكلمات ترتيباً الفبائياً لكن ابتداء من أواخر الحروف.

ثالثاً ــ النظام المتركز على الترتيب الالفبائي، وقد ظهر لأول مرة في جزء فقط من أجزاء «جمهرة» المعروف «بالصحاح» **للجوهري** المتوفى سنة ١٠٠٣ ميلادية، ثم في «مقاييس» اللغة **لابن فارس** المتوفى سنة ١٠٠٨ ميلادية.

وممن اشتهروا في الأندلس وعرب الاسلام من علماء اللغة **ابن سيده** المتوفى سنة ١٠٦٥ واضع «كتاب المخصص في اللغة» و«كتاب المحكم والمحيط الأعظم» وهذا المعجم الأخير لم يطبع منه إلا ثلاثة أجزاء وهو مرتب ترتيباً صوتياً على غرار طريقة الخليل.

كما اشتهر بعد ذلك ــ في القرن الثامن عشر ــ **الزبيدي** صاحب «تاج العروس» الذي يعتبر ركناً من أعظم أركان اللغة العربية.

بعد هذه النظرة الموجزة عن الدراسات اللغوية وما أنتجه اللغويون ــ خصوصاً ــ في القرنين التاسع والعاشر للميلاد تخلص الدكتور بيلاوسكي إلى موضوع تعريب أقاليم الامبراطورية الاسلامية وانتشار الفصحى واللهجات العربية، فبين كيف راحت لغة القرآن الكريم تغزو غيرها من اللغات وتحل محلها فاضمحلت أمامها الصابية واليمنية في جنوب الجزيرة، والأرامية في الشام وفلسطين والعراق، والقبطية واليونانية في مصر على أن حركة التعريب اصطدمت ببعض المقاومة لدى المسيحيين السوريين والأقباط فلم يتم تعميم استعمال العربية بينهم إلا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين.

أما في بلاد الفرس فقد أخذت لغة الضاد في الانتشار منذ الفتوحات الاسلامية الأولى واستمر استعمالها معمماً حتى القرن العاشر للميلاد حيث ظهرت حركة مقاومة تهدف إلى إحياء اللغة الفارسية التي استعادت مكانتها القومية في

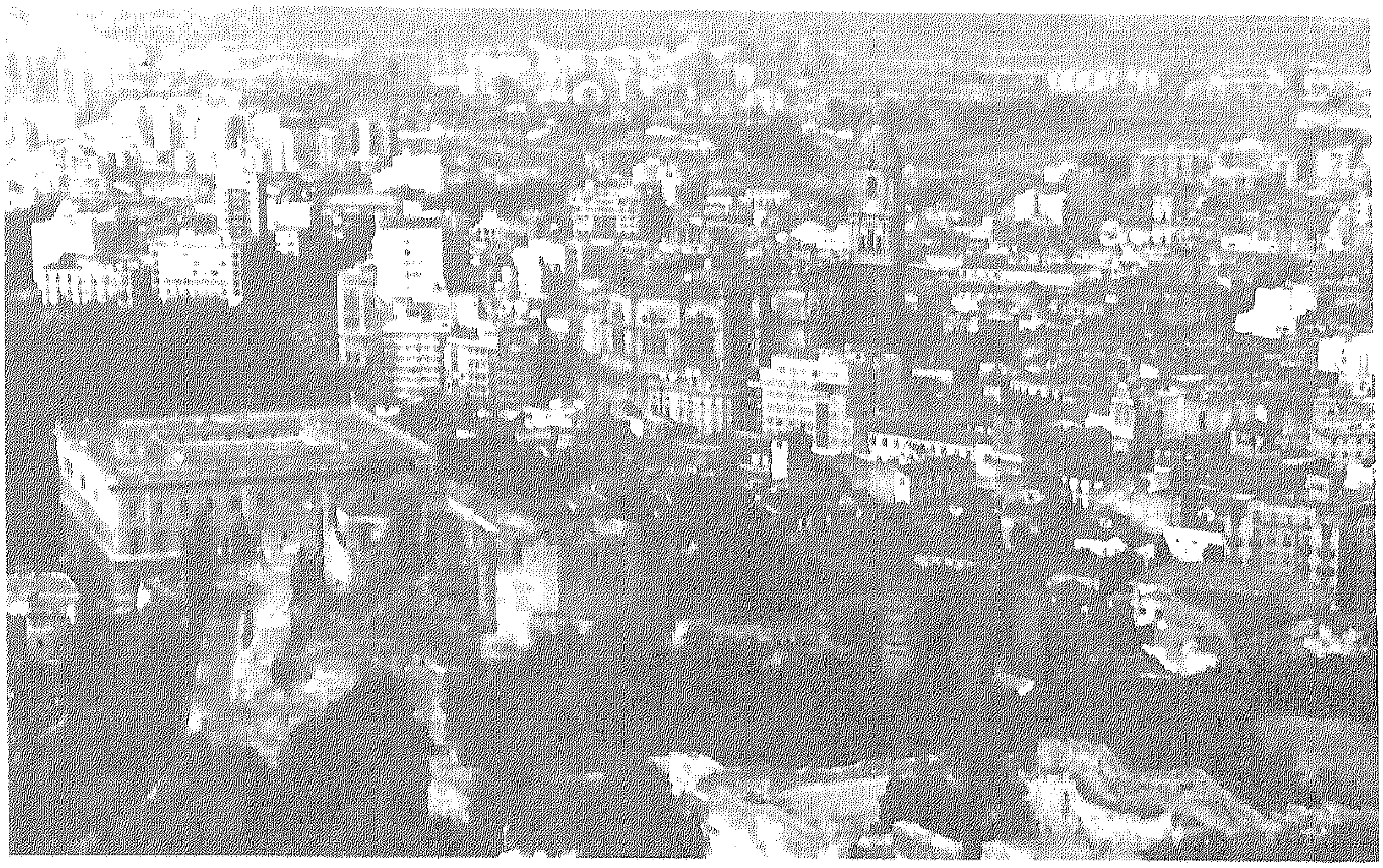

□ الأندلس حيث انتشرت العربية بين أهاليها من عرب ومستعربين.

الأدب والشعر خصوصاً دون أن تستطيع إقصاء العربية في المجالات الديني والقانوني والعلمي.

وأما في المناطق الشمالية من أفريقيا فقد لاقى التعريب صعوبات تعود أسبابها إلى عوامل جغرافية واجتماعية ولا سيما في النواحي الجبلية حيث تعيش القبائل البربرية متشبثة بعوائدها ولهجتها التي لا تخلو من الحيوية.

ولما فتحت إسبانيا في القرن الثامن (٧١١م) انتشرت اللغة العربية بين أهاليها من عرب ومستعربين فازدهرت وتطورت هناك مع ازدهار العلوم والفنون وتطورها العظيم إلى أن حلت سنة ١٤٩٢ التي انهزمت فيها آخر إمارة عربية.

من الشمال الافريقي أيضاً انتقلت العربية إلى جزيرة مالطة حيث تطورت وصارت تكتب بالحروف اللاتينية فكانت أصلاً للغة القومية التي ما زال أهل مالطة يستعملونها الآن.

وهذا الإشعاع العظيم الذي عرفته اللغة العربية في القرون الوسطى لم يعد سببه إلى انتشار الاسلام فقط، بل إننا نجد له سبباً آخر في المزايا الخاصة التي تتمتع بها هذه اللغة الممتازة بثروتها وحيويتها وإيجازها ودقتها الأمر الذي جعلها تقوم بدور عظيم في مجالي العلم والثقافة طوال حقبة القرون الوسطى. ولئن فقدت بعض نفوذها ابتداء من القرن السادس عشر لما أصيبت به العرب من انحطاط سياسي وثقافي، فإن هذه الظاهرة لم تكن إلا عبارة عن حالة عابرة وغفوة زائلة تمت بانبعاث اللغة العربية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

غير أن تطويرها تطويراً يناسب العصر الحديث لم يكن أمراً هيناً لما تتطلبه اللغة الناهضة من تنمية في الميدان الحضاري والعلمي ومن خلق مصطلحات جديدة. فبذلت منذ القرن التاسع عشر أقصى الجهود واتخذت جميع الطرق والوسائل من أجل ازدهار العربية في العلوم الفلسفية فغيرت الفاظ واستنبطت أخرى بناء على قواعد الاشتقاق وأدخلت غيرها صادرة عن لغات أجنبية. ثم أنشئت في القرن العشرين مؤسسات مختصة ونظمت تنظيماً. فظهر أول مجمع بدمشق سنة ١٩١٩ ثم مجمع القاهرة سنة ١٩٣٢ وأخيراً مجمع بغداد سنة ١٩٤٧، وأصبح كل منها يزخر بالعمل في خدمة اللغة العربية والأدب والثقافة ونشر المؤلفات القديمة التي ما زال الكثير من مخطوطاتها يعلوه غبار الإهمال والنسيان.

على أن أشغال هذه المؤسسات مرتكزة خاصة حول اللغة والعمل على توحيد مصطلحاتها، وقد أصبح أقطاب من الاختصاصيين في العالم العربي كله يشاركونها في ذلك. ولكل من هذه المجامع نشرة دورية تصدر مرة في كل ثلاثة أشهر أو مرتين في السنة محتوية على ما حصل عليه من نتائج العمل وعلى قوائم مصطلحات محدثة ودراسات خاصة باللغة الفصحى واللهجات العامية.

ويمكن القول من الآن أن لغة الضاد قد واجهت العديد من أنواع الصعوبات دون أن يشوبها شائب العناصر الأجنبية وهي محافظة على شخصيتها وعلى كل بهائها فلا تباين بين العربية الحديثة والقديمة وقد جددت ونميت على أساس نفس القواعد التي وضعها سيبويه المتوفى سنة ٧٩٢م في مصنفه «الكتاب».

وكان من الطبيعي أن يحدث بعض التطور في تركيب اللغة العصرية وقد حذفت منها التعابير المماتة وتوسعت ثروة مصطلحاتها، حتى أصبحت اليوم قادرة ومقدمة على مضاهاة سائر اللغات العالمية في الميدان الدولي، وقد أخذت مكانتها ــ مثلاً ــ في منظمة اليونسكو كلغة رسمية.

وهي اللغة القومية لا زيد من مائة مليون عربي يستعملونها في التأليف الأدبي والعلمي وفي الإدارة والصحافة والإذاعة فتشكل الرباط الوثيق الذي يربط بعضهم ببعض ويسهل تحقيق وحدتهم الوطنية.

ويوجد في الأقطار العربية بجانب الفصحى لهجات عامية يرجع أصلها إلى اللهجات التي كان يتكلم بها عرب شبه الجزيرة إلا أن كل واحدة منها طبعت بطابع خاص حسب العوامل اللغوية المحلية التي أثرت عليها فكان منها العامل الأرامي أو القبطي، أو البربري.. وهي الآن تتأثر أيضاً باللغات الغربية على أن ارتباطها المتين بالعربية الفصحى يجعلها تتقوى بها وتستمد منها ما ينقصها من المفردات وإن كانت هذه اللهجات الاقليمية غير مستعملة لا في الادارة ولا في الأدب باستثناء بعض المؤلفات الفلكلورية أو بعض ما يأتي أحياناً من حوار في الأقاصيص والروايات. ومن ذلك يتضح وجود ازدواجية لغوية في كل بلد عربي. فهناك:

□ اخذت لغة الضاد تنتشر في بلاد فارس.

أولاً ــ لغة رسمية وطنية وهي التي يكتبونها ولا يتكلمون بها إلا في بعض الأحيان، وقد يحدث ذلك مثلاً في الجامعات وبمناسبة الاجتماعات الرسمية وعند انعقاد المؤتمرات بين العرب خاصة.

ثانياً ــ اللهجة العامية التي تخلف شيئاً ما مع اختلاف البلاد العربية والتي ربما تميزت ببعض الأناقة عندما تتكلم بها النخبة المثقفة.

أما الدول التي تستعمل العربية كلغة رسمية فهي جميع الدول العربية من الخليج إلى المحيط.

وأما البلاد التي انتشرت فيها العربية انتشاراً هاماً فيها: السودان الغربي وجيبوتي وزنجبار، وهي معروفة أيضاً كلغة دين في بعض الأقطار الاسلامية مثل أيران وأفغنستان والباكستان وأندونيسيا.

وكان للعربية تأثير كبير في المجال الديني والعلمي على لغات أخرى منها الفارسية والتركية والأردية، وكلها كانت وما زالت تكتب بالحروف العربية باستثناء التركية التي اتخذت الحروف اللاتينية منذ ١٩٢٨.

وختاماً يجدر بالذكر أن نشير إلى أن الحروف العربية قد قامت بدور هام في الفن العربي الاسلامي كعنصر للزخرفة. ●

مُطالعة في: رسالة ابن فضلان
في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة
سنة ٣٠٩/٩٢١م

فاضل خليل إبراهيم

تعتبر كتب الرحلات، التي يسجل فيها الرحّالون مشاهداتهم وانطباعاتهم عن الأقاليم والشعوب التي يزورونها، خير مصدر لتدوين تاريخ هذه المدينة أو تلك وهذا الشعب أو ذاك. وتراثنا العربي يزخر بالعديد من الكتب والرسائل التي وضعها مؤرخون ورحالة وجغرافيون أمثال: ابن خرداذبة، واليعقوبي، وابن الفقيه الهمذاني، وابن رستة، وابن حوقل، وابن جبير، وابن بطوطة... فوصفوا بلاد المشرق والمغرب، وذكروا حال الشعوب وتقاليدها وعقائدها.

وتأتي الرسالة التي بين أيدينا، كأول تقرير صحفي يكتبه أحمد بن فضلان عن رحلته إلى بلاد الترك والخزر والدوس والصقالبة، التي قام بها عام ٣٠٩هـ / ٩٢١م.

بدأت قصة الرحلة عندما طلب ملك الصقالبة «المش بن يلطوار» من الخليفة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ)، أن يرسل له من يفقهه في الدين ويُعرّفه شرائع الاسلام، فكلّف الخليفة أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد، الموظف في بلاطه، ليرأس وفداً يتكون من اربعة أشخاص وهم: عبدالله بن باشتو الخذري وسوسن الرّسي وتكين التركي وبارس الصقلابي، ليقوم بهذه المهمة.

انطلقت الرحلة من بغداد، يوم الخميس الحادي عشر من صفر سنة ٣٠٩هـ المصادف ٢١ حزيران ٩٢١م، فقطعت أصقاع عديدة منها: النهروان وهمدان والري ونيسابور ومرو، حتى وصلت بخارى، فيصف لنا ابن فضلان دراهمها، حيث يقول: «ورأيتُ الدراهم ببخارا ألواناً شتىٰ. منها دراهم يقال لها الغطريفية: وهي نحاس وشَبَهُ وصُفر، يؤخذ منها عدد بلا وزن، مئة منها بدرهم فضة... ولهم دراهم أخر صُفْر وحدة، أربعون منها بدانق. ولهم أيضاً دراهم صُفْر يقال لها السمرقندية، ستة منها بدانق»(١).

ثم يصل في رحلته إلى الجرجانية، حيث بلاد الترك، فيقدم وصفاً كاملاً وطريفاً، فيقول: «فأقمنا بالجرجانية أياماً، وجمد نهر جيحون من أوله إلى آخره، فرأينا بلداً ما ظننا إلا أن باباً من الزمهرير قد فُتح علينا منه، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصفة شديدة،...، ولقد بلغني ان رجلين ساقا إثني عشر جملاً ليحملا عليها الحطب من بعض الغياض فنسيا أن يأخذا معهما قداحة وحُداقة، وأنهما باتا بغير نار فأصبحا والجمال موتى لشدة البرد. ولقد رأيت لهواء بردها بأن السوق بها والشوارع لتخلو

حتى يطوف الانسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحداً ولا يستقبله إنسان. ولقد كنت اخرج من الحمّام، فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت ادنيها إلى النار... فلما انتصف شوال من سنة تسع وثلاثمئة أخذ الزمان في التغير، وانحل نهر جيحون»[٢].

وبعد مسيرة طويلة في بلاد الترك، وتجواله بين قبائلها ومكوثه بينها، كتب ابن فضلان تقريراً مفصلاً عن حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم حيث يقول: «أفضينا إلى قبيلة من الأتراك يُعرفون بالغزّية، وإذا هم بادية، لهم بيوت شعر، يحلّون ويرتحلون، لا يدينون لله بدين ولا يعبدون شيئاً، بل يسمون كبراءهم أرباباً، فإذا استشار أحدهم رئيسه في شيء قال له: «يا رب ايش اعمل في كذا وكذا؟» وأمرهم شورى بينهم،...، ورسوم تزويجهم، وهو أن يخطب الواحد منهم إلى الآخر بعض حرمه: إما بنته أو أخته أو بعض من يملك أمره على كذا وكذا ثوب خوارزمي، فإذا وافقه حملها إليه. وربما كان المهر جمالاً أو دواب أو غير ذلك،...، وإذا مات الرجل وله زوجة وأولاد تزوج الأكبر من ولده بامرأته إذا لم تكن امه،...، [وهم] لا يذبحون، وإنما يضرب الواحد منهم رأس الشاة حتى تموت،...، وإذا مرض الرجل منهم، وكان له جوار وعبيد خدموه، ولم يقربه أحد من أهل بيته، ويضربون له خيمة ناحية من البيوت، فلا يزال بها إلى أن يموت أو يبرأ،...، وإذا مات الرجل منهم حفروا له حفرة كبيرة كهيئة البيت... وجاءوا بكل ماله فجعلوه معه في ذلك البيت... ورسومهم أن لا ينزع الواحد منهم الثوب الذي يلي جسده حتى ينتثر قطعاً»[٣].

أما عن الصقالبة، الذي وصل بلادهم يوم الأحد الثاني عشر من محرم سنة ٣١٠هـ، فيشير «ورأيتُ من الأعاجيب ما لا أحصيها كثرة. من ذلك: [أن] أكثر أكلهم الجاورس ولحم الدابة، على أن الحنطة والشعير كثير، وكل من زرع شيئاً اخذه لنفسه، ليس للملك فيه حق... وكلهم يلبسون القلانس، فإذا ركب الملك واجتاز في السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه، فإذا جاوزهم ردّوا قلانسهم إلى رؤوسهم... ومن رسومهم أنه إذا ولد لابن الرجل مولود أخذه جده دون أبيه وقال: «أنا أحق به من أبيه في حَضْنه حتى يصير رجلاً». وإذا مات منهم الرجل ورثه أخوه دون ولده... وإذا قتل الرجل منهم الرجل عمداً اقادوه به، وإذا قتله خطأ صنعوا له صندوقاً من خشب، وجعلوه في جوفه وسمّروه عليه... وينزل الرجال والنساء إلى النهر فيغتسلون جميعاً عراة لا يستتر بعضهم من بعض... ويقتلون السارق كما يقتلون الزاني...»[٤].

اما عن الروس فيقول في رسالته: «ورأيتُ الروسية... فلم أر أتم ابداناً منهم كأنهم النخل، شُقرٌ حُمْر،...، يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه، ويُخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين لا يفارقه... وفي أعناق نسائهم أطواق من ذهب وفضة... واجّل الحلي عندهم الخرز الأخضر من الخزف... ينظمونه عقوداً لنسائهم...»[٥].

ويختتم ابن فضلان رحلته بالحديث عن ملك الخزر حيث يشير «فأما ملك الخزر واسمه خاقان، فإنه لا يظهر إلا في كل أربعة أشهر متنزهاً، ويقال له خاقان الكبير، ويقال لخليفته خاقان به، وهو الذي يقود الجيوش ويسوسها ويدبر امر المملكة ويقوم بها، ويظهر ويغزو، وله تذعن الملوك الذين يصاقبونه، ويدخل في كل يوم إلى خاقان الأكبر متواضعاً يظهر الاخبات والسكينة، ولا يدخل عليه إلا حافياً وبيده حطب، فإذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب، فإذا فرغ من الوقود جلس مع الملك على سريره عن يمينه، ويخلفه رجل يقال له كندر خاقان، ويخلف هذا أيضاً رجل يقال له: جاوشيغر»[٦]. ●

الهوامش

(١) احمد بن فضلان: رسالة ابن فضلان، تحقيق د. سامي الدهان الطبعة الثانية، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨، ص ١١٠.
(٢) نفس المصدر، ص ١١٤ ــ ١١٧.
(٣) نفس المصدر، ص ١٢٢ ــ ١٣٣.
(٤) نفس المصدر، ص ١٤٣ ــ ١٦٢.
(٥) نفس المصدر، ص ١٧٥ ــ ١٧٦.
(٦) نفس المصدر، ص ١٩١.

رسائل الماجستير والدكتوراه

استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الدكتور «هولو جودت فرج» عرض لرسالته الدكتوراه بعنوان: «بعلبك في العهد الأيوبي»، ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتائج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

بعلبك في العهد الأيوبي

د. هولو جودت فرج

□ رسالة دكتوراه ــ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة القديس يوسف ٢/٢/١٩٨٥.
□ اللجنة مؤلفة من الأب الدكتور ج.م. فييه مشرفاً، الدكتورة نشأت الخطيب والدكتور نقولا زيادة.
□ التقدير: جيد.

تقع الأطروحة في مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة وملحق، إلى جانب ثبت بالمصادر والمراجع وفهرست للأعلام والبلدان.

تطرق الباحث في المقدمة عن الدوافع لاختياره الموضوع والصعوبات التي واجهته خلال جمع المادة وتكلم بإسهاب عن المصادر والمراجع الأساسية التي اعتمدها إلى جانب ذكر المصادر الثانوية ومقدار الاستفادة من كل منها.

ويشرح في التمهيد الوضع السياسي والعسكري في الشرق والغرب وتطرق إلى واقع العالم الإسلامي وموقفه المتصادم مع أطماع الغرب في الشرق.

الباب الأول

ويتضمن الحديث عن أصل الأيوبيين ثم أوائل أخبار عميدهم نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) فبدايات مسؤولياته في بعلبك في العصر الزنكي الأول ثم أخباره في العهدين البوري والزنكي الثاني. كما تناول الحديث عن الأيوبيين في بعلبك واصفاً كيفية فتح صلاح الدين لمدينة بعلبك في سنة ٥٧٠/١١٧٤ مع ذكر للولاة

□ التحصينات العربية واطلال مسجد إبراهيم الخليل داخل القلعة.

الذين حكموها في حياته (شمس الدين محمد بن عبدالله بن عبدالملك المعروف بابن المقدم ــ شمس الدولة توران شاه الملقب بفخرالدين ــ أبو سعيد عزالدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ــ الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه) وبعد مماته (بقية عهد الملك الأمجد ــ أبو سعيد صارم الدين خطلخ ــ أبو الحنيش الملك الصالح إسماعيل ابن العادل بن أيوب) وحتى قضاء التتار على الحكم الأيوبي في هذه المدينة سنة ٦٥٨/١٢٥٩.

الباب الثاني

تناول بعلبك في العصر الأيوبي فتحدث عن المدينة ومعالمها عند دخول الأيوبيين إليها فوصف طبيعتها مشيراً إلى موقعها الهام في عمق العالم الحضاري القديم، الأمر الذي دفع الأقدمين إلى بناء هياكلهم ومنشآتهم الدينية فيها. وأما بعلبك الإسلامية فقد كانت بلد حدود وتخوم في نقطة تماس لم تبرد سخونتها إذ هي على الحد الفاصل بين صحراء الشرق وبحر الغرب وهو الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وخاصة في فترة الحروب الصليبية التي استمرت طيلة العهد الأيوبي ثم أبرز الوجه السلبي لهذا الموقع الذي أدى إلى تحجيم هذه المدينة عمراناً وسكاناً وجعلها عرضة لكوارث طبيعية عدة من زلازل وسيول وغيرها.

ثم تطرق إلى تحديد أسوار بعلبك وتعيين أماكن الأبواب بأسمائها (باب نحلة ــ باب حمص ــ باب دمشق - باب القناعة ــ باب السيد ــ باب المدينة ــ باب همدان ــ باب مقنه ــ باب ايعات ــ باب سطحا ــ باب رأس العين ــ باب الفقاعية) مع الإشارة إلى أن بعلبك الأيوبية دفنت موتاها خارج هذه الأبواب.

كما وصف قلعة بعلبك التي آلت إلى الأيوبيين (الهياكل ــ الرواق ــ البهو المسدس ــ هيكل الآلهة ــ هيكل جوبيتر ــ هيكل باخوس ــ هيكل فينوس) ثم تحدث عن المنشآت التي أقامها الأيوبيون في القلعة. لقد حولوا الهياكل ببعض التعديل والاضافة إلى قلاع متينة وشيدوا برجي الملك الأمجد الشهيرين: الشمالي ويسمى شباك الهواء لأنه يشرف على البساتين والسهول المحيطة وقد أقيم سنة ٦١١/١٢١٣ والجنوبي

أقيم سنة ٦٢٢/١٢٢٤ والعلامة الفارقة للبناء الإسلامي في القلعة تتمثل في الصفوف العديدة من المحاريب في الجدران والتي كانت تستعمل مرام للسهام بالاضافة إلى الأسوار التي رفعت لضم معبد باخوس إلى القلعة ثم هناك إشارة إلى الخنادق والجور الثابتة والنقالة قبالة الأبواب (بلغت تسعة) وإلى ثلاثة أقبية أقاموها في باخوس (دار السعادة) هدمتها بعثة التنقيب الألمانية في بداية هذا القرن.

وقد أشار إلى تزويد العرب لقلعتهم بالمياه من عدة مصادر (نبع اللجوج ـ نبع راس العين) إلى جانب حفر الآبار في داخلها (بئر الصياح وغيرها). كما أقاموا داخل القلعة مسجداً يدعى مسجد إبراهيم الخليل وقد سكنوا القلعة وفرشوا فيها الفسيفساء الملونة ووضعوا فيها البرك المزخرفة وأصبحت القلعة في أيامهم مدينة منفصلة عن بعلبك المدينة الأم وكان لها حاكم خاص له افضلية على حاكم البلد وكثيراً ما كان والي القلعة هو والي المدينة.

وتطرق الباحث أيضاً إلى بقية المنشآت في بعلبك من جوامع (الجامع الكبير ـ جامع الحنابلة) ومساجد (مسجد إبراهيم الخليل ـ الجامع العلق ـ مسجد البربارة) ومنشآت دينية أخرى مثل: قبة الملك الأمجد أقامها سنة ٥٩٦/١٢٠٠ صارم الدين أبو سعيد خطلخ العزي نسبة لعزالدين فرخشاه وليس المعري بأمر من الملك الأمجد للشيخ عبدالله اليونيني على الهضبة المعروفة باسمه جنوب مدينة بعلبك.

ـ قبة الزرزاري: بنيت سنة ٦٤١/١٢٤٣ على ضريح عيسى بن الحسن الزرزاري فنسبت إليه وهناك كتابة أوردها ويغان (WIEGAND) تثبت أن الزرزاري هو الذي بناها ولم تقم على ضريحه وتسمى اليوم بقية دورس لوقوعها قرب قرية دورس غرب بعلبك.

ـ الخانقاه النجمية (نسبة لنجم الدين أيوب) أحد أبنية التصوف وقد اندثرت.

ـ دار الحديث المعبدية.

ـ مشهد علي بن أبي طالب عليه السلام.

ـ معابد النصارى.

بعدها انتقل إلي الحديث عن مدارس بعلبك وكانت شافعية على مذهب بالحكام اهمها:

ـ المدرسة النورية نسبة إلى نورالدين زنكي وقد اندرست ولم يعد يعرف لها مكان اليوم.

ـ المدرسة الأمينية: أنشأها أمين الدولة أبو الحسن بن غزال بن أبي سعيد المتطبب سنة ٦٣٧/١٢٣٩ وتجاور الجامع الكبير من الشرق ولا تزال أطلالها ماثلة حتى اليوم.

الباب الثالث

فقد تناول الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأدبية وبحث في أحوال البعلبكيين العامة خلال العصر الأيوبي لجهة تكوينهم السكاني والديني والاداري وحياتهم الاقتصادية والثقافية.

تحدث عن التكوين السكاني مبيناً أنه كان غداة الفتح الإسلامي مزيجاً من الروم والفرس والعرب والنبط وقد تغير هذا المزيج وفقاً لأحوال السلم والحرب. فقد تعزز العنصر العربي بعد الفتح الاسلامي وفي الغزوات الطارئة دخلت عناصر من الفرنج والترك ولا بد من بقايا استقرت وشاركت في تلوين الشعب البعلبكي مهما كانت نهاية تلك الغزوات.

تكلم عن الأديان التي كان يأخذ بها سكان بعلبك الأيوبية (الشافعيون ـ الحنابلة ـ الشيعة ـ النصارى ـ اليهود) وانتقل إلى الحديث عن الادارة والحكم فتكلم على وضع بعلبك الاداري في تلك الفترة وكيف أنها كانت نيابة تتبع دمشق وقدم استعراضاً لألقاب الملوك البعلبكيين ثم وصف نظام الحكم الاقطاعي مبيناً التركيبة الطبقية التي نتجت عنه:

١ ـ **الأسرة الحاكمة**: على رأسها الملك المحلي ثم السلطان.

٢ ـ **الأمراء العسكريون**: وهم دعامة الحكم وكانوا من المماليك أصحاب الرتب وقلما كانوا من الأعيان المحليين.

٣ ـ **الأعيان والملاك المحليون**: كانوا أصحاب الأملاك الواسعة كأسرة ابن أبي الرجال اليونينية الهاشمية وغيرها.

٤ ـ **النيرون والمثقفون**: وهم أصحاب المعارف الأصيلة كالأطباء والصيادلة والكيميائيين والفلكيين والأدباء والشعراء.

٥ ـ **الفلاحون والصناع**: وهم عامة الشعب منهم الجنود الحرفيين وغيرهم.

□ مئذنة الصالح إسماعيل الأيوبي في مسجد البربارة (الصاغة) وبقربها معبد فينوس.

ثم تكلم عن الحياة الاقتصادية وعن خيرات بعلبك الكثيرة والرخيصة ذاكراً منتجاتها الزراعية والصناعية التي اشتهرت بها.

وتعرض للحياة الثقافية التي ازدهرت في بعلبك أيام الأيوبيين بفضل ملوك الأسرة الحاكمة ذاكراً الشعراء والأدباء والوافدين إليهم مشيراً إلى أن ثقافة العامة في ذلك العصر لم تكن تتجاوز حدود الفقه وعلوم الدين ثم تحدث عن تأثير الشيخ عبدالله اليونيني ومريديه في ذلك الوقت وعن دور أسرة بعلبكية أخرى هي أسرة ابن أبي الرجال في قرية يونين الواقعة في ضاحية بعلبك والتي كان عميدها أبو عبدالله محمد بن أبي الحسين والد القطب اليونيني يدعى شيخ الإسلام كما تحدث عن تأثير اليهود السامريين على الحياة العلمية في بعلبك وعن تسللهم إلى المراكز الحساسة والهامة في الدولة مما أثار عليهم نقمة العامة فاقصوا وصودرت أملاكهم فجاءت نكبتهم على غرار نكبة البرامكة ولكن بدون إراقة دماء.

الخاتمة

شرح طريقة معالجة الموضوع وتطرق إلى الصعوبات التي واجهته إلى جانب ذكر نتائج البحث. ثم **الملحق** ويحتوي على:

١ ـ نموذج من ديوان الأمجد عن مخطوطة رقم ٧١٧٥ موجودة في المكتبة الظاهرية بدمشق.

٢ ـ شجرة للأسرة الأيوبية في بعلبك عن تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة.

وبعد الملحق **ثبت للمصادر** العربية والمعربة والأجنبية والمجلات التي اعتمدها وأخيراً **فهرست الأعلام والبلدان.**

وأخيراً، فقد أشار الباحث إلى أنه خلال هذه الدراسة قد تمكن من إلقاء الضوء على بعض الأمور الغامضة منها:

أولاً: محاولة ذكر الأسباب التي أدت إلى تحجيم بعلبك عمراناً وسكاناً في العصر الأيوبي.

ثانياً: تحديد اسم والي بعلبك خلال حملة الافرنج عليها سنة ١١٥١/٥٤٦ علماً بأن المصادر قد اختلفت حول تسمية ذلك الوالي خلال تلك الفترة.

ثالثاً: التفريق بين ضحاك بن خليد أو خليل التيمي (نسبة إلى وادي التيم) وضحاك البقاعي (منسوب إلى بقاع بعلبك) مع أن المراجع لم تميز بين الاسمين وجعلت منهما اسماً لشخص واحد.

رابعاً: معرفة كيفية احتلال نورالدين زنكي لمدينة بعلبك وتحديد تاريخ هذا الاحتلال بعد تضارب الروايات حول هذا التاريخ.

خامساً: تعديل بعض ما كتبه ميخائيل الوف في كتابه «تاريخ بعلبك» خاصة لجهة تضييق السور العربي وتحديد باب دمشق.

سادساً: إظهار وال جديد لمدينة بعلبك هو صارم الدين أبو سعيد خطلخ العزي.

سابعاً: تحديد بعض الأماكن في بعلبك مثل: باب الفقاعية والمدرسة الأمينية وغير ذلك. ●

كتب وردتنا

□ **قضايا الصحة العامة في الجنوب اللبناني**
حاضراً ومستقبلاً
المركز الثقافي للبحوث والتوثيق ك٢، ١٩٨٥ ــ صيدا ....

□ **الحرب الأهلية اللبنانية**
وازمة الوضع العربي
بيروت المساء ــ الطبعة الأولى ــ ك١، ١٩٨٥ ــ بيروت .... محسن إبراهيم

□ **مجلة «رسالة الخليج العربي»**
العدد (١٧) السنة السادسة ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م
يصدرها: مكتب التربية العربي لدول الخليج ــ الرياض ....

□ **ما أصل الانسان؟**
إجابات العلم والكتب المقدسة
ترجمة ونشر مكتب التربية العربي لدول الخليج ــ الرياض .... تأليف: الدكتورموريس بوكاي

□ **التربية في اليابان المعاصرة**
إصدار: مكتبة التربية العربي لدول الخليج ــ الرياض .... تأليف: إدوارد ر. بوشامب
ترجمة: الدكتور محمد عبدالعليم مرسي

□ **أحداث صيدا ٧٥**
يوميات ووثائق
استشهاد معروف سعد. اندلاع الحرب الأهلية في لبنان
المركز الثقافي للبحوث والتوثيق ــ الطبعة الأولى أيلول ١٩٨٥ ــ صيدا إعداد وتصنيف وتقديم: مصطفى دندشلي

□ **الدنادشة في العام ١٩١٩**
الثورة السورية الأم
دار الانشاء للصحافة والطباعة والنشر ــ الطبعة الأولى ١٩٨٥ ــ بيروت .... حسن نمر دندشي

□ **الوحدة اليمنية، حاضراً ومستقبلاً**
منشورات مجلة «دراسات الخليج والجزيرة العربية» (١٥)
الكويت ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م.............................. خالد بن محمد القاسمي

□ **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**
قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين
لابن فضل الله العمري
شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى (٧٠٠ ــ ٧٤٩هـ/ ١٣٠١ ــ ١٣٤٩م)
المركز الاسلامي للبحوث ــ بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٥.................. دراسة وتحقيق: دوروتيا كرافولسكي

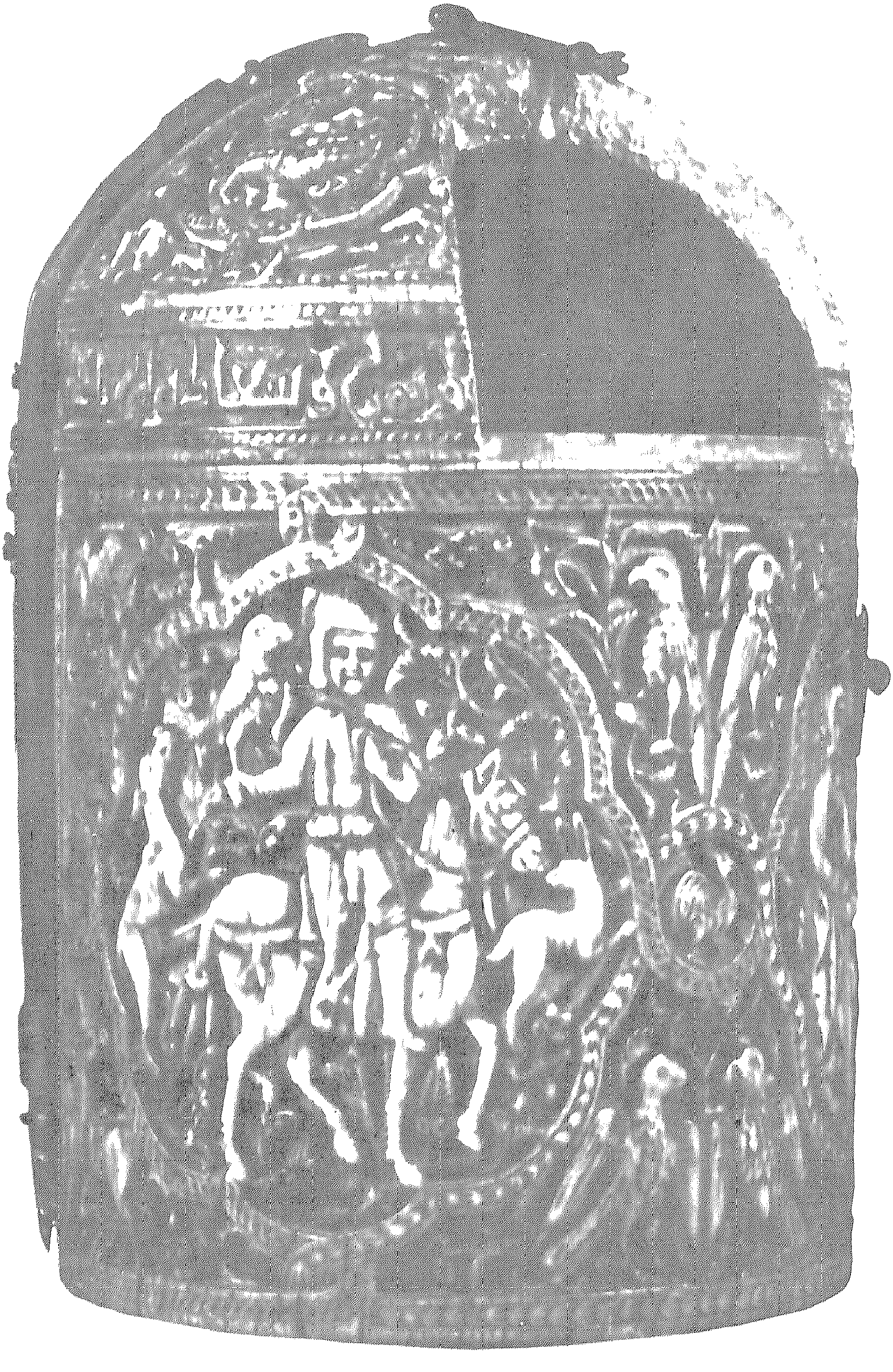

□ رسم فني إيراني، القرن (١٢ ـــ ١٣)م
من كتاب: Islamic Art, An Introduction,
David James

إحتفظ بمجلّدات السّنوات السّبع من مجلّة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

أحد عشر مجلداً فخماً + إشتراك مجّاني لعام كامل

٥٠٠ دولار أو ما يُعادلها بما فيها أجور البريد المضمون

إقطع هذه القسيمة وأرسلها مرفقة بقيمة المجلّدات باسم مجلة تاريخ العرب والعالم إلى العنوان التالي:
شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان

الاسم الكامل: ______________________

العنوان: ______________________

المدينة: ______________________

الامضاء: ______________________

أرفق القيمة: ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة عن تاريخ العـ

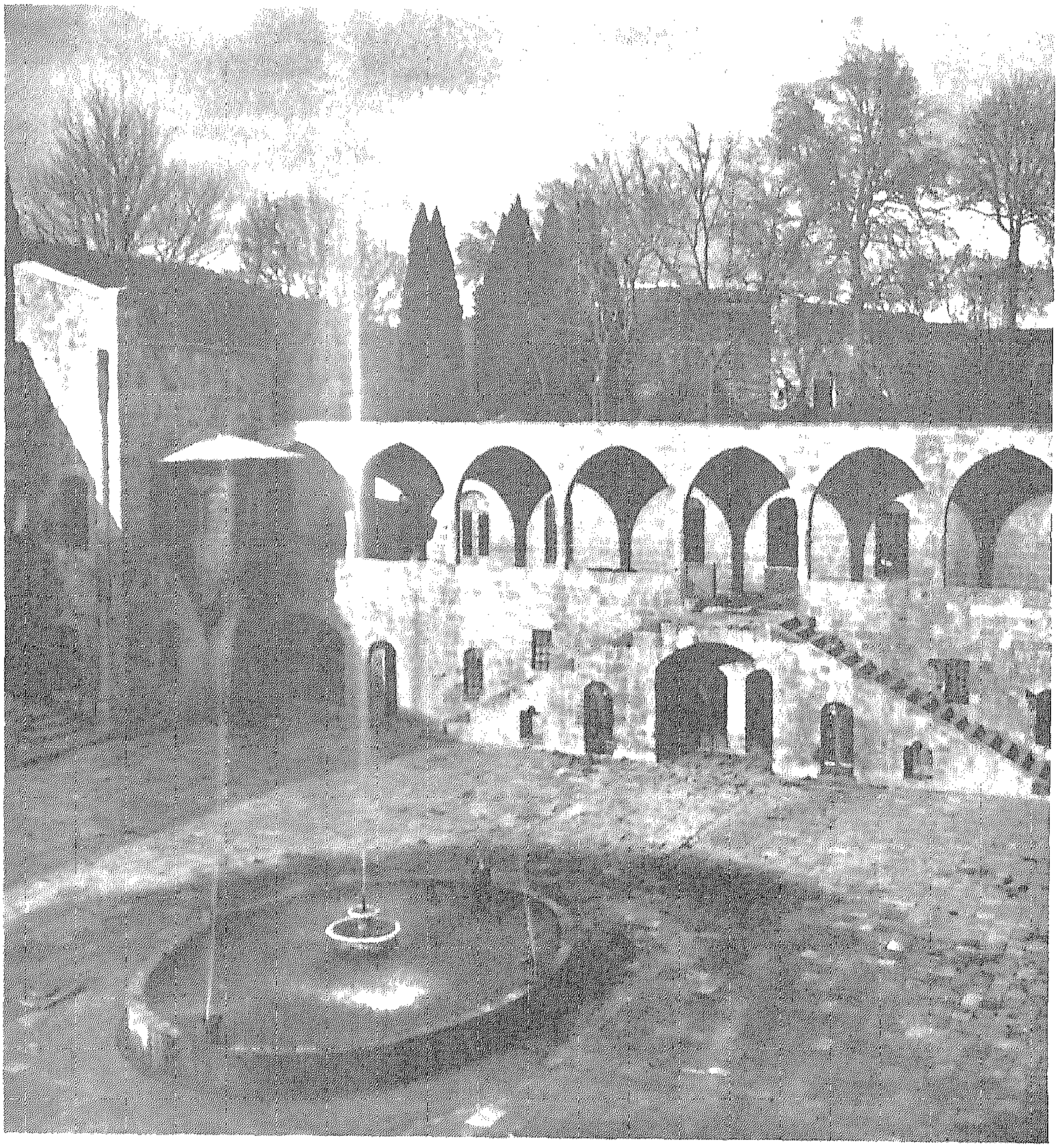

□ قصر بيت الدين ـــ الصحن الداخلي.

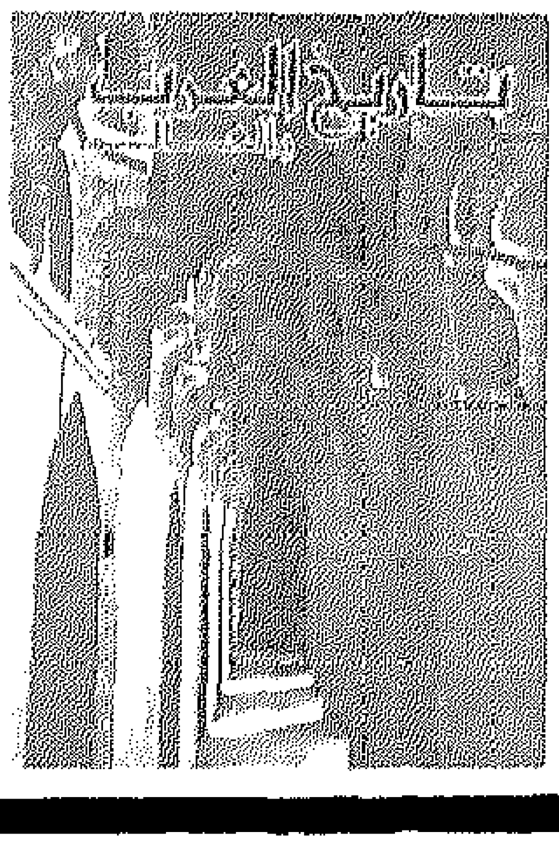

□ داخـل قصر الخليفـة العباسي الناصر في بغداد (١١٨٠ ـــ ١٢٢٥) مـن كتاب: Islam.

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقـالات والدراسـات التي تـنشر لا تعـبّـر بالضرورة عن آراء المجلة.

● الموادّ الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ٩٣/٩٤ ● تموز ــ آب ١٩٨٦م

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٢٠ ل.ل.	سوريا	٢٠ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الإمارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الإشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٢٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٤٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٢٠٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 8, No. 93/94 — July-August 1986

ANNUAL SUBSCRIPTION ; $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة، ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب، مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعي في الالقاب الصفات العلمية فقط ■

□ **دماء الشهداء ومداد العلماء**
حسن كامل الصبّاح
البيئة الثقافية والعلم الكوني
د. وجيه كوثراني ٢

□ **مجلة «المقتطف»**
رائدة العلم الحديث في العالم العربي
د. عبدالله العمر........................ ١٠

□ **الجوسق الخاقاني**
قصر الخليفة المعتصم العباسي بسامراء
د. أحمد كمال عبدالفتاح ٣٦

□ **صفحات من تاريخ الفنون القديمة في تركيا**
قسم التوثيق والأبحاث ٤٨

□ **رسالة نصيرالدين الطوسي في علم الموسيقى**
تحقيق: زكريا يوسف ٥٦

□ **وثائق من التاريخ:**
القضية الفلسطينية
د. أرنولد توينبي ٦٤

□ **ملامح من العصر العباسي**
الأستاذ خليل الهنداوي ٧٠

□ **معاهدات:**
مؤامرات ومخابرات سرية
روسية، انكلترة، فرنسة، ايطاليا
اتفاق على اقتسام
املاك الدولة التركية
إعداد: شذا عدرة........................ ٨١

□ **مدن عربية تحت الاحتلال**
نابلس
«قسم التوثيق والأبحاث» ٨٦

□ **رجال وافكار: باستور**........................ ٩٢

□ **أخبار التراث** ٩٤

□ **أعلام في التاريخ العسكري العربي**
«شهيد نهاوند»
النعمان بن مقرن المزني
فاضل خليل إبراهيم ٩٦

دماءُ الشهداءِ ومِدادُ العُلماءِ:

حسن كامل الصبّاح

دماء الشهداء ومداد العلماء وجهان لظاهرة واحدة ميزت تاريخ المسلمين المجاهدين في عقيدتهم وسلوكهم. فالشهادة التي هي تتويج أعلى لسلوك الاصلاح في الأمة تزامنت دائما مع طلب العلم من أجل اكتشاف الحق وتمثل الحقيقة.

ومن هنا فإن الدعوة التي أطلقها الرسول(ص) للحض على «طلب العلم ولو في الصين» كانت تعني قيام سنة ارتسم فيها المداد والدم عنوانا واحدا لكتاب الشهادة والبحث الحثيث عن الحق والحقيقة.

وجبل عامل كان ولا يزال صفحة مشرفة من هذا الكتاب، تقرأ فيها ملحمة الفداء مقرونة دائما بأمثولة العلم. فكم من عالم كبير نشأ في جبل عامل وذاع صيته وانتشر علمه في كل أنحاء العالم الاسلامي ثم ما لبث أن استشهد في سبيل كلمة حق أو تأكيد موقف، فحمل اسم «الشهيد» ودخل في ذاكرة الناس بطلا لسيرة ورمزا لمرحلة تاريخية. فلا غرابة أن تبتدىء كل مرحلة من مراحل التاريخ العاملي «بشهيد أول»[١] و«شهيد ثان»[٢] ثم تكبر القافلة وتمتد... تمتد عبر المدارس الدائمة التي تخرج علماء يذيع صيتهم بين القاهرة والنجف ودمشق واستامبول وقم، وعبر المعارك المستمرة التي تخاض ضد الظلم والقهر والاستقواء.

□ حسن كامل الصباح.

البيئة الثقافية والعلم الكوني

د. وجيه كوثراني

بعد الشهيد الثاني (١٥٠٥ ــ ١٥٥٧م) يجتمع العلم والدين في شخصية بهاء الدين العاملي (١٥٤٦ ــ ١٦٢٢م) الفقيه المجدد والرياضي المبدع. فيقدم هذا الأخير انموذجاً للتكامل العلمي حيث تتوحد المعرفة في أبعادها الايمانية والتجريبية والعقلية وحيث يتوازن الانسان في علاقته بالطبيعة على قاعدة التوحيد والايمان بالله، فلا يطعن ولا يتجبر ولا يستكبر.

هذا الانموذج العلمي يتواصل في التاريخ مع انموذج آخر برز في مطلع القرن العشرين فجمع بين سمات البنية الثقافية الدينية التي ميزت جبل عامل وبين شمولية العلم الكوني الذي يتجاوز على المستوى الانساني حدود العصبيات بكل اشكالها والوانها. ذاك هو العالم والمخترع الكبير حسن كامل الصباح (١٨٩٤ ــ ١٩٣٥). لكن الجمع بين العلم والدين في زمن حفرت فيه هوة كبيرة بين الطرفين واحتكر فيه للعلم موطن وعممت معايير النفعية مقاييس وحيدة للتطور والعقلانية والتقدم، أضحى معاناةً صعبة وصراعاً جهادياً وطريقاً للشهادة.

لقد مضى خمسون عاماً على وفاة حسن كامل الصباح في غربته المزدوجة، غربته عن وطنه وغربته عن القيم النفعية التي سيطرت على فلسفة العلم آنذاك. وكانت النبطية، مسقط رأسه، تودع ابناً من أبنائها لتكتشف تدريجياً أنها تودع ابناً عبقرياً لأمة مستضعفة وابناً مبدعاً لانسانية معذبة. فلا العبقري حاز بذكراه وبعد موته ما يستحقه العباقرة من اهتمام دولهم بهم ولا نال المبدع ما يستأهله المبدعون من احتضان المؤسسات الانسانية لمساهمتهم في إغنائها وإثرائها.

ذلك إن الدولة اللبنانية ما كنت لتعبأ آنذاك بإنسان خرج من بلدة عاملية أسمتها طرفاً جنوبياً ملحقاً، وما كانت لتهتم إلا بإحياء ثقافة مزورة يقتضيها صعود طائفي يلجأ إلى تلفيق تعددية تمسخ الثقافات الانسانية وتبتذلها. إنها الثقافة التي تتطلب تزويراً للتاريخ وإلغاءً لتاريخ «الآخرين» ونفياً لرموزهم وأبطالهم وعلمائهم ومبدعيهم. وكان العالم حسن كامل الصباح الذي يفترض أن يقدم كعبقري من لبنان نكرةً في سياسة الثقافة والتثقيف وسياسة العلم والتعليم. ذلك أن الهيمنة لم تقف عند حد السياسة والإدارة بل تجاوزتهما إلى مجال العقل والمنهج والتفكير.

وعلى المستوى العربي والاسلامي والعالمي، ما كان بمقدور إنسانية معذبة تطحنها أزمة عالمية في ظل أنظمة القهر والفاشية والنازية وحروب التوسع والاستعمار أن تلتفت إلى عالم لا يفصل أبداً بين علمه وإنسانيته. فالغرب في سباقه نحو التسلح كان يشجع على العلم الموصل إلى العنف والتدمير. أما العرب والمسلمون فكانوا يتلقون آنذاك نتائج انكسارهم بعد تفكيك الاجتماع الاسلامي وتدميره... كانوا يتلقونه تجزئة سياسية واستتباعاً واستضعافاً على كل المستويات.

ويدخل العالم العربي والاسلامي عصر التجربة المباشرة مع الغرب، عصر الاحتكاك بصيغ الانتداب والحماية والوصاية تمهيداً للاستقلالات الوطنية الموعودة والواهمة بعد قرون من جمود أصاب الحضارة العربية ــ

الاسلامية. وكان الاجتماع الاسلامي خلال كل ذلك مستنفراً للدفاع عن نفسه منذ الصليبية الأولى وحتى الاستعمار الجديد.

هكذا تشكلت علاقة اللاتكافؤ بين الشرق الاسلامي والغرب. ولقد صادر الغرب الحضارات الانسانية ومن بينها علوم الحضارة الاسلامية ووظفها جميعاً في سياسات العنف وفلسفات التبرير وثقافات السيطرة. ووقف الانسان في الشرق العربي والاسلامي أعزلاً من كل سلاح. حتى وسائل دفاعه الكامنة في ثقافته وعلومه القديمة انتزعت منه وألغي انتماؤها وأدخلت في نطاق «العقل الآري» ومركزية الغرب. وقد واجه حسن كامل الصباح هذه الاشكالية على قاعدة منهج التوحيد وعقيدة الايمان. ومن هنا كانت محنته وغربته كعالم ومسلم وإنسان. إنها تعبير عن كينونة وجوده وإبداعه وطموحه في نظام هيمنة محلية ونظام هيمنة دولية ونظام هيمنة عالمية تقوم على التفكيك والفردانية.

ويحاول إيليا أبو ماضي أن يعبِّر في فترة من فترات تألق حسن كامل الصباح عن حالة اغترابه فيقول: «الموهوب الذي يولد قبل زمانه يعيش غريباً ويموت غريباً. جئنا بهذه المقدّمة لندل قومنا على نابغة سوري كبير... على عبقري لو كان فرنسوياً أو انكليزياً أو اميركياً لكان اسمه ملء الأفواه وسيرة حياته ملء الكتب... إن اسمه لا يزال خفياً كأنه مشمول بضباب كثيف وذنبه أنه شرقي، وهذا يبرهن لنا فساد القول الشائع من أن العلم لا وطن له».

لكن الزمن الذي يتحدث عنه أبو ماضي ليس زمناً صرفاً يولد الموهوب فيه قبل بضع سنوات من مرحلة لاحقة قد تنصفه. إنه زمن الهيمنة والالغاء، زمن ادعي فيه للعلم وطن هو الغرب، وتم فيه تقسيم ثنائي للعالم: حضارة وبربرية، تاريخ ولا تاريخ، تطور وتأخر، عرق آري ذو عقل علمي ومنطقي وفلسفي، وأعراق منغلقة العقول على كل علم ومنطق وفلسفة. ذاك هو التقسيم الذي أرسي في ذاك الزمن ولا يزال يجر ذيوله حتى الآن على مأساة البشرية المعاصرة.

لكن حسن كامل الصباح لم يستسلم. منذ صغره كان يحلم بإنجاز عمل كبير وحمل معه من بيئته في النبطية زاداً كبيراً. لقد حمل حنان الأم وحبها وتوجيه الأب واهتمامه وثقافة الخال[٣] ودرايته. وتوّج كل هذا بانتماء إسلامي أصيل تكامل فيه العلم والايمان، الألم والعزم، والمعاناة والأمل. وتواصلت في ذاكرة الصباح سيرة الأئمة والشهداء وسيرة أبطال العرب وشعرائهم وعلمائهم عبر قراءاته المبكرة التي شغف بها. فتكاملت هذه الأخيرة مع كتب الرياضيات والعلوم ومعارف الطبيعيات. وسافر الصباح إلى حيث رأى إمكاناً لتحقيق حلمه الكبير وحمل كل زاد ضروري لعقله ونفسه وشخصيته ما عدا زاد المال ـــ المال الذي طلبه من الزعامة المحلية فلم يوفق ـــ.

وكان أن اعتمد الصبّاح على جهده وصبره وإيمانه فكتب في مهجره في عامه الأول حيث انكب على الدراسة «حياتي يوم جوعه ويوم شبعه مملوءة بالتفكرات العلمية والدرس والاضطراب. والحاصل لا تجدني أرتاح دقيقة وقد آليت على نفسي أن لا أحضر مجتمعاً أو حفلة طرب أو سينما أو ما أشبه ذلك حتى آخذ الشهادة». وكانت صورة أمه بالنسبة إليه مصدر أمل وينبوع تفاؤل وشد أزر حين الشدائد. يقول مخاطباً والدته: «كنت كلما حامت حول دماغي شظايا الحزن وغبار اليأس وغمام الخيبة أسبلتِ عليه رذاذاً من حنانك ونصائحك حتى أعود كأني ولدت من جديد». ويخاطبها: «أراني وإن فقدت حنوي للوطن وسكناه فأني قد استبدلته بحنوي نحوك وأصبح الوطن في عرفي هو أنتِ وربما كان هذا هو منطوق الوطن في عرفي كل تلك المدة».

تلك هي نفحة من نفحات الزاد الثقافي الذي حمله الصبّاح من بيئته: الانتماء إلى الجماعة. والانتماء يبدأ لديه من علاقته بأمه. فيشع هذا حباً كبيراً يغطي الوطن ويتماهى معه في الكبر والثقة والحنان. هكذا يتكامل الحدس والمعرفة والحب والالتزام عند الصباح. فهو ابن الأسرة يتواصل مع أفرادها من مستوى العلاقة الشخصية إلى مستوى هموم الوطن والانسانية والمجتمع. ألم تعكس مراسلاته إلى خاله الشيخ أحمد رضا هذا الهم الصادق الذي يوزعه بين علمه وعيشه ومشاكل مجتمعه وقضاياه السياسية والمصير وقضايا المرأة والأدب والشعر وإشكالية الغرب والشرق والعلم والايمان.

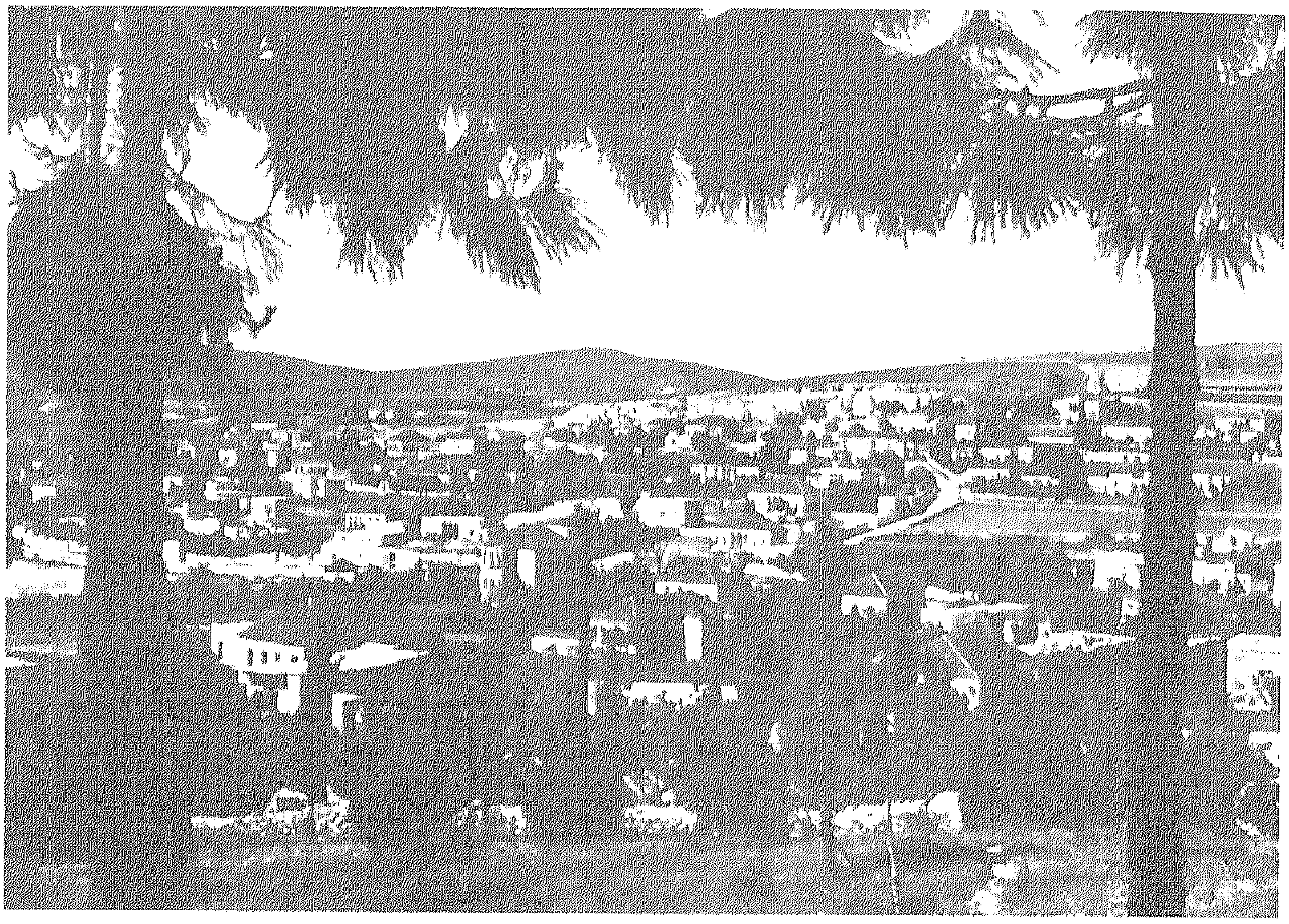

□ النبطية، حيث نشأ الصبّاح.

وهو حيال كل هذه المقاربات يحمل فكراً نقدياً يشده دائماً نحو العميق والأصيل فيرفض الانجرار للتسليم بكل ادعاء علمي غربي لمجرد أنه صادر عن موقع الاستعلاء والاستقواء، يقول: «يتوهم البعض بمجرد توصله إلى نظرية خيالية يقلد فيها بعض علماء الغرب أنه صار عالماً وأن العلم بلغ من المكانة درجة تسمح له بنبذ كل ما هو شرقي من العادات والمعتقدات والتدليل على كونها غير منطبقة على قواعد العلم».

ويشخص الصباح الداء الذي بدأ منذ بداية الثلاثينات إلى أن شاع واستعصى حتى أضحى مرضاً فعلياً لدى المثقفين المحدثين المعاصرين فيقول: «والذي يزيد في الطين بله هو مزاعم الشرقيين الذين يحلون في الغرب ردحاً من الزمن ثم يعودون إلى ديارهم فيزيدون توهمهم نقداً وتسفيهاً وتضليلاً ويعلون منار الغرب والغربيين».

تلك هي عقدة النقص التي وعاها الصبّاح لدى المثقف الشرقي المتغرّب. فلقد تنبه إلى أمرين لا نزال نحتاج إلى حكمتهما حتى اليوم:

ـ الأمر الأول: خطر التجريبية النفعية التي يخضع لها منهج العلم في الغرب بحيث يرتبط العلم بالمال وقول الحقيقة بالمصلحة.

ـ والأمر الثاني: التنبه إلى الجانب الايجابي في «العادات والمعتقدات» في بلادنا.

وهكذا ففي الوقت الذي انبهر فيه الناس بحضارة الغرب وتطلع الكثيرون من مفكري العرب إلى أتاتورك كمثل أعلى في عز أيام وهجه، يقول الصبّاح: «فعلى مصطفى كمال إذا أراد ترقية الشعب التركي أن ينصرف عن التقليد المحض إلى خلق ألباب عديدة لا لب واحد في نفوس الشباب التركي». وفي مناسبة أخرى يقول: «وعلى نبهاء الكتبة في مصر إفهام الشباب المصري بأن يمتزجوا بالأوروبيين والأميركيين عن شريطة ألا ينسوا بأنهم وحدة منفصلة».

كل هذه الارهاصات المبكرة في وعي إشكالية العلاقة بالغرب تتردد في أكثر من رسالة وأكثر من مقالة. وهي إذ تصدر عن عالم كبير في علوم الطبيعة والفيزياء، تكتسب دلالات كبرى في فهم

في الاسلام وفي عقل حسن كامل الصبّاح المتمثل لثقافة الاسلام موقف توحيدي حيال العلوم وحيال وظيفتها وعلاقتها بالانسان والطبيعة.

يقول في مقالته «نظرات رياضي» التي نشرت في مجلة السمير «إن الرابطة الاجتماعية تتوقف على مقدار الرقي العقلي لأن العقول إذا ارتقت شعرت بالوحدة بطبيعة الحال. فمثل من يحاول أن يكون الوحدة بطرق أخرى كاختراع أديان جديدة مبنية على غير البحث النزيه والتفكير الصحيح والاستقصاء العلمي المجرد كمثل من يصطنع بحراً اصطناعياً على ظهر سفينة تمخر البحر إلى نيويورك ويضع قاربه في ذلك البحر الاصطناعي حتى إذا وصلت السفينة إلى نيويورك أدنى قاربه إلى مخرجها ودخل نيويورك مفتخراً بأنه وصل إليها على متن قاربه في بحر غير البحر». ذاك هو موقف الصبّاح من الايديولوجيات التي تقدم نفسها بدائل للدين فيقول: «ليست هذه سوى الاعيب صبيانية».

وينطلق الصبّاح من مفهوم إيماني للعلوم فيربط بين الجسد والنفس، وبين الحياة الاجتماعية والعبادة، وبين العلوم ونواميس الكون. يقول: «شعر بهذه الحقيقة مؤسسو الأديان فدعوا إلى الاعتناء بأمور الجسد وأمور العقل معاً لسلامتها وترقيتها بالقواعد الآمرة بالطهارة والصلاة والصيام والتفكر في خلق السموات والأرض، إلى درس العلوم والنواميس التي تتمشى عليها المؤثرات الكونية. وهذه تؤدي حتماً إلى الوحدة».

هكذا فهم الصبّاح العلم والاسلام معاً. من هنا كانت غربته المزدوجة. أولاً غربته عن الأميركيين الذين عاملوه كحالة ثنائية انفصامية يستفيدون من علمه وعبقريته واختراعه ويدعونها ويمتهنون إنسانيته وشرقيته وإسلامه. أمّا غربته الثانية فهي غربته عن الذين خضعوا في سلوكهم لمعايير ما قبل الاسلام وقوانين العصبية والجاه والسلطان. ويخاطب واحداً من هؤلاء فيقول: «إذا كان إسلامك لا يعني اعتناءك بطهارة عقلك وجسدك... ويقتصر على إلقاء بذور التفرقة فأنت لست بمسلم... وإن كان من ظننت انهم ينتسبون للاسلام ظلماً يقيمون

□ كمال اتاتورك.

فلسفة العلم ووظيفته. إن تشديد الصبّاح الدائم على الجانب الانساني في وجه الذرائعية والبراغماتية الغربية يعبّر عن حالة إنسانية توحيدية للعلم ووظيفته تعود بجذرها إلى مفهوم الاسلام للعلم. «إن العقيدة ــ كما يقول روجيه غارودي ــ تدمج كل العلوم في مجموع عضوي غرضه كله عالم هو في كليته تجلي الله للناس وكشف عن آيات الله».

فليس هناك من ثنائية تتحول فيها الطبيعة إلى شيء خارج الانسان يُسعى للسيطرة عليه وإخضاعه واستعباده فيتحول العلم إلى وسيلة عنف وتدمير كما حصل في حضارة الغرب. وليس هناك ثنائية يتحول فيها الانسان إلى شيء للدرس كحشرة في مختبر فيشرح ويفكك إلى غرائز وبواطن ووعي ولا وعي كما هي وظيفة علم التحليل النفسي الفرويدي.

وليس هناك ثنائية تتحول فيها الجماعة إلى قبائل تتناحر خارج معايير الخير والشر فيتحول العلم إلى علم لتفكيك الجماعات وتجزئتها كما هو علم الانتروبولوجيا الاستعمارية أو الماركسية.

الصلاة ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ويعظمون كلمة الله في خلقه ـ ويقدسون مؤسسي الأديان العظام كعيسى ومحمد ومن حذا حذوهم من المفكرين والكتاب والعلماء فهم المسلمون الحقيقيون وأنت لست على شيء من الاسلام».

ذلك أن الصبّاح كان مسلماً في ثقافته الاجتماعية التي حملها من بيئته العربية الاسلامية الأصيلة، هذه البيئة التي لم يتخل عنها قيد أنملة، بل أصرَّ على الانتماء إليها جهادياً وعبر عملية تواصل دائم مع الجماعة والأمة. فعندما حاول المجتمع الغربي العنصري أن ينسب للصبّاح انتماءً أوروبياً لتفسير عبقريته العلمية على قاعدة منهج العنصريين، لم يكن من الصبّاح إلا أن أكثر على انتسابه العربي مستعيناً بخاله الشيخ أحمد رضا الذي طلب منه شجرة نسب تثبت انتسابه العربي، هذا الانتساب الذي كان مدعاة عز له كما كان الاسلام مرجعاً لآرائه وأفكاره الفلسفية والنظرية تجاه العلم.

فالصبّاح كان مؤمناً، والايمان عنده هو بعد حدسي بقدر ما هو بعد عقلي، يقول: «إن النواميس الطبيعية والقوى الكونية هي إرادة ذلك المقصد الواحد الكوني العظيم ـ الله ـ وقد اتجهت بكليتها إلى إنمائي وإنمائك أيها القارىء الكريم من خلية حقيرة لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً إلى حالتنا الحاضرة. بالرغم مما كنا نتمنى من الأمور التي لو حدثت لأدت إلى بوارنا وهي بذاتها مسؤولة عما يحدث لي ولك الآن من الأمور التي نتوهم أنها سيئة مرة اليمة... إلخ. تيقّن يا أخي القارىء أنها ادرى مني ومنك بما هو خير لي ولك. أوكل أمرك لله بما لا تستطيعه واعلم أن عقلك هو من بعض أوصياء الله عليك فاستخدمه بكل استطاعته لمعرفة مشيئة الله في خلقه ـ أي النواميس الطبيعية ـ والعلوم الكونية واستخدمها لمنفعتك ومنفعة أخيك الانسان».

هذا التواصل التوحيدي الذي يبرز في آراء الصبّاح وسلوكه حيال الكثرة والتعدد، حيال الانسان والعقل الموصل إلى الله، يؤكد على منهج في فكره العلمي يقطع كلياً مع منهج النفعية البرغماتية والتجريبية. وهنا بالذات يكمن تأثير

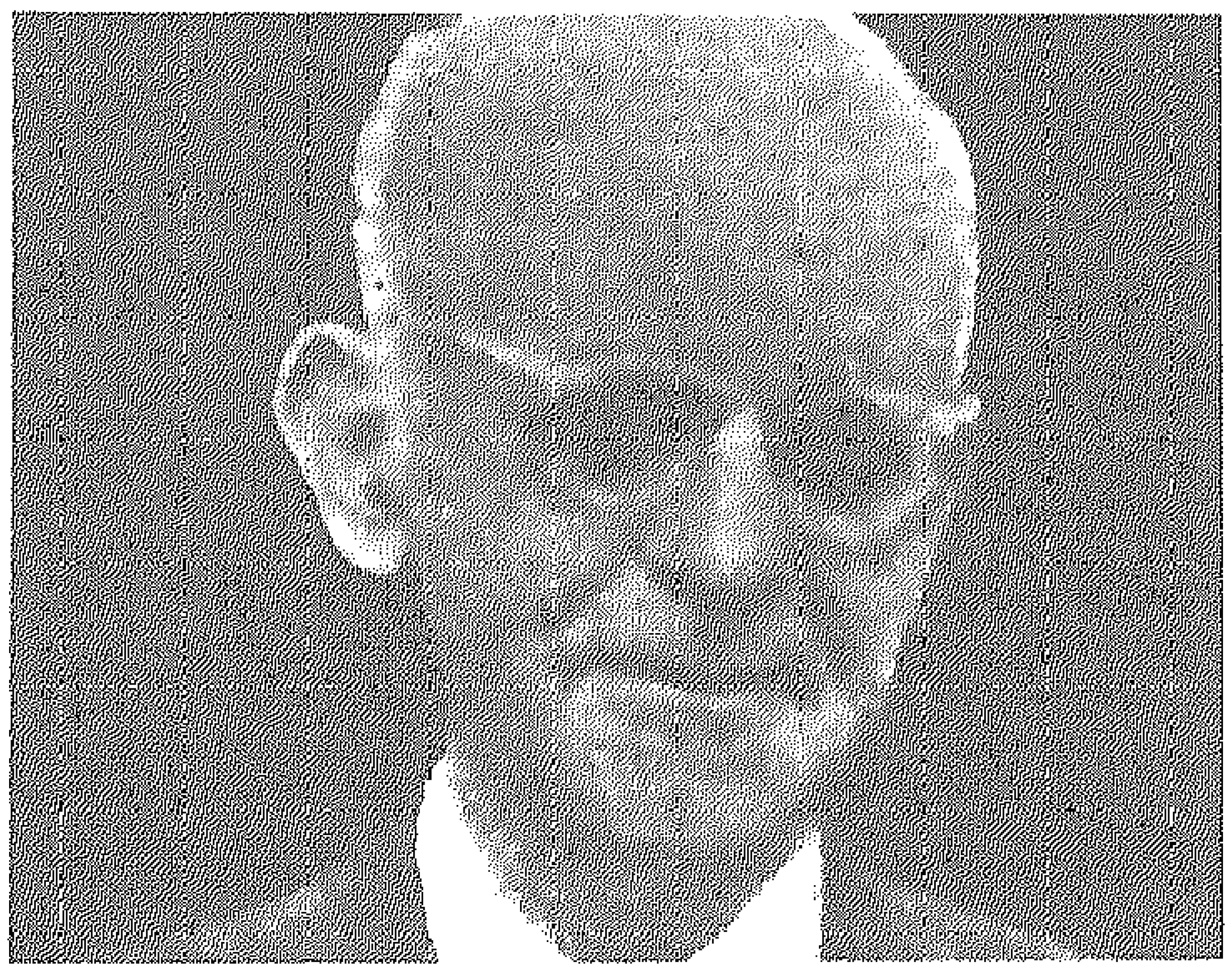

□ إيليا أبو ماضي.

الاسلام في المنهج العلمي عند حسن كامل الصبّاح. لنستمع إليه يصف العقل التجريبي الغربي: «إن نفسية الغربي متجهة إلى استخدام كل شيء حتى المعتقد والضمير في سبيل الغاية التي يتوخاها بصرف النظر عما إذا كان الذي يقنع به نفسه خطأ أو صواباً. وجرت لي مناقشات كثيرة مع القوم وبعضها علمي مع علماء ذوي مقام عال فوجدت أن واحدهم يحاول جهده بأن لا يرى برهاناً على مسألة كنت أناقشه فيها لكي لا يغير رأيه. وهكذا فعل حتى جرّبت الدورة الكهربائية فعلاً عملياً على صحتها وعندها فتح عينيه وأذنيه لكلامي فاستوعب برهاني النظري ووافقني فيه».

«وسمعت أحدهم يقذف بشخص آخر فسألته إذا كان يعتقد بصحة ما يقول، فقال: هذا لا يهمني ما دام كلامي يحدث التأثير المرغوب فيه وفي السامعين. فتعجبت لقوم يشتغلون بالعلم وتكون هذه نفسيتهم وأطوارهم لا تهمهم الحقيقة ولا تهمهم معرفتها ما زالوا هم في طمأنينة وسلام».

بذلك تتكامل المعرفة عند الصبّاح. لا تتجزأ إلى قطاعات، كأن تكون التجربة في حيز والبرهان العقلي في حيز آخر، ولا تنفصم بين وسيلة وهدف. كأن تكون الحقيقة في طريق والخير في طريق آخر، العلم في اتجاه والدين في اتجاه آخر، العلوم في وجهة والأخلاق في وجهة أخرى. لقد لاحظ الصبّاح في تجربته التي عاشها في الولايات المتحدة الأميركية هذا التجزيء للمعرفة والعلم. فالعالم في مختبره غيره في المجتمع، والعالم في جامعته

غيره في كنيسته، فلا علاقة بين العلم والدين ولا علاقة بين المعرفة والأخلاق، ولا علاقة بين الحقيقة والخير. لقد أدرك الصبّاح باكراً وبواسطة حدسه وثقافته الاسلامية أن الحضارة الغربية القائمة على هذا التجزيء سائرة إلى تدمير نفسها وتدمير الانسانية. يقول: «إن القوم هنا منحطون جداً في الأمور النفسية والعواطف السامية والشعور الرقيق. والسبب في ذلك اهتمامهم بالماديات... ترى الواحد منهم ينتظر أقل خطأ منك يسجله ولا يحاسب نفسه على أضعاف ذلك الخطأ».

ويتابع الصبّاح: «ومعنى النجاح عنده هو أن يكون له دخل ضخم يعد بمئات الألوف أو الملايين من الدولارات. ولا يهم رئيس الجامعة أن تنضج عقول التلاميذ المتخرجين بحيث يستطيعون أن يحيوا حياة سعيدة أم لا، ما زالت ملاعب الجامعة تملأ شهرتها الخافقين والطلاب يتواردون عليها من كل حدب وصوب فتملأ صندوقها. ولا يهم الصحف أن تجهر بحقيقة يعتقد محرروها أنها تؤدي إلى رقي الأمة العقلي إذا كان ذلك مما يقلل قيمة الوارد من صندوقها. والويل لمن ينتقد «أركان هذا البنيان» الحضاري. فلقد بنيت على هذه الأركان «دعائم الهيئة الاقتصادية ـ الاجتماعية» في البلاد. وهي قادرة على «قتل كل الميول والنزعات التي تؤدي إلى إحداث غايات متعددة عقلية وفنية ووجدانية. الغاية الواحدة هي تحصيل المال فكأن الروح اليهودية قد عمّت كل أطراف هذه البلاد».

وعلى قاعدة فهم الصبّاح لمسألة إنماء الانسان على كل المستويات العقلية والفنية والوجدانية والاقتصادية والاجتماعية يدعو الصبّاح إلى توظيف تكاملي للعلم والاختراع. ذاك كان موقفه عندما وضع مشروعه لكهربة الولايات المتحدة الأميركية انطلاقاً من استخدام الشلالات وطاقة المحروقات في نظام واحد فاصطدم بسياسة تروتستات الفحم الحجري والبترول. ولقد عاش الصبّاح هذه المحنة «كمشاغل فكرية» كما يقول، ولربما كان لهذا الأمر علاقة بالحادث الذي أدى إلى وفاته، والله أعلم. إذ يقول: «أما النظرية التي توقفت إلى إثبات صحتها بالتجربة والامتحان فإنها تؤدي إلى كهربة البلاد الأميركية بنظام واحد وبمقتضاه لا يبقى من حاجة لنقل الفحم والزيت المستعملين الآن لمطالب مختلفة لتوليد الكهرباء حيث يستخرجان من المناجم والآبار. وتصب القوة الكهربائية المولدة في النظام المذكور آنفاً وإلى هذا النظام عينه تضم القوى الكهربائية المستخرجة من الشلالات».

ويربط الصباح خير الهدف بفضيلة الوسيلة في مجال الاختراع والعلم فيقول: «إن الآلات والمخترعات الحديثة ـ باستثناء أدوات الحرب ـ خلقت لتخفيف ألم الانسان ومتاعبه ولزيادة راحته وهنائه».

هذه الآراء والمواقف التي يسجلها الصباح في كتاباته ويجسدها في سلوكه اليومي تتكامل في الاطار المنهجي والسياسي. فهو غير معقد من الغرب الذي يدعي احتكار العلم. لقد اقتحم الصباح هذه القلعة أو «الهيكل المرصود» حسب تعبير السيد جمال الدين الأفغاني، ووجد أن هذا العلم هو علم الانسانية جمعاء، وأن عقله يحمل استعداداً فطرياً ـ وإن جاء من بيئة يصفها الغربيون وأتباعهم بالتخلف ـ يحمل استعداداً فطرياً لاستيعاب مدهش للعلوم وقدرة فذة على الاختراع. وهذا التفوق الذي لم ينسلخ عن الانتماء إلى دوائر ثقافة صاحبه، بدءاً من أسرته إلى بلدته إلى جبل عامل وإلى أمة العرب والمسلمين، يحمل دلالة كبرى على التزام العالم والمتعلم بثقافته الأصيلة. فلقد حمل الصباح في هذا المجال هماً إلى جانب هموم مشاريعه العلمية الكثيرة، وهو هم التوجه بالكتابة إلى من يسميهم «بشبابنا المتعصرين الذين يتعلمون في المدارس العليا تعلماً سطحياً ويقدمونه إلى هذه البلاد ويؤلهون كل ما هو غربي...». والصباح عبر هذه الكلمات القليلة يضع يده على معادلة لا زالت تعبر حتى حينه عن وضعية «مثقفنا الحديث» حيال ما تعلمه واقتبسه في الغرب وحيال إسلامه وثقافة أمته. والمعادلة تتلخص في أن المتفوق في مدرسة الغرب وجامعته هو الرافض عادةً للاستلاب الثقافي الغربي والباحث دائماً عن تعميق انتمائه إلى أمته. وأما الفاشل في مدرسة الغرب أو المتعلم فيها تعلماً سطحياً فهو المؤله عادةً ـ كما يقول الصباح ـ لرموز بعض الايديولوجيات التي

توضع في مصاف الدين.

لقد أسقط الصبّاح هذه المزايدة التي لا زلنا نسمعها من بعض المتعصرين المتغربين السطحيين حتى يومنا هذا. بل كان نفسه يتصدى في بلاد الغرب نفسها لمثل هذه الظواهر المعادية للاسلام. فعندما كتب أحد الصحفيين الأميركيين مقالةً عن المسلمين في الجليل الأعلى وجبل عامل بأسلوب غير موضوعي، تصدّى له الصباح وفنّد أخطاءه بمقالة نقدية. وعندما لمس بأم عينه أجواء العنصرية تحاصره وتحاول أن تصادر منه علمه وانتماءه وتحارب دينه أكد عروبته ودافع عن إسلامه وحاضر في موضوع النبي محمد (صلعم) وفي الموقف النبوي من العلم والأخلاق والسياسة. وتسامى الصباح في علمه ودينه حتى جعل من «معرفة العلوم أعلى درجات العبادة». ألم يقارن الرسول الكريم مداد العلماء بدماء الشهداء؟ الصباح يقدم نفسه نموذجاً لوحدة العلم والدين ولوحدة الأخلاق والدين ولوحدة السياسة والدين. وهو في العمل السياسي يؤمن بدور القيادة والزعامة ولكن على أساس أن «سيد القوم هو خادمهم» كما يؤكد في مقالة له بعنوان «القيادة والزعامة». وهذه الخدمة لا تقوم في رأيه على التزلف والتملق والاستبداد بل على الحق والعدل والقيم الخيرة في الجماعة.

والخلاصة أن الصباح كان عالماً كبيراً ومخترعاً فذاً على المستوى العالمي والكوني. ولكن علمه الكوني لم يخرجه عن بيئته الثقافية التي نهل منها مواقف واستلهم منها آراءً ونظريات، فأعطى هذا الزاد الثقافي لعلمه أبعاداً إنسانية وإيمانية فاندمج العلم والايمان في شخصية واحدة غالباً ما كانت صورة «العالم الشهيد» في تاريخ جبل عامل. لقد امتزجت في هذا التاريخ دماء الشهداء ومداد العلماء فكانوا أما شهود حق أو شهداء قضية. ●

الهوامش

(١) هو أبو عبدالله محمد بن مكي «الجزيني». ولد في جزين سنة ٧٣٤هـ. في عهد السلطان المملوكي برقوق. قتل في دمشق وله من العمر اثنان وخمسين عاما. وسبب مقتله آراؤه الاسلامية التوحيدية ومحاولاته التقريب بين الاجتهادات الفقهية، الأمر الذي أوغر صدور «القضاة الرسميين» و «فقهاء السلطان» فسعوا للوشاية والايقاع به لدى الوالي.

(٢) هو زين الدين بن علي «الجبعي»، ولد في جباع عام ٩١١هـ. قتل في ظروف غامضة وهو في طريق عودته من الحج متوجها إلى استامبول بناء على طلب من السلطان. وقد قتله خادمه المكلف بإيصاله إلى استامبول. وقد سبق مقتله ظروف برز فيها زين بن علي فقيها مجتهدا ومستقلا في رايه وحائزا اهتمام الأوساط العلمية. الامر الذي ألب عليه أهل السوء من مدعي العلم المتحلقين حول الحكام.

أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ ــ ١٩٦٣)

● مفكر، وفيلسوف عربي، ورائد من رواد الحركة الوطنية المصرية. ولد ببرقين بالدقهلية. حصل على إجازة الحقوق ١٨٩٤. والتحق بخدمة القضاء. استقال من منصبه ١٩٠٥ واشتغل بالسياسة. شارك في تأسيس حزب الأمة وتولى رياسة تحرير الجريدة (١٩٠٦ ــ ١٩١٤). عاد إلى خدمة القضاء. عين مديراً لدار الكتب المصرية (١٩١٥ ــ ١٩١٨) فمديراً للجامعة المصرية ١٩٢٥، فوزيراً للمعارف ١٩٢٨. عاد إلى إدارة الجامعة ١٩٣٠ ثم استقال ١٩٣٢. عاد مرة ثالثة مديراً للجامعة ١٩٣٨ عين عضواً بمجمع اللغة العربية ١٩٤٠ فرئيساً له (١٩٤٥ ــ ١٩٦٣). عين وزيراً للخارجية ١٩٤٦ فنائباً لرئيس الوزراء، وعضواً بمجلس الشيوخ. أسهم في عدة مجامع وجمعيات علمية. ترجم لأرسطو، وجمعت خطبه ومقالاته وأحاديثه. نال جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية سنة ١٩٥٨.

مجلة المقتطف
رائدة العلم الحديث في العالم العربي

د. عبدالله العمر

من الملفت للنظر حقا ما تميز به القرن التاسع عشر من إيجابية عظيمة أظهرها رجال الفكر العرب والمسلمين ازاء علوم الغرب وأفكاره. فكثير من الصحف والمجلات والدوريات والكتب والموسوعات العلمية والترجمات التي تمت في القرن الماضي تظهر على نحو واضح انفتاحية المفكرين على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم الدينية على العلوم الغربية والتيارات الفكرية المتعددة. ولشد ما يعجب المرء من الجرأة التي نوقشت بها موضوعات هامة تتعلق بالعلم والدين وعلاقة كل منهما بالآخر فضلا عن الجهود الجبارة التي اضطلعت بها جماعات كثيرة من الكتاب والباحثين في كتاباتها حول الوسائل الناجعة التي يحسن استخدامها لأجل النهوض بالعالمين العربي والاسلامي على حد سواء. نعم كان هناك تعارض في الرأي بين أصحاب التيارات الفكرية المختلفة وهذا أمر طبيعي يعد مكسبا للجميع. لا بل دارت آنذاك مشاحنات مريرة بين المفكرين ولكنها كانت موقتة ولم تصل في غالب الأمر إلى مرحلة التصفيات الجسدية. وكم نتألم اليوم إذ نشهد في عالمنا العربي أربع ظواهر مؤسفة إلى حد كبير قياسا على ما كان عليه واقع الفكر في القرن الذي فات. فها نحن اليوم نواجه انحسارا عاما للتيارات الفكرية عموما من جهة أو محاولات متعنتة لتغليب وجهة نظر واحدة ترتبط غالبا براي صاحب السلطان أو الزعيم أو الحزب الحاكم من جهة ثانية أو اتهامات بالعمالة أو الخيانة أو الالحاد تطلق جزافا من جهة ثالثة أو إجراءات بوليسية متعسفة تصل إلى حد التصفيات الجسدية من جهة رابعة.

(*) القيت هذه المحاضرة في الندوة التي نظمتها مجلة «العربي» في ذكرى مرور ٢٥ عاماً على تاسيسها عام ١٩٨٤

جرجس همام

المقتطف

جريدة

علمية وصناعية

تصدر في اول كل شهر

لمنشئيها

يعقوب صروف ب.ع. معلم الفلسفة الطبيعية والرياضيات في المدرسة الكلية السورية

فارس نمر ب.ع. معين في المرصد ومعلم علم الهيئة واللاتيني في المدرسة الكلية السورية

السنة الاولى (١٨٧٦-١٨٧٧)

قيمة الاشتراك عن سنة سبعة فرنكات في بيروت ولبنان وثمانية في الخارج تدفع سلفاً

□ يعقوب صروف.

□ فارس نمر.

□ «المقتطف» في عددها الأول.

وإذ نشيد هنا بكثير من الغبطة والاعتزاز بانفتاحية رجال الفكر العرب في القرن التاسع عشر وإيجابيتهم تجاه العالم الغربي بهدف الاصلاح إلا أن ذلك لا يعني بلوغ مرتبة الفكر آنذاك حد الكمال رغم أنها كانت أكثر غنى وأفضل نتاجاً من حصاد فكرنا المعاصر. ومهما يكن الأمر فإن هناك جوانب هامة يجب أخذها بعين الاعتبار عند المقارنة بين ما كان عليه الحال بالأمس وما هو عليه اليوم.

أول هذه الجوانب يتعلق بنسبة الضرر الناجم عن وجود العوامل السلبية في فكرنا العربي. فالذي أعتقده هو أنه حتى لو كان فكرنا العربي في القرن التاسع عشر يعكس بعض الجوانب السلبية التي تبرز في تيارات فكرنا المعاصر فإن نسبتها وضررها بالأمس يقلان عن نسبتها وضررها في يومنا هذا. صحيح أن قضيتي الاصلاح الداخلي والتصدي للأطماع الأجنبية بكافة صورها كانتا تشغلان بال كثير من المفكرين والمصلحين في عالمنا العربي إبان القرن التاسع عشر بمثل ما تشغل اليوم بال قليل منا. ولكن الطفرة الهائلة التي حققتها المجتمعات الغربية في ميادين العلم منذ بداية القرن العشرين وحتى اليوم تحتم على مفكرينا المعاصرين الاضطلاع بمسؤوليات لا تقل عن تلك التي اضطلع بها أسلافهم بالأمس. وصحيح أن أطماع الدول الغربية في عالمنا العربي كانت ظاهرة — هنا حيناً وهناك حيناً آخر — منذ أواخر القرن الثامن عشر ولكن أطماع الدول الغربية والغريبة علينا في أرضنا لم تتجسد على نحو واضح وبالقهر والقوة أكثر من تجسدها اليوم. فإذا كان أسلوب الغرب في محاولته السيطرة علينا وتحقيق أطماعه في أرضنا قد ازداد كماً وكيفاً على مر الزمان فإن ذلك يستتبع بالضرورة تنوعاً كمياً وكيفياً في محاولاتنا اليوم التصدي لوسائله وأطماعه فينا.

الجانب الثاني الذي يؤخذ بالاعتبار عند المقارنة بين حالنا التي كانت بالأمس وحالنا التي نعيشها اليوم يتعلق بمراحل التغير والتطور التي تطرأ على مسيرة المجتمع وحياة الأفراد فيه. فيجب أن نفهم أولاً أن مسيرة المجتمع عبر الزمن لا تمثل نمطاً ثابتاً بل تغيراً وديناميه وتحولاً دائماً في خصائصه ومقوماته وكافة جوانب الحياة فيه. ومن الطبيعي أن نفترض أنه إذا ما أراد مجتمع من المجتمعات أن يحتل لنفسه مرتبة رفيعة بين الأمم والشعوب فإن جهود الأجيال اللاحقة من أبنائه تزداد في عطائها وتتعدد منجزاتها وتكثر تضحياتها على نحو يفوق نظيراتها عند الأجيال التي سلفت. غير أن الأمر الغريب الذي يحز في النفس فعلاً هو أن عطاء آبائنا وأجدادنا في القرن التاسع عشر يفوق بكثير عطاء جيلنا الحاضر وتضحياته. أو قل بأن مسيرة الحياة في مجتمعنا العربي — على افتراض أننا ننشد نهضة ورفعة لشعوبنا — تسير في طريق معاكس لما يجب أن تكون عليه الأمور ويدعو إليه المنطق السليم.

ولم تقتصر مسيرتنا في الطريق المعاكس لطبيعة الأمور والمنطق السليم في حاضرنا على نتاجنا الفكري بل تعدى ذلك إلى أمور تتعلق بالوحدة الوطنية والكفاح المسلح. فلقد تجسدت الوحدة الوطنية في مصر مثلاً في وقوف الأقباط والمسلمين صفاً واحداً في كفاحهم ضد الانجليز تماماً مثلما تضافرت جهود المفكرين المسيحيين والمسلمين اللبنانيين في محاولاتهم الاصلاحية منذ القرن التاسع عشر وحتى عهد قريب. نعم ربما استطاع الاستعمار الانجليزي أن يثير بعض الفتنة بين أبناء الديانتين في مصر مثلاً وذلك من أجل أحكام سيطرته عليها ولكن الفرقة بين أبناء الوطن الواحد والمصير المشترك كانت حدثاً عارضاً وقضية موقتة لا أكثر بدليل أن رجال الاصلاح والثورة المسلمين والمسيحيين كانوا يتبادلون الخطب في المساجد والكنائس داعين إلى الوحدة الوطنية ومناهضة الاستعمار الانجليزي.

فإذا كان العربي ينظر اليوم بعين الاكبار إلى جهود المفكرين والمصلحين والثوريين المصريين من أبناء القرنين التاسع عشر والعشرين، وإذا كنا اليوم نحاول أن نترسم خطاهم في وحدتهم الوطنية وكفاحهم الذي جمع شملهم على اختلاف دياناتهم، أقول أننا إذا كنا ننظر بعين الاكبار إلى كل ذلك نرانا في الوقت نفسه نتحسر على الحروب الأهلية والصراعات الطائفية التي كانت وما تزال تنخر أوصال المجتمع في لبنان. ولعلنا في استعراضنا لواقع الحرب الأهلية التي تدور

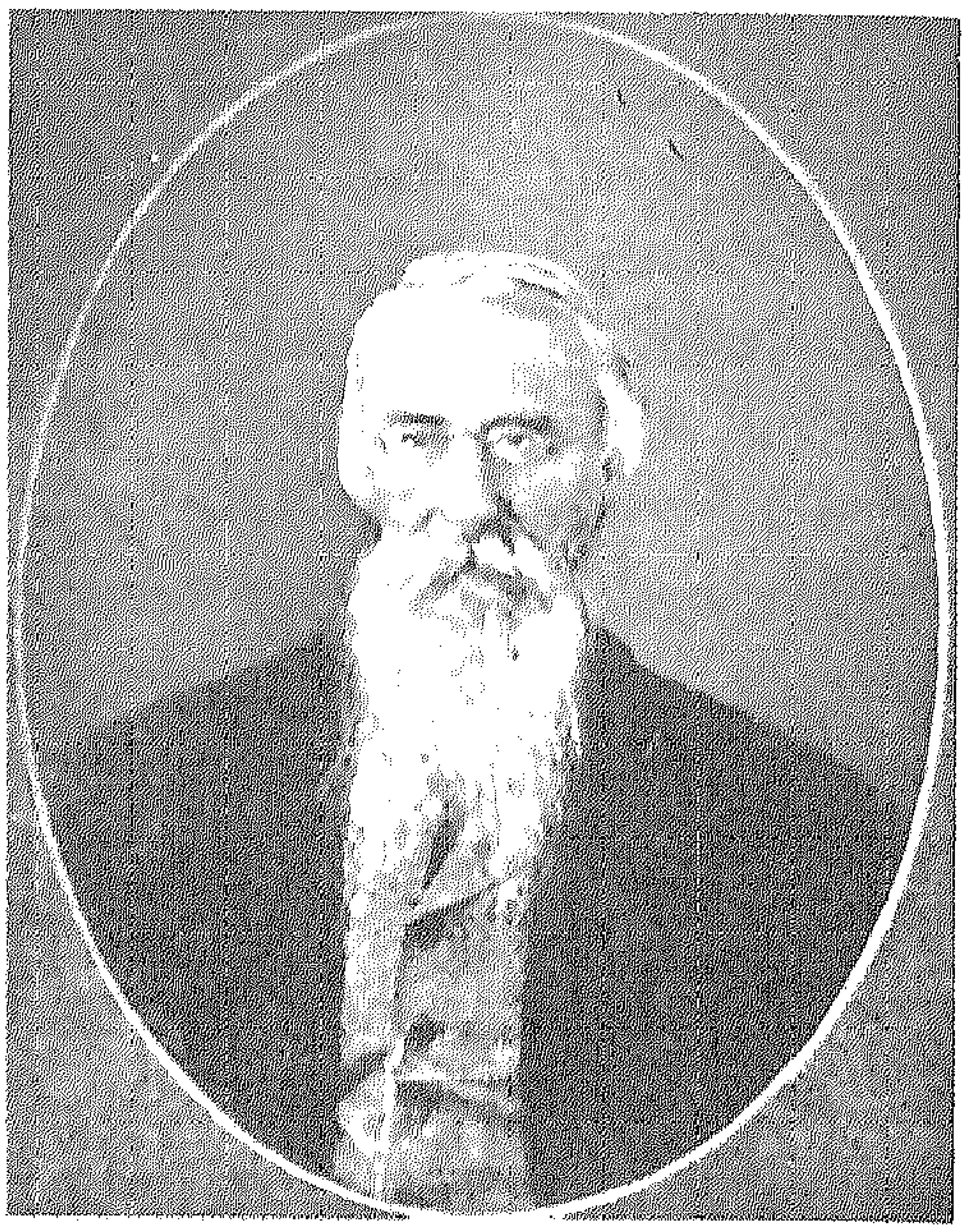

□ كورنيليوس فان ديك.

اليوم في لبنان نتبين أن محاولة ترجيح كفة طائفة على أخرى بقوة الحديد والنار أمر يتنافى مع القيم الانسانية الرفيعة على أقل تقدير. انه لما يثير العجب فعلاً ويحز في النفس كثيراً في آن واحد أن يشهد المرء ابان القرن الماضي جهوداً جبّارة بذلها رجال الفكر والاصلاح من مسلمين ومسيحيين في سوريا الكبرى بينما نشهد اليوم صراعاً دامياً بين الطوائف في لبنان بهدف الانتصار لدين أو طائفة أو ما إلى ذلك من أشكال التعصب. فأين الوحدة التي جمعت بين أبناء الوطن الواحد بالأمس من الفرقة والتعصب والقتال الذي يدور بينهم اليوم؟ وماذا عسى أن نقول غير ذلك في مساوىء التعصب وعيوب السلطة الفكرية أو السياسية حيال كافة أشكال الصراعات والحروب الرهيبة التي تجري في عالمنا العربي والاسلامي، أليس من العجيب والمحير بالفعل أن يتكاتف أبناء الوطن الواحد بالأمس في كفاحهم ضد الاستعمار والسيطرة الأجنبية بينما يتقاتل هذا اليوم أبناء الوطن الواحد فييسرون للعدو مهمته ويحققون له أطماعه في أرضنا وثرواتنا؟ إن طريق النهضة من جديد شاق وطويل ومن المؤكد أن الجهود والتضحيات التي يتحتم بذلها في هذا السبيل عظيمة جداً ولكنه من المؤكد أيضاً أننا في صراعاتنا الجانبية المريرة وفي خضوعنا لكافة أشكال السلطة لن نتقدم نحو هدفنا في النهضة قيد خطوة هذا على افتراض أن مستقبلنا لن يكون أسوأ من حاضرنا التعيس.

وإذ أنا أسعى ها هنا إلى استعراض صفحة مشرقة من صفحات تاريخنا الفكري العظيم في القرن التاسع عشر فإن الأمل يحدوني بطبيعة الحال أن نتحلى نحن أبناء هذا الجيل بانفتاحية آبائنا بالأمس وأن نبذل تضحيات تفوق تضحياتهم وأن نجسد تضافراً في الجهود يحقق لنا أهدافنا وأمانينا في النهضة والازدهار[1].

رجلان وقضية

لعل مجلة المقتطف (١٨٧٦ ــ ١٩٥٢)(*) خير شاهد على زخم الثقافة وتعدد جوانب الفكر العربي وانفتاحيته على علوم الغرب وثقافته الحديثة في القرن التاسع عشر. ولعلنا كذلك واجدون في مؤسسيها المسيحيين يعقوب صروف (١٨٥٢ ــ ١٩٢٧) وفارس نمر (١٨٥٦ ــ ١٩٥١)خير دليل على جهود الاصلاح الكبيرة التي اضطلع بها رجال الفكر المخلصين من أبناء ذلك العصر.

كان يعقوب صروف وفارس نمر من الرجال الذين أدركوا مكانة العلم الحديث وأثره في نهضة الشعوب وعلو شأنها. ولم يكن إدراكهما سيطرة العلم ودوره الهام في توجيه أو إعادة تشكيل حياة المجتمعات صادراً عن معرفة سطحية بأثره ورفعة شأنه بل جاء ذلك نتيجة دراسة متخصصة في ميادينه وإدراك أكيد بأن كفته ــ إزاء ميادين الدراسة الأخرى ــ هي الراجحة في كل حال. وإذ بدا واضحاً لهما ما كان يرزح الشرق فيه من تخلف وضعف وكذلك ثبت لديهما على نحو لا يقبل الشك أثر العلم الهام في العصر الذي كانوا يعيشون فيه فإنه من الطبيعي أن يلح عليهما ــ كما الح على بعض معاصريهما أو السابقين عليهما ــ سؤال

(*) تأسست في بيروت سنة ١٨٧٦ ثم انتقلت إلى القاهرة في سنة ١٨٨٥.

هام وهو: كيف يمكن النهوض بحال الشرق وما السبيل إلى جعل أهله يحيون خصائص العصر الذي يعيشون فيه؟ حول هذا السؤال تباينت آراء السياسيين كمحمد علي حاكم مصر في النصف الأول من القرن ١٩ وتعددت وجهات نظر المفكرين أمثال الرافعي والطهطاوي، والأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وجماعة كبيرة من العرب المسيحيين في سوريا ومصر. أما صروف ونمر فقد ارتأيا إصدار مجلة تهتم بعلوم الغرب بهدف نشر المعرفة العلمية بين أبناء الشرق وتيسيرها لهم[٢]. إذ لما كان العلم سمة العصر البارزة في الزمن الذي كانا يعيشانه وظهر لهما أن تقدم الغرب وسيطرته ترجعان إلى ازدهار العلم وطغيانه على حياتهم فإنهما رأيا أنه لن تتحقق للشرق نهضة وقوة على نحو مماثل إلا بالعلم ـــ أي من خلال الوسيلة نفسها التي شاعت في الغرب وأحسن الغربيون استغلالها.

بعد أن نال فارس نمر ويعقوب صروف شهادتي البكالوريوس في العلوم من الكلية السورية الانجيلية سنة ١٨٧٤ عملا في سلك التدريس في الكلية ذاتها. وكانا إلى جانب عملهما في تدريس العلوم مهتمين بمطالعة الأبحاث العلمية الغربية. تراهما في جلساتهما أو ندواتهما او أثناء اجتماعهما بالزملاء والأصحاب يتلهفان على سماع أخبار التقدم العلمي في الغرب ويستعرضان معاً كل جديد وطريف في ميداني العلم والتكنولوجيا. وعلى قدر استمتاعهما بكل ما كانت تحمله إليهما الدوريات الغربية المتخصصة والصحف والمجلات من أخبار العلم والتطور العلمي كانت حسرتهما لعدم وجود مجلة عربية واحدة في العالم العربي تهتم بتبسيط العلوم وتحبيبها إلى الناس على اختلاف معارفهم وثقافاتهم وتخصصاتهم. وإذ بلغ بهما شغفهما بالعلوم مبلغاً كبيراً واستعرت حدة غيرتهما على أبناء العربية ونهضتهم حتى عقدا العزم على إنشاء مجلة شهرية تعمل على نقل الجديد والطريف من أخبار العلم والعلماء إلى أبناء اللغة العربية. سارعا بعد أن استقر رأيهما على إنشاء المجلة إلى زف الخبر إلى الدكتور كورنيليوس فان دايك عضو الإرسالية المسيحية في بيروت[٣] ليأنسا برأيه في الموضوع ولكي

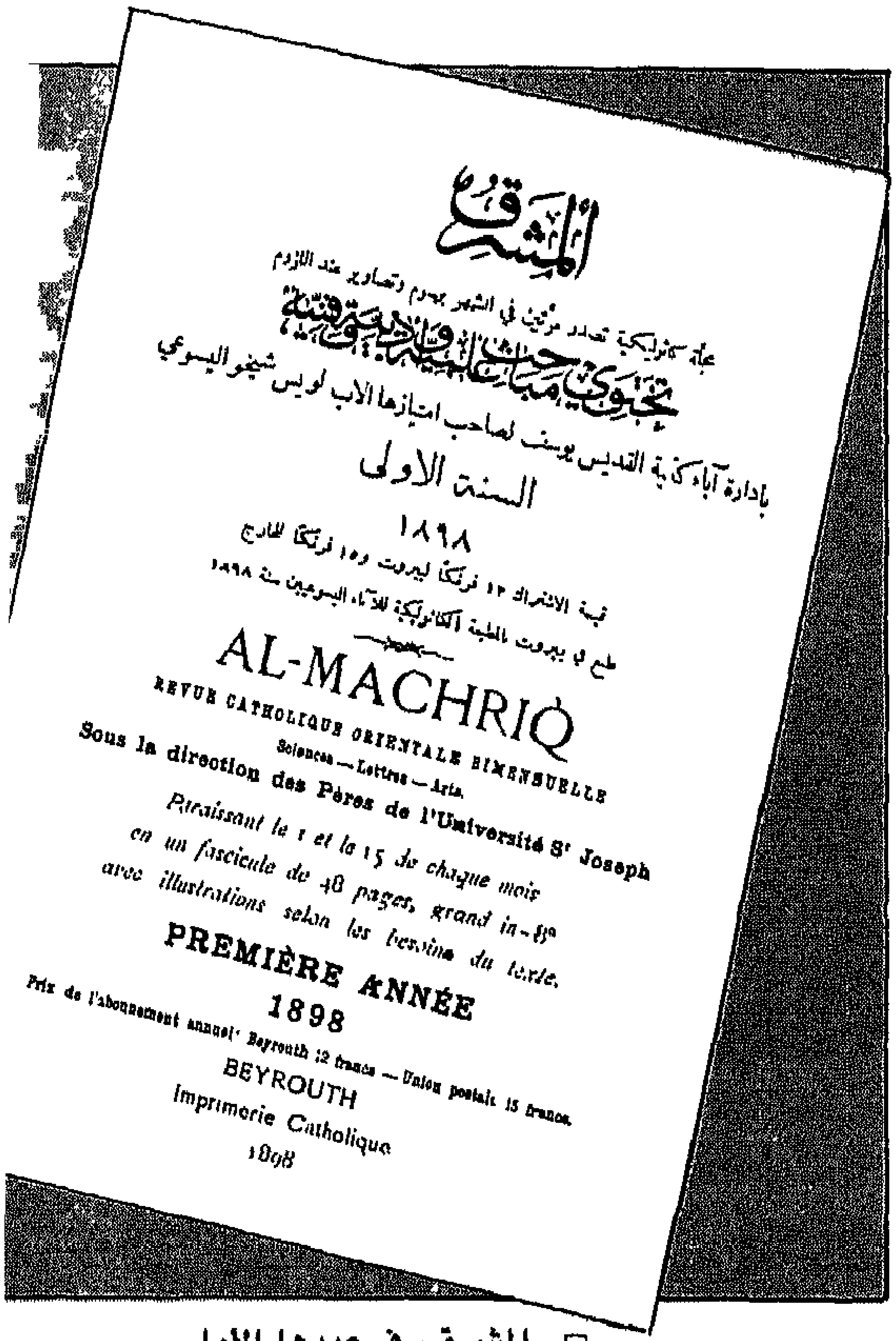

□ «المشرق» في عددها الأول.

يستزيدا من حكمته ومعرفته وطول خبرته في ميدان الكتابة والتأليف. وما أن علم فان دايك بما أزمع الشابان على فعله من أمر عظيم وخدمة جليلة حتى راح يشد من أزرهما ويشجعهما على ما هما مقدمان عليه واختار لهما اسم «المقتطف» عنواناً للمجلة.

صدر بعد ذلك ترخيص السلطات الرسمية بإصدار مجلة المقتطف وظهر أول عدد لها في أول مايو ١٨٧٦ وكان واضحاً في ذهن صاحبيها منذ البداية الأهداف التي سعيا إليها كما عبر عن ذلك بوضوح بيانهما الذي وزعاه في الديار السورية حيث جاء فيه:

«لا يخفى أن الجرائد العلمية والصناعية من أفضل الوسائل لنشر العلم والصناعة وتسهيل تناولهما للخاصة والعامة. ولما كانت خدمة الوطن فرضاً واجباً وكنا بحيث يسهل علينا الاعتضاد بأهل العلم والفضل والوقوف على كتب كثيرة

البشير

«البشير» في عددها الأول.

متعددة اللغات يعتمد عليها في العلم والصناعة واستحضارات متنوعة من فلسفية وكيماوية وفلكية ومتيورولوجية وجيولوجية وفيزيولوجية وغيرها وبناء على طلب كثيرين ممن يعرفون وسائطنا ويهمهم تقدم الوطن عزمنا بعد الاتكال عليه تعالى وبهمة أولياء الأمور العظام على نشر جريدة علمية وصناعية سميناها المقتطف تصدر مرة في الشهر وهي لا تتعرض لشيء من المسائل الدينية ولا السياسية على الاطلاق بل تقتصر على المباحث العلمية كالطبيعيات والعقليات وما أشبه. والصناعية كالحراثة والصباغة والتصوير وما أشبه. والتاريخية كتاريخ العلماء والصّناع والاكتشافات والاختراعات. وأنّا سنبذل جهدنا في جعلها بسيطة العبارة سهلة المأخذ عميمة الفائدة أحكامها موضحة بالأشكال والصور على ما هو جار في الجرائد الافرنجية بحيث يستفيد منها أهل العلم والصناعة وترتاح الخواطر إلى مطالعة ما فيها من أخبار العلم وأهله. وسنعتمد فيها على اقتطاف ما ناسب أحوال بلادنا من أفضل الكتب والجرائد إن شاء الله»(٤).

أسلوب المجلة

أخلص صاحبا المقتطف لمجلتهما أيما إخلاص وتفانيا من أجل إرساء دعائمها وتفننا في نشر كل جديد وطريف ومفيد في ميادين العلم على صفحاتها، ولكن يجب أن لا يغرب عن بالنا أنهما لما كانا يعيشان في مجتمع تتضارب فيه الأفكار والميول والمذاهب فإن الاطار الذي أعلنا أنهما سيصبان جهودهما فيه وهو ميدان العلوم صار يتسع شيئاً فشيئاً حتى راح يشمل الفنون والآداب والديانات والعلوم الاجتماعية وغيرها. نراهما مثلاً بعد إصدارهما البيان السابق ذكره والذي نشراه قبل ظهور المجلة يخففان من التزامهما الشديد بميادين العلم فيذكران في تصديرهما للعدد الأول منها انه لما كانت موضوعاتها «لا تتعرض للمباحث الدينية ولا السياسية إلا من باب العلم فكل ما يرد إلينا خارجاً عن هذا الباب غير مقبول»(٥).

ومن المؤكد أن صروف ونمر كانا مغاليين في تصوراتهما المبدئية ومثاليتهما عندما ظنا أنهما يستطيعان الاقتصار في إصدارهما للمجلة على نشر كل جديد وطريف ومفيد في ميدان العلم. نعم كان الطابع العام ومعظم ما حوته صفحات المقتطف تدور حول العلم الحديث وأخباره واكتشافاته ولكن ذلك لم يحل دون تطرقها إلى موضوعات أخرى في ميادين الفكر المختلفة. ذلك أنه لما كان الارتباط وثيقاً بين كشوفات العلم وبين ما يزخر به المجتمع من تيارات فكرية متباينة صار لزاماً على الناس أن تتفاوت ردود فعلهم واستجاباتهم لنظريات العلم وابتكاراته التي تمس جوانب الدين والعاطفة والوجدان.

كان العلم الحديث غريباً بنظرياته وابتكاراته وغريباً على البيئة الثقافية والاجتماعية التي سعى صروف ونمر إلى نشره فيها. فإذا كانت للعلم الحديث نفسه والانجازات الكبيرة ردة فعل عظيمة وانقلابات فكرية هامة في المجتمع الغربي وفي البيئة الثقافية التي تفجر فيها فكيف به إذن وهو يسعى إلى التغلغل في أرض وبين جماعة

مغايرة في أمور كثيرة للغرب والغربيين.

من الطبيعي إذن أن تكون هناك ردود فعل مختلفة في المشرق العربي لها خصوصياتها وتفوق في عنفها وتبايناتها نظيراتها التي شهدتها المجتمعات الغربية آنذاك.

وليس أدل على ذلك من استقصائنا لتاريخ المقتطف وطبيعة المباحث التي ظهرت على صفحاته. فلم تقتصر ردود الفعل التي ظهرت على صفحاته على شكل حوار دار بين صروف ونمر من جهة والدكتور شبلي شميل من جهة أخرى حول نظرية التطور مثلاً بل تعدى الأمر ذلك إلى مشاحنات حادة بين مجلة المقتطف من ناحية وبين نشرة «البشير» جريدة الارسالية السورية أو«المشرق»مجلة الآباء اليسوعيين في بيروت. وهكذا نرى انه بمثل ما كان العزم قائماً عند صروف ونمر على نشر العلوم الغربية كان هناك تيار مناهض ليس بالضرورة لنشر العلوم وتبنيها وإنما للجرأة التي تميزت بها كتابات صروف ونمر حول نظريات علمية أو تيارات فكرية غربية تختلف — كثيراً أو قليلاً — عن أفكار أبناء الشرق العربي وعاداتهم ومذاهبهم الدينية أو تعارضها.

ذكرنا أن المقتطف لم تقتصر في النشر على الموضوعات العلمية — وإن كان لها النصيب الأكبر في الظهور على صفحاتها — والمحنا كذلك إلى ردة الفعل التي أحدثتها موادها المختلفة وجرأة صروف ونمر في إخلاصهما لمنهج واضح ومحدد كانا يظنان أنه السبيل الأصلح للنهضة الشاملة في العالم العربي. أما المنهج الذي سارا عليه في المقتطف فإنه يتكون من دعامتين:

(أ) هدم للخرافة والسحر والشعوذة من ناحية.

(ب) بناء لصرح العلم الحديث والثقافة العصرية وتمكينها في نفوس الأفراد من ناحية ثانية. أما الآن فسبيلنا إلى بحث هاتين الدعامتين اللتين ارتكز عليهما منهج المقتطف.

(أ) التنديد بالسحر وأشكاله المختلفة:

إذا التفتنا أولاً إلى إسهام المقتطف في محاربة البدع والسحر والشعوذة وجدناها منذ البداية وفي السنة الأولى من ظهورها تعلن عن موقفها صراحة تجاه السحر واستظهار الطالع، فهي تنكر أن يكون لكل ما يشاع عن السحر سند علمي أو أن يكون هناك منهج تجريبي يمكن بواسطته التحقق من صدق موضوعاته أو بطلانها. وهكذا وجدنا المقتطف مثلاً في تعليقها على مقال للدكتور بورتر — أستاذ العلوم العقلية في الكلية السورية — حول قراءة الأفكار ان الذين يدّعون قراءة الأفكار واستظهار الطالع هم مشعوذون وما كان اكتسابهم للشهرة إلا عن طريق المكر والحيلة[٦]. ولعل سائلاً يسأل هنا: لما كانت المقتطف قد قطعت على نفسها محاربة السحر والشعوذة فلماذا سمحت وتساهلت في نشر مقالات كانت ترد إليها حول قراءة الأفكار مثلاً. أما الجواب فهو انها كانت تفعل ذلك لغرضين هامين على ما يبدو إذ أن نشر مقالات حول السحر يؤكد مبدأ هاماً حاول أصحاب المقتطف جهدهم الاخلاص له وهو مبدأ حرية الفكر من جهة فضلاً عن أن ذلك يتيح لهما الرد المناسب على المؤمنين بالسحر والمعتقدين بإمكان قراءة الطالع من جهة ثانية[٧].

كان هذا هو ما اعتمدته المقتطف في خطتها لمحاربة السحر ولكن يجب أن لا يفوتنا هنا بأنها كانت إلى جانب ذلك تنشر مقالات ورسائل لجماعة كانت هي نفسها تندد في كتاباتها بالسحر والشعوذة، ثم انه كثيراً ما اكتفت المقتطف في ردها على المؤيدين للسحر وأصحاب البدع بذكر المصدر الذي أورد خبراً أو نشر مقالة يشيد فيها صاحبها بالسحر أو يستفسر فيها حول معرفة الغيب[٨].

زد على ذلك أن صروف ونمر كانا هما أنفسهما يكتبان موضوعات تندد بالسحر بين حين وآخر أو تفسر على نحو علمي بعض الظواهر التي كان الناس يظنونها سحراً[٩]. تحت عنوان السحر مثلاً وردت إلى المقتطف رسالة بتوقيع صالح يحيى القطب يبدي فيها دهشته وعجبه من بعض أعمال السحر التي حدثت أمامه على يد ساحر يهودي اشتهر في دمشق[١٠]. واستجابة لرسالة «السحر» كان رد صروف ونمر جاهزاً إذ انه لا يمكن التحقق بالوسائل العلمية الموثوقة من صحة ما ظنه صاحب الرسالة أعمالاً سحرية خارقة. فالتفسير العلمي لظواهر السحر جميعاً ممتنع والاعتقاد بصحة بعض الخوارق

□ محمد علي.

لا يخرج عن دائرة المصادفة المحضة.

«والخلاصة أنا وإن نكن في حالنا الحاضرة غير قادرين على تفسير ما ذكر في الرسالة وكشف سره فانا لنعتقد انه إذا كان صحيحاً فصحته أما اتفاقية أو أن المدعي بالسحر علم شيئاً عنه بطريقة من الطرق كدقة الملاحظة أو السمع أو نحو ذلك»(١١).

ولكن الاعتقاد بالسحر لم ينحصر دوماً في شريحة معينة من عامة الناس أو الجهلة بل كثيراً ما حاول أفراد من ذوي الثقافة الرفيعة والاسهامات الفكرية الجيدة تبني بعض الظواهر التي تستعصي على منهج البحث العلمي ــ بشكل أو بآخر ــ كظاهرة السحر أو قراءة الطالع. فها هوذا الأديب حنين أفندي الخوري يبعث برسالة إلى صاحبي المقتطف يعتب عليهما فيها انكارهما ــ في معرض تفنيدهما للسحر ــ ما كان يعرف آنذاك «بالمغنطيسية الحيوانية». أما خلاصة رأي هذا الأديب فهي ان التنويم المغناطيسي ــ وهو ما كان يسمى في أواخر القرن الثامن عشر «بالمغنطيسية الحيوانية» ــ هو فن قائم على أسس علمية ولا علاقة له بالسحر، الأمر الذي لا يبرر هجوم المقتطف عليه أو اعتباره امتداداً لأعمال السحر الزائفة أو ضرباً من ضروب الوهم.

وإزاء الاعتراضات التي أجملها حنين الخوري في رسالته للمقتطف عمد صروف ونمر إلى إيضاح موقفهما من المغنطيسية الحيوانية وكشف ما خفي على صاحب الرسالة في انتقاداته.

هذا وقد حاول حنين الخوري في رسالة أخرى بعث بها إلى المقتطف أن يتراجع عن موقف التأييد الكبير الذي اتخذه حيال ظاهرة المغنطيسية الحيوانية ولكن رد المقتطف من جديد أظهر أن رسالة حنين الثانية لم تكن تزيده إلا تورطاً أكثر فأكثر(١٢).

هكذا نرى أن صروف ونمر ما تركا مناسبة على صفحات المقتطف إلا واستغلاها بهدف التنديد بالخرافة أو دحض مزاعم السحرة أو تنفيذ الايمان بقراءة الطالع أو غير ذلك من أشكال الوهم.

على أن الجراة التي اتصف بها صروف ونمر لا تكمن في تصديهما لبعض العادات والتقاليد أو الأفكار البسيطة التي تتعارض مع طابع العلم وتفسيراته فحسب بل تعدى الأمر كل ذلك حين راحا يشككان في بعض الروايات التي وردت في الكتاب المقدس وهنا موطن الأشكال. فلقد يقبل بعض الناس تغيير بعض أنماط السلوك أو استبدال فكرة بأخرى أو طرح عادة ذميمة لا تناسب روح العصر ولكن كل ذلك شيء، والاعتقاد بقدسية القصص التي وردت في الكتاب المقدس شيء آخر. لا بل قد يبقى الناس على عاداتهم وتقاليدهم وتصورات القدامى الخاطئة التي انحدرت إليهم وذلك من غير اكتراث أو استثارة يسببها نقد الناقدين للقديم أو جهد المطالبين بالجديد ولكن عندما يتعلق الموضوع بالدين ويكون النقد والتشكيك موجهاً إلى رواية دينية يقدسها الناس فإن ذلك كفيل باستثارتهم والتعبير عن سخطهم واستنكارهم في صور شتى.

فالتفاتة إلى الجزء الثامن من السنة الثانية للمقتطف نجد فيها كعادتها نبذة عن رأي بعض العلماء الفيزيائيين والجيولوجيين في «مستقبل

الأرض ومصير الانسان»[١٣] ومهدت لحديثها ذاك بمقدمة حثت فيها على طلب العلم ونبذ الأوهام والخرافات. والناظر في مقدمة الحديث يجد أن صروف ونمر قد احتاطا ـ كعادتهما أيضاً ـ لردود الفعل التي يمكن أن تترتب على طرحهما آراء تعارض ما جاء في الكتاب المقدس من تعاليم حول تاريخ الأرض ومصيرها. نراهما مثلاً يقولان في مقدمتهما «استوعب العلم» على انه أياً كان الاختلاف في وجهات النظر التي طرحت حول الأرض فأن ذلك لا يعني بالضرورة أن تكون هناك خصومة بين أصحاب الآراء المتباينة إذ لكل الحق في إبداء رأيه ودعمه بالحجج والشواهد التي يراها مناسبة حتى يتبين للناس الغث من السمين! وقل مثل ذلك في اختلاف تصورات بعض العلماء عما جاء به الدين، فلا يجب تكفير بعض لبعض آخر لمجرد أن جماعة تقول بأن عمر الأرض يزيد على ما تصوره المفسرون للكتاب المقدس.

راح صروف ونمر بعد ذلك يسردان تصورات تسع جماعات حول مصير الأرض وحياة الانسان على سطحها[١٤]. وكان يمكن أن يمر كل شيء ببساطة ومن غير أن يخلق عاصفة مريرة لو أن الأمر فهم على أنه اختلاف وجهات نظر العلماء حول تقدير عمر الأرض مثلاً مع اتفاق فيما بينهم حول خالقها، لا بل قد يتغاضى رجال الدين المتعصبون عن اختلاف العلماء وتصوراتهم حول مصير الأرض لو أن حصيلة الرأي انتهت بتأكيد البعث وإقرار يوم الحساب ولكن ذلك لم تظهره وجهات النظر التي طرحت على أي نحو كان.

فحول انقضاء العالم ومستقبل الانسان فيه بادرت مجلة البشير إلى الرد على المقتطف إذ تشككت أولاً في أن القائلين بآرائهم حول هذا الموضوع هم من العلماء أصلاً، ثم افترضت انهم حتى لو كانوا من العلماء فانهم لا محالة قد ابتعدوا عن تعاليم الدين. ورأت البشير انه ما كان لهؤلاء العلماء أن يطلقوا أوهامهم لولا أنهم أعرضوا عن طريق الحق وانساقوا وراء مذاهبهم الطبيعية التي أضلتهم سواء السبيل. وهل أصدق شاهد على ضلالتهم ـ بحسب رأي البشير ـ من تعدد آرائهم واختلاف تفاسيرهم حول موضوع بعينه؟ واستطراداً فانهم لو ولّوا وجوههم شطر الكتاب المقدس وتعاليمه لكان لهم في ذلك اتفاق على ما هم مختلفون فيه ولكنهم آثروا اتباع منهج غير منهج الله وكانت حصيلة آرائهم مخالفة لقول الله وتعاليم الكتاب[١٥]. وهكذا خلصت البشير إلى أن الله يرث الأرض ومن عليها بحسب مشيئته وبأمر من عنده تعالى لا بحسب قوانين طبيعية تفعل فعلها على نحو آلي دون ضابط يضبطها أو سلطان يسير الأمور في الكون. وعلى عكس ما ذهبت اليه طائفة العلماء في آرائها التسعة رأت البشير أن مصير البشر إلى زوال ولكن ذلك يكون بنار يرسلها الله لتأتي على كل شيء يوم الحساب[١٦].

كانت محاربة السحر والشعوذة هي الشق الأول من المهمة التي اضطلع بها كل من صروف ونمر في مجلتهما المقتطف، أما الشق الثاني ـ كما ذكرنا في بداية هذا البحث ـ فانه يتمثل في محاولة إشاعة العلم والعقلية العلمية بين الناس.

والحق أن أهمية المقتطف في دعوتها إلى تبني علوم الغرب لا تكمن في انها أول من نادى باعتماد هذا السبيل لأجل النهضة بالعالم العربي وإصلاح مفاسده، وإنما سبقت المقتطف دعوات أخرى في مصر وسوريا الكبرى واسطنبول على حد سواء. أما أهمية المقتطف هنا فهي تكمن في كثافة المادة العلمية التي ظهرت على صفحاتها من ناحية وكذلك في حجم الجهد الكبير الذي استثمر في تحريرها وإظهارها بالشكل الذي يخدم العلم والثقافة في العالم العربي خدمة كبيرة. هنا يمكن التأكيد على أن ارهاصات هامة ظهرت في العالم العربي آنذاك فبعضنا يعلم أن الاضطراب الذي انتاب الامبراطورية العثمانية منذ القرن الثامن عشر وما صاحب ذلك من توسع وتقدم علمي ونفوذ استعماري غربي على حساب العرب والمسلمين كان حافزاً لصروف ونمر على تأسيس مجلة المقتطف. ولكن يجب الا يفوتنا أيضاً أنه كانت هناك إرهاصات فكرية هامة آنذاك جعلت تفكيرهما وتحقيقهما للمجلة أمراً ممكناً. فمن المؤكد مثلاً أن الجزيرة العربية قد شهدت في القرن الثامن عشر انتفاضة إصلاحية تمثلت في الحركة الوهابية (١٧٠٣ ـ

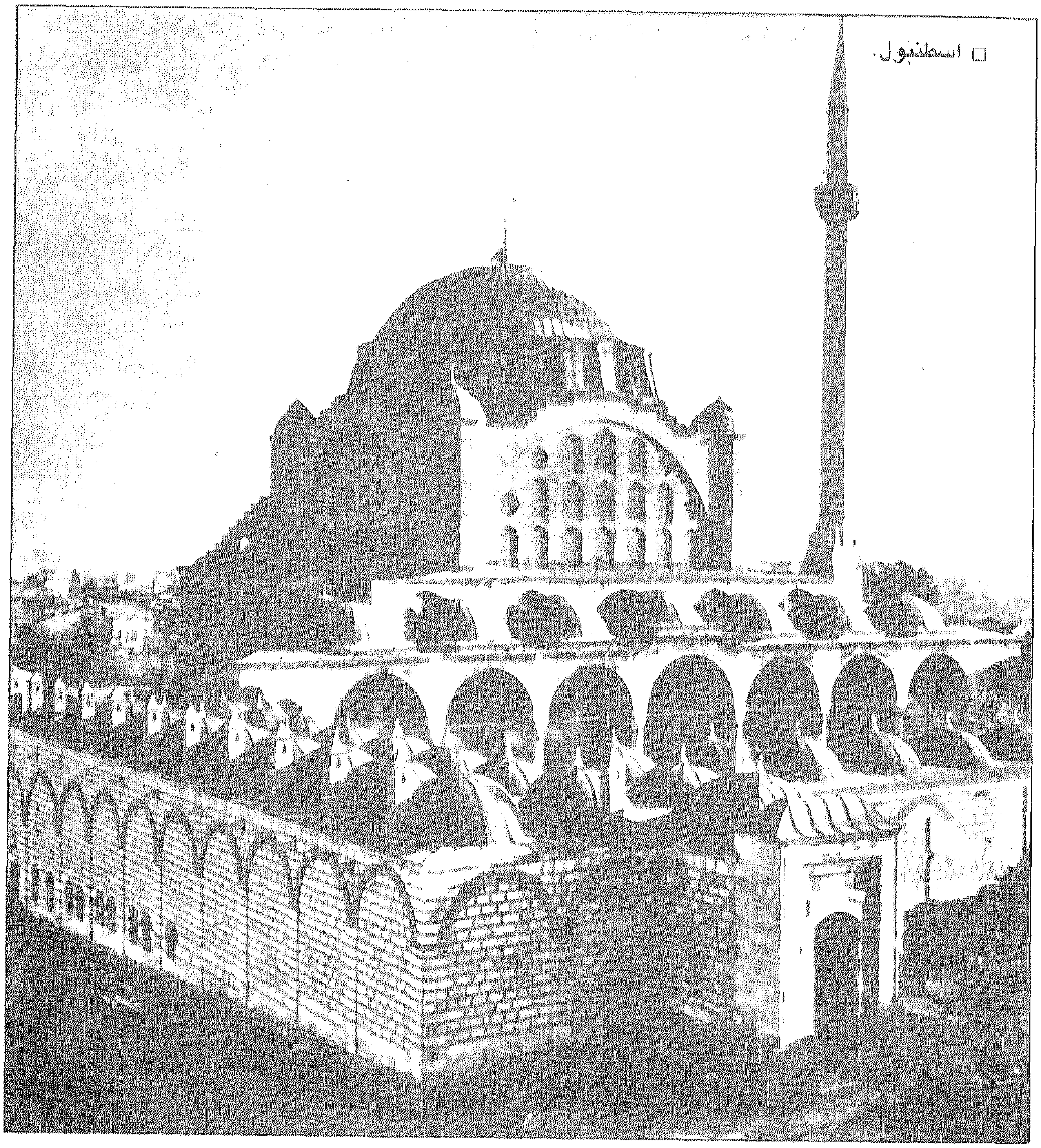

١٧٩١) وكذلك شهد المغرب العربي حركة إصلاحية قام بها السنوسيون (١٧٨٧ — ١٨٥٩). أما في القرن التاسع عشر فقد كان العالم العربي يشهد توتراً حاداً على صعيد الفكر والعلم والسياسة على حد سواء. وإذ لا يهمني هنا ذكر ما كانت تزخر به تلك الفترة من زخم في مجالات الأدب والسياسة خشية أن يخرجنا ذلك عن إطار البحث الذي نحن بصدده فإنه من الواجب أن نذكر شيئاً عن الارهاصات الفكرية التي لها صلة بالعلم الطبيعي على وجه الخصوص.

حال العلم عند العرب
في مطلع العصر الحديث

يمثل ما يخطىء بعض المؤرخين عندما يتصورون القرن التاسع عشر بداية الوعي السياسي والاصلاح الاجتماعي في العالم العربي، فانهم يخطئون أيضا في اعتقادهم أن النهضة العلمية العربية الحديثة بدأت منذ اتصال العرب بالغرب اتصالا مباشراً اثر الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١).

فلقد شهدت تركيا العثمانية نهضة وحركة إصلاحية محدودتين منذ مطلع القرن الثامن عشر إبان حكم السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ ــ ١٧٣٠) فقد تم في عهده إصلاح البحرية التركية وإدخال تعديلات على برامج التدريب فيها بوحي من النموذج الغربي آنذاك كما تم السماح بالطباعة في اللغتين العربية والتركية. وفي عهد خلفه السلطان محمود الأول (١٧٣٠ ــ ١٧٥٤) اقيمت مدرسة الهندسة ومجلس العلوم الرياضية وظهرت مؤلفات للكتب العسكرية والطبية وغيرها في فروع العلم المختلفة ثم انشئت في زمن لاحق إبان حكم السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ ــ ١٧٧٤) مدرسة للرياضيات سنة ١٧٧٣ بهدف خدمة الأسطول العثماني. وما أن جاء السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ــ ١٨٠٧) حتى اكتسبت حركة الاصلاح التي بدأها أسلافه زخماً وقوة كبيرتين. ففي عهده تسللت إلى تيار الفكر في أرضه مبادىء الثورة الفرنسية وعمل هو من جانبه على تشكيل لجنة «النظام الجديد» بهدف إدخال إصلاحات على الأسطول العثماني وذلك بإنشاء مدارس حربية يشرف عليها خبراء فرنسيون ويتلقى الطلبة فيها دروسهم باللغة الفرنسية فضلاً عن إرسال بعثات إلى فرنسا للغرض ذاته. وفي سنة ١٧٩٥ وجدت مطبعة فرنسية جديدة طريقها إلى اسطنبول وصارت تسهم إلى جانب المطابع التركية والعربية في نشر الترجمات والمؤلفات الفرنسية.

ولقد كانت ثمار الحركات الاصلاحية هذه ظاهرة للعيان إلى الحد الذي أكد فيه المؤرخ الدكتور محمد يوسف نجم أن النموذج الذي اعتمدته إصلاحات محمد علي في مصر كان يستوحي معالم الاصلاح العثماني لا الغربي الذي ابتدأ بالحملة الفرنسية على مصر. ومن الطريف أن المؤرخ نجم يشير أيضاً إلى أن وجهة الاصلاح قد سارت من اسطنبول الى مصر في عهد السلطان سليم الثالث بينما عادت واتخذت وجهة معاكسة ــ أي من مصر إلى اسطنبول ــ في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ ــ ١٨٣٩).

والآن، ماذا كانت عليه الحال في مصر؟

كان محمد علي قائداً للحملة التي أرسلها سليم الثالث إلى مصر لطرد الفرنسيين وكان ذلك القائد ينظر بعين الاعجاب إلى الاصلاحات التي تمت في تركيا على يد السلطان سليم بنفس ما كان ينظر بعين الريبة والشك إلى النوايا السياسية للانجليز والفرنسيين. لذا راح يسعى بعد أن استقر له الأمر في مصر في مطلع القرن التاسع عشر إلى رفع كفاءة جيشه عن طريق تبني «النظام الجديد» الذي أقدم عليه السلطان سليم في اسطنبول من قبل.

ثم عمل محمد علي على جلب عدد من الخبراء والمدرسين والفنيين والتقنيين من اسطنبول بقصد تطوير الجيش كما أنشأ مدرسة للهندسة سنة ١٨٢١ ومدرسة للحربية سنة ١٨٢٢. ومع أن من الثابت أن محمد علي قد استعان في مطلع خطواته الاصلاحية بالنموذج العثماني فإن ذلك يجب أن لا يصرفنا عن الأثر الهام الذي أحدثته الحملة الفرنسية على مصر في كافة ميادين الفكر ونشاطات الحياة الاجتماعية. فقد صحب نابليون معه في حملته جماعة من العلماء والمتخصصين وأحضر معه أجهزة علمية متطورة وآلات تكنولوجية عديدة ذكرها المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار». وعلى الرغم من أن الحملة الفرنسية هذه لم تدم طويلاً إلا أن الآثار العلمية والسياسية والاجتماعية التي خلفتها وراءها كانت هامة إلى حد كبير. فنرى مثلاً أنه ما أن حطّ نابليون قدمه في مصر حتى أنشأ جمعية علمية مصرية في سنة ١٧٩٨ وكان من أبرز انجازاتها التي اكتملت بعد رحيله عنها صدور عدة مجلدات في «وصف مصر» تتناول كافة نشاطات الحياة العلمية والاقتصادية والسياسية وغيرها عبر التاريخ. ثم إنه يجب أن لا ننسى أن جماعة من العلماء والمفكرين الفرنسيين الذين صاحبوا حملة نابليون قد فضلوا البقاء في مصر بعد رحيل الحملة عنها وكانت جهودهم ونشاطاتهم في كافة ميادين الحياة ثابتة وأكيدة. أما محمد علي فإنه لم يكتف بإنشاء المدارس الحديثة ومعاهد البحث والتدريب المتطورة وجلب الباحثين والمتخصصين من بلاد الغرب بهدف الاصلاح بل انه راح يرسل البعثات العلمية الى الدول الغربية نفسها وذلك من أجل أن يتزود

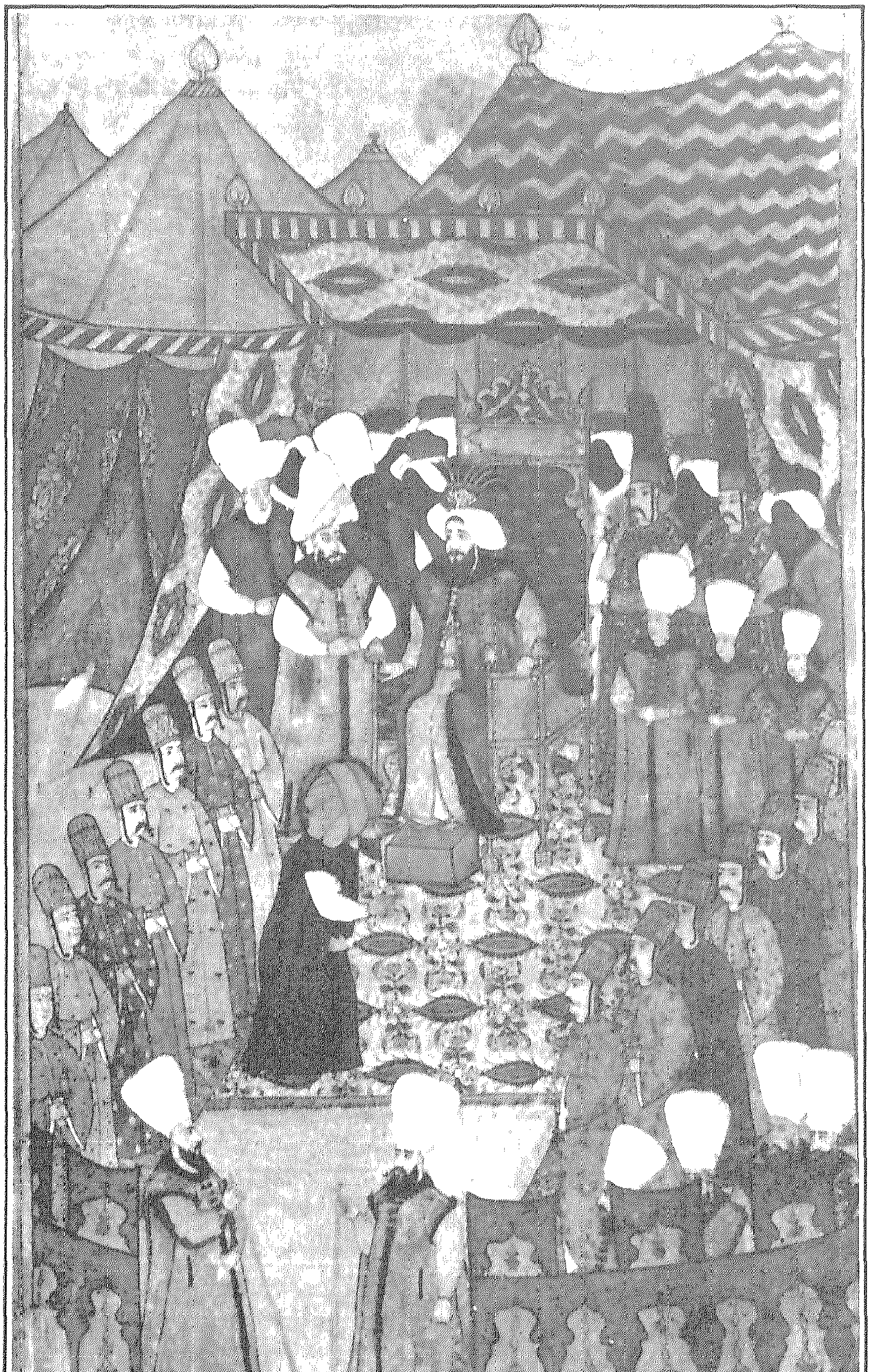

□ السلطان أحمد الثالث، في إحدى احتفالات القصر.

أبناء مصر بعلوم الغرب من منابعها. وإذا كان خلفاء محمد علي قد حادوا قليلاً عن طريق الصلاح والاصلاح في ميداني السياسة والاقتصاد حتى انتهى الأمر باحتلال الانجليز لمصر سنة ١٨٨٢ فانهم أظهروا على العموم اهتماماً بالعلوم والصناعة والآداب والفنون.

أما في بلاد الشام فإن النهضة العلمية جاءت متأخرة بعض الشيء عن نظيرتيها في مصر واسطنبول وإن لم تقلّ عنهما أهمية. فيمكن القول على العموم بأن المعاهد والتيارات الفكرية العلمية قد ظهرت في هذا الجزء من العالم العربي بظهور المدارس التبشيرية. فقد تأسست الكلية السورية الانجيلية(*) سنة ١٨٦٦ واستهلت الكلية نشاطها بمدرسة للآداب والعلوم ثم اتبعتها بمدرسة للطب سنة ١٨٦٧ ثم مدرسة ثالثة للصيدلة في سنة ١٨٧١. وفي سنة ١٨٧٥ بادر الآباء اليسوعيون إلى افتتاح جامعة القديس يوسف وكان التدريس مقتصراً فيها على الدراسات اللاهوتية والفلسفية في بادىء الأمر ولكنها سرعان ما انشأت بعد ذلك كلية للطب سنة ١٨٨٣ وكلية أخرى للصيدلة سنة ١٨٨٨. أما الأمر الهام هنا فهو أن الدارسين والخريجين من هذين الصرحين العلميين الكبيرين قد لعبوا دوراً هاماً جداً في ميادين الحياة السياسية والصحفية والاصلاح في بلاد الشام وفي مصر على حد سواء(١٧).

كانت هذه نبذة مختصرة عن حالة العلم في العالم العربي إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قصدنا من ورائها إبراز الارهاصات العلمية التي ظهرت مجلة المقتطف في ظلها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ولكن ماذا قال صروف ونمر في معرض تبريرهما إنشاء مجلة شبه متخصصة في ميدان العلوم الطبيعية بالذات؟.

العلم والتكنولوجيا سمتا العصر بلا منازع

ظل العلم حتى فترة متأخرة مشوباً بعناصر لا عقلية من ناحية فضلاً عن انه كان منفصلاً عن التكنولوجيا مدة طويلة من ناحية ثانية. أما اليوم فإننا لا نفهم العلم بمعناه النظري إلا من خلال تطبيقاته المتمثلة في التكنولوجيا كما انه لا يمكن للتكنولوجيا أن تزدهر إلا من خلال اعتمادها على أساس نظري يتمثل في النظريات العلمية(١٨). ولعل هذه السمة المميزة للعلم المعاصر ــ أي تلك الصلة الوثيقة بين الجانبين النظري والتطبيقي للعلم ــ ظهرت على أوضح ما يكون في القرن التاسع عشر أي في الفترة التي تأسست مجلة المقتطف في الربع الأخير منها. فليس غريباً إذن أن نرى صروف ونمر يسعيان لا إلى تبني المعرفة النظرية فحسب بل الدعوة إلى الاهتمام بالتطبيقات التكنولوجية.

«على أن كثيرين يزعمون أنا قد بلغنا من العلم غاية ما يحتاج إليه وأن الأحرى بنا أن نقتصر على طلب الصناعة وذلك غير سديد. أما ترى أن الصناعة مؤسسة على العلم وانها إنما تتقن بتهذيب العقل والذوق وأن الصانع الحاذق هو العالم بأصول صناعته وحقائقها وهذه لا تعرف جيداً إلا بدرس ما تأسست عليه من المبادىء العلمية. وكفانا برهاناً على ذلك أن الافرنج وغيرهم من الذين اتقنوا الصنائع يجتهدون في تعليم الأفراد غاية الاجتهاد وبعضهم يوجبه شرعاً فالأحرى بنا أن نقصد العلوم من حيث تؤدي إلى الصناعة جادين في تلك غير مهملين هذه، ولا حاجة بعد إلى الاطالة في ذلك فكل من وقف على مبادىء العلوم يرى لزوم معرفتها للصانع»(١٩).

ففي معرض حثهما على طلب المعرفة العلمية وتطبيقاتها وجدناهما يسوقان مبررات ثلاث تزكي السعي في هذا السبيل. فهناك مبرر مستمد من واقع العلم الحديث وإنجازاته وهناك مبرر ثان مستمد من الدين وآخر ثالث مستمد من ميدان الأخلاق والواجب. فيمكن القول أولاً أن صروف ونمر ما كانا يريان في الدعوة إلى اكتساب العلم الحديث وتكنولوجيته بدعة إذ انه طالما كانت فوائد العلم وثمرات التكنولوجيا ظاهرة للعيان فإن ذلك وحده كفيل بسعي الناس إلى اكتسابهما وتصبح كل دعوة في هذا السبيل تحصيل

(*) تحولت الكلية السورية الانجيلية إلى ما يعرف اليوم بالجامعة الاميركية في بيروت وذلك منذ سنة ١٩٢٠.

□ السلطان سليم الثالث

حاصل. ولكن لما كان بعض الناس يتهيبون من إدخال أفكار جديدة إلى حياتهم عادة وكذلك لما كانت هناك جماعة تشكك في جدوى العلم وتهاجمه بحجة معارضته للدين والمقدسات فإن صروف ونمر وجدا في مسألة الانتصار للعلم واجباً يبلغ حد القداسة خاصة وأن الأمر مرتبط بالنهضة الشاملة التي انصبت عليها جهودهما. أما المبرر الثاني المستمد من الدين فإنه يتمثل في ردهما على المتدينين الذين يهابون اكتساب العلم بحجة معارضته للدين. كان رأيهما هنا هو أنه ليس هناك ما يحتم قيام نزاع بين العلم والدين إذ لما كان الله هو خالق الكون ومقدر كل شيء فإنه يتحتم الاقبال على دراسة القوانين الطبيعية التي يسير الكون بموجبها باعتبار أن في ذلك دعما لايمان المؤمن لا تشكيك في مقدساته. أو قل انه لما كانت كلمات الله مطابقة لأفعاله فإنه لا مجال إلى جحد قدرته أو إنكار تدبيره للأمور، فكلام الله ثابت وصنع الله أكيد ولا مجال من ثم إلى قيام تعارض بين ما جاء به الوحي وبين فعل الله المتمثل في خلق العالم وإيجاد القوانين الطبيعية. ولأن صروف ونمر كانا على علم بمنزلة الدين الرفيعة في نفوس أهل الشرق فانهما سعيا إلى دعم حجتهما حول اتفاق العلم والدين بآيات من القرآن والانجيل تحث على طلب العلم. لا بل راحا ينعيان على المناهضين للعلم ضعف إيمانهم وقصر نظرتهم وخيبة مسعاهم.

وعندما قال صروف ونمر باتفاق العلم مع الدين فانهما بطبيعة الحال لم يقصدا أن العبارات أو الآيات الواردة في الكتب المقدسة تنبىء أو تطابق ما يقول به العلم في تفاصيله الدقيقة وإنما كانا يقصدان أن الأديان لا تقف عقبة أمام السعي إلى اكتساب العلم. فاتفاق الدين مع العلم يجب أن لا يفهم من خلال تحميل النصوص الواردة في الكتب المقدسة أكثر مما تحتمل لأن ذلك يؤدي إلى مزالق كثيرة وإنما يجب فهم النصوص في اطارها العام الذي دعت فيه إلى طلب العلم من غير ما دخول في التفاصيل. والظاهر أن نظرة صروف ونمر هذه إلى طبيعة العلم والدين وعلاقة كل منهما بالآخر نظرة صائبة إلى حد بعيد. إذ لما كانت الكتب السماوية ليست كتباً تخصصية في فروع العلم المختلفة فإنه من غير الجائز أن ننسب إليها شيئاً

لا يتعلق بطبيعتها من ناحية فضلاً عن أن الاعتقاد بأنها تعالج الجوانب الدقيقة في ميادين العلم هو منشأة النزاع بين الميدانين ــ العلم والدين ــ في كثير من الأحيان. واستطراداً لهذه الفكرة يمكن القول بأن الانصاف يحتم أن لا نضفي على الدين طابعاً غير طابعه وأن لا نحمل النصوص في الكتب المقدسة أكثر مما تحتمل ناهيك عن أن الالتزام بهذا النهج من التفكير والتحليل يجنب الانسان مشاكل جمة ربما نشأت من محاولة تجني احد الميدانين على الآخر(٢٠).

ولعل صروف ونمر كانا على علم بمعارضة الكثيرين لوجهة نظرهم هذه حول العلاقة بين العلم والدين ولذا وجدناهما ينظران إلى المشكلة من زاوية مختلفة بعض الشيء مع أخذ أمرين هامين بعين الاعتبار: أن يكون هناك إقبال دائم على العلم من جهة وكذلك محاولة تفادي قيام نزاع بين العلم والدين من جهة ثانية. فإذا ما أصرت جماعة على تلبيس الآيات في الكتب المقدسة مضمونات علمية تفصيلية فإنه لا أقل من أن ينظر كل جيل إلى الآيات ويعمل على تفسيرها بحسب معطيات العلم السائدة في عصرهم، فتفسير الأولين لنصوص الكتاب على أن الأرض ثابتة مثلاً أو انها مركز الكون إنما كان يتمشى مع تيار الفكر السائد في عصرهم ولكن العقل يحتم على أبناء العلم الحديث تفسير النصوص الواردة في الكتب الدينية تفسيراً مختلفاً ومتسقاً في كل حال مع حقائق العلم ومعطياته الجديدة(٢١). وبالطبع لم يكن صروف ونمر يدركان ما تنطوي عليه أفكارهما هذه حول العلاقة بين العلم والدين من إشكالات ولكن ذلك كان أقصى ما تصوراه حلاً لوجهات النظر المختلفة ودعوة إلى طلب العلم

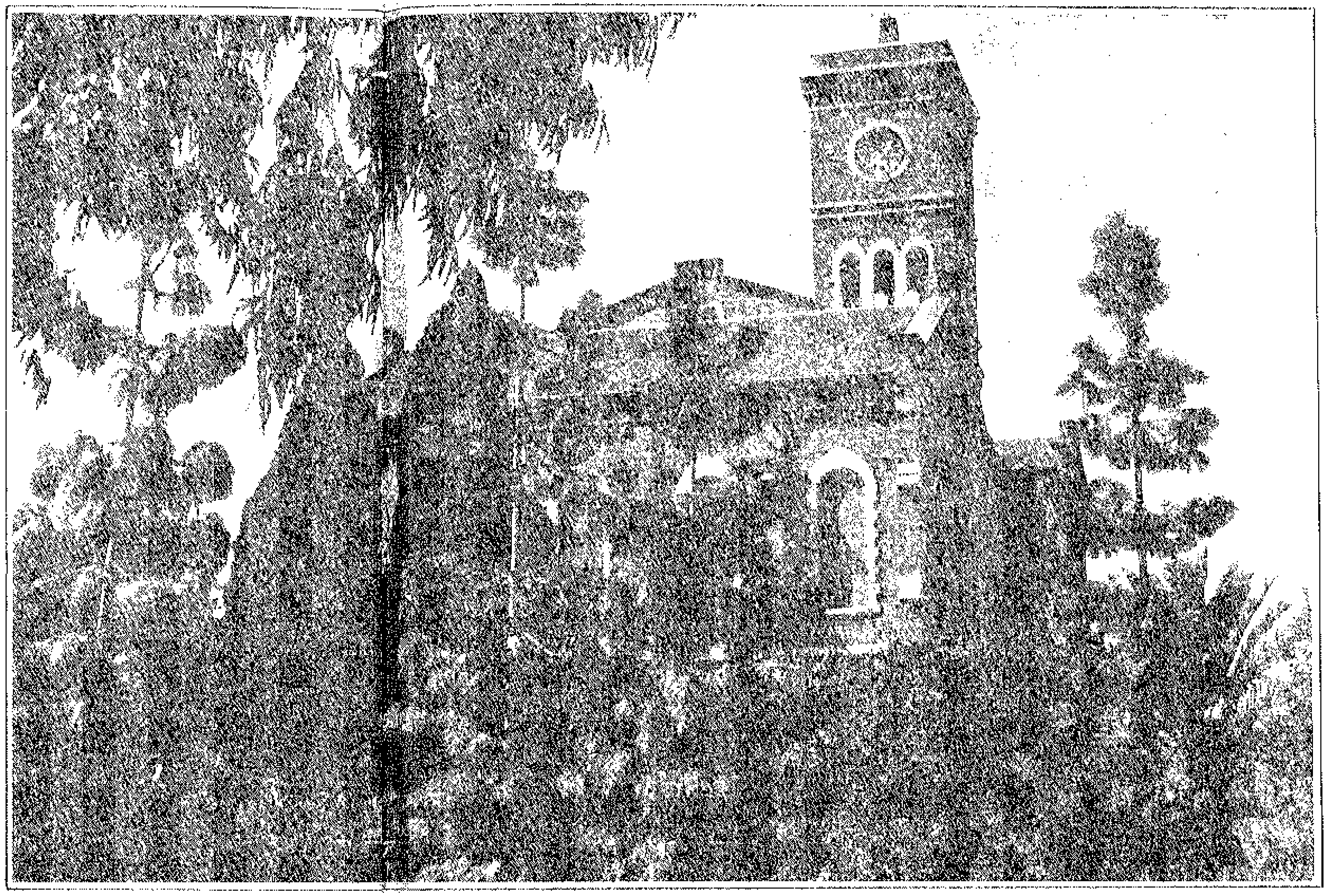

□ الجامعة الأميركية في بيروت.

والسعي وراء تطبيقاته.

وهناك فضلاً عن كل ذلك مبرر ثالث استخلصه صروف ونمر من ميدان الأخلاق إذ أن في سعي العرب من أبناء القرن التاسع عشر إلى طلب العلم تجسيداً لانفتاحية تميز بها العلماء العرب والمسلمون في العصر الوسيط. فالواجب يحتم ــ بحسب رأيهما ــ أن يرد الخلف للسلف من عباقرة العلم ومفكري الاسلام في ذلك العصر ديناً عليهم في ذمتهم.

«ماذا يقول ابن سينا لو وقف بنا اليوم وسمع أكثرنا يعوذ بالله من شر علماء الطبيعة وعلمهم وكيف يشعر القزويني لو سمعنا نقول عن عالم في الحيوان أن هذا طبيعي كافر. والبتاني والطوسي والنيسابوري لو علموا أن علم الهيئة قد أمسى في خبر كان بعدما شيدوا دعائمه بين أمة العرب وماذا يقول ابن رشد وأبو الوفا والتفتزاني وكثيرون غيرهم من فطاحل هاتيك الأزمان لو عرفوا ما مسّ علومهم من الصغار بين قومهم. فليت المنددين بهذه العلوم يفطنون إلى أن أفاضل الناس أنشأوها ولم يزل الأفاضل يتداولونها وانهم على غير إصابة يصدون الناس عن اقتنائها ويحولون عيونهم عن براهينها الباهرة ويسدون آذانهم عن سمع أحكامها القاهرة فلا يستوعبون فحواها ولا يتحققون دعواها بحجة أنها تخالف ما أنزله الباري تعالى»(٢٢).

والآن إذا كانت دعوة صروف ونمر إلى تبني العلوم الطبيعية عموماً كافية في حد ذاتها لاحلالهما مرتبة رفيعة بين مراتب المفكرين ورواد النهضة العربية الحديثة فانهما في نشرهما آراء حول الداروينية بالذات قد ضربا مثلاً رائعاً في الاخلاص للمبادىء والأهداف التي سعيا إلى تحقيقها. ولكن لماذا جاء اختيارنا لنظرية التطور بالذات، وماذا عسى أن يجعلها متميزة عن كثير من النظريات العلمية؟

الأهمية العلمية لنظرية التطور

شهد تاريخ العلم الحديث ثورات كثيرة أحدثت ردود فعل عديدة على أصعدة مختلفة ولكنه ربما لم يشهد تاريخ البشر كله هزة فكرية

عنيفة كتلك الهزة التي أثارتها نظرية التطور الداروينية بعيد النصف الأول من القرن التاسع عشر. انظر كيف جاءت نظرية كوبرنيكوس مثلاً فأطاحت بنظام الفلك القديم عند بطليموس، وكيف قوّضت ميكانيكاً جاليليو ونيوتن في زمن لاحق تصورات أرسطو في هذا العلم. وانظر أيضاً كيف جاء هارفي بنظرية جديدة في الدورة الدموية مختلفة عن آراء السابقين حولها، وكيف ظهرت هندسات جديدة استحدثها ريمان ولوباتشيفسكي وكانت مستقلة عن هندسة إقليدس التقليدية، أقول انظر كيف ظهرت ثورات كثيرة في العلم الحديث كهذه ولكن ربما لم تقم في العلم ثورة أحدثت بلبلة تعادل في عنفها وردود الفعل حولها ما أحدثته نظرية التطور. صحيح أن نظرية كوبرنيكوس في الفلك قد أحدثت هزة فكرية عظيمة لكونها تحدّت سلطة فكرية ودينية درج الناس على تقديسها وصحيح أيضاً أن جاليليو وجيوردانو برونو وغيرهما من المؤيدين لنظرية كوبرنيكوس كانوا عرضة للتعذيب والارهاب والملاحقة من قبل الكنيسة ولكن كل ذلك يظل في كفة وما جاءت به نظرية التطور في كفة أخرى. ذلك أنه إذا كانت نظرية كوبرنيكوس مثلاً قد شككت في المكانة السامية التي منحها بطليموس للأرض فإن نظرية دارون في التطور قد غيرت الصورة الشائعة عن المكانة السامية للانسان، كما كان يؤمن بها الناس وتؤكدها الأديان. أما خطورة النظرية التطورية في منتصف القرن التاسع عشر تقريباً فإنها تظهر من عدة جوانب أولها أن العلوم الطبيعية عموماً كان قد استقر لها الأمر منذ القرن السابع عشر وذلك بعدما قبلت الكنيسة بنظرية بطليموس في الفلك وأقرت كذلك بصحة الأفكار التي قال بها جاليليو. أما الجانب الثاني في خطورة النظرية التطورية فانه يتمثل في أنها كانت تتعلق بالانسان نفسه في نهاية المطاف. فإذا كانت نظرية كوبرنيكوس تتعلق بمادة فيزيائية بالدرجة الأولى فإن نظرية التطور تتعلق بمادة حية لكائن كان يظن بأن له مرتبة خاصة بين الكائنات جميعاً. وإذا كان السابقون قد قبلوا من باب التساهل بنظرية كوبرنيكوس وبوحي من الشواهد العلمية التي تثبتها فإن اللاحقين ربما قبلوا بنظرية التطور بنفس ذليلة وبإحساس بالمهانة أكثر مما قبلوها إذعاناً لشواهد علمية تؤيدها. لا بل الأكثر من ذلك أنه إذا كانت النظرية الفلكية الجديدة التي قال بها كوبرنيكوس قد استوجبت إعادة النظر في مكانة الأرض في اطار المجموعة الشمسية فإن نظرية التطور التي قال بها دارون قد استوجبت إعادة النظر في الأرض والانسان والمجموعة الشمسية بل والكون بأسره. ثم انها راحت فضلاً عن ذلك تمسّ أموراً لم تخطر على بال البشر أو ربما لم يجرؤوا على مناقشتها من قبل كالدين والأخلاق والسياسة والاقتصاد.

من هنا إذن تظهر لنا أهمية الدور الذي لعبته المقتطف في معالجتها لنظرية التطور على صفحاتها سواء في نشرها لأول مرة في العالم العربي مقالات حولها أو في دخول محرريها صروف ونمر في مطارحات فكرية مع آخرين تجاهها. وهكذا إذن نرى أن الهدف الجليل الذي اختطته المقتطف لنفسها لم ينحصر في الدعوة إلى اكتساب المعرفة العلمية النظرية والتطبيقية الحديثة في الفيزياء أو الكيمياء أو الفلك فحسب بل راحت في مهمتها السامية تفتح الأذهان على أمور جديدة بالغة الخطورة تتعلق بطبيعة الانسان وتطوره ومصيره. ولعل سلسلة الأحداث التي أحاطت بالنظرية التطورية في العالم العربي منذ أن ظهرت بعض المقالات حولها في مجلة المقتطف وحتى استقر لها الأمر على أيدي جماعة من المفكرين العرب الكبار تكشف لنا إخلاص صروف ونمر للعلم الحديث من جهة وعظمة الجهود التي بذلاها في مجال النهضة والثقافة العربية من جهة ثانية. فما هي قصة المقتطف مع نظرية التطور الداروينية وكيف عمل صروف ونمر على بلورة مطارحات فكرية حيال هذه النظرية؟

أول الغيث قَطْرٌ

بدأت تظهر طلائع النظرية التطورية في العالم العربي وتسري في الرأي العام منذ السنة الأولى التي انشئت فيها مجلة المقتطف. فلقد وردت إلى صروف ونمر رسالة من السيد رزق الله البرباري فيها سرد لنظريات بعض العلماء والمفكرين التطوريين. وواضح من الرسالة التي نشرت محتوياتها في ثلاث حلقات متعاقبة أن نظرية

□ داروين.

التطور التي كانت مدار بحث ومطارحات فكرية ساخنة في الغرب، ربما وجدت طريقها إلى فكر قلة قليلة من المثقفين والدارسين في العالم العربي في تلك الفترة.

أتى البرباري في رسالته على ذكر الآلهيين وألمح إلى آراء المثاليين في نشأة الحياة ثم جاء على ذكر الطبيعيين والماديين في ظاهرة الحياة وكيف أن بعض التطوريين قالوا بانحدار الانسان عن القردة. وكان واضحاً من فحوى الرسالة أنها تعمد إلى المقارنة بين تعاليم الكتاب المقدس حول خلق الانسان وبين آراء فئات من العلماء الذين ذهبوا في أمر الانسان مذاهب شتى(٢٣).

كانت رسالة البرباري التي عرض فيها لبعض مذاهب التطور بداية لسيل عارم من المقالات والبحوث والمطارحات الفكرية التي زخرت بها المقتطف فيما بعد حول قضية التولد الذاتي ونظرية التطور واصل الانسان وعمره وزمن الأرض وأسرارها. ومن المؤكد أن هيئة التدريس في الكلية السورية الانجيلية ـــ ومن بينهم صروف ونمر بطبيعة الحال ـــ كانت على علم بما كان يدور في الفكر الغربي آنذاك من آراء متباينة حيال نظرية التطور الدارونية ونتائجها. لا بل إن واحداً من أعضاء هيئة التدريس في الكلية ذاتها ـــ وهو الأستاذ وليم فانديك ـــ كان يراسل تشارلز دارون نفسه حول نظرية التطور آنذاك(٢٤). ولعل المتتبع للكثير من الأخبار والتلميحات التي وردت في الأعداد المتلاحقة لمجلة المقتطف يرى كيف أن صروف ونمر كانا يكتفيان في أحيان كثيرة بإيراد بعض الأخبار حول المساجلات التي كانت تدور حول نظرية التطور في الفكر الغربي من غير ما تعليق من جانبهما حول الموضوع. غير أنه من الثابت أيضاً أنهما كانا في بداية إصدارهما للمجلة يناصران أصحاب مذهب الخلق الآلهي الخاص، الأمر الذي جعلهما يدخلان في مطارحة فكرية شاقة مع الدكتور شبلي شميل (١٨٥٣ ـــ ١٩١٧) رائد النظرية التطورية في العالم العربي آنذاك ومن أكبر أنصار المذهب المادي في ذلك العصر(٢٥). ففي نبذة قصيرة عن اختلاف العلماء في الغرب حول مشكلة الحياة رأينا صروف ونمر يصنفان الآراء إلى مجموعتين إحداهما تقول بأن الحياة يخلقها الله تعالى وأخرى تقول بنشأة الحياة من تلقاء ذاتها بحسب الظروف الطبيعية المناسبة. وكان رأي صروف ونمر ـــ معتمدين في ذلك على تجارب تندال ـــ لا يرجح رأي القائلين بالتولد الذاتي. فلقد:

«كثر (بين العلماء) الأخذ والعطاء في هذه المسألة (أي أصل الحياة) واشتدت المناضلة ولم يزالوا على ذلك حتى الآن غير أنه يظهر أن مسألتهم قاربت النهاية واستظهر فيها أصحاب القسم الأول (أي الذين يعتقدون بأن الحياة لا تتولد من التراكيب المعلومة) بناء على تجارب بعض فطاحلهم العلامة تندل الشهير. ففي أخبار الجرائد الأخيرة أن العلامة تندل راسل العلامة هكسلي يصف له تجاربه ويعلمه أن الحيوانات التي زعموا بتولدها من نفسها أتت من الهواء. ولو انقطع الهواء عن التراكيب المشار إليها لبقيت كل أيامها كما هي خالية من أثر الحياة»(٢٦).

حوار بين الرواد

ما أن أفصح صروف ونمر عن رأيهما حيال أصل الحياة حتى جاء «اعتراض» الدكتور شبلي شميل على نبذة المقتطف في هذا الشأن. وواضح من اعتراض شميل أنه موجه إلى آراء تندال في

اصل الحياة ولكنه يتضمن أيضاً وبشكل مبطن نقداً لصروف ونمر على ميلهما إلى تأييد رأي تندال وغيره من القائلين بالخلق الآلهي للحياة. اما حجة شميل في اعتراضه فانها ترتكز على أن الهـواء عـنصر هـام ولازم لنشـأة الحـيـاة واستمرارها، فمتى انقطع الهواء عن أشكـال الحياة فإنـه من الطبيعي أن تموت الأحـيـاء أو لا تظهر إلى الوجـود على الاطلاق. وهكـذا خلص شميل إلى أن انقطاع الهواء عن أشكال الحياة المختلفة لا يقوم دليلاً على صحة نظرية الخلق الالهي وإنما فقط على استحالة وجود حياة أو إمكان استمرارها. ولعل الفكرة الهامة هنا تتضح أكثر فأكثر إذا قلنا بأن حجة شميل كانت تدور حول قضية رئيسية وهي أنه سواء كانت الحياة تتولد من تلقاء نفسها أو بفعل إله قدير فإن انقطاع الهواء ـــ كما ارتكزت عليه تجارب تندال ـــ يقتل الحياة ويحول دون استمرارها في كلتا الحالتين. ولذا فإن آراء تندال ـــ في نهاية المطاف ـــ لا تطيح بنظرية التولد الذاتي لأن ذلك يتطلب حججاً وبراهين أخرى مختلفة عن تلك التي قال بها تندال وأوردها صروف ونمر في نبذتهما عن أصل الحياة. كذلك قل بأن آراء تندال ذاتها لا تقوم دليلاً عـلى نظريـة الخلق الالهي باعتبار أن البرهنة على صحة هذه النظرية ستوجب هي الأخرى حججاً وإثباتات تختلف عن حجة انعدام الحياة حين ينعدم الهواء[٢٧].

لم يستسلم صروف ونمر إزاء الاعتـراض الذي وجهه شميل إلى نبذتهما في أصل الحياة وذلك لأنهما كانا بالفعل يؤمنان آنذاك بأن الله خالق الحياة جميعاً. ولعل الناظر بعين المدقق في الحوار الذي دار بين شميل من جهة وصروف ونمر من جهة ثانية يرى بأن قضية التولد الذاتي هذه خطيرة جداً وأن نظرية التطور العضوي كذلك لا تقل عنها خطورة هي الأخرى. فليس غريباً على صاحبي المقتطف ـــ أو غيرهما من رواد النهضة العربية ـــ أن يقبلا بالنظريـات الفيزيائية أو الرياضية الحديثة مما كان يعج به تيار الفكر في القرن التاسع عشر ولكن يبدو أن الأمر كان مختلفاً بعض الشيء عندما صار يتعلق بنشأة الحياة وتطورها. فعلى الرغم من أن صروف ونمر كانا من المتخصصين في العلوم ومن كبار المتحمسين للنهضة ونشر العلم في العالم العربـي إلا أنهما ما كانا على استعداد ـــ في بادىء الأمر على الأقل ـــ للتخلي عن نظريـة الخلق الالهي. ولعله من الطريف أن نذكر هنا انهما في الوقت الذي أظهرا فيه تحدياً لبعض رجال الدين المسيحيين الذين آمنوا بالسحر في تفسيرهم لنصوص الكتاب المقدس وجدناهمـا يسايرون رجال الدين هؤلاء في تفسيرهم لنشأة الحياة وطبيعتها.

ومهما يكن الأمر فإنه على الرغم من التأكيد الذي صرح به صروف ونمر حول موضوعيتهما حيال مسألة الحياة وحول عدم انحيازهما لوجهة نظر دون أخرى في قضية نشأتها إلا أنهما راحا يعلنان صراحة نصرتهما لوجهة نظر الدين في ذلك الشأن.

«هذا ما اتصل إليه العلماء في بحثهم عن أصل الحياة وقد ذكرناه كما هـو مجرداً عن الأغراض إذ لا ناقة لنا فيه ولا جمل. وأما إذا اعتبر الدين فالايمان عندنا (في مسألة الحياة) مقدّم على العيان مهما قال زيد وادعى عبيد وغيره فإن وافق قولهم أصول إيماننا قبلنـاه وإلا نبذناه»[٢٨].

وإذ لم يقبل شميل بالتبريرات التي ذكرتها المقتطف رداً على استفساراته ووجهة نظره في مسألة الحياة فإنه بادر من جديد إلى كتابـة رسالة ثانية يبدي فيها ملاحظاته حول تبريرات المقتطف وكذلك اعتراضه على انحياز صروف ونمر إلى جانب الدين بدون سبب وجيه. والظاهر أن شميـل كان قـد التزم ـــ في تلك الفتـرة بالذات ـــ جانب الحذر حول الخلاف الذي كان ما يزال دائراً في الغرب تجـاه أصل الحيـاة وطبيعتها. ولعل حذره الشديد ذاك هو الذي دعاه إلى نقد نظرية تندال في قضية التولد الذاتي من غير أن تكون النظرية مرتكزة على بينات موثوق بها. وكما أن موضوعية الباحث المدقق قد فرضت على شميل اتخاذ موقف محايد تجـاه مشكلة لم يحسم الأمر حيالها آنذاك فإن رصانة العالم الحصيف قد حفزته إلى توجيه اللوم إلى صروف ونمر على تصريحهما الذي أعلنا فيه تغليب كفة «الايمان» على شواهد «العيان» في مسألة الحياة. فالعلم ـــ بحسب رأي شميل ـــ منفصـل عن

الدين، ولذا فإنه من الواجب أن يركن العالم إلى براهين العلم ومعطياته حول قضايا العلم نفسه ــ كقضية الحياة ــ لا أن ينساق وراء العاطفة في انكار العلم بحجة أنه يخالف الدين[٢٩].

أما رد صروف ونمر على ملاحظات شميل هذه المرة فإنه يتلخص في أن الموازنة بين الحجج التي ساقها تندال ونظيراتها عند المؤيدين لمسألة التولد الذاتي تظهر تفوق الأول على خصومه. فإذا كان مطلوباً من العالم أن يمتنع عن النطق بحكم في قضية يتساوى الاثبات فيها مع النفي فإنه مطلوب منه أيضاً أن يؤيد وجهة النظر التي تكون كفتها هي الراجحة على كفة الأخرى في حالة الخلاف على قضية ما. ولقد عمد صروف ونمر بعد ذلك إلى إيضاح موقفهما من مسألة التولد الذاتي أكثر فأكثر عندما حاولا التفريق بين معنى الترجيح ومفهوم اليقين. فالتأييد الذي أبدياه تجاه التجارب التي أجراها تندال كان من باب الترجيح لا اليقين التام أو التأكيد المطلق. وفي ختام ردهما الثاني على شميل ذهب صروف ونمر إلى التأكيد على أن إيمانهما بالله ثابت وان التمسك بأصول الايمان فيه خلاص للنفوس البشرية[٣٠].

كان ذلك رأي صروف ونمر حيال مسألة التولد الذاتي، أما موقفهما تجاه نظرية التطور في بادىء الأمر فقد كان موقف المتردد في قبول النظرية أحياناً والرافض لها أحياناً أخرى. ولعل موقفهما هذا آنذاك كان يعكس الصراع الذي لم يلبث قائماً بين المؤيدين لنظرية التطور والمعارضين لها في الغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فنحن نذكر على سبيل المثال تلك الحادثة الشهيرة التي دارت في الجمعية البريطانية لتقدم العلوم سنة ١٨٦٠ ــ أي بعد سنة واحدة من ظهور كتاب داروين في «أصل الأنواع». فقد احتدم النقاش أثناء انعقاد الجمعية بين رجل الدين صموئيل ويلبرفورس الذي كان يعارض النظرية التطورية وبين رجل العلم توماس هكسلي الذي كان يؤيدها[٣١] وهكذا ظل طابع الجدل بين الرفض للنظرية أو القبول بها حتى مطلع القرن العشرين وذلك عندما ظهرت إلى السطح أهمية الأبحاث والنتائج التي خلص إليها جريجور مندل في الوراثة.

ظل موقف صروف ونمر يعكس ذاك التذبذب في الرأي حيال النظرية في بادىء الأمر على الأقل، ذلك أنه بمثل ما كان إيمانهما بأن الله خالق الحياة جميعاً كان رفضهما لفكرة تطور الكائنات الحية وتحولها من حال إلى حال. ففي مقالة حول «أصل الانسان وآثاره» ظهرت في مقتطف السنة الرابعة نرى فكرة التطور تداعب ذهن صروف ونمر في أكثر من فقرة. نراهما مثلاً يشيران إلى أن أصل الكرة الأرضية كان «غازاً طائراً في الفضاء»، ثم قالا:

«إن النبات والحيوان عاشا عليها منذ أدهار كثيرة كما يستدل من آثارها الباقية في طبقاتها. فبقي علينا أن نذكر شيئاً مما ذهب إليه العلماء في أصل الانسان ونصف بعض آثاره التي تدل على قدم عهده وانتقاله من حالة الخشونة إلى حالة الحضارة»[٣٢].

كانت هذه فقرة واحدة في مقالة تظهر لنا كيف داعبت نظرية التطور فكر صروف ونمر، أما علامة التشكك والحيرة حول قبولهما بالنظرية فانها ظاهرة من قولهما في نهاية المقالة نفسها أن:

«خلاصة ما صرنا نعرفه عن الانسان بطريق العلم أن ليس له أثر في طبقات الأرض في المدة الحديثة وأنه كان يعيش بالصيد والقنص ويسكن الكهوف والخصاص ويستخدم الأدوات الحجرية والخشبية. ثم جعل يرتقي في اتقان الأعمال واستخراج المعادن وأدجان الحيوانات وتربية النباتات وينقرض ضعيفه أمام قويه»[٣٣].

وواضح من هذه الفقرة أن الأدلة العظمية والحجرية والطعامية والمعدنية التي عرض لها صروف ونمر في مقالتهما لم تكن لتقنعهما تماماً بقبول نظرية التطور الدارونية. فكون الانسان عاش في الماضي على الصيد أو القنص وسكن الكهوف واستخدم الأدوات الحجرية والخشبية لا يقوم دليلاً ــ بطبيعة الحال ــ على أنه ينتمي إلى أشكال الحياة الأخرى ويرتبط معها مثلاً بروابط «جينيسولوجية» (Geneological). ولقد تجسد موقف الحيرة لصروف ونمر تجاه نظرية التطور في مقالة أخرى حول «إدراك الحيوان غير الناطق» إذ راحا يعرضان فيها من غير ما تعليق ــ آراء العلماء والمفكرين حول الفوارق التي يمكن أن تفصل بين أشكال الحياة ومن

بينها القدرات العقلية في الانسان والحيوان.
«فالبعض يعتقدون أن في الانسان قوى عقلية غير موجودة في الحيوان ولذلك يقولون أن قواه العقلية تختلف في نوعها عن قوى الحيوان العقلية، فلو ارتقت قوى الحيوان العقلية لم تصر مثل قوى الانسان العقلية. والبعض يعتقدون أن القوى العقلية واحدة في الانسان والحيوان وإنما تختلف في سمو رتبتها فلو ارتقت قوى الحيوان لصارت مثل قوى الانسان. والأولون (أي اللاهوتيون والفلاسفة العقليون) هم القائلون بالاختلاف نوعاً والآخرون (أي العلماء في الحيوان والانسان) هم القائلون بالاختلاف رتبة»(٣٤).

خذ مثلاً آخر يظهر لك التذبذب الذي كان يسيطر على صروف ونمر حيال نظرية التطور إذ لما كانت النظرية هذه تفترض أن الانسان ظهر على وجه الأرض منذ أزمان ساحقة تفوق بآلاف المرات ما كانت تقول به الأديان السماوية فإن الشواهد التي استخلصها العلماء من علم الحفريات والانثربولوجيا والجيولوجيا والبيولوجيا لم تكن لتقنع صروف ونمر بصحة التطور أو قدم الانسان. نراهما يقولان في مقالة لهما حول «زمان وجود الانسان» بأن الاختلاف في وجهات النظر حول تاريخ البشر لم يزل قائماً، ولما لم يكن يعنيهما البحث في التقدير الذي جاء في الكتاب المقدس حول عمر الانسان فإن حديثهما ينحصر فيما يقول به أهل العلم في هذا الشأن. قال صروف ونمر أن بعض العلماء استنتجوا من خلال دراساتهم وأبحاثهم أن عمر الانسان قديم جداً ولكن علماء آخرين أنكروا ذلك تماماً.

«هذا ولما كانت الأدلة لا تجزم بطول زمان الانسان فلا يلام من يتردد في تصديق ذلك بل يلام من يجزم بثبوته ويقيم على أساسه الواهي حصناً لمهاجمة ما ربما كان أصدق منه وأثبت»(٣٥).

قد تبدو هذه الفقرة التي ختم بها صروف ونمرمقالتهما حول «زمان وجود الانسان» عادية ومنطقية إلى أبعد الحدود طالما لم يظهر إجماع من جانب العلماء حول قدم الانسان على الأرض ولكن يجب أن نلاحظ النبرة التي تميل إلى تعضيد رأي الدين في هذا الموضوع.

غير أن التفاتة إلى مقالة أخرى ظهرت في السنة ذاتها تحت عنوان «النبات المفترس» تظهرنا على تعديل واضح في موقفهما من نظرية التطور. فهما يذكران أن الناس درجت على تصور الافتراس من طبائع بعض الحيوان فحسب ولكن الشواهد التي خلص إليها العلماء والباحثون تثبت أن بعض النبات يفترس ضحاياه من الحشرات على نحو ما يفعل الحيوان. اما أهمية هذه النتائج العلمية ـ كما يذكر صروف ونمر ـ فإنها تكمن في أنها أطاحت بالفواصل التي طالما تصورها الناس قائمة بين أنواع النبات والحيوان. أو قل بأن نظرية التطور الداروينية التي تفترض صدور أشكال الحياة جميعاً من أصل واحد قد اكتسبت باكتشاف خاصية الافتراس في النبات دعماً جديداً.

«ثبت بالامتحان المتواتر... أن الحدود التي حد بها القدماء الحيوان والنبات فاسدة اما لنقص في استقرائهم أو لأنهم ظنوا ان خالق هذا الكون سبحانه فصل بين الموجودات فصلاً تاماً فبنوا حدودهم على هذا الظن. وكيف كان الأمر فقد أخذت حدودهم تتقوض واحداً بعد الآخر»(٣٦).

ولعل الناظر بعين المدقق في الفقرة السابقة لا يرى إشارة صريحة إلى نظرية التطور ولكن ذلك قائم فيها ضمناً. ونحن عندما نقول بظهور تغير واضح في موقف صروف ونمر من نظرية التطور فإننا لم نقصد من ذلك أنهما رضيا بالنظرية وقبلاها على نحو مطلق وإنما كان القصد هو أن نظرتهما صارت تميل إلى نظرية التطور. غير أنه إذا كان التعاطف مع النظرية أخذ يظهر واضحاً في كتاباتهما منذ ذلك الحين فإن ايمانهما بالله ظل ثابتاً وكذلك ظل راسخاً تصورهما بأن الله هو الخالق والمبدع في كل حال.

بين العلم والايمان

لعل سائلاً يسأل هنا عن كيفية التوفيق بين تعاطف صروف ونمر أو ايمانهما بالنظرية التطورية فيما بعد وبين الايمان بالله وبالكتاب المقدس على ما بين النظرية والدين من اختلاف حول طبيعة الانسان وبدايته ومصيره وغير ذلك

□ الجامعة اليسوعية في بيروت.

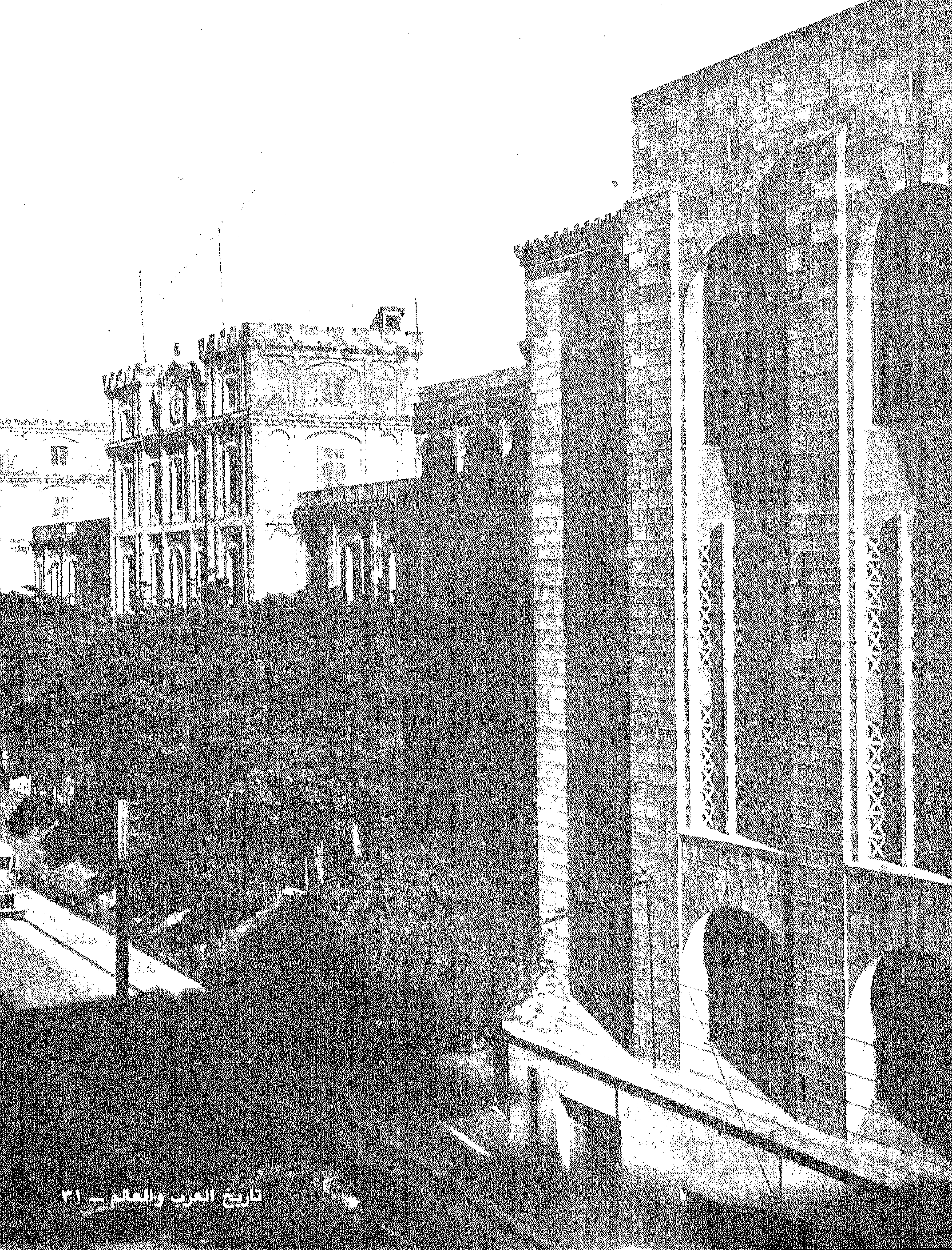

كثير؟ والجواب عند صروف ونمر ــ كما نتصور ــ يكمن في أنهما تعاطفا أو قبلاً بنظرية التطور بوحي من الشواهد العلمية في الوقت الذي آمنا بالله بوحي من الايمان والعاطفة الدينية. ويبدو أن موقفهما ذاك لم يخلق عندهما تعارضاً بين العلم والدين لأنه كان من السهل عليهما ــ على ما يظهر ــ أن يؤمنا بوجود الله وبأنه هو الخالق لكل شيء في الوقت الذي يقبلان فيه بالتطور باعتبار أن الله شاء ذلك. فقدرة الخالق قد تجلت في خلقه للكائنات جميعاً تماماً مثلما شاءت حكمته أن يكون التطور ــ على نحو ما يقول به العلم ــ ناموساً للأحياء في حياتها.

ومما يؤيد هذا الرأي أن فاتحة المقتطف لسنة ١٨٨٢ كانت ترجمة شخصية لحياة داروين وتلخيصاً لبعض أعماله وإطراء للجهود التي بذلها في ميدان العلم. فقد قالا في صاحب نظرية التطور ما يلي:

«هذا ولم يقتصر فضل داروين على مصنفاته واكتشافاته التي خدم العلم بها بشخصه وإنما معظم فضله في تحريك الخواطر وتوجيه الأذهان إلى العلم فإنه لم يقرع أبواب فن من الفنون إلا تقاطر العلماء إليه أفواجاً وعادوا بالغنائم الوافرة ولم يقم في الناس غير نيوتن رجل كداروين استلم زمام الأذهان وحوّل إليه الأبصار وقاد البشر للبحث في كل مبحث شاءه والكشف عن الغوامض التي أحب كشفها. ولم يمتلك رجل الآراء بسطوة علمه كما امتلكها ولا شاهد شيوع مذهبه واستعظام آرائه كما شاهد فإن الكتب التي ألفت له وعليه في كل أنحاء العالم تعد بالمئات والألوف وعدد الذين انحازوا إلى مذهبه في الارتقاء والتسلسل يكاد يعمّم العلماء ولذلك فإن مات فسلطانه يبقى دائماً لأنه ليس لسلطان العلم زوال. ولا عتاب ولا ملامة أن أطنب أهل العلم بالثناء عليه فإنه أهل لاطيب الثناء.

نقول هنا ونحن على يقين أن قولنا لا يرضي بعض القرّاء لانكارهم على داروين رأيه في تسلسل الانسان من بعض أنواع القرود المنقرضة فجوابنا على ذلك أننا لم نتعرض في هذه المقالة لانتقاد رأيه هذا ولم نثن عليه هنا إلّا لخدمة العلم في كل ما قرّره وحققه كما لا ينكره أحد ولتوجيهه الأفكار إلى أمور كثيرة كان الناس عنها غافلين. وأما رأيه المشار إليه فلا ينكر أن كثيرين ينفرون منه بدعوى مخالفته للدين ولكن آخرين لا يرون فيه هذه المخالفة حال كونهم من مشاهير علماء اللاهوت والفلسفة»(٣٧).

لقد بات واضحاً الآن أن صروف ونمر كانا مترددين في قبولهما بنظرية التطور في بداية إصدارهما لمجلة المقتطف ولكنهما تحولا شيئاً فشيئاً إلى موقف المؤيد للنظرية في عام ١٨٨٢ وهي السنة التي توفي فيها داروين. أما تحولهما التدريجي ذاك فإنه جاء متفقاً مع ما تواتر عليهما من شواهد حول قدم الانسان ونظرية التطور. ولعله من أبرز العوامل التي جعلتهما يقبلان بنظرية التطور ان بعضاً من رجال الدين في الغرب أمثال مكوش (١٨١١ ــ ١٨٩٤) (James Mc Cosh) قد قبلوا بالنظرية التطورية ورأوا انها لا تتعارض مع الايمان بالله.

ومن الطريف أن نذكر هنا أن تأييد صروف ونمر لنظرية التطور قد بلغ حداً كبيراً وذلك إبان الأزمة التي حدثت في الكلية السورية الانجيلية سنة ١٨٨٢. ففي حفل التخرج الذي أقامته الكلية للطلبة الخريجين في تلك السنة ألقى أحد أساتذة الكلية من قسم العلوم خطبة على الحاضرين أشاد فيها بجهود داروين وإنجازاته العلمية. ولقد أثارت تلك الخطبة أزمة حادة بين أساتذة الكلية ذاتها من جهة وبين بعض طلبة كلية الطب من جهة أخرى، إذ ما أن نشرت مجلة المقتطف الخطبة التي ألقاها استاذ الكيمياء على صفحاتها حتى تصدى لها أستاذ علم اللاهوت في الكلية ذاتها ونشر في المقتطف نفسها رداً على خطبة الخريجين. ولقد تفاعلت الأزمة بعد ذلك فطلبت إدارة الكلية من استاذ الكيمياء أن يستقيل فاستقال وقبلت استقالته. لقد ظهر واضحاً آنذاك أن بعض أساتذة الكلية لم يكونوا راضين عن الاشادة بنظرية داروين التي ذكرها الخطيب في كلمته.

أحدثت الاستقالة ردة فعل عنيفة بين صفوف طلبة الطب كما أحدثت انقساماً بين أساتذة الكلية ذاتها. فاستقال بعض أساتذة الكلية احتجاجاً على استقالة زميلهم واضرب طلاب مدرسة الطب الذين طالبوا إدارة الكلية بإعادة النظر في استقالة استاذ الكيمياء. أما صروف

ونمر فقد وقفا إبان تلك الأزمة إلى جانب الأستاذ المستقيل وشاركا طلبة الطب في احتجاجهم على إدارة الكلية إزاء موقفها المتشدد(٣٨).

وهكذا نرى أن قبول صروف ونمر لنظرية التطور كان تاماً في سنة ١٨٨٢ وكان إخلاصهما للعلم ولحرية الرأي واضحاً طوال حياتهما. فلقد ضربا بإخلاصهما لهذين الميدانين ـــ العلم وحرية الرأي ـــ أروع مثل في التضحية من أجل النهضة بالعالمين العربي والاسلامي. ولعله ليس أدل على ذلك من الجهود الجبارة التي بذلاها في إنشاء مجلة المقتطف ـــ رائد العلم الحديث في العالم العربي. ●

مراجع وتعليقات

(١) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة (١٧٩٨ ـــ ١٩٣٩)، ترجمة: كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٦٨.

(٢) هذا لا يعني أنهما لم يمارسا أنشطة أخرى مختلفة كالانخراط في الأحزاب السياسية أو الجمعيات السرية مثلاً ولكن ابرز ما اشتهر به هذان المفكران هو إصدارهما لمجلة المقتطف التي استهدفت نشر العلم والثقافة العلمية بين أبناء الشرق.

(٣) كورنيليوس فان دايك: ولد في كندرهوك بولاية نيويورك سنة ١٨١٨ وهو من أصل هولندي. نشأ محبا للعلم ودرس الطب في حداثة سنه ونال فيه شهادة الدكتوراة. جاء إلى سوريا سنة ١٨٤٠ بوصفه عضوا في الارسالية الأميركية. درس اللغة العربية على يد ناصيف اليازجي حتى صار من المتبحرين فيها، وربطت بينه وبين بطرس البستاني صداقة قوية حيث انشأ معا مدرسة شهيرة في «عبية»، قام بتأليف الكتب التي تقرر تدريسها في تلك المدرسة وأكمل ترجمة التوراة والانجيل إلى اللغة العربية بعد أن بدأها عالي سميث وبطرس البستاني. وبعد إنشاء الكلية السورية الانجيلية سنة ١٨٦٦ عرض على فان دايك العمل بها كعضو في هيئة التدريس فوافق على ذلك وكان من المؤسسين لمدرسة الطب في تلك الكلية. توفي فان دايك في سنة ١٨٩٥.

(أعلام المقتطف: المقتطف، القاهرة، ١٩٢٥، ص ١٧٩ ـــ ١٨٩).

(٤) تاريخ المقتطف، المقتطف، ١٨٩٦، ص ٣٢٢.

(٥) المرجع نفسه، ص ٣٢٣.

(٦) قراءة الأفكار، المقتطف، ط ٢، ج ٤، السنة الأولى، ص ٧٥ ـــ ٧٧.

(٧) السحر، المقتطف، ط ٢، ج ٢، السنة الثانية، ص ٢٨ ـــ ٣١.

(٨) المقتطف، ط ٢، ج ١٢، السنة الأولى، ٢٨٣.

(٩) خداع العين الطبيعي أو بعض ضروب السحر، المقتطف، ط ٢، ج ١٠، السنة الأولى، ص ٢٢٩ ـــ ٢٣١.

(١٠) السحر، المقتطف، ط ٢، ج ٢، السنة الثانية، ص ٢٨.

(١١) جوابنا على السحر، المقتطف، ط ٢، ج ٢، السنة الثانية، ص ٣١.

(١٢) حنين خوري، المغنطيسية الحيوانية، المقتطف، ط ٢، ج ٢، السنة الثانية، ص ٥٤ ـــ ٥٥.

للمزيد من التفاصيل حول المغنطيسية الحيوانية انظر:

Dictionary of the History of Science, Princeton U.P., (Princeton, New Jersey, 1981)

راجع رسالة حنين خوري الثانية وجواب المقتطف عليها:

(أ) حنين خوري، المغنطيسية الحيوانية، المقتطف، ط ٢، ج ٧، السنة الثانية، ص ١٤٦ ـــ ١٤٨.

(ب) الرد، المقتطف، المرجع نفسه، ص ١٤٨ ـــ ١٥٠.

(١٣) مستقبل الأرض ومصير الإنسان، المقتطف، ط ٢، ج ٨، السنة الثانية، ص ١٧٣ ـــ ١٧٥.

(١٤) المرجع نفسه، ص ١٧٣ ـــ ١٧٥.

(١٥) انقضاء العالم، البشير، عدد ٤٠٢، ٢٤ أيار، ١٨٧٨.

(١٦) المصدر نفسه.

(١٧) محمد يوسف نجم: العوامل الفعالة في تكوين الفكر العربي الحديث، (الفكر العربي في مائة سنة)، إشراف فؤاد صروف ونبيه أمين فارس، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٦٧، ص ٢٣ ـــ ٧٤.

(١٨) د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي، عالم المعرفة (٣)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨، ص ١٧٣ ـــ ١٨٥.

(١٩) المقتطف: ط ٢، ج ١، السنة الأولى، ص ١.
(٢٠) العلوم الطبيعية: المقتطف، ط ٢، ج ٨، السنة الأولى، ص ١٧٠ ــ ١٧١.
(٢١) المصدر نفسه: ص ١٧١.
(٢٢) المصدر نفسه: ص ١٧٠.
(٢٣) رزق الله البرباري: في أصل الانسان، المقتطف، ط ٢، ج ١١، السنة الأولى، ص ٢٤٢ ــ ٢٤٤.
(٢٤) The Life and Letters of Charles Darwin, ed. Francis Darwin, 2 Vol. (New York: D. Appleton & Co., 1888), 2:428.
(٢٥) للمزيد عن افكار شميل انظر: شبلي شميل، مجموعة الدكتور شبلي شميل في جزءين، مطبعة المقتطف، القاهرة، ١٩٠٨ ــ ١٩١٠.
(٢٦) بيده الحياة والموت: المقتطف، ط ٢، ج ١، السنة الثالثة، ص ١٦.
(٢٧) شبلي شميل: اعتراض، المقتطف، ط ٢، ج ٧، السنة الثالثة، ص ١٧٦.
(٢٨) الحياة حيرة العلماء: المقتطف، ط ٢، ج ٧، السنة الثالثة، ص ١٨٠.
(٢٩) شبلي شميل: الحيرة علة البحث، المقتطف، ط ٢، ج ٩، السنة الثالثة، ص ٢٤٣ ــ ٢٤٥.
(٣٠) المقتطف: ط ٢، ج ٩، السنة الثالثة، ص ٢٤٥ ــ ٢٤٦.
(٣١) Thomas H. Huxley: Man's place in Nature (London: Williams and Norgate, 1863, reprint ed., Ann Arbor: The University of Michigan press, 1959, Ann Rabor Paperback, 1971, PP. 2 — 3.
(٣٢) أصل الانسان وآثاره: المقتطف، ط ٢، ج ٤، السنة الرابعة، ص ٨٩.
(٣٣) المصدر نفسه، ص ٩١.
(٣٤) المقتطف: ط ٢، ج ٤، السنة الرابعة، ص ٩٢.
(٣٥) المقتطف: ط ٢، ج ٩، السنة الخامسة، ص ٢٣٠.
(٣٦) المقتطف: ط ٢، ج ١٠، السنة الخامسة، ص ٢٦٣.
(٣٧) المقتطف: ط ٢، ج ١، السنة السابعة، ص ٥ ــ ٦.
(٣٨) شفيق جحا: أزمة السنة ١٨٨٢، كتاب العيد المئوي، الجامعة الأميركية في بيروت، بيروت، ١٩٦٧، ص ٣١٩ ــ ٣٥٦.

مراجع هامة بالاضافة إلى التي ورد ذكرها

(١) الكتاب الذهبي: يوبيل المقتطف الخمسيني ١٨٧٦ ــ ١٩٢٦، المقتطف والمقطم، القاهرة، ١٩٢٦.
(٢) رئيف خوري: الفكر العربي الحديث، منشورات دار المكشوف، بيروت، ١٩٤٣.
(٣) ز. ل. ليفين: الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر، ترجمة: بشير السباعي، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٨.
(٤) علي المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب، (١٧٩٨ ــ ١٩١٤)، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٥.
(٥) فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩.
(٦) مذكرات جرجي زيدان: نشرها: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٨.

Ahmad M. Hassani: The Appearance of Scientific Naturalism in the Arab World, (Journal for the History of Arabic Science, Vol. 1, No. 2, November 1977, PP. 284 — 298.

● «إذا كان هناك صلاح في القلب فسيكون جمال في الأخلاق، وإذا كان هناك جمال في الأخلاق فسيكون هناك انسجام في المنزل، وإذا كان هناك انسجام في المنزل فسيكون هناك نظام في الأمة، وعندما يكون هناك نظام في الأمة فسيكون هناك سلام في العالم».

(مثل صيني)

الولدُ سِرُّ أبيه(*)

كان بيدِ عُمَر بن عبدالعزيز قبل الخلافة ضَيْعَتُه المعروفة بالسَّهلة، وكانت باليمامة. وكانت لها غَلَّةٌ عظيمة كثيرة، عَيْشُه وعيشُ أهله منها.

فلما وَلِيَ الخلافة قال لمُزَاحم مولاه: إني عزمتُ أن أردَّ السَّهلة إلى بيتِ مال المسلمين. فقال مُزاحم: أتدري كم وَلَدُك؟ إنهم كذا وكذا!.

فذَرَفتْ عيناه، فجعل يمسح الدَّمعة بإصبعه الوسطى، ويقول: أَكِلُهم إلى الله، أَكِلُهم إلى الله.

فمضى مُزَاحم، فدخل على عبدالملك ابنه، فقال له: الا تَعْلَمُ ما قد عزم عليه أبوك، إنه يريدُ أن يردَّ السَّهْلَة. قال: فما قلتَ له؟ قال: ذكرتُ له ولدَه؛ فجعل يَسْتَدْمِع ويمسح الدَّمعة بإصبعه الوسطى، ويقول: أَكِلُهم إلى الله.

فقال عبدالملك: بئسَ وزيرُ الدين أنت! ثم وَثَبَ وانطلق إلى أبيه، فقال للآذن: استأذن لي عليه. فقال: إنه قد وضع رأسه الساعة للقائلة(1). فقال: استأذنْ لي عليه. فقال: أما ترحمونه؟ ليس له من الليل والنهار إلا هذه الساعة. قال: استأذِنْ لي عليه.

فسمع عمر كلامهما، فقال: ائذن لعبدالملك، فدخل فقال: عَلامَ عزمتَ؟ قال: أردّ السّهلة! قال: فلا تؤخِّرْ ذلك. قم الآن، فجعل عمر يرفعُ يديه، ويقول: الحمد لله الذي جعلَ لي من ذرّيتي من يُعينني على أمر ديني. نعم، يا بنيّ؛ أصلِّي الظهر، ثم أصعد المنبر، فأردّها علانية على رؤوس الناس.

قال: ومَن لك أن تعيشَ إلى الظهر، ثم من لك أن تَسْلَمَ نِيَّتُك إلى الظهر إن عشتَ؟.

فقام عمر، فصعد المنبر وخطب الناس، وردَّ السَّهْلَة.

(*) ابن أبي الحديد:٤ — ١٤٧.
(١) القائلة: نصف النهار، والنوم في الظهيرة.

الجاحظ في مرضه(*)

قال بعض البرامكة: كنت اتقلد السِنْدَ؛ فاتصل بي أن صُرِفتُ عنها وكنت كَسبْتُ ثلاثين ألف دينار؛ فخِفْتُ أن يفاجأ بي الصارف، ويُسْعَى إليه بالمال؛ فَصُغْتُه عشرة آلاف إِهْلِيلَجة(1)، في كل أهليلجة ثلاثة مثاقيل، وجعلتها في رَحْلي، ولم ابعد ان جاء الصارف؛ فركبتُ البحر، وانحدرت إلى البصرَة، فخبِّرْتُ أن بها الجاحظ(2) وانه عليل.

فأحببت أن أراه قبل وفاته، فصرت إليه، فأفضيت إلى باب دار لطيف فقرعْتُه، فخرجت إليَّ خادمة صفراء، فقالت: من أنت؟ فقلت: رجل غريب، يحبُّ أن يدخلَ إلى الشيخ، فيسرّ بالنظر إليه!.

فأدّت ما قلت — وكانت المسافة قريبةً لصغر الدهليز والحجرة — فسمعته يقول: قولي له: وما تصنع بشق مائل، ولُعاب سائل، ولون حائل(3)! فأخبرتني، فقلت: لا بدّ من الوصول إليه. فقال: هذا رجل قد اجْتازَ البصرَة، فسمع بي وبعلّتي، فقال: أراه قبل موته؟ ليقول قد رأيت الجاحظ!.

ثم دخلت فسلمت: فردّ ردّاً جميلًا، واستدناني، وقال: من تكون أعزّك الله! فانتسبت له، فقال: رحم الله أباك وقومك الأسخياء الأجواد الكِرَام الأمجاد فقد كانت أيامهم رَوْضَ الأزمنة، ولقد انْجَبَرَ بهم قوم كثير، فَسَقْياً لهم ورَعياً(4)! فدعوت له، وقلت: انا أسأل الشيخ أن ينشدني شيئاً من الشعر؛ أذكره به، فأنشدني:

لئن قُدِّمتْ قبلي رجالٌ فطالما
مشيت على رِسْلي فكنت المقدَّما(5)
ولكن هذا الدهر تأتي صروفه
فَتبْرِم منقوضاً وتَنْقُض مُبرَما

ثم نهضت، فلما قاربت الدهليز صاح بي فقال: يا فتى؛ أرأيت مفلوجاً ينفعه الاهليلج؟ فقلت: لا! قال: فأنا ينفعني الاهليلج الذي معك! فأَنْفِذ لنا منه، فقلت: السمع والطاعة.

وخرجت مُفرِط التعجب من وقوعه على خبري، حتى كأن بعض أحبابي كاتَبَه بخبري حين صغته، وانفذتُ إليه مائة إهليلَجة.

(*) زهر الآداب:٢ — ١٨٦، ذيل زهر الآداب:١٦٥.
(١) الاهليلج: ثمر، والواحدة بهاء، ويظهر انه صاغها على شكل هذا الثمر.
(٢) هو عمرو بن بحر، والجاحظ لقبه، كبير ائمة الادب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، الف كثيراً، وعاش طويلاً، وتوفي سنة ٢٥٥هـ.
(٣) حال لونه: تغير.
(٤) سقيا لهم ورعيا: دعاء لهم بالخير.
(٥) رسلي: مهلي.

الجوسق الخاقاني
قصر الخليفة المعتصم العباسي بسامراء

د. أحمد كمال عبد الفتاح

• الحالة الاقتصادية للعالم الاسلامي في المشرق في العصر العباسي الأول(*):

يقول الخطيب البغدادي «سمعت داود بن صغير بن شبيب بن رستم البخاري يقول:

«أرأيت في زمن أبي جعفر كبش بدرهم وحملاً بأربعة دوانق والتمر ستين رطلاً بدرهم والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم والسمن ثمانية أرطال بدرهم.. وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلاً بدرهم ولحم الغنم ستين رطلاً بدرهم»(**).

من هذا يتبين إلى أي حد كان الرخاء شاملاً والأسعار رخيصة والأرزاق موفورة، كان هذا نتيجة نهضة اقتصادية شاملة في القطاع الزراعي والصناعي والتجاري.

فبالنسبة **للقطاع الزراعي** انطلقت نهضة زراعية بلغت أوجها في عهد الرشيد والمأمون تقوم على أساس فلاح غير مستعبد توفر له الدولة الحياة الكريمة ولا تثقل كاهله بالضرائب بل تمده بحاجته من الماء وتتولى أمور الري وتمد له شبكة من الترع والمصارف وتقيم له القناطر والسدود وتسهر على صيانتها حتى صارت أرض الجزيرة (الواقعة بين نهري دجلة والفرات) من اخصب بقاع الدنيا فتكدس الانتاج الزراعي في أسواق العراق وإيران ورخصت الأسعار وعم الرخاء.

وبالنسبة **للقطاع الصناعي**، عملت الدولة العباسية على استخراج الثروة المعدنية التي حفل بها العالم الاسلامي: الذهب من مصر والنوبة وغرب افريقيا، والفضة من جبال هندكوش، والنحاس الأصفر من أصفهان، والحديد من كرمان وكابل وفرغانة في فارس، واللؤلؤ من الخليج العربي، والقار والنفط من بلاد الكرج، والكبريت من شمال فارس، والشب من منطقة بحيرة تشاد والنوشادر من صقلية والملح من الصحراء الافريقية الكبرى كما كانوا يحصلون على الخشب من البندقية والهند ولبنان والعاج من بلاد الزنج... إلخ.

إذا أضفنا إلى فورة هذه المواد الخام الخبرة الفنية التي كانت أيضاً أصيلة متوارثة متطورة متوفرة بين أهل الأمصار وكذلك توفر الأسواق ويسر وأمن التجارة المحلية والعالمية، أمكننا أن نفسر النهضة الصناعية التي تمت في الدولة الإسلامية في المشرق في العصر العباسي الأول حيث ازدهرت في العراق والأمصار كثير من الصناعات: نسيج الأقمشة الكتانية الرفيعة الدقيقة في مصر وكذلك الأقمشة الصوفية وثياب

(*) راجع كتاب العالم الاسلامي في العصر العباسي تاليف (د. حسن محمود) أحمد ابراهيم الشريف (دار الفكر العربي القاهرة سنة ١٩٦٦)، (ص ١٨٥ إلى ١٤٢).

(**) راجع كتاب الحضارة الاسلامية لآدم متز (نقله للعربية ابو ريدة القاهرة سنة ١٩٥٧ ج ١ ص ٤٢).

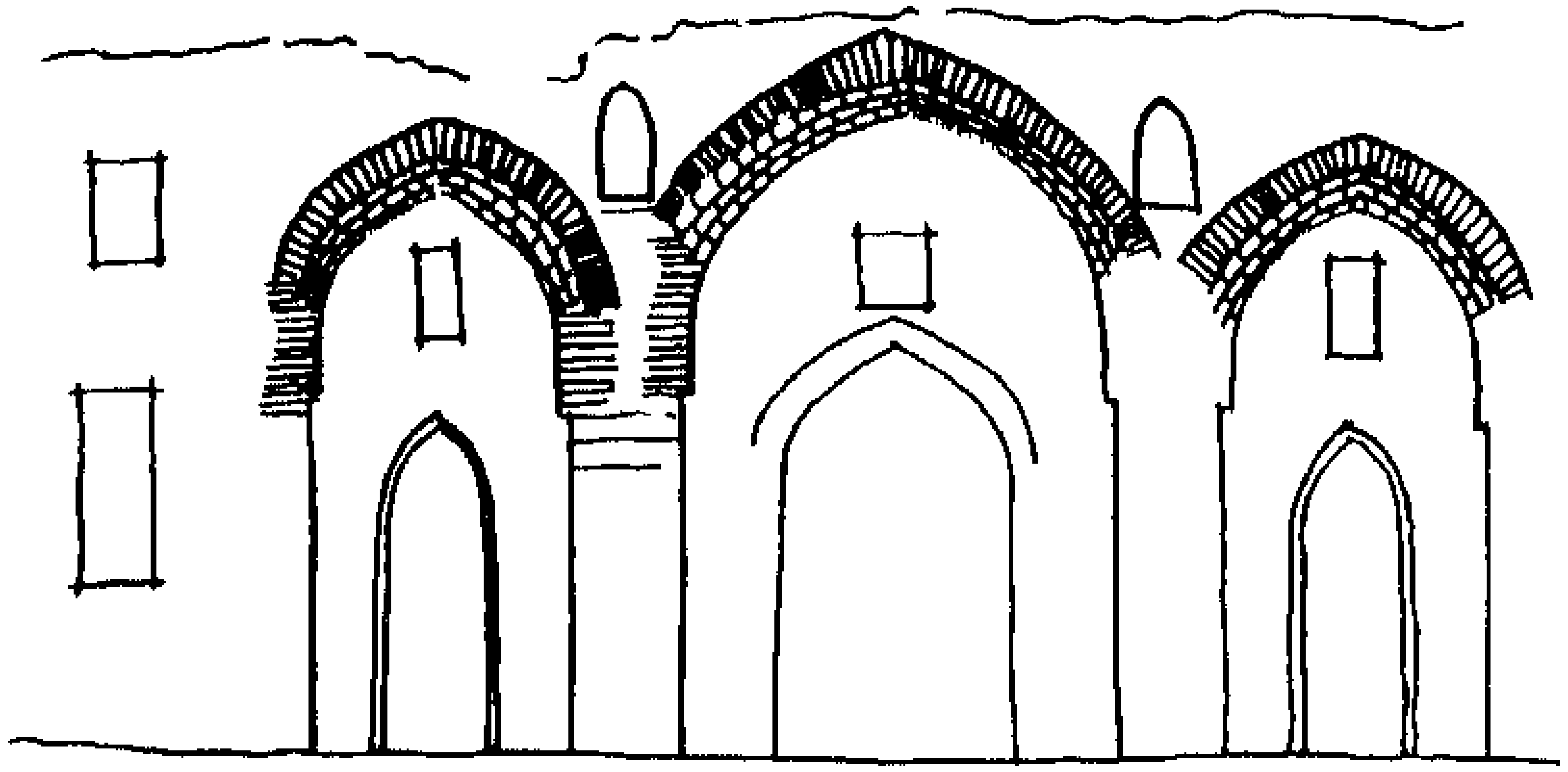

□ واجهة باب العامة (المدخل الغربي للقصر).

القصب، صناعة الحرير والأطلس والمنسوجات الحريرية في فارس ودمشق صناعة الابريسم بمرو وطبرستان، صناعة الروائح العطرية بنيسابور صناعة الزجاج والصابون والخزف بالبصرة وبغداد(*) ومصر، صناعة الورق في مصر وسمرقند، صياغة الذهب والفضة في مصر وبغداد، صناعة المراكب والسفن المقاتلة في الموانىء المصرية، كما امتازت مصر في صناعة الأدوية والعقاقير.

أما بالنسبة **للقطاع التجاري**، كان من نتيجة حرص الخلفاء العباسيين على القضاء على الثورات وتأكيد هيبة الخلافة وسطوتها أن استتب الأمن وارتبطت بغداد بكل المدن والعواصم في الشرق والغرب بطرق آمنة: شرقاً حتى بخاري وسمرقند والصين وغرباً حتى طنجة والاندلس وأوروبا وشمالاً حتى الموصل ونصيبين والقسطنطينية وجنوباً حتى ميناء عيذاب على البحر الأحمر وبلاد الزنج وميناء عدن وزنجبار

(*) كان ببغداد (٤٠٠٠ مصنع لصناعة الزجاج) ٣٠٠٠٠ مصنع لصناعة الخزف (انظر: أطلس الفنون لزكي محمد حسن).

وأصبح كل من البحرين الأبيض والأحمر بحيرة إسلامية، وكانت الصناعات من الأندلس والمغرب ومصر والشام تحمل إلى أسواق الشرق، كما كانت مصنوعات الشرق تسوق داخلياً في أسواق الشام ومصر والمغرب والأندلس. كما أدت الاتصالات الدولية إلى فتح الأسواق العالمية ووصلت المنتجات والبضائع العربية إلى الصين وأوروبا وكانت نموذجاً لدولة موفورة الرخاء والثروات حاشدة بالخبرات والكفايات.

أسفر هذا النشاط التجاري العظيم عن ظهور طبقة بورجوازية من التجار الأثرياء في جميع عواصم الدولة الإسلامية تنفق عن سعة في بناء الدور والقصور وتظهر عمائرها في بغداد وسامرا ودمشق والفسطاط وقرطبة.

كان من أثر هذا الرخاء الاقتصادي أن نمت موارد الخلافة وزادت إيرادات بيت المال من الخراج والمكوس على التجارة المزدهرة والعشور حتى أصبح خلفاء العصر العباسي الأول أغنى الملوك الذين عرفهم التاريخ القديم فأسسوا المدن الجديدة الرائعة أمثال بغداد وسامرا وبنوا الدور والقصور المتسعة الفخيمة تتسع(*) لقاعة العرش ومجالس السلام الخاصة بالضيافة والاستقبالات ومقاصير الحرم (النساء) وحجرات للآلاف من الخدم والحشم والغلمان والحرس وموظفي القصر. إلى جانب البساتين والحدائق الظليلة ويحيط بكل هذا سور مرتفع به بوابات لها حراس.

مدينة سامرا

سامرا أو (سر من رأى) هي العاصمة الثانية بعد بغداد للخلفاء العباسيين في العصر العباسي الأول وقد أسسها المعتصم عام ٢٢١هـ على الضفة الشرقية لنهر دجلة شمال بغداد بحوالي ١٠٠ كيلومتر حيث انتقل إليها هو وجنده من الأتراك. بعد أن ضاق بترفهم وتهورهم أهل بغداد وجعل المعتصم خطط سامرا قسمة بين طوائفهم وأقطع القطائع لرؤسائهم وبنى لنفسه قصرا عظيم الاتساع على شاطىء دجلة يدعى

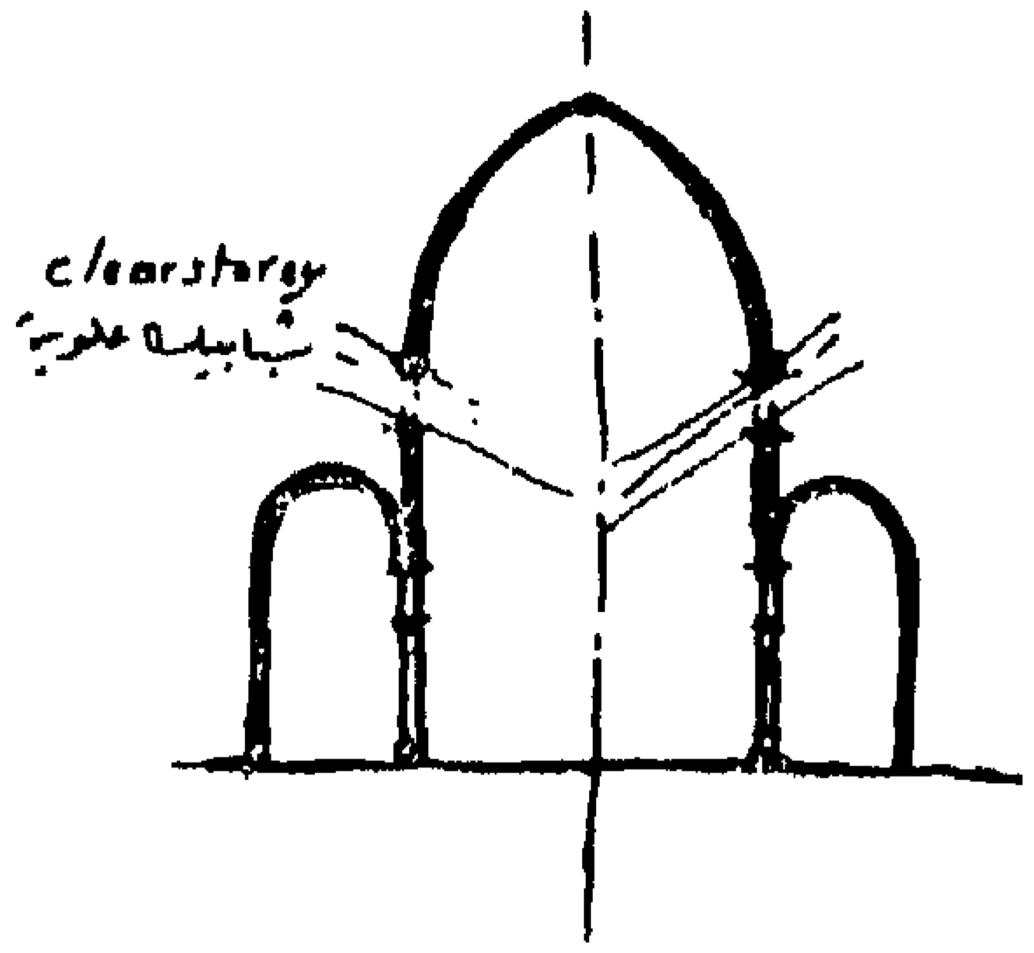

□ قطاع في القاعة البازيلكية حول قاعة العرش.

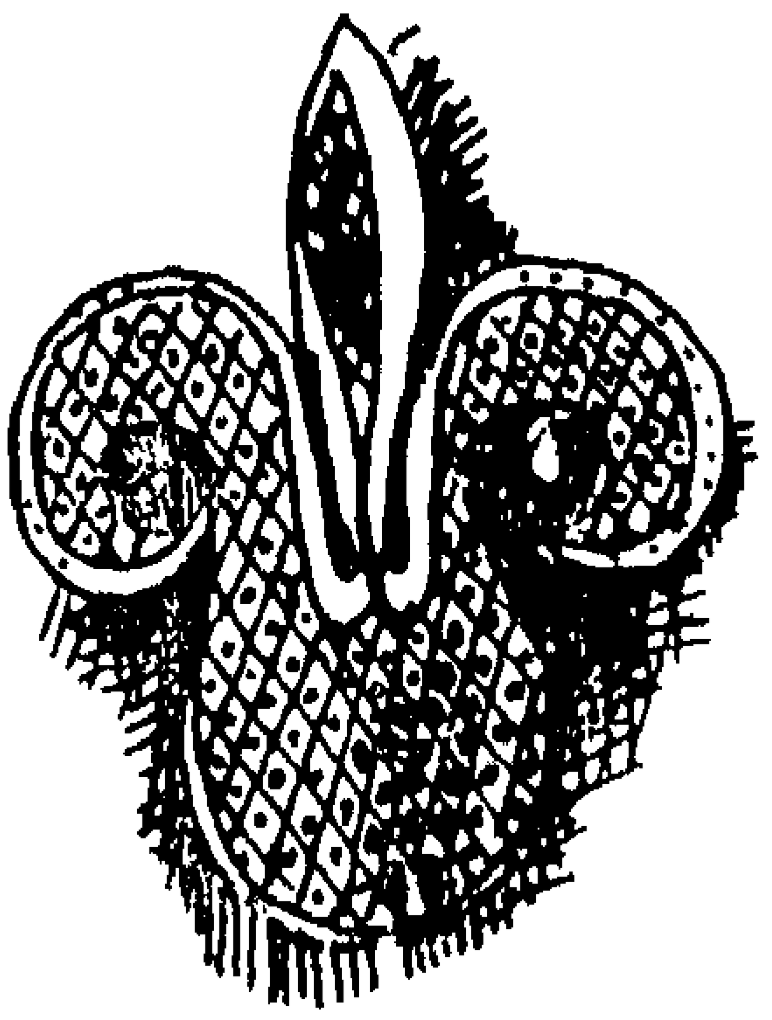

□ ورقة كاسية طراز سامرا الأول.

«الجوسق الخاقاني» هو محل بحث هذه المقالة. وما لبثت سامرا أن اتسعت عمارتها وانتقل إليها من بغداد طوائف الصناع والتجار وازدهرت أسواقها مما كان له أثر كبير على عمران بغداد ونشاطها الاقتصادي. وقد ظلت سامرا عاصمة للدولة خمسين عاماً سكن فيها ثمانية من الخلفاء هم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل ثم المنتصر محمد بن المتوكل ثم المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم ثم المعتز أبو عبدالله بن المتوكل ثم المهتدي محمد بن الواثق ثم المعتمد أحمد بن المتوكل أي من عام ٢٢١هـ حتى حوالي ٢٧١هـ.

(*) بلغت جملة موارد الرشيد من الخوارج فقط حوالي ٥٣٠ مليون درهم (انظر: د. حسن احمد محمود في كتابه العالم الاسلامي في العصر العباسي، ص ٢١١).

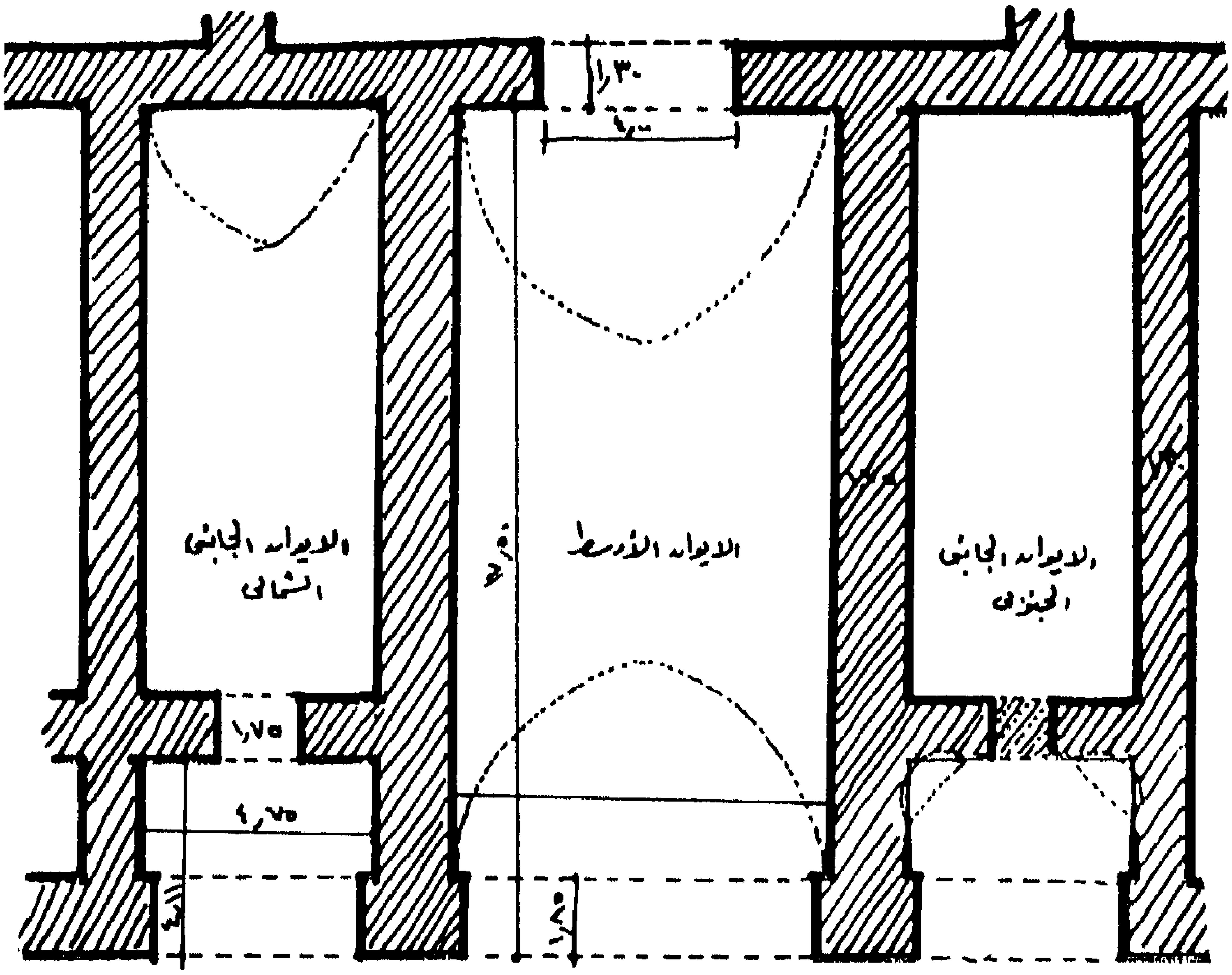

□ المسقط الأفقي لمدخل باب العامة.

وصف عام لقصر المعتصم العباسي بسامرا

يطلق عليه اسم «**الجوسق الخاقاني**» وقد كان العالم الأثري فيوليت أول من اكتشفه عام ١٩٠٧م وأول من كتب عنه ثم أكمل العالمان الأثريان الألمانيان زره وهرتزفلد (Sarre and Herzfeld) حفرياته وكشفوا عن أنقاضه كلها ويعتبر كتابهما عن حفريات سامرا أهم مرجع بالنسبة لهذا الموضوع.

أقام المعتصم القصر على الضفة الشرقية لنهر دجلة، والقصر بملحقاته يشغل مساحة كبيرة جداً تبلغ ٣٧٥ فداناً يحيط بها سور، منها ١٧٥ فداناً عبارة عن بستان واسع ظليل يطل على النهر بأشجاره وبركه وجداوله ونافوراته وممراته وخمائله.

والمدخل الرئيسي للقصر يقع في الجهة الغربية في وسط السور الغربي مشرفاً على النهر، ولا زالت آثاره قائمة حتى الآن ويسمى «باب العامة».

وبمتابعة السير على محور هذا المدخل الغربي نحو الشرق يمر الداخل بدهليز المدخل الخاص وهو فناء مربع للاستقبالات تتوسطه نافورة وتحيط به من كل جهة ثلاث صالات لاستقبال الزائرين، وإلى الشمال من هذا الفناء يوجد **جناح الخليفة** وهو مكون من غرف كثيرة مصممة حول ثلاثة أفنية.. وإلى الجنوب من الفناء الخاص يوجد **جناح الحريم** بأفنيته وحجراته الكثيرة.. فإذا عبرت هذا الفناء الخاص شرقاً وجدت قاعة تؤدي إلى ساحة شرف طويلة حوائطها الشمالية والجنوبية بسيطة المظهر أما واجهتها الشرقية فعبارة عن ثلاثة عقود جميلة هي مداخل قاعة العرش يليها القاعة الشرقية فالساحة الشرقية الكبيرة فميدان الصوالجة (البولو) كما يوجد بالقصر بركة كبيرة للمياه (يطلق عليها السرداب الكبير) وبيت المال

(أو خزائن المال) وثلاثة مساجد وثكنات للجند والحرس.

وفيما يلي سنتابع شرح بعض العناصر المذكورة واحداً واحداً بشيء من التفصيل والتحليل.

باب العامة

هو المدخل الغربي والرئيسي للقصر من جهة الحديقة المطلة على النهر.. ولما كانت مباني القصر مبنية على ربوة مرتفعة حوالي ١٧,٠٠م عن مستوى الحديقة فإن المدخل والتراس الذي أمامه يظهر مشرفاً من عل على الحديقة وحوضها الكبير المربع أسفله وهو حوض مربع طول ضلعه ١٢٧م ويقع في محور المدخل الغربي ولكن في مستوى الحديقة ويوجد سلم عظيم فخيم بعرض حوالي ٦٠ متراً وطول حوالي ٦٠ متراً محصوراً بين الحوض الكبير والسور الغربي ويرتفع تدريجياً إلى التراس على ارتفاع ١٧ متراً أمام باب العامة.

وتتكون واجهة المدخل من ثلاثة عقود ضخمة ارتفاعها حوالي ١٢م والمدخل نفسه مكون من ثلاث قاعات مغطاة بأقبية متوازية الأوسط منها عبارة عن إيوان كبير عرضه ٧,٨٦م وعمقه ١٧,٥٠م يفتح بكامل عرضه على التراس المطل على نهر دجلة وفي الحائط الخلفي لهذا الإيوان الكبير يوجد باب ٤,٠٠ × ٧,١٠ مغطى بعقد من الطوب وفوقه شباك.. أما الإيوانان اللذان على الجانبين فعمقهما ٤,١١م وكل منهما مغطى بنصف قبة محمولة على محاريب ركنية (Squinches). ويتكون المحراب لركني من جزء سفلي نصف أسطواني مبني من الطوب في مداميك أفقية مستمرة مع سير المداميك من المحرابين الركنيين، ثم يعلو هذا الجزء الأسطواني نصف قبة مبنية من حجار صغيرة من الدبش (Rubble) وذلك لصعوبة إنشاء عقود صغيرة بطوب ذي أسطح مستقيمة. وهذه المحاريب الركنية لا تحول نصف المربع إلى نصف مثمن مضبوط ولكن الجزء المحصور بينها يرتفع بانحناء ليقابل جوانب المحاريب كما في «فيروز آباد» «وسرقتان».

وكل من الإيوانين الجانبين أقل في الارتفاع من الإيوان الأوسط بحوالي متر إلا أن الحجرتين التي خلفهما بنفس ارتفاع الإيوان الأوسط ولا توجد فتحة بين هذا الإيوان والإيوانين الجانبيين. وهناك ما يدل أن كلاً من هذين الإيوانين الجانبيين كان مكوناً من دورين يفصلهما سقف من الخشب.

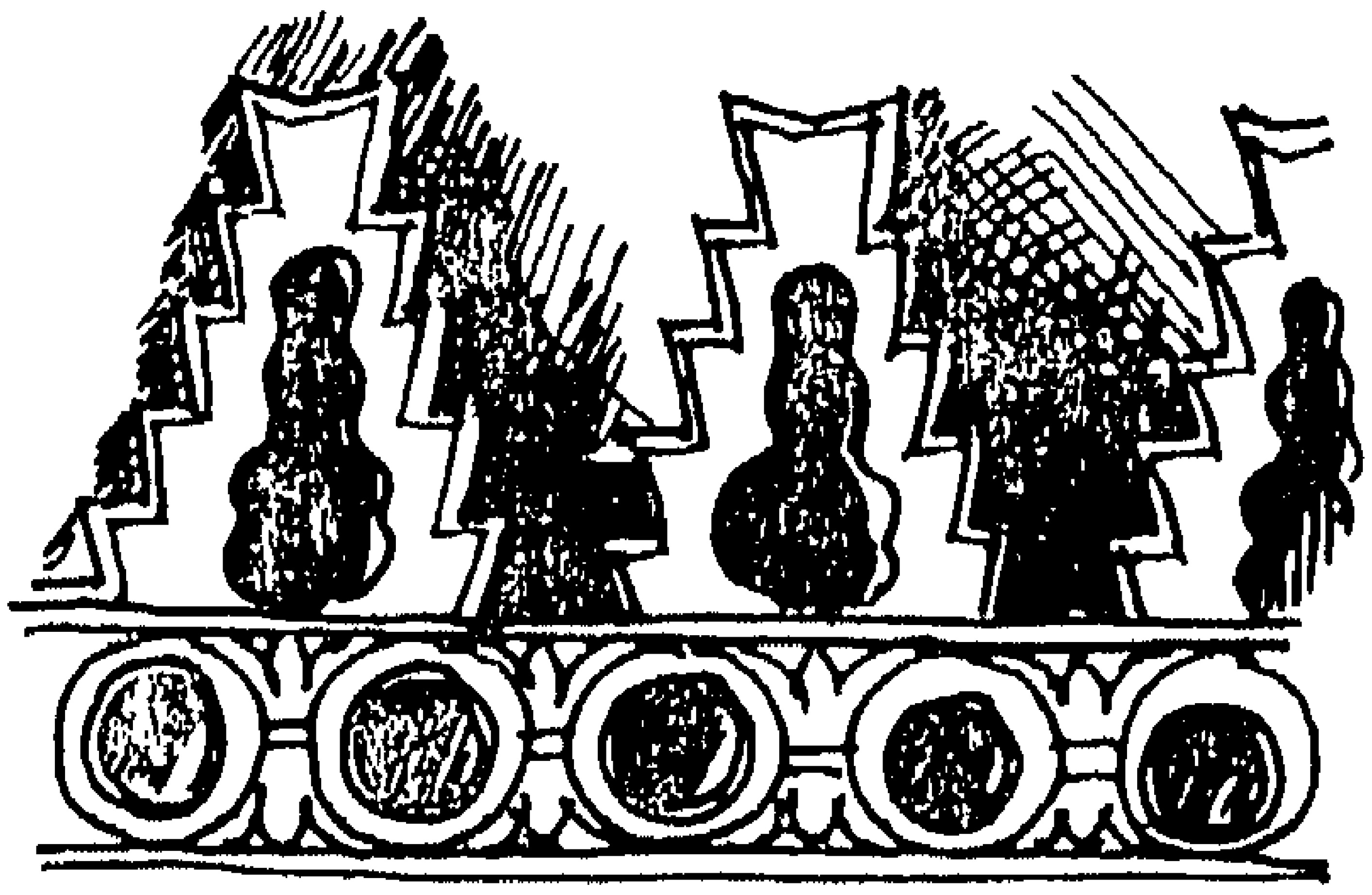

□ الشرفات المسننة (Cresting).

توجد زخارف جصية على الجدران الداخلية للإيوانات وكذلك على خط المنحنى الداخلي للعقد الكبير (Intrado) عبارة عن أشرطة من الزخارف النباتية المتداخلة مكونة من فرعين صاعدين من اللفات المستمدة من الدوائر (كل دائرة تحتوي على ورقة عنب) تحصر بينهما شريطاً وسطاً به مجموعة من وريدات متتابعة (Rosettes). وداخل الإيوان وجدت بقايا زخارف جصية للسفل مكونة من مثلثات على شكل سبعة وثمانية متتابعة، قريبة الشبه بالزخارف الحجرية المماثلة في قصر المشتى إلا أن الوحدة الزخرفية هنا المكررة في المثلثات عبارة عن وردة ذات ستة فصوص.

وفي أعلى الحائط يوجد كورنيش جميل عند بداية العقد مكون من زهرة كأسية كبيرة ذات ثلاثة فصوص وحلزونات تكررت بالتبادل مع زهرة كأسية صغيرة مماثلة ولكن بدون حلزونات.

ويلاحظ أن الطراز المستعمل في هذه الزخارف الجصية هو المسمى الطراز الأول في تقسيم كريزويل لزخرف سامرا الجصية.

دهليز المدخل وفناء الاستقبال الخاص

يمر الداخل من الإيوان الأوسط لباب العامة بين ست قاعات متتابعة، يوجد خلفها عدة غرف ثانوية. ووجد بهذه القاعات أشكال مزخرفة من

الجص وألواح خشبية مزخرفة ساقطة من السقف.

ويدخل الزوار المغربون من ذوي المكانة الخاصة من الإيوان الجانبي الشمالي لباب العامة إلى بهو طويل تفتح عليه حجرات كثيرة يؤدي في نهايته إلى فناء الاستقبال الخاص. أما الإيوان الجانبي الجنوبي من باب العامة فيؤدي إلى جناح الحريم خلال طرقتين طويلتين.

بعد أن يمر الداخل بالقاعات المتتابعة الست يصل إلى «فناء الاستقبال الخاص» وهو فناء مربع الشكل به فسقيه ومحوط من كل جهة بثلاث قاعات لاستقبال الزائرين وإلى الشمال من الفناء يوجد جناح الخليفة وهو مكون من عديد من الحجرات مجمعة حول ثلاثة أفنية.

وإلى الجنوب من الفناء يوجد جناح الحريم بحجراته الكثيرة المجمعة حول أفنية كثيرة.

وإذا تابع الزائر سيره شرقاً في اتجاه محور المدخل وجد بعد فناء الاستقبال الخاص قاعة أمامية تؤدي إلى ساحة شرف طويلة واجهاتها الشمالية والجنوبية والغربية عارية بدون زخرف بينما تظهر واجهتها الشرقية للزائر بعتودها الثلاث مؤدية إلى قاعة العرش خلفها.

الأنفاق التي تحت الأرض

يوجد هناك نفقان تحت الأرض يصلان بين غرف الخليفة وجناح الحريم.. والقصر في الحقيقة مليء بهذه الأنفاق.

وللأنفاق خاصية من خواص القصور الإسلامية، فقد وجدت في بغداد بين قصري «الحسنى والثريا» في عهد الخليفة المعتمد وكان طوله ميلين ومغطى بقبو وكان الخليفة يمر فيه من أحد القصرين للآخر مع نسائه وخدمه وحشمه، كما شوهدت الأنفاق في جهات عديدة بعد ذلك كما في القصر الغربي والقصر الشرقي الكبير في عهد الفاطميين بالقاهرة وكذلك بين القصر الشرقي وقصر اللؤلؤ في أيام الحافظ بالله والفائز الفاطمي.

قاعة العرش

هي قاعة مربعة مغطاة بقبة حولها ٤ قاعات على شكل حرف (T) من جهاتها الأربع، ويلاحظ أن القاعة على شكل حرف (T) ظهرت كثيراً في المنازل الاسلامية حتى أصبحت خاصة من خواصها (قارن ذلك بمنازل الفسطاط وبيوت الزوجات الشرعيات بقصر الأخيضر العباسي) ولكن القاعات تختلف هنا في كونها مكونة من ثلاثة أروقة متوازية يفصلها صفان من الأعمدة كما أن الرواق الأوسط أعرض من كل من الرواقين الجانبيين وسقفه أعلى من سقفهما والفرق بين السقفين مستغل وتصميم هذه القاعات يشبه إلى حد كبير للإنارة نوافذ علوية (Clerestorey Windows) تصميم صالة البازيليكا الرومانية ذي الثلاثة الأروقة.

وفي قاعة العرش وجدت قطع خشبية ساقطة من بطنية عتب الباب تشبه تماماً بطنية أحد أبواب جامع أحمد بن طولون. (طراز سامرا في الزخارف الخشبية).

وبين هذه القاعات البازيليكية الأربع على أسفالها من الرخام وكذلك مصلى للخليفة توجد حجرات صغيرة لها سفل من الجص ومحراب جميل.

جناح الحريم

يقع جناح الحريم إلى الجنوب من قاعة العرش حجرة مربعة بكامل عرض الفناء وقاعتي البازيليكا الشمالية والجنوبية.

ويبدأ جناح الحريم بقاعة بعرض القاعة البازيليكية ثم يليها إلى الجنوب فناء يدعى فناء الحريم يحده الشرق والغرب حجرات صغيرة كلها كانت مجهزة بالماء يصلها في مواسير كبيرة من الرصاص أو في أنابيب فخار زرقاء مزججة، كما توجد كذلك دورات مياه وغيرها.

ويحد هذا الفناء من الجنوب مقابلاً قاعة العرش حجرة مربعة بكامل عرض الفناء وذات تخطيط غريب فهي أولاً محاطة بطرقات من اربع جهات طول كل طرقه ٢١م. ولها أربعة أبواب في المحاور كما أن بها حوض للمياه بأركانه أربعة أعمدة رخامية من طراز مصري فرعوني، والحوض نفسه من الجرانيت المصري ويقول البروفسور هرتزفيلد انه بقية الحوض الكبير المعروض في فناء متحف بغداد.

وجدران هذه الغرفة مزينة بنقوش حائطية تحوي رسوماً لنساء يرقصن وحيوانات داخل تصميمات دائرية وحلزونية (انظر الغلاف)، كما تحوي شريطاً من رسوم لحيوانات متتابعة حوله شريطان ضيقان من الخرز على الطريقة الساسانية وأميل إلى الترجيح بأن هذه الغرفة كانت تستعمل كحمام عام لحريم القصر.

ويجب أن نذكر هنا أن ظهور رسوم الآدميين والحيوانات هنا دليل على أن الإسلام لم يحرم رسمها (إذ ليس هناك آية قرآنية أو حديث شريف يحرمها) وإنما فضل الفنان المسلم تجنب استخدامها في العمائر الدينية. وهناك مثال مشابه سابق ظهرت فيه رسومات ملونة لآدميين وحيوانات على جدران حمام «قصر عمرة» في العصر الأموي.

الساحة الشرقية الكبيرة

يلي القاعة البازيليكية الشرقية شرقاً قاعة مستطيلة مقاسها ٢٨,٠٠م × ١٠,٤٠م من الداخل تفتح من الشرق على الساحة الكبيرة بواسطة خمسة أبواب.

والساحة الكبيرة عبارة عن فناء كبير مقاسه ٣٥٠ × ١٨٠م مقسوم بواسطة قناة أو مصرف إلى قسمين: قسم في الغرب مرصوف ببلاطات ومزخرف بناقورتين وقسم شرقي غير مرصوف وتقطعه عدة مصارف صغيرة. والجدران المحيطة بالساحة مقسمة إلى بانوهات (Panels) تعلوها شرفات مسننة (Cresting).

السرداب الصغير

يلي الساحة الكبيرة شرقاً السرداب الصغير ويقع على المحور الرئيسي للقصر. ومدخله عبارة عن حجرة مربعة على جدرانها يوجد كورنيش أساس زخرفته جملان ذو سنامين من الجص الملون. وبهذا المدخل توجد نافورة مستديرة وكذلك توجد السلالم التي تؤدي إلى أسفل إلى السرداب نفسه. وهو عبارة عن تجويف مربع في الصخر طول ضلعه ٢١م وعمقه ٨ متر وفي كل جوار من الحفرة توجد ثلاثة كهوف متصلة بواسطة ممرات بينها. وكان يعلو هذا السرداب حوض مياه، ويلي السرداب شرقاً فناء مربع.

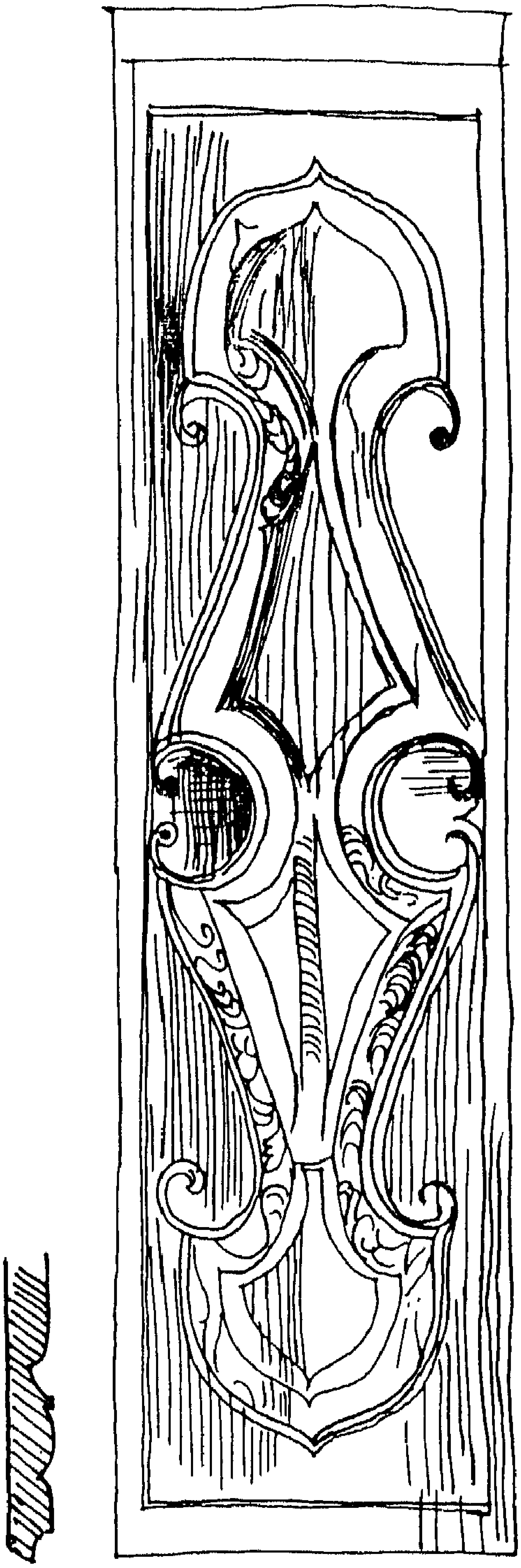

□ بطنية عتب باب من الخشب بالجوسق الخاقاني.

ومجموعة السرداب (بما حوله من حجرات تحيط به من الأربع جهات) تفصل بين فناءين متماثلين في كل منهما يوجد مبنى يتكون من قاعة بازيليكية على شكل حرف (T) حولها بضع حجرات ــ والحجرات التي تحيط بالسرداب عبارة عن صفين طويلين متوازيين من الحجرات يظن أنها كانت تستعمل كإسطبلات.

ميدان الصوالجة (البولو)

يلي الفناء المربع شرقاً ملعب الصوالجة وهو ميدان مستطيل واسع محاط بسور ومقاسه ٥٣٠م × ٦٥م ومحور مائل بزاوية على المحور الرئيسي للقصر. وفي منتصف الضلع الشرقي للفناء يجلس فيها المتفرجون. ويقابل شرفة المتفرجين شرفة أخرى عالية بجانبها تطل من جهة على ملعب البولو ومن الجهة الأخرى على مكان سباق الحيوانات (الحير) وطريق سباق الحيوانات هذا يبلغ طوله ٥ كيلو متر ويتلاشى في البعد.

وتوجد اسطبلات لخيل البولو ولبغاله.

وبوصول الزائر إلى مكان مشاهدة سباق الحيوانات يكون قد وصل إلى نهاية القصر من الشرق وبذلك يكون قد عبره من الغرب حيث باب العامة إلى أقصى الشرق حيث شرفة المتفرجين سائراً مسافة ١٤٠٠م.

ويقول الطبري: «إن لعبة الكرة والصولجان» كانت معروفة في بلاد الفرس قبل الميلاد بأربعة قرون في زمن الملك داود الثالث وازدهرت هذه اللعبة أيضاً منذ زمن قديم في بلاد التبت والهند.

ولا يعرف بالضبط في أي البلاد نشأت إلا أننا نرجح أن العباسيين في العراق قد أخذوا هذه اللعبة عن بلاد فارس ومن العراق انتقلت إلى مصر على يد أحمد بن طولون الذي نشأ في سامرا ــ فقد أنشأ في قصره بميدان الرميلة ميداناً كبيراً للعب الصولجة.

السرداب الكبير

مجموعة من السرداب الكبير عبارة عن مربع ١٨٠م في ١٨٠م محاط بسور أضلاعه الشمالية والشرقية والغربية جدران فسحته بها أبراج أما الضلع الجنوبي فهو نفسه الجدران الشمالية للساحة الكبيرة. والركن الجنوبي الغربي لهذا المربع يلاصق جناح الخليفة الشمالي إلى يسار قاعة العرش. أما السرداب نفسه فهو عبارة عن فجوة عميقة في الصخرة مقاسها ٨٠ في ٨٠م تحيط بها مجموعة من الحجرات الصغيرة من جهاتها الأربع وداخل هذه الفجوة المربعة توجد فجوة أخرى مستديرة قطرها ٧٠م ويعتقد أن هذه الأخيرة كانت حوضاً للمياه إذ يجري من تحتها قناة تصريف تحت الأرض.

والحجرات الصغيرة المذكورة التي تحيط بسور السرداب من جهاته الأربع مسقوفة بأقبية متقاطعة وقد وجد داخل هذه الحجرات سيراميك بأقبية صيني ومواد للرصف وبلاطات ذات بريق معدني ــ وإلى الشرق توجد مجموعات مختلفة من المباني على طول الجدار الشمالي.

خزائن المال

ــ إلى الشمال من السرداب الكبير توجد مساحة مستطيلة التخطيط يحيطها عدة صفوف من جدران سميكة لها أبراج. ويعتقد أن هذا المكان هو خزائن مال القصر (كنز القصر) والصفوف الطويلة من الحجرات ــ المتشابهة توحي بأن هذه الحجرات كانت مخازن المال والذهب والجواهر.. وربما استعملت (في مرات أخرى أيام ثورات جند الترك التي طالما وقعت في القصر) كخزائن للأسلحة، ويمكن التعرف على مسكن مدير مخازن الأسلحة بسهولة.

ــ وإلى الشرق توجد عدة مباني ذات أفنية وحجرات لم يمكن حتى الآن فهم وظيفتها تماماً. من بينها مبنى مستقل في فناء ووضعه منحرف بعض الشيء عن اتجاهات جدران القصر. وهو أيضاً مقام على أعلى نقطة في الموقع كله ويمكن الاستنتاج بأنه أحد المساجد المهمة بالقصر.

ثكنات الجند

تقع إلى الشمال الغربي لخزائن المال ويرجح أن بعض هذه الثكنات كانت لاستعمال المشاة والبعض الآخر لاستعمال الفرسان (Cavalary)

ويوجد بجانب الأخيرة فناء كبير للتدريب (فناء العسكر).

المساجد

وفي فناء العسكر توجد ٣ مساجد محاريبها منحرفة الاتجاه للتوجيه الصحيح للقبلة ويرجع أن سبب ذلك لكي يتجه جدران هذه المساجد مع اتجاه الجدران الرئيسية للقصر ونظراً لارتفاع مكان فناء العسكر والثكنات فهي تشرف على كل من القصر والبستان وضفاف نهر دجلة.

نظرة عامة

غني عن البيان أن قصراً بهذه الضخامة والفخامة المذهلة لا يتكرر مثيله كثيراً في العالم عبر كل العصور والحضارات المزدهرة وهو وحده يعبر عن غنى موفور ومجتمع راق متحضر كما يعبر عن كفاءة عالية في فن التصميم والبناء والفنون التشكيلية فالمبنى مع تعدد وكثرة عناصره ومبانيه وقاعاته يعبر عن وحدة مذهلة في التصميم لا تأتي إلا لمهندس معماري عبقري وقد حصر هرتزفيلد عدد حجرات القصر وقاعاته بالتقريب فوجدها ٦٠٠ (ستمائة حجرة بين قاعة كبيرة وحجرة صغيرة) تكفي تقريباً لاسكان ٣٠٠٠ شخص.

الآثار التي عثرت عليها بعثة هرتزفيلد

— يقول هرتزفيلد إن فخامة وروعة الزخارف التي في القصر منسجمة ومتكاملة كل التكامل مع التكوين المعماري لتصميم القصر بصورة لا يمكن أن نراها في أي مكان آخر.

كانت أسفال الجدران في كل مكان مزخرفة بزخارف جصية من بينها توجد قطع يصل تاريخها إلى العصر الأول للعصر أي عصر المتوكل والبعض الآخر ينسب إلى أواخر أيام سامرا.

والزخارف الجصية هنا إما هندسية أو نباتية، يظهر في أقدمها رسوم لعناقيد عنب وأوراقها، ولا تبعد أشكالها عن العناقيد والأوراق الطبيعية في شيء وتظهر فيها التأثيرات الهلنستية واضحة، وهذا الطراز الأول من طراز سامرا للزخارف الجصية أما الطراز الثاني فرسوماته محورة عن الطبيعة ومتطورة بحيث أصبحت تكمل بعضها واختلفت طريقة الحفر هنا في هذا الطراز فأصبحت الأرضية التي تفصل العناصر عن بعضها خطوطاً عميقة فقط وانعدم التجسيم وأصبحت العناصر مسطحة أما الطراز الثالث فيتميز بانعدام الأرضية كلية وبالقطاع المشطوف والعناصر المحورة المبسطة مما يسهل عملها بواسطة الصب في قوالب.

— ولقد كان لزخارف سامرا الجصية صدى في مصر وخاصة في زخارف مسجد ابن طولون الجصية في بطنية عقوده وواجهاتها وكشوتها، وتحت شريط الكتابة الكوفي بأعلى الجدران توجد عدة نماذج من زخارف جصية بديعة منقولة عن طراز سامرا الثاني والثالث، كما يوجد ببطنية (Soffit) أعتاب مداخل هذا المسجد نماذج من صناعة الحفر على الخشب تشبه ما عثر عليه في قصر الجوسق الخاقاني بسامرا وهي تتبع الطراز الثالث.

— إلى جانب ذلك توجد نماذج جميلة من الزخارف الجصية بالدير السرياني بوادي النطرون تشبه زخارف سامرا وهي تهم المشتغلين بدراسة الفنون الإسلامية.

— وقد وجد في حجرة العرش أسفال من الرخام. والجزء العلوي من جدران الحريم كان مزخرفاً برسم الافريسك الملون لراقصين وراقصات.

— وفي صالات المعيشة وجدت قطع محدبة من الزجاج على أشكال مختلفة.

— وكل الخشب المستعمل في الأبواب والأعتاب والكمرات كان من خشب صلب هو (Teak Wood) والزخارف المحضورة على الخشب من الطراز الثالث محفورة وملونة وبعضها مذهب ويزيد من جمالها استعمال عنصر زخرفي جديد هو المسامير (Stads) من الحديد المشغول أو البرونز المذهب.

— وجدت كذلك مجموعة كاملة من آنية مقفلة تماماً على شكل اسطوانات ومكسوة بطبقة من الجص ومعروضة إلى جانب صور لسيدات ورجال في ملابس مختلفة محاطة بإطار من جانب واحد وربما كانت هذه الصور صور شخصية، وإلى جانب ذلك كانت توجد استكشات لزخارف

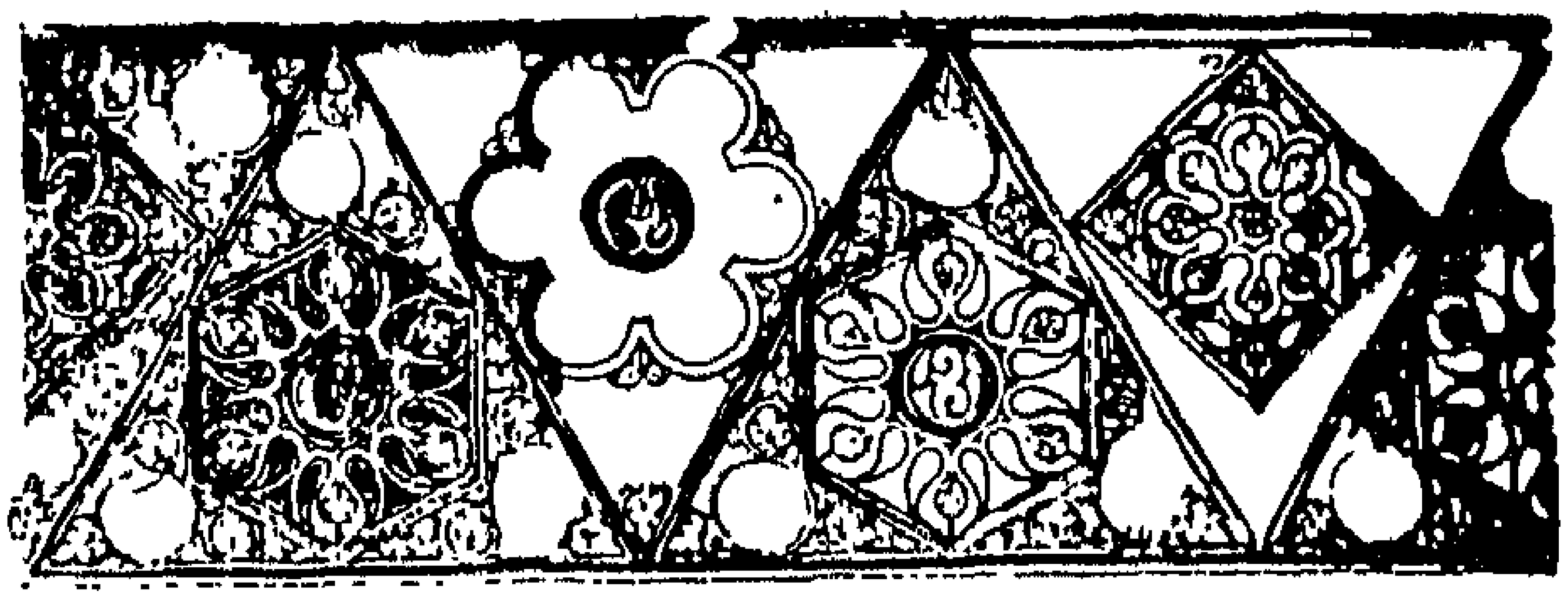

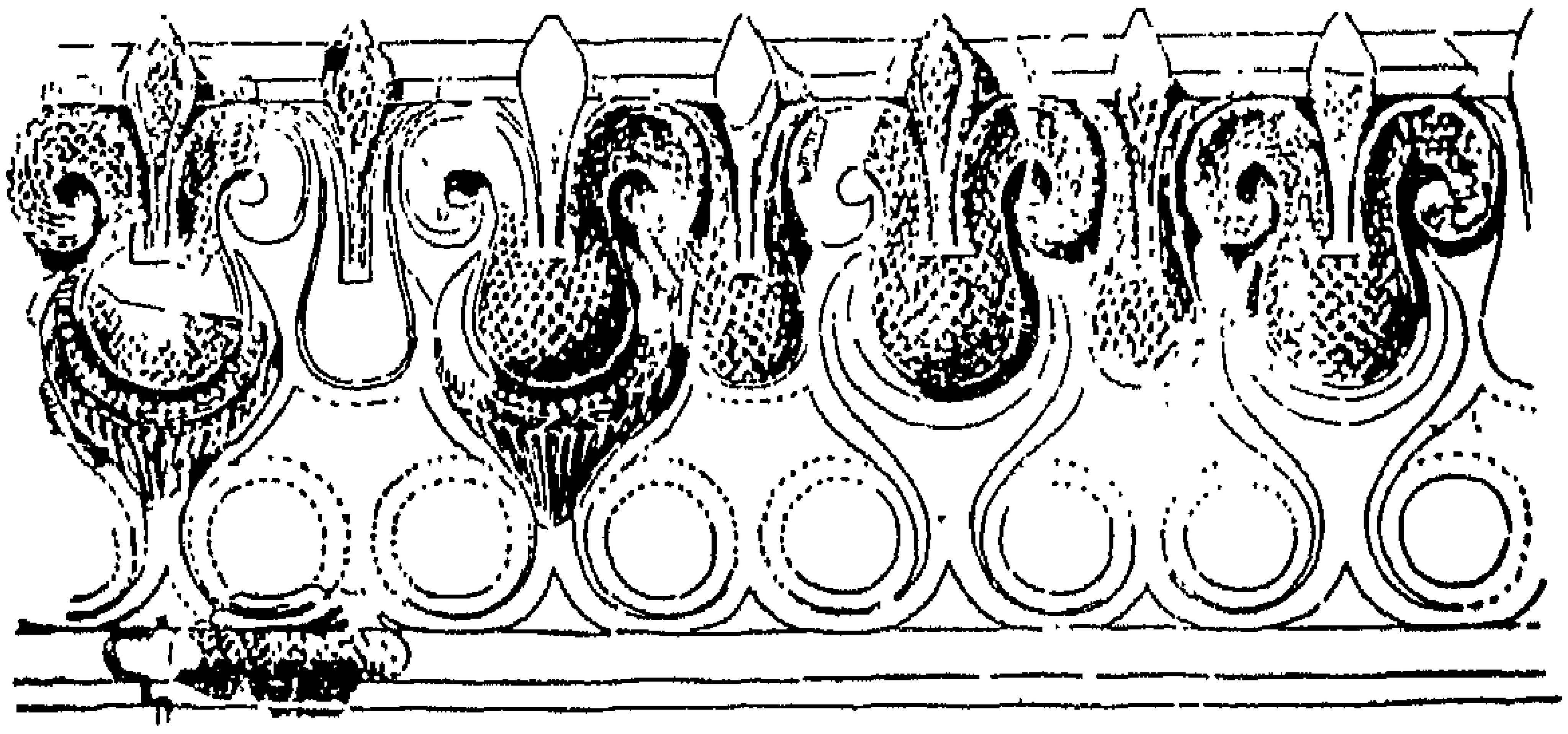

□ بعض الزخارف البارزة بمدخل قصر الخليفة المعتصم بسامرا (عن هرتزفلد).

على بقايا جص وبلاطات وقطع من الرخام وقطع من مفروشات البيت.

ــ وتوجد كذلك بقايا خطوط كتابية على الكمرات الخشبية وإمضاءات كثيرة للصناع اليونانية والسورية والعربية وبقايا قطع من قماش عليها كتابة من طراز الخليفة المعتمد.

ــ ووجدت كذلك بعض كتابات على ورق البردى الحكومية.

الأصول المعمارية

١ ــ **الواجهة ذات الثلاثة عقود** نجدها قبل ذلك في:

● خراساباد ٧٢٠١ ــ ٧٠٤ق. م.

ثلاث قاعات طويلة مغطاة بأقبية تنتهي بأبواب عرضية.

● القصور الساسانية ٢٢٨م ــ ٦٢٨م.

(طيسفون ــ فيروز اباد ــ سارقستان ــ قصر شيرين).

(وتحوي على بقبات مغاة صالات على حنايا ركنية Squinches كذلك).

حيث القبو الأوسط أكثر اتساعاً وعلواً من القبوين الجانبين ــ وفي بعض هذه القصور يكون محور قبو الأوسط اتجاهه عمودياً على اتجاه القبوين على الجانبين كما في طيسفون وفيروز اباد.

ويقول هرتزفيلد إنها ظاهرة رومانية متطورة من قوس النصر الروماني والقاعات البازيليكية ذات الثلاثة أروقة التي انتشرت بعد ذلك في الشرق الأدنى.

● اتجاه الإيوانين الجانبين موازياً ــ لاتجاه الإيوان الأوسط ظهر لأول مرة في هاترا (القرن الثاني الميلادي) وفي سرقستان في القرن ٥م. ثم في البيوت الأربعة للزوجات الشرعيات بقصر الأخضير العباسي النصف الثاني من القرن ٨م.

٢ ــ **النقوش الحائطية** ظهرت حلقات ورق الكنكر (Acanthus) الحلزونية المتكررة التي يخرج من بعضها قبل ذلك في قبة الصخر ولكنها في القبة أقرب ما يكون لقرون الرخاء (Corna Copia) أما مواضيع هذه الرسوم النقوش فهي

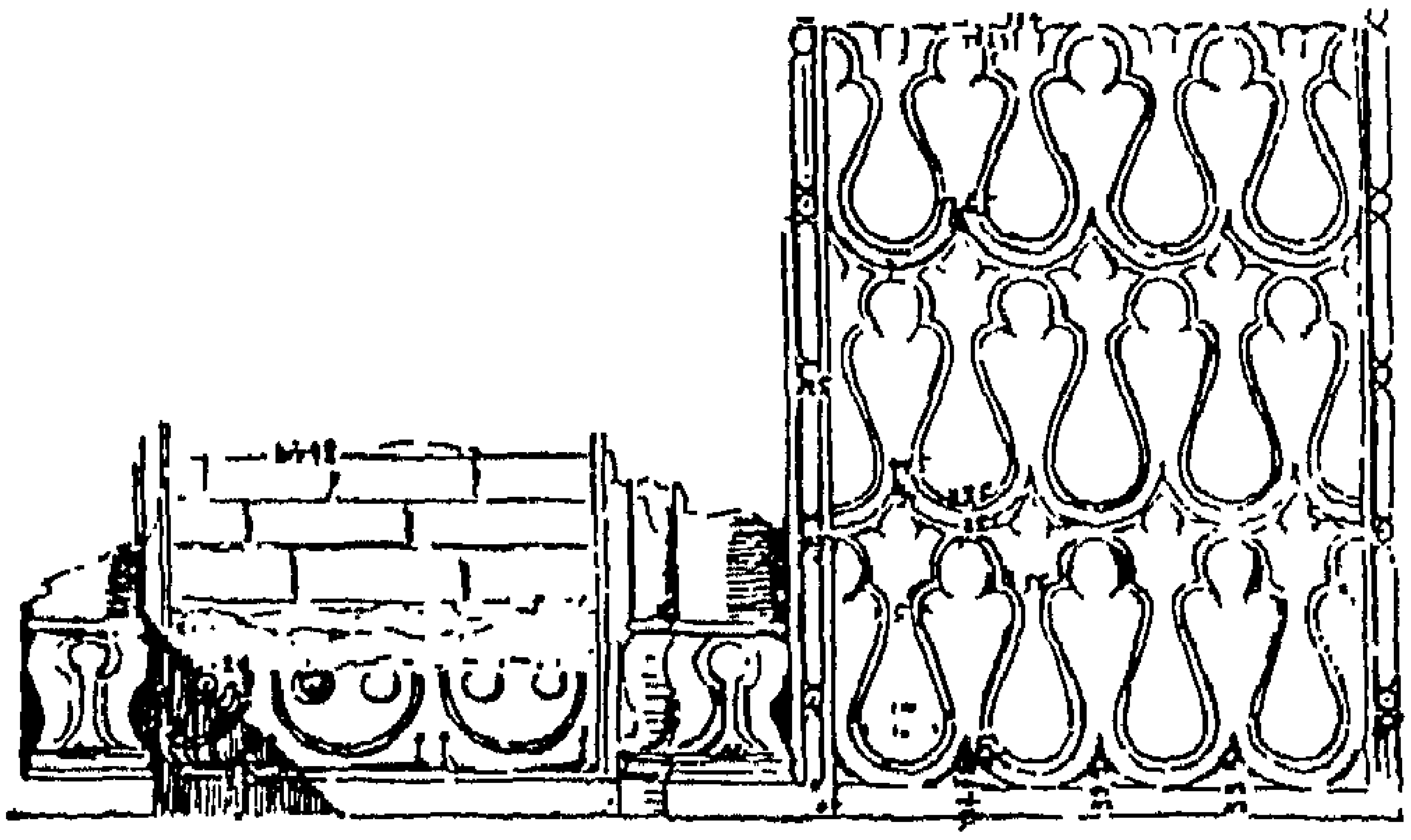

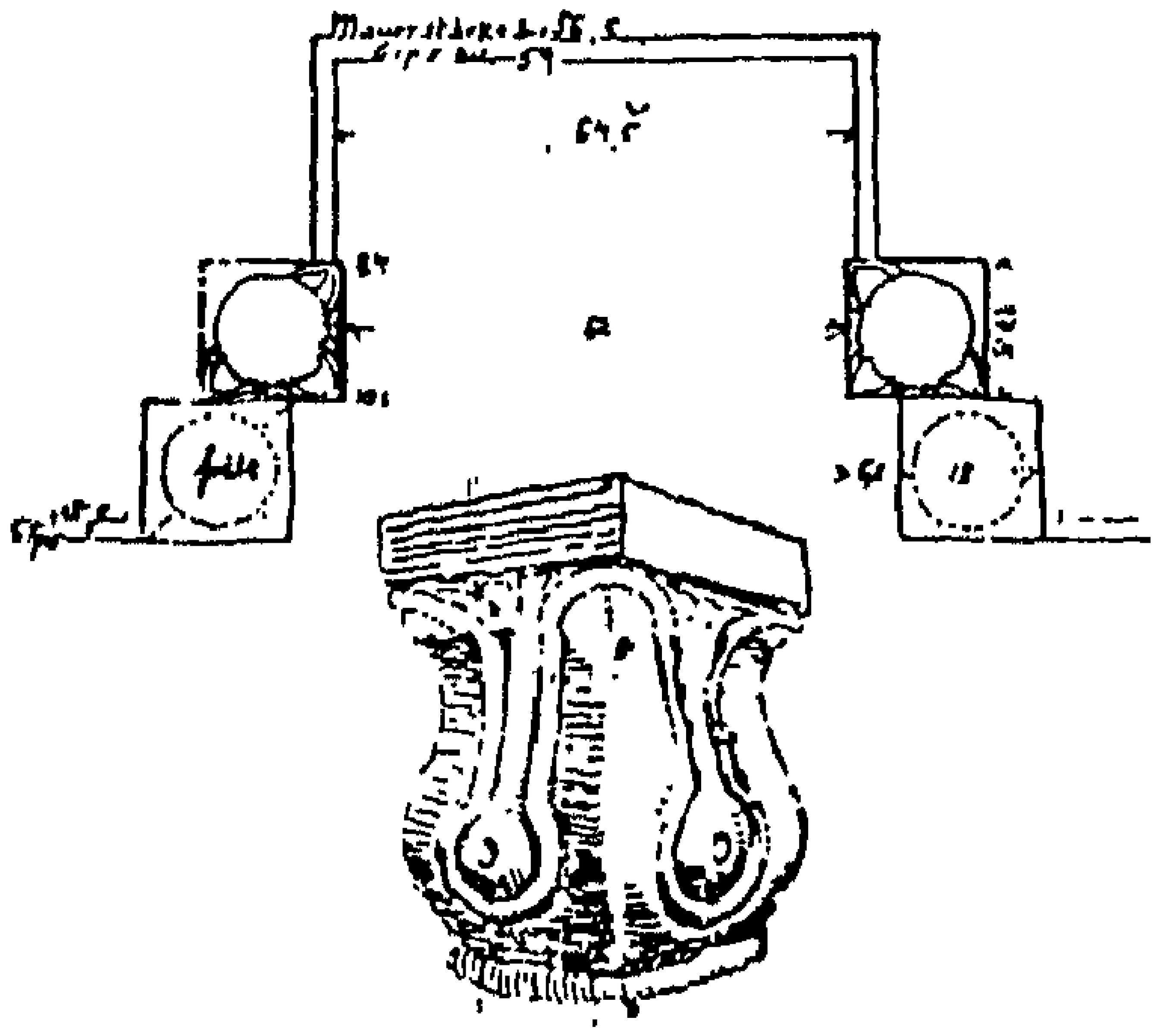

□ محراب قصر الخليفة وزخارفه الحائطية من الجص.

مناظر رقص وصيد وحيوانات وطيور وآدميين، إلخ.

والطابع الغالب على هذه النفوس التأثيرات الهلنستية.

ومن الامضاءات نجد أن الصناع كانوا مسلمين وأرمن ويونانيين (Crenelation) أعلى سور الساحة الكبرى.

الشرفات المسننة أصلها من حضارة ما بين النهرين «أسوار بابل وكلوان وفارس القديمة» نجدها في:

خراساباد في قصر سارجون ٧٢١ ـ ٧٠٥ق. م. وفي بيرسوبوليس في قصر دارا ٥٢١ق. م. ـ وفي ليرسولوليس (Per Soplis) في قصر اكرزريس الثاني ٤٠٥ ـ ٣٥٨ق. م. وقبل الاسلام نجدها محفورة في الصخر أعلى إيوان «طاق بستان»

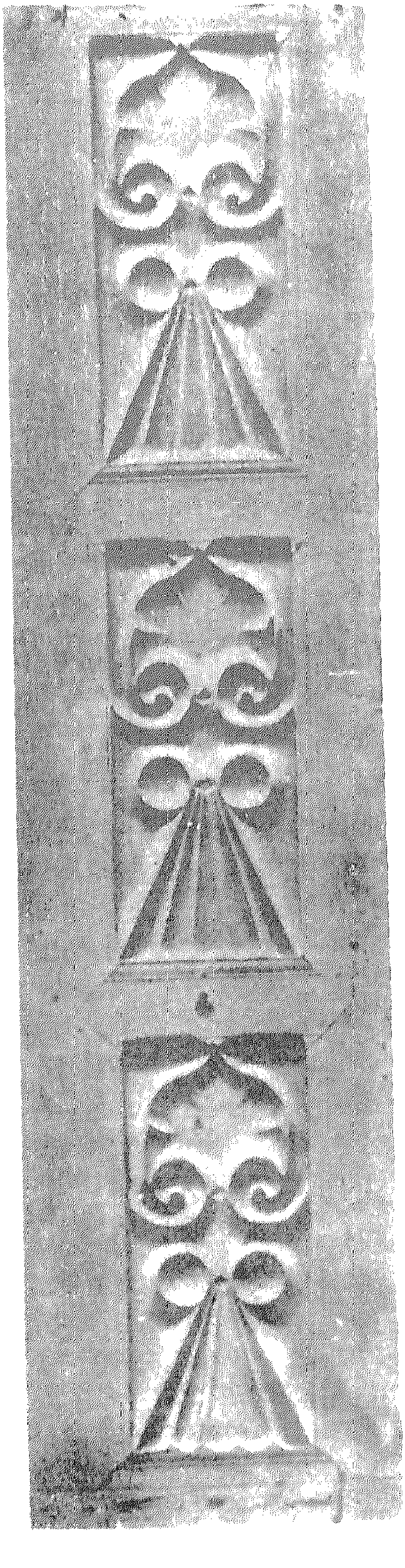

□ مثال من الزخارف الخشبية ذات القطاع المشطوف محشو احد ابواب قصر الجوسق الخاقاني بسامراء.

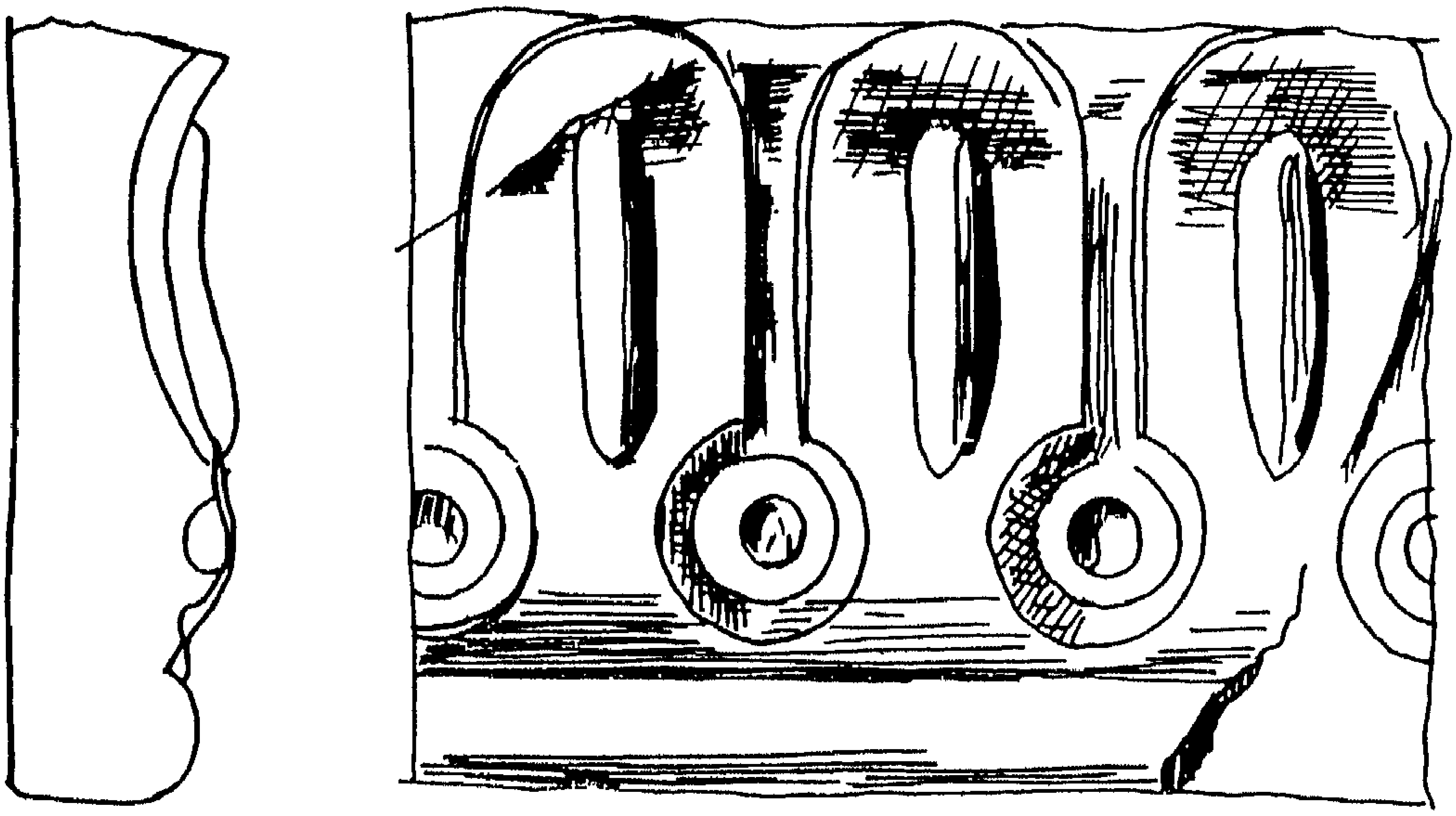

□ افريز من الرخام (طراز سامرا الثالث)

٥٩٠ ــ ٦٢٨م. ولكن في كل هذه الأمثلة السابقة كانت السنون ذات أسطح رأسية.

خاتمة

هذا عرض سريع لقصر كان منيفاً لخليفة كان سيد الدنيا، وكان عظيماً في مدينة كانت أزهى وأجمل مدن الشرق قاطبة.

في عصر كانت الدولة العربية.. «متحدة، قوية، عزيزة، منيعة غنية»، أقوى وأكبر دولة في العالم أجمع.

ذلك زمان مضى وانقضى. أين نحن منه الآن؟

فهل يعود؟

«ولا تتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين».

«وإنا لله وإنا إليه راجعون». ●

أحمد عرابي (١٨٣٩ ــ ١٩١١)

● ضابط مصري، وابن ملاح. كان ضابطاً في الجيش المصري سنة ١٨٧٩ وقد لمس عرابي آنذاك ما كان يعانيه الشعب من الظلم والاستبداد وتعطل الحياة النيابية خاصة حين فرض الغربيون إبدال الخديوي إسماعيل بابنه الخديوي توفيق وعندما توقفت مصر عن دفع ديونها في ١٨٧٦ تدخلت فرنسا وانجلترا واستلمتا الادارة. وهذا ما يفسر تحرك وأبي وجيشه في ٩ أيلول «سبتمبر» ١٨٨١ إلى قصر عابدين ومطالبة الخديوي بإسقاط الوزارة المستبدة وتشكيل مجلس نواب. ويفسر أيضاً حركة عرابي الذي نظم «الجبهة الوطنية» مع تأييد الجيش له ومنع الأسطول الانجلو ــ فرنسي من حماية الأوروبيين في الاسكندرية مما أدى إلى وقوع أعمال شغب نتج عنها احتلال المدينة من قبل القوات الانجليزية التي هزمت عرابي في تل الكبير في ١٣ أيلول (سبتمبر) ١٨٨٢ ونفته إلى سيلان إلى أن صدر العفو عنه وعاد إلى وطنه سنة ١٩٠١ حيث أمضى بقية حياته وتوفي في ٢١ أيلول (سبتمبر) ١٩١١.

صفحات من تاريخ الفنون القديمة في تركيا

قسم التوثيق والأبحاث

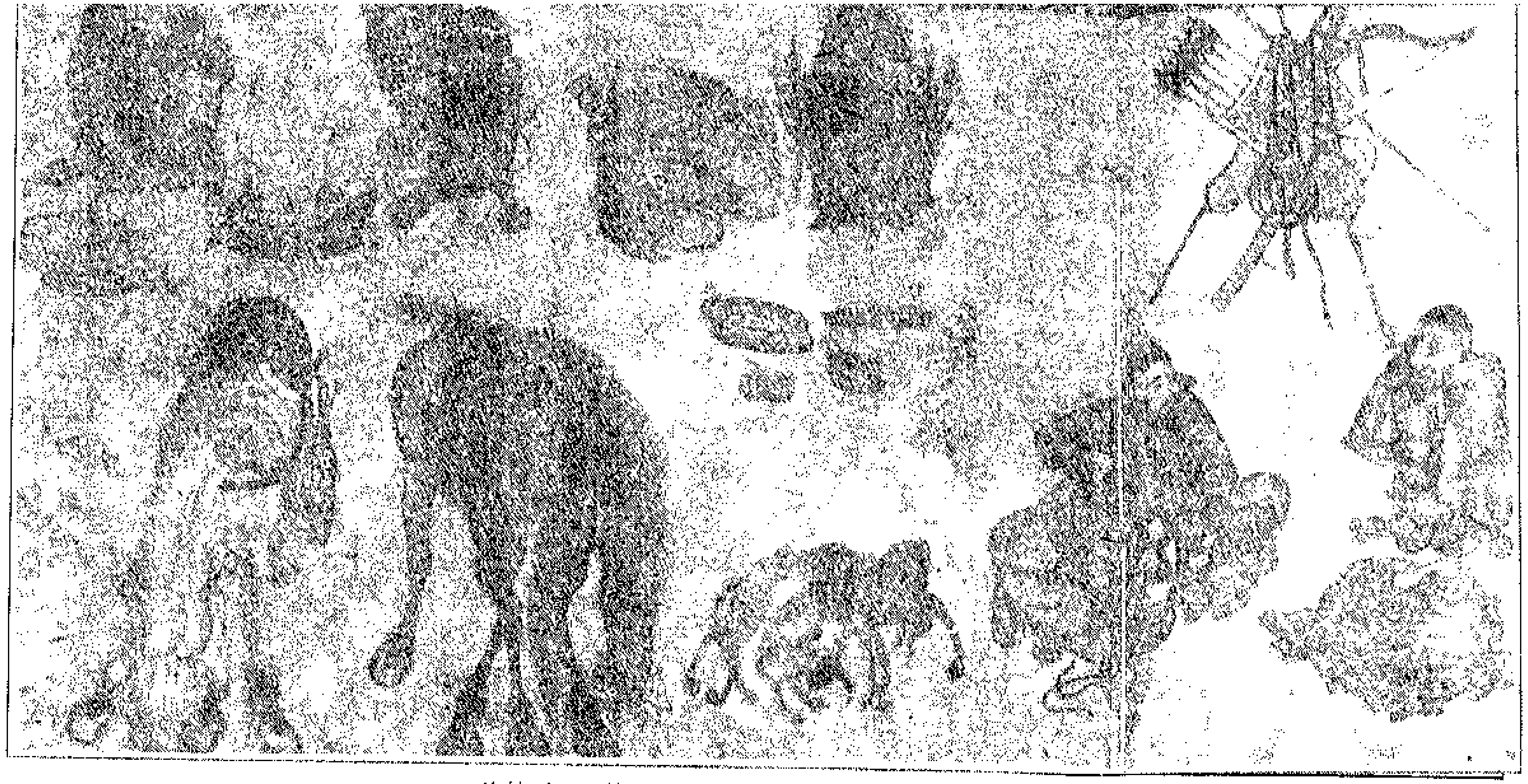

□ لوحة فنية تجمع صوراً عديدة من حياة البدو الرحل في تركيا، مستمدة من عالم الواقع في القرن الخامس عشر الميلادي.

من بين مدارس الفنون، التي ظهرت في العالم الاسلامي، لا تزال الفنون التركية مجهولة بالنسبة إلى سواها.. ولا سيما ما يتعلق بالرسم. ويجد المرء المجلدات الضخمة، حول أشهر اللوحات التي أبدعتها ريشة الرسامين من الهند وإيران والبلدان العربية، ولكن قلما يظفر بشيء، كتب حول ما قدمه المسلمون الأتراك على هذا الصعيد. وإذا تأمل المرء الروح الفنية التركية وما خلفته في مجال الهندسة العمرانية، وصناعة السجاد، والقدور الفخارية وغير ذلك.. يدرك بأن فن الرسم لا بد وان يكون قد احتل أيضاً مكانته بين هذه الفنون، وأنه لا شك قد اتخذ صورة معينة تعبر عن روح الشعب الذي تمثله. على أن هذا الجهل بتاريخ فن الرسم في تركيا، إنما يعود بالنسبة إلى معظم مدارس الفن الحديثة في البلدان الأوروبية والأميركية إلى عدم توفر اللوحات الفنية التركية في متاحفها ومكتباتها، كما هو الحال بالنسبة إلى منتجات الفن الاسلامي في بقية البلدان الاسلامية، إذ أن تركيا استطاعت أن تحافظ على ثرواتها الفنية في هذا المجال داخل أراضيها، موزعة على المتاحف والدور الفنية، والقصور القديمة وغير ذلك.. مما كان يصعب على البحاثة والدارسين الأوروبيين الوصول إليه،وكانت معظم اللوحات الفنية وسواها مما أبدعته أيدي الفنانين الأتراك، مقتصرة على قصور السلاطين العثمانيين. إلى أن أعلن «أتاتورك» الجمهورية في تركيا.. فاصبح المجال مفتوحاً أمام الأوروبيين، للوصول إلى الثروة الفنية الاسلامية.

وقد بدا لأول وهلة ومن خلال استخدام الفنانين الاتراك نفس المواد التي كان يستخدمها فنانو بلاد فارس من قبل، بدا كما لو أن فن الرسم في تركيا، لم يكن أكثر من بعد جديد من أبعاد فن الرسم الفارسي لا جديد فيه إلا القليل، ولا إبداع فيه إلا ما ندر. والأمر الذي يؤيد هذا الاعتقاد، أن الفتوحات العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي، شهدت اصطحاب الجيوش العثمانية، الكثير من فناني بلاد فارس إلى الاراضي التركية، فعمل هؤلاء في بلاط السلطان والأمراء.

مميزات فن الرسم التركي

لكن فن الرسم التركي، تميز بعض الشيء بموضوعات ركز اهتمامه عليها، فعادت تظهر في كل لوحة من لوحاته التي جمعت، جمال الأرض والطبيعة، مع الأشخاص أو الحيوانات، والتنوع الغزير في الألوان.. وظل هذا يميز اللوحات الفنية التركية منذ ذلك العصر إلى يومنا هذا، ويجعلها تختلف اختلافاً أساسياً عن اللوحات الفنية الفارسية. وأكثر ما يمكن قوله هنا، هو أن الفنون الفارسية كان لها تأثيرها الخاص على الفن التركي.. فكانت بمثابة منبع أساسي من منابعه. ولقد استمد إيحاءاته أيضاً من مجالات أخرى، مثل أوروبا والشرق الأدنى، وإن كان البحاثة الأوروبيون والأتراك على السواء، يعربون عن رأيهم، بأن التأثير الأجنبي على الفن التركي، كان غالباً تأثيراً سلبياً لم يعد بالفائدة، قدر ما عاد بالاساءة إلى أصالة الفن الاسلامي التركي.

والواقع ان كل فن لا بد أن يأخذ في نشأته من هذا البلد أو ذاك، حسب مدى تأثر مبدعيه... ولقد تميز الفن التركي منذ القدم،

وقبل انتقال الخلافة إلى العثمانيين، بنوع خاص من الايحاء المعبر عن امبراطورية كبيرة، ذات تراث عظيم.. وعندما حققت الجيوش العثمانية ما حققته من انتصارات في الجنوب والشمال والشرق والغرب على السواء، انعكست روح هذه الانتصارات، وانعكس الاتصال الناشيء عنها مع شعوب جديدة وبلدان جديدة في الريشة المبدعة لفن الرسم التركي، وصبغته بصبغتها الخاصة. وللعثمانيين أيضاً أثرهم الكبير في الفنون الاسلامية في جميع أقطار العالم الاسلامي.. فحتى قبل إعلان الخلافة العثمانية، بحوالي قرنين من الزمان، كان المسلمون من ذوي الأصل التركي، يشغلون في كل مكان من الدولة الاسلامية الواسعة الأطراف، مناصب رئيسية وقيادية ابتداء من بغداد مقر الخليفة العباسي في البداية، وحتى إيران والهند ومصر وشمال أفريقيا. ولعب نفوذهم المتزايد باستمرار، دوراً رئيسياً في أن يكون للفن التركي الأثر البارز إلى يومنا هذا في سائر الفنون الاسلامية على مر التاريخ.

إتصال الفنانين بذوي الجاه والنفوذ

ولقد كانت للفنون الاسلامية ميزة مشتركة عاودت الظهور باستمرار، وهي اتصال الفنانين بذوي الجاه والنفوذ بين الخلفاء والأمراء والسلاطين.. إلا إذا كان الفنان نفسه من الشخصيات المعروفة، مما جعل تلك الفنون تأخذ الطابع الذي يريده لها هؤلاء، وتعكس صورة عن رغباتهم وميولهم وأذواقهم، بل وفي بعض الأحيان صوراً عن حياتهم وتفكيرهم.. من خلال ريشة الفنان نفسه. ومن هنا كان يلاحظ تبدل واضح في الفنون الاسلامية في الأقطار التي بسطت الخلافة العثمانية عليها سلطانها، سواء في نقش السيوف أو تزيين الجدران أو نحت الأشكال والقطع الفنية أو هندسة القصور وغير ذلك. ولكن التأثير المتبادل على جميع الأحوال، جعل من الصعوبة بمكان على من يحاول من الأوروبيين وضع حدود فاصلة بين فنون الفرس في عهد السلجوقيين، أو مصر في عهد المماليك، على سبيل المثال ــ بالقول، بأن هذه فنون فارسية أكثر منها تركية، أو أنها عربية أكثر منها فارسية، أو سوى ذلك.. لقد كان يبدو أنها جميعاً تشترك في نقاط عديدة وتلتقي حول روح واحدة، وتختلف في نقاط أخرى فتأخذ في بعض المجالات طابعاً مميزاً خاصاً بها. ولئن أصبح بعض العلماء الأتراك يجزمون بأن هذه اللوحة الفنية أو تلك، تركية خالصة، فإن العالم الأوروبي، وهو يدرس في تاريخ الفنون، ينتظر في حكمه النهائي، فلا يجزم بشيء، ويأمل في كثير من الأحيان أن تخرج الآثار التي تكتشف في المستقبل، بتفسير ما، فاصل في الموضوع.

وإذا نظر المرء إلى لوحة من اللوحات.. ولتكن تلك المرفقة في هذا المقال والتي تريد أن تعكس حياة معسكر البدو.. يراها تضم في وقت واحد اشكالاً غريبة، وحيوانات وأشخاصاً، وتعطي فكرة عما يمارسونه من الأعمال.. ويلمس المرء فيها، روح الفن الفارسي من خلال الألوان المفضلة وفي أغلبها باهتة خفيفة كالبني الفاتح.. كما ويلمس من طريقة تصوير الأشخاص روح فنون الرسم في بلدان الشرق الأقصى.. ولكن من الصعوبة بمكان أن يحكم المرء عليها حكماً نهائياً، فيقول هي أثر من آثار تلك الحضارة أو هذه.. وإنما تعكس ما ذكرناه من قبل، حول تبادل التأثير بين تلك الحضارات وأخذ كل منها من الأخرى بنصيب ينعكس في سائر جوانب حياتها، ولا سيما في جانب الفن لارتباطه بحياة السلاطين والخلفاء والأمراء.

وتعود اللوحة التي ذكرناها إلى قبيل عهد الخلافة العثمانية بوقت قصير، ولكن ما أن نتجاوز تلك المرحلة وندخل مع الفنان التركي حيث دخل في تاريخ بلاده وقد دانت لها الأمم والشعوب وانقادت إلى سلطانها البلدان والأقطار.. وأصبحت تجمع في بوتقتها ما تجمع من الحضارات والثقافات ويغلب عليها أثر الاسلام وفتوحاته... أجل ما أن نصل إلى تلك المرحلة، حتى نجد أن الفن قد اتخذ طابعاً خاصاً جديداً مميزاً.. بدأ يتناول مواضيع جديدة عليه.. وبدأ يصور مجالات من الحياة لم يكن يصورها من قبل.. وبدأ يستخدم من وسائل التعبير، ما لم يعرفه الفنان التركي قبل ذلك الحين.. فنجد أن لوحة تعود إلى النصف الأول من القرن

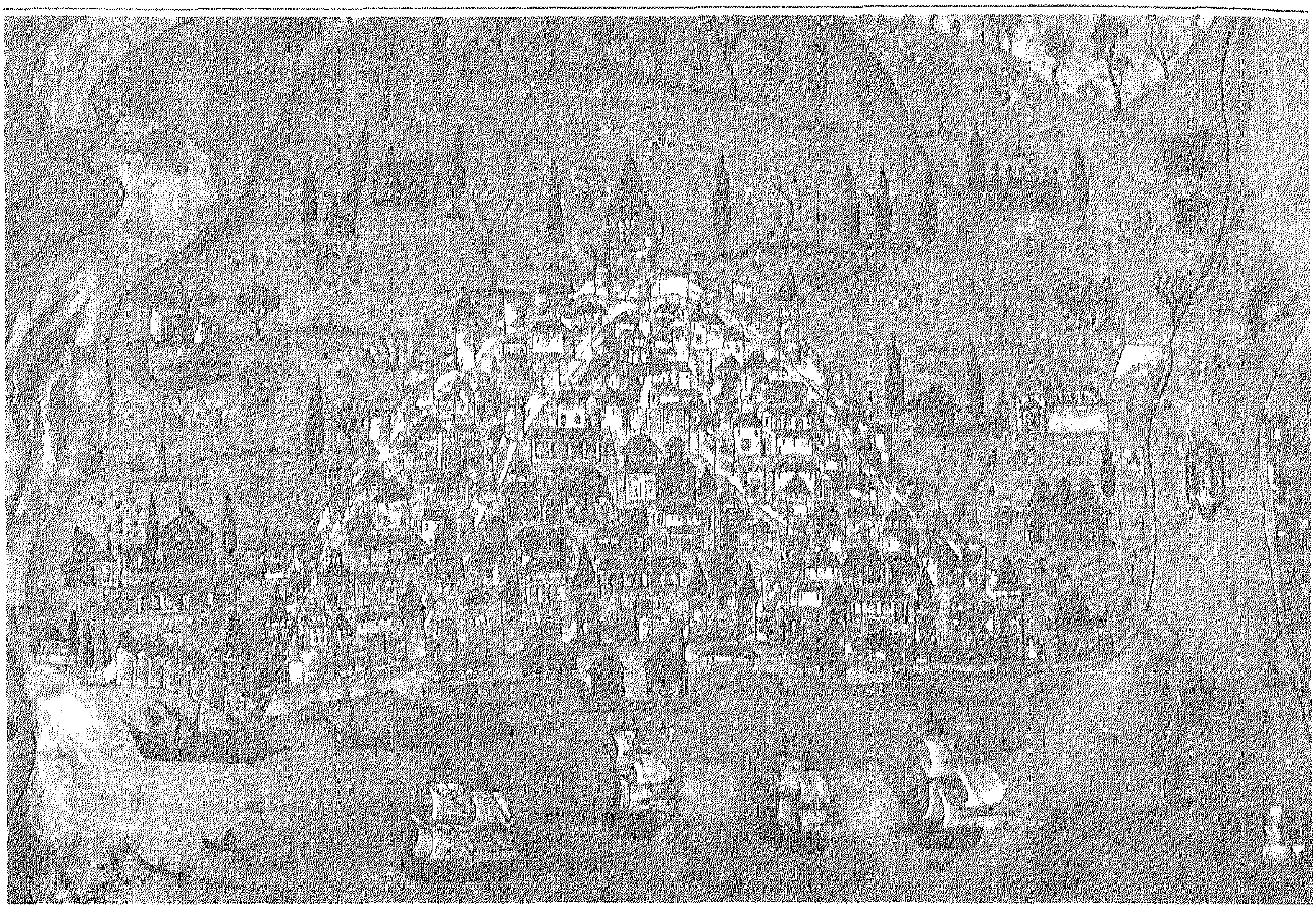

□ هذه هي اسطنبول، بريشة فنان تركي، من النصف الأول للقرن السادس عشر، عند بداية انتشار الفتوحات العثمانية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وجاءت اللوحة لتشهد بتوسع آفاق الفن في تركيا، فقد أصبح الاهتمام يتحول إلى عاصمة بلاده، مبرزا في ذلك مركزها التاريخي الكبير.

السـادس عشر الميـلادي، عصر الفتـوحـات العثمانية، وتصور عاصمة الخلافة اسطنبول.. تلك اللوحة تستمد الكثير من البيئة الجديدة التي بدأ صاحبها يتعرف إليها.. فالألوان غير الألوان، أضحت زاهية حيوية بعد أن كانت باهتة فاقعة، والحيوية في مجموع الصورة غيرها فيما مضى، فالجبال المشجرة تعانق البيوت المتجمعة حول المآذن العالية، وقد امتد لسان زرقة المحيط يمنة ويسرة، يكاد يحدد إطار الصورة التناسق بينها وبين بقية الألـوان الفاتحة نسبياً.. كما وتنتشر الزهور بين أشجار السهل الممتد، وتنتشر في زرقة المياه، السفن والبواخر لتعيد التـوازن، وتنقل الناظر إلى جو حيوي، فكأنما يرى الانسان مدينة اسطنبول بضجيجها وحركتهـا، ويسمع هـدير المضيق من حولها وصفير البواخر تمخر عباب مياهه..

تأثر الفن بتعاليم الدين الاسلامي الحنيف

وكما هو شأن سائر الفنون الاسلامية.. كـان الفن التركـي أيضاً متأثراً منذ البداية بتعاليم الدين الاسلامي الحنيف.. فكان يرفض تصوير الأشخـاص بشكل بـارز واضح.. عـلى غـرار ما شهدته أوروبا في أوج نهضتها الفنية، ولئن لم يتضمن القـرآن الكريم، نصـاً قاطعـاً بتحريم الرسم والتصوير، فإن فقهاء المسلمين وعلماءهم قد اعتمدوا القرآن والسنة، وأعطوا في القرن الثاني للهجرة، كلمتهم القاطعة في هذا المجال.

وفي القرن السابع عشر الميلادي، يتحـدث الرحالة والمؤلف التركي الأصل «افليا شلبـي» إن الفنان التركـي، كان يصور كل شيء بريشته،

مستمداً إلهاماته من حياة العمال اليدويين وصناعاتهم، ومن الجيوش وفتوحاتها، بل ومن حلبات المصارعة ورحلات الصيد.. ولكن لم يكن بشكل من الأشكال يقدم على تصوير الأشخاص مبرزاً معالمهم في لوحات رسم مباشرة.. بحيث تعكس معالمها، الشخص المعين وتحدده، لعلمه اليقيني، بأن ذلك يمنعه قانون الدولة الاسلامية.. ومع هذا فقد كان للفن سبيله في غزو الفكر الاسلامي أيضاً، فنجده يوماً بعد يوم، ينتشر بصورة أكبر مما كان عليه في الماضي، ويمتد إلى سائر البلدان الاسلامية ويشمل سائر جوانب الحياة الاسلامية، حتى لينسب إلى المتصوف «جلال الدين الرومي» إنه تعرض إلى ذلك في مؤلفاته. ومن المعروف أن «رقصة الدراويش» تنسب إليه، فيقال بأنه مؤسسها في القرن الثالث عشر الميلادي. وهكذا ورغم مخالفة ذلك للقوانين الرسمية الاسلامية، كان الرسم بكثير من أشكاله ينتشر بشكل غير رسمي في أنحاء دولة الخلافة العثمانية. واستمر هذا الوضع إلى القرن الثامن عشر، عندما بدأ الفن الأوروبي نفسه يغزو مقر الخلافة العثمانية في تركيا بشكل أو بآخر. وبدأ تصوير الأشخاص أيضاً يأخذ مكانه بين اللوحات الفنية التركية، فإذا بها تنتشر يوماً بعد يوم، في تركيا بشكل لا يمكن أن يجد البحاثة له مثيلاً في أي قطر إسلامي آخر من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، باستثناء الهند في عهد المغولين... وكانت اللوحات التركية في هذا المجال، تحاول تخليد آثار كبار القواد والأمراء والزعماء وغيرهم من المشاهير في تاريخ العثمانيين. ومجال آخر يعارض تعاليم الاسلام معارضة تامة، لم يكن له ظهور سوى في تاريخ الفنون التركية العثمانية، وخلال الغزو الفني الأوروبي في القرن الثامن عشر، إلا وهو تصوير الأحداث الدينية الاسلامية في أوائل ظهور الاسلام، بما في ذلك حياة رسول الله محمد (ص) نفسها.

ولنتساءل الآن عن الميزات الرئيسية للفن التركي، والذي يجعله يختلف عن سواه من الفنون الاسلامية. فنرى أنها تتبدى أولاً في الاختلافات الظاهرية المباشرة، مثل نوع الألبسة والهندسة العمرانية، والألبسة العسكرية، ويتركز موضوع اللوحة غالباً على مجال محدد، فلا تخرج عملياً عن إطاره، ويبرز الفنان من خلال الألوان خاصة. وأخيراً فإن أبرز اختلاف بين الفنانين الأتراك في النصف الثاني من عصر العثمانيين وبين معاصريهم من الفرس على سبيل المثال، يتجلى في المواد التي يستخدمونها في الرسم. وأما من حيث الموضوع، فلطالما ظهر أن الفنان الفارسي كان يستوحي الكتب التاريخية والأحداث القديمة في تصوير معركة، أو حالة نفسية ما، أو التحدث، عبر ريشته، عن بطل من الأبطال وانتصار من الانتصارات.. وأما الفنان التركي، فكان يستوحي للصور التي يريد استيحاءها من عصره وأحداث عصره وابطال عصره، في حلقة تدور وتدور، وتعود في النهاية لتتمثل في شخص الأمير أو السلطان أو الخليفة.

لوحة من لوحات الفن في القرن السادس عشر

ولنلق بعض النظرات على لوحة من القرن السادس عشر الميلادي، تمثل رحلة صيد يقوم بها السلطان وحاشيته، إنها تعكس ابهة القصر البعيد، وتمزج الوانه بألوان الغابة، فالجو مرح... وأما عملية الصيد نفسها فتنعكس في صور الجنود، وهم يوجهون أسلحتهم والحيوانات تفر أمامهم، وهذا هو موضوع الصورة الأصلي — رحلة الصيد، ومع ذلك فإن المكان الأكبر من اللوحة يحتله السلطان بحاشيته. إنه مركز الوسط، من الصورة، على لون أزرق فاتح، يوحي للناظر وكان السلطان يحلق بجواده في الفضاء، فوق كل شيء في البلاد، وهذه هي مكانته يصورها الفنان بذلك أصدق تصوير. ثم وبعد ذلك، لا يمكن أن ترى السلطان بمكانته تلك يشترك بعملية الصيد مباشرة، نعم إنه يخرج إلى رحلة الصيد، ويقوم جنوده بالصيد، بينما يحتفظ هو بوقاره واتزانه وهيبته، حتى أن نظراته لا يسددها إلى حاشيته، فوزيره هو المكلف بذلك، وهو الذي يلتفت وراءه ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام، ولن تجد أقرب إلى السلطان من الوزير.. كل هذا وألوان الصورة تضفي عليه من الحيوية ما هو جدير بالابتهاج الذي يرافق رحلة صيد يقوم بها سلطان.

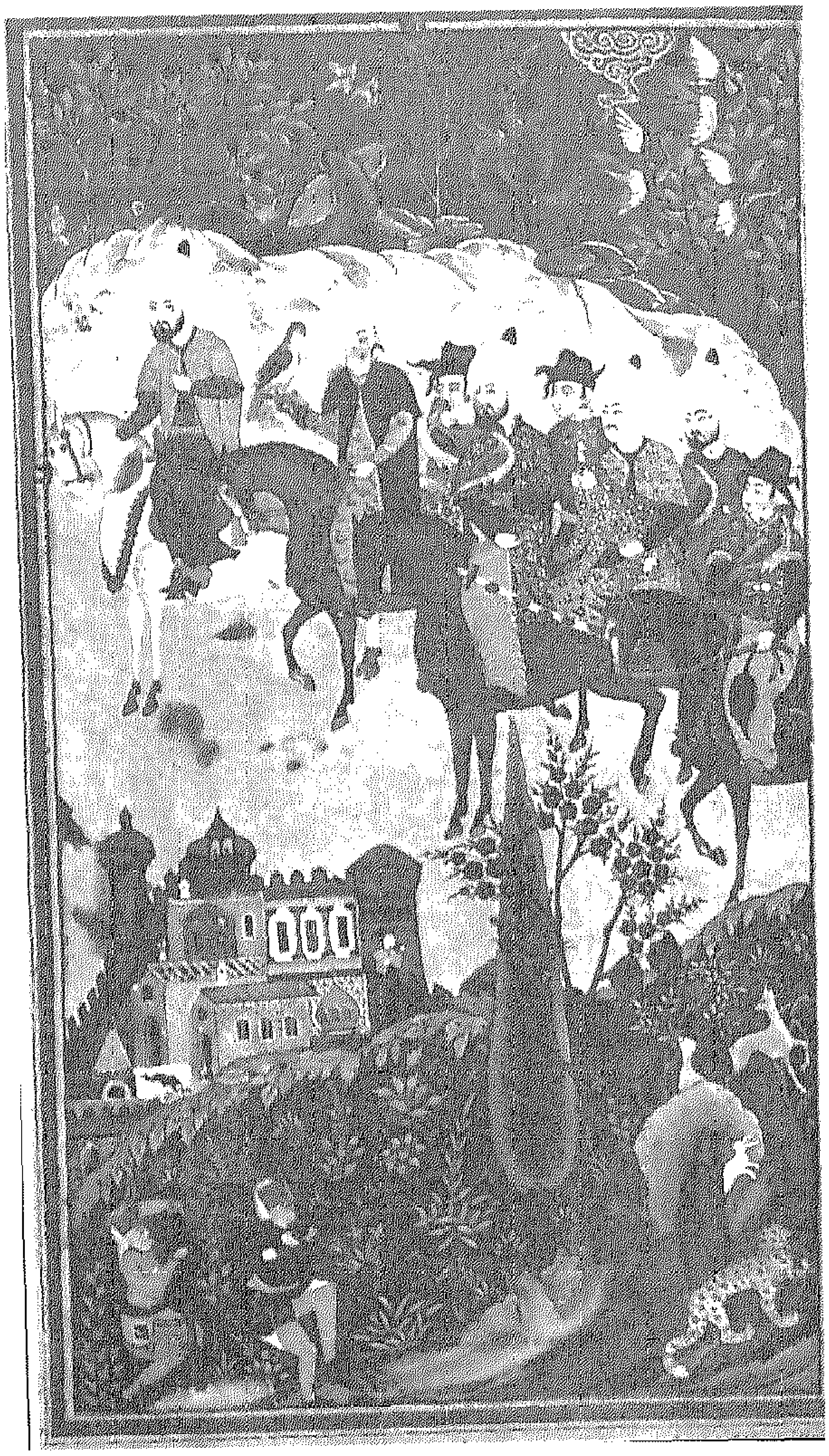

□ لوحة تمثل رحلة صيد يقوم بها السلطان مع حاشيته

ولنلق نظرة أخرى على لوحة أخرى تعود بنا إلى القرن السادس عشر أيضاً، وتحملنا على مشاهدة الاستعدادات إلى معركة حربية وشيكة الوقوع.. وقد اصطفت الفرق العسكرية بين الآكام، فلا أثر لبيت أو منزل ولا ترى بين الجنود سوى أرض قاحلة جرداء إلا من بعض شجيرات بعيدة لا تود تغيير الجو الذي تضفيه الألوان على الصورة بين رهبة المعركة وشدتها.. ويلمح الناظر من خلال اللوحة، الألبسة العسكرية والأسلحة المستخدمة في ذلك العصر الذي ينتمي الفنان إليه، ولكن ما نريد الاشارة إليه بعد ذلك، هو تركيز الموضوع من جديد في شخص السلطان.. إنه من خلال الجمع الغفير يبرز بروزاً لا مجال للخلط بعده بينه وبين سواه، فهو الوحيد الذي يمتطي صهوة جواد أبيض، وهو الوحيد الذي يرتدي رداءً ذهبياً براقاً، وهو الوحيد الذي يمتاز بعمامة تختلف عن أي عمامة أخرى في الجمع الغفير..

وأما المعركة، الموضوع الأصلي للصورة، فإنه بعيد عنه. إنه يشرف عليها من علٍ، ولكنه لا يتدخل فيها مباشرة، وحتى بوادر المعركة التي اتضحت في مقدمة الصورة من خلال فرسان يتبارزون، وقد ظلت شخصية العدو مجهولة

لوحة من أواخر القرن السادس عشر تمثل بداية معركة تستعد لها الجيوش العثمانية وقد برز فيها السلطان على صهوة جواد أبيض تحيط بها الفرق العسكرية بالبستها واسلحتها، وفي مقدمة الصورة التحم الفرسان مع اعدائهم.

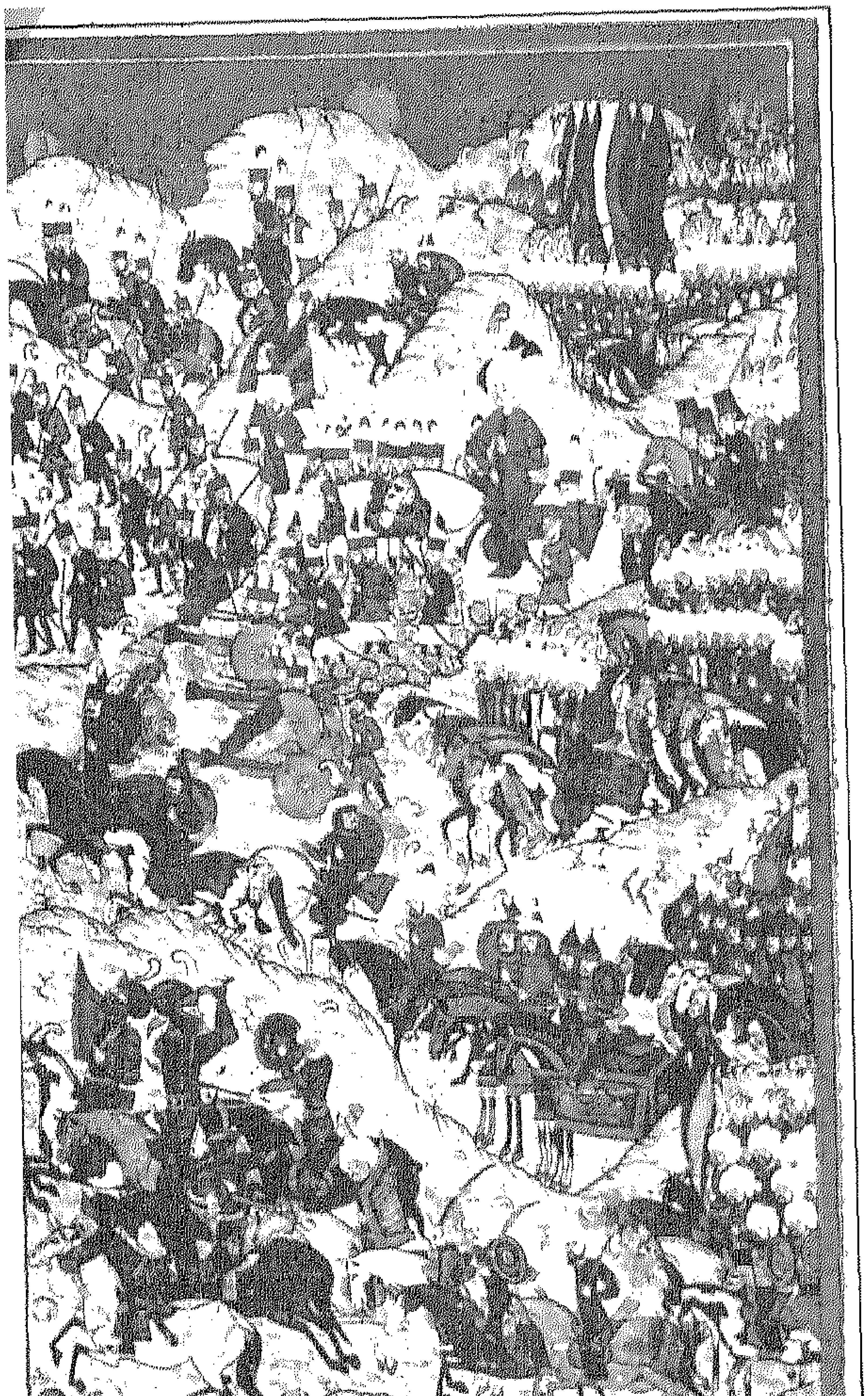

تتنـاسب ووجوههم الملثمـة، حتى بوادر هـذه المعركة لا يمكن وأن اشتد أوارها أن تصل إلى السلطان النائي بنفسه عنها، وقد تقدمته المدافع تحميه وأحاطت به كوكبة من الفرسان، تدفع عنه ما يمكن أن يتعرض إليه..

حياة تركيا في ظل العهود العثمانية

وقبل أن نختتم المقال، ودون أن نسترسل في الحديث عن اللوحات الأخرى، والتي تعطي صور أخرى حول معـارك العثمانيـين وانتصاراتهم،

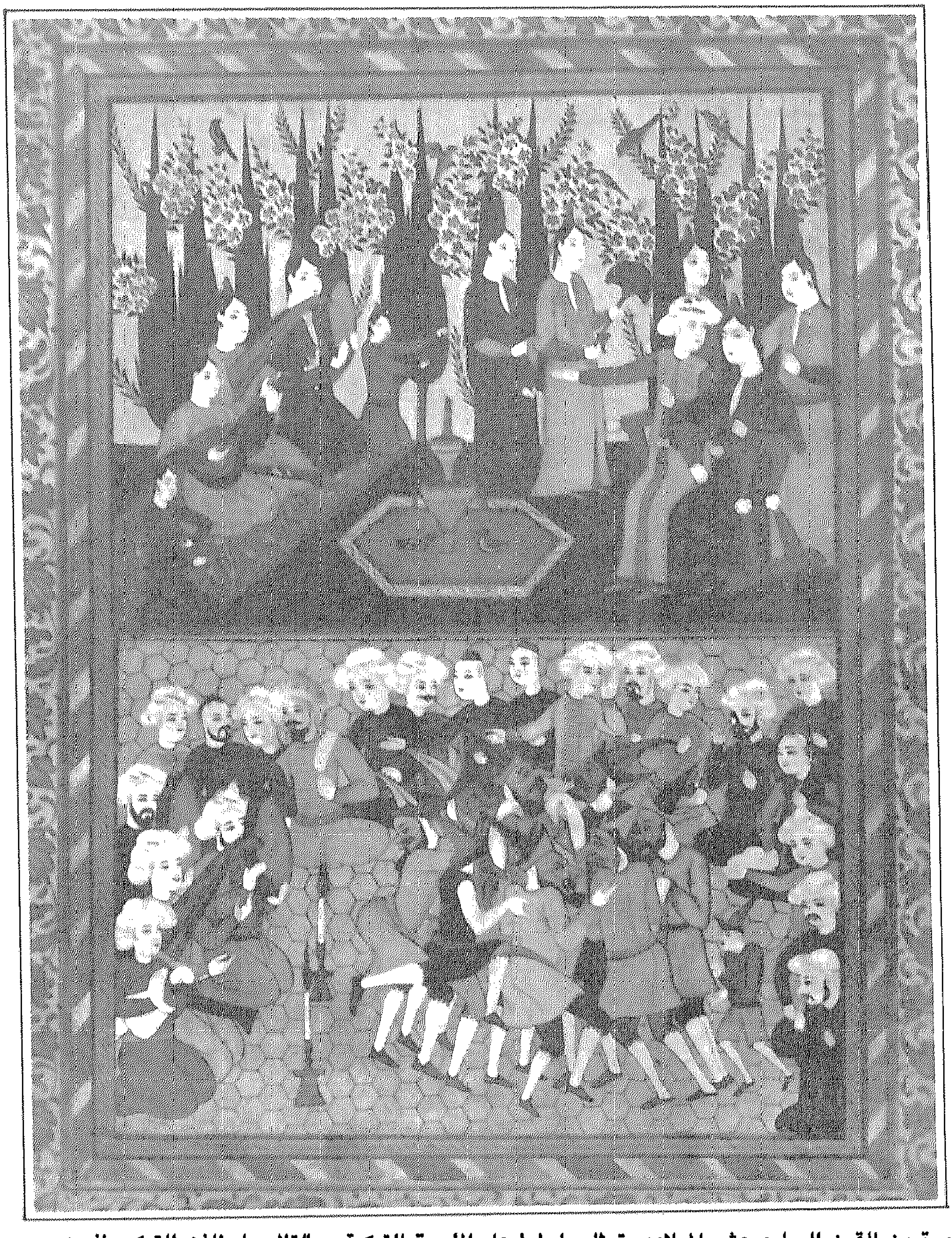

□ صورة من القرن السابع عشر الميلادي تمثل ما طرا على الأسرة التركية وبالتالي على الفن التركي نفسه. ويبدو ذلك من خلال الجزء الأعلى من الصورة، وقد جلس رب الدار مع زوجته وامامه القينات يعزفن ويغنين، ويبدو في الصورة الثانية وقد اقام حفلة من الحفلات فاحاط سادة القوم في حلقة بالراقصين في وسط الحلقة والكل في بهجة وسرور، فتمثل ما ساد المجتمع من رخاء.

ننتقل إلى وجه آخر من حياة تركيا في ظل العهود العثمانية، وقد بعد بها العهد عن الفترة الأولى، فترة الحروب والانتصارات والجهاد والفتوحات، فنصل إلى القرن السابع عشر، ونتأمل معاً لوحة أخرى، تتألف من جزئين، ففي الجزء الأعلى منها، نجد غرفة عادية متواضعة لا مظهر للأبهة فيها، ولا مظهر للفقر أيضاً، فنحن في بيت مواطن ثري بعض الشيء، حسبما توحيه تزيينات الجدران بالزهور، التي تتناسب وما تريد اللوحة أن تصوره، وهو مجلس من مجالس الطرب التي بدأت بالانتشار في البلاد.. جلست القينات تعزف وتغني، وجلس رب البيت إلى جانب زوجته، وأحاطت بهن الوصيفات، يخففن حر النهار بما بأيديهن من المراوح. وهنا لم يعد الأمر يتركز على شخصية السلطان.. فليس له من وجود على اللوحة أصلاً، ولكن برز مكان ذلك، التركيز على شخصية رب البيت وزوجته، حتى أن أنظار الجميع متجهة إليه، وقد تقدم في الصورة عن سواه يبرز إلى عين الرائي مباشرة.

وفي الجزء الأدنى من الصورة، كبر الحفل وازداد عدد الحاضرين، ولم يعد أحد ينظر إلى أحد، فالكل مشغول بنفسه ومتعته، يعكس بذلك الصورة الصادقة عن المجتمع بأكمله. وبينما جلس الجمع في حلقة يتفرجون ويتحدث بعضهم إلى بعض شكل الراقصون وسطاً، هاج أفراده، وتداخلت حركاتهم بعضها ببعض، فكأنك تسمع أصواتهم أو ترى حركاتهم بادية للعيان.. وهم على أي حال طبقة معينة بألبسة تختلف كل الاختلاف عن ألبسة السادة الجالسين في الحلقة، وهذه صورة أخرى من صور المجتمع التركي في العهود المتأخرة للخلافة العثمانية.

ولعل من وجوه الاختلاف بين الفن التركي والفن الفارسي أيضاً، أن الرسام التركي كان يعتمد على تجسيد الواقع بطريقة واقعية وإن الرسام الفارسي يحاول تجسيد المعاني بطريقة رمزية، وليست هذه سوى قاعدة عامة قد تبرز في لوحة بروزاً كبيراً وتتوارى في لوحة أخرى بعض الشيء. على أن هذه الظاهرة تتفق بشكل أو بآخر، مع الروح الشاعرية الفارسية، والروح العسكرية التركية وما بينهما من فروق بينة. إن الروح العسكرية لتبرز في لوحات الرسامين حتى في تصوير الجنود خارج المعارك، أو في تصوير قادة من القادة بمجلس من المجالس. معتمدين في ذلك في الدرجة الأولى على إظهار القوة الجسدية، والزي العسكري.

القوة والسلطة
في اللوحات الفنية التركية

ومع اعتماد موضوع «القوة والسلطة» موضوعاً رئيسياً في اللوحات الفنية التركية، لا نجد فيها على غالب الأحوال إلا الرجل، فلا يكاد سوى القليل منها يصور النساء.. فإن حدث ذلك فمن النادر أن تتطرق مواضيعها إلى ما شغل الفنون الأوروبية في الشمال من جهة، أو ما شغل الفنون الفارسية في الجنوب من جهة أخرى، مثل موضوع الحب أو سواه، مما يرتبط بالمرأة والرجل معاً. وقد يجد المرء بعض اللوحات التي تتعرض إلى ذلك، ولكن معظمها لفنانين تأثروا بشكل أو بآخر بالغزو الفني الأوروبي في العصور المتأخرة، أو بما خلفه الفن الفارسي القديم، وينعكس هذا في أساليب الفنانين الأتراك هؤلاء فضلاً عن انعكاسه في موضوعات لوحاتهم.

إن هذه النظرة الواقعية للأمور التي تميز بها موضوع الرسم لدى الفنان التركي وأسلوبه، عكست نتائجها الايجابية أيضاً في إنتاج معين برز فيه الفنانون الأتراك، بوضعهم خرائط جغرافية ظلت بالنسبة إلى كثير من البحاثة مرجعاً رئيسياً في كثير من المجالات، لا سيما وإنها كانت متقنة تنطبق على الواقع انطباقاً كبيراً.

وباختصار وإيجاز، يمكن القول أن الفن التركي في مرحلة الخلافة العثمانية، قد صور تصويراً صادقاً، الانتقال الزمني والجغرافي، بين الفن الاسلامي الخالص، وبين الفن في البلدان الاسلامية التي تأثر هذا الفن فيها بالفنون الأوروبية. وإذا كانت قيمة ما خلفه الفنانون الأتراك من آثار تتركز على الجانب التاريخي والاجتماعي مما جعلها مصدراً أميناً للبحاثة والدارسين، فإن قيمتها الفنية تعود إلى اعتمادها الألوان والأحجام لابراز موضوع الصورة المرغوب إبرازه، فضلاً عن القوة التي توحي بها هذه الصورة بطريقة عرضها أصلاً.

●

رسالة نصير الدين الطوسي في علم الموسيقى

تحقيق زكريا يوسف

حياته

هو أبو جعفر نصيرالدين محمد بن محمد بن حسن[1]، أشهر علماء القرن السادس للهجرة، وأحد الأفذاذ الذين قدموا للثقافة إنتاجاً ضخماً من المصنفات في شتى مجالات العلم والمعرفة، فاستحق بذلك لقب «العلامة» عن جدارة.

ولد الطوسي في جهرود قم[2] ٥٩٧هـ ــ ١٢٠١م، واشتغل في صباه بطلب العلم، متنقلاً بين قهستان وبغداد، وأقام في طوس مدة طويلة فنسب إليها.

ويقال إن الطوسي نظم قصيدة مدح فيها المعتصم، وأن أحد الوزراء رأى فيها ما ينافي مصلحته الخاصة، فأضمر له العداء، مما جعله يغادر بغداد إلى قهستان طلباً للنجاة، غير أن هذا الوزير لم يتركه وشأنه، بل أرسل إلى حاكم قهستان يخبره بضرورة ترصده، وهكذا كان، فإنه لم يمض زمن إلا والطوسي في السجن حيث بقي فيه حتى مجيء هولاكو ــ في منتصف القرن السابع للهجرة ــ فضمه إلى حاشيته كفلكي بلاطه، وفي هذا السجن أنجز معظم مؤلفاته التي خلدته، وجعلته علماً بين الأعلام[3].

يقول الدكتور يحيى الخشاب في مقدمته لـ «كتاب آداب المتعلمين ــ للطوسي»[4]: «وتقدمت جحافل المغول في القرن السابع للهجرة مكتسحة العالم الاسلامي الشرقي قطراً بعد قطر، وكانت شهرة الطوسي في علم النجوم

والرصد قد بلغت مسامع هولاكو، فأراد أن يكون هذا العالم في حاشيته ليستعين بخبرته في النجوم، وليعاونه على ما يريد من الغزو، وكان الطوسي يعرف ما سيحل بالشرق الاسلامي من غارات المغول، وكان يعلم أن البناء الذي أقامه العباسيون قد دب فيه الفناء وأن أساسه قد تقوض ولا سبيل إلى بقائه، وأدرك أنه سيدفع كثيراً من الشر والبلاء عن المسلمين لو بقي بجانب قائد المغول الذي لا يعرف الشفقة، وأن بقاءه وتعاونه يعد خيراً من فراره منه وتركه وحده يفنى البشر ويقضى على الاسلام». ولعل في هذا ما يكفي للرد على بعض المؤرخين الذين لاموا الطوسي لتعاونه مع عدو بلاده.

ولقد نال الطوسي منزلة عالية لدى هولاكو، فكان هذا يطيعه، ويضع الأموال الطائلة تحت تصرفه.

واستغل الطوسي هذه الفرصة، فأنفق قسماً من الأموال التي بحوزته في بناء مرصد كبير في مراغه، جمع به عدداً من كبار العلماء، وأنشأ فيه مكتبة ضخمة بلغت محتوياتها زهاء ٤٠٠,٠٠٠ مجلد من المخطوطات، معظمها من المنهوبات من خزائن بغداد والشام والجزيرة.

وتوفي في بغداد سنة ٦٧٢هـ ــ ١٢٧٤م، وله من العمر أربعة وسبعون عاماً، ودفن في مشهد الكاظم.

مؤلفاته

كان الطوسي غزير المادة، كثير الانتاج، فقد بلغت مؤلفاته ما يقرب من ثلاثة ومائة، بين كتاب ورسالة ومقالة، في مختلف المواضيع، وباللغتين العربية والفارسية، فقد ألّف في الحكمة، والهيئة، والنجوم، والرياضيات، والطبيعيات، والعلوم الدينية، وفنون الأدب، والتاريخ، والجغرافيا، والتصوف، والموسيقى.

رسالة في الموسيقى

تشير المصادر التي ذكرت مؤلفات الطوسي إلى أن له: «كتاب في الموسيقى»(٥)، إلا أنه لا نسخة معروفة من هذا الكتاب اليوم.

ويوجد في خزانة كلية الملك بكمبردج كتاب فارسي في الموسيقى يسمى «كنز التحف» ينسب إلى الطوسي، غير أن المستشرق هنري فارمر يقول: «وربما كان هذا الكتاب من وضع مؤلف آخر»(٦).

وهذه الرسالة التي أقدمها اليوم للقراء هي كل ما انتهى إلينا مما كتبه الطوسي في الموسيقى، وهي ليست ترجمة لكتاب «كنز التحف» الفارسي، كما يؤكد ذلك «سارطون G. Sarton»(٧)، وربما كانت الفصل الأول من كتاب الطوسي في الموسيقى، لأنه يبدأ بها بتعريف علم الموسيقى، وهو ما جرت عليه عادة المؤلفين في الموسيقى من الابتداء به في كتبهم الموسيقية، كالفارابي، وابن سينا، وابن زيلة، وصفي الدين عبد المؤمن البغدادي وغيرهم.

ويلاحظ القارىء في النص المخطوط لهذه الرسالة أن لا عنوان لها غير أني اخترت لها «رسالة في علم الموسيقى» وهو العنوان المعروفة به اليوم في فهارس المخطوطات، وكتب الباحثين في تاريخ الموسيقى العربية.

وقد عثرت على هذه الرسالة في دار الكتب الوطنية بباريس، ضمن مخطوطة برقم (Arabe 2466) وهو يحتوي على مجموعة رسائل في مواضيع مختلفة، وهذا المجلد لا عنوان له، إذ أن صفحاته الأولى قد ضاعت كما يظهر، ونقرأ في الصفحة الأولى مما تبقى عنوان رسالة: «أصول الهندسة والحساب المنسوب إلى إقليدس».

وتقع رسالة الموسيقى فيه في ظهر الورقة ١٩٧ ووجه الورقة ١٩٨، وتتألف من صفحة ونصف فقط. ونسخة هذه الرسالة وحيدة في العالم(٨).

* * *

شرح الرسالة

يتناول الطوسي في رسالته هذه موضوع «الأبعاد» الموسيقية من الوجهة الرياضية، وأنواعها، ولا بد لنا هنا من معرفة معاني المصطلحات القديمة ــ الموسيقية والرياضية ــ وما يقابلها في الاصطلاح الحديث، لنتمكن من فهم المقصود.

فالبعد(٩) هو: المسافة الصوتية بين نغمتين، ويسمى اليوم المسافة أو الفاصلة، كالمسافة بين

«دو ـــ مـــي». أو «دو ـــ صـــول» أو «دو ـــ دو١» ...إلخ.

والذي بالكل[١٠] هو: البعد بـين أي نغمة وجوابها، مثلاً: «د. ـــ دو١».

والذي بالكل مرتين[١١] هو: البعد بين أي نغمة وجوابها الثاني، مثلاً: «دو ـــ دو٢».

والذي بالخمسة[١٢] هو: البعد بين أي نغمة والنغمة الخامسة التي تليها صعوداً في السلم الموسيقي، مثلاً: «دو ـــ صول».

والذي بالأربعة[١٣] هو: البعد بين أي نغمة والنغمة الرابعة التي تليهـا صعوداً في السلم الموسيقي، مثلاً: «دو ـــ فا».

والطنيني[١٤] هو: كالبعد بين «دو ـــ ري» أو «فا ـــ صول»، وإليك هذه الأبعاد بالتدوين الموسيقى الحديث:

تخرج من كل الوتر، وعلى هذا تكون نسبة نغمة القرار إلى الجواب كنسبة ٢/١ وهي نسبة الضعف، وباصطلاح الموسيقى القديمة الذي بالكل.

كذلك النغمة التي تخرج من نصف النصف الثاني هي جواب جواب النغمة التي تخرج من كل الوتر، فتكون نسبتها بالنسبة لنغمة القرار ٤/١ وهي نسبة ضعف الضعف، أي الذي بالكـل مرتين.

وتكون نسبة الذي بالخمسة ٣/٢، ونسبة الذي بالأربعة، ٤/٣، ونسبة البعد الطنيني ٩/٨، وهكذا[١٨].

أما الذي بالكل والخمسة فهو: بُعد مركب، يتألف من بعدين هما: الذي بالكل + الذي بالخمسة، ونسبته ٣/١، وذلك لأن نسبة الذي بالكل هي ٢/١، ونسبة الذي بالخمسة هي ٣/٢، وجمع هاتين النسبتين يكون كالآتي:

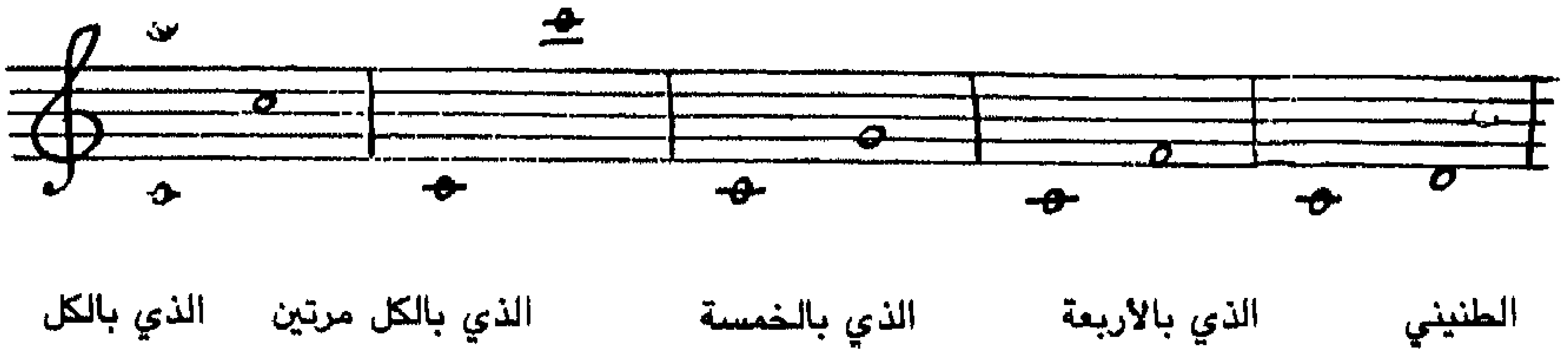

ونسبة الزائد جزءاً هي: نسبة أي عددين إلى بعضهما بحيث يكون أحدهما أكثر من الآخر بواحد، مثلاً: ٣/٢، ٤/٣، ٥/٤، ٦/٥ والخ... لأن: ٣/٢ = ٢/٢ + ١/٢، أي ١ + ١/٢، وكذلك ٦/٥ = ٥/٥ + ١/٥، أي ١ + ١/٥، وقس على ذلك، ولتمييز نسب الزائد جزءاً عن بعضها، تسمى ٣/٢ الزائد نصفاً، و ٤/٣ الزائد ثلثاً، و ١٠/٩ الزائد تسعاً، وهكذا[١٥].

عرّف الطوسي علم الموسيقى بأنه يتـألف من علمـين: (١) علم التأليف؛ (٢) علم الإيقـاع، وهو نفس التعريف الذي جاء به من سبقه من المؤلفين الموسيقيين، كالفارابـي، وابن سينا[١٦]، وابن زيلة[١٧] وغيرهم، ثم عرّف البُعد تعريفاً رياضياً بأنه «يقاس بالتفاوت الواقع في الأعداد».

والنغمة في تعريفها الرياضي الحديث هي: عدد معين من الذبذبات في الثانية، فهي كمية محدودة، إلا أن القدماء لم يكونوا ليحددوا هذه الكمية بالذبذبات، بل بطول الوتر الذي تنتج عنه.

وواضح في الأوتار: أن النغمة التي تخرج من نصف طول أي وتر كان هي جواب النغمة التي

٢/١ + ٣/٢ = ٢/١ × ٣/٢ = ٣/١ وهي نسبة الذي بالكل والخمسة.

ثم يبين لنا الطوسي بعد هذا لماذا سمي الذي بالخمسة والذي بالأربعة بهـذا الاسم، ويبين كيفية معرفة نسب النغمات التي يتألف منها كل منهما، وذلك باستعمال الواسطة العددية[١٩].

ونـرى الطوسي بعـد هـذا يقسم الأبعـاد الموسيقية إلى صنفين: كبار، وصغار، بينما نرى ابن سينـا يقسمها إلى ثـلاثة صنـوف: كبار، وأوساط، وصغار[٢٠].

ويذكر أيضاً أن الأصوات الواقعة في الألحان لا تكون مقبولة في السمع إلا إذا كانت على نسب الأعـداد التي ذكرهـا، والتي يسميها النسب المنتظمة، وهي: الذي بالكل والخمسة، والذي بالكل، والذي بالخمسة، والذي بالأربعة، والزائد معاً، والتي نسبها على التوالي:

٣/١، ٢/١، ٣/٢، ٤/٣، ٥/٤

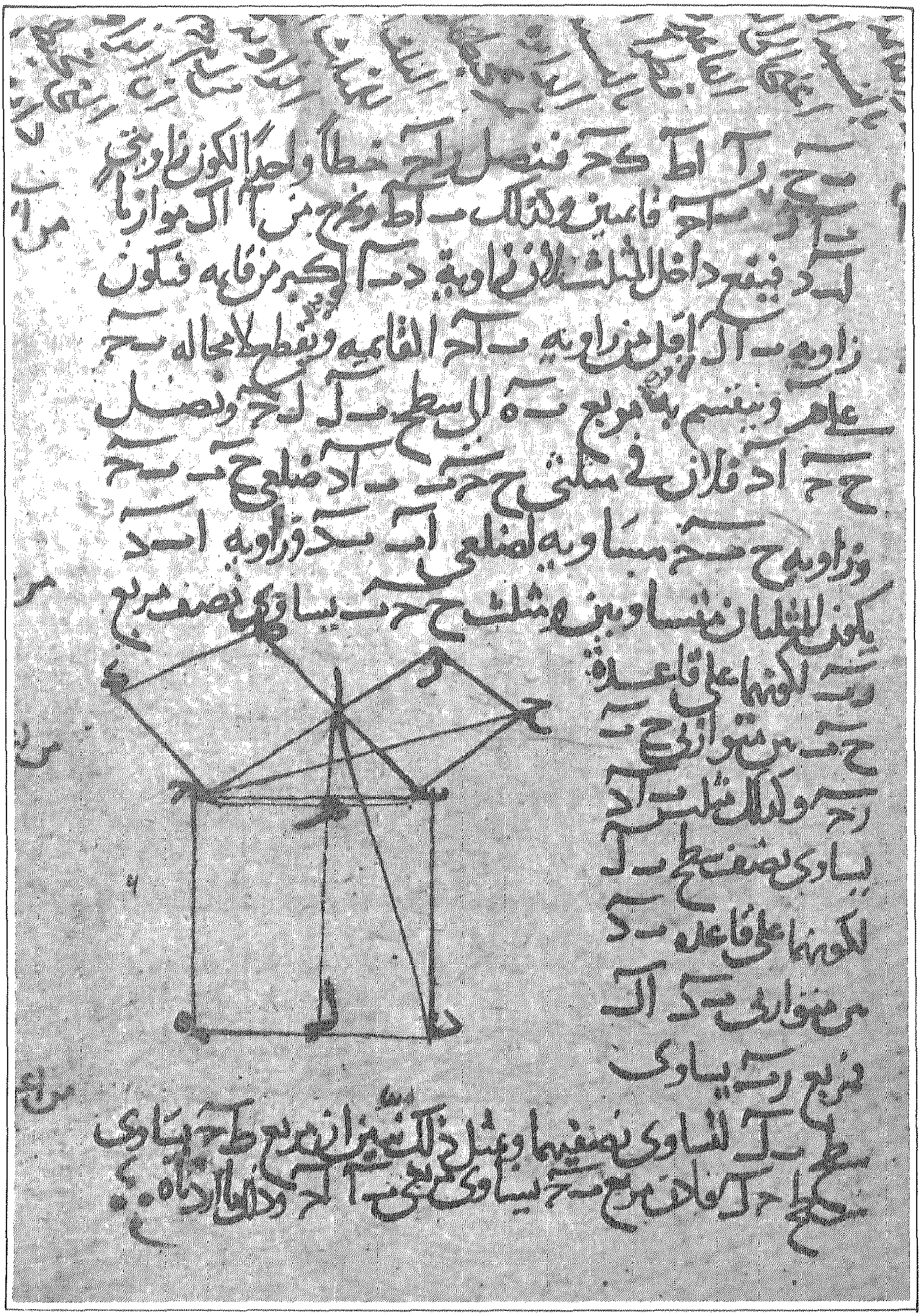

□ كان للطوسي دور بارز في علم الرياضيات وهذا برهان على نظرية فيثاغوراس من «تحرير» الطوسي لكتاب اقليدس في «الاصول».

وبهذا يشير بصورة ضمنية إلى قانون التوافق المعروف في الفيزياء الموسيقية باسم قانون «لايبنتس»[٢١] وهو: «لا يكون قرع الأصوات المتتابعة أو الآنية مقبولاً في السمع إلا إذا كانت النسب بين ترداداتها نسباً بسيطة»، وقد أشار يعقوب بن إسحق الكندي أيضاً إلى هذا في رسالته «في خبر صناعة التأليف» بقوله: «ينبغي أن تكون جميع هذه الاستحالات التي وصفنا مؤتلفة، أعني أن ننتقل من نغمة إلى نغمة متآلفة لها، أعني معها في نسبة بسيطة»[٢٢].

وفي هذا نستدل أن قانون التوافق الحديث لم يكن مجهولاً عند العرب منذ مائة وألف عام.

الهوامش

(١) انظر ترجمته ومصادرها في:
«الاعلام ــ للزركلي» ٧:٢٥٧.
«معجم المؤلفين ــ لعمر رضا كحالة» ١١:٣٠٧.
وانظر: Brockelmann: G.A.L., 1,508 S., 924.

(٢) يشير معظم المترجمين للطوسي إلى أنه ولد في بلدة طوس، إلا أن الدكتور يحيى الخشاب في مقدمته لـ «كتاب آداب المتعلمين ــ للطوسي» يذكر أنه ولد في جهرود قم، انظر: مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثالث ــ الجزء الثاني، ص ٢٦٧.

(٣) انظر: «تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ــ لقدري طوقان» الطبعة الثالثة، ص ٤٠٧.

(٤) مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثالث ــ الجزء الثاني، ص ٢٦٨.

(٥) انظر «تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ــ لقدري طوقان» الطبعة الثالثة، ص ٤١٥.

(٦) انظر: H. G. Farmer: A History of Arabian Music. p. 226.
وانظر: ترجمة الدكتور حسين نصار لهذا الكتاب، ص ٢٦٧.

(٧) سارطون: مقدمة لتاريخ العلم، ٢، الباب ٢: ١٠٠٩:
انظر: H. G. Farmer: The Sources of Arabian Music, No. 197.

(٨) انظر: تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة الدكتور حسين نصار، ص ٢٦٧.

(٩) البعد = Interval.

(١٠) الذي بالكل = Octave.

(١١) الذي بالكل مرتين = Double Octave.

(١٢) الذي بالخمسة = Perfect fifth.

(١٣) الذي بالأربعة = Fourth أو Tetrachord.

(١٤) الطنيني = Tone.

(١٥) لفهم المصطلحات الرياضية القديمة بصورة أوضح انظر: الرسالة السادسة من القسم الرياضي لاخوان الصفا، مجلد ٢، ص ٢٤٢، من طبعة بيروت.

(١٦) انظر: جوامع علم الموسيقى من كتاب الشفاء لابن سينا، تحقيق زكريا يوسف، القاهرة ١٩٥٦، ص ٩، من المتن.

(١٧) الكافي في الموسيقى، تحقيق زكريا يوسف، القاهرة ١٩٦٤، ص ٢.

(١٨) لايضاح الأوليات في تقسيم الأوتار انظر: فلسفة الموسيقى الشرقية، لميخائيل الله ويردى، ص ٥٠ وما بعدها من الطبعة الثانية.

(١٩) لايضاح هذا انظر، جوامع علم الموسيقى من كتاب الشفاء لابن سينا، الفصل الأول من المقالة الثانية، ص ٣٣، وما بعدها.

(٢٠) المرجع السابق، ص ١٨ ــ ١٩.

(٢١) Leibnitz (١٦٤٦ ــ ١٧١٦).

(٢٢) انظر مؤلفات الكندي الموسيقية، تحقيق زكريا يوسف، بغداد ١٩٦٢، ص ٥٨٠.

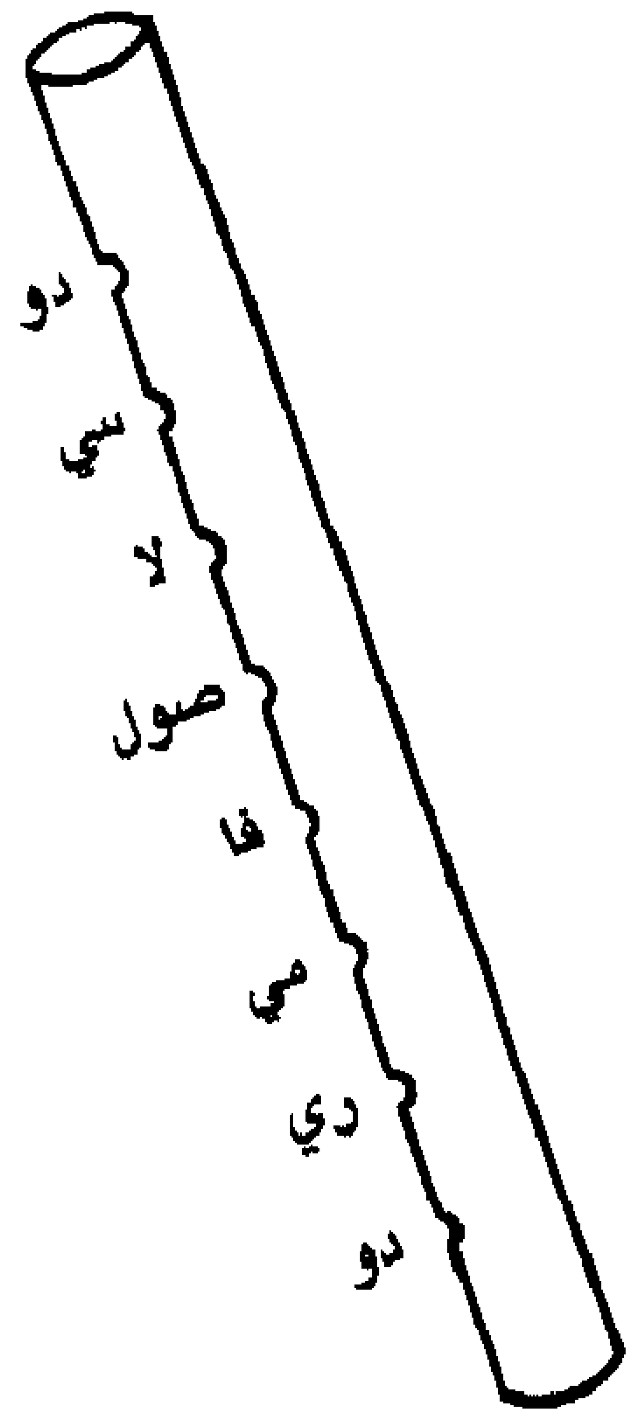

رسالة نصير الدين الطوسي في علم الموسيقى

بسم الله الرحمن الرحيم

● قال المولى الأعظم، نصير الملة والحق والدين، الطوسي برّد الله مضجعه، وعطر مرقده: علم الموسيقى يتألف من علمين:

أحدهما: العلم بالتأليف، وهو نسب الأصوات الواقعة في النغم المختلفة في الثقل والحدة ــ لا في الجهارة والخفاتة(1) ــ على وجه تقبله الطباع.

والثاني: العلم بالايقاع، وهو النظام الواقع بين أزمنة السكونات المتخللة بين النقرات والنغمات، ومنه أوزان الشعر.

وكل نغمتين مختلفتين في الثقل والحدة تسميان بـ «البعد» والتفاوت بين النغم فيهما يقاس بالتفاوت الواقع في الأعداد.

وأعظم الأبعاد الواقعة في أي لحن كان تكونعلى نسبة ضعف الضعف وهي نسبة أربعة إلى واحد، ويسمى الضعف في اصطلاحهم بـ «الذي بالكل»، ويسمى ضعف الضعف بـ «الذي بالكل مرتين».

ويليه في العظم(2) «الذي بالكل والخمسة»، وهو نسبة ثلاثة إلى واحد، لأن نسبة الاثنين إلى الواحد(3) هي نسبة الذي بالكل، ونسبة الثلاثة إلى الاثنين(4) نسبة الذي بالخمسة، وهو الزائد نصفاً، وإنما سمي «بالخمسة» لأن الانتقال من أحد طرفيه إلى الآخر لا يكون مستعملاً(5) إلا بخمسة أصوات، مثاله:

ليكن أحد الطرفين ثمانية، ويكون الطرف الآخر اثني عشر، والانتقال يكون هكذا: الطرف الأول ثمانية، ويُنتقل منها إلى اثني عشر وهذه خمسة.

وبُعد الذي بالكل والخمسة يكون: «الذي بالكل» وهو نسبة اثنين إلى واحد ــ أعني الضعف ــ وبعدَه «الذي بالخمسة» وقد مر ذكره، وبُعد «الذي بالأربعة» وهو الزائد ثلثاً، وينتقل من أحد الطرفين إلى الآخر بأربعة أصوات، ولذلك سمي بـ «الذي بالأربعة»، مثاله:

ينتقل من تسعة، إلى عشرة، إلى أحد عشر، إلى اثني عشر، وإذا زيد على التسعة ثلاثة حصل اثني عشر، وينتقل منها إليه بهاتين الواسطتين(6).

وبعده الزائد ربعاً، كنسبة خمسة إلى أربعة[٧]، ثم الزائد خمساً، ثم سدساً إلى ما لا يتناهى. وأصغر الأبعاد المحسوسة: نسبة الزائد جزءاً من خمس وأربعين، وبَعدها لا يُحس بالتفاوت.

والأبعاد: كبار، وصغار. والكبار خمسة، هي:

١ ــ الذي بالكل مرتين.
٢ ــ الذي بالكل والخمسة.
٣ ــ [الذي بالكل].
٤ ــ [الذي بالخمسة][٨].
٥ ــ الذي بالأربعة.

ومن الأبعاد لا يمكن أن ينتقل من أحد طرفيها إلى الآخر إلا بوسائط، وذلك لأن الانتقال يعسر على الطباع، فيبعد عن القبول.

وأما الصغار: فما عداها، وأعظمها الزائد ربعاً، وأصغرها الزائد جزءاً من خمسة وأربعين، والمعتدل المقبول عند أكثر الطباع، الزائد جزءاً من ثمانية ويسمى بـ «الطنيني».

والأصوات الواقعة في الألحان لا تكون مقبولة إلا إذا كانت على نسبة هذه الأعداد، وكانت مرتبة فيها بحيث لا يحس التفاوت بينها وبين المقبولة، ونسب أحوال النبضات المختلفة في القوة والضعف وفي المقدار: بحيث أن تكون على هذه النسب حتى تكون منتظمة.

والمحسوس منها خمسة أبعاد:

١ ــ الذي بالكل والخمسة.
٢ ــ الذي بالكل.
٣ ــ الذي بالخمسة.
٤ ــ الذي بالأربعة.
٥ ــ الزائد ربعاً[٩].

وغير ذلك فما لا يحس في النبض، أو لا يكون مقبولاً في الطبع.

وأما إذا كانت النسب بين مقادير أزمنة الحركات وأزمنة السكونات على حسب الايقاعات المقبولة في الموسيقى، كانت النبضات جيدة الوزن، وما لم تكن كذلك كانت رديئة الوزن، وذلك على جنس غير جنس الانتظام وعدمه.

والله أعلم بالصواب

الهوامش

(١) في المخطوطة: والحفاوة.
(٢) في المخطوطة: + نسبة.
(٣) في المخطوطة: نسبة الواحد إلى الاثنين.
(٤) في المخطوطة: نسبة الاثنين إلى الثلاثة.
(٥) في المخطوطة: مسعليا.
(٦) في المخطوطة: مهدي الوسطي.
(٧) في المخطوطة: كنسبة اربعة إلى خمسة.
(٨) الرقمان ٣، ٤ ساقطان من المخطوطة.
(٩) الزائد ربعاً أي $\frac{5}{4}$ وهي نسبة بعد الثالثة الكبيرة (Major third) كالبعد «دو ــ مي».

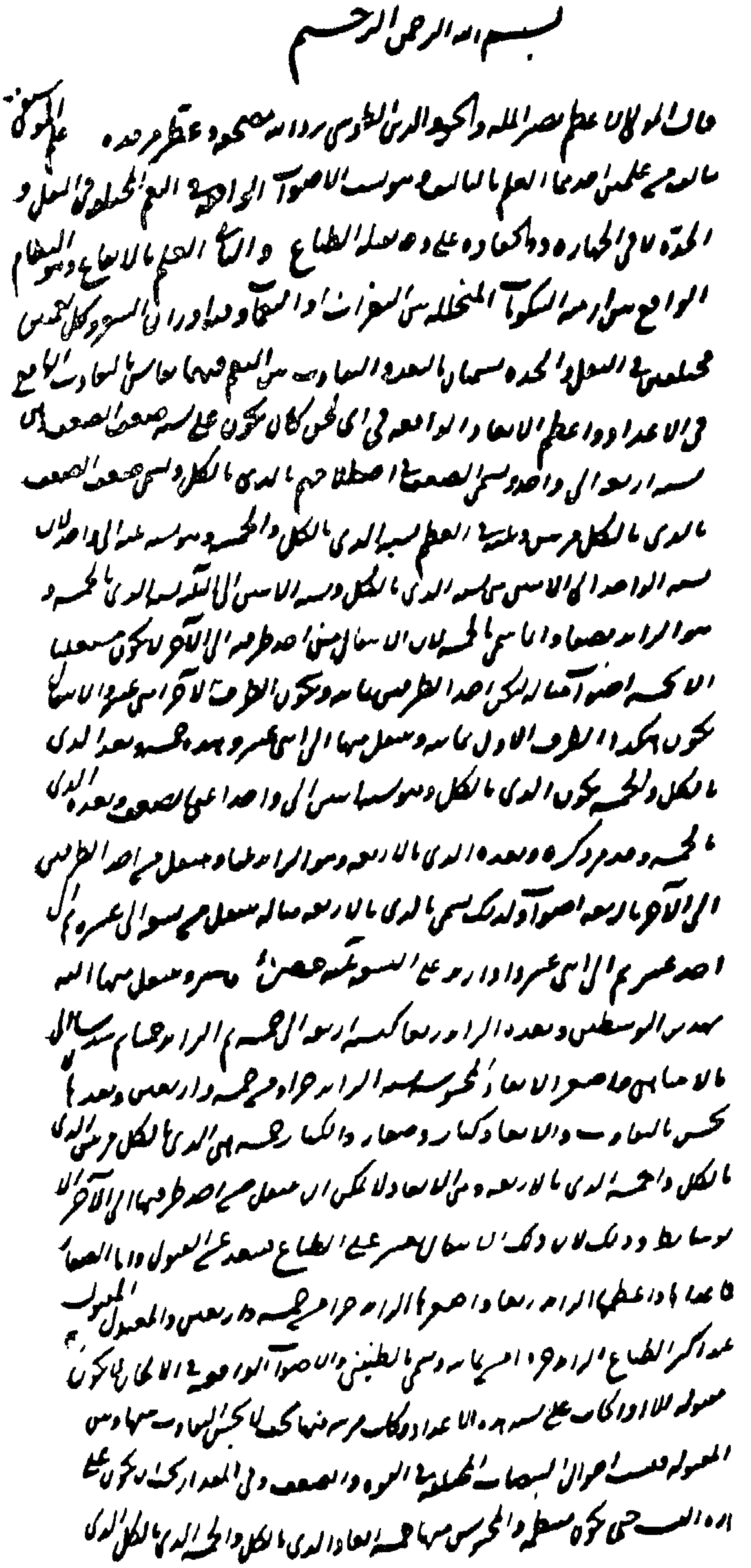

□ النص المخطوط لرسالة الطوسي في علم الموسيقى.

وثائق من التاريخ

القضية الفلسطينية (*)

د. أرنولد توينبي

(*) محاضرة الأستاذ الدكتور ارنولد توينبي، القاها في دار محافظة القاهرة، مساء ١٩٦١/١٢/١٧.

نستعيد فيما يلي محاضرة للأستاذ العالم ارنولد توينبي حول القضية الفلسطينية، وإننا إذ نستعيد هذه المحاضرة اليوم، فإنما نقدمها كوثيقة لموقف تاريخي صادر عن مؤرخ كبير من مؤرخي الغرب، لا لتبيان الحق العربي في فلسطين فحسب، بل كشهادة علمية صادرة عن عالم وباحث كبير.

للقضية الفلسطينية جانبان: إنساني وسياسي، وبديهي أن هذين الجانبين يرتبط أحدهما بالآخر، ولا يمكن أن ندرس أحد الجانبين دون أن نأخذ في الاعتبار الجانب الآخر. إن نظرتي إلى هذه القضية كانت دائما من الزاوية الانسانية، غير أنه من الطبيعي أن يدفعني هذا إلى معالجة المشكلة السياسية أيضا.

وأنا أعني بالجانب الانساني ذلك المصير المؤلم لمليون من الرجال والنساء والأطفال الذين حرموا من ديارهم وممتلكاتهم، وأسوأ من هذا كله من مستقبلهم. إنني أفكر فوق كل اعتبار، في معسكرات اللاجئين في قطاع غزة الذي زرته في سنة ١٩٥٧، إنني أفكر في تلك المدارس التي كان يتعلم فيها الأطفال، ذلك التعليم الذي لا يفتح أمامهم أبواب الأمل في مستقبل سوى أن يظلوا لاجئين.

من المعروف أن هذه ليست المرة الأولى التي يطرد فيها شعب من دياره فراراً من الموت. ففي القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، طرد شعب من مملكتين صغيرتين في فلسطين هما: إسرائيل ويهوذا، من مكان لا يتفق وحدود دولة إسرائيل الراهنة، وإنما هو في الواقع ذلك الجزء من دولة الأردن العربية الذي يقع على الضفة الغربية لنهر الأردن. وإنها لمأساة من مآسي الضمير أن يرتكب أحفاد اليهود الذين طردوا مرة من بلادهم في حق عرب فلسطين في أيامنا هذه ألوان الاضطهاد التي عانى منها أجدادهم. فأي أمل هناك للانسانية إذا ما أنزلنا بغيرنا نفس المظالم التي عانينا منها نحن أنفسنا. إن التجارب التي نمر فيها ونكون ضحاياها يجب أن تمنعنا من أن نضحي بإخوان لنا في الانسانية.

وفي الماضي كان طرد شعب من دياره بالقوة من الأمور التي ينظر إليها على أنها من النكبات العادية التي تتعرض لها الحياة البشرية. ولكن الغريب، والمفزع بصفة خاصة، حول طرد عرب فلسطين في سنة ١٩٤٨، هو أنه في هذا العصر أصبحت مثل هذه المعاملة التي يلقاها شعب ما على يد شعب آخر موضع استنكار من جانب الرأي العام للجنس البشري، وحين استولى الاسرائيليون بالقوة على ديار عرب فلسطين وممتلكاتهم، لم يرتكبوا خطيئة ضد ضميرهم فحسب في ضوء تجربة اليهود السابقة، بل كذلك ضد الضمير الانساني كله.

وبالاضافة إلى ذلك، كان عرب فلسطين ضحايا أبرياء. وبديهي أن الغالبية العظمى دائماً في أية مجموعة من المجموعات البشرية هي التي يقع عليها الاضطهاد. خذ مثلاً الألمان الذين أصبحوا لاجئين في ألمانيا الغربية من تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية والأراضي الألمانية التي ضمت إلى بولندا وإلى الاتحاد السوفييتي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥، ومن المحتمل أن أقلية ضئيلة من هؤلاء اللاجئين كانوا نازيين. ولكنهم كانوا مواطنين ألمان، وكمواطنين ألمان، فإن كلًّا منهم يتحمل بعض المسؤولية، مهما كانت ضئيلة في السماح لهتلر بالاستيلاء على السلطة في ألمانيا وفي الاحتفاظ بها. وعلى ذلك فهم يتحملون بعض المسؤولية في الجرائم التي ارتكبها النازيون، لا شك في أن التشريد كان عقاباً أقسى مما تستحقه الغالبية منهم، ومع ذلك لا نستطيع أن نقول أنهم كانوا جميعاً أبرياء تماماً من جرائم النازية وعلى العكس من ذلك كان عرب فلسطين أبرياء براءة كاملة من الجرائم التي ارتكبها الألمان في حق اليهود إبان الحكم النازي. فالألمان، وليس العرب، هم الذين ارتكبوا جريمة استئصال يهود أوروبا. لقد قتل الألمان اليهود.

ومع ذلك فقد دفع عرب فلسطين ثمن ذلك.

وبعد هزيمة ألمانيا وسقوط النظام النازي ارتضت الدول الغربية المنتصرة أن تعوض الأحياء من اليهود، مقابل الجرائم الألمانية على حساب عرب فلسطين.

أنا أفهم أن يطالب اليهود، بعد تجربتهم على يد النازية، بإقليم في مكان ما من العالم، يصبحون فيه سادة أنفسهم ويبقى ملجأ لأي يهودي قد يتعرض في المستقبل لما فعله النازيون من قبل. ولكنه إذا كان من حق اليهود أن يطالبوا بأرض ما، فإن ذلك كان يجب أن يتحقق على حساب تلك الأمة الغربية التي فعلت كل ما في طاقتها لاستئصال اليهود. وإذا كان إنشاء دولة إسرائيلية جديدة تعويضاً مشروعاً للأحياء من اليهود، فإن المنطقة التي تقع فيها هذه الدولة كانت يجب أن تؤخذ من الأوروبيين لا من العرب، وعلى ذلك فدولة إسرائيل الجديدة كان يجب أن تقتطع من وسط أوروبا لا من فلسطين العربية.

إن هذه المسألة تبدو بالنسبة لي سهلة وواضحة، ولكن حدث مرة حين كنت ألقي محاضرة في بلد من البلدان الغربية «لم تكن ألمانيا ولا بريطانيا» أن قوبل هذا الكلام بالضحك. ولم يكن الضاحكون من اليهود بل كانوا غربيين من غير اليهود. وكان البلد الذي ألقيت فيه هذه المحاضرة من البلدان التي عرفت بمعارضتها للاستعمار، ومع ذلك فقد سخر أبناء هذا البلد عندما سمعوا اقتراحي، لأنهم رأوا أنه ليس من المعقول أن تقبل أمة غربية دفع ثمن الجرائم التي ارتكبتها داخل حدودها وإن الدين الأدبي في عنق الغرب لدى اليهود يمكن أن يوفى بمنح اليهود أرض شعب من الشعوب غير الغربية التي لم ترتكب إثماً في حق اليهود على الإطلاق.

ولقد أفزعتني هذه السخرية لأنها كشفت لي عن إصرار مخيف للعقلية الاستعمارية، فأرض أي شعب غربي مهما كان ذنبه يجب أن تظل في رأيهم مقدسة لا لشيء إلا لأنها أرض للغرب. أما بلاد شعب بريء غير غربي، فيمكن أن تسلمها الدولة الغربية المنتصرة تسليماً شرعياً لليهود. إن مثل هذا الموقف هو بمثابة إعلان

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA مكتبة الاسكندرية

□ ارنولد توينبي

صريح لعدم المساواة بين القطاعات الغربية والقطاعات غير الغربية من الجنس البشري. إنها ادعاء بأن الغرب مميز مهما تكن أخطاؤه. إنها نكران للحقوق العالمية للانسان التي هي من حق كل رجل أو امرأة أو طفل في العالم بقطع النظر عن الاختلافات في درجة الحضارة أو الدين أو القومية والجنس.

نصيب بريطانيا بمسؤولية المصير الراهن للاجئي فلسطين

لقد قدمت نقداً عاماً لموقف الغرب من طرد عرب فلسطين. ولأني انجليزي فإنه يتحتم علي أن أسترسل لمناقشة نصيب بلادي الخاص بمسؤولية الغرب العامة. إن المسؤولية الخاصة لبريطانيا كبيرة. فقد كانت تحتل فلسطين مدة ثلاثين سنة (١٩١٨ ــ ١٩٤٨) إلى ما قبل نكبة فلسطين في سنة ١٩٤٨. وكانت الحكومة البريطانية هي التي أصدرت وعد بلفور وكان لها القول الفصل في وضع صك الانتداب الذي ظلت

انجلترا تحكم بمقتضاه منذ ١٩٢٢). وأنا أوجه اللوم إلى انجلترا حول موضوعين بالذات:

(أ) لقد خلقت بريطانيا آملاً في أذهان عرب فلسطين وفي أذهان اليهود الصهاينة تتعارض بعضها مع بعض:

لقد لوحت بريطانيا لعرب فلسطين بأمل هو أن يكون لهم آخر الأمر دولة قومية في فلسطين. وكان الانتداب البريطاني في فلسطين من الدرجة التي أطلق عليها (انتداب من درجة أ) وبمقتضاه تتعهد الدولة صاحبة الانتداب بأن تمهد السبيل لاستقلال البلد الخاضع للانتداب.

وفي الوقت الذي وضع فيه الانتداب على فلسطين وأصبح نافذ المفعول، كان العرب يمثلون ٩٠ ٪ على الأقل بالنسبة إلى جميع سكان فلسطين ولذلك كان من الطبيعي أن يتوقعوا أن تكون الدولة المستقلة التي يقود إليها الانتداب دولة عربية قومية بها أقلية صغيرة من اليهود وغيرهم من العناصر غير العربية.

وفي نفس الوقت سمحت بريطانيا لليهود الصهاينة بأن يؤملوا في تكوين دولة يهودية في فلسطين. وربما كان ما أمل فيه اليهود أبعد منالاً مما أمل فيه العرب. حقيقة أن كلاً من وعد بلفور والانتداب قد وعد اليهود بوطن قومي وليس بدولة قومية في فلسطين، ولكن معنى مصطلح (وطن قومي) لم يحدد. فلم تكن هناك إشارة صريحة من شأنها أن تنفي احتمال قيام دولة يهودية في فلسطين. لقد كانت بريطانيا تعلم جيداً أن الدولة اليهودية مطلب الصهاينة ذلك المطلب الذي ظلوا يعملون على تحقيقه. ولقد كان من الطبيعي بالنسبة للصهاينة أن يفترضوا أنه طالما أن بريطانيا لم تستبعد في صراحة موضوع الدولة اليهودية، فهي لن تقاوم تطور الوطن اليهودي إلى دولة يهودية.

وهكذا نرى أن رجل القانون يستطيع أن يدعي أن تعهدات بريطانيا للعرب لا تتعارض وتعهداتها لليهود من الوجهة القانونية البحتة. غير أنه من الناحية العملية لم يكن التفسير القانوني لهذه التعهدات أمراً هاماً، ولكن المهم هي تلك الآمال التي خلقتها هذه التعهدات في عقول العاديين من الناس. هذه الآمال الشرعية التي خلقتها التعهدات البريطانية، كانت دون شك تناقض بعضها البعض ومن شأنها أن تؤدي إلى صراع بين عرب فلسطين واليهود الصهاينة.

(ب) بريطانيا رفضت طوال انتدابها مواجهة الموقف الذي خلقته، لقد رفضت أن تتبع سياسة محددة تعمل على تنفيذها:

لقد كانت فرصة بريطانيا الوحيدة لازالة هذا الصراع الذي خلقته هي أن تتخذ لنفسها سياسة محددة تفرضها على الفريقين. ومهما يكن من شأن هذه السياسة، فمن المؤكد أنها تؤدي إلى خيبة أمل أحد الفريقين إلى حد ما — وتلك هي خطيئة بريطانيا، فقد كان من الواضح أن الآمال التي بعثتها في الفريقين لا تتلاقى مع بعضها.

كان على بريطانيا أن تحدد رأيها، وأن تفصح في مرحلة مبكرة من مراحل الانتداب عن نوع الاستقلال الذي وعدت به العرب وعن نوع الوطن القومي الذي وعدت به اليهود. كان في إمكانها أن تقرر إنشاء دولة فلسطينية موحدة، يكون فيها العرب الغالبية كما تضمن فيها الأقلية اليهودية وطناً قومياً لها. أو بدلاً من ذلك كان في وسع انجلترا أن تقرر أن الوطن القومي اليهودي سيقود في النهاية إلى إقامة دولة يهودية قومية في فلسطين وأن فلسطين على ذلك يجب أن تقسم إلى دولتين منفصلتين، دولة كبيرة تضم الغالبية العربية وأخرى صغيرة للأقلية اليهودية.

وترددت بريطانيا، منذ بداية الانتداب حتى نهايته، باتخاذ القرار الحاسم الذي كان من واجبها أن تقدم عليه. وفي مقدمة الأسباب التي أدت إلى فشلها في القيام بواجبها في هذا المجال خوفها من أن تواجه الكراهية التي ستخلقها خيبة آمال اليهود أو العرب أو الاثنين معاً.

لقد كان على بريطانيا أن تتخذ هذا القرار قبل أن يتعقد موقفهم من فلسطين باضطهادات هتلر لليهود في أوروبا — ولم يكن يصح أن يسمح للاجئين اليهود باتخاذ فلسطين ملجأ لهم، بل كان من الواجب أن يمنحوا ملجأ في بريطانيا أو في الولايات المتحدة: فقد كان على هاتين الدولتين أن تفتحا أبوابهما على مصراعيها من أجل الانسانية للاجئين اليهود الهاربين من

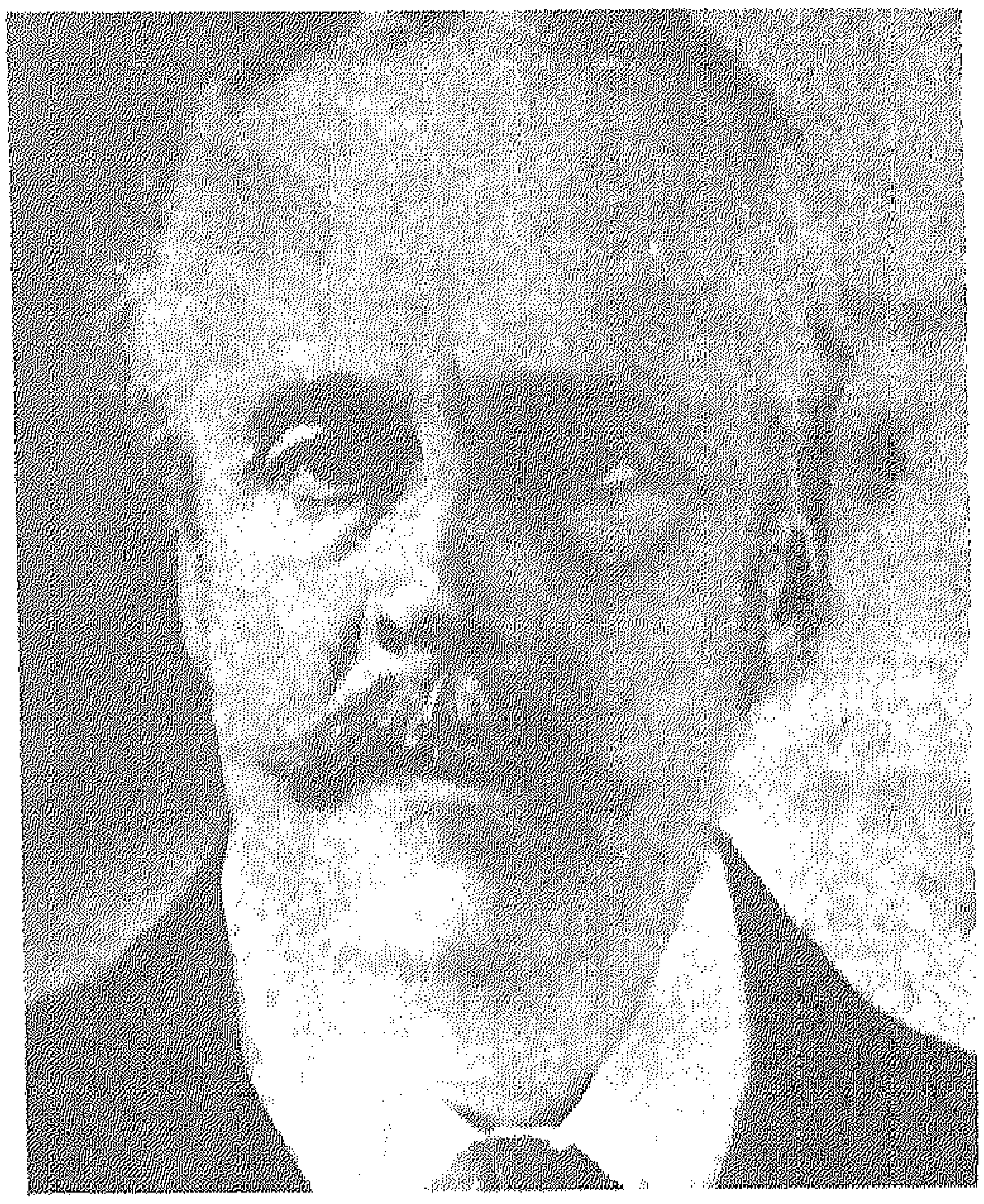

□ بلفور.

الاضطهاد الواقع عليهم من جانب دولة غربية أخرى. وكان في إمكان كل من بريطانيا والولايات المتحدة أن تمتص اللاجئين اليهود الأوروبيين دون أن يترتب على ذلك أية نتائج سياسية خطيرة بالنسبة لهما، كتلك التي نزلت بعرب فلسطين بسبب تدفق اللاجئين اليهود الأوروبيين إلى فلسطين.

فكما ترون إنني ألقي اللوم العنيف على بلادي للحالة الأليمة التي تطورت إليها الأمور في فلسطين.

فلسطين والوحدة العربية

إن الأوضاع الراهنة في فلسطين تثير الألم، ولكن اللاجئين لم يتنازلوا عن حقوقهم. فلا زالوا أصحاب الحق الشرعي في ديارهم وممتلكاتهم، ولا زال لهم الحق في أن يعيشوا في ديارهم وبلادهم. والواقع أن للاجئين الفلسطينيين تلك الحقوق الأساسية التي يجب أن يتمتع بها أي فرد في هذا العالم. لقد استيقظت ضمائر الناس في كل أنحاء العالم نحو هذه الحقوق الانسانية، وبالذات منذ الآلام المروعة التي قاستها الانسانية أبان الحرب العالمية الثانية، إن عصراً يعترف فيه بالحقوق الانسانية دون مجادلة، لا يمكن أن تتجاهل فيه الحقوق الانسانية للعرب. وفي اعتقادي أن أية محاولة لتسوية قضية فلسطين لن تحرز نجاحاً، إذا لم تحقق حقوق عرب فلسطين العادلة.

وإذا تطلعنا إلى المستقبل، لا يملك الفرد إلا أن يسأل نفسه كيف تستطيع الشعوب العربية الأخرى مساعدة عرب فلسطين مساعدة فعالة. من الواضح أن هذا الموضوع شائك إذا تناوله أجنبي بالدراسة، ومع ذلك فأنني أقدم على إبداء رأيي في هذا الموضوع. إنني أظن أن لا شيء يمكن أن يخدم قضية عرب فلسطين كحركة تعمل في سبيل قيام اتحاد وثيق وفعال للعالم العربي كله. وهناك مثل يقول الاتحاد قوة وأنا على ثقة من أن هذا القول سليم إلى أبعد حد وأني لعلى ثقة كذلك من أن العالم العربي كله إذا تكلم بصوت واحد فإن هذا الصوت يسمعه العالم وسينصت إليه باهتمام أكثر مما يفعل الآن. والواقع إنني أعتقد أن هذا الصوت العربي الموحد سيكون أكثر فعالية في تقصير أمد الفترة التي يعاني فيها الفلسطينيون من الظلم الواقع عليهم الآن.

وبديهي أننا نعلم جميعاً العقبات التي تقف أمام الوحدة العربية حتى الآن. إن بعض هذه العقبات تأتي من خارج العالم العربي. غير أن بعض هذه العقبات تنبثق من داخل العالم العربي نفسه. وفي تقديري أن أية قوة خارجية لا تستطيع أن تقف أمام تغلب العرب على هذه العقبات المحلية إذا كان لدى العرب الإرادة اللازمة.

وبصفتي مؤرخاً فإنني أنظر إلى المشاكل الراهنة في ضوء الماضي. لهذا أذكر أن العرب في مناسبة تاريخية سابقة كانوا يواجهون أزمة وهم في حالة التفكك والضعف، وأقصد بذلك الحروب الصليبية فالأزمة التي خلقتها الحرب الصليبية الأولى للعرب والاسلام تشبه تلك الأزمة التي خلقها ظهور دولة إسرائيل. وفي أزمة الحرب الصليبية الأولى لم يكن رد فعل العرب سريعاً، ولكن في النهاية نجح العرب في توحيد صفوفهم توحيداً وثيقاً وعلى نطاق واسع فأنقذوا أنفسهم من الخطر الذي تعرضوا له.

إن العالم العربي عالم كبير، وقد يكون من الطبيعي أن يحتاج انتشار حركة تتجه نحو الوحدة والتعاون في كل البلاد العربية إلى بعض الوقت. فإذا نظرنا إلى المستقبل، فإنني أعتقد أن حركة الوحدة العربية ستسود كما سادت منذ ثمانية قرون. واليوم نجد العالم العربي كله واقعاً تحت ضغط من الخارج، فنحن نعيش في عصر أصبح فيه من الصعب على أية دولة أن تعيش بمفردها. نحن نتحرك إلى عصر الوحدة، فالشعوب الأوروبية تتجه نحو الوحدة مع بعضها البعض بعد فترة من التفكك دامت لأحد عشر قرناً. وهذا الاتجاه الجديد راجع، كما أعتقد، إلى أدراك الشعوب الأوروبية بأن عليها أن تختار بين الاتحاد أو التدهور. وفي رأيي أن نفس العوامل تنتهي إلى نتائج مشابهة بالنسبة للعالم العربي، بل بالنسبة لغيره، من مناطق العالم كذلك. وعلى الشعوب الغربية أن تنظر بعين العطف والتقدير إلى فكرة الوحدة العربية لأن موقف العالم العربي لا يختلف عن موقف الغرب. فالغرب يشعر بأن له تقليداً في الحضارة له قدره في البشرية كلها، ويريد الغرب أن يحافظ على تراثه الغربي باعتباره مساهمة من جانبه في الحضارة البشرية. وللعرب أيضاً نصيبهم الذي يساهمون به في هذه الحضارة البشرية. ولا شك في أن الوحدة العربية والانتعاش العربي سيعودان بالفائدة على العالم كله، فالعرب لديهم الكثير ليقدموه إلى إخوانهم في الإنسانية.

إنني أدرك أنني أعالج موضوعاً شديد الحساسية تتعدد فيه وجهات النظر، وأنا أخاطر بإبداء وجهة نظري، لأني أهتم اهتماماً مخلصاً بخير العرب جميعاً، وليست لي مصلحة خاصة في ذلك. وعلى قدر ما أستطيع أن أتبين مشاعري، فإني إنسان لا مصلحة له، يتمنى الخير للاجئين العرب الفلسطينيين بصفة خاصة والعالم العربي كله بصفة عامة.

إن الوحدة العربية موضوع دقيق. ويكفيني في هذا المجال أن أقول إنني أتطلع لأرى أكبر عدد ممكن من اللاجئين الفلسطينيين، ليس فقط وقد استردوا ديارهم وممتلكاتهم، بل وعادوا كذلك إلى بلادهم في ظل حكومة عربية فلسطينية. وفي نفس الوقت أتطلع لأرى اللاجئين الفلسطينيين يتمتعون بحياة معقولة على أية طريقة ممكنة دون أدنى مساومة على حقوقهم الشرعية في استعادة ممتلكاتهم وديارهم.

أفلاطون (٤٢٧ ق. م. ـــ ٣٤٧ ق. م.)

● فيلسوف أغريقي ومفكر سياسي مثالي. ولد في أثينا ومات فيها. أسس ٣٨٨ أكاديمية في أثينا لتدريب الساسة. كتب حوالي عام ٣٨٠ كتابه الشهير «الجمهورية» تدخل مرتين في السياسة لانشاء دولة فلسفية في سراتوسيا، وفشل. تنازل عن بعض مثالياته في كتابه اللاحق «القوانين» كتابه الثالث «رجل الدولة» وسط بين الكتابين الأول والثاني.

تقوم فكرة «الجمهورية» على النخبة القادرة على الحكم. الشعب عاجز عن المشاركة. طبقات الجمهورية ثلاث: الفلاسفة، الطبقة الوسطى من الجنود والموظفين، والطبقة الدنيا من الحرفيين والعامة. الفلاسفة يحكمون بفكرة المستبد المستنير. لا يملكون ولا ينتمون للعائلة. يعيشون في شيوعية (كومونة) بدائية العامة يستطيعون التملك والانتماء للعائلة. الطبقة الحاكمة تتنازل عن الثروة مقابل لذائذ الجاه ومتعة الفكر.

تنازل أفلاطون عن تصوره الشيوعي في كتابه «القوانين». سبق أفلاطون كل مفكري السياسة في حديثه عن الدعاية وتقسيم العمل والاشتراكية وتحرير المرأة. لا تزال مؤلفاته مصدر إلهام لكثير من المفكرين السياسيين. لم يؤثر أفلاطون في الفكر العربي كما أثر تلميذه أرسطو.

ملامح من العصر العباسي

الاستاذ خليل الهنداوي

يكاد يتفق المؤرخون على أن لوجه العصر العباسي ملامح وسمات تختلف عن ملامح وسمات وجه العصر الأموي، لا لأن هنا رجالا عباسيين، وهنالك رجالا امويين، بل لأن الدولة العربية التي شاهدت النور، تبعا لتحفزها وخروجها من أرض الرمال، استطاعت ان تؤسس اول دولة عربية في التاريخ، تضاهي بسعتها وعظمتها أية دولة سابقة في المنطقة، وخارج حدود المنطقة، وانساحت شرقا وغربا، وتهادت شمالا وجنوبا، حاملة سلطانها ونفوذها، وخصائص مجتمعها وبيئتها، ومكنونات عبقريتها.

وكل دولة تنشأ من جديد، لا بد أن تخضع لنظام تكوين الامم والدول — كما أبان ابن خلدون في مقدمته — فهي أول ما تعي وجودها، وتتمرد على حدودها، تخرج كتلة متراصة طالبة فسحات المكان، في أقل زمان، معتمدة على عقيدة أمدتها بالقوة، لتغرس عقيدتها، وتثور على ما كان يحد من قوميتها الضائعة، وتفتح لنفسها آفاقا جديدة، بكل ما تجيز لها وسائل الفتوح والغلبة.

سمات العصر العباسي الأول

وقد كان العمل الأول لهذه الدولة الجديدة أن ترسي كيانها القومي، وتجمع أشتاتها التي فرقتها العصبيات والقبليات في صميم مواطنها، وأن تجد لها متنفساً رحيباً لهذه القوة الكامنة في أعماقها، فإذا هذه القوة الحبيسة تتفجر فجأة بعوامل عقيدة لاءمت مزاجها، ووحدت شتاتها، وتخرج لأول مرة في تاريخها إلى العالم الرحيب الذي لا عهد لها به من قبل!

هذا كان شأن الدولة — في العهد الأموي — حيث توالت الفتوحات وانفرجت أمامها المسافات، في الحين الذي كانت تعاني فيه تمزقاً داخلياً، حتى إذا انحسر الحكم الأموي الذي وطد هذه الدولة، وحل محله الحكم العباسي، رأينا المد المنطلق يتجمد، ويسود وضع من الاكتفاء في عالم الغزو والفتوح، لينهض غزو آخر يختلف شكلاً وغاية عن الغزو السابق، يهدف إلى شيء من الاستقرار وتمسك بالمكاسب، وفي الوقت نفسه، يباشر بالانفتاح على نفسيات الشعوب الأخرى، والاطلاع على ما بنته هذه الشعوب من حضارة وثقافة وعلوم للمباشرة بعملية طرح واقتباس!.

وفي مثل هذه الحالة، لا بد للعرب من أن يتخلصوا من «عقدة التفوق والاكتفاء الذاتي في الثقافة» إذ ليس في عالم الثقافة اكتفاء ذاتي. وتلك هي سنة الطبيعة في كل شعب ينطلق غازياً، وينتهي مستفيداً مما وقعت عليه يداه.

على أن هذه العقدة في التفوق بقيت ملازمة للعرب في اللغة والأدب والشعر، ما دامت هذه الخصائص من مقوماتها القومية، وقد زاد هذه الخصائص تقديراً في عيونهم أن اللغة العربية التي خاطب الله بها الناس في قرآنه كافة، لا بد أن تكون اللغة المصطفاة من بين اللغات بأدبها وشعرها وبيانها.

ولكنهم وجدوا فجأة أن اللغة ليست بكل شيء في حياتهم الجديدة، ووجدوا أن أشياء كثيرة تفوتهم من معرفة الحياة الواقعية، وسمعوا

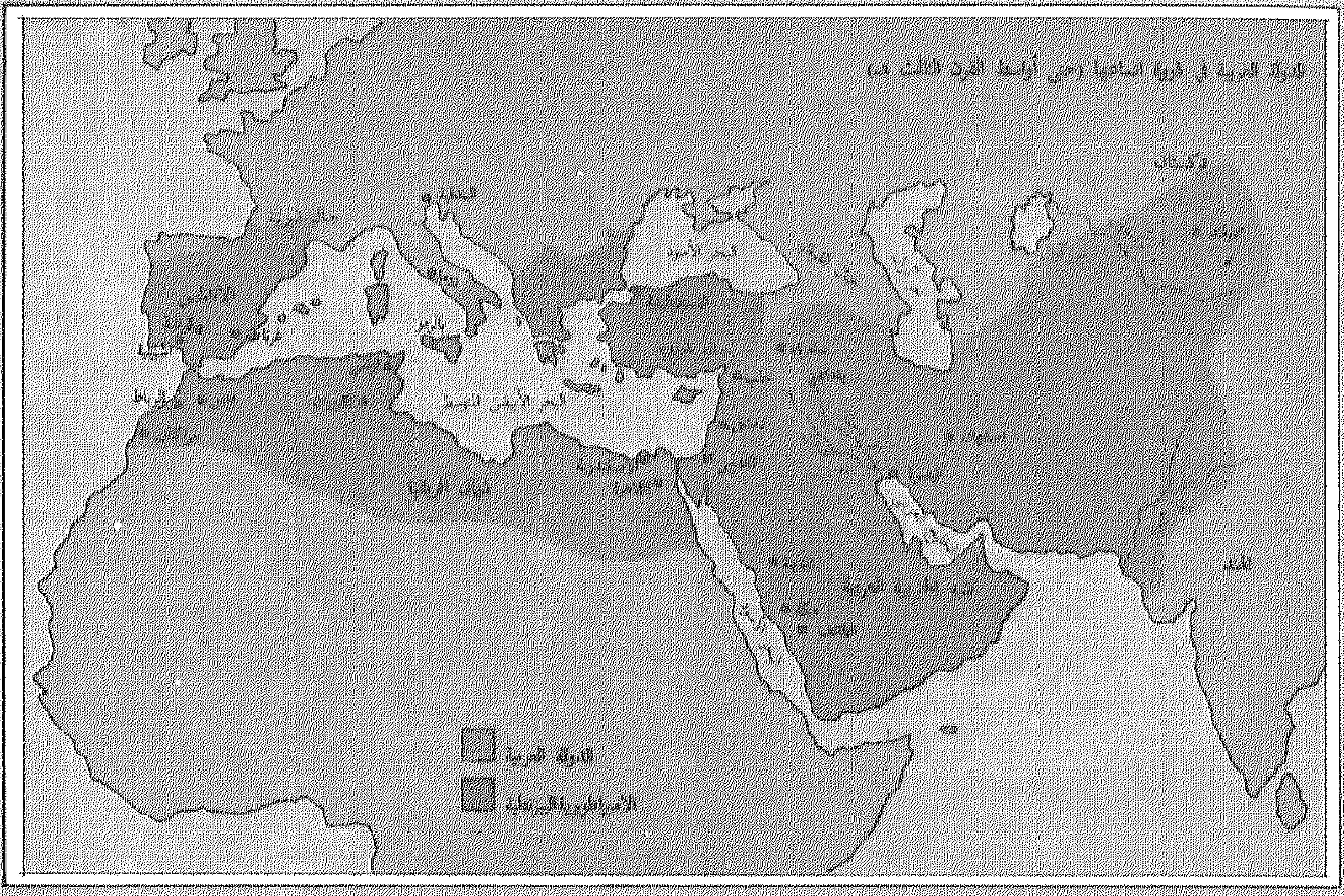

□ الدولة العربية التي انساحت شرقاً وغرباً، بلغت ذروة اتساعها في اواسط القرن الثالث الهجري.

بأشياء كثيرة لم يرد منها شيء في صميم لغتهم... ذلك هو مجال العلم والفكر المنطلق الذي همه أن يسأل، ويكتشف، فكيف، يا ترى، يقبلون على هذا العالم الجديد؟

دوافع النهوض العلمي

إن تعاليم القرآن لا تحدد عمل العقل، ولا تصد عن طلب العلم، وفيه مثل هذا القول: «وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون»، بل هذه التعاليم طالما حضتهم على طلب التفكير، ووجوب السياحة في الأرض طلباً للمعرفة. وإذا كانت علومهم محصورة باللغة والشعر، والقرآن وتفسيره، وأخبار العرب فلماذا لا يفتحون المنافذ على علوم الأولين الأخرى، والافادة منها في دنياهم؟

وكانت أولى غزواتهم نحو العلوم العملية، لأن غريزة الانسان تدفعه إليها بصورة طبيعية، فالانسان يريد أن يعرف جسمه قبل أن يعرف نفسه... هذا الجسم الذي كان العرب يتعهدونه بعقاقير ابتدائية، رأوا غيرهم يعودون في تطبيبه إلى وصفات أرقى، ودراسات أوفى، فاتجهوا نحوها، وكان الرائد «خالد بن يزيد بن معاوية» الذي بويع بالخلافة، فأقام ثلاثة أشهر، وغلب عليه حب العلم، فاستقال من الخلافة، وفر من تبعاتها. وأول ما خطر بباله حب الطب والكيمياء، فأمر بإحضار جماعة من علماء اليونان ممن كان ينزل مصر، وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل شيء من كتبهم، فكان أول من نقل من لغة إلى لغة، وكان ـ كما قال الجاحظ ـ أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء.

ثم فتح بعده باب النقل على مصراعيه، وساعد على فتحه اهتمام الحكام بأجسادهم، ولا بد لهم، في هذه الحالة، من أطباء علماء يحذقون معرفة الداء، ووصف الدواء، فأدنوا منهم المشهورين، من أمم مختلفة، ثم اقتبسوا العلوم العملية من مصادرها بواسطة السريان وغيرهم، وعرجوا على علم الفلك والنجوم والكيمياء ودراسة المعادن لتكون طريقاً إلى الثروة.

حتى إذا فتحوا هذه الأبواب، ألفوا أنفسهم أمام خصوم لهم في العقيدة، يذودون عن تعاليم دينهم بلغة ولهجة لم يعهدوها في خصومهم الابتدائيين الذين وردت حججهم في كثير من آيات القرآن، وهي لهجة الذين يعتمدون على الفلسفة اليونانية التي تتكىء على المنطق، والمدرسة الأفلاطونية الحديثة التي اصطبغت بالتعاليم المسيحية حتى لونتها بها.

وإذاً، فإلى المنطق ليكون نفسه معيناً لهم، كما هو معين لخصومهم!

وفي هذه الحالة، لا بد لهم من الرجوع إلى كتب الأقدمين بعدما تفتحت لهم آفاق جديدة، ووجدوا أنفسهم حيالها لا يزالون يحبون على شاطىء المعرفة، فأين هذه الكتب؟ وكيف يستطيعون جلبها وجمعها؟

إن الكثير منها في البلاد التي نزلوها في أرض العراق، حيث كانت مدارس الفلسفة بزعامة السريان، وفي أرض مصر والاسكندرية التي أولاها الرومان عنايتهم، وجعلوها مركزاً للثقافة، كما أن الكثير منها لا يزال في بلاد الروم التي تأثرت بالفكر اليوناني أيام الفتح اليوناني.

وأنى لهم أن يتناولوها؟ ومن لهم بنقلها إلى اللسان العربي لتصبح ملكاً لهم؟ وليس في الثقافات ملك خاص، ولا فكر ينتسب لأناس دون أناس. والفكر كالنور يحاول دائماً أن يتسرب من منفذ إلى منفذ، وينتقل من أمة إلى أمة، وهنيئاً للأمة المجدودة التي تفتح للنور منافذها كلها!

لقد انتهى العصر الأموي، ولم تكن الغزوات العلمية فيه إلا على نطاق محدود، وكانت صفات الرجل المثقف فيه ضيقة، محدودة. ولعل «عبدالحميد الكاتب» أعطانا في وصيته المشهورة للكتاب صورة للرجل المثقف الذي يود أن يكون كاتباً «قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه، وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به، أخذ من صنوف الآداب، وتفهم في الدين، وبدأ بعلم كتاب الله، والفرائض، ثم العربية، ورواية الأشعار، ومعرفة الغريب والمعاني، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها، والنظر في الحساب».

ومن يتأمل في هذه الوصية يجد أنها امتدت إلى نواح كثيرة من الأمد الثقافي، ولكن الفلسفة ما زالت بعيدة عن الرواق العربي!

□ أرسطو، ألمع رؤوس الفلسفة اليونانية، اكتسب الجنسية العربية بفضل منطقه.

ولما هدأت حدة الفتوحات، وانحسر المد، ليقف عند حد، واكتفت الدولة العباسية بتجميد الحدود في الشرق والغرب، مدت نشاطها إلى «الفتوحات» العلمية التي لا بد منها لأمة تريد أن تنشىء وتبني الحياة، واتخذت سنة لها الاطلاع على «العلم الانساني» الذي يتمثل فيما قدمه الفكر اليوناني والفارسي والهندي اطلاعاً لم يتقيد بهوى أو تفوق أو تعصب.

وكان من حسن حظ العرب أنهم لم ينقصهم «الوسيط» بينهم وبين هذا الفكر، لأن اليونان، مثلاً، وإن اندثرت دولتهم كفاتحين فإن معالمهم الفكرية والعلمية بقيت ماثلة في كل موطن نزلوه، واستقروا فيه. كما كان من حسن حظ الانسانية أن يكون العرب هم الورثة لهذا الفكر. لأن من سبقهم من الأمم شغلهم النزاع، وصرفهم ضيق العقيدة عن الإفادة من هذا الفكر. فالتجأ الفكر اليوناني إلى الأديرة السحيقة، والصوامع المهجورة، والأقبية الباردة المظلمة، يلفه ظلام على

ظلام، وتأكل صحائفه الأرض، ويحيا منه ما يتلاءم مع ما يلائم عقيدتهم.

وجاء خلفاء ــ في العصر العباسي ــ بالرغم من المنازعات الداخلية، والخارجية أحياناً، يولون هذا الفكر عنايتهم، ويتركون له مكاناً في حياتهم، مستفيدين من جملة رجال ألموا بالفكر والفلسفة، وترجموا بأنفسهم بعض الآثار الكافية لصرف الأنظار إليها، شأن ابن المقفع في ترجماته عن الفارسية واليونانية المنقولة، وسواه.

وكأنما الدولة أعلنت ــ بدون مرسوم ــ أنها لا تجد مانعاً في هذه الترجمات ما دامت لا تمس الدين، ولكن مثل هذا المنع لا يمكن أن يحصر، والعقل الباحث لا يعرف حدوداً، ولا يلتزم قيوداً، بل يغريه مثل هذا المنع أن يتوق إلى أشياء، ويزداد شكاً في أشياء، وإعراضاً عن أشياء، مهما تشددت الدولة، وبالغت في الذود عن العقيدة!

وهكذا نستطيع أن نزعم أن عهد الرحلات العلمية قد بدأ، منذ العصر العباسي الذهبي، ولكن ينبغي ألا نفهم من هذا أن هناك انطلاقاً واسعاً لمفهوم هذه الرحلات، لأن الرحلات الحقيقية التي تستهدف الارتحال والانتقال لم تبدأ إلا في العصور المتأخرة، ولا سيما بعد ترجمة ما يتصل بمعرفة الأرض وممالكها، وأقطارها وسكانها!

وقلما كان يرحل عالم من موطن إلى غيره، فالبيزنطيون لم يكونوا مولعين بالرحلات، وليس هناك في تاريخهم أوصاف لبغداد، وانطاكية، والقدس، وقرطبة، أو لغير بلد من البلدان الخاضعة للنفوذ العربي، كتبها رحالون بيزنطيون، كما أن عدد الرحالة العرب الذين زاروا القسطنطينية أو أماكن أخرى في الامبراطورية ــ قبل الحروب الصليبية ــ كان ضئيلاً جداً.

الخلفاء والارتحال العلمي

ولعل أول رحالة عربي وصف القسطنطينية هو «هارون بن يحيى» فقد زارها ترجيحاً في زمن الامبراطور باسيل الأول (٨٦٧ ــ ٨٨٦م) ولم يكن تاجراً ولا سائحاً، وإنما كان أسيراً وقع في أيدي الروم، وأتي به عن طريق البحر إلى العاصمة، فوصف ما رآه بعينيه، من أبواب

□ الفارابي الفيلسوف.

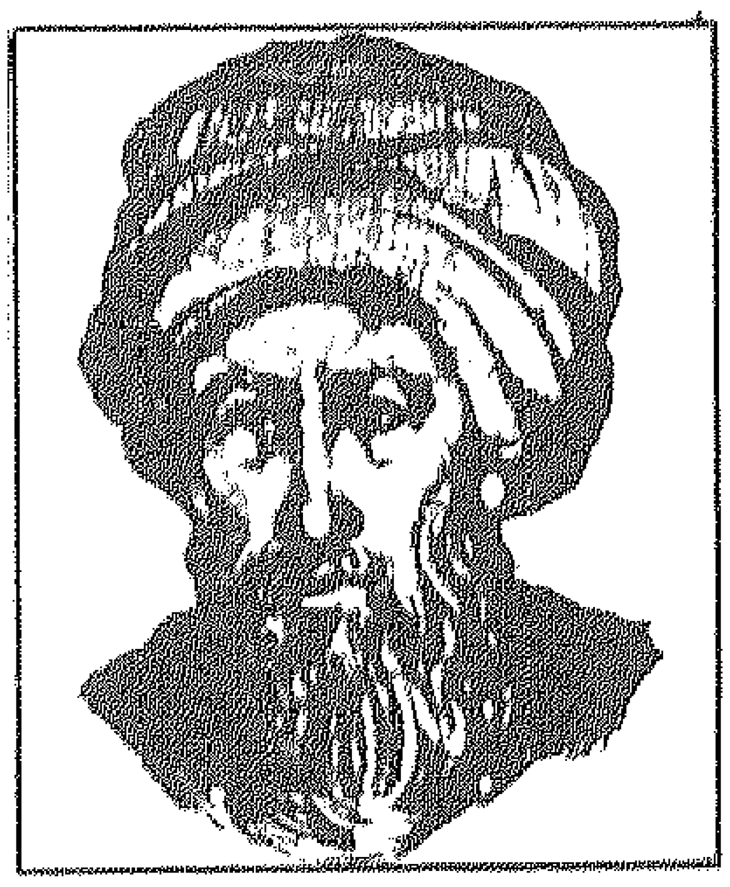

□ ابن رشد الفيلسوف.

المدينة، والقصر الملكي. ووصف موكب الامبراطور في طريقه إلى الكنيسة الكبرى «أيا صوفيا» وتمال «جوستنيان» وقناطر الماء.

على أن الارتحال في طلب العلم لم يكن من الأمور المستحدثة في الاسلام، ولكنه كان أمراً شائعاً بالنظر إلى قلة أسباب النشر، وصعوبة نسخ الكتب. وهو ارتحال مختص بالوطن الواحد، كما فعل طلاب اللغة والحديث والشعر في ارتحالهم إلى البادية ومواطن العلم، وكما كان يرحل النصارى في بلاد الروم لاتقان ديانتهم.

وهذا أبو جعفر المنصور ذكروا أنه بعث إلى ملك الروم في طلب كتب العلم، فأرسل إليه، وكان من جملة ما بعث كتاب «اقليدس».

وهذا الرشيد الذي توالت غاراته على بلاد الروم ذكروا أنه غنم ــ فيما غنم ــ طائفة من المخطوطات اليونانية كان معظمها في عمورية وأنقرة، وعرضها على خاصة من العلماء ليبدأوا النظر فيها، ونقل الصالح منها، فكان ذلك إيذاناً بإعلان الغزوات الثقافية التي ترافق الغزوات الحربية.

ومن ذلك ما رواه صاحب الأغاني: «قدم رسول لملك الروم إلى الرشيد، فسأل عن أبي العتاهية، وأنشده شيئاً من شعره، وكان الرسول يحسن العربية، فمضى الرسول إلى ملك الروم وذكره له، فكتب ملك الروم إليه، ورد رسوله إلى الرشيد يسأله أن يوجه بأبي العتاهية نحوه، ويأخذ فيه رهائن من أراد. وألح في ذلك، فكلم الرشيد أبا العتاهية في ذلك، فاستعفى منه وأباه».

حتى إذا جاء عصر المأمون، وعصر المأمون نفسه، لم يكن عصراً هادئاً مستقراً، ففي عصره عانت الدولة أكبر خلاف لم تشهد له مثيلاً بين أخوين يتصارعان على الخلافة والملك، وكان من وراء صراعهما عقليتان مختلفتان، وسياستان متنافستان بين العرب والفرس. كما أن الروم لم تهدأ تحرشاتهم على الحدود. بل ربما أطمعهم الخلاف الداخلي بتشديد الغارات على الثغور. ولكن المأمون ــ بما يملك من دهاء وفطنة ــ استطاع أن يمكن الحكم لنفسه، وإن ظل هذا الحكم مترجرجاً.

والمأمون نفسه لم يكن بشخصية عادية، لها من الحاكم زيه، بل كان ينطوي على شخصية ثانية تختلف عن الشخصية الحاكمة، شخصية من أوتي ثقافة واسعة مختلفة الجوانب، جعلته يهوى العلم، ومملكة العلم. ولذلك لم يكن بعجيب على مثل المأمون أن يأذن بالرحلات العلمية التي نريد منها «رحلات العقول» للتبادلات الثقافية بين الأمم، وضم التراث الفكري إلى تراث فكري لكي تواصل الانسانية به مسيرها نحو محجة واحدة.

والمؤرخون يروون كيف مال المأمون إلى طلب العلم ــ مما كان سبباً للنهضة العلمية والفلسفية ــ في حادثة تكاد تكون من الأساطير. ويا حبذا الأساطير إذا كانت طريقاً إلى النور!!

روى «ابن النديم» صاحب الفهرست كما روى سواه: «قال المأمون: رأيت فيما يرى النائم كأن رجلاً على كرسي، جالساً في المجلس الذي أجلس فيه، فتهيبته، وتعاظمته، وسألت عنه، فقيل لي: «إنه ارسطا طاليس» فقلت: أسأله عن شيء! فسألته: ما الحسن؟ فقال: ما استحسنته العقول، فقلت: ثم ماذا؟ قال: ما استحسنته الشريعة، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما استحسنه الجمهور. قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم لا ثم!!!».

هذا حلم ليس باليسير وضعه، وهو ــ إن صحت نسبته أو لم تصح ــ لا يدل على ما كان يشغل المأمون نفسه، والمفكرين في عصر المأمون. ولعل هذا الحلم يدور حول المشكلة الكبرى التي ثارت في عصره، وهي تحديد عمل العقل وعمل الشريعة» ولا شك أن نسبة الحسن إلى العقل أولاً تدل على اتجاه المفكرين إلى تقديس العقل، وما يفوت العقل حسنه يتركه إلى الشريعة لترى رأيها فيه، وما يفوت الشريعة فإلى حكم الجماهير... ومن بعد هذا لا حسن!!

والجدير بالملاحظة أن المأمون ورجال طريقته اتجهوا إلى العقل، وربطوا الشريعة بالعقل، لأن الشريعة ــ في اعتقادهم ــ لا يمكنها أن تتخطى العقل، وهو الحكم الطبيعي الصادق بين الأشياء. وبانتصارهم للعقل تصدى لهم رجال الشريعة باعتبار أن الشريعة أصح أحكاماً من أحكام العقل، ما دامت إرادة الله تتمثل فيها.

وبانتصار المأمون لحكومة العقل بدأت الفلسفة تزدهر في كنف المأمون وتستمد قوتها وحريتها من هذا الجو الذي اتسع لكل خاطرة وكل مناقشة. ولكي يوطد المأمون حكومة العقل الذي جعله أرسطو الحاكم الأول والناقد الأول التفت إلى كتب الفلاسفة يجمعها من مظانها، ويوجه العلماء في رحلات علمية لجمعها.

ومن هذه الرحلات الغريبة أن المأمون علم بقصة كتب الفلسفة المخزونة عند الروم، فشغله أمر حبسها، وحبس أصحابها معها، فأحب أن يكون له شرف إخراج هذه الكتب من ظلمات الأقبية الموصدة التي دسها الروم فيها «لإبعاد العقيدة المسيحية عن ضلالها وكفرها». وقد واتته الفرصة يوم تغلب على الروم في إحدى وقائعه، فإذا هو يضع شرطاً غريباً في شروط الصلح، وهو أن يأخذ بدلاً من غرامة الذهب والسلاح كتباً. وما كان أشد سرور الروم بهذا العرض، لأنهم رأوا فيه كسباً لهم ينقذ أموالهم لهم، ويخلصهم من هذه الكتب المضللة، بينما وجد المأمون في تلبيتهم هذا الشرط نعمة من نعم الثقافة عليه!

ويبدو أن المأمون لم يكن مبتدعاً لهذه الطريقة، فقد جاء ما يشبهها في عصر

□ مؤامرة من مؤامرات البلاط يحوكها دمنة مع صاحب الجلالة الأسد، نسخة عربية من كليلة ودمنة التي نقلها ابن المقفع عن الفارسية.

الرسول (صلعم) في أول غزوة له رد بها مشركي مكة في يوم بدر، إذ جعل من شروط فك الأسرى أن يبادر الأسير الذي يعرف القراءة والكتابة إلى تعليم صبيان المسلمين، لأن العلم ــ عند الرسول ــ لا يقل قدراً في عقيدته عن المال... فهنا حرب على أمية الحرف، وهناك حرب على أمية الفكر!

ويذكر المؤرخون أيضاً حادثة مشابهة: بعث المأمون إلى حاكم صقلية المسيحي أن يبادر بأن يرسل إليه مكتبة «صقلية» الغنية بكتبها الفلسفية والعلمية الكثيرة، فتردد الحاكم في إرسالها، مع خوفه من المأمون، فاستشار أصحابه، فأشار عليه المطران الأكبر بقوله: «أرسلها إليه!» فوالله ما دخلت هذه العلوم في أمة إلا أفسدتها ــ وهو يريد أن الفلسفة تفسد الشريعة ــ فعمل الحاكم بمشورته.

وهاتان حادثتان متشابهتان لا تدلان إلا على عقلية «حكيم» قبل أن تدلا على عقلية «حاكم».

وهناك حادثة تشبه من عدة وجوه قصة ملك الروم حين طلب إلى الرشيد أن يبعث إليه بشاعر الزهد «أبي العتاهية» كما ورد، وخلاصة الحادثة تروي أن عالماً رياضياً بارزاً من علماء الروم اسمه «ليو» كان يعيش في القسطنطينية زمن الامبراطور «تيوفيل» وقد امتد صيته في الآفاق بفضل تلاميذه، فسمع به المأمون، فأحب أن يلقاه، فسأله الحضور إلى بلاطه زائراً، فضن الامبراطور به، فأرسل المأمون إلى الامبراطور رسالة شخصية يطلب إليه أن يأذن للرياضي بالحضور إلى بغداد في زورة قصيرة، وقال: «إنه يعتبر ذلك عملاً ودياً» وهو يعرض لقاء ذلك ــ كما تؤكد الرواية ــ صلحاً دائماً، وألفي قطعة ذهبية، ولكن الامبراطور أبى.

وإذا صحت هذه الرواية فإنها لتدل على تقدير الحكام للعلماء في ديارهم، وكل حاكم يضن بمن عنده من أصحاب المواهب، لأنه يرى العلم كنزاً لا يقدر.. فحاكم الروم يأبى أن يخرج من عنده مثل هذا الرياضي الذي يمثل مملكة العقل خوفاً عليه، أو خشية أن يستفيد خصمه من علمه، ونرى المأمون حريصاً على تكريم العلماء، ولو كانوا من الأعداء، لأن صفة العلم ترفع الانسان فوق العداوة والصداقة، وتجعله، بما يملك من هذه المواهب، عالماً إنسانياً.

وربما يذكر هذا العمل بما قامت به الدول المنتصرة، عقب الحرب العالمية الثانية، من تزاحم وتنافس على اصطياد علم العدو وعلمائه، وحملهم إلى معاهدهم، ومختبراتهم للافادة منهم، قبل أن

يضعوا اليد على أرض يملكونها، أو مدن يحتلونها.

وقد يخيل إلى المتأمل الناقد أن هناك تناقضاً في هذه الحوادث، إذ كيف يأذن الروم باستخراج الكتب من الأقبية، وحملها إلى بلاد الأعداء في الوقت الذي يمنعون فيه عالماً أن يبرح أرضهم؟

قد يرجع هذا التناقض إلى أن هنالك فرقاً بين علوم هذه الكتب التي كان ينظر إليها أهل الدين بازدراء واحتراس، لأنها كتب فلسفية، والفلسفة قد تؤذي العقيدة والتخلص منها فضيلة، بينما العالم الرياضي يملك من أسباب العلم ما يساعد على بناء الحصون والقصور، وتشييد الجسور، وغير ذلك مما يكون به قوة للعدو، كما يكون للعالم، في هذه الأيام من قوة الاختراع!

وإن كان ـــ هنالك ـــ ما يعجب فهو أن هؤلاء الخصوم على ما يبلغونه من مرارة الحروب لم ينقطع الاتصال الثقافي بينهم، وهم ـــ فيما اختاروه ـــ كانوا يمثلون نوازعهم، فملك الروم اختار لقاء شاعر الزهد والموت والفناء «أبي العتاهية» بينما اختار المأمون رسالة العلم والحياة. فأيهما نمدح؟ وأيهما كان يحمل في طلبه رسالة الخلق والابداع؟ الحق أن كلتا الرغبتين فيهما كانت تحمل المصير الذي انتهت إليه الأمتان.

وهكذا بدأت الكتب الأجنبية تتوالى على بغداد من كل مكان، حتى أصبحت بغداد أكبر سوق لهذه الكتب، وأدرك الناس أهمية استيرادها من الناحية المادية ـــ فوق الناحية الثقافية ـــ فأصبح المختصون يضربون في آباط الأرض يبحثون، ويشترون منها النفائس، ويحملونها إلى بغداد. فمنها ما تشتريه الدولة من بيت المال، ومنها ما يشتريه الأفراد، ويبيعونه للدولة، أو النقلة الهواة.

وكان على أثر ذلك أنهم وقعوا على كثير من الكنوز المطمورة، ففي قبو مظلم تسكنه الفئران والعناكب في الاسكندرية، عثر العرب على كتب قيمة، وفي آسية الصغرى عثر «محمد بن إسحاق» الذي كان مندوباً عن العرب في البلاط البيزنطي على مكتبة ضخمة في معبد قديم كبير مهجور، وهو يروي قصة ذلك: «لقد رجوت الحاكم أن يفتح لي هذا المعبد، ولكنه ماطل، لأن

□ ابن سينا الطبيب والفيلسوف.

أبواب هذا المعبد لم تفتح منذ اعتنق الروم المسيحية، ولكني لم أكفف عن إغرائه، وعاودته في مناسبات عدة، وطلبت إليه ذلك... وأخيراً وافق على فتحه، فرأيت في هذا المبنى المشيد بأحجار المرمر الفاخرة من الخطوط والرسوم ما لم أر أفخم ولا أجمل! ورأيت من المخطوطات القديمة، منها ما كان ممزقاً، ومنها ما عاثت فيه الأرضة».

وأذن ملك الروم بحمل هذه الكتب، ووسق منها خمسة أحمال إلى بغداد!

ولعل أول رحلة علمية كانت في عهد المأمون قامت بها جماعة من العلماء، منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلم صاحب بيت الحكمة، ويوحنا بن ماسويه وغيرهم بعث بها المأمون بعد استظهاره على ملك الروم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا.

نشاط الترجمة

وأخيراً، تهيأت رحى الترجمة لتطحن!

ولكن العرب لم يعرفوا اليونانية التي كان أكثر المخطوطات بها، وهي ـــ حتى ذلك العهد ـــ تعد لغة العلم ولغة الأدب ولغة الفن! ومن عجب الأيام أن هذه الأمة الصغيرة، القابعة على لسان صغير يمتد إلى البحر الأبيض المتوسط قد مثلت، في تاريخ الحضارة الانسانية، دوراً ضخماً عجزت عنه الأمم الكبرى، حتى عدت بحق رائدة

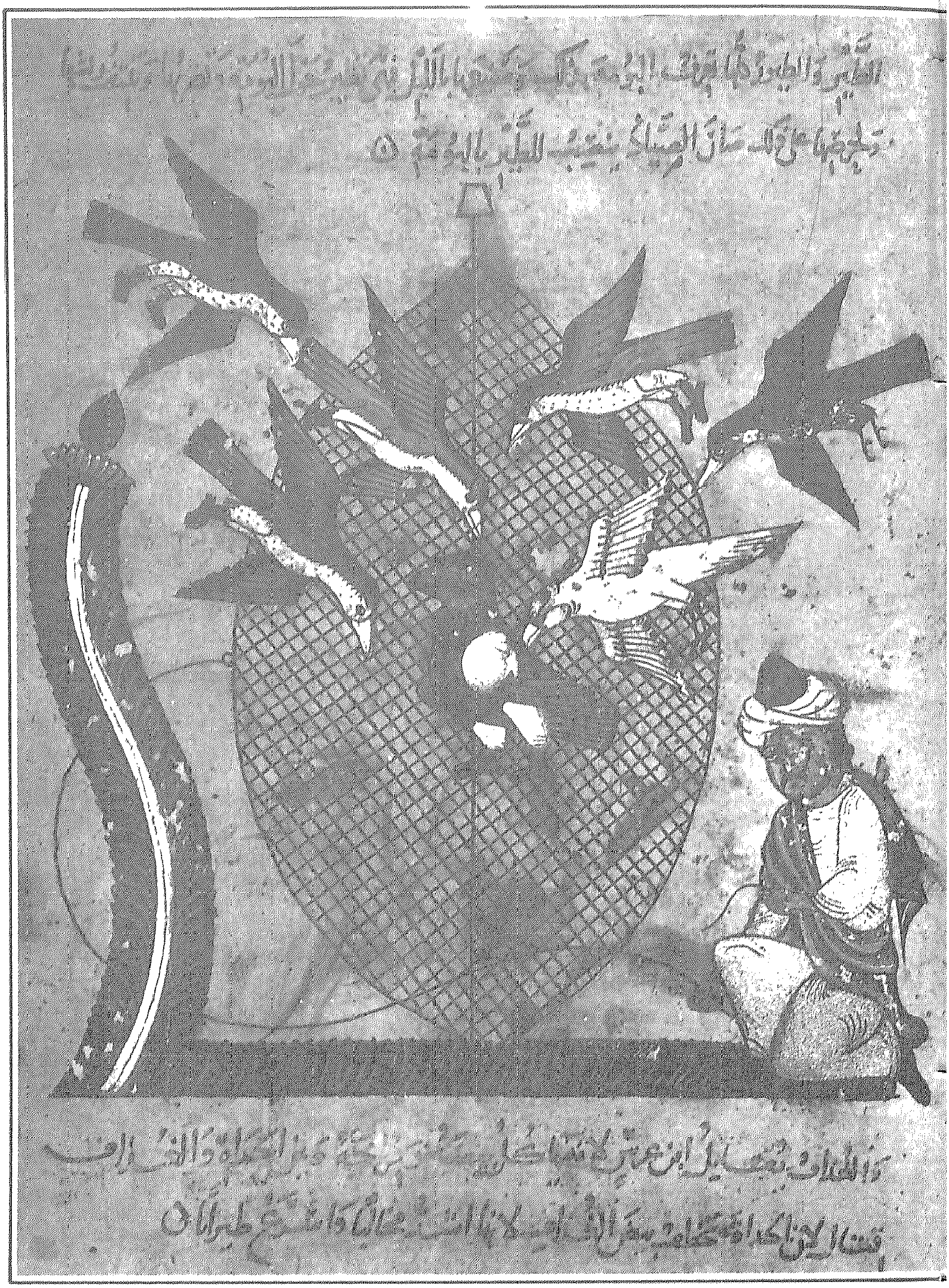

□ الجاحظ، في كتابه «الحيوان».

الحضارة، وقائدة العقول ففي محاريبها شعشع العقل الانساني، وعلى أبوابها تزخرف الفن، ومن أجوائها سطع العلم والأدب، وكأنما أعطت كل ما عندها في فترة قصيرة، ثم ران عليها صمت الموت بعد أن خلدت حياتها ووجودها!

ولكن العرب لم يعدموا الحيلة في الافادة من علوم اليونان، فاعتمدوا في أول أمرهم على ترجمات أخرجها لهم أقوام ألموا بعلومهم ومعارفهم، وبخاصة النساطرة، فكانت طريقتهم — وهم سريانيون — أن ينقلوا الكتاب اليوناني إلى لغتهم السريانية، ثم يبدأون الترجمة من السريانية إلى العربية، وبذا أصبحوا أعظم حلقة للاتصال بين الثقافة اليونانية والاسلام.

على أن هذا لم يمنع أن كان هنالك مصادر أخرى للترجمة عن أمم أخرى كان لها اتصالها المباشر بالعرب كأمة الفرس، ولكن العلم كان يوناني المسحة، ومن شاء التبحر في العلم فلن يجد ما يرويه إلا في الرجوع إلى الكتب اليونانية، وبذلك بدأت العقلية العربية تصطبغ بالصبغة اليونانية التي لم يكن شيء ينافسها في ذلك العصر!

ولكي تصبح الترجمة أصلاً من أصول الدولة أقدم المأمون على عمل لم يسبق لأحد أن قام به، وهو إنشاء ما سماه «بيت الحكمة» ليكون خزانة كتب، ودار علم، ومركز ترجمة، فكان أعظم المعاهد الثقافية، بعد المتحف الاسكندري الذي أسس في القرن الثالث قبل الميلاد وحشد في هذا البيت أكبر الرؤوس ممن ألموا بالعلم والثقافة، وضمن لهم حياتهم ومعاشهم، وأجزل لهم المكافأة والعطاء!

ولكن... ماذا يترجم هؤلاء المترجمون؟ وماذا تريد الدولة والأمة منهم أن يترجموا؟ والتراث اليوناني غزير، متنوع الجداول، يطفح بالعلم والأدب والفلسفة؟

من الطبيعي أن تهتم كل أمة بما يتصل بحياتها وحاجتها، لذلك مال المترجمون — بتوجيه من أولي الأمر — إلى أن ينقلوا من العلوم العملية التي تساعدهم على إصلاح حياتهم ، وحفظ صحتهم، واكتشاف بلادهم، وعجائب العالم البعيد والقريب، ثم ينطلقوا إلى ترجمة كتب الفلسفة والمنطق، بداعي أن هذه الكتب تتصل بالجدل الديني الذي كان يستعر في ذلك الحين بين عقيدة وأخرى، أو بين أهل العقيدة الواحدة، إذ انقسموا شيعاً وفرقاً ومذاهب. فكانت حصيلة ذلك ترجمات لا تحصى من كتب الطب والفلك والرياضيات والجغرافية، وكتب المنطق والفلسفة، حتى كاد — مثلاً — أرسطو، وهو ألمع رؤوس الفلسفة اليونانية، يكتسب الجنسية العربية، بفضل منطقه، ودخل الثقافة العربية باسم «صاحب المنطق» مرة، وباسم «المعلم الأول» مرة.

وإن من سوء الحظ على الأدب العربي أن المترجمين لم يقبلوا على الأدب اليوناني، ولم يهتموا بما ورد فيه، وهو خطيئة كبرى تركت في الأدب العربي فراغاً لا يزال يعاني عواقبه اليوم.

أهي عقدة التفوق صرفت العرب عن نقل الأدب اليوناني؟ أم هي عقدة عدم التذوق لأدب غريب ليس له جذور في بيئتهم وأذواقهم، أم هي جريرة المترجمين الذين اهتموا بالعلوم العملية والنظرية دون أن يهتموا بشعر غيرهم وأدبهم؟ أم هي ضغطة العقيدة التي كانت لا تأذن لأدب وثني أن يقتحم حرم التوحيد؟ كما فعلت العقيدة المسيحية في الدولة البيزنطية، مع أن العرب نقلوا الوجه الوثني من الأدب الفارسي شأنهم في نقل «الشاهنامة» التي تنبع حوادثها من مجوسية الفرس، وهي ليست أقل خطراً على العقيدة من الوثنية اليونانية؟ أم أن المترجمين ترجموا شيئاً من الأدب اليوناني على غير فهم، فأضاعوا رونقه، أم لم يجدوا استجابة في العرب إلى ما ترجموه؟

إنها، والحق، لعلل كثيرة آلت كلها إلى أن الأدب العربي قد خسر خسارة لا تقدر في إهمال هذا المورد الغني الذي أثرى، بعد عصور، الآداب الغربية، وجعلها تحضن الأدب المسرحي، والشعر الملحمي اللذين خلا منهما شعرنا وأدبنا.

وليت الأمر يقف عند هذا الحرمان، إذ أننا بهذا التقصير خسرنا أيضاً الروح الفنية، باعتبار أن الأدب اليوناني والفن اليوناني يشكلان وحدة فنية لا تتجزأ.

وبذلك كتبنا على أنفسنا التبعية للعقل اليوناني، وتمردنا على الفن اليوناني والأدب

□ رسم تخطيطي لتركيب العين، لحنين بن إسحاق (١٩٣ ــ ٢٦٠هـ، ٨٠٩ ــ ٨٧٤م)، الذي يعتبر مترجماً موثوقاً دقيق التمحيص.

اليوناني في الحين الذي كانت الثقافة العربية في حاجة إليهما، وانطلقنا مستسلمين إلى المؤثرات الفارسية التي أساءت إلى توجيهنا الأدبي.

ومما يروون عن هذه التجارب أن «ثاوفيل بن توما الرهاوي» المتوفى سنة ٧٨٥م، وهو منجم الخليفة المهدي، نقل شيئاً من الياذة هوميروس إلى العربية، فلم تحدث الترجمة أثراً يشبه الأثر الذي أحدثه نقل العلوم والفلسفة، فأقلع عنه.

ونحن لا نملك شيئاً من هذا الأثر حتى يصح حكمنا عليه، لأن فقدان الأثر قد يعود إلى سوء الترجمة، أو عدم تفهم الأصل وتذوقه، وترجمة الأدب تختلف في متطلباتها عن ترجمة العلوم، لأن الأدب له رونق وله رواء، إذا فقدهما المترجم أضاع الأصل، والأثر معاً.

وأنا أؤكد أن العلة في ذلك تعود إلى ضعف الترجمة، ولا سيما إذا كانت ترجمة حرفية، بدليل أن العرب جربوا – فيما جربوا – أن ينقلوا «كتاب الشعر» لأرسطو إلى العربية، وبدأت محاولات يدرك المطلع عليها أنها جاءت سيئة الترجمة، غامضة الغرض، لأن من ترجموا لا يملكون ذوقاً أدبياً صافياً. فكان لهذا الكتاب عدة ترجمات بدأت بترجمة «أبي بشر بن متى بن يونس» من السريانية إلى العربية، ثم ترجمه الفارابي الفيلسوف باسم «رسالة في قوانين صناعة الشعراء» ثم بترجمة الفيلسوف ابن سينا «لفن الشعر» وردت في كتابه «الشفاء» ثم انتهت بتلخيص للفيلسوف ابن رشد الذي استطاع بواسطة تصرفه في الترجمة، واعتماده على المقارنة – وهي أول دراسة في الأدب المقارن – بين الشعر العربي واليوناني أن يخلد هذا الكتاب من الناحية النظرية، ولكن ترجمة الكتاب نفسها لم تترك أي أثر في الأدب العربي آنذاك.. ولم يحظ كتاب الشعر بترجمة أصيلة كاملة إلا على يد الدكتور «عبدالرحمن بدوي» في عصرنا الأخير.

ويقيناً أن هذه الترجمة لو صحت من العلل واستقامت في التعبير لآتت أكلها، لأن الأدب لا يستطيع نقله إلا أديب صح ذوقه، واستقام بيانه.

وهناك مثل على ذلك لم يطرقه الباحثون حتى الآن، وهو ترجمة العهد القديم والعهد الجديد، (التوراة والانجيل). فإن الترجمة التي بأيدينا هي ترجمة حديثة العهد، ولكن... هل يعقل أن العرب لم يعرفوا لهذه الكتب المقدسة ترجمة في ذلك العهد؟ وإلا، فكيف يمكنهم أن يجادلوا ويناقشوا فيها بدون الاطلاع عليها؟

إنني أرجح أن العرب قد ترجموا هذه الكتب إلى العربية، والعرب السريان كانوا السابقين إلى ذلك، ولكن أين هذه الترجمات؟ وكيف توارت؟

لقد ذكر المؤرخون ترجمة عربية للعهد القديم اعتمد فيها «حنين بن إسحاق» الترجمة اليونانية، ولكن هذه الترجمة لم تصل. ولا بد أن هذه الترجمة كانت، وأن ترجمة للعهد الجديد كانت أيضاً، ولكنهما قد فقدتا كما فقد الكثير من الآثار المترجمة. وإلا، فبماذا نعلل ما أورده صاحب كتاب «عيون الأخبار» ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ من الاستشهاد ببعض أقوال في الانجيل؟ وهي مترجمة عن الأصل ترجمة عربية صحيحة، يعجز عن إدراك بيانها ما بين أيدينا من ترجمات حديثة.

ومن ذلك: وقرأت في الانجيل: «لا تجعلوا كنوزكم في الأرض حيث يفسدها السوس والدود، وحيث ينقب السراق. ولكن اجعلوا كنوزكم في السماء، فإنه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم. إن العين هي سراج الجسد، فإذا كانت عينك صحيحة فإن جسدك كله مضيء...

ولا يهمنكم ما في غد، فإن غداً مكتف بهمه، وحسب اليوم شره. وكما تدينون تدانون، وبالمكيال الذي تكيلون يكال لكم وكيف تبصر القذاة في عين أخيك ولا تبصر السارية في عينك؟ لا تعطوا الكلاب القدس! ولا تلقوا لؤلؤكم للخنازير! سلوا تعطوا! وابتغوا تجدوا! واستفتحوا يفتح لكم! وانظروا الذي تحبون أن يأتي الناس إليكم فأتوا إليهم مثله.

ادخلوا الباب الضيق، فإن الباب والطريق إلى التهلكة عريضان، والذين يسلكونهما كثير، وما أضيق الباب والطريق اللذين يبلغان إلى الحياة! والذين يسلكونهما قليل!». ●

مؤامرات ومخابرات سرية (١)

روسيا، إنكلترا، فرنسا، إيطالية
إتفاق على إقتسام أملاك الدولة التركية

إعداد: شذا عدرة

تعتبر معاهدة سايكس ـــ بيكو (١٦ أيار / مايو ١٩١٦)، بعد الحرب العالمية الأولى، من أخطر المعاهدات التي فرضها الاستعمار على الأمة العربية والتي كان لها الأثر البعيد في تاريخها فيما بعد. فقد هدف الحلفاء، وخاصة بريطانيا وفرنسا، إلى تمزيق وحدة الولايات العربية الواقعة ضمن الامبراطورية العثمانية وتوزيعها بين بريطانيا وفرنسا، بقصد استعمارها واستثمارها والحيلولة، أبدا، دون وحدتها.

كانت وليدة جشع وأطماع الحلفاء الاستعمارية، ونتيجة مكر وخداع سياسة بريطانيا التي كانت تفاوض الشريف حسين طوال عام ١٩١٥ وتغريه وتمنيه بالوعود الكاذبة، في الوقت نفسه كانت تجلس مع فرنسا وروسيا القيصرية للتفاوض سرا في تجزئة البلاد العربية.

وهكذا فإن سايكس ـــ بيكو، ليست إلا معاهدة متممة لمؤامرات ومخابرات سرية تمت بين انكلترا، فرنسا وروسيا القيصرية، ومن ثم ايطاليا التي انضمت في النهاية إلى الحلفاء فقرروا اطلاعها على المفاوضات التي قضت بتقسيم الدولة العثمانية، فيما بينها، بعد نجاح الحرب.

وتجدر الاشارة، إلى أن هذه المفاوضات السرية التي جرت في ربيع عام ١٩١٥ وسبقت المعاهدة المشؤومة، قد بقيت طي الكتمان حتى أذاعها البلاشفة وفضحوا بها غايات المستعمر. وقد سبق لمجلة «تاريخ العرب والعالم» أن نشرت معاهدة سايكس ـــ بيكو مع نصها في العدد السابع / أيار ـــ مايو ١٩٧٩، وفيما يلي تنشر نصوص المفاوضات السرية التي سبقت تلك المعاهدة. ويعتقد أنه ما كان لأحدهما أن يتم دون الآخر.

(١) بقيت هذه المذكرات سرا مكتوما حتى اذاعها البلاشفة وفضحوا بها غايات الحلفاء الاستعمارية.

أبلغ مسيو زانوف وزير خارجية روسية في يوم ٤ آذار سنة ١٩١٥ سفيري إنكلترة وفرنسة في بطرسبرغ مذكرة قال فيها:

ترغب الحكومة الروسية عند ختام الحرب العظمى في ضم الأراضي الآتية إلى ممالكها وهي: مدينة الآستانة مع ضفاف البوسفور الغربية، وبحر مرمرة ومضيق الدردنيل وتراقية الجنوبية حتى خط إينوز ـ ميديه، وسواحل آسية الصغرى الواقعة بين البوسفور حتى نهر سقارية مع بعض المراكز على خليج أزميت وجزر بحر مرمرة وجزيرتي أميروس وتندوس الواقعتين قرب مدخل الدردنيل على أن لا يخل ذلك بما لفرنسة وإنكلترة من حقوق على تلك الأراضي.

فردت الحكومتان على هذه المذكرة ببيان قالتا فيه إنهما توافقان على مطالب الروس بشرط أن تنتهي الحرب بالنجاح السريع وأن توافق روسية على مطالب فرنسة وإنكلترة في الأجزاء الآتية وهي:

١ ـ الاعتراف بحقوق الآستانة ميناء حراً «ترانسيت» وإعلان حرية المضايق للبواخر التجارية.

٢ ـ الاعتراف بحقوق إنكلترة وفرنسة ومصالحهما في آسية، تلك المصالح التي طالما طالبنا بتحديدها تحديداً صحيحاً بعقد اتفاق خاص بينهما وبين روسية.

٣ ـ صيانة الأماكن المقدسة في البلاد الاسلامية والبلاد العربية تحت حكم دولة إسلامية مستقلة.

٤ ـ ضم منطقة الحياد الفارسية إلى منطقة النفوذ البريطاني في إيران.

٥ ـ الاعتراف بأن هذه المطالب قابلة للبحث والتعديل.

وفي يوم ٧ مارس أرسل وزير الخارجية الروسية إلى سفيريه في لندن وباريس رداً على اقتراحات حكومتيهما قال فيه:

إن اتخاذ قرار حاسم في مستقبل العلاقات بين الدول الاسلامية المقرر تأليفها على **أنقاض السلطنة العثمانية** وفصلها عن دولة الخلافة يهم حكومة صاحب الجلالة القيصر لأنه لا يساعد كثيراً على تحقيق الأماني التي تعمل على تحقيقها.

إن حكومة صاحب الجلالة القيصر ترغب من كل قلبها في نزع الخلافة من الترك إلا أنها في الوقت نفسه ترغب من كل قلبها في تأمين حرية الحج وعدم التعرض له بأقل ما يسوء المسلمين.

وحكومة صاحب الجلالة القيصر تؤيد إدخال المنطقة الحيادية في إيران ضمن دائرة نفوذ بريطانية إلا أنها في الوقت نفسه ترى أن تترك اصفهان ويزدشهر التي لا يمكن التفريق بينهما والأراضي المجاورة للمنافع الروسية.

إن المنطقة المحايدة في حدودها الحاضرة عبارة عن رأس داخل في البلاد الأفغانية وهي قريبة من موقع (ذي الفقار) إلى الحدود الروسية ولهذا نرى من اللازم إلحاق قسم من الخط الداخل ضمن الحدود الأفغانية في محيط النفوذ الروسي.

أما مسألة إنشاء الخطوط الحديدية في المنطقة المحايدة فإنها وإن كانت ذات أهمية جدية لحكومة صاحب الجلالة القيصر إلا إنها في الوقت نفسه تعد بأن تدرس هذه النقطة بالاتفاق مع الحكومة البريطانية في المستقبل بصورة ودية تامة وأن لا تعتمد على الاستئثار في هذه النقطة إلى النهاية. إن حكومة صاحب الجلالة القيصر لما كانت مالكة الحرية التامة المطلقة في إدارة المنطقة التي ستخصص لنفوذها في السلطنة العثمانية ولما كانت حائزة على الصلاحية المطلقة في المشاريع المالية والاقتصادية التي ستقوم بها في المستقبل لترقية هذه المنطقة فهي تؤمل المصادقة على هذه الأماني بتمامها.

وهي تؤمل حل المسائل المتعلقة بحدودها في شمالي الأفغان طبقاً للمحادثات التي دارت بينها وبين وزير خارجية بريطانية في العام الماضي.

إنني أرغب منكم بسط هذه الأمور بحذافيرها للسر إدوار غراي وزير خارجية بريطانية والحصول منه على وعد قطعي رسمي بشأن هذه المطالب وإفراغها بقالب نهائي.

فرد عليه المسيو إيزولسكي سفيره في باريس يوم ٨ منه ببرقية قال فيها:

أبلغني المسيو دلكاسه (وزير الخارجية الفرنسوية) إن الحكومة الفرنسوية مستعدة

□ معاهدة سايكس ــ بيكو.

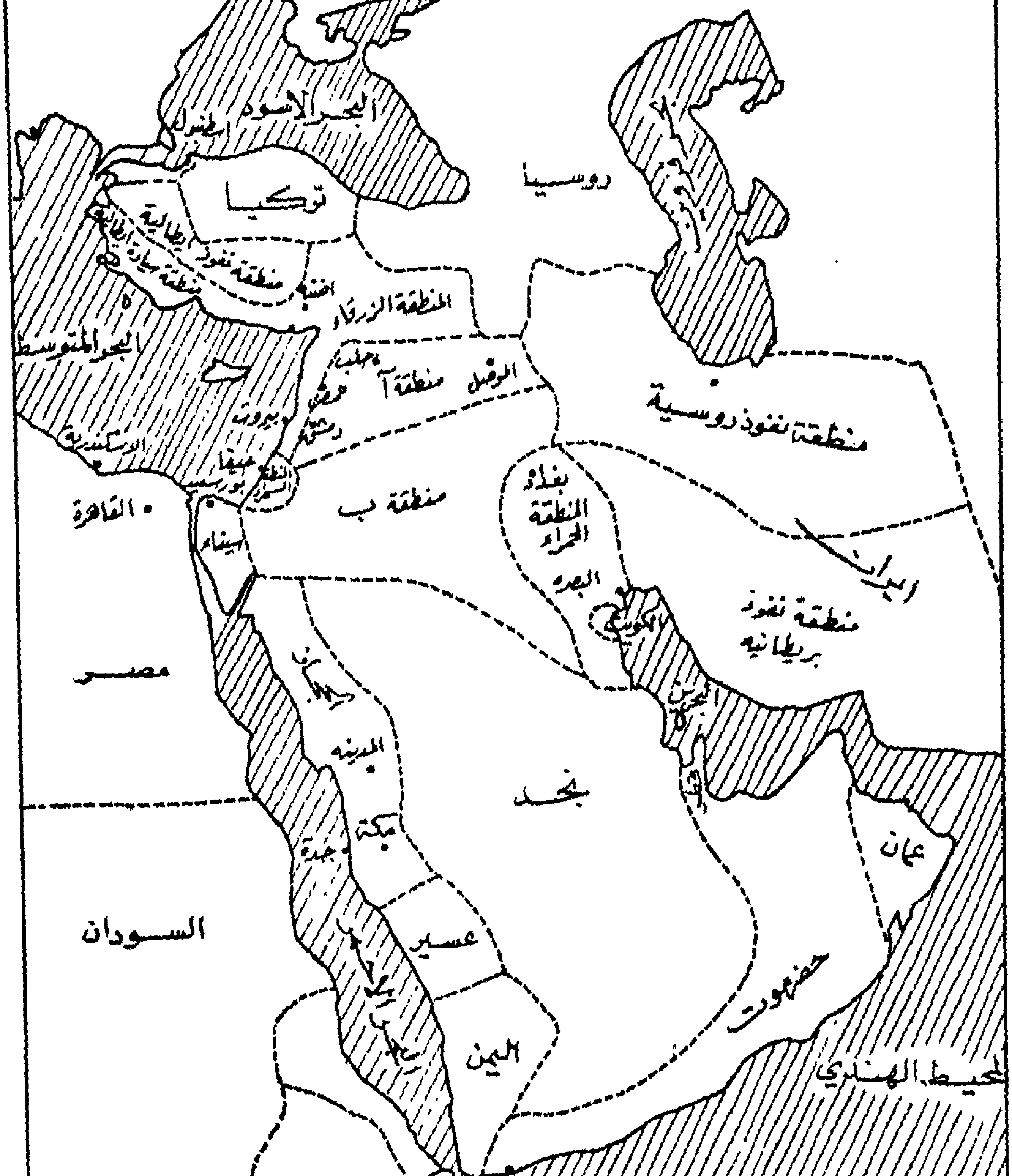

لتأييد وجهة النظر الروسية في ما يتعلق بقضيتي المضايق والآستانة.

وفي يوم ١٨ منه أرسل المسيو سازانوف إلى سفيره في باريس البرقية التالية:

«أرجوكم إبلاغ شكري الحميم إلى المسيو دلكاسه للبيان الذي أدلى به إليكم يوم ٨ مارس بشأن استعداد الحكومة الفرنسية لتأييد وجهة نظرنا في مختلف الشؤون التي بسطناها إليكم في برقيتنا السابقة والخاصة بقضيتي الآستانة والمضايق.

ولما كان المسيو دلكاسه ذكر لكم في اجتماعاته المختلفة أن في إمكانكم أن تكونوا مطمئنين من جهة فرنسة ومن محبتها لروسية ورغبتها الأكيدة في معاضدتها، إلا أنها ترى وجوب أخذ رأي بريطانية نهائياً في الأمر قبل البت فيه خوف الاعتراض.

وبما أن الحكومة البريطانية قد كتبت إلينا اليوم بأنها توافق على ضم المضايق والمناطق المعينة من الآستانة إلى روسية مقابل شروط تختص بمصالحها الاقتصادية على أن تبدي مثل هذا التساهل إزاءها في غير هذه الناحية في الميدان السياسي.

ومع ثقتي العظيمة بالمسيو دلكاسه، واعتقادي بأن أقواله الشفهية كافية، إلا إني أرى من الضروري الحصول على وعد خطي مماثل للوعد البريطاني يطمئن روسية على حصول ما ترغب الحصول عليه في هذا الباب ويكون أدعى للارتياح.

إيطاليا تشترك في المفاوضات

وبينما كانت المفاوضات تدور على هذا المنوال بين العواصم الثلاث قررت إيطالية الانضمام إلى الحلفاء والاشتراك في الحرب فأطلعوها على المفاوضات وهذه صورة التقرير الذي رفعه سفير روسية إلى وزير خارجية حكومته بهذا الشأن.

«أبلغت وزارة خارجية إنكلترة ووزارة الخارجية الايطالية المبادىء التي اتفق عليها الحلفاء لاقتسام السلطنة العثمانية مع أمانينا المبسوطة في برقية ٧ مارس على أثر تقرير هذه الحكومة دخول الحرب العالمية بجانب دول الحلفاء والخروج على الجانب الألماني النمسوي، فأجاب وزير الخارجية الايطالي أنه على استعداد تام لاجابتنا على رغبتنا هذه في حال تعهدنا مع الحلفاء بتحقيق الشروط التالية إذا ما خرج الحلفاء ظافرين من الحرب وهي:

أولاً — أن تعرض **القضية الشرقية** بسائر فروعها على بساط البحث بين دول الحلفاء وإيطالية.

ثانياً — أن تعطى لايطالية في المناطق التي ستضم إلينا سائر الحقوق والتعهدات التي ستعطى لفرنسة وبريطانية بصورة مساوية.

ثالثاً — أن تعترف الحكومة الروسية بالمنطقة التي ستعطى إلى إيطالية في المملكة العثمانية.

رابعاً — أن تكون حصة إيطالية في البلاد التي ستسلخ عن السلطنة العثمانية مساوية تماماً للأراضي التي ستعطى لفرنسة وبريطانية.

ثم أرسل سفير روسية في لندن إلى وزير الخارجية الروسية برقية حدد فيها مطالب إيطاليا تحديداً نهائياً وهذه صورة البرقية:

أولاً — إن الحكومة الايطالية توافق الحكومة الروسية على الشروط التي أدمجتها فيما يتعلق بتأمين حرية مرور السفن من المضايق وتجارة الترانزيت، وتدخل في تأليف اللجنة العليا التي ستتولى مراقبة المضايق على أن يكون رأيها مساوياً لرأي فرنسة وبريطانية في اللجنة المذكورة.

ثانياً — إن الحكومة الايطالية تؤيد رأي الحكومة الروسية بضرورة فصل الحكومة الاسلامية التي ستؤسس في الحجاز على أنقاض السلطة العثمانية عن الخلافة، وأن تكون تحت مطلق نفوذ بريطانية.

ثالثاً — إن الحكومة الايطالية تؤيد بكل قواها نزع الخلافة من الأتراك وإلغاءها بتاتاً إذا اقتضى الأمر.

رابعاً — إن الحكومة الايطالية تساعد بكل قواها الفكرة الروسية القائلة بوجوب تأمين حرية طريق الحج، وأن تكون هذه الطريق تحت حماية الدول المتعاقدة.

المعاهدة
الروسية ــ الانكليزية ــ الفرنسية[1]

بناء على المفاوضات التي دارت بين بريطانية العظمى وفرنسة وروسية في ربيع سنة ١٩١٥ في لندن وباريس.

وبناء على اقتناع هذه الدول المتحالفة بوجوب إنقاذ الأمم الخاضعة للسلطنة العثمانية واقتسامها مناطق نفوذ فيما بينها.

ولما كانت الأكثرية الساحقة من أبناء هذه البلاد راغبة جد الرغبة في الخلاص من تحكم الحكومة الحاضرة.

ولما كان الواجب يقضي بضرورة العمل على تدريب هذه الشعوب فقد تقرر ما يلي:

المادة الأولى ــ تتعهد فرنسة وبريطانية العظمى وروسية فيما بينها أن تعمل يداً واحدة في سبيل إنقاذ البلاد العربية، وحمايتها وتأليف حكومة إسلامية مستقلة فيها تتولى بريطانية مراقبتها وإدارتها.

المادة الثانية ــ تتعهد الدول المتعاقدة بحماية الحج وتسهيل سائر السبل المؤدية إلى مرور الحجاج وعدم الاعتداء عليهم.

المادة الثالثة ــ تقسم البلاد العثمانية إلى مناطق نفوذ بين الدول المتعاقدة على الوجه التالي:

منطقة نفوذ دولة روسية

أولاً ــ تضم إلى روسية المناطق التالية:

(أ) ولايتا أرضروم وبتليس والمناطق التابعة لهما.

(ب) الاراضي الكائنة جنوبي كردستان، وتمتد على خط من ولاية موش إلى سعرد، ومن هناك تنحدر إلى جزيرة ابن عمرو؛ ثم تتبع خطاً مستقيماً إلى العمادية، ومنها إلى الحدود الايرانية.

(ج) تتجه نقطة الحدود هذه من موش شمالاً، إلى البحر الأسود فتدخل طرابزون في سمتها.

(د) تنتهي نقطة حدود روسية على البحر الأسود شرقي طرابزون في منطقة تحدد فيما بعد.

(هـ) تخضع هذه الاراضي خضوعاً تاماً إلى حكومة صاحب الجلالة قيصر روسية وتعتبر من ممتلكاته.

منطقة نفوذ دولة فرنسة

ثانياً ــ تضم إلى منطقة نفوذ فرنسة المناطق التالية:

(أ) السواحل السورية، وتبدأ هذه السواحل من حدود الناقورة مارة بصور وصيدا، فبيروت، فطرابلس، واللاذقية وتنتهي في الاسكندرونة.

(ب) تضم المناطق الساحلية جميعها إلى فرنسة مع الجبل اللبناني المعروفة حدوده بموجب الاتفاق الدولي.

(ج) تضم جزيرة إرواد والمناطق المجاورة لها، والجزر الصغيرة القائمة على الساحل المعرف عنه في الفقرة السابقة

(د) تضم ولاية كليكية إلى النفوذ الفرنسي، وتبدأ حدود هذا الخط من جهة الجنوب من الحدود الخاضعة إلى النفوذ الروسي في جزيرة ابن عمرو ثم تتجه إلى عينتاب وماردين، ثم تنحدر شمالاً من آلاطاغ ــ قيصري، آق طاغ ــ ييلديز طاغ ــ زرعة ــ اكين .

(هـ) تظل هذه المنطقة خاضعة تمام الخضوع للنفوذ الافرنسي.

منطقة نفوذ حكومة بريطانية

ثالثاً ــ تؤلف منطقة النفوذ البريطاني من المناطق التالية:

(أ) تضم المنطقة الممتدة من الحدود الروسية والافرنسية في الخطين المذكورين إلى النفوذ البريطاني، وهذه المنطقة تضم القطر العراقي مع نفس مدينة بغداد.

(ب) السواحل الممتدة من الحدود المصرية إلى حيفا فعكا، حيث تتصل بحدود نفوذ فرنسة.

(ج) تضم المنطقة الممتدة من خليج فارس إلى آخر البحر الاحمر إلى نفوذ بريطانية المطلق.

(د) تؤلف الحكومات العربية عملاً بالمادة الآتية من سكان المناطق المسكونة بالعرب على أن تكون هذه الحكومات حائزة على السيادة والاستقلال اللازم لها، والذي يعين فيما بعد الاتفاق بين الحكومات المتحالفة.

٤ ــ تتألف في المنطقة الكائنة بين منطقتي النفوذ الفرنسي والبريطاني دولة أو حلف دول عربية مستقلة وفقاً لاتفاق خاص بين فرنسة وإنكلترة على أن تحدد حدود هذه الدولة حين عقد هذا الاتفاق.

٥ ــ يكون ميناء اسكندرونة دولياً وتعلن حريتها.

٦ ــ تعتبر فلسطين واماكنها المقدسة منطقة خارجة عن الأراضي التركية، على أن توضع تحت إدارة خاصة وفقاً لاتفاق يعقد بين إنكلترة وفرنسة وروسية بهذا الشأن، وتحدد مناطق نفوذ المتعاهدين ومصالحهم.

٧ ــ تعترف الدول المتعاقدة مبدئياً ومتقابلاً بجميع العقود والامتيازات المعقودة المعطاة قبل الحرب في هذه الأراضي.

٨ ــ تقبل الدول المتعاقدة جانباً من الدين العثماني بنسبة الأراضي التي تمتلكها.

(١) نشر البلاشفة هذه المعاهدة يوم ٢١ شباط سنة ١٩١٨، وكان الحلفاء الثلاثة: «روسيا ــ فرنسا ــ انكلترا» وقعوا هذه المعاهدة يوم ٤ مارس سنة ١٩١٦ في مدينة بطرسبورغ.

مدينة نابلس

قسم التوثيق والأبحاث

مدينة عربية كانت مركزاً لقضاء نابلس في عهد الانتداب البريطاني ثم أصبحت مركزاً للواء نابلس في الضفة الغربية بعد عام ١٩٤٨. وتحولت في منتصف الستينات مركزاً لمحافظة نابلس. وفي عام ١٩٦٧ تعرضت للاحتلال الاسرائيلي واحتفظت بمكانتها كمركز محافظة.

(أ) **الموقع الجغرافي:** تتمتع مدينة نابلس بموقع جغرافي هام. فهي تتوسط إقليم المرتفعات الجبلية الفلسطينية بصفة عامة وجبال نابلس بصفة خاصة. وتعدّ حلقة في سلسلة المدن الجبلية التي ترصّع خط تقسيم المياه على طول امتداد القمم الجبلية من الشمال إلى الجنوب. وتقع على الطريق الرئيسة المعبّدة التي تمتد من صفد والناصرة شمالاً حتى الخليل جنوباً.

وقد أثّرت الأودية المنحدرة من خط تقسيم المياه شرقاً وغرباً في إيجاد المنافذ الطبيعية التي تربط نابلس بكل من وادي الاردن والسهل الساحلي الفلسطيني. فمنطقة نابلس منفتحة على المناطق المجاورة منذ القديم. وقد تأثرت بما حولها عندما استُخدمت طريقاً لمرور الهجرات البشرية والقوافل التجارية والغزوات الحربية.

واستُغلت الأودية الصدعية (الانكسارية) المنحدرة الى وادي الأردن معابر للمواصلات قديماً. واستفادت المواصلات الحديثة من هذه الأودية فامتدت الطرق البرّية المعبدة على طول مجاريها وربطت نابلس بالمدن المجاورة لها في وادي الأردن والسهل الساحلي. وبذلك أصبحت نابلس عقدة مواصلات بريّة تتفرع منها طرق معبدة الى جميع الجهات. وهي تبعد عن القدس ٦٩ كم، وعن عمّان ١١٤كم، وعن البحر المتوسط ٤٢كم. وتربط نابلس بمدن وقرى محافظتها شبكة جيدة من الطرق تصلها بجنين شمالاً، وبطولكرم وقلقيلية غرباً، وبطوباس شرقاً بشمال، وبحوّارة جنوباً.

(ب) **طبيعة الأرض:** نشأت نابلس القديمة في واد طويل مفتوح من الجانبين ممتد بين جبلي عيبال شمالاً وجرزيم جنوباً. وأما نابلس الحديثة فقد امتدت بعمرانها فوق هذين الجبلين. وترتفع المدينة في المتوسط نحو ٥٥٠م عن سطح البحر، ويبلغ ارتفاع جبل عيبال ٩٤٠م وارتفاع جبل الطور (جرزيم) ٨٧٠م. ويقل ارتفاع الأراضي حول هذين الجبلين، سواء في الوادي المحصور بينهما والبالغ طوله نحو ١,٢٢٠م أو في السهول المجاورة لهما حيث يصل ارتفاع الأرض في سهلي عسكر ومخنة (حوّارة) مثلاً نحو ٤٠٠م عن

• الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، الطبعة ١٩٨٤.

سطح البحر. ويستطيع زائر المدينة أن يلمس هذا الفرق الكبير بين ارتفاع الجبال والسهول حينما يهبط من ارتفاع يزيد على ٩٠٠م الى مستوى ٤٠٠م خلال مسافة لا تتجاوز ٥كم.

تنحدر الأودية من منطقة نابلس نحو الغرب والشرق. وأهم الأودية المتجهة غرباً وادي التفاح الذي يبدأ من نابلس ويسير في خانق عميق ليتصل بوادي الزومر في منطقة طولكرم غرباً. وأهم الأودية المتجهة شرقاً وادي الباذان الذي يبدأ من الجبال الواقعة شمالي شرق نابلس ويتزود بمياه الينابيع الصدعية مثل عين الباذان ليصب في وادي الفارعة. وفي فصل الشتاء تفيض مياهه اثر هطول الأمطار الغزيرة فتساهم في زيادة كمية المياه الجارية في وادي الفارعة الذي يرفد نهر الأردن.

(ج) **المناخ والمياه**: ينتمي مناخ نابلس الى مناخ البحر المتوسط الذي يتميز بحرارته وجفافه صيفاً ودفئه وأمطاره شتاءً. ويراوح متوسط درجة الحرارة بين ٩° في شهر كانون الثاني و٢٤° في شهر تموز، ومعدل الرطوبة النسبية بين ٤٦٪ في شهر نيسان و٧٤٪ في شهر كانون الأول.

يزيد متوسط كمية الأمطار السنوية التي تهطل على نابلس على ٦٣١مم. ولكنها تتذبذب من سنة الى أخرى، ومن شهر الى آخر. ففي عام ١٩٣٢/١٩٣٣ كان المتوسط ٩٣٣مم، وارتفع الى ١,٠٤٦مم في عام ١٩٤٢/١٩٤٣. وقد بلغ مجموع الأيام المطيرة في عام ١٩٤٢/١٩٤٣ نحو ٧٨ يوماً هبط الى ٥٩ يوماً في العام الذي تلاه. وتتركز الأمطار في أشهر الشتاء وتبلغ ذروتها في شهر كانون الثاني. وتتفاوت كمية الأمطار من جهة الى أخرى داخل نابلس اذ تتلقى جبال المدينة كميات من الأمطار أكثر مما يهطل على الأودية والسهول الداخلية.

تساهم أمطار نابلس بتزويد خزّانات المياه الجوفية بالمياه فتغذي الينابيع والآبار في المدينة وحولها. وبالرغم من ذلك فقد أخذ استهلاك المدينة من المياه يتزايد في السنوات الأخيرة ويؤثر في المخزون الجوفي منها. وتنتشر الينابيع في أماكن متعددة وتستخدم مياهها في أغراض الشرب والرّي والصناعة. ويتركز كثير من الينابيع في جبل الطور (جرزيم) الذي يتفجر من منحدراته الشمالية ٢٢ ينبوعاً. وأشهر عيون الماء في نابلس رأس العين وعين الصبيان وعين بيت الماء وعين القريون وعين العسل وعين الدفنة.

والآبار قليلة في مدينة نابلس لأن مستوى المياه الجوفية عميق يراوح بين ٩٠٠ و١,٠٠٠م،

أي أنه في مستوى الأغوار. ويعود السبب في ذلك الى أن المياه في نابلس غارت الى أعماق سحيقة بفعل الصدوع والانكسارات في المنطقة.

(د) **النشأة والنمو**: نابلس مدينة كنعانية قديمة استمر فيها السكن منذ أكثر من ٩,٠٠٠ سنة حتى الوقت الحاضر.

١ — **في عهد الكنعانيين**: أسسها الكنعانيون في فلسطين فوق أنقاض مستوطن أقدم يعود للعصر الحجري الحديث بدليل وجود فخاريات أريحا من هذا العصر فيه وفي مجموعة أخرى من القرى الزراعية القديمة مثل اللد ومجدّو وبيسان وتل فارعة وأبو غوش وغيرها. وقد سمّاها الكنعانيون شكيم أي النجد أو الأرض المرتفعة. وقرية شكيم الكنعانية هي قرية بلاطة الحديثة التي تقع على بعد كيلومتر ونصف شرقي مدينة نابلس. وقد وجدت فيها أثناء التنقيبات سلسلة من المعابد الكنعانية التي تعود للعصر البرونزي المتوسط، ويظهر أنها تأسست قبل تحصين القرية بسور يحيط بها. ويعود تاريخ أولى مراحل بناء هذا السور الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد (ر: العصور القديمة).

٢ — **الاحتلال المصري**: عثر على أطلال هذه القرية في موضع بلاطة أثناء التنقيبات التي جرت في عام ١٩١٣/١٩١٤. وتبيّن من آثار جدرانها أنها تعود الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد. وفي هذا القرن احتل المصريون شكيم أثناء حملة قام بها الفرعون سيزوسترس الأول في عهد المملكة الوسطى ١٨٤٠ — ١٧٩٠ق. م. وهناك كثير من الآثار المصرية من هذا العهد وجدت في كثير من المدن الفلسطينية مثل تل العجول وأريحا ومجدّو ولاخيش وشكيم وبيسان. وقد حمل هذا الأمر بعض الباحثين على الاعتقاد بوجود نوع من السيطرة المصرية على تلك المدن في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. وأقدم من سكن شكيم من الكنعانيين الحوّيون والجرزيّون. وشكيم هي أول مدينة نزل فيها ابراهيم الخليل (التكوين ١٢: ٦ — ٨) قادماً من أور، وكان ذلك في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. وعندما أتى يعقوب من فدان آرام نزل في شكيم وابتاع من حمور والد شكيم حقلاً نصب فيه خيمته (التكوين ٣٣: ١٨ — ٢٠). وقد حدث نزاع بين أولاد يعقوب وأهل شكيم بسبب اعتداء شكيم بن حمور على أختهم دينة فهجم أولاد يعقوب على شكيم وقتلوا حمور وابنه ونهبوا مدينة شكيم. وعلى أثر ذلك هاجر يعقوب وعشيرته وسكن في بيت ايل (التكوين ٣٤: ٢٥ — ٢٩، ٣٥: ١ — ٨). ويذكر أن يعقوب عاد فيما بعد الى شكيم.

٣ — **في عهد الهكسوس**: شهدت سورية وفلسطين أثناء حكم الهكسوس في مصر ١٧٨٥ — ١٥٨٠ق. م. عصر ازدهار وانتعاش فتأسست مدن ذات أسوار مثل لاخيش وغزوة ويافا وجزر وبيت شيمش وشكيم ومجدّو وتعنّك. وقد ورد ذكر مدينة شكيم في رسائل تل العمارنة في معرض الكلام عن حركات الخابيرو من بدو الصحراء. وبعد انقسام اليهود على أنفسهم اثر موت سليمان اتخذها يربعام بن نباط عاصمة له في المنطقة المحتلة من شمال فلسطين في سنة ٩٢٣ق. م. ثم بنى عمري مدينة شوميرون (أي برج المراقبة)، وهي السامرة (سبسطية) الواقعة على بعد عشرة كيلومترات شمال غرب نابلس، ونقل العاصمة اليها فقلّت أهمية شكيم.

٤ — **السامريون**: سكنت في مدينة شكيم فئة من اليهود لا تعترف من التوراة بغير الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة الى النبي موسى. وتعرف هذه الفئة بالسامريين نسبة الى السامرة. وقد ناصبهم اليهود العداء منذ ظهورهم، ولا تزال بقاياهم موجودة في مدينة نابلس حتى هذا اليوم، ولا يتجاوز عدد أفرادهم مائتي نسمة.

٥ — **تجديد نابلس في عهد الرومان**: احتل الرومان فلسطين في سنة ٦٣ق. م. وفي زمن فسبازيان (٦٩ — ٧٩م) ثار السامريون على الاحتلال الروماني فحاصرتهم القوات الرومانية في جبل جرزيم وقتلت ١١,٠٠٠ منهم وهدمت مدينة شكيم. وفي سنة ٧٠م أمر فسبازيان بنقل حجارتها وتجديد بنائها في غرب المدينة القديمة وسمّاها نيابولس Neapolis (أي المدينة الجديدة) ومنها لفظ نابلس الحالي.

وفي عهد هادريانوس (١١٧ — ١٣٨م) أقام الرومان معبداً لجوبتر على جرزيم مكان معبد السامريين.

انتصرت المسيحية في القرن الرابع الميلادي على خصومها وانتشرت في نابلس وأصبحت هذه المدينة مركزاً لأسقفية. وفي القرن الخامس بنى المسيحيون على قمة جبل جرزيم كنيسة تخليداً لمريم العذراء. وفي عهد الامبراطور جستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥م) بنى الرومان المسيحيون قلعة مسوّرة بالقرب من كنيسة مريم لا تزال آثارها باقية، وأعادوا بناء خمس كنائس تهدمت في حروب سابقة.

٦ ــ **بعد الفتح الاسلامي**: فتح العرب المسلمون نابلس بقيادة عمرو بن العاص في خلافة أبي بكر الصدّيق (ر ض). وتعهّد المسلمون بحماية من بقي من أهلها على دينه من المسيحيين على أن يدفعوا الجزية عن رقابهم والخراج عن أراضيهم. وأصبحت نابلس بعد الفتح العربي مدينة من مدن جند فلسطين الذي كانت عاصمته اللد ثم الرملة. وفي القرن العاشر الميلادي وصفها المقدسي بقوله: «ان نابلس في الجبال يكثر فيها الزيتون، والجامع في وسطها، وهي مبلّطة ونظيفة ولها نهر جار». وفي تموز سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م استولى عليها الصليبيون بقيادة تنكريد صاحب أنطاكية. وبنى بغدوين الأول (١١٠٠ ــ ١١١٨م) فيها قلعة على رأس جبل جرزيم لحماية قواته. وفي سنة ١١٢٠م عقد فيها بغدوين الثاني (٥١٤هـ/١١١٨م ــ ٥٢٥هـ/١١٣٠م) مجمعاً كنسياً كبيراً. واستولى صلاح الدين الأيوبي بعد انتصاره في معركة حطين (٥٨٣هـ/١١٨٧) على نابلس وضياعها ومزارعها. وقد ذكرها ياقوت الحموي بقوله: «انها مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين كثيرة المياه». وفي سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م أصابها زلزال فتهدمت فيها مبان كثيرة ومات تحت الأنقاض ثلاثون ألفاً من أهلها (ر: الزلازل). وفي سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م استولى عليها التتار. وفي سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م زارها ابن بطوطة فوجدها مدينة عظيمة كثيرة الأشجار والماء ومن أكثر بلاد الشام زيتوناً، وبها مسجد جامع متقن وحسن في وسطه بركة ماء عذب.

٧ ــ **الحكم العثماني**: سيطر العثمانيون على سورية وفلسطين سنة ١٥١٧م، وأصبحت صفد وغزة والقدس ونابلس وبلدان أخرى تابعة لهم بدون حرب. وزارها في سنة ١٠٨٢هـ/١٦٧١م سائح تركي اسمه أوليا جلبي فوجدها مركز لواء تابع لولاية دمشق ويضم مائتي قرية. وذكر مساجدها وسوقها ومدارسها وحمّاماتها وقال انها تقع بين جبلين وتكثر فيها الجنائن والبساتين ومناخها ممتاز وتحيط بها جبال تكسوها الكروم وأشجار الليمون والرمان والتين والزيتون والنخيل.

دخلت نابلس وغيرها من مدن فلسطين سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م تحت الحكم المصري بقيادة ابراهيم باشا. وفي سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م ثار الفلسطينيون فيها على هذا الحكم، ولكن ثورتهم أخفقت. وعادت في سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م الى الحكم العثماني. ولمّا قامت الحرب العالمية الأولى قاست نابلس كثيراً من الارهاق وقلّت صادراتها، وخاصة من الصابون. وفي ٢١/٩/١٩١٨ احتلها الانكليز.

وينسب الى البلاد النابلسية كثير من العلماء والفقهاء والمحدّثين والأدباء والشعراء والاداريين العرب الذين كان لانتاجهم في مجال اختصاصاتهم أثر بارز في التراث العربي. وسكان نابلس يعودون كبقية سكان فلسطين بأنسابهم الى العرب القحطانية والعرب العدنانية. والعدنانيون بعضهم قرشي وبعضهم من قبائل عنزة، والقليل جداً من السكان أتراك أو أكراد أو سامريون. وتمتاز الديار النابلسية على العموم بأسرها وعشائرها العربية العريقة في نسبها، وقد انتشروا في مائة وثلاثين قرية فضلاً عن مدينة نابلس نفسها.

قدّر عدد سكان نابلس عام ١٨٨٢م بنحو ٨,٠٠٠ نسمة أكثرهم من المسلمين، وقدّر عددهم عام ١٨٩٤م بنحو ٩,٠٠٠ نسمة منهم نحو ٦٥٠ من المسيحيين و٢٠٠ من السامريين. وفي أوائل القرن العشرين قدّر عددهم بنحو ١٩,٢٠٠ نسمة. وبلغ مجموع سكان نابلس حسب تعداد سنة ١٩١١ نحو ٢١,٠٧٢ نسمة. وبلغ مجموع أحياء المدينة ستة أحياء تحتوي على قرابة ٥,٠٠٠ منزل. وقد هاجر بعض سكان نابلس منها قبيل الحرب العالمية الأولى وخلالها، وتعرّض

من بقي منهم للمجاعات والأمراض فانخفض عدد السكان.

٨ ــ **الانتداب البريطاني**: زاد عدد سكان نابلس في هذه المرحلة نتيجة الزيادة الطبيعية من جهة وانكماش حركة الهجرة الى خارج المدينة من جهة أخرى، فأصبح عددهم عام ١٩٣١ قرابة ١٧,٤٦٨ كانوا يقيمون في ٥,٨٩٤ بيتاً. وكان معظم بيوت نابلس حتى أوائل الأربعينات يتجمع في وادي نابلس وعند أقدام جبلي عيبال والطور (جرزيم).

قدّر عدد سكان نابلس عام ١٩٤٥ بنحو ٢٣,٢٥٠ نسمة أقام معظمهم في بيوت المدينة القديمة التي امتدت على طول وادي نابلس وفوق أقدام الجبال. وقد عرفت نابلس القديمة حتى ذلك الوقت بأزقتها المعتمة وأسواقها الضيقة وأبنيتها المتلاصقة. ولكن بلدية المدينة سعت لتحسين أوضاعها فقامت بتنفيذ مشروعات كثيرة مثل فتح الشوارع وتوزيع المياه على البيوت وانشاء ملعب ومنتزه عام.

زادت حركة البناء في نابلس بعد الحرب العالمية الأولى. وقد أعطت البلدية في عام ١٩٤٤ وحده ٧٢٨ رخصة بناء. ونتج عن ذلك زحف المباني على طول الوادي، وعلى بعض أجزاء من منحدرات جبلي عيبال والطور (جرزيم) المطلة على وسط المدينة. وقد بدأ بعض السكان يشيدون منازلهم على الجبال خارج المدينة القديمة منذ عام ١٩٣٠. ومما دفعهم الى ذلك زلزال عام ١٩٢٧. واتسعت المدينة حتى أصبحت مساحتها نحو ٥,٥٧١ دونما عام ١٩٤٥.

٩ ــ **بعد ١٩٤٨**: شهدت نابلس كغيرها من مدن الضفة الغربية نموّاً كبيراً في عدد سكّانها ومبانيها لأنها آوت أعداداً كبيرة من اللاجئين للاقامة فيها أو في المخيمات حولها. وزاد الطلب على المباني السكنية فارتفعت أجرة البيوت وأسعار الأرض داخل المدينة. ونشطت حركة البناء بسرعة كبيرة فامتد العمران فوق منحدرات جبلي عيبال والطور (جرزيم) حتى وصل اليوم الى قممهما. وظهر الى الوجود ما يسمى نابلس الجديدة، وهي التي أقيمت بناياتها وشوارعها على طراز حديث. وأحياء نابلس كثيرة منها الحبلة والقيسارية والعقبة والقريون والياسمينة والشويترة التي تعرف أيضاً باسم حارة الغرب. ويدعى القسم الشرقي من المدينة باسم حارة الشرق.

وصل عدد سكان نابلس وفقاً لتعداد عام ١٩٦١ الى نحو ٤٥,٧٧٣ نسمة تألّفوا من ٧,٥١٣ أسرة. وبلغ مجموع أبنية المدينة في العام نفسه ٣,٦٨٩ بيتاً. وفي عام ١٩٦٦ قدّر عدد السكان بنحو ٥٣,٠٠٠ نسمة.

١٠ ــ **بعد ١٩٦٧**: هبط عدد السكان في عام ١٩٦٧ الى ٤٤,٠٠٠ نسمة نتيجة نزوح بعضهم الى الضفة الشرقية للأردن ومغادرة آخرين المدينة للعمل في أقطار الخليج العربي. وبالرغم من عملية النزوح البشري بفعل حرب ١٩٦٧ واحتلال (اسرائيل) للمدينة فقد عاد سكان نابلس الى التزايد كما كانت الحال قبل الاحتلال. ويقدّر عدد السكان عام ١٩٨٠ بنحو ٦٠,٠٠٠ نسمة. وتعزى الزيادة السكانية الى الزيادة الطبيعية التي يربو معدلها على ٣٪ والزيادة الناجمة عن الهجرة الداخلية من المناطق الريفية في محافظة نابلس الى المدينة.

تشرف بلدية نابلس على تنظيم المدينة وفقاً لمخطط هندسي تنظيمي. وقد ارتفعت نفقات البلدية من نحو ١١٨,٠٠٠ دينار عام ١٩٥٦ الى نحو ٤٢٧,٠٠٠ دينار عام ١٩٦٥. وتظهر في المخطط الجديد لنابلس مناطق السكن التالية:

(١) منطقة السكن (أ): تقع شرق المدينة وتشغل جزءاً من السفوح الغربية والشرقية لجبل عيبال بالاضافة الى جزء من سفوح جبل الطور (جرزيم). وهي تتألف من بيوت حديثة فخمة.

(٢) منطقة السكن (ب): وهي أكبر مساحة من المنطقة (أ) وتمتد على سفوح جبل عيبال شمال المنطقة (ج) وتضم معظم المنطقة الغربية، بما في ذلك منطقة الوادي. وتمتد بعرض أقل على جبل الطور (جرزيم) جنوبي المنطقة (ج)، وهي أقل فخامة من المنطقة (أ).

(٣) منطقة السكن (ج): تشغل سفوح الطور (جرزيم) الوسطى وأقدام عيبال الوسطى والغربية. وتمتد هذه المنطقة في مساحة أوسع من المساحة التي تمتد فيها المنطقة (أ) وأصغر من المساحة التي تمتد فيها المنطقة (ب). وتشبه

مبانيها مباني المنطقة (ب).

أما المنطقة الصناعية فتقوم حسب المخطط في سهلي عسكر وبلاطة. وتتركز المنطقة التجارية الرئيسة في الوادي ووسط المدينة، وتنتشر بعض المحلّات التجارية فوق الجبال أيضاً.

(هـ) **التركيب الوظيفي لنابلس**: تتنوع الوظائف التي تمارسها مدينة نابلس منذ القديم بين صناعية وتجارية وزراعية وادارية وثقافية.

١ ـــ **الوظيفة الصناعية**: تعدّ نابلس من أهم المراكز الصناعية في فلسطين. وتعتمد أكثر منتجاتها الصناعية على المواد الخام الزراعية والمحلية. وتتوزع المناطق الصناعية في الأجزاء الشرقية والغربية من نابلس، وتنتشر في قلبها الصناعات الخفيفة كالطحينة والحلاوة والصابون. وقد خصصت البلدية في المخطط التنظيمي للمدينة أجزاء من سهلي عسكر وبلاطة لتكون منطقة صناعية رئيسة في نابلس.

وتقوم بالنشاط الصناعي في نابلس شركات صناعية متخصصة الى جانب الصناعات التي يمارسها الأفراد في محلّات صغيرة. وأهم الصناعات الزيوت النباتية وزيت الزيتون والصابون والجلود وعلب الصفيح والسيرج والحلاوة والطحينة والكبريت والمنسوجات (ر: النسيج، صناعة) وأكياس الورق وعلب الكرتون وطحن الحبوب والحلويات والمرطبات وسكب الحديد وقطع المحركات وأعمال البناء والكهرباء والدهان والحدادة والنجارة.

٢ ـــ **الوظيفة التجارية**: نابلس مركز تجاري هام بالنسبة الى فلسطين عامة ومحافظتها هي خاصة. ومن العوامل التي تساعد على نشاط الحركة التجارية في المدينة تدفق رؤوس الأموال عليها من أبنائها المغتربين الذين يعملون في الخليج العربي. وتستثمر هذه الأموال في تأسيس المصانع واقامة الشركات التجارية.

تتركز معظم الأسواق الرئيسة في وسط نابلس حيث حيّ الأعمال والتجارة. وتشهد المدينة يومياً حركة تجارية نشطة على الصعيدين المحلي والخارجي. فهي تستقبل أبناء الريف الذين يعرضون منتجاتهم للبيع في أسواق نابلس ويشترون منها حاجاتهم. وتستورد المواد الخام اللازمة للصناعة من منطقة نابلس أو من الخارج، وتصدّر المنتجات الصناعية الى المناطق المجاورة والى أسواق الخليج العربي والسعودية. وأهم مستوردات نابلس الحديد والخشب والأدوات الكهربائية، وأهم صادراتها الخضر والجبن والزيوت النباتية وزيت الزيتون والصابون والكبريت.

٣ ـــ **الوظيفة الزراعية**: تساهم الزراعة بنسبة قليلة في اقتصاد المدينة، وتعتمد اعتماداً كبيراً على مياه الأمطار الى جانب اعتمادها القليل على الرّي. وتتركز الزراعة على سفوح الجبال وفي بطون الأودية وتنتج أصناف الفواكه والزيتون والحبوب ومختلف أصناف الخضر. وأما الانتاج الحيواني فيساهم، رغم قلّته، في توفير الغذاء البروتيني للسكان. وأهم المواشي التي يربّيها السكان الضأن والمعز والبقر. وهناك مزارع للدواجن البيّاضة واللاحمة. وتساهم بعض المواد الأولية الزراعية والحيوانية في تشغيل بعض مصانع الأغذية.

٤ ـــ **الوظيفة الادارية**: كانت نابلس مركزاً لقضاء نابلس أثناء فترة الانتداب البريطاني، ثم تحولت الى مركز لواء، فمركز محافظة بعد عام ١٩٤٨. وبلغت مساحة القضاء عام ١٩٤٥ نحو ١,٥٩٢كم²، وضمّ عام ١٩٦٥ مدينة نابلس و١٣٠ قرية صغيرة وكبيرة، وبلغ عدد سكانه نحو ١٧٠,٠٠٠ نسمة حسب تعداد عام ١٩٦١.

٥ ـــ **الوظيفة التعليمية والثقافية**: في نابلس المدارس التالية:

(١) المدارس الرسمية: بلغ مجموعها عام ١٩٤٤ تسع مدارس، خمس منها للذكور. ووصل عددها في العام الدراسي ١٩٦٦/١٩٦٧ الى ٢٩ مدرسة منها ١٤ للبنين.

(٢) المدارس الخاصة: ضمّت نابلس عام ١٩٤٤ مدرستين ابتدائيتين للبنين ومدرسة أخرى للبنات. وفي عام ١٩٦٦/١٩٦٧ بلغ مجموع المدارس الخاصة ١٦ مدرسة يشرف عليها أفراد وجمعيات وطوائف. وأبرز المدارس الوطنية الخاصة مدرسة النجاح التي أصبحت جامعة النجاح. وتضم هذه الجامعة كليات الآداب والتجارة والتربية والعلوم والاقتصاد والادارة، وستنشأ في المستقبل كلية للهندسة فيها. ●

باستور ١٨٢٢-١٨٩٥

لوي باستور عالم الكيمياء والحياة الفرنسي يعتبر أعظم شخصية في تاريخ الطب. فقد ساهم باجتهادات كثيرة في العلوم الحديثة. ولكن فضله الأول يرجع إلى اكتشافه الجراثيم وعلاقتها بالمرض. وأيضاً إلى اكتشافه التطعيم الواقي..

ولد في سنة ١٨٢٢ في مدينة رول شرقي فرنسا. درس العلوم في باريس ولم تظهر عبقريته أيام الدراسة. بل إن أحد أساتذته قد وصفه بأنه تلميذ عادي في الكيمياء أو دون ذلك. ولكن بعد أن حصل على الدكتوراه في سنة ١٨٤٧. أكد لأستاذه هذا أنه كان على خطأ. واكتسب شهرة علمية واسعة وهو ما يزال في العشرينات من عمره. ثم اتجه إلى دراسة ظاهرة التخمر. واهتدى إلى أن سبب التخمر يرجع إلى كائنات جرثومية صغيرة. وأن هذه الكائنات الصغيرة هي المسؤولة عن إفساد المشروبات المخمرة. وبسرعة توصل إلى نتيجة أخرى: أن هذه الكائنات من الممكن أن تؤدي إلى إيذاء الانسان والحيوان.

ولم يكن باستور هو أول من لاحظ ذلك. لقد سبقه كثيرون إلى ذلك. ولكنه هو أول من أثبت بالتجربة صحة نظريته. وهذا وحده هو الذي أدى إلى إقناع كل العلماء في عصره.

فإذا كانت الجراثيم تؤدي إلى الاصابة بالمرض. فإن القضاء على الجراثيم أو منعها سوف يقضي على المرض أو يؤدي إلى الوقاية منه. ولذلك كان أول من دعا إلى استخدام المضادات لوقاية الانسان من المرض. وقد أدى ذلك إلى أن استخدم عالم آخر هو «يوسف ليستر» المضادات عند إجراء العمليات الجراحية.

والبكتريا الضارة من الممكن أن تدخل الجسم الانساني عن طريق ما يأكله وما يشربه. ولذلك ابتدع باستور طريقة اسمها «البسترة» للقضاء على هذه الجراثيم الصغيرة في المشروبات. وقد أدت هذه «البسترة» إلى القضاء على البكتريا التي لوثت اللبن.

وفي الخمسينات من عمره التفت إلى دراسة مرض خطير معد يصيب الانسان والحيوان اسمه «الحمرة» واهتدى إلى أن نوعاً خاصاً من البكتريا هو الذي يسبب هذا المرض. واستطاع أن يقوم بإنتاج «عصيات» ضعيفة لهذا الميكروب. وحقن بها الحيوانات مما أدى إلى حالة مرضية أخف. لا تقتل الحيوان المصاب. بل إنها ساعدت الحيوان على خلق مناعة للاصابة ضد مرض الحمرة.

وهذا المنهج الذي اخترعه باستور لوقاية الحيوانات وتحقيق المناعة لها من هذا المرض. قد هز الأوساط الطبية في العالم. وسرعان ما اكتشف الأطباء أن طريقة باستور هذه من الممكن أن تؤدي إلى الوقاية من أمراض أخرى كثيرة.

كما أن باستور قد استطاع أن يقوم بتطعيم الناس ضد مرض «الكلب» واستخدم أطباء آخرون منهج باستور في عمل أمصال للوقاية من أمراض أخرى كثيرة خطيرة. مثل التيفود والتهاب النخاع الشوكي..

وباستور من العلماء الذين يعملون كثيراً. وقد أدى جلده وصبره على العمل إلى كشوف كثيرة في الطب. وهو الذي اكتشف أيضاً أن هناك كائنات أخرى صغيرة تستطيع أن تعيش دون حاجة إلى الهواء أو الأوكسجين. وهي المسماة بالجراثيم اللاهوائية.

كما أن أبحاثه على «دودة القز» قد أدت إلى نتائج اقتصادية هائلة.

ومن بين اكتشافاته العظيمة: الأمصال ضد إصابة الدواجن بالكوليرا!

توفي باستور بالقرب من باريس سنة ١٨٩٥.

والمؤرخون يقارنون بين باستور وبين إدوارد جنر الطبيب الذي اكتشف لقاحاً ضد الجدري.

ومنذ باستور ونسبة الأمراض والوفيات في العالم قد نقصت إلى حد كبير. وإذا كان لا بد من أن نرد الفضل لأحد في زيادة عدد سكان الأرض. فيرجع ذلك إلى الرجل الذي قاوم الميكروب وحصن الانسان من المرض ومن الموت. ولو كان موضوع هذا الكتاب: من الذي أثر في حياة الانسان وصحته على هذه الأرض. لكان الفضل الأول إلى لوي باستور.

أخبار الجامعات والمؤسسات

● ابن الخطيب: الشخصية والعصر... في الملتقى الأول للدراسات المغربية الأندلسية

نظمت شعبة اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الانسانية في جامعة محمد بن عبدالله بتطوان (المغرب) ملتقى للدراسات المغربية الأندلسية حول «لسان الدين بن الخطيب: الشخصية والعصر». وقد عقدت جلسات هذا الملتقى — وهو الأول — خلال الأيام ٧ و ٨ و ٦ شعبان ١٤٠٦هـ / ١٧ و ١٨ و ١٩ أبريل ١٩٨٦م، ونوقشت خلالها دراسات عديدة قدمها أساتذة من جامعات ومعاهد مغربية وعربية وإسبانية، كما أقيم معرض بعنوان «آثار ابن الخطيب ومؤلفات عصره».

وفيما يلي عناوين الدراسات، والأساتذة الذين قدموها:

ابن الخطيب المؤرخ، د. محمد المنوني (الخزانة الحسنية — الرباط).

ابن الخطيب مؤرخ العصر الأموي في الأندلس، د. منويلا مارين (المعهد الاسباني العربي — مدريد).

غرناطة في أدب ابن الخطيب، د. سيد حنفي حسنين (المعهد المصري للدراسات الاسلامية — مدريد).

ابن مرزوق في نظر ابن الخطيب، د. ماريا خيسوس فيغيرا (كلية فقه اللغة بجامعة الكومبلوطينسي — مدريد).

ابن الخطيب مؤرخ الأندلس في عصر الطوائف، د. محمد بن عبود (المعهد الجامعي للبحث العلمي).

مفردات ابن الخطيب، عبدالعالي الودغيري (كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة محمد الخامس — الرباط).

بين ابن الخطيب وابن الآبار، د. عبدالسلام الهراس (كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة محمد بن عبدالله — فاس).

ابن الخطيب مؤرخ شرق الأندلس، د. ميكال دي إيبالثا (كلية الفلسفة والآداب بجامعة القنت — إسبانيا).

القيمة الوثائقية في شعر ابن الخطيب، د. جمعة شيخه (كلية الآداب والعلوم الانسانية بالجامعة التونسية — تونس).

جوانب من تفكير ابن الخطيب في «روضة التعريف»، د. رونيه بيريز (جمعية السورس — الرباط).

ابن الخطيب والاقتباسات القرآنية، د. التهامي الراجي الهاشمي (معهد التعريب — الرباط).

ابن الخطيب وبنو عطية بغرناطة، د. خوسي ماريا فورنياس (كلية الفلسفة والآداب بجامعة غرناطة — إسبانيا).

بنية الصراع الحضاري الأندلسي من خلال رسائل ابن الخطيب: قراءة في المكونات والدلالات، د. مصطفى الزباخ (كلية علوم التربية — الرباط).

جوانب من النقد الأدبي عند لسان الدين بن الخطيب، علي لغزيوي (كلية الآداب بجامعة محمد بن عبدالله — فاس).

ابن الخطيب الشاعر، د. ماريا خيسوس روبييرا (كلية الفلسفة والآداب بجامعة القنت — إسبانيا).

من الجديد في شعر ابن الخطيب، د. محمد بن شريفة (كلية الآداب بجامعة محمد الخامس).

أزجال ابن الخطيب، د. فديريكو كوريينطي (كلية فقه اللغة بجامعة الكومبلوطينسي — مدريد).

ابن الخطيب والمذاهب الفكرية في عصره، د. محمد الكتاني (كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة محمد بن عبدالله — تطوان).

ابن الخطيب مؤرخ ثبت لفترة ملوك الطوائف بالأندلس، د. أمين

توفيق الطبيبي (كلية الدعوة بجامعة الفاتح ــ طرابلس الغرب).

ابن الخطيب سفيراً ولاجئاً سياسياً، د. عبدالهادي التازي (المعهد الجامعي للبحث العلمي ــ الرباط).

التجربة الدينية في شعر ابن الخطيب، فاطمة طحطاح (كلية الآداب بجامعة محمد الخامس ــ الرباط).

ابن الخطيب مؤرخاً لمملكة بني نصر بغرناطة، د. كريسطوبال طريس (كلية الفلسفة والآداب بجامعة غرناطة ــ إسبانيا).

شاعرية ابن الخطيب، د. أحمد الطرايسي (كلية الآداب بجامعة محمد الخامس ــ الرباط).

ابن الخطيب: شخصيته وعصره، د. السعدية فاغية (المدرسة العليا للأساتذة ــ المحمدية (المغرب).

مولديات ابن الخطيب، عبدالمالك الشامي (كلية الآداب بجامعة محمد بن عبدالله ــ فاس).

ما لم ينشر من «الاحاطة» لابن الخطيب، عبدالسلام شقور (كلية الآداب بجامعة محمد بن عبدالله ــ تطوان).

ابن الخطيب في كتابة الترجمة، عبدالله المرابط (كلية الآداب بجامعة محمد بن عبدالله ــ تطوان).

ابن الخطيب طبيباً، د. عبدالكريم أبو شويرب (كلية الطب بجامعة الفاتح ــ طرابلس الغرب).

الخطاب العقائدي بين ابن تومرت وابن الخطيب، عبدالواحد العسري (كلية الآداب بجامعة محمد بن عبدالله ــ تطوان).

الصورة الشعرية في إبداع ابن الخطيب، قاسم الحسيني (كلية الآداب بجامعة محمد الخامس ــ الرباط).

يحيى بن هذيل وأثره في المعرفة الطبية عند ابن الخطيب، د. رفاييلا كاستريو (كلية فقه اللغة بجامعة الكومبلوطينسي ــ مدريد).

مفهوم السحر والشعر عند ابن الخطيب وشيخه ابن لِيُون (سعد بن أحمد) من خلال كتابيهما «السحر والشعر» و «لمح السحر من روح الشعر»، سعيد بن الأحرش (كلية الآداب بجامعة محمد بن عبدالله ــ تطوان).

الصناعة الشعرية لدى لسان الدين بة الخطيب، د. محمد مفتاح (كلية الآداب بجامعة محمد الخامس ــ الرباط).

منهجية التأليف عند ابن الخطيب، عبدالرحمن مدينة (مؤسسة المنشورات الأندلسية ــ إشبيلية).

ابن الخطيب في آثار الدارسين، د. حسن الوراكلي (كلية الآداب بجامعة محمد بن عبدالله ــ تطوان).

● معهد التراث يطبع «الكافي في الحساب» للكرخي

قرر معهد التراث العلمي العربي في حلب طباعة كتاب «الكافي في الحساب ــ الجزء الأول» باللغة العربية، للكرخي، (أبي بكر محمد بن الحسن)، المتوفى نحو ٤١٠هـ.

وكان الدكتور سامي شلهوب رئيس قسم العلوم الأساسية في المعهد قد قام بتحقيقه ودراسته.

● مشروع اتفاق بين معهد التراث ودار المخطوطات الأرمينية

تم مشروع اتفاق بين معهد التراث ودار المخطوطات الأرمينية في الاتحاد السوفياتي يؤكد على التعاون الوثيق في مجالات العلوم والثقافة عامة، وتعليم وتأهيل المتخصصين في مجال صيانة المخطوطات وحفظها وترميمها، وتبادل صور عنها خاصة، بالاضافة إلى تبادل الأساتذة والمتخصصين في مجال تاريخ العلوم.

ويتضمن المشروع أيضاً التعاون في مجال تبادل المخطوطات والمطبوعات والنشرات وبرامج التعليم والخبرات.

شهيد نهاوند
النعمان بن مقرن المزني

فاضل خليل ابراهيم

يحفل التاريخ العربي الاسلامي، بأسماء العديد من الشخصيات والقادة العظام، الذين كانوا مثالاً رائعاً في التضحية والفداء والثبات على المبدأ والعقيدة، فأصبحوا ــ بذلك ــ أعلاماً تهتدي بها أجيالنا المعاصرة.

والنعمان بن مقرن المزني، هو واحد من أولئك القادة الذين كان لهم تاريخ بطولي في معارك العرب ضد أعدائهم، فقد ساهم في محاربة المرتدين في عهد أبي بكر الصديق (رضي)، كما شارك أيضاً في معركة القادسية، وبعثه سعد بن أبي وقاص على رأس جيش لفتح الاحواز. وأخيراً قيادته لمعركة نهاوند ــ فتح الفتوح ــ ضد الفرس سنة ٢١هـ.

لقد كان النعمان تواقاً، دائماً، للجهاد في الصفوف الأمامية في ساحات القتال، حيث يقول عن نفسه: «وقد أحببت الجهاد ورغبتُ فيه»(١). ولذلك، فقد اختاره عمر بن الخطاب (رضي) قائداً لهذه المعركة.

سار النعمان بجنده إلى نهاوند، ومعه عدد من القادة العرب، منهم: عبدالله بن عمر بن الخطاب وجرير بن عبدالله البجلي والمغيرة بن شعبة وعمرو بن معديكرب وطليحة بن خويلد الأسدي. وقبل وصوله إليها، أرسل جماعات استطلاعية لمعرفة أخبار الفرس وتحركاتهم. وأخيراً استقر رأيه على اختيار منطقة قريبة من حصون نهاوند، ليعسكر فيها الجيش.

وقبل البدء بالمعركة، عبأ النعمان كتائبه، وأوصى جنده بأنه إذا استشهد فإن القيادة سوف تكون لحذيفة بن اليمان ثم لجرير بن عبدالله من بعده ثم لقيس بن مكشوح. ثم قال: «إني هازٌ لوائي فتيسروا للسلاح، ثم هازه الثانية، فكونوا متأهبين لقتال عدوكم، فإذا هززت الثالثة، فليحمل كل قوم على من يليهم من عدوهم»(٢).

لقد كان المسلمون ــ يومئذٍ ــ متلهفين للجهاد والرغبة في القتال ومُنازلة العدو. كما كان لكلمات قائدهم النعمان، وقع كبير في نفوسهم. يقول أحد المقاتلين ــ كما جاء في الطبري ــ : «فوالله ما علمتُ من المسلمين أحداً يومئذٍ يريد أن يرجع إلى أهله، حتى يقتل أو يظفر، فحملنا حملة واحدة»(٣).

وكان النعمان ــ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ــ حريصاً على تبليغ القائد الأعلى نتيجة النصر. هذا ما ينقله لنا معقل بن يسار، حيث يقول: «فأتيت إلى مكان النعمان، فصادفته وبه رمق... قال: ما فعل الله بالناس؟ قلت: فتح الله عليهم، قال: الحمد لله كثيراً، أكتبوا بذلك إلى عمر»(٤).

وعندما سمع عمر بن الخطاب (رضي) بنبأ استشهاد النعمان، تألم لذلك وحزن حزناً شديداً، لفقدانه أحد قادته العظام. ●

الهوامش:

(١) الطبري، عمر بن جرير: تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ــ ١٩٧٠، ج٤ ص١١٤.
(٢) نفس المصدر، ج٤ ص١١٩.
(٣) نفس المصدر، ج٤ ص١١٩.
(٤) البلاذري، أحمد بن يحيي: فتوح البلدان، مطبعة لجنة البيان العربي ــ القاهرة.
تحقيق صلاح الدين المنجّد، ص٣٧٢.

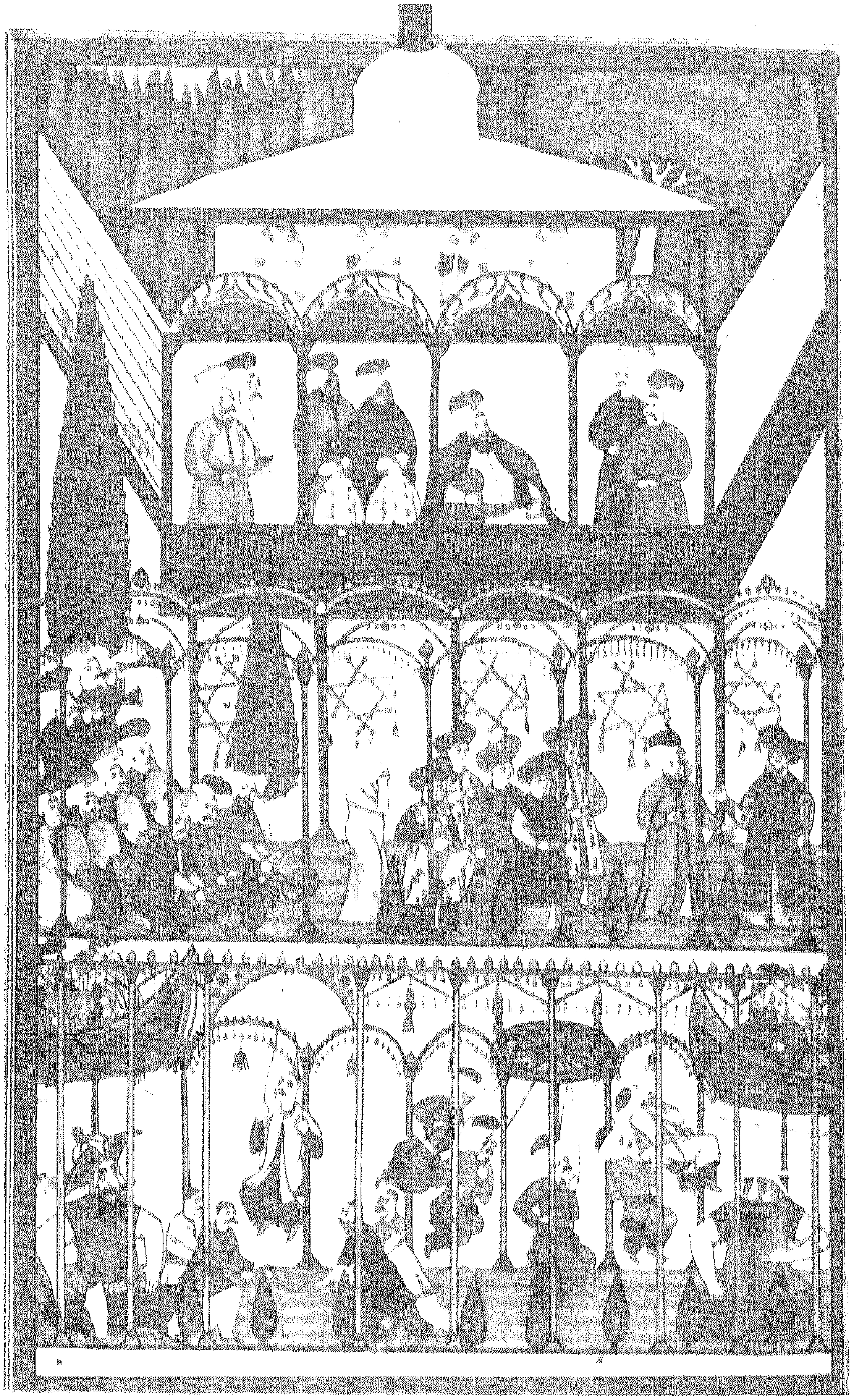

□ لوحة من القرن الثامن عشر تمثل ما آل إليه حال قصر «الخلافة». فيعطي في الصورة الأولى أعلاه ــ السلطان مع أفراد أسرته، ويمثل في الصورة الوسطى الرعية يتقدمون إليه بالشكاوى، وترى في الصورة الثالثة في الأسفل ــ جانباً من الأفراح التي تعمر القصر بين الحين والحين، فيشترك الجميع فيها، وقد بدا القصر في مجموعه حافلا بمظاهر الأبهة، عامرا بالأضواء والزينات.

إحتفظ بمجلّدات السّنوات السّبع من مجلّة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

أحد عشر مجلداً فخماً + إشتراك مجّاني لعام كامل

٥٠٠ دولار أو ما يُعادلها بما فيها أجور البريد المضمون

إقطع هذه القسيمة وأرسلها مرفقة بقيمة المجلّدات باسم مجلة تاريخ العرب والعالم إلى العنوان التالي :

شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت ، لبنان

الاسم الكامل : ______________________

العنوان : ______________________

المدينة : ______________________

الامضاء : ______________________

أرفق القيمة : ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تعنى بالتاريخ العربي

عدد ممتاز

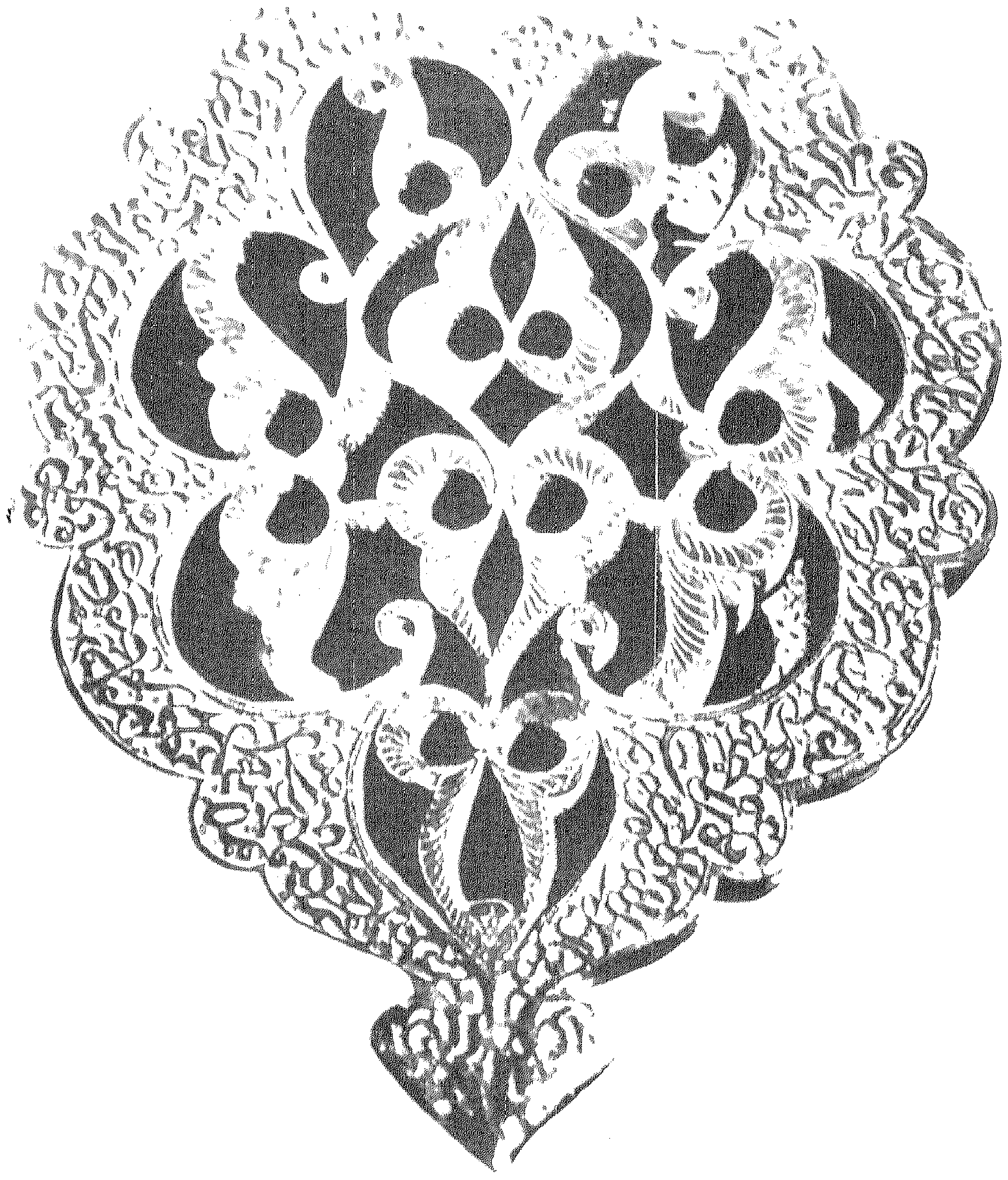

□ مطرقة باب، ذات نقوش عربية ــ المغرب ــ القرن الثامن عشر.

الغلاف الأول

□ ألف ليلة وليلة، «مصدر متعة لا نهاية لها...» من كتاب

The World Of Islam.
by Bernard Lewis

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

الأعداد ٩٥ ـ ٩٨ • أيلول ـ كانون الأول ١٩٨٦

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : **فاروق البربير**

المستشار : د. **أنيس صايغ** المدير المسؤول : **محمد مشموشي**

قسم التوثيق والأبحاث : **شذا عدرة**

قسم التوزيع والاشتراكات : **علي عبدالساتر**

المخرج الفني : **سالم زين العابدين**

الانتاج: **مطبعة المتوسط ش.م.م.**

التوزيع: **الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.**

ثمن النسخة

لبنان	٢٠ ل.ل.	سوريا	٢٠ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الإمارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٢٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٤٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٢٠٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان • بناية أبو هليل
شقة ١١ • شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 8, No. 95-98 • Sep-Dec 1986

ANNUAL SUBSCRIPTION: $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

□ **الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز**
«رحلة النابلسي إلى لبنان» (١١٠٥هـ./١٦٩٣م)
تحقيق: استاذ / د. عمر عبدالسلام تدمري (الحلقة الأولى) ٢

□ **معالم الحضارة العربية**
د. نقولا زيادة ١٩

□ **هوفمنستال والف ليلة**
مجدي يوسف ٤٢

□ **صور من كفاح عرب الخليج في عصور ما قبل الإسلام**
خالد بن محمد القاسمي ٥٤

□ **معاهدات:**
اتفاق بين مصر وانكلترا على السودان
وقع يوم ١٩ كانون الثاني سنة ١٨٩٩
إعداد: شذا عدرة ٦٠

□ **ليوناردو دي فينشي**
د. رياض العالي ٦٤

□ **نشأة الكويت وتطورها في القرن الثامن عشر**
د. ميمونة خليفة الصبّاح ٧٢

□ **آل سيفا صفحة مطوية من تاريخ لبنان**
د. فاروق حبلص ٩٦

□ **قطار الشرق (اورينت اكسبرس) من باريس إلى استنبول في ٦٧ ساعة**
قسم التوثيق والأبحاث ١٠١

□ **مدن عربية تحت الاحتلال**
الناصرة
قسم التوثيق والأبحاث ١١٠

□ **اخبار التراث** ١١٨

□ **رجال وأفكار: الليث بن سعد** ١٢١

□ **الفهرس العام للسنة الثامنة** ١٢٤

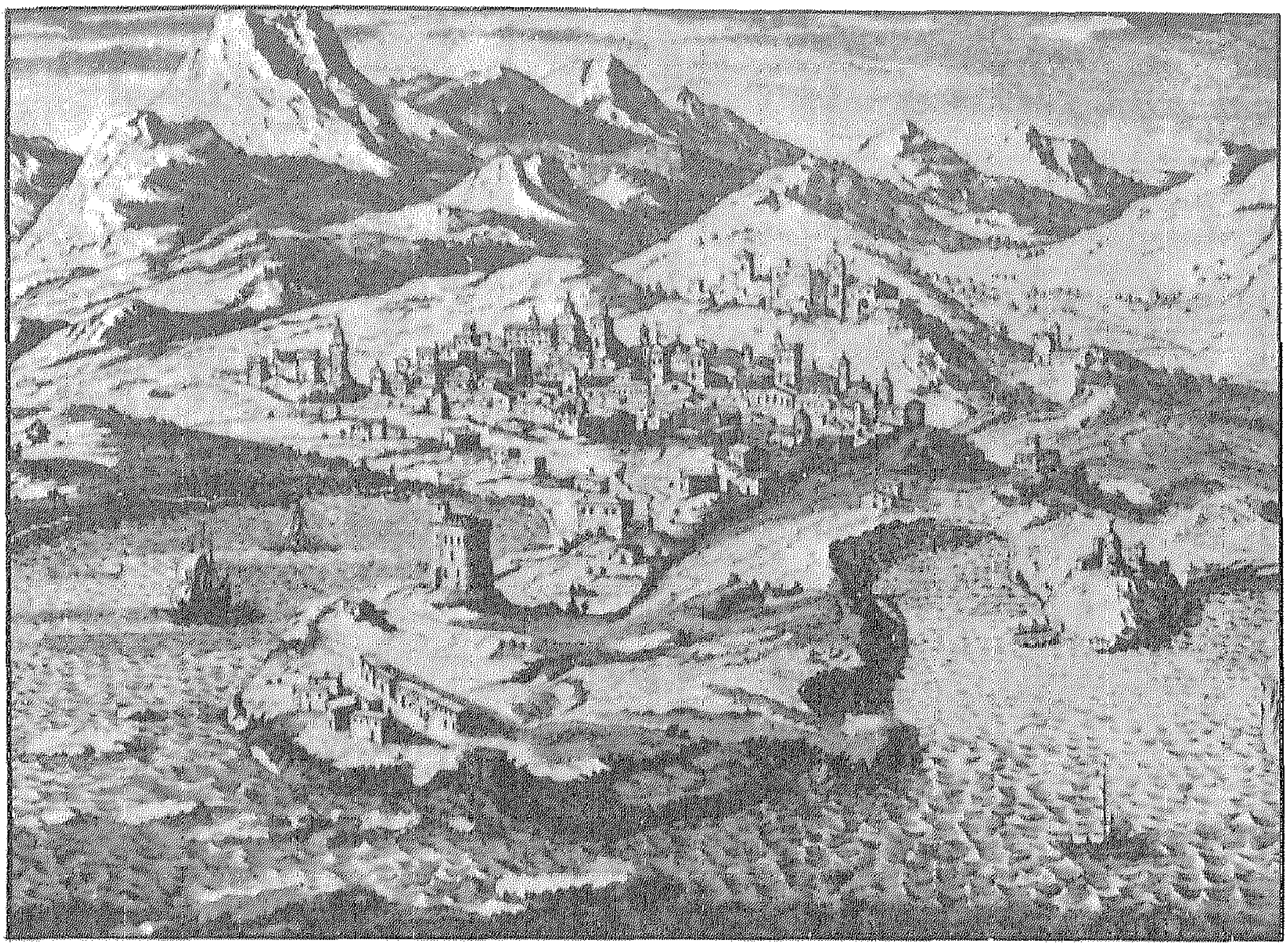

□ ساحل طرابلس والقلمون وأنفه، كما تخيله أحد الفنانين الأوروبيين.

الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز

(رحلة النابلسي إلى لبنان)

(١١٠٥هـ - ١٦٩٣م)

تحقيق: أستاذ د. عمر عبد السلام تدمري

(الحلقة الأولى)

يُعتبر الشيخ «عبدالغني النابلسي»، المولود في دمشق سنة ١٠٥٠هـ / ١٦٤١م، والمُتَوَفَّى فيها سنة ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م، من كبار رجالات التصوّف، ومن أشهر الرّحالة في عصره، ومن أكثر المؤلّفين نتاجاً، بحيث أرْبَتْ مؤلّفاته على المئة مصنّف، وقيل على المئتين، وقيل إنها بلغت ثلاثمئة بين رسالة وكتاب ومجلّدات.

ويهمّنا هنا، من مؤلّفاته، كُتُب الرحلات التي صنّفها، وخاصّة عن زيارته إلى «لبنان»، حيث نجد فيها كثيراً من المعلومات التاريخية والعمرانية والثقافية، وغير ذلك من المعلومات التي لا نجدها في المصادر التاريخية المتداوَلة.

وللنابلسي خمس رحلاتٍ:

أوّلها: رحلة إلى القسطنطينية دار الخلافة العثمانية، قام بها في سنة ١٠٧٥هـ /١٦٦٤م. ولم يصلنا عنها شيء مُدَوَّن.

والثانية: كانت إلى البقاع العزيز وجبل لبنان، في سنة ١١٠٠هـ /١٦٨٨م. وقد جمع أخبارها في كتاب سمّاه «حلّة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز»، وقام بتحقيقها ونشرها الدكتور صلاح الدين المنجّد (١٩٧٩).

والثالثة: زار فيها بيت المقدس ومدينة الخليل، سنة ١١٠١هـ /١٦٨٩م. ودوّن هذه الرحلة في كتاب سمّاه «الحضرة الأنسية في الرحلة القُدْسيّة»، طُبع في القاهرة (١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م).

والرابعة: هي الرحلة الكبرى، وسمّاها «الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز»، وكانت في سنة ١١٠٥هـ /١٦٩٣م. زار فيها ساحل لبنان، وطُبعت مرّتين، الأولى في دمشق (١٢٩٩هـ)، والثانية في القاهرة (١٣٢٤هـ).

والخامسة: وهي رحلة خاصّة إلى طرابلس الشام في سنة ١١١٢هـ /١٧٠٠م. جمعها في كتاب سمّاه «التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسيّة» حقّقها ونشرها «هريبرت بوسّه» (بيروت ١٩٧١).

ورغم أنّ الرحلة الكبرى المعروفة بـ «الحقيقة والمجاز..» طبعت مرّتين، فإنّها نادرة الوجود في المكتبات العامة، حتى أن دار الكتب المصرية تفتقدها منذ سنوات طويلة[1]، ولذا أرجو أن يُقَيّض لها من يقوم بتحقيقها ونشرها من جديد، لتصبح في متناول الباحثين ومحبّي كتب الرحلات.

ويسعدني أن أساعد في «تحقيق» نصّ هذه الرحلة المهمّة، في هذا الجزء الخاص بالمدن والقرى اللبنانية، معتمداً على النّصّ الذي نشره المؤرّخ «عيسى اسكندر المعلوف» ــ على حلقات ــ في مجلة «المعارف» التي كان يصدرها «وديع نقولا حنّا» في الشُوَيْفات، وذلك تحت عنوان «لبنان في أواخر القرن السابع عشر»[2]، وهنا يجدر أن أشير إلى أنّ «المعلوف» قام بحذف بعض العبارات أو الفقرات الاستطرادية، وأسقط بعض الأبيات الشعرية من النّصّ الأساس، مشيراً إلى ذلك بـ (...)، واكتفى بعرض الرحلة دون تحقيق، سوى بعض التعليقات اليسيرة جدّاً، سوف أشير إليها في مواضعها.

* * *

بدأ النابلسي رحلته بمبارحته دمشق يوم الخميس غرّة شهر المحرَّم أول شهور سنة ١١٠٥هـ /١٦٩٣م. من طريق برزة ومَنِين، إلى جبل المناخ (القلمون)، فحمص، فحماة، فأنطاكية، فاللاذقية، فطرطوس، فجون عكار، فطرابلس الشام، إلى أن دخل لبنان.

(المُنْيَة)

.. في الرابع والعشرين من محرَّم، يوم السبت، سرنا من طرسوس[3] إلى طرابلس، فوصلنا **المنية** عند غروب الشمس.

قال «ياقوت الحموي» في «المشترك»[٤]: المُنْيَة، بضمّ الميم، وسكون النون، وياء مفتوحة، إثنان وأربعون[٥] موضعاً، جميعها بمصر، غير واحدة وهي مُنْية عجب في الأندلس، ووجدنا على هامش كتاب «المشترك» المذكور، بخط بعض العلماء زيادة مواضع سبعة تُسَمَّى بالمُنْية، منها واحدة في مصر، والستّة في بلاد المغرب. وكلّهم لم يذكروا مُنْية طبريّة التي بالقرب من بيت المقدس، وبها يتمّ الخمسون. ولم يذكروا هذه المُنْيَة (مُنْية طرابلس)[٦]، وبها يصير الجمع: واحداً وخمسين موضعاً.

فدخلنا إلى قرية كبيرة واسعة ذات بساتين ومياه جارية، وفيها محلّتان، محلّة سُفْلى ومحلّة عُلْيا في ذَيْل جبل هناك[٧]. وهذه القرية جميعها جارية في وقف السادة المصريين[٨]، المشهور عندنا في الشام، وواقفه هو الملك قايتباي[٩]. فسألنا عن مزار نبيّ الله يوشع عليه السلام، فأخبرونا أنّه في باب المحلّة العليا، فصعدنا إلى أن دخلنا إلى مزاره، فوجدنا الباب مفتوحاً، وهناك خُدّام له ساكنون عنده، فاستقبلونا وأنزلونا عندهم بالقرب من ذلك المزار، في قصر هناك له شبابيك مطلّة على البساتين، فدخلنا إلى قبر يوشع[١٠] عليه السلام، فإذا هو في داخل مغارة هناك في ذيل ذلك الجبل، وأُوقِدَت هناك القناديل والشموع، فوجدنا ذلك القبر طوله نحو العشرة أذرُع، وارتفاعه نحو الذراعين، وداخله فارغ، وله طاقات حوله، وعلى القبر أنبوب من حجر، ذكروا لنا أنه إذا قلّت المياه في هذه القرية يجري منه الماء بقدرة الله تعالى. ورأينا في القبر حجراً مكتوباً عليه:

«هذا قبر العبد الفقير الشيخ يوشع، عمّره السلطان الملك المقتفي[١١] الصالحي بطرابلس في سنة أربع وثمانين وستماية».

فتعجّبنا من هذه الكتابة وقلنا: كيف اشتهر عند أهل تلك القرية وغيرهم بأنه قبر يوشع النّبيّ، وقد كُتب عليه ما يُفهم منه أنه قبر رجل من الأولياء المشايخ الصالحين[١٢]، حتى رأينا الشيخ الإمام «عليّ بن أبي بكر الهَرَويّ» ذكر في كتابه «الزيارات»[١٣] أنّ في مدينة المَعَرَّة من أعمال حماة قِبْليّ البلد في جانب سورها قبر يوشع بن نون فتى موسى عليه السلام، والصحيح أن يوشع بأرض نابلس[١٤]. ورأيناه ذكر بعد ذلك أنّ في قرية عَوَرْتا في طريق القدس من نابلس مغارة فيها قبر يوشع بن نون عليه السلام[١٥].

وقد نَظَمْنا حين الزيارة، غبّ[١٦] الاستنارة:

لا يا نبيَّ اللّهِ يا يوشع
يا مَن غدا في قومه يشفع
ويا ابن نون وفتًى من هو الكليم
موسى قدره الأرفع
بقريةٍ قد سُمِّيَتْ مُنْيَةً
لأنها مُنْيَة مَن يخشع

... وفيها قبر آخر يقال إنّه قبر عبده بلال، فزُرْناه... ثم بتْنا في ذلك المكان على أتمّ الصَّفا والسرور، إلى أنْ طلع الصباح. وكان ذلك اليوم الأحد الخامس والعشرين من المحرَّم، فركبْنا وسرنا إلى جهة طرابلس.

(برْكة البدّاوي)

فمررْنا في الطريق على مكانٍ يُسمّى «برْكة البدّاوي»[١٧]، وهي بركة ماء كبيرة فيها أسماك كثيرة، وقد أُخبِرْنا أنّ سَمْكها لا يُصاد، وكلّ مَن صاده وأكل منه يمرض[١٨]، وذلك ببركة الشيخ البدّاوي المدفون هناك على حافة البركة في مَزارٍ له، وعليه قبّة عظيمة وشبابيك مطلّة على تلك البركة[١٩].

وقلنا في وصف ذلك المكان:

وبركة البدّاوي
بمائها تُداوي
يسبح فيها سمك
يصلح للتداوي
وهو كثير فيها
لسرّها السماوي
مولاه قد حماه
بعزّ شيخٍ ثاوي

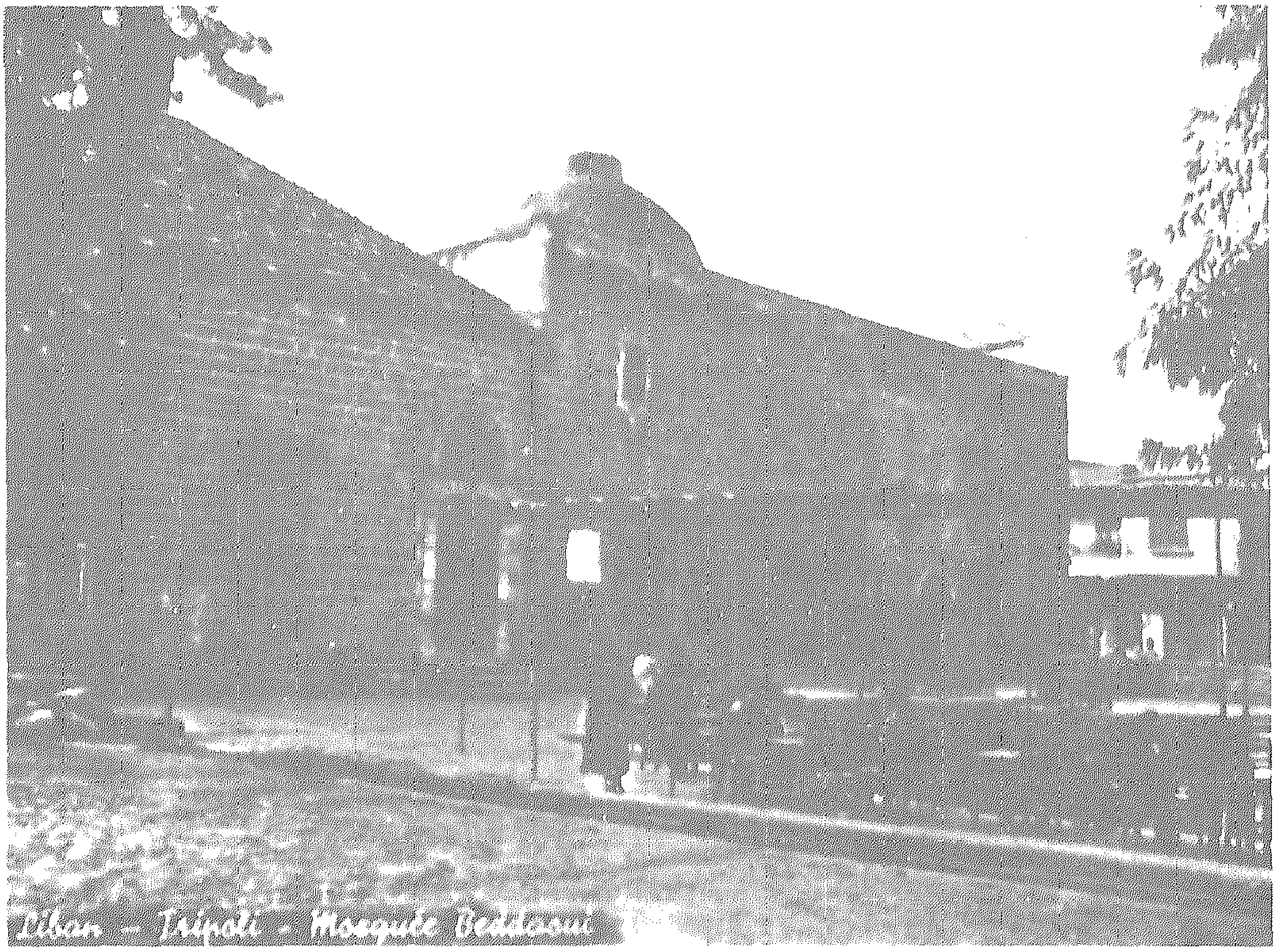

□ جامع البداوي من بناء الأمير دمرداش وبركة السمك.

هناك في جامعه
مقامه العلاوي
فإنّ من يصيده
يمرض وهو الغاوي
وجرّبت مراراً
جميع ذي الدعاوي
بها طرابلوس
لجنّة تساوي[٢٠]

ثم إنّنا وجدنا قبالة تلك البركة جبلاً مرتفعاً عن الطريق، وعليه خيام الوزير المكرّم والمشير المفخّم، حضرة «علي باشا»[٢١] وهو يومئذٍ والي طرابلس المحروسة. وقد خرج من طرابلس وهو يريد قتال الطائفة الحمادية[٢٢]، فصارت جماعته وجنوده تنظر إلينا لمّا مررنا من ذلك المكان، فتوجّهنا إلى الاجتماع بحضرة ذلك الوزير قبل الدخول إلى طرابلس المحروسة، ودخلنا عليه فوجدناه في صيوانه العظيم، خلف تلك الستائر المحفوفة بالإجلال والتكريم. وقد قام فتلقّانا بالقبول والإقبال والاحترام والإجلال، وجلسنا عنده حصّة من الزمان نتحدّث معه بكمال المحبّة والإذعان. ووجدنا عنده رجالاً من الأروام المجاذيب، اسمه ابراهيم آغا[٢٣]، فجرت بيننا وبينه مكالمات إلهيّة وإشارات ربّانيّة، ثم إنّه بشّرنا بالحجّ الشريف قبل أن نتكلّم نحن بذلك. ثم إنّنا ذكرنا لحضرة الوزير المكرّم أنّ مرادنا الحجّ في هذا العام، فتعجّب من مكاشفة ذلك المجذوب لنا بالقصد والمرام. ثم سألنا عن محلّ نزولنا في طرابلس المحروسة، فقلنا له: نحن الآن ما دخلنا إلى طرابلس، وليس لنا فيها منزل معيّن، فأمر بإنزالنا في السرايا[٢٤] نحن وجماعتنا في أيّ مكان شئنا منها. فأشار ذلك المجذوب إلى مكان فيها مرتفع، له شبابيك مطلّة يُرى منها البحر وغيره، فاستحسن ذلك حضرة الوزير، وأمر أن

يذهب معنا جماعة إلى السرايا في داخل المدينة. فركبنا وتوجّهنا مع الإخوان، حتى مَرَرْنا في الطريق على مكانٍ ذكروا لنا أنّه دُفن فيه من أهل الصلاح رجل اسمه الشيخ عمر[٢٥]، وله كرامات وخوارق عادات مشهورة عندهم. فزرنا ذلك القبر وقرأنا له الفاتحة، ودَعَوْنا الله تعالى، ثم سرنا إلى أن دخلنا إلى مدينة طرابلس المحروسة.

(طرابلس الشام)

قال في «القاموس»[٢٦]: طرابُلُس بفتح الطاء وضمّ الباء واللّام، بلاد[٢٧] بالشام وبلاد[٢٧] بالمغرب، أو الشاميّة أَطْرابلس بالهمز، أو روميّة معناه ثلاث مدن (ا.هـ.)[٢٨]، يعني أنّها كلمة روميّة وليست بعربية.

وقال «ياقوت الحموي» في «المشترك»[٢٩]: أطرابلس موضعان (الأول) المدينة المشهورة على ساحل بحر الشام بين عكاء وأنطاكية، يُنسب إليها قوم من أهل العلم. (الثاني) أطرابلس مدينة في أول أرض إفريقية، يُنسَب إليها آخرون. وقد فرّق بعضهم بينهما فجعلوا التي بالشام بالهمز، والتي بالمغرب بغير همزة، إلّا أنّ «المتنبّي»[٣٠] خالف هذا، فقال يذكر الشاميّة:

....

وقصّرت كلّ مِصْرٍ عن طَرَابُلُس [٣١]

وقيل معنى طرابلس بالروميّة ثلاث مدن[٣٢].

وقد كان مفتي الحنيفية بطرابلس الشيخ الإمام، والحَبْر الهُمام، حسيب النسب، «هبة الله أفندي»[٣٣]، ولما بلغه وصولنا أرسل إلينا جماعة ليُنْزِلنا عنده، فأخبرناهم أنّ حضرة الوزير المذكور أمر بنزولنا عنده في السرايا، واعتذرنا إليهم في ذلك.

ثم دخلنا المدينة فنزلنا في سرايا الوزير المذكور، وصعدنا إلى ذلك القصر الذي أشار إليه ذلك المجذوب، فوجدناه أحسن مكان في السرايا، فجلسنا هناك نحن ومن معنا من الإخوان. وعيّن لنا الوزير جميع ما نحتاج إليه مدّة إقامتنا عنده. ثم ورد علينا جماعات لأجل الزيارة من أهل البلاد، منهم الشيخ الفاضل أحمد ابن الشيخ خيرالدين[٣٤] إمام السرايا. فأنشدنا هذه الأبيات في مدح مدينة طرابلس الشام لبعضهم:

الشام في كلّ البسيطة عينها
لكن طرابلس هي الانسان
لم يجمعوا ما قد حواه ثغرها
ولرطْب لؤلؤ ثلجها لَمَعان
فالمرج والبحر الشهير ورملها
فيروزج وزبرجد مُرْجان[٣٥]

وأنشدَنا أيضاً لبعضهم:

طرابلس الشام دَنَوْت منها
رأيت بها مقامَ الآمنينا
وقد صيغت محاسنها فجاءت
على التحرير كاملةً، يمينا[٣٦]

ثم زرنا قبر الشيخ محمد العجمي[٣٧].. وذهبنا إلى زاوية المَغَاربة[٣٨]، فزرنا بها قبر الشيخ عبدالواحد المغربي[٣٩]. ثم عدنا إلى المنزل فبتنا فيه.. حتى أصبح الصباح.. وكان ذلك يوم الاثنين السادس والعشرين من المحرَّم، فجلسنا في مكاننا.. فكان للناس علينا وُرُود وصُدُور... منهم السيد هبة الله أفندي مفتي الحنيفية فيها، فكان أوّل ما أنشدنا من لفظه هذا البيت، مخاطباً لنا به، ولعلّه تمثّل به:

سبقوك تاريخاً وأنت سبقتهم
فضلاً، فأنت السابق المسبوق

وكان والده المرحوم الشيخ.. السيد علي أفندي البصير[٤٠] مُفْتياً بالديار الطرابلسيّة، وقد أدركناه بالسّنّ ولم نجتمع به. وله: (نظم الدُرر والغُرَر) في فقه الحنيفية للمنلا خسرو بألفيْ بيت من بحر الرجْز، وله تصانيف أخرى... ومنهم الشيخ عبدالجليل الحنفي[٤١] المدرّس المعروف بابن الصّيّاد. ومنهم... الشيخ أحمد مفتي الشافعية[٤٢]... ومنهم الشيخ إبراهيم[٤٣] شيخ الخلوتية، وغيرهم من العلماء والأفاضل. وجرى بيننا وبينهم مسائل علميّة، ولطائف أدبيّة،

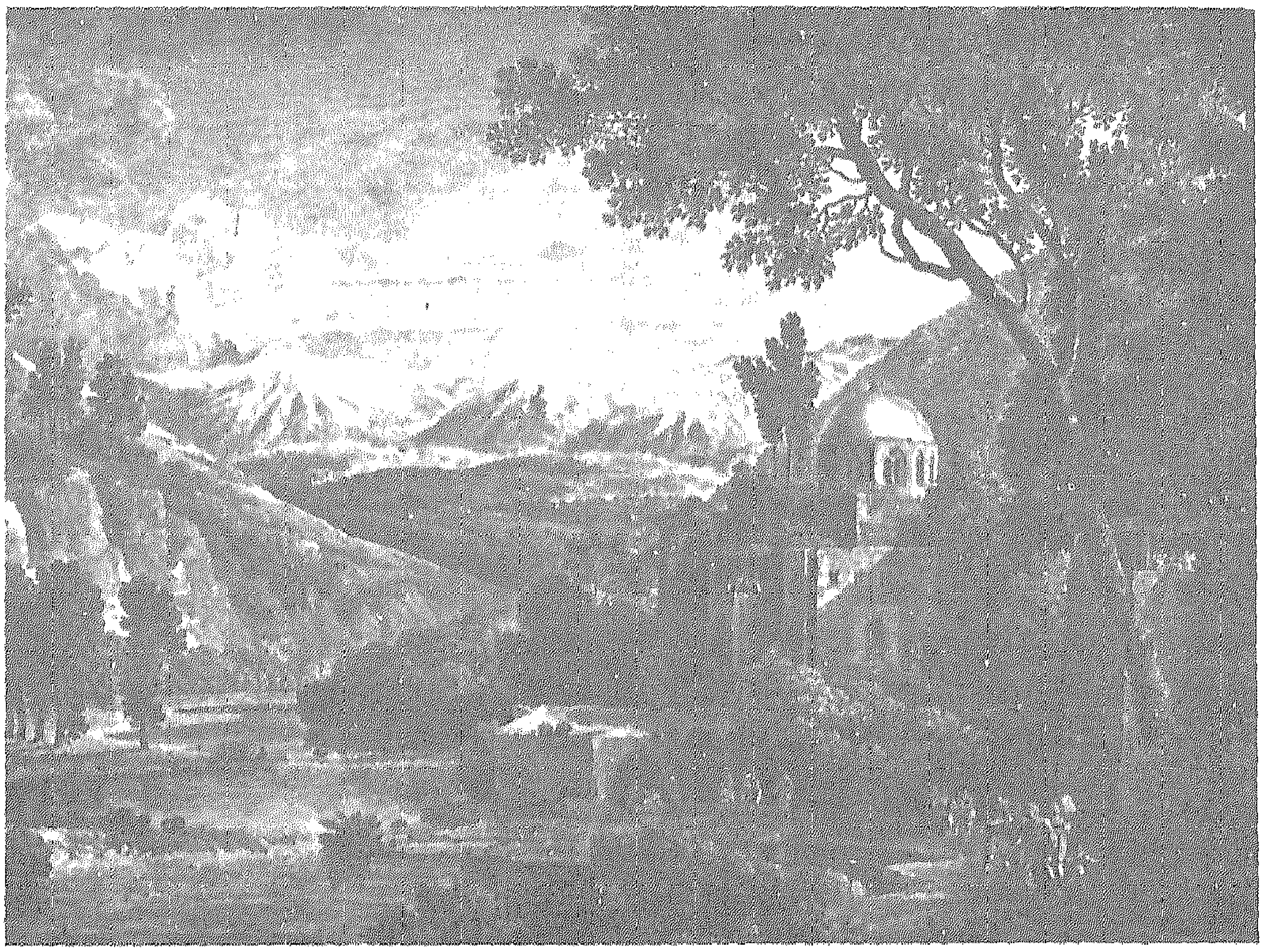

□ التكيّة المولوية ونهر ابو علي.

وأبحاث فقهيّة، إلى أنْ طال بنا ذلك المقام، وورد علينا الخاصّ والعام.

ثم بعد صلاة الظهر ذهبنا إلى زيارة قبرَيْ الأحمدَيْن[٤٤]: المغربي والرومي، فإنّ كلّ واحدٍ منهما اسمه أحمد، أمّا الأول فإنه كان عندنا أوّلاً في دمشق الشام، وجلس في الجامع الأموي سنين عديدة، وصدرت منه أحوال عجيبة، ثم ذهب إلى طرابلس... إلى أن مات بها. وأمّا الثاني فإنه كان من المجاذيب الصالحين، وكان من الأرواح[٤٥]... وقد دُفنا في مسجد هناك لطيف، ولهما خادم كان هو السبب في عمارة ذلك المكان، وهو رجل من الصالحين، وقد اجتمعنا به....

ثم ذهبنا إلى مسجد لطيف البناء[٤٦]، ظريف الفناء، فيه رواق مطلّ على نهرٍ جارٍ، فيه ماء سلسال عذْب رائق زُلال، يُسمّى نهر الغُضْبان، وهو تارة ناقص وتارة ملآن. وذلك المسجد مكتنَف بجسرين[٤٧] عاليين مبنيَّيْن بالحجارة، يدخل الداخل من كل جسر منهما في باب من أبواب المدينة إلى جهةٍ ذات عمارة. فقلنا في ذلك بلطيف الاشارة:

كنت بين الجسرين من فوق نهر
ماؤه العذْب كم له ظمآن
في رواق بمسجد نحن نرضى
أن نراه ونهره الغضبان

ثم عدنا إلى المنزل... إلى أن أسفر وجه ذلك الصباح، فأرسل يدعونا إلى منزله السيد «هبة الله» المفتي المتقدّم ذِكْره، فأرسلنا إليه على الارتجال... هذه القصيدة...، وهي قولنا:

سليل الأكرمين أولي المعالي
ومن فخرت به أهل الكمال

... الخ.

وذهبنا نحن وجماعتنا وبعض أهالي البلدة إلى جهة المينا بجانب البحر المالح، لأجل التنزّه

والتفرّج... ورأينا تلك الأبراج[٤٨] العالية التي على ذلك البحر الأخضر... ووجدنا هناك على يسارنا جبلاً ذكروا لنا أنّ اسمه جبل لبنان فيه مزار الأربعين[٤٩] من رجال الغيب، وفيه قبر مريم[٥٠]...

ثم بعـد ذلك تـوجّهنـا إلى جهـة زاويـة المولوية[٥١]، وهي قريبة من البلاد. فمررنا في الطريق على تربة الغرباء، وقد دُفن فيها العلاّمة الشيخ محمد المشهور بابن عبدالحق[٥٢]...

ثم مررنا في السوق على مزار... رجل من الصالحين يقال له شيخ عـزّالدين[٥٣]. حتى وصلنا إلى تكيّة المـولوية. وأقبلنـا على ذلك الوادي السعيد والمروج النديّة، فإذا هو جنّة للأبصار، ونزهة للنُظّار، فجلسنا في مقعدٍ عالي، يطلع في كل زهرة في سمائه كوكب متلالي. وفي ذلك المقعد بركة من الماء لطيفة، وحول الأشجار عرائش الأعناب به مُطيفة، يجري إليها الماء من نهر هناك عالي في ذلك الجبل، يمرّ في الجهة العالية في تلك التكيّة. وفي أسفل الوادي خمسة أنهار جارية بين البساتين كسبائك الفضّة النقيّة.

وفـي ذلك الوادي طواحيـن[٥٤] على تـلك الأنهار دائرة، كأنّ قلوبها نُقَطٌ وهي عليه دائرة. حتى استقرّ بنا مجلس الإيناس، وقُدّمت لنـا الضيافة....

ثم لما دخلَ وقت الزوال.. أجبنا دعوة أخينا السيد هبة الله.. وجلسنا في «قصر الرضى» المُطِلّ على نهر الغضبان، وطالعْنا في جملةٍ من كتبه اللطيفة، كطبقات الإمام الشعراني، وكتاب «الرياض النَّضِرَة في فضائل العشرة» للمحبّ الطبري، وشرح «البُرْدَة» للشيخ محمد ابن شيخ رضيّ الدين يوسف بن أبـي اللُّطْف المقدسي، فإنّه شرح كبير عظيم. وشرح الإمام القُشَيْري لشيخ الاسلام القاضي زكريّا.

وحضر هناك عنـدنا جمـاعة من الفُضَـلاء الكـرام النبلاء، وجـرى بيننا وبينهم أبحـاث علمية، ومسائل فقهيّة، واصطلاحات حـديثيّة، ومطارحات أدبية، ومساجلات شعرية.

ثم انقضى ذلك المجلس بالأنس التام، و... حتى أصبـح الصبـاح، ذهبنـا إلى الجـامـع الكبير[٥٥]، فطلب منّا الجماعة الحاضرون من طلبة العلم أن نقرأ لهم في ذلك الجامع شيئاً من أنواع الحديث النبويّ. وكان مع بعض جماعتنا كتابنا الذي سمّيناه «كنز حقّ المبين في أحاديث سيّـد المرسلين»، فقُـرِىء علينـا حصّـة من أحاديثه، وتكلّمنا على ذلك بحسب الوقت. وقد حَضَرَنا جماعةٌ من أهل الفضل وغيـرهم. ثم عقيب ذلك دعانا إلى داره... عبدالله[٥٦] أفندي، النائب عن قاضي القُضـاة في بلدة طرابلس المحروسة، وهو من أعيان أكابر تلك البـلاد، وشهـرته بينهم بـابن الصيّاد. فـذهبنـا نحن وجماعتنا إلى داره المعمورة، وفُزنا بمجالسة أخيه الشيخ «عبدالجليل». وحضـر عندنا هناك جماعة من العلماء الأفاضل، وجرت بيننا وبينهم أبحاث علمية، ولطائف المسائل. ومكثنا عنده إلى وقت الظهر، ثم عدنا إلى منزلنا، حتى كان وقت العشيّ، فدخلت في السرايا إلى مكان لطيف، ومقعدٍ مُنيف، مُطِلّ على تلك النواحي والأطراف، ومحفوف بأنواع المهابة والألطاف. وكان مُعَدّاً لجلوس حضرة الباشا المكرّم، والوزير المعظّم، علي باشا. فقلنا في ذلك متعرّضين للإشارة إلى ما هنالك:

مـجـلـس لـلّقــا والائـتــلاف
قـد عـلا مشـرفـاً على الأطراف
تـحـت عـزّ مـعـلّق بـالـثُّـرَيّـا
حـمـلتـه الـعُـلَى عـلى الأكـتـاف
وعـلـيـه غـمـامـة مـن وقـار
وقـد أظلَّتْـه من هجيـر يـوافي
... الخ.

ثم بتنا تلك الليلة، إلى أن أخمد الفجر أنفاس النّبراس. وكان ذلك اليوم الجمعة يوم الثلاثين غُرَّة صفر المبارك. فجلسنا في منزلنا المعلوم، فحضر عندنـا جماعـات من أهل الخصـوص والعمـوم، حتى جيء إلينا في ذلك الصبـاح بياسَمين أصفر، وياسَمين أحمر، وياسَمين بعض ورقه أحمر، والبعض أصفر، وهو في عِرْقٍ واحدٍ، وله رائحة زكيّة، ونفحة مسكيّة. وهذا النوع من

الزهر يُسمّى في بلادنا بالشابّ الظريف.

ولنا في ذلك قولنا ارتجالاً:

وياسمين أصفر
يزهو كلَوْن الذّهبِ
وأحمر متّقِد
كالنّار ذات اللّهبِ
وآخر قال لنا
وذا من اللّون هبي
يا حُسْنها من زهرات
في اللّباس المذهبِ
مُسْتَوْقِفاتٍ من رأى
عن حسنها لم يذهبِ
يقول مَن يَشْتَمُّها
شمُّ الزهور مذهبي

ويوم السبت الحادي والثلاثون، وهو الثاني من صفر، فذهبنا إلى قلعة تلك البلاد مع جماعة من الإخوان، ورأينا على حاجب وجه ذلك الباب هذين البيتين، وهما قول بعضهم:

يا قلّعة حازت لا على منظر
ما في البلاد جميعها لك ثانية
مَن حلّ فيك جاءه[٥٧] كلّ الهنا
فالله يُعْطي ساكنيك العافية[٥٨]

ثم دخلنا إلى داخل القلعة، وقد أقلعنا عن المُساءة والهموم أكمل قلعه. وتفرّجنا على الحمّام الذي هناك[٥٩]. ودخلنا إلى ذلك الجامع[٦٠]. ثم خرجنا فقصدنا التّكيّة المولوية[٦١]، ومررنا على تلك المرجة الخضراء البهيّة. وزُرْنا مقام الخَضِر عليه السلام[٦٢]، ثم عطفنا على الروضة الغنّاء ذات الغصن النّضِر، وجلسنا في وادي الزهور. وكان دعانا إلى ذلك المكان صديقنا حضرة الحاج نورالدين بشّه[٦٣]. فانطلق بلبل القريحة يتغنّى بهذه الأبيات، وهي قولنا:

ومرجة تجري بها الأنهار
كأنّها الربق والمنشار
طلّت عليها قلعة عظيمة
حصارها ليس له انحصار
والجبلان اكتنفاها وهما
تكاد منهما تضي الأحجار
والماء عذْبٌ رائق مسلسل
بين الرُّبَى لأنّه هدّار
بها النّسيم لا يزال سارياً
تميل من خمرته الأشجار
كأنّنا في ربق الشام بها
وبيننا كأس الهنا يُدار
وادي الزهور حبّذا يومٌ به
قد أشرقت ما بيننا الأنوار
كيف و «نور الدين» كان
داعياً بنا إليه فانقضت أوتار

... الخ.

ثم ذهبنا إلى القناطر[٦٤] التي هناك، وهي بعيدة عن البلاد مقدار نصف ساعة، فرأيناها قناطر عظيمة عالية، وهي بين تلك الرياض ذات القطوف الدانية، متّصلة من الجبل إلى الجبل، يجري فيها الواصل إلى بلاد طرابلس الشافية من الخَبَل. وهي سبع قناطر يمشي عليها بعض الناس، فتسُرُّ الناظر والخاطر. وقد أنشدنا في ذلك العهد:

سقى الله عهداً بالقناطر وافياً
طرابلس أهدت [به] الودّ صافيا
فيا حبّذا ماء جرى فوقها وقد
حكى دُرراً منثورة ولآليا
بمرجٍ زَهَت منه الجوانب أخضر
ونهر كسيف صار بالنبْت حاليا
جلسنا كما شاء الإله بمجلسٍ
هناك عن الأكدار قدْ كان خاليا
وهبّت نُسَيْماتٌ علينا عشيّةٌ
فأنعشت الأرواح تهدي الغواليا
فلِلّه ذاك العهد ما كان في الربى
ألذّ وأهنا منه ما كان باقيا
قطعنا به زهر المنى من غصونه
ولا تقطف الأذواق إلّا الأمانيا

وقال الإمام الشيخ «حسن البوريني»[٦٥] في رحلته الطرابلسية.

«تأمّلت في المدينة المذكورة، فرأيتها في

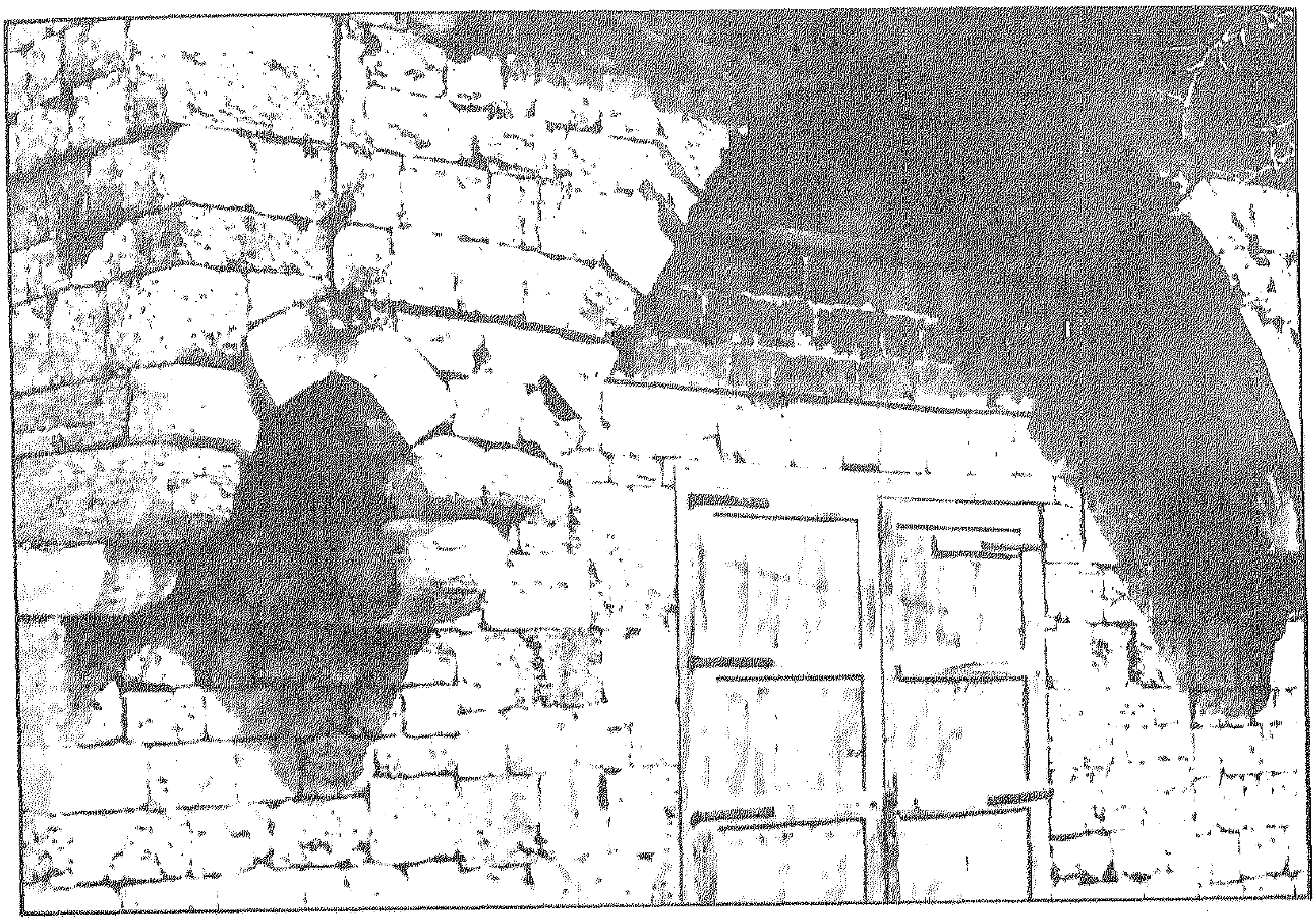

□ البترون القديمة.

سفح جبل من جانب القلعة، لكنّها ممتدّة من وسط الجبل إلى التلّ الأحمر(٦٦) الذي هو آخر المدينة، وأوّل المرج الأخضر. والقلعة مرتفعة فوق المدينة تُشرف عليها وتنظر إليها. وهنا مياه معتلية على قناطر من أماكن بعيدة مرتفعة، وهي قناطر بناها البرنس، وهو ملك من ملوك النصارى، كان ملكاً في ولاية طرابلس، فجلب إليها الماء على القناطر العظيمة، وهي عالية، فلذلك تجد غالب أبنية طرابلس مشتملة على الماء ولو كانت عالية، رأيت في طبقتين سُلَّمَيْن عاليين وفوقهما الماء الجاري...». انتهى.

ثم عدنا إلى مكاننا، ومررنا في الطريق على مدرسة بناها بعض المتقدّمين من الأمجاد، وقد دُفن فيها ولدان للملك الظاهر(٦٧)، أحدهما سلامش، والآخر سعيد.

وبتْنا تلك الليلة إلى أنْ أصبح الصباح، وكان ذلك اليوم الأحد الثاني والثلاثين، وهو اليوم الثالث من صفر، فذهبنا إلى وداع حضرة الوزير علي باشا... فوصلنا إلى بركة البَدّاوي المتقدّم ذِكرها، واجتمعنا به هناك على حالةٍ يطيب نشرها، ثم جئنا إلى المنزل، وعَزَمنا على المسير من طرابلس المحروسة، فودّعْنا الجماعة والأصحاب، ثم ذهبنا في الطريق، وقد ذهب معنا لوداعنا من أهل البلاد كل رفيق.

(القَلَمون)

ثم لم نزل سائرين، إلى أن وصلنا إلى القلمون(٦٨)، فبتنا في القلمون ليلة، وذلك في الثالث من شهر صفر سنة ١١٠٥.

(البترون)

وفي صباح اليوم التالي، الإثنين، سرنا ووصلنا وقت الظهر البترون، بلدة على الساحل، كان فيها قلعة، وهي الآن خراب متهدمة البيوت والجدران.

□ جبيل ومرفئها القديم.

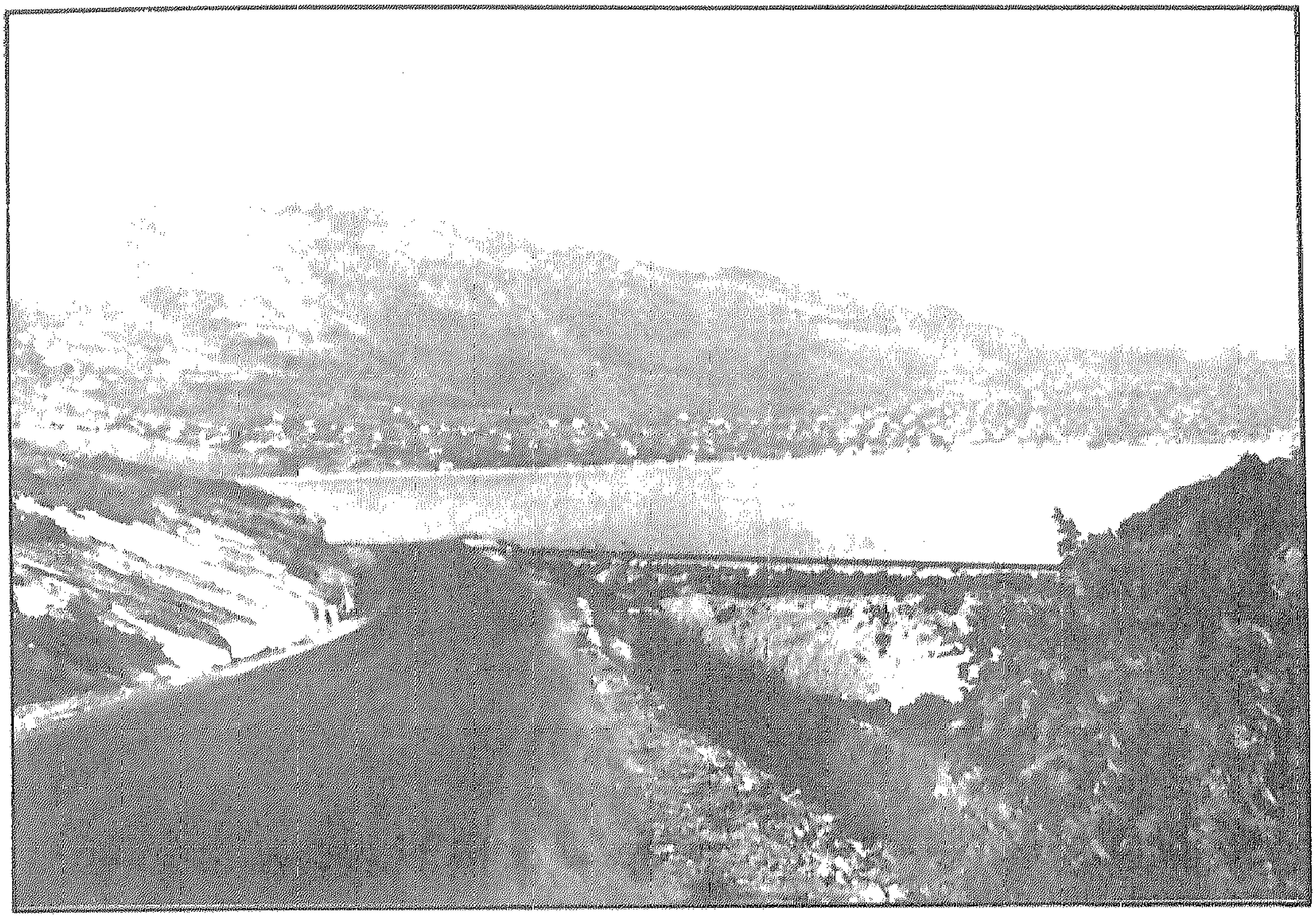

□ الطريق الساحلي الذي يصل بين بيروت وطرابلس.

(جُبَيْـل)

ثم ركبنا وسرنا إلى أن وصلنا إلى قلعة جُبَيل (مصغّرة)، وهي بلاد صغيرة ذات قلعة على ساحل البحر.

قال ياقوت في كتابه «المشترك»[٦٩]: «جُبَيل، بالتصغير» ستّة مواضع ذكرها، وذكر منها: جُبَيل: بلد من سواحل دمشق شرقي[٧٠] بيروت. (انتهى). فبتنا تلك الليلة هناك، عند باب القلعة في مقعد لطيف، ومجلس منيف. حتى أسفر صباح يوم الثلاثاء، وهو اليوم الرابع والثلاثون خامس صفر. فركبنا وسرنا على بركة الله إلى جهة بيروت المحروسة.

(نهر الكلب)

فمررنا في الطريق على نهر يُسمَّى نهر الكلب بين جبلين، كلّ منهما مرتفع سحيق، وهو نهر عظيم، وماؤه حُلْوٌ زُلال شفا للسقيم، يصبّ في البحر المالح، فيقابل وجهه البشوش ذلك الوجه المالح. وعليه جسر متين[٧١]، بقناطر من الحجارة اللطيفة التكوين، وإنّما سُمّي بنهر الكلب لأنّ الفرنج في الزمان الأول صوّروا هناك صورة كلب كبير من الحجر، وجعلوا فيه رصداً إذا جاء العدوّ ينبح عليه، فيسمعون ذلك النباح، فيتأهّبون لحرب العدوّ بأنواع السلاح. فجاء بعض الناس فكسره وألقاه في ذلك النهر، فسُمّي بذلك نهر الكلب

قال ياقوت الحموي في «المشترك»[٧٢]: «نهر الكلْب، بسكون اللّام ــ كذا ضبطه الحازمي ــ بين بيروت وصيداء من سواحل الشام». (انتهى).

فنزلنا في القرب من ذلك النهر قُبَيل وقت الظهر، بحيث ننظر إلى دخول ذلك النهر في البحر.

ثم ركبنا وصعِدنا من تلك العَقَبَة الصَّعْبة

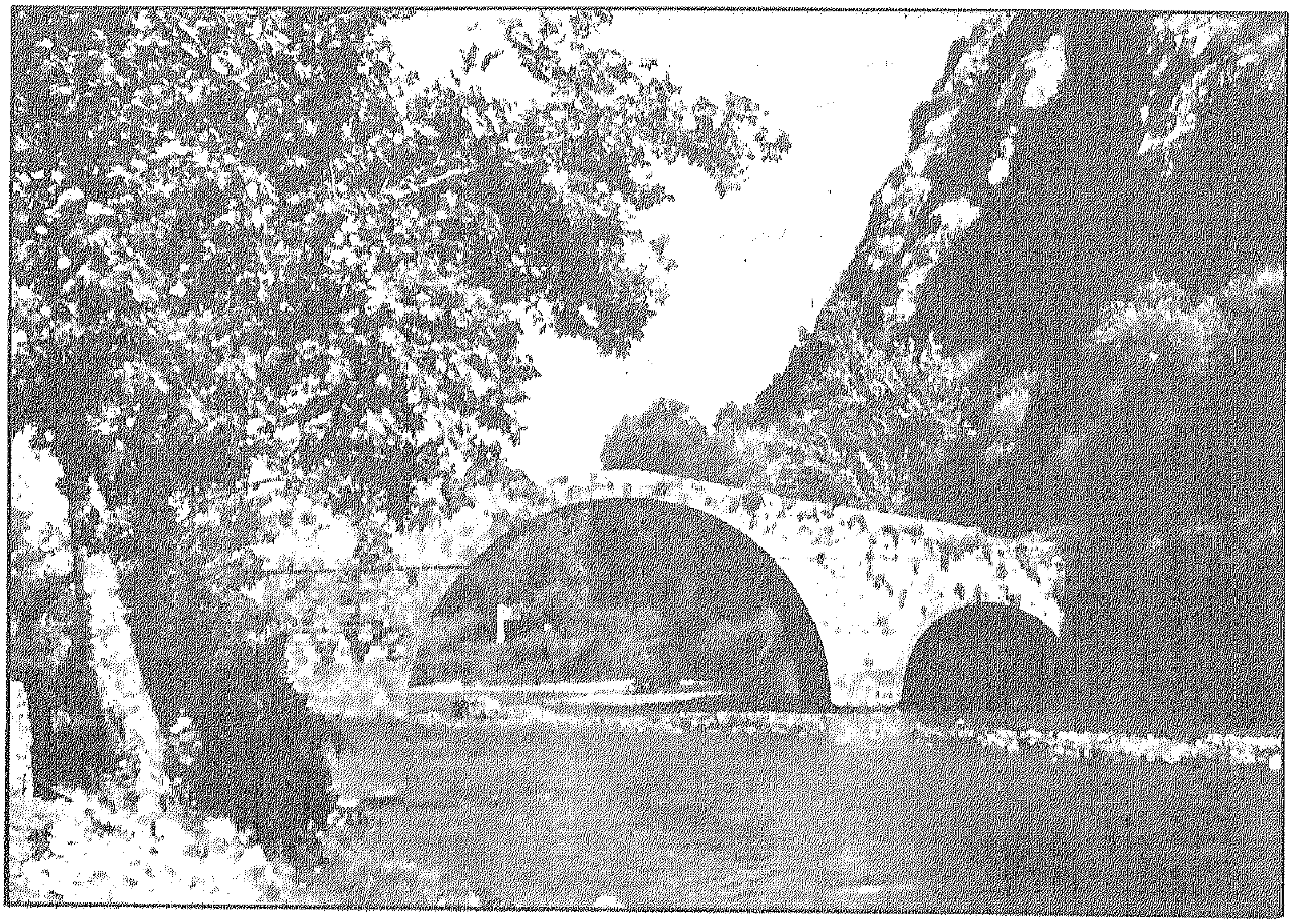

□ نهر الكلب الجسر العربي.

الكؤود. وبذلنا في التّوقّي من السقوط غاية المجهود، إلى أن زرنا مقام الخضِر[٧٣] عليه السلام، بالقرب من ذلك المكان، ومررنا على قبر أمّ حَرام[٧٤] ـ رضي الله عنها ـ وهي مدفونة في مقبرة بيروت. وقيل: هي مدفونة بجزيرة قبرس. والله أعلم.

وهي أمّ حرام بنت ملحان الأنصارية الصحابية خالة أنَس بن مالك، ويقال لها «القُبَيْصاء»، وقيل «الرُميصاء». واسم ملحان: مالك بن خالد بن زيد بن حرام بن جُندب بن عامر بن غَنْم بن عَدِيّ بن النّجّار. وحديثها في الصحيحين، وأبي داود، والنّسائيّ، وابن ماجه.

فوقفنا هناك، ودَعَوْنا الله تعالى، وقرأنا لها الفاتحة. ●

الهوامش

(١) طلبت الاطّلاع عليها عدّة مرات أثناء دراستي في القاهرة في الستينات، وفي كل مرة كان الجواب أنها غير موجودة!

(٢) انظر العدد الخامس من السنة السادسة (١٩٢٣) من مجلّة «المعارف»، وما بعده. وبهذه المناسبة أشكر السيد سالم الزيني (الطرابلسيّ) الذي أطلعني على الأعداد التي نُشر هذا النصّ فيها.

(٣) هكذا، والصحيح «طرطوس»، وهي مدينة معروفة بساحل الشام (سورية).

(٤) هو كتاب «المشترك وضعاً والمفترق صقعاً» ـ نشره «غوتنغن» (١٨٤٦). انظر صفحة ٤٠٧ ـ ٤٠٩.

(٥) في المطبوع من «المشترك» ص ٤٠٧ «ثلاثة وأربعون موضعاً».

(٦) تبعد المنية نحو عشر كيلومترات من طرابلس شمالاً على ساحل البحر، وهي الآن بلدة كبيرة، تنتشر عمارتها بين البساتين في مساحة واسعة، ويقطنها نحو ثلاثين الف نسمة، أكثريّتهم من المسلمين. ولم يكن لهذه البلدة أيّ ذكر في التاريخ، ويبدأ ذِكرها اعتباراً من عصر المماليك حيث كانت في معظمها مجرّد بساتين موقوفة لجهة الحرمين

الشريفين في مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة، وليس فيها من البناء إلّا النذر اليسير. أمّا اسمها فهو عربيّ خالص، من «المُنى» و «الأمنية»، فقد كانت بساتينها وحقولها الخضراء وثمارها المختلفة تُعتبر متنزهاً لأهل طرابلس، وكانت أمنية الواحد منهم أن يكون له مُقام فيها، ولهذا أُطلق عليها اسم «المُنْيَة»، ولا يُعْتَدّ بكل التفسيرات والاجتهادات التي تَجْهد في البحث عن الجذْر السرياني لهذا الاسم العربيّ الواضح.

(٧) هو جبل «تُرْبُل» المشرف عليها من جهة الشرق.

(٨) تؤكّد سجلّات المحكمة الشرعية بطرابلس هذه الحقيقة، ولا يزال قسم كبير من هذه الأوقاف حتى الآن لجهة الحرمين الشريفين.

(٩) هو سلطان دولة المماليك (٨٧٢ ــ ٩٠١هـ. / ١٤٦٧ ــ ١٤٩٦م.)، ويُرجَّح أنّه وقف ذلك الوقف أثناء رحلته إلى طرابلس سنة ٨٨٢هـ./ ١٤٧٧م. وقد دخل المنية وهو في طريقه إلى بلاد الشام الشمالية. انظر رحلته المعروفة بـ «القول المستَظْرَف في سفر مولانا الملك الأشرف»، التي كتبها «ابن الجيعان»، وقمت بتحقيقها ونشرها ــ طبعة جرّوس برسّ ــ طرابلس ١٩٨٤.

(١٠) لا يزال هذا القبر مشهوراً في البلدة حتى الآن على أنه للنبيّ يوشع عليه السلام.

(١١) لعلّ في هذا الاسم تصحيف أو تحريف، فالسلطان المقصود حسب تاريخ الكتابة هو المنصور قلاوون وليس في ألقابه «المقتفي»، والتاريخ المدوّن في القبر هو سنة ٦٨٤هـ./ ١٢٨٥م. أي قبل فتح طرابلس وتحريرها من الصليبيين بأربعة أعوام (٦٨٨هـ./ ١٢٨٩م.)، مما يؤكّد أنّ ضواحي المدينة وأرياضها كانت في حوزة المسلمين المماليك.

(١٢) لقد سبق أن أبدى السائح «برخارد» تعجّباً مماثلاً لتعجّب النابلسي قبل نحو أربعة قرون ونيّف، حيث زار القبر في سنة ٦٥١هـ./ ١٢٥٣م. فقال: «على بُعد فرسخين من طرابلس يوجد جبل الفُهود أو تُرْبُل المستدير في شكله والمعتدل في ارتفاعه على مسافة فرسخ من جبل لبنان، رأيت عند أسفله في ناحية الشمال كهفاً فيه معبد طوله ١٢ قدماً يأمّه الشرقيون. وهم يقولون بأنّه قبر يوشع النبيّ، والذي لا أصدّق خبره أبداً، لأنّ سِفْر القُضاة في الفقرة الثانية والتاسعة يقول بأنّ يوشع دُفن في «تناث صار» التي تقع بالقرب من ششم (أو سكيم) على سفح جبل افرايم. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأنّ هذا القبر هو قبر كنعان بن حام بن نوح أو أحد من أبنائه الذين تبرهن الكتابات على أنهم عاشوا في تلك النواحي...». انظر

Burchard of Mount Sion II. 18-23 – 9 ed J.C.M. Laurent Peregrinatores medu aevi quatuor, Leipzig 1864. (Vicinity of Tripolis, A.D. 1253).

وانظر رحلته إلى طرابلس ونواحيها في كتابنا: «تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور ــ الجزء الأول ــ الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ./ ١٩٨٤م. (بيروت، طرابلس) مؤسّسة الرسالة ودار الإيمان ــ (ملحق رقم ٥ ــ ص ٦١٢ ــ ٦١٤).

(١٣) هو كتاب «الإشارات إلى معرفة الزيارات» للهروي المتوفّى بحلب سنة ٦١١هـ./ ١٢١٥هـ. وقد حقّقته ونشرته جانين سورديل ــ طومين (دمشق ١٩٥٣).

(١٤) انظر: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٧.

(١٥) انظر ص ٢٤ من المصدر نفسه.

(١٦) غبّ: كلمة شاع استعمالها في العصر العثماني بمعنى: فَوْر، أو بعد كذا مباشرة.

(١٧) ورد ذِكر هذه البركة باسم «بركة داوية» في كتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للسخاوي ــ ج ٣/٢١٩، ويظهر أنّ الماء الذي كان يصبّ في البركة يُحْدِث دَوِيّاً، فقيل لها «بركة داوية». وقد ذهب المؤرّخون المحدثون مذاهب شتّى في تفسير «البداوي»، وأصل هذه التسمية، فقيل هي تحريف لكلمة «بودوان» الملك، أو «دي بويّون» وهو اسم الكونت «غودفري» أحد قادة الحروب الصليبية، وقيل إنها من «البدوي»، وقيل غير ذلك. انظر مقالة للأب «جان موريس فييه» رئيس قسم التاريخ في جامعة القدّيس يوسف (بيروت) بعنوان:

Un site près de Tripoli — Baddawi, Mélanges Allard — Nwiya — Beyrouth 1982.

وانظر له أيضاً مقالة بعنوان: «معبد الشهيد القدّيس ليونتيوس في طرابلس» نُشر في مجلّة «النور» ــ العدد الثاني (حزيران ١٩٨٣) ــ بيروت ــ ترجمة يوسف حجّار ــ ص ٤٥.

وانظر عن البركة وسمكها كتاب: «مشاهدات في لبنان» المأخوذ عن «سوريا اليوم» للويس لورته ــ تعريب كرم البستاني (بيروت ١٩٥١) ــ ص ٢٣، وكتاب «لبنان حضارة وجمال» لجوزف صدقي (بيروت ١٩٥٩) ــ ص ١٣١ و ١٣٢.

(١٨) سبقه إلى هذا القول «ابن أبي الصفا المعروف بابن محاسن الدمشقي» في رحلته «المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية» التي حقّقها الدكتور محمد عدنان البخيت (بيروت ١٩٨١) ــ ص ٥٩ حيث قال: «.. ثم سرنا وإلى بركة البدّاوي وصلنا، وهي بركة من عين ماء نابعة مملوءة من الأسماك التي على طول الزمان متناسلة متتابعة، إلّا أنها مانعة للاصطياد منها لأنّه قد جُرّب أن من اصطاد منها ولو سمكة وقع في مرض الحُمّى وصار في هلكة».

(١٩) يقصد بذلك «زاوية الدمرداش» المعروفة الآن بجامع البدّاوي، وقد بناها الامير «دمرداش المحمّدي الظاهري المعروف بالخاصّكي» الذي تولّى نيابة السلطنة بطرابلس مرّتين (٧٩٥ ــ ٧٩٦هـ.)، و (٨٠٤ ــ ٨٠٦هـ.)، حيث قيل: «إنّ زاويته بطرابلس على بركة داوية». انظر: الضوء اللامع للسخاوي ٣/٢١٩، وكتابنا: «تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك»، ص ٣٣٨ و ٣٣٩ (طرابلس ١٩٧٤)، وكتابنا: «تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور» الجزء الثاني ــ ص ٤٤ و ٤٥ رقم ٧٣ و ٨١ (بيروت ١٩٨١).

(٢٠) كانت بركة البدّاوي تُعتبر من أشهر المتنزّهات التي يقصدها الطرابلسيّون، وهي على بُعد نحو ثلاثة كيلومترات شمالاً، وممّا يؤسف له أنّ السمك الأسطوريّ الذي كان يعجّ في البركة قد مات وانقرض منذ سنة ١٩٧٤ وأحدث ضجّة إعلاميّة في ذلك الوقت. ومياه البركة تصل من البحر عبر قناة وسط البساتين.

(٢١) هو «علي باشا اللَّقّيس»، تولّى على طرابلس (١٦٩٢ ــ ١٦٩٣) ثم نُقل إلى استامبول حيث عيّنه السلطان وزيراً (صدراً أعظم) عنده. (انظر تاريخ الأزمنة للدويهي ــ ص ٣٧٩) وكان قبله على ولاية طرابلس «أرسلان باشا المطرجي» وعُزل في شهر رجب (١١٠٥هـ./ ١٦٩٢م.) ثم أعيد بعض ان انتقل اللّقّيس إلى الوزارة. (انظر: تاريخ حمص ــ الجزء الثاني ــ ص ٣٢٨ و ٣٢٩).

(٢٢) يعود احتكاك وُلاة طرابلس وأمرائها بآل حمادة إلى عهد دولة المماليك، ويبدأ التاريخ المدوّن للعلاقات بين الطرفين منذ سنة ٨٧١هـ./ ١٤٦٦م. (انظر كتاباً في التاريخ مجهول المؤلّف ــ مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٥٦٣١ تاريخ ــ ورقة ٦١ و ٦٣).

(٢٣)

(٢٤) كذا، والصحيح «السراي»، وكانت قديماً بقرب قلعة طرابلس.

(٢٥) يقصد المدرسة المعروفة بمدرسة القاضي عمر في سوق القمح، القريبة من بوّابة اللّبّانة، وقد تهدّمت هذه المدرسة خلال الأحداث في سنة ١٩٨٤ وكان عندها سبيل ماء فوقه لوحة عليها أربعة أبيات شِعر تؤرّخ لبنائه في ٣ رجب سنة ١٢٦٤هـ. وتقول الحكايات المحلّية أنّ القاضي كان وليّاً صالحاً، يزور الناس قبره في كل أول سبت من شهر رجب، ويصومون، ويقولون عنه أنه «قاضي الحاجات». (عن دفتر مخطوط جمعت فيه سماعات عن والدي رحمه الله).

(٢٦) هو كتاب «القاموس المحيط» للفيروزأبادي.

(٢٧) هكذا في الموضعين، والأصحّ «بلد».

(٢٨) انظر الجزء الثاني ــ ص ٢٢٦ من القاموس المحيط.

(٢٩) انظر (ص ٢٥) من المشترك وضعاً والمفترق صقعاً.

(٣٠) الشاعر المشهور «أبو الطيّب أحمد بن الحسين الكوفي المتنبّي، صاحب الديوان. وُلد بالكوفة سنة ٣٠٦هـ. ودخل طرابلس مرتين، بين سنتي (٣٢٥ ــ ٣٣٠هـ.) وفي سنة ٣٣٦هـ. وقُتل في سنة ٣٥٤هـ.

(٣١) هذا الشطر أوّله: «أكارمُ حسد الأرضَ السماءُ بهِمْ»، وهو من قصيدة انشدها في طرابلس وهو في صباه (بين سنتي ٣٢٥ ــ ٣٣٠هـ.) يمدح «عُبيدالله بن خراسان الطرابلسي» مطلعها:

أَظَبْيَـةَ الوحش لولا ظَبْيَـةُ الأَنَس   لَمَا غَدَوْت بجـدٍّ في الهـوى تَعِسِ

(انظر الديوان بتحقيق د. عبدالوهاب عزّام ــ ص ١٦ ــ طبعة القاهرة ١٩٤٤) ولنا: معجم الشعراء والأدباء في تاريخ لبنان ــ مخطوط ــ ترجمة المتنبّي ــ فيمن اسمه «أحمد».

(٣٢) انظر دراستنا المفصّلة عن «اسم طرابلس وتطوّره» في كتابنا «تاريخ طرابلس» ــ الجزء الأول ــ الطبعة الثانية ــ ص ٢٥ ــ ٣٥.

(٣٣) هو «هبة الله بن علي البصير الحموي الطرابلسي»، اجتمع به النابلسي في رحلته الثانية إلى طرابلس سنة ١١١٢هـ./ ١٧٠٠م. ووصفه بالعلامة والبحر الفهّامة، وذكر من مؤلّفاته «بحور العين نظم الدرر والغُرَر في فقه الحنفية». (التحفة النابلسية ــ ص ٥٢ و ٥٣ و ٥٩ و ٦١ ــ ٦٨ و ٨٨) وله أيضاً: «بُغية الأريب بشرح حديث تحبيب النساء والطيب». (انظر: فهرست مخطوطات المصطلح أو الحديث الشريف ــ الخزانة

التيمورية بدار الكتب المصرية ــ الجزء الأول)، وانظر عنه كتابنا: موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان ـ القسم الثالث ــ الجزء ١٦ ــ رقم الترجمة ١٥١٨).

(٣٤) لم أقف على ترجمة له.

(٣٥) ورد البيتان الأوّلان في كتاب «المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية» لابن أبي الصفا المعروف بابن محاسن الدمشقي ــ ص ٩٣، باختلاف بعض الألفاظ عمّا هنا. ولم يذكر اسم قائل الشعر أيضاً.

وفي هذا المعنى نَظَم حكمت شريف يكن في «تاريخ طرابلس» له، هذين البيتين:

طرابلس الفيحاء شامة قُطرنا ... مدى الدهر في خدّ البلاد غدت شامه

وجِلّقُ لمّا شبّهوها بعينها ... فإنسانها كانت طرابلس شامه

(٣٦) لم أقف على قائل هذين البيتين.

(٣٧) يرد ذِكر «مَزار وليّ الله السيد محمد العجمي قدّس الله سرّه العزيز» في سجلّات المحكمة الشرعية بطرابلس لسنة ١١٦٥هـ.، والمزار أو القبر داخل المدرسة المعروفة حتى الآن بالعجمية في محلّة المهاترة، وهي من بناء «محمد الطرابلسي المعروف بالسُكّر» في سنة ٧٦٦هـ./ ١٣٦٥م. (انظر عنها كتابنا: تاريخ وآثار مساجد ومدارس في عصر المماليك ــ ص ٢٠٢ و ٣٠٣ ــ طرابلس ١٩٧٤).

(٣٨) يقصد الجامع المعروف الآن بجامع السيد عبدالواحد المكناسي الذي بناه سنة ٧٠٥هـ./ ١٣٠٦م. وبجواره رواق يسكنه المغاربة حتى الآن. (انظر عن الجامع كتابنا: تاريخ وآثار.. ــ ص ١٥٥ ــ ١٥٨).

(٣٩) القبر المذكور لعبدالسلام المغربي المشيشي، وليس للشيخ عبدالواحد كما يقول النابلسي، إذ توفي عبدالواحد في صعيد مصر بعد سنة ٧٢٦هـ./ ١٣٢٦م. حيث رآه هناك ابن بطوطة في رحلته. (انظر مهذّب الرحلة ــ ص ٥٢، وكتابنا: تاريخ وآثار ــ ص ١٥٦).

(٤٠) قال عنه المُحِبّي: كان آية باهرة في الحفظ والإتقان. وُلد بحماه وقرأ بها، ثم رحل إلى طرابلس وعمره أربعون سنة وتوطّنها، وولي الإفتاء بها حتى توفي سنة ١٠٩٠هـ. ودُفن بجبّانة الغرباء ظاهر طرابلس. أي قبل زيارة النابلسي لطرابلس بنحو (١٥) عاماً. (انظر عنه: خلاصة الأثر للمحبّي ٣/٢٠١ و ٢٠٢، التحفة النابلسية ــ ص ٥٢ و ٦٠ و ٦٣ و ٦٤، سجّل المحكمة الشرعية بطرابلس رقم ٢/١٦٠ لسنتي ١٠٧٨ و ١٠٧٩هـ.، كشف الظنون ١٣٠٠، إيضاح المكنون ١/٤٢٣ و ٢/٢٣٧، وهدية العارفين ١/٧٦٢ وفيه «علي بن عبدالله البصير الحاكمي الحموي»، تاريخ حماه للصابوني ١٤٩، مختصر تاريخ سورية للدبس ١٩٢/٢، تاريخ طرابلس لحكمت شريف يكن (مخطوط) ١٣/٢، معجم المؤلّفين لكحّالة ٧٨/٥ و ٤٤/٧ وفيه «عبدالبصير»، وانظر لنا: موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان ــ المجلّد ١٤ ــ ص ٣٠٤ ــ ٣٠٨ رقم ٨٤٣).

(٤١) ورد في سجّلات المحكمة الشرعية بطرابلس لسنتي ١١٢٧ و ١١٢٨ ــ ص ٣٤ .«عبدالجليل الحنفي»، الذي تولّى الخطابة في جامع محمود لطفي الزعيم المعروف حتى الآن بالمعلّق. كما ذكر النابلسي في رحلته الثانية إلى طرابلس بعد سبع سنين «الشيخ عبدالجليل الشهير بابن سُنَيْن».(انظر: التحفة النابلسية ــ ص ٥٢ و ٥٣ و ٨٨) فلعلّ الجميع واحد.

وهو غير «عبدالجليل السُنَيْني» الذي ذكره المرادي في «سلك الدرر» ــ ج ٢/٢٣٨ وأرّخ وفاته بسنة ١١٠٢هـ. إلّا أن يكون التاريخ غلطاً.

(٤٢) لم أقف على ترجمة له.

(٤٣) ذكر النابلسي في رحلته الثانية إلى طرابلس (التحفة النابلسية ــ ص ٤٨) الشيخ إبراهيم النقشبندي الميقاتي، وهو «إبراهيم بن مصطفى بن عبدالحيّ الميقاتي الطرابلسي». ذكره الشيخ محمد رشيد لميقاتي في «نزهة الفكر في مناقب الشيخ محمد الجسر» ــ ص ٩، وهو الذي ساق نسبه. وكان خطيباً في الجامع المنصوري الكبير. (انظر سجّل المحكمة الشرعية بطرابلس لسنة ١٠٨٨هـ. ــ ص ١١٠).

(٤٤) يقصد القبرين اللذين كانا داخل المدرسة المعروفة بالأحمديّة، وهي الملاصقة للرواق الشمالي من جامع التوبة. وقد وردت إشارة إليها في سجلّات المحكمة الشرعية بطرابلس لسنة ١٠٧٨هـ./ ١٦٦٧م. حيث تسبّب فيضان النهر بسقوط قبّتها، وسُمّيت المدرسة بالتّكيّة.كما تعرّض سقفها للسقوط بعد فيضان النهر في أواخر سنة ١٩٥٥ حيث كان المخطّط لها أن تُزال نهائياً مع جامع التوبة لتقويم مجرى النهر، وبقيت مشعّثة حتى الآن. (انظر عنها كتابنا: تاريخ وآثار ــ ص ١٤٥)، وذكرها ابن محاسن في «المنازل المحاسنية» ــ ص ٨٢ ووصفها بـ «المصلّى» مشرف على النهر يشرح الصدر.

(٤٥) أي من الأتراك.

(٤٦) يقصد جامع الناصري المعروف حتى الآن بجامع التوبة، رواه الملك الناصر محمد بن قلاوون حول سنة ٧١٥هـ./ ١٣١٥م. وقد تعرّض للتجديد عدّة مرات لكثرة تعرّضه لفيضانات النهر المجاور، وكان آخرها مساء ١٧ كانون الأول ١٩٥٥ (انظر عنه كتابنا: تاريخ وآثار.. ــ ص ١٣٥ ــ ١٥٤).

(٤٧) كان يقوم عند الجامع قبل فيضان ١٩٥٥ جسر واحد يعرف بجسر اللّحامة أو الجديد. وقد أزيل بعد تقويم مجرى النهر.

(٤٨) انظر عن أبراج طرابلس بساحل البحر كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ــ ج ٢/ ٢٥٩ ــ ٢٧٥، وكتابنا: نصوص مختارة من سجلّات المحكمة الشرعية بطرابلس، وسيصدر عن المؤسّسة الوطنية للمحفوظات ببيروت، وفيه ترتيب لمواقع وأسماء الأبراج من خلال الوثائق.

(٤٩) هو جبل الأربعين المعروف في ناحية الضّنيّة، وهو مشرف على بلدة بقاع صفرين، ويُعتبر الآن متنزّهاً للمصطافين من أهل طرابلس.

(٥٠) لم أقدر على مصدر يؤيّد هذه المعلومة.

(٥١) هي التكيّة المعروفة حتى الآن بالمولوية، في سفح قلعة طرابلس من جهة الشرق، على ضفّة النهر. بناها رجل يقال له صمصمجي علي حول سنة ١٠٢٨هـ. وتتمتّع بموقع فريد حيث المياه والخضرة والمناظر الخلّابة. وقد أُعجب بها الرحالة المسلمون والأجانب وكتبوا عنها كثيراً. (انظر عنها: المنازل المحاسنية ــ ص ٧٦، وكتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ــ ج ٢/٣٤٩ ــ ٣٥٤ وفيه مصادر أخرى).

(٥٢) كانت مقبرة الغرباء تقوم بظاهر طرابلس في الشمال الغربـي من محلّة الزهرية الآن، وقد أُزيلت بعد تقويم مجرى النهر.
أمّا الشيخ المذكور فهو «محمد بن محمود بن عبدالحق الحامدي الطرابلسي» الجدّ الأعلى لأسرة الحامدي المعروفة الآن، وكان خاتمة علمائها أستاذنا الشيخ عبدالحميد الحامدي المتوفى سنة ١٩٧٢ رحمه الله.

(٥٣) يقصد ضريح «عزّالدين أيبك الموصلي» نائب السلطنة بطرابلس، الذي يقوم حتى الآن بجوار حمّامه المشهور بحمّام عزّالدين، في محلّة باب الحديد. (انظر عنه كتابنا: تاريخ وآثار ــ ص ٢٦٨ وما بعدها، وكتابنا. تاريخ طرابلس السياسي ــ ج ٢/٢٨٨ و ٣٠٠).

(٥٤) كان على ضفّتي النهر نحو (١٢) طاحونة كبيرة وصغيرة، أزيلت بعد فيضان ١٩٥٥، منها طواحين من عصر المماليك.

(٥٥) المعروف بالمنصوري. بناه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وتمّ بناؤه سنة ٦٩٣هـ./ ١٢٩٤م. وهو أكبر جوامع طرابلس. (انظر عنه كتابنا: تاريخ وآثار ٥٧ ــ ١٣٤).

(٥٦) هكذا، والصحيح هو «عبداللطيف» من بني سُنَيْن، وهو أخو الشيخ «عبدالجليل»، وقد ذكره النابلسي في رحلته الثانية (التحفة النابلسية ٤٩ و ٥٨ و ٨٨).

(٥٧) الأوْلى أن يقال (يجيئه) ليستقيم الوزن. (عيسى اسكندر المعلوف).

(٥٨) ليس للبيتين أثر الآن. ولم يذكرهما غير النابلسي.

(٥٩) يقصد حمّام «عزّالدين» الذي بناه نائب السلطنة عزّالدين أيبك المَوْصِليّ بين سنتي ٦٩٤ ــ ٦٩٨هـ./ ١٢٩٥ ــ ١٢٩٩م. (انظر كتابنا: تاريخ طرابلس ٢/ ٣٠٠).

(٦٠) يقصد جامع «البرطاسي» الذي بناه الأمير «شرف الدين عيسى بن عمر البرطاسي الكردي» حول سة ٧١٠هـ./ ١٣١٠م. (انظر عنه كتابنا: تاريخ وآثار مساجد طرابلس ــ ٢٠٧).

(٦١) تقع في الجنوب الشرقي من قلعة طرابلس، على ضفة النهر الغربية، بناها (صمصمجي علي) حول سنة ١٠٢٨هـ./ ١٦١٨م. (المنازل المحاسنية لابن محاسن ــ ص ٧٦). وانظر وصف الرحّالة لها كتابينا: تاريخ وآثار ــ ص ٥٢، ٥٣؛ وتاريخ طرابلس ٢/٣٤٩ ــ ٣٥٤ رقم ٨٤.

(٦٢) يقع على طريق المولوية في الشمال الغربـي منها، حسب سجلّات المحكمة الشرعية بطرابلس.

(٦٣) ذكره النابلسي في رحلته «التحفة النابلسية» باسم «نورالدين الطرابلسي»، وقد أخطأ المستشرق «هريبَرت بُوسه» في تحقيقه للرحلة، بإثبات الاسم «نورالدين بشر الطرابلسي» (راجع فهرس الاعلام ــ ص ١١٩) والصحيح «بشه» كما أثبتناه، وهذا ليس اسماً، بل هو اصطلاح تركي يستخدم مع الأسماء للتفخيم، وهو تصغير «باشا». وهو كثير الاستعمال في سجلّات المحكمة الشرعية، والوثائق العثمانية.

(٦٤) تُعرف بـ «قناطر البرنس»، وتعود إلى عهد الصليبيين. (انظر عنها: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ــ لابن عبدالظاهر ــ ص ٣٠٥، ونخبة الدهر في عجائب البر والبحر ــ لشيخ الربوة ــ ص ٢٠٧، ودُرّة الأسلاك في

دولة الأتراك ــ لبدرالدين حبيب الحلبي ــ (مخطوط) ٢/٣٩١، وانظر كتابنا: تاريخ طرابلس ٢/٥٠٤ و ٥٠٦).

(٦٥) هو الحسن بن محمد البوريني، المتوفى سنة ١٠٢٤هـ./ ١٦١٥م. له رحلة إلى طرابلس لم تُنْشَر حتى الآن، وهي في حكم المفقودة.

(٦٦) يقصد التلّ الذي تقوم فوقه الآن القهوة العليا.

(٦٧) هذا وَهْمٌ من النابلسي أخذ به العامّة من الطرابلسيين، فالمدرسة هي من بناء الأمير «تغري برمش الظاهري» سنة ٧٩٩هـ. (انظر كتابنا: تاريخ وآثار ــ ص ٣٠٤).

(٦٨) جنوبي طرابلس مسافة سبعة كيلومترات على ساحل البحر.

(٦٩) المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ــ ص ٩٧.

(٧٠) الصحيح شماليّ بيروت، في منتصف الطريق ــ تقريباً ــ بينها وبين طرابلس.

(٧١) بناه الأمير «سيف الدين أيتمش البجاسي الجركسي» بين سنتي ٧٩٢ ــ ٨٠١هـ./ ١٣٩٠ ــ ١٣٩٩م. وهو صاحب البرج المعروف ببرج عزّالدين بساحل طرابلس. انظر:
Voyage en Syrie — Max van Berchem — V. 1 — P. 100 — Caire 1914.

(٧٢) ص ٤٢٧.

(٧٣) انظر عنه: تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت ــ للشيخ طه الولي ــ ص ٥١ وما بعدها.

(٧٤) هي الصحابيّة الجليلة «الغُمَيْصاء بنت مِلْحان» زوجة «عُبادة بن الصامت» رضي الله عنه. وقوله النابلسي هنا يتّفق مع قول «صالح بن يحيى» في: تاريخ بيروت ــ ص ١٤ من أنّ أمّ حَرَام ماتت في بيروت بعد عودتها من قبرس. وهذا قول غير صحيح، فالمصادر القديمة تُجمع على أنها تُوُفّيت في الجزيرة أثناء غزوة معاوية لها سنة ٢٨هـ./ ٦٤٩م. (انظر: تاريخ خليفة بن خيّاط ــ ١٦٠، ربيع الأبرار للزمخشري ١/٢٤٠، الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/٣١٨، تاريخ دمشق (تراجم النساء) ــ تحقيق سكينة الشهابي ــ ٤٨٦ ــ ٤٩٦ ــ دمشق ١٤٠٣هـ./ ١٩٨٢م).

ابن خلدون (١٣٣٢ ــ ١٤٠٦)

● مؤرخ وعالم اجتماع. ينتهي نسبه إلى وائل بن حجر من عرب اليمن. أقامت أسرته في تونس حيث تعلم بها. تنقل من بلاد المغرب ثم أقام بتلمسان بالجزائر. عاد إلى تونس، وانتقل إلى مصر، واتصل بسلطانها برقوق، فولاه قضاء المالكية. حج إلى مكة (١٣٨٧)، ورافق جيش المماليك الذي صد زحف تيمورلنك. ألف كتابه الشهير «العبر وديوان المبتدأ والخبر» ولمقدمته أهمية كبيرة لاشتمالها على فصول في أصول العمران، والنظريات الاجتماعية والسياسية، وتصنيف العلوم. انتقد ابن خلدون أرسطو لأنه لم يهتم بعلم الاجتماع، وانتقد الفلاسفة المتقدمين لاهتمامهم بما وراء الطبيعة. ابتكر ابن خلدون المنهج التاريخي فقال أن الوقائع يرتبط بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول، واعتبر ابن خلدون علم التاريخ فرعاً من الفلسفة، وجعل له موضوعاً هو الحياة الاجتماعية، وما يتصل بها من حضارة مادية وعقلية للجماعة التي تتطور من البداوة إلى الحضارة. سبق عصره ومفكري العرب والغرب، وأثر في ما بعد في أوجست كونت ــ تلميذ سان سيمون ــ وهربرت سبنسر من قادة الفكر الغربي في القرن التاسع عشر. ولا زال أثره واضحاً في الجامعات الغربية، وقد ألف جورج داڤي عميد جامعة السوربون (١٩٥٠) أطروحته عن ابن خلدون. كما عالجها كذلك طه حسين في أطروحته (١٩٣٠) ولا يزال هذا الأمر ممتداً عند الفلاسفة الماديين وعلماء الاجتماع المعاصرين (كوفلبيه وجورج جورفتش أستاذي الاجتماع في السوربون).

معالم الحضارة العربية

د. نقولا زيادة

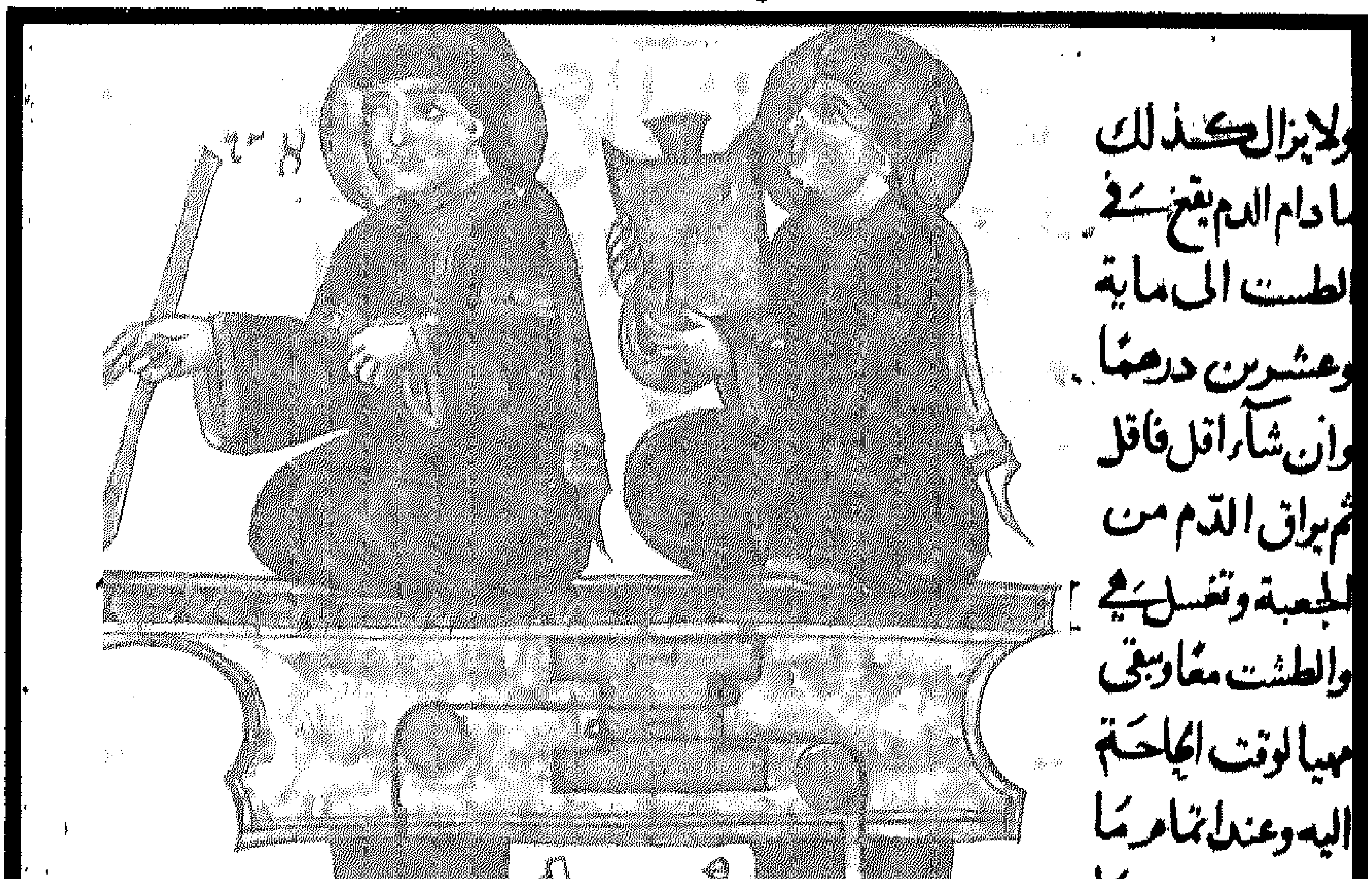

□ آلة لقياس كمية الدم المراقة من المريض.

يعرض الدكتور نقولا زيادة في دراسته هذه، التي نقدم الجزء الأول منها، لمعالم الحضارة العربية من حيث تطورها وخصائصها، وتفاعلها مع الحضارات التي كانت قائمة في حينه، ومن ثم انتقالها إلى أوروبا والتأثير فيها.

وهو، في ذلك، يلقي الضوء على حقبة مشرقة ومشرفة من تاريخنا العربي، أرست دعائمها حضارة عظيمة تجلت في ميادين الفن والأدب وعلوم الطب والبناء والفلك والفلسفة... وكانت الأساس الأول والمكين لما نشهد اليوم من تطور وتقدم.

ويأمل الدكتور زيادة أن يزود قراء «تاريخ العرب والعالم» بشيء حول اللغة العربية في مساقها التاريخي.

تطور الحضارة العربية وخصائصها

مع الفتوح العربية رسمت الامبراطورية الإسلامية حدوداً واسعة لها امتدت من أواسط آسيا وحوض السند شرقاً إلى شمال إسبانيا والمحيط الأطلسي غرباً. وانتقل العرب إلى محيطهم الجديد ونقلوا معهم مثلهم العليا التي جاء بها الإسلام، ولغتهم الحية الناضجة التي نزل بها القرآن الكريم، ونشاطهم وحيويتهم وعواطفهم. ومزجوا ذلك بأدب الفرس وعلم اليونان والهند وتشريع الرومان، فخرج للعالم، من ذلك كله، هذه المدينة الإسلامية العربية التي انتشرت بدورها في ديارهم وخارج ديارهم.

وحري بنا، قبل أن نبدأ بالتعرف إلى معالم هذه الحضارة وتبين خصائصها، أن نلم إلمامة سريعة بنشوئها وتطورها.

كانت القضايا الأولى التي انصرف العرب إليها، أيام الخلفاء الراشدين وبني أمية، تتعلق بالدرجة الأولى بإدارة هذه البلاد الواسعة التي تولوا أمرها. ذلك انهم لم يكونوا أصحاب خبرة بالإدارة على هذا النطاق الواسع. لذلك أخذوا بالاهتداء بهدي القرآن الكريم والحديث الشريف في ما يتعلق بالعدل والمثل الأخلاقية، وسمحوا لأنفسهم بأن يفيدوا من تجارب من سبقهم من الأمم. فمن ذلك أنهم تركوا للولاة أن يصدروا من الأوامر ما يصون الأمن والنظام ويحفظ حياة الناس وأموالهم، وتركوا للقضاة أن يقيموا العدل والقسطاس. وظلت سجلات الدولة المالية مثلاً تكتب بالفارسية في العراق واليونانية في ديار الشام والقبطية في مصر. كما ظل الناس على استعمال النقود البيزنطية في مصر وديار الشام.

فلما استقر للعرب الأمر ووجدوا من يستطيع أن يدون هذه القيود باللغة العربية فعلوا ذلك في أيام عبدالملك وأولاده. وسكوا النقود الذهبية العربية الإسلامية. وبذلك جعلوا للامبراطورية العربية نظاماً نقدياً خاصاً كان له أثر كبير في تدعيم التطور الاقتصادي الجديد.

ومع أن الأمويين كانوا حريصين على العناية بالإدارة وإتمام الفتوح فإنهم لم يغفلوا العلوم. فقد عني الأمير الأموي خالد بن يزيد، على سبيل المثال، بالكيمياء وما إليها. لكن انتقال الملك العربي إلى العباسيين سنة ١٣٢هـ (٧٥٠) وإنشاء بغداد بعد ذلك بمدة قصيرة، هو الذي فتح أمام العرب مجال الاتصال العلمي والفلسفي والأدبي بما عند الأمم التي سبقتهم والجماعات المعاصرة لهم. إذ أنهم اندفعوا نحو التعرف إلى التراث الحضاري بأكمله. وكانت الترجمة السبيل الأول إلى ذلك. ففي أيام أبي جعفر المنصور بدأ نقل الطب والفلك إلى اللغة العربية. وقد كانت الترجمة في بدء أمرها فردية فيختار المترجم ما يلذ له وينقله بتشجيع من أولي الأمر. لكن الأمر لم يلبث أن اتخذ شكلاً آخر أيام الرشيد والأمين والمأمون. ففي هذه الفترة القصيرة، الممتدة من سنة ١٧٠ إلى ٢١٨، أصبحت الترجمة عملاً رسمياً منظماً. وكان

□ مجموعة علماء يدرسون عوالم الفلك.

المترجمون، بادىء ذي بدء، من النصارى المقيمين في الامبراطورية العربية. وكانت الترجمة من اليونانية إلى السريانية ثم من السريانية إلى العربية، لكنها لم تلبث أن تحولت من اليونانية إلى العربية رأساً.

فمدرسة حنين بن إسحق وابنه وابن أخيه وبعض تلاميذهم، عنيت بالتراث الطبي اليوناني بنوع خاص، فتم على يدها نقل مؤلفات غالينوس وأبقراط وديسقوروس إلى العربية. لكن عمل هذه المدرسة لم يقتصر على ذلك إذ أن المترجمين منها نقلوا بعض أعمال أفلاطون وأرسطو أيضاً. وقد أنشأ المأمون دار الحكمة لتكون مركزاً للترجمة والبحث وولى حنين بن إسحق رئاستها.

وكانت ثمة مدرسة ثانية للترجمة وهي التي اتبعت طريق يحيى بن عدي، فانصرفت إلى الفلسفة، فنقلت الكثير من مؤلفات أفلاطون

وأرسطو وأفلوطين. والمدرسة الثالثة هي التي يمثلها ثابت بن قرة والتي يعود إليها الفضل في نقل المؤلفات الرياضية والفلكية اليونانية. وحري بالذكر أنه قبل انتهاء القرن الثالث للهجرة (القرن التاسع للميلاد) كان العرب قد تعرفوا إلى أهم المؤلفات اليونانية بحيث أن ابن أبي أصيبعة أورد ذكر ما لا يقل عن مئة كتاب نقلت عن اليونانية في تلك الفترة.

ومع أن بغداد ترجمت الكثير، فإنها لم تكن المركز الوحيد لذلك. فقد نقلت كتب أخرى في مراكز العلم في العالم الإسلامي، نذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر، فرغانة وبخارى ونيسابور والبصرة والكوفة والموصل وحلب ودمشق والقدس والقاهرة والقيروان وتونس وتلمسان ومراكش وفاس وقرطبة وطليطلة.

ودور الترجمة لم يطل أمده على ما رأينا. فقد كانت حيوية العرب والمسلمين قوية، لذلك لم يلبثوا أن أخذوا أنفسهم بالكتابة في المواضيع المختلفة — في الطب والفلك والرياضيات والفلسفة، كما أن العلوم الإسلامية الصرفة، وهي التي كانت العناية بها قد بدأت قبلاً، أخذت سبيلها إلى النضج. فكان التفسير والحديث والفقه والكلام. ونضيف إلى ذلك الأدب والتاريخ.

ولنذكر أيضاً أن العرب استمروا في خدمة العلم والفكر قروناً طويلة. لذلك تمكنوا من إضافة الكثير الكثير إلى ما أخذوه، بحيث أنهم ابتكروا أشياء كثيرة ضمت إلى كنز المعرفة البشرية.

وحضارة، على هذا الاتساع رقعة، والامتداد زمناً، كانت لها خصائص لا بد أن تذكر قبل الانتقال إلى التفاصيل.

أولى هذه الخصائص، أن هذه الحضارة إسلامية الروح والصيغة. فالإسلام هو الذي حفز سكان الامبراطورية، على اختلاف نحلهم وتباين مذاهبهم، على العمل المستمر في سبيل العلم والفلسفة والتشريع وما إلى ذلك. ونحن إذا تذكرنا أن الشريعة الإسلامية هي التي كانت أساس المعاملات والأحكام والعدل، وتذكرنا اهتمام العاملين بها، وجدنا أن هذه كانت من أكبر الخدمات التي تمت على أيدي العرب لا بالنسبة إلى أهل الامبراطورية وسكانها فحسب، بل بالنسبة إلى العالم الحديث أيضاً.

والأمر الثاني هو أن الحضارة كانت عربية التعبير. فقد حمل العرب معهم لغتهم، ولم يلبثوا أن نقلوا العلوم والفلسفات اليونانية والهندية والفارسية إلى العربية. وانتشرت العربية مع القرآن الكريم. وكانت لقرون طويلة اللغة الوحيدة التي كتب فيها شيء يستحق القراءة. وعبقرية الحضارة العربية من عبقرية لغتها.

والأمر الثالث هو أن هذه الحضارة كانت ديناميكية واسعة الأفق والنظرة. فنحن إذا أخذنا بغداد وجوارها وجدنا أن المشتغلين بشؤون العلم والفكر والدين كانوا ينطلقون في آفاق لا تحد، وكانوا يبحثون قضايا متنوعة تتعلق بالكون على عظمته والإنسان والعلاقة بينه وبين الخالق. كما كانوا ينظرون في شؤون الناس وتخطيط المدن وأمور الأسواق.

والحضارة العربية متكاملة من حيث اهتماماتها ونظرتها. فقد تناولت جميع القضايا في خطوط متوازية ومستويات متقاربة، لأن الإسلام لم يفرق بين الدين والدنيا. فكان من الطبيعي أن تكون النظرة شاملة، والعناصر التي تتكون منها هذه الحضارة متآلفة يكمل واحدها الآخر، ويتم عمل الباحث الواحد عمل المفكر الآخر.

صحيح أن الفلسفة كانت شغل عدد قليل من أهل الفكر، والكلام كان يعنى به قلة من الناس. ولكن هذا من طبيعة الأشياء. ففي عصور التاريخ جميعها كانت هذه الأشياء مقصورة على عدد قليل من الناس. لكن المهم أن سبيل الحصول عليها كان متيسراً لكل من أراد وسمت به همته إلى الإفادة من ذلك.

يجدر بنا أن نعنى بظاهرة هامة من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية. وهي نظرة أهل الفكر والعلماء إلى وحدة العالم الإسلامي. فمنذ القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) هبت على الامبراطورية العربية الإسلامية الواسعة رياح التفرقة السياسية: فانقسمت إلى دويلات وقامت بينها حروب وخصومات، وزالت دول وقامت أخرى، كما انعقدت محالفات ومعاهدات. ومع ذلك فإن الأديب والعالم والفقيه والمحدث والمفسر والشاعر، لم يشعر واحدهم قط بغربة في أي من أجزاء هذا العالم الواسع. كان يتنقل فيه من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد ومن مدينة إلى

مدينة ومن بلاط إلى بلاط حاسباً نفسه جزءاً من كل أينما حلّ، لأنه كان يرى أن الذي يربط أصلاً بين أجزاء هذا العالم الواسع هو الإسلام. فهو العروة الوثقى يمتن العلاقات ويقوي الروابط بين هؤلاء الأفراد أينما حلوا. فهذا ابن بطوطة مثلاً يتنقل بين طنجة في المغرب الأقصى وأواسط آسيا فلا تهمه الحزازات والخلافات التي كانت تهب على البلاد في القرن الثامن للهجرة (القرن الرابع عشر للميلاد). وهذا ابن خلدون يهجر بلاده في شمال إفريقيا ويستقر بمصر، فيعين في مناصب القضاء والتدريس. ومثل هذين مئات من حملة العلم ونقلته.

أشرنا من قبل إلى أن الحضارة العربية كانت متكاملة النظرة. ونضيف الآن أنها كانت متكاملة في الأمور العملية. فالرقعة الواسعة كانت تغل أنواع الزروع المختلفة وتنتج المصنوعات المتنوعة وتنقل المتاجر بين أجزائها باستمرار. وليس المهم ذلك فحسب، ولكن المهم هو أن الصانع والتاجر كانا موضع اهتمام أولي الأمر. وليس أدلّ على ذلك من وجود نظام الحسبة في الأسواق الإسلامية. فالمحتسب كان عليه أن يمنع الأذى عن الناس فيحول دون الغش ويراعي صحة الكيل والميزان ويراقب الأسعار ويمنع الاحتكار. وكان العمال، في أماكن كثيرة، ينضوون جماعات تحت لواء مؤسسات تهتم بهم وتنظم بعض أمورهم.

وعندما نذكر الأمور التي نقلها العالم عن العرب نجد أنها لم تقتصر على معرفة علمية هنا وهناك أو صناعة في هذه الناحية أو تلك، ولكن ثمة أموراً متنوعة ناتجة عن هذا التكامل في الحضارة العربية الإسلامية، التكامل بين النظرة المجردة والواقع العملي.

والحضارة العربية كانت حضارة «مدينة». ففي المدينة نشأت وفيها تطورت واتخذت شكلها الأصيل ومنها انتشرت. والمؤسسات الحضارية هي مؤسسات مدينة قلباً وقالباً.

المدينة العربية

ما أكثر ما مَصَّرَ العربُ من المدن وأنشأوا من البلدان في تاريخهم الطويل وفي الرقعة الواسعة التي نمت فيها شخصيتهم العربية الاسلامية. وقد جاء بناء المدن واختطاطها أمراً طبيعياً بعد احتلال البلاد وفتح الأقطار. وكانت البصرة والكوفة وواسط والفسطاط والقيروان من أول المدن التي أنشأها العرب. وكانت هذه، أول أمرها، معسكرات للجند ومراكز للادارة. لكنها لم تلبث أن أصبحت أسواقاً ومراكز للعلم.

وقد اتخذت كل دولة كبرى قامت في العالم العربي عاصمة خاصة بها. فدمشق اتخذها الأمويون عاصمة، وبنى العباسيون بغداد للغرض نفسه. ومثل ذلك يقال عن القاهرة وتونس ومراكش وفاس وقرطبة. على أن نوازع الحضارة واتساع الملك وقيام الصناعة وانتشار التجارة أدى إلى نمو عدد كبير من المدن لم تكن عواصم، ولكنها كانت تعج بأصحاب الأعمال وأهل العلم. واختيار الأماكن لبناء هذه المدن كان مرتبطاً أصلاً بإمكاناتها الاقتصادية.

ولم يكن لتخطيط المدن عند العرب قواعد موحدة. فكان ذلك يتوقف على ما سبق وألفه الناس في منطقة معينة. فالبصرة كانت خمسة أخماس، لكل قبيلة خمس. لكن بناء بغداد والقاهرة عني به المؤسسون عناية خاصة. فكانت بغداد مدورة يتوسطها المسجد الجامع وقصر الخليفة. والقاهرة اختطت بحيث تنزل القبائل التي جاءت مع جوهر الصقلي كل في مستقر لها. وكان الجامع الأزهر وقصر الخليفة أيضاً قلب المدينة. وكل مدينة كانت تدور بها الأسوار المنيعة، خاصة إذا كان الخطر قريباً منها. إلا أنه سرعان ما كانت المدينة تضيق بسكانها فينتشرون خارج الأسوار في الضواحي القريبة، وعلى الأخص إذا استتب الأمن وساد النظام في البلاد.

وبحكم نمو هذه المدن كان يهبطها من السكان تدريجاً من كل صنف وجنس ولون ومذهب.

فـلا حرج عـلى الناس ولا منـع ولا تحـديـد. فالبصرة بلغ عدد سكانها سنة خمسين للهجرة، اي بعد إنشائها بجيل واحد تقريباً، نحو ثلاثمئة ألف.

والمدينة العربية كانت مركز الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية: فيها قامت المـدارس ونشـأت الجـامعـات وعقـدت مجـالس الأدب والمناظرة. وفيها نضجت الحياة العقلية. وفيها اختلف الناس شيعاً. ومن هذه المدن انتقلت هذه الأمور إلى الريف فأثرت بعض الشيء، لكن المدينة ظلت الأصل.

ونحن إذا أمعنا النظر في المدينة العـربية وجدنا أن كلاً منها كان فيها مسجد جامع واحد على الأقل وقصر لصاحب الأمر وأسواق يمتري منها الناس حاجاتهم ومعاهد للعلم يؤمها الطلبة وأسوار تدور بهذا كله وقلعة تقوم في ناحية منها للدفاع إذا جد الجد.

والذي يعنينا الساعة من عناصر المدينة بشكل خاص هو أسواقها ودور العلم فيها.

وقد كانت أسواق المدن تتـأثر، في شكلهـا وتنظيمها وتنسيقها وموقعها وسلعها، بـالإقليم الذي تقوم فيه المدينة. فقد بقيت أسواق حلب ودمشق على قدمها. ولكن لما بنى المنصور بغداد صير الأسواق في كل جانب منها. إلا أنه لم يلبث أن أخرج الأسواق الكبيرة إلى خارج السور، تيسيراً للناس. وكانت الدكاكين في أسواق مصر وغرب آسيا تمتد على طول الشارع في جانبيه. أمـا المألوف في المـدن الفارسيـة فكان جمـع الدكاكين في مكان واحد. ومن الملاحظ، على كل حال، أن الأسواق غالباً ما تحيط بالمسجد الجامع وخاصة أسواق الوراقين والبزازين وما إلى ذلك. أما أسواق الجلود وما إليها فكانت بعيدة عن مجتمعات الناس.

والغالب على الأسواق أن تسقف وتظلل. فقد روى ابن جبير أن أسواق منبج فسيحة، وسككها متسعة، ودكاكينها وحوانيتها كأنهـا الخانـات والمخازن اتساعاً وكبراً، وأعالي أسواقها مسقوفة. وكانت الأسواق تسمى بما يباع أو يصنع فيها أو بالنسبة إلى منشئها. فسوق أسد بالكـوفة سميت باسم أسد بن عبدالله القسري. وكان في الاسكندرية سوق الخشب وفي أصفهان سوق الصرافين وسوق الأرز في عكاء وكذلك أسواق للجوهريين والدباغين والصيادلة.

ومع أن البيع بالمقايضة كان معروفاً في أجزاء مختلفة من العالم العربـي، فالواقع أن العرب، إبـان ازدهار اقتصـادهم، كانـوا يلجأون إلى الاقتصاد النقدي. وكان المبيع بالجملة يتم عادة في القيساريات. ومن أكبر القيساريات المعروفة قيسارية البز في حلب في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد)، وقيسارية مراكش.

ودور العلم، على اختلاف أنواعها، كانت من العناصر الرئيسية في تكوين المدينة في الإسلام. وقد كان المسجد أول دار للعلم والتعليم والتربية في الإسلام، ومع أنه حافظ على هـذه الصفة ولا يزال في كثير من الأماكن، فإن التطور الذي أصـاب الحياة العلميـة والعقلية عنـد العرب اضطرهم إلى الانتقال إلى أبنية خاصة للعلم. وقد تركزت دور العلم في عواصم العرب الكبرى مثل بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وفاس، لكن كثيراً من عواصم الدول الإسلامية الصغرى شـرقاً وغرباً كانت مراكز هامـة للعلم مثل فـرغانـة وبخارى وغزنة ونيسابـور والقدس والقيـروان وغرناطة واشبيلية ومراكش.

في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) أخذ الناس ببناء دور خـاصة للعلم والتعليم. لكن القرن التالي شهد نشوء المدرسة الرسمية. بدأ بذلك نظام الملك الوزير السلجوقي فأنشأ المدرسة النظامية في بغداد ولم تلبث هذه أن انتشرت غرباً حتى وصلت فاس ومراكش.

والمدرسة النـظامية تمثـل دوراً خاصـاً في المدرسة الإسـلامية من حيث إشـراف الدولة عليها. فقد كانت نفقاتها من الخزانة الرسمية، كما كان اختيار أساتذتها ومدرسيها بيد الخليفة أو من يتولى الأمر في البلد.

في سنـة ٦٣١هـ (١٢٣٤م) أنشـأ الخليفـة العباسي المستنصر بالله المـدرسة المستنصـرية ببغداد. وقد فاقت كل ما سبقها.

والظاهر أن المدرسة المستنصرية سلمت من يـد هـولاكـو لمـا احتـل بغـداد ودمـرهـا سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م). فقد رآهـا ابن بطوطة بعد ذلك بنحو مائة عام ووصفها بقوله: «وفي آخر سوق الثلاثاء المدرسة المستنصرية ونسبتها إلى

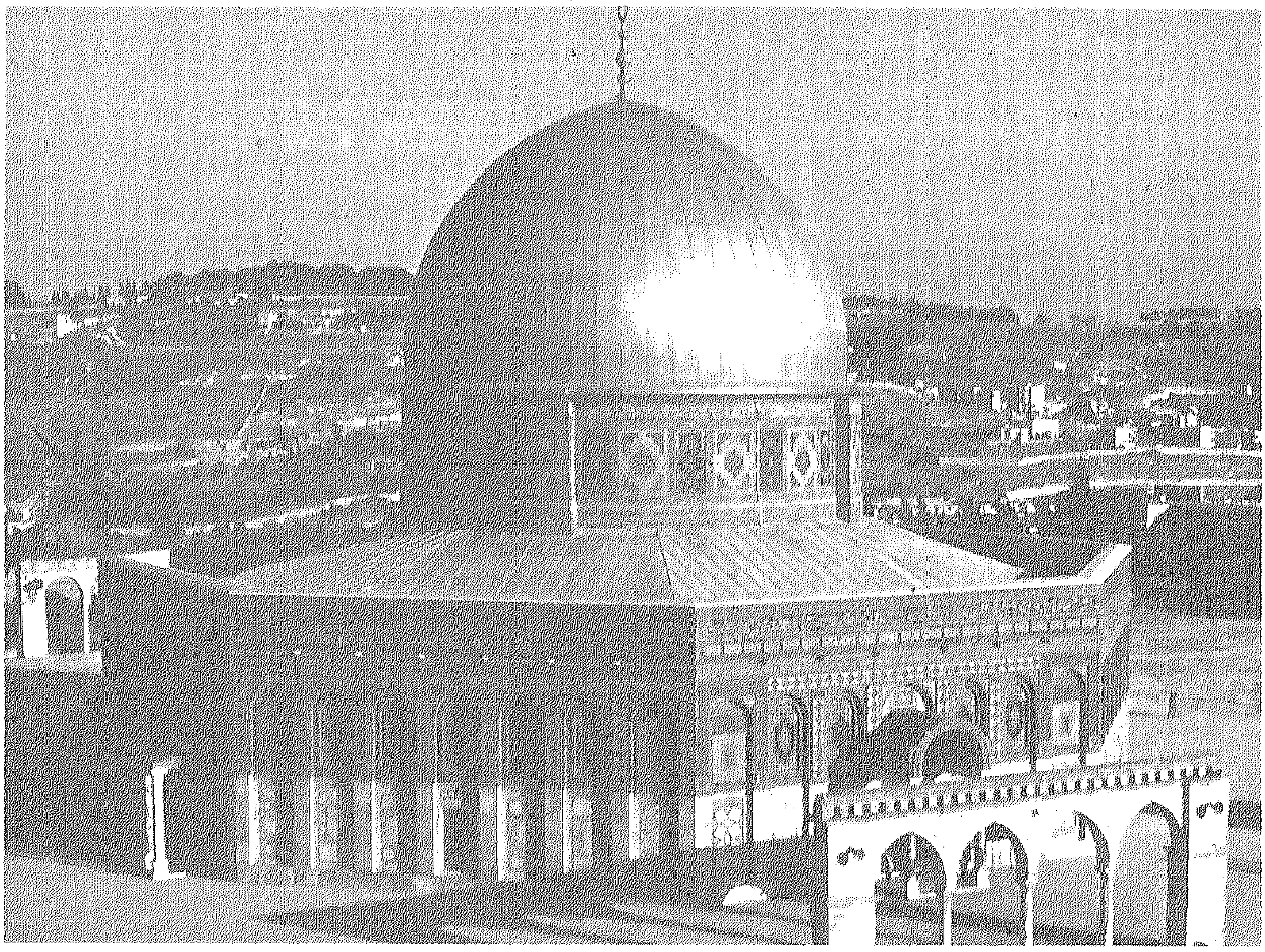

□ المسجد الاقصى احد روائع البناء الإسلامي.

أمير المؤمنين المستنصر بالله... وبها لكل مذهب إيوان... (   ) جلوس المدرّس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط، ويقعد عليه المدرّس وعليه السكينة والوقار. لابساً ثياب السواد معتماً وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة».

ويقول ابن الفرات: أن كل أنواع الكتب المختلفة كانت موجودة في مكتبة المدرسة المستنصرية.

وكان للقاهرة نصيب في حفظ التراث العلمي العربي الإسلامي مثل نصيب بغداد. إن لم يزد عليه. فقد كان هنا الأزهر، أقدم جامعات العالم الموجودة الآن. أنشىء الأزهر سنة ٣٧٨هـ (٩٧٢م) لنشر الدعوة الشيعية. لكنه لم يلبث، بعد زوال الخلافة الفاطمية، أن أصبح مركزاً للدراسات الفقهية واللغوية فيه أربع مدارس لكل من المذاهب الأربعة واحدة. ومع أن الأزهر معروف عنه أنه جامعة دينية قبل كل شيء، فعندنا رواية عن عبداللطيف البغدادي أنه حاضر في الطب في الأزهر في القرن السابع الهجري.

وقد ازدهرت دور العلم في الأندلس في عهد العرب، فقد كانت مكتبة صاحب الأندلس في القرن الرابع الهجري يتألف فهرسها من أربع وأربعين كراسة، في كل منها عشرون ورقة ولم يكن بها سوى أسماء الكتب. ومع أننا لا نعرف إلا الشيء اليسير عن جامعة قرطبة التي بلغت شأوها في زمن عبدالرحمن الناصر والحكم، فهذا اليسير الذي وصل إلينا يدلنا على الدور الذي لعبته في توجيه الحياة الفكرية في الأندلس، وتهيئة الجو العلمي للترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية التي تمت في إسبانيا في القرون التي تلت ذلك. وكان طلابها يعدّون بالآلاف ويفدون إليها من إفريقيا وإسبانيا وبقية أوروبا. ولم يقتصر التعليم فيها على العلوم الدينية

واللغوية، بل تناول مواضيع الطب والرياضيات والفلسفة، وفروعاً أخرى من العلم. وكان من كبار أساتذتها أبو بكر ابن معاوية والقالي صاحب الأمالي وابن القوطية...

وقد أنشئت جامعة أخرى كبيرة في غرناطة في أواسط القرن الثامن الهجري وكان يوسف الناصري أوّل من درّس بها.

ومن طريف أخبار دور العلم في إسبانيا ما وصل إلينا عن جامعة طليطلة التي أنشأها ليون الحكيم في القرن الثالث عشر الميلادي. فقد بنى مدرسة وعين رئيساً لها أبا بكر الريقوتي من أعلم أهل زمانه، فكان يحاضر طلابه في أرض مملكة قشتالة الإسبانية في جميع أنواع العلوم باللغة العربية. وهذه المدرسة ظهرت فيها أول جماعة من التراجمة الذين نقلوا من العربية إلى اللاتينية وغيرها علوم أهل الأندلس وخصوصاً الفلك. فهذه الجامعة العربية اللاتينية كانت حجراً أساسياً في نشر الحركة العلمية في إسبانيا ومن ثم في أوروبا.

ودور العلم الإسلامية كانت في الغالب غنية لأن بانيها كان يقف عليها الأرض أو العقار أو جزءاً من ضريبة المدينة، فقد كانت حصن الأكراد في لبنان موقوفاً دخلها على المدارس.

وقد حفظ لنا المؤرّخون أخبار دور العلم والمدارس ونحن إذا ضممنا ما ذكروه إلى بعضه البعض وجدنا أنها قاربت الأربعمائة عدداً. فقد كان في القدس مثلاً أربع وأربعون مدرسة، وفي بغداد أربعون وتجاوزت مدارس دمشق المائة. وقد كان في دمشق في القرن السادس الهجري مثلاً ثلاث مدارس فنية اثنتان للطب وواحدة للهندسة وكان في حلب مدرسة للطب.

وكانت المدارس الحكومية تعطى فيها للأساتذة مرتبات ثابتة، لكن بعض العلماء كان يرفض أخذ الأجر ثمناً للتعليم، فقد امتنع النووي في القرن الثامن أن يأخذ رزقاً لتدريسه في المدرسة الأشرفية. وكان بعض العلماء يورق ويأكل من كسب يده. إلا أن التعليم صار على توالي الأيام مهنة يعيش منها المشتغلون بها. وقد أورد الجاحظ أن النحوي العروضي كان يكتفي بستين درهماً أجرة للتعليم في الشهر. أما مؤدّبو الأمراء فلم يرضوا بأقل من ألف درهم كيحيى بن ثعلب. وكان قائد لعبدالله بن طاهر مؤدّب رزقه في الشهر سبعون ديناراً، وذلك في القرن الثالث الهجري. وكان ابن دريد في القرن الرابع الهجري يتناول أربعين ديناراً في الشهر.

العمارة والفنون

إذا كان الشعر تعبيراً عن نبضات القلب عند العرب، وإذا كان الفقه والشرع تعبيراً عن قدراتهم الادارية، وإذا كانت الفلسفة والرياضيات تعبيراً عن مقدرتهم على إدراك أبعاد الانسان والكون، ففن العمارة هو التعبير عن التناسق والاتساق في حياتهم عامة. فالقوم الذين تمت على أيديهم هذه الآثار الجميلة، بناء وزخرفة، الممتدة من الشرق إلى الغرب، ما كانت لتتم لو لم يتح للذين بنوها أن يدركوا الكثير من أسباب التناسب بين الأطوال والأعراض والأقواس والألوان والزخارف. فلا يوضع شيء إلا في موضعه. وقد نقل العرب عن سابقيهم ومعاصريهم العلوم والآراء ثم ضموها إلى بعضها وصنفوها وجعلوها علومهم وآراءهم وأضافوا إليها. ومثل ذلك يقال في البناء والفنون الأخرى. فقد تعلموا ممن عاصرهم واستعانوا بالبنائين والفنانين الذين وجدوا في امبراطوريتهم الواسعة، ثم خلقوا من ذلك كله فناً خاصاً بهم له ميزاته وخصائصه وآثاره.

وكان من الطبيعي أن تتجه عناية العرب المسلمين بادىء ذي بدء إلى بناء المساجد. فذلك أمر لا غنى عنه للسكان. وكان من الطبيعي أيضاً أن تكون المساجد الأولى، على الغالب، بسيطة. فالوقت القصير والمعرفة القليلة ما كانتا لتسمحا بغير ذلك على نحو ما نعرف عن مساجد البصرة والكوفة وواسط الأولى. لكن هذا لم يطل. فإن المصادر والقدرات الفنية التي أصبحت في

□ أحد نوافذ قصر الحمرا في غرناطة الأندلسية

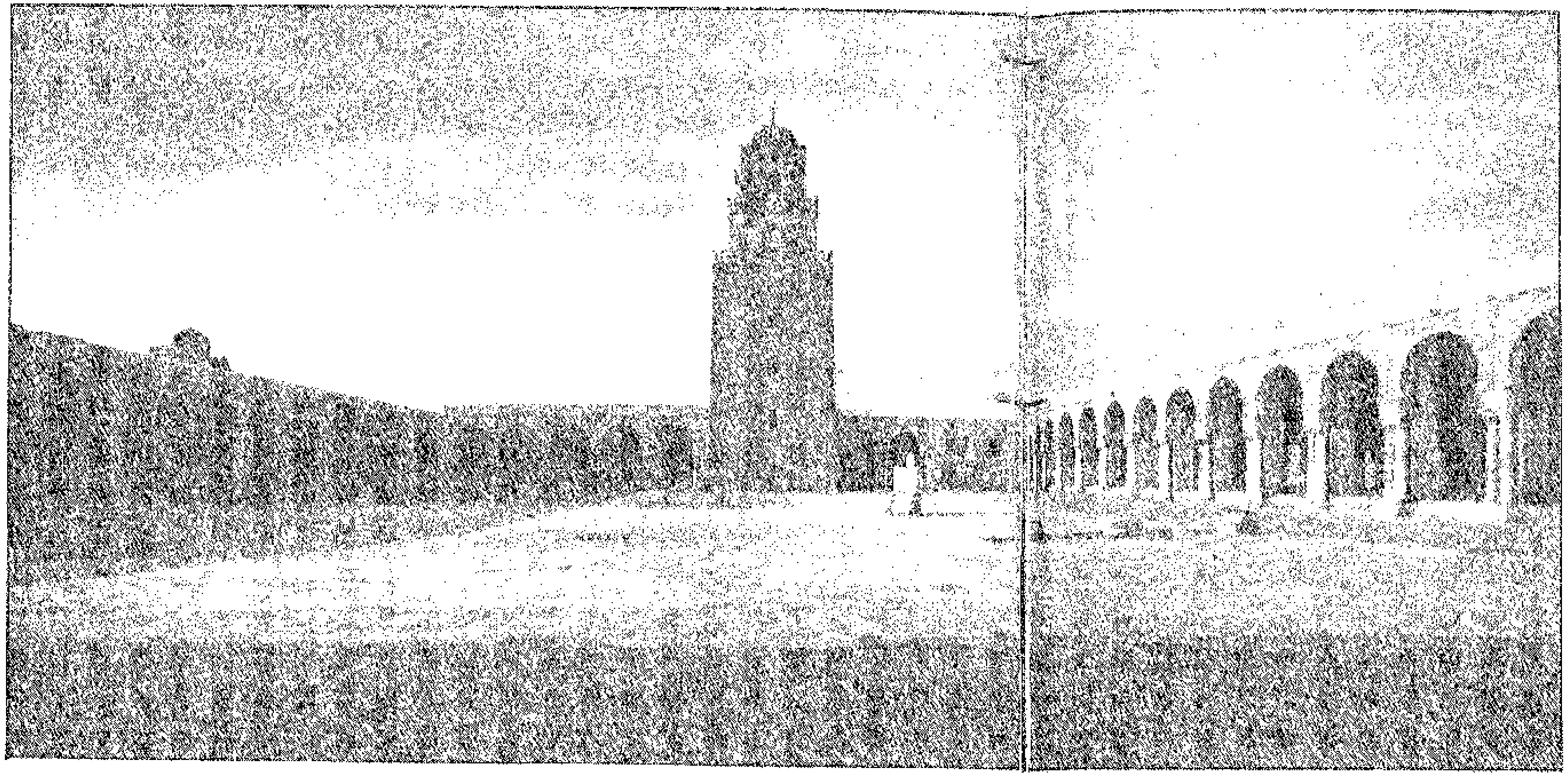

□ الجانب الشمالي من ساحة جامع القيروان في تونس.

متناول العرب مكنت لهم من الانتقال إلى البناء الجميل الأنيق المزخرف بسرعة. وهذا الجامع الأموي في دمشق، وقبة الصخرة في القدس، وقد بنيا في العهد الأموي، من أجمل الآثار العربية إطلاقاً. ولا يقتصر الأمر على أنهما جميلان ولكن قيمتهما، فيما نرى، أنهما يدلان على أن العرب لم يلبثوا أن ظهروا على مسرح التاريخ، حتى سمت همتهم إلى الكبير الضخم الطموح من المشاريع، بعد تردد دام فترة قصيرة.

ويتضح استخدام العرب للقدرات الفنية المختلفة مثلاً في أنهم نقلوا القبة عن المشرق أساساً لسقف الأبنية الرئيسية، بينما غلب السطح الداخلي للقبة من الفن القوطي. كما أننا نجد أن العرب نوعوا في استعمال الأقواس بحيث أنها اصبحت علماً على الأبنية العربية الأصيلة.

ومما يؤسف له أن الأبنية العباسية الأولى التي أقيمت في بغداد وما إليها لم يبق منها شيء، وذلك بسبب اعتماد البنائين على الآجر والطوب في البناء. لكن أكثر ما أقامه العرب من أبنية أو ما شيد بتأثيرهم لا يزال قائماً إلى الآن، يتمتع برؤيته الرحالة ومؤرخو الفنون.

ولم يفت في عضد الفنان العربي أن تصوير الأشكال الإنسانية ورسمها كان محظوراً، إذ أن ذلك لم يقعده عن الاهتداء إلى البديل. فقد عوض عن ذلك بالتنويع في الزخرفة. ذلك أنه جمع الرسوم الهندسية المتكررة والمركبة في تموجات ومنحنيات متداخلة متشابكة، فكان له منها تعويضاً عما فاته. وعمد إلى الرسوم المرتبطة ببعض الأزهار والأشجار، وخاصة ما كان فيه منها تناسق هندسي، خطي أو تموجي، فأضافها إلى زخارفه. وأخيراً جعل من الكتابة العربية، بما لحروفها من المرونة والطواعية، أساساً لفن زخرفي جميل. فكان للفنان العربي من التموجات والأشجار والكتابة عناصر لما ضمت إلى بعضها البعض يسرت له أن ينتج زخرفة عربية خالصة هي التي تطبع الكثير من الآثار القائمة إلى الآن بطابعها.

وأكثر الأبنية التي وصلت إلينا وأوسعها انتشاراً هي الأبنية الدينية وفي مقدمتها المساجد المنتشرة من إسبانيا إلى الهند. وأشهرها، إذا أخذناها بالترتيب التاريخي، المسجد الأقصى وقبة الصخرة في القدس والجامع الأموي في دمشق ومسجد القيروان وجامع عمرو بن العاص في القاهرة وجوامع قرطبة واشبيلية وجامع القرويين في فاس وجامع الكتبية في مراكش والحمراء في غرناطة ومساجد القاهرة المملوكية.

ومما يدخل في عداد الأبنية الدينية الربط والأضرحة. ومما يقترب منها غاية وانتفاعاً المدارس. وقد كانت هذه أماكن يقيم فيها الطلبة. ومن أجمل المدارس العربية إطلاقاً المدرسة البوعنانية التي بناها السلطان بوعنان المريني في فاس. فأنت إذا دخلتها ووقفت في صحنها، وتطلعت إلى ما فيها من حفر ونقش في الافريز أو في السقف، ملك ذلك عليك لبّك. فإذا انتقلت من الصحن إلى القاعات المجاورة الملاصقة له وجدت أن الاتقان يزداد، والبراعة تتجسم بحيث لا يترك الأمر زيادة لمستزيد. فالخشب المحفور

والخطوط المتداخلة والآيات القرآنية الأنيقة الكتابة تضع أمامك فناً متكاملاً جميلاً تجد فيه جماع ما أتقنه العرب في فن المعمار والحفر والفنون الصغرى.

على أن العرب عنوا بأنواع أخرى من الأبنية ومن أهمها الأسوار والأبراج والقلاع والحصون للدفاع والقصور للإقامة والإدارة.

وقد كانت القصور تتسع مع تطور الدولة. فالقصور الأموية صغيرة في الغالب، إذا قيست بقصور العباسيين التي نعرف أخبارها من الوصّاف لأن أكثرها زال. وهذه نفسها أقل فخامة وضخامة وزخرفاً من التي أقامها حكام الأندلس كالزاهرة والزهراء. ومع ذلك فلكل من هذه القصور صفاتها الخاصة. ومن حسن حظنا أن الأمويين بنوا كثيراً من القصور على أطراف بادية الشام، وقد بقي الكثير من هذه القصور، بشكل أو بآخر، إلى الآن. وفي الأردن وحدها عشرة من هذه القصور معروفة. ولعل قصر هشام بن عبدالملك الواقع إلى الشمال من مدينة أريحا في غور الأردن من أعظمها إن لم يكن أعظمها. وقد كشف هذا القصر في الثلاثينات من القرن الحالي وكان هذا الكشف أمراً هاماً في الوصول إلى نموذج ممتاز للقصور الأموية، وزخرفتها بالفسيفساء.

وما كان يمكن لبناء، مهما اتسقت قسماته وتناسقت مقاساته، أن ترتاح إليه العين وتطمئن إليه النفس، إذا لم يكن زخرفه متسقاً مع بنائه. ومع أن التصوير والحفر كانا محظورين على الفنانين، فإن عبقريتهم، كما ذكرنا، تفتقت عن أشياء آية في الدقة والأناقة. وقد استعمل النحاتون الحجر والخشب والمعدن والجبس لذلك، وكان حفرهم يقوم على التموجات والأشجار

□ المحراب الرئيسي لمسجد جامعة السلطان حسن في القاهرة والمشهور بزخرفته الرائعة

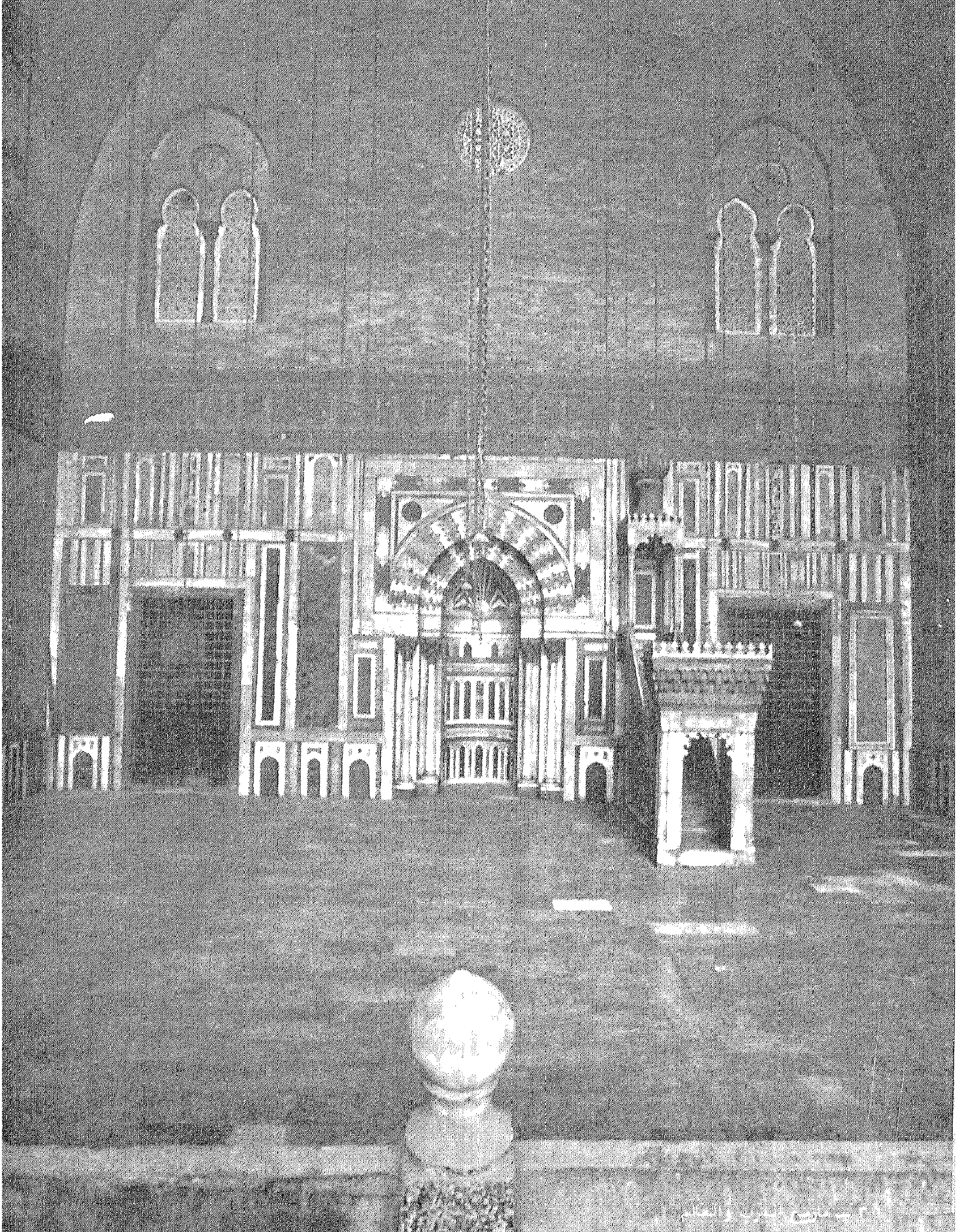

والكتابة كعناصر أساسية، فكانت لهم من ذلك أفاريز جميلة تدور بالمسجد أو غيره من البناء، وكانت المنابر والمحاريب تزين المساجد، كما كانت النوافذ والأبواب، حتى في بعض المنازل الخاصة، مزينة بنقوش دقيقة محفورة في الخشب. ولعلّ «مشربيات» النوافذ الخشبية من أجمل ما أنتج الصناع في ديار العرب. وما أكثر ما كانت أبواب المساجد والقصور توشى بالحديد أو الصلب المحفور والمحلى بالذهب أو الفضة.

ويبدو أنه مع الزمن كان ثمة بعض التساهل في تصوير قليل في داخل القصور وما إلى ذلك. فنحن نجد أن القصور العباسية المتأخرة كان فيها، على رواية المؤرخين، رسوم متنوعة، ومثل ذلك يقال عن بعض القصور الأندلسية. والكثير من التصوير الذي عرفه العرب كان أساسه الفسيفساء.

ولا بد من الإشارة إلى نوع من الزخرفة كان للعرب فيه يد طولى. وهو زخرفة الكتب. فقد كان للكتاب عند العربي قيمة كبيرة، ولذلك لما اعتمد زخرفته أتقن تلك الزخرفة. وكانت هذه دقيقة صغيرة الحكم فكانت «منينمات». استعملت فيها الكتابة وبعض الصور، واستخدمت فيها الأصبغة المستخرجة من المعادن. وكانت أنفس الزخارف، كتابة وألواناً، هي التي استعملت لزخرفة القرآن الكريم.

وما دمنا نتحدث عن الفنون المختلفة، فلنختم هذا الحديث بشيء عن الموسيقى العربية. ويبدو أن العرب بدأوا في الموسيقى من السلم الشرقي وهو الصيني أصلاً المفرس سبيلاً. ومع تجاربهم أقاموا السلم الطبيعي، واهتدوا إلى أمور جديدة في الموسيقى آلة وعزفاً. ففي الآلات أضافوا أو حسنوا الرباب والقيثارة ذات الأوتار الستة والعود والقانون والمزمار والطبول والدفوف. وقد كان إيثارهم للعود واضحاً في تاريخ الموسيقى عملاً ونظراً.

ومن كبار الذين عرفونا بالموسيقى العربية الفارابي. والفارابي فيلسوف عالم. وعنايته بالموسيقى هي أصلاً عناية بالرياضيات. وقد عاش الرجل في القرن الرابع (العاشر) ووضع كتابه «الموسيقى الكبير». وفي النظريات التي قدمها أسقط مفاهيم المدرسة الفيثاغورية لموسيقى الكواكب وتناسق الأجرام السماوية. «وهو من أوائل الموسيقيين الذين قدموا التفسير المادي لظاهرة النغمة التي تأتي من اهتزازات الهواء والتي تزداد شدتها أو تقل بحسب طول الموجة». وبذلك وضع القواعد الأساسية لتركيب الآلات الموسيقية. وللعرب يعود الفضل في إدخال فكرة الوزن في الموسيقى. وزرياب، المغني العراقي الذي انتقل إلى قرطبة، هو الذي أضاف الوتر الخامس للعود، وهو الذي خلق تعليم الأغنية على قواعد علمية ثابتة.

من هذا الذي استعرضناه، على إيجازه، يمكننا أن نقول إن الحياة الفنية عند العرب كانت متكاملة في نواحيها المختلفة. وإن الاتساق والتناسب والاتقان الزخرفي كانت أساسها، سواء في ذلك البناء الضخم أو الصغير وما فيه من زخرف، والنافذة والباب والكتاب والعود.

الطب والمستشفيات

بدأت عناية العرب، بعد إنشاء دولتهم الكبرى، في عهد الأمويين. فقد أخرج المؤرخون أسماء ثلاثة أو أربعة اشتهروا بالطب في أيامهم أشهرهم عيسى بن الحكم مؤلف «الكناش الكبير» وهو رسالة في فن الطب يعرض فيه مؤلفه علاجاً لنزيف الشرايين. ولما اتصل العرب بالطب اليوناني، نقلاً وترجمة، في أيام العباسيين أخذوا بدرسه وجمع عناصره وتصنيفها، ثم بدأوا هم أنفسهم بالاضافة إليها، حتى ليصح القول بأن علم الطب في العصور الوسطى كان حكراً للعرب. وكانوا في ذلك عمليين، بالإضافة إلى عنايتهم بالأمور النظرية. فقد اهتموا مثلاً بالتقيح وعلاجه والطب السريري والجراحة والعقاقير النباتية والتخدير بالأبخرة الأثيلية وصناعة الأسنان وجراحة العين. كما أنهم عنوا عناية خاصة بالمستشفيات بحيث يقول أحد مؤرخي علم الطب من الإفرنجة: «إن تنظيم

المستشفيات هو أحد المستحدثات الجميلة للثقافة الإسلامية.

وفي تاريخ الطب العربي أسماء كثيرة لامعة ظهرت في المشرق والمغرب أهمها ربن والرازي وعلي بن العباس وابن سينا وابن النفيس في المشرق وأبو القاسم وابن زهر وأبو عمران وابن البيطار في المغرب.

وربن الطبري من أهل القرن الثالث (التاسع) وقد وضع عدداً من الكتب أهمها «فردوس الحكمة» في معرفة ألوان الأمراض وعلم الأجنة وهيئة الأجسام الحية وتركيبها والسموم. والرازي الذي تتلمذ على ربن هو من أكثر أطباء العرب غزارة وأصالة. وقد درس الكيمياء والسيمياء ببغداد. وأكثر كتبه ذيوعاً هو «مقالة في الجدري والحصبة» وهو كتاب يقوم على الملاحظة المباشرة والمعاينة السريرية. وفي كتبه الأخرى تعرض الرازي لأمراض الحصى في الكلى والمثانة ومرض النقرس والروماتزم. وله مؤلفان مشهوران أيضاً هما «المنصوري» و «الحاوي». والأول موجز في الطب في عشر مقالات، أما الحاوي فيعالج فروع الطب جميعها في عشرين مجلداً بحيث يمكن اعتباره موسوعة طبية. «وقد اتفق أحسن الحكام على الاعتراف بأن الرازي تفوق على جميع أطباء العرب كمجرب وسريري، وأنه يعد من بين أعظم أطباء جميع العصور بمهارته وموهبته» وبملاحظاته السريرية وتشخيصه للأمراض ووصف العلاج الناجع للمرض.

أما علي بن العباس، وهو من أهل القرن الخامس، فقد عمل في أيام عضد الدولة ابن بويه ووضع كتابه «الملكي»، الذي يوجز الطب في مجلد واحد. ومما يجدر ذكره أن ابن العباس نقد المؤلفين الذين سبقوه في الكتابة في الطب. فأبقراط كان في نظره شديد الإيجاز، وجالينوس مسرفاً في الإسهاب. ويقول إن الرازي كان مفرطاً في الإسهاب في كتابه «الحاوي». وقد أخذ ابن العباس نفسه بتجنب أخطاء هؤلاء جميعاً، فوقف موقفاً متوسطاً من الإيجاز والإسهاب يضاف إلى هذا أنه كان منظماً ومنسقاً في تفكيره وتعبيره. وقد أوصى تلاميذه بوجوب التردد على المستشفى. ومما روي عنه أنه قال: «ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازماً للبيمارستانات ومواضع المرضى، كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الأساتذة من حذاق الأطباء، كثير التفقد لأحوالهم، والأعراض الظاهرة فيهم».

والشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن سينا كان جامع الثقافة العربية الإسلامية في شخصه. فقد قرأ فروع العلم والفلسفة والفقه، ووضع كتابه الأول في الطب وهو في الواحدة والعشرين من عمره. ولسنا هنا بمعرض التحدث عن مؤلفاته التي تجاوزت المئة، ولذلك يجب الاكتفاء بذكر «كتاب الشفاء» الذي كان موسوعة لفروع العلم بما في ذلك الطب، وكتاب «القانون» وهو كتابه الرئيسي في الطب. والكتاب يعالج وظائف الأعضاء والصحة والعلاج والصيدلة. وقد قيد فيه ما لا يقل عن ٧٦٠ عقيرة أوضح استعمالها في العلاج. وكان ابن سينا يشخص كثيراً من الأمراض عن طريق جس نبض المريض.

وقد عاش ابن النفيس في مصر في القرن السابع (الثالث عشر) وهو من شراح ابن سينا. لكن قيمة ابن النفيس ترجع إلى أنه اكتشف الدورة الدموية الصغيرة، ووصف، بشكل عام، الدورة الدموية العامة.

ونحن إذا انتقلنا من المشرق إلى المغرب وجدنا عدداً من كبار الأطباء في مقدمتهم أبو القاسم الزهراوي القرطبي من أهل القرن الرابع (العاشر) الذي كان طبيباً لعبدالرحمن الثالث.

وقد أنجبت اشبيلية أسرة ابن زهر التي اشتهر ستة أجيال منها بالطب، كان أبعدهم صيتاً ابن زهر الذي عاش في القرن السادس (الثاني عشر) وابن زهر هذا هو الذي كشف عن حشرة الجرب. ولعلّه أول من وصف ما يسمى سرطان المعدة. وقد طلب منه صديقه الفيلسوف ابن رشد أن يضع كتاباً في الطب فوضع كتاب «التيسير». وابن زهر من رواد الطب التجريبي.

وقد ظهر في أيام ابن رشد في قرطبة الطبيب العالم الفيلسوف أبو عمران. وهو من تلاميذ ابن رشد وابن طفيل. وقد قال فيه ابن سناء الملك:

□ رأس من الجص من قصر خربة المفجر بالقرب من أريحا. النصف الأول من القرن الثامن ميلادي ـ الثاني الهجري.

أرى طب جالينوس للجسم وحده
وطب أبي عمران للعقل والجسم
فلو أنه طب الزمان بعلمه
لأبراه من داء الجهالة بالعلم

ومن أهل القرن السابع (الثالث عشر) ابن البيطار من مالقة. وابن البيطار لم يكن طبيباً لكنه كان ضليعاً في علم النبات. وكان من ثم حريصاً على التعرف إلى خصائص النباتات من حيث استعمالها عقيرة. وله كتابان هامان في هذه المواضيع أحدهما المفردات وقد دون فيه ما عرفه عن النباتات نتيجة رحلات طويلة قام بها في الشرق وبلاد الإغريق فضلاً عن الأندلس. وكتابه الثاني هو «الجامع» الذي ذكر فيه أربعمئة نوع من النباتات والأغذية والعقاقير وقد وصفها وصنفها بحسب خصائصها العلاجية. وإلى العرب يرجع الفضل في إضافة نباتات متعددة إلى العقاقير مثل العنبر الداكن والكافور والقرنفل والمر، وبعض المعادن مثل الزئبق كما أنهم أدخلوا تحضيرات جديدة أفادوا منها في العلاج مثل الشراب المسكر والمستحلب وماء الورد والملح.

أشرنا من قبل إلى عناية العرب بالمستشفيات وكانوا يسمونها البيمارستانات. وقد ظهرت المستشفيات في أيام هارون الرشيد أوائل عهد الدولة العباسية، ولعلها عرفت حتى قبل ذلك. وكانت هذه تستعمل لمعالجة المرضى كما كانت مكاناً يتدرب فيه طلاب صناعة الطب على تشخيص الأمراض والعلاج. وكانت هذه البيمارستانات غنية إذ كان مؤسسوها يقفون عليها الأموال والضياع للإنفاق عليها. وكانت مفتوحة للجميع، الأغنياء والفقراء على السواء. وكانت ثمة محال لإعداد الأشربة ومطابخ للطعام وغرفة للقراءة. والوجبات كانت تقدم بانتظام. وكان في كل مستشفى تقريباً قسم خاص بالنساء، كما كان في بعض هذه المؤسسات جناح خاص بالمصابين بالأمراض العقلية.

ولعلّ أشهر مستشفى عرفه العالم العربي الإسلامي هو المستشفى الذي كان بدمشق

□ تخت موسيقي ٦٥٤هـ ـ ١٢٥٦م.

والذي أصلحه نورالدين زنكي، ولذلك عرف باسمه. وقد قال عنه الرحالة المغربي ابن جبير من أهل القرن السادس (الثاني عشر) إنه كانت جرايته في اليوم نحو خمسة عشر ديناراً، وكان له قومة بأيديهم القيود المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك. وكان الأطباء يبكرون إليه كل يوم لتفقد المرضى والأمر بإعداد ما يصلح لهم من الأدوية والغذاء، كل بحسب حاجته.

إلا أنه يجب أن لا يغرب عن البال أن كل مدينة في ديار العرب والإسلام كان فيها مستشفى أو أكثر.

ونود، لهذه المناسبة، أن ننقل وصفاً لمستشفى مدينة مراكش الذي بناه المنصور الموحدي من قلم صاحب المعجب إذ قال:

«وبنى بمدينة مراكش مارستاناً ما أظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه تخيّر ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات، وأجرى فيها مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسطه، إحداها رخام أبيض. ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجاً عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والاكحال، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه المريض فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنياً دفع إليه ماله وتركه وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل كل بيت، يقول: كيف حالكم وكيف القومة عليكم إلى غير ذلك من السؤال، لم يزل مستمراً على هذا إلى أن مات، رحمه الله».

تعرف العرب إلى ما كان عند اليونان وغيرهم ونقلوا عنهم علومهم من رياضيات وفلك وطبيعة. وواجه العرب المسلمون آراء دينية وثنية وموحدة، وثقافات أسطورية وعقلية وفلسفات متنوعة. وكانت نتيجة هذا كله أن أخذ العقل العربي يتفاعل مع هذه المعطيات الجديدة ومع نفسه في ميادين العلم والفلسفة. وترتب على هذا التفاعل أن عكف العرب على تدوين ما اهتدوا إليه في العلم وما خامر نفوسهم من آراء جديدة.

وأولئك الذين أسهموا في هذه الميادين الواسعة طيلة تلك القرون العديدة يعدون بالمئات وآثارهم الكتابية التي وصلتنا تتجاوز المئات عداً. وكل ما يمكن أن يصنع الآن هو أن تذكر بعض القضايا التي دارت حولها جهود أهل العلم والفلسفة في عالم الفكر العربي. وحري بالذكر أن الإسهام في التعلم والكتابة والتفكير لم يكن قط حكراً على فئة معينة أو على رقعة خاصة. فالأسماء التي تطالعنا جاءت من جميع أنحاء العالم العربي ومن جميع فئاته، بقطع النظر عن العرق أو الأصل أو الدين. فتلقي العلم والاشتغال به كان أوضح نواحي المساواة في حياة المجتمع العربي.

ولا يغيبن عن البال أن المعرفة في تلك العصور كانت وحدة، ولم تتجزأ تخصصاً كما هي الحال اليوم. لذلك فإننا نجد الاسم الواحد يذكر في غير مجال من مجالاتها. فابن سينا كان طبيباً وعالماً طبيعياً وفيلسوفاً. والفارابي كان رياضياً وفيلسوفاً. والغزالي كان عالماً فقيهاً وكلامياً وصوفياً. ومثل ذلك يقال عن الكثيرين.

ولنذكر على سبيل المثال جماعة من أهل المعرفة العلمية. وأول ما يطالعنا جابر بن حيان واضع أسس الكيمياء عند العرب. وفي هذا المجال تمكن الكيمياويون العرب، عن طريق التجربة والملاحظة، من اختراع آلة للتقطير وحللوا عدداً من المواد، وميزوا بين القلويات والأحماض وعينوا خواصها.

وفي عالم الرياضيات يبدو بنو شاكر، الإخوة الثلاثة، وكأنهم أصحاب الخطوة الأولى. ثم يأتي الخوارزمي، من أهل القرن الثالث، فيضع رسالة في النظام العشري. وحساب الجبر والمقابلة مقترن باسم محمد بن موسى الخوارزمي الذي وضع حلولاً تحليلية وهندسية لمعادلات من الدرجة الثانية. والبيروني الرياضي (القرن الرابع / العاشر) يعتبر منشىء حساب المثلثات. كما وضع حسن المراكشي الجداول الأولى للجيوب ولأقواس الجيوب وللأقواس المتماسة في القرن السابع (الثالث عشر). وكشف البتاني رجوع نقطتي الاعتدال وميل مستوى الفلك. وكان الأسطرلاب الموضوع الرئيسي للزرقاني الطليطلي الذي عاش في القرن الخامس (الحادي عشر) والذي برهن عن انتقال البعد الأقصى للشمس بالقياس إلى النجوم.

والكندي الفيلسوف له بحوث في الطبيعة تتعلق بالقوانين التي تخضع لها الأثقال من حيث جذبها وسرعتها، والظواهر الضوئية. ويظل اسم ابن الهيثم البصري الأصل القاهري الموطن ومن أهل القرنين الرابع والخامس (العاشر والحادي عشر) أكبر اسم في علم الطبيعة عند العرب إذ أنه هو الذي طور البصريات وأوضح طبيعة العين من الناحية الفيزيولوجية. كما يظل اسم أبي الريحان البيروني الذي عاش في بلاط الغزنويين والذي كتب في القرن الخامس (الحادي عشر) مقترناً بكروية الأرض وأفضل الأزياج والأوزان النوعية، هذا فضلاً عن كتابته في التاريخ والجغرافيا وأخبار المجتمع.

فإذا نحن انتقلنا من العلوم إلى رحاب الفلسفة وجدنا عدداً كبيراً من الأسماء. لكننا بدل أن نعدد الأسماء ومآتي أصحابها، آثرنا أن نختار قضية واحدة من قضايا الفكر التي عرض لها الفلاسفة العرب المسلمون ونديرالحديث حولها. وهي قضية الإنسان وما يتعلق به خلقاً وحياة ونظاماً وثواباً وعقاباً فرداً وجماعة. ويمكن القول إجمالاً أن النظرات المختلفة اتخذت محاور أربعة هي: محور الوحي ومحور الفيض ومحور

التصوف والمحور العضوي أو التولد الذاتي. فالوحي يقول بأن الله خلق الكون وما فيه، بما في ذلك الإنسان، من العدم، لأنه قادر على كل شيء. والإنسان إنما خلق ليعبد الله وليسير في الحياة سيرة فاضلة.

على أن المفكرين الذين اتصلوا بما كان لليونان وما أُثِر عنهم حاولوا التوفيق بين الوحي والمنطق. والذي هو جدير بالذكر أن بعض هؤلاء تعرفوا إلى الأفلاطونية الجديدة، وقد حسبوها آراء أفلاطون وما هي بآرائه، فقبلوا بنظرتها إلى الإنسان. وفي مقدمة هؤلاء أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ للهجرة (٩٥٠ للميلاد). فقد أعجب هذا الفيلسوف بنظرية الفيض التي جاء بها أفلوطين، وحسب أنها تحل جميع المسائل التي يثيرها الوحي حلاً منطقياً. فأخذ الفارابي بنظرية الكائن الأول الذي يفيض منه كائن ثان ومن هذا يفيض ثالث ورابع وهكذا حتى يبلغ الحادي عشر وهو الذي يسميه الفارابي العقل الفعال. وهذا العقل يهب عالَم العناصر مختلفَ الصور التي تظهر فيه من جماد ونبات وحيوان وإنسان. وهكذا يُخْلَقُ الإنسان. وسعادة النفس البشرية إنما هي في إدراكها الحقائق الأزلية التي يحملها العقل الفعال.

وينتقل الفارابي من هذه النقطة إلى القول بأن هذه الفلسفة الفيضية لها جانب تطبيقي، وهو تكوين المجتمع البشري القائم على أسس العدالة والفضيلة.

والإنسان بالذات، في رأي الفارابي، ملتقى العناصر مع العقل. والقلب هو العضو الرئيسي في الإنسان وفيه مركز الإحساس والمخيلة والشهوة. والمخ، وهو عضو بارد ورطب بطبيعته، فإن وظيفته تلطيف الحرارة وتوزيعها. وللإنسان، بجانب العقل، إرادة حرة، وظيفتها تحصيل السعادة له بواسطة أعماله العاقلة. والسعادة البشرية هي في أن تبلغ النفس درجة الكمال.

ولا يستطيع الإنسان، على ما يقول الفارابي، أن يبلغ أفضل كمالاته إلا في المجتمع. والخير الأفضل والكمال الأقصى ينال في المدينة الفاضلة، التي يتعاون الأفراد فيها لتحقيق الحياة المثلى والحفاظ عليها.

وقد قبل الشيخ الرئيس ابن سينا، المتوفى سنة ٤٢٨ للهجرة (١٠٣٧ للميلاد)، فلسفة الفارابي الفيضية، وقال بأن النفس جوهر قائم بذاته. والنفس عنده لا تقبل الفساد أصلاً. والنفس الفضلى هي الكاملة في العلم والعمل.

وثمة محاولة أخرى للتقريب بين الشريعة والفلسفة هي تلك التي قام بها ابن رشد فيلسوف المغرب الإسلامي والمتوفى في أواخر القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد). ويهمنا من ابن رشد قوله بأن الإنسان، كي يعتبر إنساناً مؤمناً، يتحتم عليه الإقرارُ بوجود الله والإقرارُ بالنبوات والإقرارُ بالسعادة والشقاء في الآخرة. وهذه الأمور كلها يمكن إثباتها منطقياً.

أما النظرة الصوفية إلى الإنسان فهي منوعة، بحيث أنه من الصحيح أن يقال إن هناك نظرات صوفية تكاد تتفق مع عدد القائلين بها. لكن، يمكنُ لنا إجمال القول بأن فئة من الصوفيين كانت تقول «إن المعرفة الحقيقية بالله ليست العلم بوحدانيته التي يؤمن بها المؤمنون جميعاً، كما أنها ليست من علوم البرهان والنظر التي هي علوم الحكماء والمتكلمين والبلغاء، ولكنها معرفة صفاتِ الوحدانية التي هي لأولياء الله خاصة، لأنهم هم يشاهدون الله بقلوبهم. فيكشفُ لهم ما لا يكشفه لغيرهم من عباده».

يضاف إلى ذلك أن الصوفية يرون أن الإنسان الكامل هو علة وجود العالم والحافظ له، والقطب الذي تدور حوله أفلاك الوجود. خلقه الله على صورته أنموذجاً من الذات الإلهية. «والصوفيون يقولون بوحدة الوجود».

على أنه حري بالذكر أن التصوف عاد إلى حظيرة الإسلام السني على يد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية (١١١١ ميلادية). ففي رأيه العبد عبد والرب رب ولن يصير أحدهما الآخر البتة. والنفس الإنسانية يزداد استعدادها لمعرفة الله، بقدر ما يتحقق فيها من صفات الكمال الإلهية. وهذا لا يتاح إلا للذين تحققوا معنى التوحيد في حال تجهدهم الصوفي.

وأخيراً فهناك رأي ابن طفيل في خلق الإنسان. عاش ابن طفيل في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وكتابه حي بن يقظان كان شيئاً خاصاً في الفكر العربي

الإسلامي. والرواية التي نقلها الفيلسوف عن ولادة حي بن يقظان هي أنهم قالوا أن بطناً من ارض تلك الجزيرة النائية تخمرت فيه طينة على مر السنين والأعوام، حتى امتزج فيها الحار بالبارد، والرطبُ باليابس، امتزاج تكافؤ وتعادلٍ في القوى وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جداً، فتعلقت بها الروح التي هي من أمر الله تعالى، وتشبثت بها تشبثاً يعسر انفصالها عنها عند الحس وعند العقل، إذ تبين أن هذه الروحَ دائمة. الفيضان من عند الله، وأنها بمنزلة نور الشمس الذي هو دائم الفيضان على العالم.

وأخذت القوى النفسية المختلفة تظهر رويداً. فيرتقي حي بن يقظان من عالم الحس إلى عالم المعرفة والحقيقة. وهكذا فإن ابن طفيل يقبل مبدئياً بالفيض، لكنه يفسر الخلق أو الولادة تفسيراً عضوياً ناشئاً عن التولد الذاتي. على أن ذلك لم يحرر الإنسان من الحساب وما يترتب عليه من ثواب وعقاب.

ونود أن نشير هنا إلى أن تنوع النظرة في الإسلام إلى الإنسان التي عرضنا لجزء يسير منها الآن كانت دليلاً على يقظة أهل الفكر والفلاسفة واهتمامهم بما جربه واختبره الآخرون قبلهم بقطع النظر عن خطأ ما ذهب إليه الأقدمون أو صوابه.

الحضارة العربية وأوروبا

كان الاتصال بين العرب وأوروبا، في القرون الأولى من العصور الوسطى، مقصوراً على تبادل تجاري محدود. ذلك بأن أوروبا كان اقتصادها زراعياً وكانت قدرتها الشرائية محدودة. فكان التبادل التجاري يتناول من السلع حداً أدنى. لكن هذا الاتصال أخذ في الازدياد تدريجاً في القرنين الرابع والخامس (العاشر والحادي عشر). فقد اتسعت ميادينه أولاً، وتنوعت أساليبه ثانياً، فمن الجهة الواحدة قامت في أوروبا، وخاصة في إيطاليا، مدن تعنى بالصناعة والتجارة. وهذه أصبحت أسواقاً لسلع كثيرة تنقل من بلاد الشام ومصر وإفريقيا والمغرب إلى أوروبا. ومن الجهة الثانية أخذت إسبانيا، ممثلة في الامارات الشمالية التي لم يستولِ عليها العرب تماماً، في استعادة أجزاء من الأندلس منتزعة إياها من العرب ومن جهة ثالثة انتشر النورمان في إيطاليا وغيرها من أجزاء البحر المتوسط وأخذوا باحتلال صقلية التي كانت قد خضعت للعرب مدة من الزمن. يضاف إلى ذلك أن أوروبا وجهت جهدها، في أواخر القرن الخامس (الحادي عشر)، إلى ديار الشام ومصر تحاول احتلالها فيما عرف باسم الحملات الصليبية فإذا أخذنا هذه الأمور بعين الاعتبار وجدنا أنه بين العلاقات التجارية والحملات العسكرية أصبح الاتصال قوياً.

وهذا الاتصال أتاح لأوروبا أن تتعرف إلى نواحٍ من الحضارة العربية لم تكن تعرفها من قبل إلا لماماً. فلما تذوقت ما فيها من خير وعلم ومعرفة أخذت نفسها بالعبِّ من مناهل التراث العربي الحضاري بشكل قوي. وكما حدث للعرب لما نقلوا تراث الأمم القديمة فانتشوا به وبدأوا سيرهم الطويل في السلم الحضاري، فقد أخذت أوروبا من العرب ما عندهم فانتشت به وبدأت سيرها الطويل في السلم الحضاري.

وإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على مجالات الاتصال الثلاثة: إسبانيا وصقليا وديار الشام أيام الحروب الصليبية وجدنا أن كلاً منها يتميز بنوع خاص من التراث العربي الذي انتقل عبره إلى أوروبا، كما أن أساليب الانتقال اختلفت. فالمجال الإسباني كان، على وجه العموم، سبيلاً لنقل أمهات الكتب العربية الفلسفية والعلمية إلى أوروبا. والمجال الصقلي كان السبيل لنقل أمور عملية أهمها الطب والفنون بينما كان المجال الشامي سبيلاً لنقل الكثير من العادات والصناعات إلى أوروبا.

فقد جاء احتلال الإسبان لطليطلة في أواخر القرن الخامس (الحادي عشر) ففتح باب الاتصال بالفكر العربي أمام أوروبا على مصراعيه. وأثار في الكثيرين من الأوروبيين الرغبة الملحة في أن ينقلوا ما كان عند العرب.

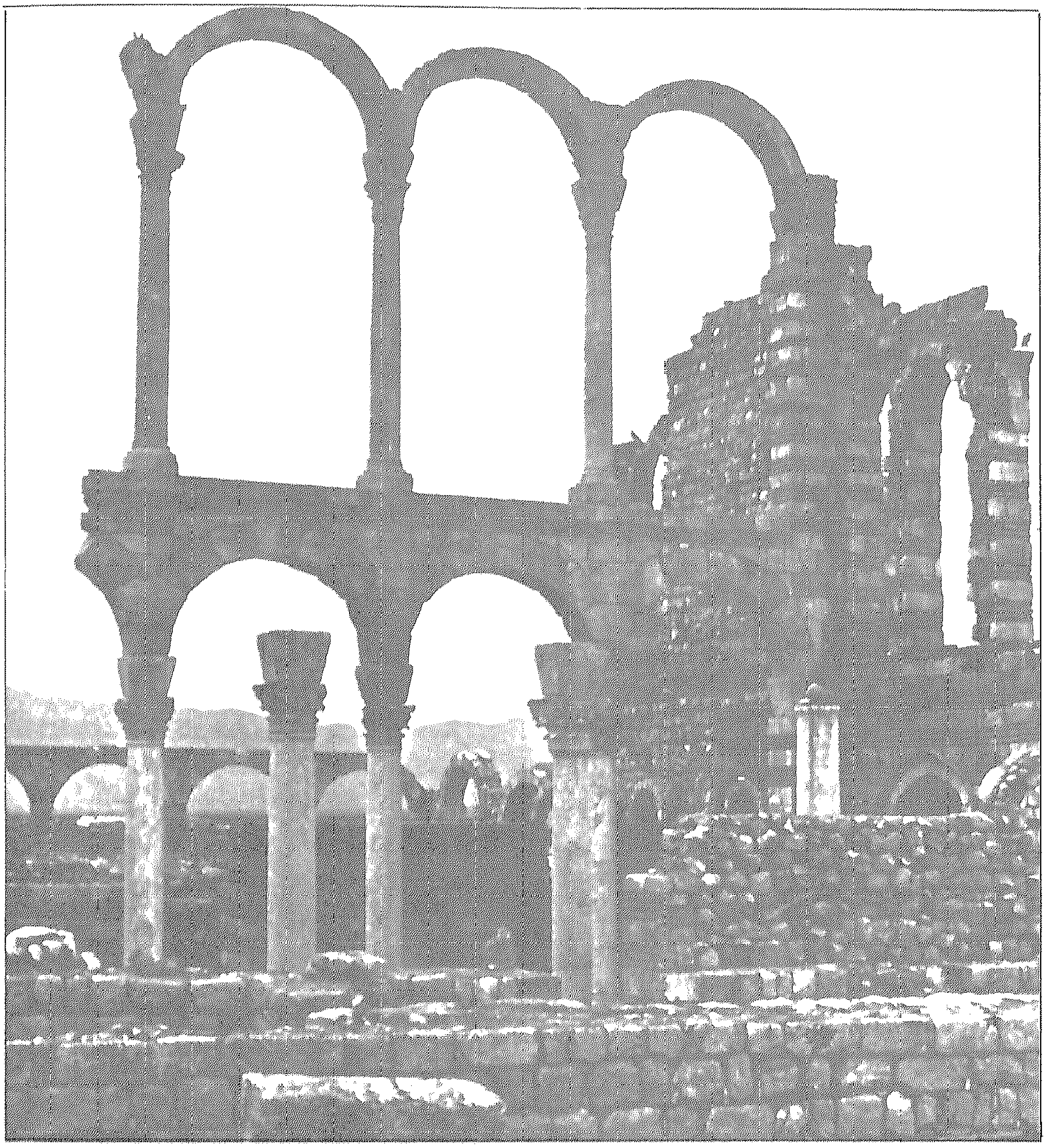

□ **عنجر، إحدى القصور الأموية، التي تعكس حياة الترف التي عاشها أولئك الخلفاء. وتعود للقرن الثاني ـــ الثالث هجري الثامن ـــ التاسع ميلادي.**

فقد أخذ الطلاب يحجون إلى طليطلة ليتعلموا ما كانوا يسمونه أيامها فنون العرب. وكان في طليعـة هؤلاء الزوار ادلارد من مـدينة بـاث بإنكلترا، وهو رياضي فيلسوف، وفي الوقت نفسه انتقل بطرس الفونس من إسبانيا إلى إنكلترا ليكون طبيباً لملكها. وقد نقل هذان كتباً في الفلك والرياضيات من العربية إلى اللاتينية، وهي لغة العلم يومها، وبذلك يسرا للبحوث العربيـة في هذين العلمين أن تنتقل إلى الأوروبيين رأساً. ولحق بادلارد جيرار الكريموني الذي قام بنقل كتاب بطليموس المعروف بالمجسطي من العربية إلى اللاتينية أيضاً.

ويبدو أن إقبال مثل هؤلاء العلماء على زيارة طليطلة حمل الملك الفونس الحكيم، الذي كان يحكمها في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للميلاد، على أن ينشىء فيها أكاديمية للترجمة،

على غرار ما صنع الرشيد والمأمون ببغداد قبل ذلك بأربعة قرون ويزيد. وقد ولى الفونس رئاسة هذه المؤسسة أبا بكر الريقوتي العالم العربي المسلم. فكان يجمع فيها المترجمين من العربية إلى الإسبانية واللاتينية. وقد استمر عمل هذه الأكاديمية نحو قرنين من الزمان. وقد كان من أكبر المترجمين فيها ريمون مارتن الذي حذق اللغة العربية وما احتوته من علم، فنقل إلى اللاتينية عدداً من الكتب بينها ملخص لكتاب تهافت الفلاسفة للغزالي. وبتأثير مدرسة طليطلة هذه قام ريمون كلّ بإنشاء مدرسة لتعليم العربية في ميرامار في جزيرة ميورقة سنة ١٢٧٦م.

ليس من الممكن أن نعرض في هذه العجالة إلى جميع الذين عنوا بنقل الكتب العربية إلى اللاتينية أو الإسبانية أو غيرهما. ذلك بأن عددهم كبير جداً. ويكفي أن نذكر، بالإضافة إلى من أشرنا إليهم، يوحنا الاشبيلي وروبرت ويعقوب البندقي ومرقس الطليطلي وميخائيل الايقوسي وهرمن الألماني والملك الفونس الحكيم نفسه، ونيقولا الصقلي. وقد قاربت الكتب المترجمة الأربعمئة كتاب عداً. وجيرار الكريموني، وهو أوسع المترجمين باعاً وأكثرهم تنويعاً نقل اثنين وسبعين كتاباً من العربية إلى اللاتينية، وهي مفصلة من حيث العدد: ثلاثة في المنطق وتسعة عشر في الفلسفة واثنان وعشرون في الرياضيات والفلك وتسعة في التنجيم وتسعة عشر في الطب.

ونحن إذا أحصينا الكتب التي نقلت من

□ نقود تعود لعصور مختلفة، أموية، عباسية، بويهية، وفاطمية.

العربية من حيث موضوعاتها وجدنا أن هؤلاء المترجمين لم يتركوا كتاباً حرياً بالترجمة إلا نقلوه. بحيث يمكن القول بأنه لم يكد يهل القرن الرابع عشر الميلادي (القرن السابع الهجري) حتى كانت أوروبا قد حصلت على التراث العلمي العربي فلسفة وفلكاً ورياضيات وطباً وجغرافية. وكان كثيرون من أهل العلم في أوروبا قد أخذوا أنفسهم بالنقل المباشر من اليونانية إلى اللاتينية وغيرها. وبذلك اكتمل للأوروبيين الحصول على التراث الفكري العالمي الكلاسيكي والعربي الإسلامي.

فإذا انتقلنا إلى صقلية وجدنا نوعاً آخر من النقل عن العرب إلى أوروبا. ذلك بأن النورمان، لما احتلوا صقلية، لم يقضوا على الحياة العربية فيها. بل ظلت للعرب نشاطاتهم الاقتصادية والعلمية ونالوا على أيدي الملك روجار وخليفته وليم تشجيعاً كبيراً. ويكفي أن نعرف أن الشريف الإدريسي العالم الجغرافي المشهور عاش في بلاط روجار ووضع كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وصنع الكرة الأرضية الفضية بناء على تشجيع من الملك نفسه.

على أن الناحية العلمية الخاصة التي انتقلت إلى أوروبا عن طريق صقلية هي الطب. وقد تم ذلك، بادئ ذي بدء، على يد قسطنطين الإفريقي، وهو تونسي الأصل. فقد كانت ثمة جامعة في سالرنو بإيطاليا، وقد تأثر تعليم الطب فيها بما كان العرب يقومون به في صقلية. وفي القرن الخامس (الحادي عشر) انتقل قسطنطين إلى سالرنو حيث قضى سنوات وهو ينقل كتب الطب من العربية إلى اللاتينية، وكان قد درس الطب على أيدي أطباء تونس. واستخلص قسطنطين من جميع المؤلفين العرب ما كان يمكن أن يكون مفيداً لطبيب. فهو بحق مجدد التآليف الطبية في الغرب.

وكما حدث في سالرنو حدث في مونبلييه. فقد انتقل إليها بعض من تعلم الطب في سالرنو أو في تونس ليقوم بتدريسه هناك. وقد كان بين المتخرجين من هذه الجامعة أرمنغو الذي كان طبيباً لفيليب ملك أراغون وللبابا كلمنت الخامس. فلما تعلم العربية نقل الأرجوزة في الطب لابن سينا مع شرح ابن رشد لها إلى اللاتينية.

ومن صقلية انتقلت إلى إيطاليا صناعة المرايا والقيشاني.

وخلال القرنين اللذين كان الأوروبيون فيهما يتصلون باستمرار مع العرب في ديار الشام أثناء الحروب الصليبية كان الفريقان ينقل الواحد منهما عن الآخر ما قد يعجبه. وكان من الطبيعي أن يكون نقل الأوروبيين عن العرب أكثر نوعاً وكماً لأن العرب كانوا أعلى كعباً في الحضارة وأرسخ قدماً في المعرفة. على أن الذي أخذه الأوروبيون كان أكثر ارتباطاً بالحياة العامة. فالذي نعرفه أن الأوروبيين نقلوا كتابين أو ثلاثة عن العرب إلى اللاتينية في تلك الفترة كلها. أما في المجالات الأخرى فقد نقل هؤلاء القادمون عن سكان تلك الجهات صناعة السكر بعصره من قصب السكر وتجفيفه، وزراعة الأرز والليمون والذرة والبطيخ والسمسم، وأخذوا عنهم صناعة الأقمشة خاصة الدمقس والموصلين، وتعلموا منهم استعمال الدروع في القتال، وقلدوهم في استعمال بعض آلات الحرب. كما نلاحظ انتقال أنواع من الأطعمة إلى أوروبا عن طريق الصليبيين وخاصة استعمال الأفاوية والبهارات. وإذا تذكرنا أن الأوروبيين الذين اشتركوا في الحروب الصليبية كان عددهم كثيراً، وأنهم انتقلوا إلى ديار الشام من جميع أنحاء أوروبا الوسطى والغربية، فقد كان أثرهم أوسع انتشاراً من آثار أولئك الذين نقلوا العلوم والفلسفة، وإن لم يكن له العمق الذي كان لأهل المعرفة العلمية والفلسفية.

على أنه لا يجوز لنا أن نحسب أن انتقال الحضارة العربية إلى الغرب اقتصر على هذه المجالات وعلى هذه الفترات. ذلك أن النقل متى بدأ، والاتصال متى أخذ طريقه إلى القوم، لا سبيل إلى وقفه أو تحديده. ففي كل اتصال، مهما صغر شأنه، وفي كل مجال، مهما ضاق طريقه، لا بد من تأثر وتأثير. والغني يعطي، والثري يهدي، والعارف يرشد، والمعلم يعلم.

ولعلنا لو أردنا أن نجمل أثر الفكر العربي في أوروبا لاستطعنا أن نقول بأن الشرارة الأولى التي انطلقت في الفكر الأوروبي في العصور الوسطى إنما حدثت بسبب ما أخذ الأوروبيون عن العرب. ويكفي أن نعرف أن رجلاً مثل توما

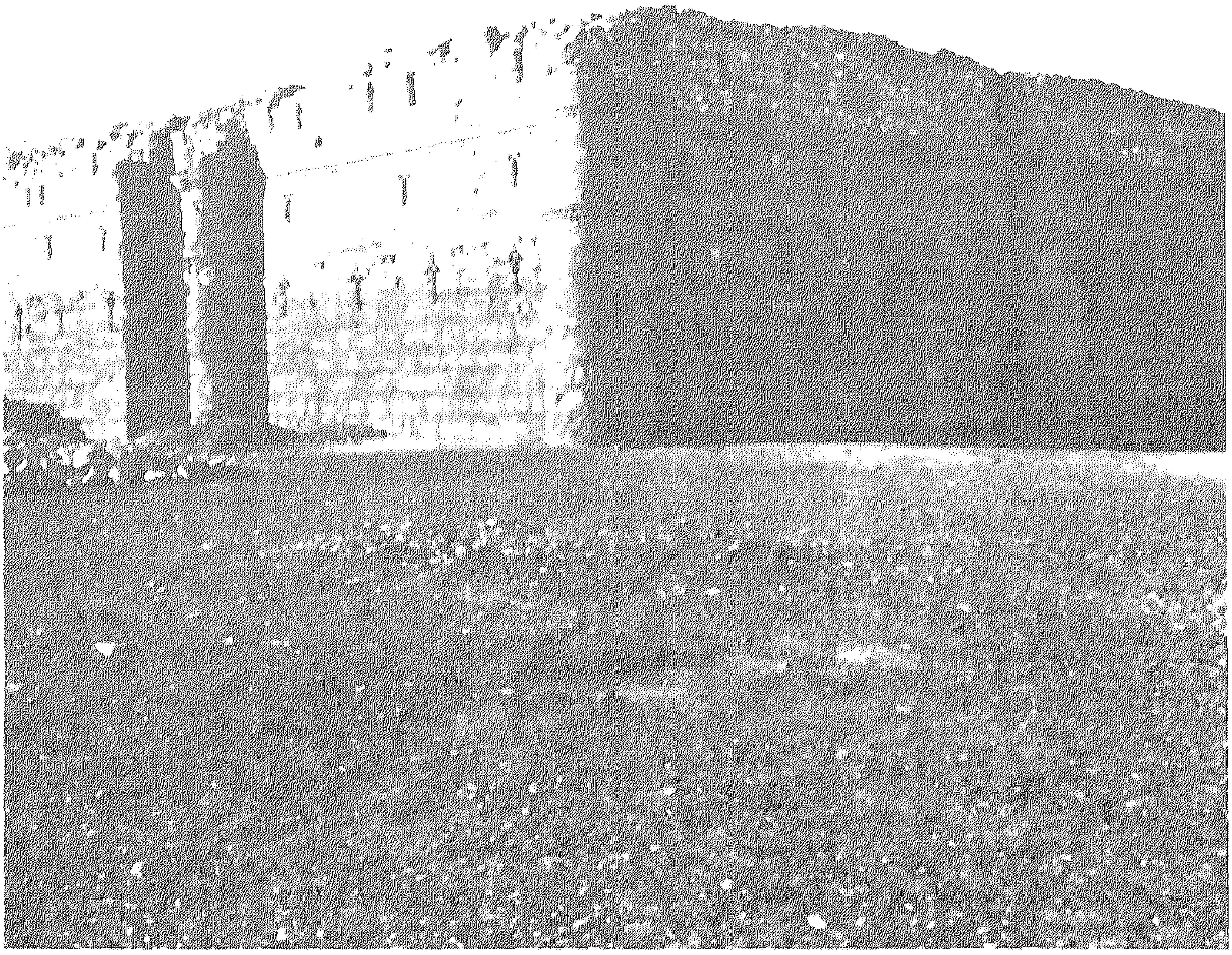

□ قصر الخرنق، حصن أموي يعود للقرن الثاني هـ ــ الثامن ميلادي.

الاكويني تعرف إلى أرسطو عن طريق ابن رشد الفيلسوف العربي الإسباني المغربي. وأن بعض الذين انصرفوا إلى التوفيق بين الوحي والعقل في أوروبا أفادوا من معالجة مفكري الإسلام لمثل هذه القضية. وعلم الكلام الإسلامي أثر بعض التأثير في نشوء المذاهب المدرسية في أوروبا.

ولا شك أنه يمكن تعداد أمور كثيرة في الحياة تأثر بها الأوروبيون بالعرب، وأن مثل هذا التعداد لا سبيل لحصره. لكن يجوز أن نمر بهذا الحديث من دون ذكر عدد من المفردات اللغوية المعروفة في اللغات الأجنبية والتي انتقلت إلى الغرب عن طريق العرب. وكل من هذه المفردات لها دلالة حضارية، مثل: السكر والكحول والاكسير والأرابسك لطراز الفن الزخرفي والجبر ومثل ذلك كثير.

وفي الفن ــ العمارة والفنون الصغرى ــ تأثرت أوروبا بالكثير مما كان عند العرب. وما أكثر ما زخرف البناؤون الأبنية الفخمة، الدينية والعامة، بالكتابات العربية المحتوية على آيات كريمة.

ومن الصعب على أي كان أن يتصور كيف كان يمكن لأوروبا أن تسير قدماً في مطلع نهضتها لو أن العرب لم ينقلوا عن الصين أشياء ثلاثة ويستعملوها ويعطوها لأوروبا بدورهم وهي: البارود والبوصلة والورق؟ هل يمكن تصور قلع الصخور الكبيرة للبناء من دون البارود؟ وكيف كان للأوروبيين أن يمخروا عباب المحيط الأطلسي لولا البوصلة! وكيف كانت الترجمة والنقل والنسخ تتم لولا الورق الذي كانت مناطق كثيرة في العالم العربي تصنعه من قرطبة غرباً إلى العراق شرقاً. ●

هوفمنستال وألف ليلة

مجدي يوسف

دوّن الشاعر النمسوي الكبير هوجو فون هوفمنستال (Hugo von Hofmannsthal) (١٨٧٤ ــ ١٩٢٩) مقالة عن ألف ليلة وليلة قدم بها أول ترجمة ألمانية كاملة لهذا الأثر الشرقي العالمي، وهي التي أنجزها المستشرق الغني عن التعريف «إنو ليتمان» (Enno Littmann) ونشرتها دار «إنزل» (Insel-Verlag) عام ١٩٢٣. ولقد لفت نظري تناقض واضح بين بنية أقاصيص ألف ليلة وليلة كما تعرف عليها ووصفها لنا الأديب النمسوي في تقديمه المذكور(١) وبنية إحدى قصصه التي كان قد ألفها في مطلع شبابه ولم يتجاوز آنذاك الواحد والعشرين من العمر ــ في ١٨٩٥ ــ واختار لها عنواناً يشير مباشرة إلى الليالي وهو: «أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة»(٢) (Das Märchen der 672. Nacht.).

يصف هوفمنستال في تلك المقالة التمهيدية ألف ليلة وليلة فيقول عنها «إنها أساطير فوق أساطير تذهب حتى الشقاوة والعبث، وهي مغامرات وملح تمضي حتى الهزل والقباحة، ثم هي حوار معقود من ألغاز وأمثال وحكايات ذات مغزى ومرمز تدور بالمرء حتى يلهث. غير أنه في غمار هذا الكل لا تصير الشقاوة شقية، ولا القباحة دنية، ولا طول النفس باعثاً على التعب»... «ننتقل من ذروة الدنيا لأحقر من فيها، من الخليفة للحلاق، ومن الصياد الفقير لتاجر الأمراء، وإذ بإنسانية تحيط بنا وترفعنا على موجة خفيفة عريضة، وبينما نحن بين أشباح، بين سحرة وعفاريت نحس وكأننا لم نبرح دورنا. إن واقعية لا غنى عنها تصور لنا النافورة والقاعة الرائعة يكسوها بلاط باهر وأم اللصوص العجوز يشغى رأسها بالقمل»... «هنا أجسر طاقات الفكر وأشد نزوات الحس في تداخل متعاشق، في وحدة واحدة»[٣]. فإلى أي حد يتفق أو يتعارض هذا الوصف الذي يعكس ألف ليلة وليلة مع بناء قصة هوفمنستال التي دعاها:

«أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة؟»

تدور قصة هوفمنستال حول شخصية ابن تاجر موسر توفي أبواه وخلفا له ثروة طائلة تكفل له من العيش رغداً كبيراً، غير أنه ما أن بلغ الخامسة والعشرين من العمر حتى سأم حياة المجتمع، فأمر بغلق معظم غرف داره وأخلى طرف خدمه جميعاً ما عدا أربعاً منهم «عزّ عليه تعلقهم به وجوهر عنصرهم»[٤]. ولما كانت لم تعد تراوده رغبة في صحبة الأصحاب ولا في رفقة امرأة مهما كانت على حظ منّ الجمال فقد انطوى على نفسه وآثر الانعزال عن الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. إلا أنه لم يهب مع ذلك مواجهة الآخرين بل كثيراً ما كان يجول وحيداً في الحدائق والمنتزهات العامة يتأمل في صمت وجوه الأشخاص. كما أنه لم يقصر في اعتنائه بنظافة بدنه ولا بجمال يديه وزينة داره. وأصبح يواتيه اهتمام دفين بالسجاد المعقود، وفاخر الحرير والنسيج، والثريات، والأحواض المعدنية البراقة، ومختلف الأواني الخزفية على نحو غريب الشأن لم يألفه من قبل. ومن هنا «بدأ يرى بالتدريج كيف تعيش الحياة بكافة أشكالها وألوانها في أوانيه ومقتنياته. وجعل يتبين في الزخارف المتعانقة صورة سحرية لتعانق أعاجيب العالم»... «ويتعرف على الخصام الدائر بين ثقل العواميد ومقاومة الأرض الصلبة، وعلى تطلع كل مياه إلى العلا، ثم انحدارها، وعلى غبطة الحركة وجلال الراحة، وعلى الرقص وحال الموت»... «وعلى لون البحر الهائج ولمعان هدوئه، وعلى القمر والأجرام، والكرة الصوفية وحلقات التصوف بأجنحة السيرافيم النامية على جانبيها. حتى لقد انتشي بهذا الجمال الرائع ذي المغزى العميق طويلاً...».

«غير أنه كان يحس عدمية كل هذه الأشياء مثلما يحس جمالها؛ ولم تفارقه فكرة الموت على المدى الطويل بل كثيراً ما كانت تباغته وسط أناس يضحكون ويعجون، وكثيراً ما كانت تواتيه في الليل، وأثناء تناول الطعام».

«ولما كان لا يعاني مرضاً فقد كانت لا تأتيه فكرة (الموت) في صورة مرعبة مخيفة، وإنما في حلة مهيبة جليلة. وكانت تلح عليه أكثر ما تلح كلما انتشى بفكر جميل، أو بصورة شبابه الحسين ووحدة روحه. إذ كثيراً ما كان ابن التاجر يستمد اعتداداً كبيراً بذاته من خلال النظر إلى المرآة، أو التطلع إلى أبيات الشعراء، أو استعراض ما له من ثروة وفطنة. وما كانت تؤثر فيه الأمثال الدارجة ذات الطابع المتجهم. فقد كان يقول: «قدماك تسير بك إلى حيث تموت»، وكان يرى نفسه في حسن ملك تاه أثناء الصيد وسط غابة مجهولة وراح يخطو تحت أشجار عجيبة الشأن تجاه مصير رائع غريب. وكان يقول: «إذا ما تم بناء الدار، حل الموت»، وإذ به يرى المنية تصعد حثيثاً وهي مثقلة بغنائم الحياة فوق جسر القصر أو تلك الدار الحديثة القيام، بينما تحمل الجسر أسود مجنحة».

«وكان ابن التاجر يظن أنه يعيش في خلوة تامة مع نفسه، إلا أن خدمه الأربعة كانوا يحيطون به كالكلاب من كل جانب. ومع أنه كان لا يتحدث إليهم إلا في النادر فإن شعوراً ما كان يواتيه بأنهم يتفانون في خدمته. بل أنه راح يفكر في شأنهم بين حين وحين»[٥].

كانت مدبرة شئون داره امرأة عجوز،

أرضعته ابنتها المتوفية حين كان في المهد. وقد حرص ابن التاجر على أن يحتفظ بها في داره، فقد كانت تذكره بصوت أمه وعهد طفولته الحبيب.

وقد استحضرت هذه العجوز إلى الدار، بعد استئذان ابن التاجر، قريبة لها في الخامسة عشرة من عمرها. إلا أن هذه الفتاة كانت على حداثة سنها شديدة الانطواء على نفسها، تذعر من ابن التاجر كلما رأته وتتجنب نظراته. ومع هذا فما إنفكت المرأة العجوز تؤكد لرب الدار أن قريبتها تفضل الإقامة في بيته.

أما أحب الخدم إلى نفس ابن التاجر فكان ذاك الذي تعرف عليه للمرة الأولى في حفل عشاء بدار مبعوث ملك فارس في المدينة. فقد أقبل على خدمته في كثير من الاهتمام والاحتشام والرعاية والاتضاع حتى أنه لفت نظر ابن التاجر إليه أكثر مما فعلت أحاديث سائر المدعوين. وكم كانت غبطة ابن التاجر حين صادف في الطريق ذاك الخادم الذي اتجه إليه وحيّاه في وقار، ثم عرض عليه أن يعمل في خدمته. عندئذ قبله لتوّه وأصر على ألا يقدم له الطعام شخص سواه. وقد بلغ هذا الخادم من التعلق بسيده والتفاني على راحته أنه لم يشأ أن يترك الدار في ساعات المساء رغم السماح له بالترويح عن نفسه في تلك الأوقات. وهكذا صار ابن التاجر يزيد بمرور الوقت إعجاباً به وتقديراً لتفانيه.

ولأن انفرد هذا الخادم بتقديم الطعام لسيد الدار فقد كانت تحمل صحون الفاكهة والحلوى وصيفة لا تزيد على الصغيرة سوى عامين أو ثلاثة من العمر. وكانت على نصيب وافر من الحسن والجمال يتمثل في شفتيها وجفنيها، أما حركات جسدها وانثناءاته فكانت تبدو لابن التاجر وكأنها لغة مبهمة لعالم مستغلق مليء بالأعاجيب. وإن تكن فتنة هذه الفتاة قد حرّكت فيه إحساساً صوفياً إلى الجمال إلا أنها لم تشعل في جوانحه أدنى رغبة أو شهوة حسية.

وإذ أتى الصيف بحرارته القائظة فقد نزح ابن التاجر برفقة خدمه الأربعة إلى مقره الصيفي الذي اختاره على سفوح الجبال حيث دور الموسرين والأعيان. وهناك بينما كان يجلس في حديقته يطالع أسفار الحروب والغزوات كان

□ الفروسية صفة أساسية لأبطال قصص الف ليلة وليلة.

يشعر أن عيون خدمه مسلطة عليه، بل تتنفس من داخل صدره مما دفعه إلى التفكير في نفسه على نحو مرهق لا طائل من ورائه.

وفي تلك الأيام جاءته رسالة من مجهول يحمل فيها حملة مسعورة على خادمه الأمين ويتهمه باقتراف جريمة شنعاء في دار سيده السابق مبعوث ملك الفرس. وقد زاد صاحب الخطاب على ذلك بسيل من التهديدات الموجهة لخادم ابن التاجر وإن لم يشر، ولو من بعيد، إلى نوع الجريمة التي يتهم بها التابع الأمين ولا ما الهدف من خطابه ذي اللهجة الحادة. وما أن جعل ابن التاجر يقلب الامر في رأسه حتى اشتغل غضباً ولم يطق مجرد فكرة الاستغناء عن أحد من خدمه الأربعة، وهم الذين التحموا به حتى صاروا جزءاً من كيانه بحكم العادة وبحكم قوى أخرى خفية عليه. ومن ثم فقد شعر بالتهديد ينتقل إليه شخصياً وكأنما يطلب إليه أن يخرج على نفسه وان ينكر عليها كل محبب إليها. هكذا قرر أن يمضي من بيته الصيفي إلى المدينة حيث يقيم المبعوث الفارسي

بهدف أن يستعلم هناك على ما يوضح له هذه القصة المغلقة التي أثارته وأزعجته. ولم يعلم خادم بنيته ولا بوصول الخطاب ومحتواه.

ولكنه عندما بلغ المدينة كانت الدنيا عصراً ولم يجد في دار الديبلوماسي الفارسي أحداً يستطيع التحدث إليه بشأن الموضوع الذي حضر من أجله، فقرر أن يعاود المحاولة في اليوم التالي على أن يأتي في ساعة أفضل من النهار.

ولما كانت داره التي في المدينة مغلقة، وجميع خدمه في بيته الصيفي بالجبل، فقد صار عليه أن يبحث عن مأوى يقضي فيه ليلته وكأنه وافد غريب. وكالغريب أيضاً راح يستكشف شوارع المدينة الرئيسية مع أنه كان يعرفها من قبل، حتى بلغ شاطىء نهر صغير جفت مياهه في تلك الفترة من العام. ثم ازدحمت في وأسه الأفكار وهو يسير وإذ به يجد نفسه في درب تسكنه المومسات بحي من أحياء الفقراء. وقد جعل يمضي في شوارع هذا الحي الذي لم يدر عنه شيئاً من قبل حتى صادف حانوت صائغ متواضع لم يلفت نظره إلى معروضات نافذته

سوى حلية قديمة ذكرته بمدبرة منزله العجوز. فأراد أن يبتاعها لها ووطأ الحانوت على هذا الأساس. إلا أن صائغ الفقراء حين رآه وعلى سماته وهندامه علامات الثراء حاول أن يعرض عليه سائر سلعه ومجوهراته عسى أن يبتاع المزيد منها. فما كان من ابن التاجر إلا أن زاد فاشترى سلسلة ذهبية ليهديها وصيفته الحسناء التي تقدم له أطباق الفاكهة والحلوى أثناء تناوله الطعام. ولم يبد بعد ذلك أي استعداد في البقاء بالحانوت. وبينما الصائغ يطوي له الحليتين في ورق حريري ناعم وقع بصر ابن التاجر من خلال النافذة الوحيدة في الدكان على حديقة خلفية فيها بيتين لحفظ النباتات. وهنا شاعت في نفسه رغبة ما في أن يشهد ما في هذين المشتلين من نبات. فعاونه الصائغ على تلبية مطلبه وتركه يجول وحده في الحديقة التي بدت وكأنها مهجورة. إلا أن ابن التاجر ما لبث أن تبين فيها بعد فترة قصيرة وجه طفلة في الرابعة من العمر يحملق فيه بغضب وحنق من وراء زجاج أحد المشتلين. وقد بعث ذلك في نفسه ذعراً كبيراً لا سيما وأن ملامح الطفلة الصغيرة كانت على شبه كبير بسمات الفتاة الشديدة الانطواء ذات الخمسة عشر عاماً. فتحرك لتوه يريد ولوج المشتل كي يرى تلك الطفلة التي راحت تعوقه بيديها الضعيفتين عن الدخول فما أفلحت. كانت قسمات وجهها تعبر عن حقد دفين موجه إليه مما زاده قلقاً على قلق. وكي ينفض الذعر الكئيب عن نفسه راح يتحسس شعر الصغيرة يريد أن يربت على رأسها كما يفعل الأصدقاء، ولكنه ما لبث أن خطرت له استجابة بنت الخمسة عشر عاماً حين عاملها بنفس المتهاج في داره وكيف أدى ذلك معها إلى عكس ما كان يتمناه. فسحب يده من على رأس ذات الأربعة أعوام وحاول أن يسترضيها ببعض قطع النقود الفضية التي تبقّت معه، إذ كان لها رنين حسب أنه يرضي رغبة الطفلة في اللعب. ولكن الصغيرة قذفت بالنقود تحت قدميه وانصرفت من المشتل غاضبة. وقد ظل يرتعد قليلاً بعد ان ذهبت راجياً الا تعود. فإذا ما تأكد من أنها غادرت الحديقة حاول بدوره أن يغادر المشتل. ولكن الطفلة كانت قد أغلقت الباب من الخارج. ولم ينفع طرقه على

الزجاج فتيلاً. وأخيراً عثر على مخرج خلفي أدى به إلى الطريق العام بعد أن اضطر أن يسير على لوح معلق في الهواء وأن يواجه خطر الموت المحدق في بقعة مهجورة كئيبة. ولكن الطريق العام كانت مجرد زقاق ضيق قبيح بلغه ابن التاجر بعد أن نال منه التعب والارهاق كل منال. وراح يمضي من درب إلى درب وهو يعتقد انه يسير في اتجاه يؤدي به إلى حي الأغنياء، فقد كانت به رغبة عاتية في الاستلقاء فوق مضجع مريح والذهاب في نوم عميق. ولكنه بدلاً من ذلك مر بثكنات الجنود. وأيقظته من أحلامه أصواتهم تناديه وإن لم يدرك ما تعنيه وإذ به يلتفت إلى فناء الثكنة وقد نزلت عليه خطوط الغسق فبدا في غلالة حزينة. وكانت ترتص في أحد جوانب الفناء خيول ترقد من تحتها جنود تغسل لها حوافرها. وكانت وجوه الجنود مصفرة وعيونهم متعبة، أما الخيول فكانت تبدو على عيونها المتكورة علامات الضيق والتبرم. وكان الحصان الأخير في الصف أكثرها حنقاً وأشدها رغبة في العدوان. بينما استلقى من تحته جندي هزيل غائر الوجنتين يجفف له حوافره وذاك يحاول أن يعضه في كتفه. فإذ رأى ابن التاجر هذا المشهد رق قلبه للجندي المسكين ورغب في الترويح عنه بهدية ولو كانت من النقود. وراح يبحث في جيوبه عن بعض العملات الفضية ولكنه سرعان ما تبين أنه كان قد عرض آخرها على الطفلة في المشتل وإن فقدت في الأرض بعد أن قذفت بها في ازدراء. فتذكر أنه لا زالت لديه بعض القطع الذهبية من المال وأراد أن يخرج إحداها فسقطت من جيبه حلية المرأة العجوز تحت حوافر الحصان. إلا أنه ما أن طأطأ يريد التقاطها حتى تلقى ضربة قوية في مؤخرة ظهره من حافر الحصان. وإذ راح يصرخ ويئن من الألم فقد نهض بعض الجنود في تكاسل وحملوه من كتفيه وساقيه إلى غرفة من غرفهم المتواضعة التي يخيم عليها الظلام أكثر مما يخترقها النور، وهناك وضعوه فوق مخدع حديدي وطيء وانصرفوا ليتركوه وحده مع هلع الموت الذي كان أقسى عليه من آلام جسده بمراحل. عندئذ راح يلعن خدمه الأربعة الذين ساقوه إلى هذه النهاية: تابعه الذي جاء بسببه إلى المدينة، ومدبرة داره التي أدت به إلى وطوء حانوت الصائغ، والفتاة الحسناء التي أراد أن يبتاع لها السلسلة الذهبية فأدى به المقام إلى الحديقة المهجورة، وذات الخمسة عشر عاماً إذ شابه وجهها الغضوب ملامح الطفلة الصغيرة في المشتل الذي ما استطاع أن يغادره إلا بعد لأي ومخاطرة أدت به في نهاية المطاف إلى زقاق حقير ثم إلى التأرجح تحت حوافر الحصان.

«وفي مرارة شديدة راح ينظر شذراً إلى حياته السابقة وينكر على نفسه كل ما كان حبيباً إليها. فقد بلغ من كرهه لموته المبكر أن كره الحياة التي أدت إليه. واستهلك هذا الهياج الباطني ما تبقى لديه من طاقة أخيرة، فوقع مغشياً عليه يترنح بعضاً من الوقت في سبات سقيم. وما أن استيقظ بعدها حتى أراد أن يصرخ فقد كان لا يزال وحيداً، لكن صوته لم يغادر حلقه. وأخيراً تقيأ مرارة فدماء، وقضى نحبه معوج القسمات متأزز الشفتين بينما لثته وأسنانه عارية تخلع عليه مسحة شريرة مستهجنة»[٦].

بهذه الكلمات ختم هوفمنستال «أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة» لنسأل نحن أنفسنا: ما علاقة هذه القصة بالليالي الشرقية الأصلية؟

إننا لو ترجمنا قصة هوفمنستال بكاملها إلى العربية فلن يصعب علينا أن نميزها شكلاً ومحتوى عن ليالي ألف ليلة. ومع ذلك فقد أراد هوفمنستال، وهو ابن فيينا وشاعرها المدلل في نهاية القرن الماضي، أن يرتدي عباءة الشرق وهو يروي لنا هذه القصة وإن لم تكن ملامحه ومشاكله وكافة مقومات شخصيته الغربية قد فرضت نفسها فرضاً على مسار قصته وحددت من ثم قالبها وبدايتها ونهايتها. فلأن أردنا أن نفسر هذا الأثر الفني الذي خلّفه شاعر من أكبر شعراء اللغة الألمانية فما علينا إلا أن نتدارس الظروف التي كتب فيها هذا الأثر فهي وحدها التي تمكننا من وضع أيدينا على الأسس المادية التي نبدأ منها بحثنا.

وضع هوفمنستال هذه القصة وهو لا يزال ابن الواحدة والعشرين. وكان قد انتهى لتوّه من أداء خدمة عسكرية تطوعية فتحت عينيه، وهو ابن عائلة برجوازية موسرة في فيينا، على ما لم يره وما لم يدركه حتى ذلك الحين. فقد

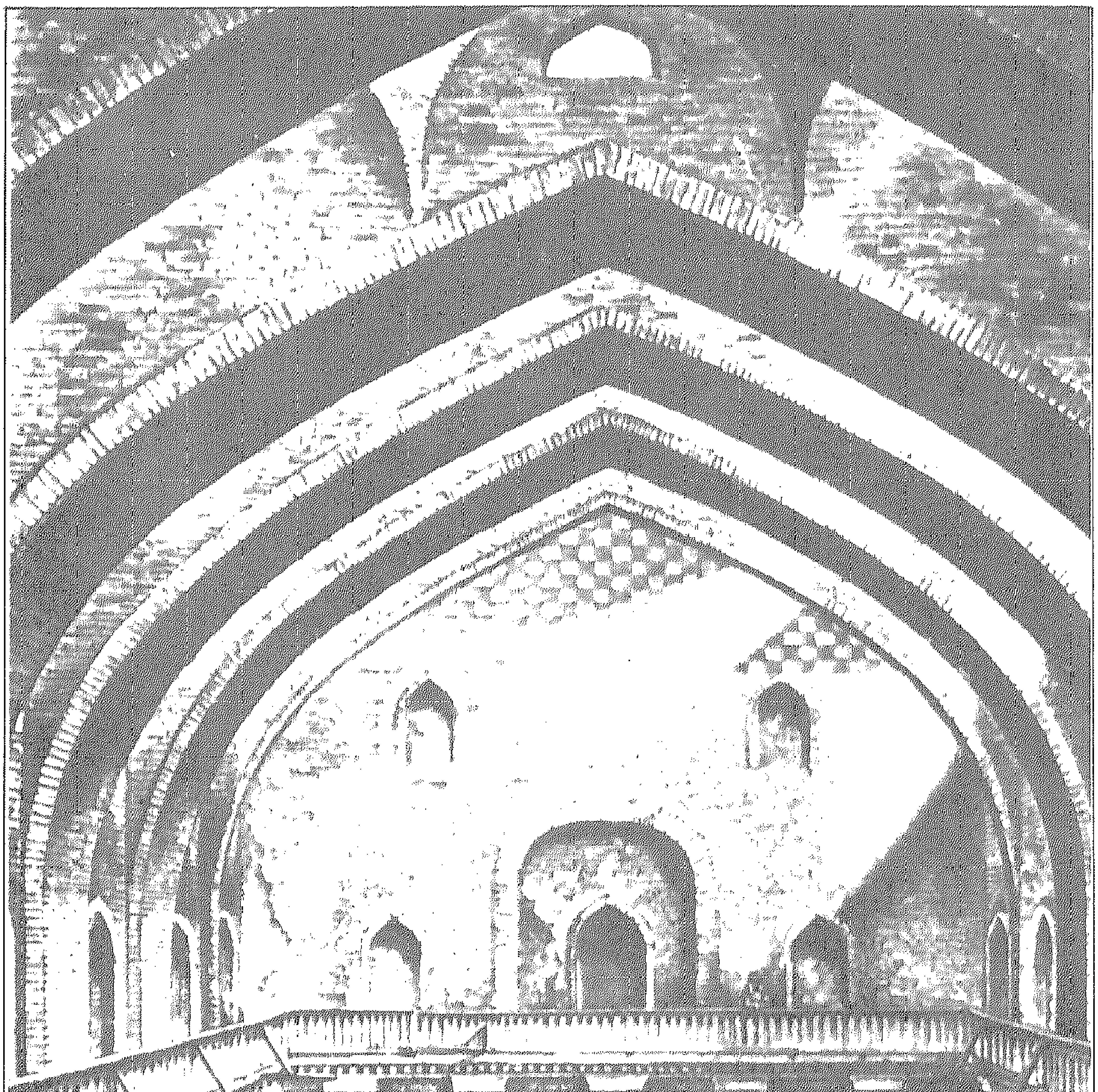

□ كانت الأسواق ومحطات قوافل التجار مسرح لكثير من أحداث قصص ألف ليلة وليلة.

كان هوفمنستال عبقرية شعرية لمعت في مقاهي فيينا وصالوناتها الأدبية وما تعدى الثامنة عشرة من عمره. وكان نظير «ابن التاجر» في مستهل قصته: غنياً وموهوباً، صغير السن وإن يكن حكيماً نافذ العقل والبصيرة. يعتز بصداقته ويخطب وده شعراء وأدباء كبار من أمثال الروائي النمسوي «آرتور شنيتسلر» (Artur Schnitzler) ومواطنه الشاعر «بير هوفمان» (Beer-Hofmann) والشاعر الأرستقراطي النزعة صاحب النظرية الاستيطيقية المتعالية على الجمهور وحركة التاريخ «ستيفان جيورجه» (Stefan George). وجدير بالذكر أن الأخير على تعاليه قد قدم نفسه لهوفمنستال الشاب في مقهى كان يتردد عليه كثيراً آنذاك في فيينا ويدعى «جرينستايدل» (Café Griensteidl) وسارع بأن عرض عليه أن ينشر أعماله الشعرية في مجلته التي كان يصدرها «جيورجه» تحت عنوان: «صفحات من أجل الفن» (Blätter für die Kunst). وكان برنامجها، وهو البرنامج الذي سعت «حلقة جيورجه» (George-Kreis) فيما بعد إلى تنفيذه والسير على هداه، هو المحافظة على جمال الكلمة في «معبد الفن» بعد أن أصابها ما أصابها من تحطيم أخص عناصرها الاستيطيقية. ولم يلتفت «جيورجه» ولا حواريوه إلى أن تحطيم جماليات الكلمة والفن السلفي عامة كان ضرورة حتمها انهيار طبقة اجتماعية — هي طبقة البرجوازية الكبيرة والاقطاع الأوروبي — التي كانت تستأثر بحكم سيطرتها على وسائل الإنتاج بكل أسباب الترف والمتعة الفنية «الرفيعة» بينما تنكر على سواد الشعب العام أن يفهم تلك القيم الفنية أو يجرؤ على استيعابها وهو الذي لا يفضل إلا أكل الكرات والبصل؟!!!

ولم يكن «جيورجه» الذي كان بدوره حوارياً من حواريي «مالارميه» (Mallarmé) يقف وحيداً في نزعته الاستيطيقية المجردة في أوروبا آنذاك، فهذا هو «أوسكار وايلد» (Oscar Wilde) في انجلترا مثال الفنان الأديب المتعالي على المجتمع والجمهور حبيساً في قفصه أو معبده الفني إلى أن يلقى جزاء تعاليه على الواقع المادي للتاريخ وينزل إلى قبو المجتمع الانجليزي — إلى السجن — بعد أن عاش (نجماً) يسطع (فوق الجميع).

وينبهنا «ريشارد آليفين» إلى تعليق هوفمنستال الشاب على سقوط «أوسكار وايلد»: «لا معنى لأن ننظر إلى الأمر وكأن مصير أوسكار وايلد وكيان أوسكار وايلد شيئان منفصلان عن بعضهما وكأنما باغته القدر كما يهجم وغد شرس لئيم على طفلة ريفية خالية الذهن تحمل على رأسها سلة بها بيض... لقد كان يحس الحياة تهدده بلا انقطاع. ولم يكف هلع المأساة عن محاصرته. كان يتحدى الحياة بلا توقف. كان يزدري الواقع. وكان يحس كيف تنحني الحياة لتثبت فوقه من الظلمة»(٧).

دوّن هوفمنستال هذه الكلمات معلقاً بها على رسائل «وايلد» من ظلام السجن (De Profundis) بعد مضي عام واحد على تأليف قصته «أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة» التي بدا وكأنه يريد أن «يفسر بها مجرى الواقع مقدماً على نحو غريب»(٨) (آليفين). فما هو الذي دفع هوفمنستال إلى كتابة هذه الأسطورة وماذا أراد أن يقول بها؟

أشرنا من قبل إلى أن هوفمنستال قد أتى من أسرة مرفهة ثرية في فيينا أثناء النصف الأخير من القرن الماضي. وقد كان طبيعياً، وهو الشاعر الموهوب منذ نعومة أظفاره، أن يصبح ظاهرة مدللة من ظواهر أرسقراطية الفكر والفن آنذاك في عاصمة النمسا إلى أن حدث ما قشع القناع عن بصيرة الشاب هوفمنستال: فقد عاش في فترة تجنيده تجارباً تتناقض تناقضاً كبيراً مع واقعه الأرستقراطي السالف الذكر. كان عليه وهو الفنان الجمالي المرهف الحس أن يعيش ويخبر حياة الوحل والتراب لا حياة الصالونات والمقاهي الفاخرة التي تعودها. وتفتحت عيناه على زيف ونقص تلك الحياة الجمالية المجردة التي كان يحياها ترفاً وفكراً، والتي راحت تلهث وراءها طبقة معينة تصعد كالقشدة على وجه المجتمع وتصر على أنها الوحيدة المختارة لهذه الحياة المنعمة..!

لقد أدرك هوفمنستال في تلك السن المبكرة خطورة هاتيك الحياة التي تنكر الواقع وتتعالى عليه، تلك الحياة التي يتهافت عليها جزء من

النـاس تهافت الذبـاب على القمـامـة، ثم هم لا يرضون بها ــ بتلك النزعة الجزئيـة التي تفصل بين قيم الجمال وتطور التاريخ ــ بديلاً..

لقدأدرك هوفمنستال خطورة هذا الفصل المفتعل بين الفن والمجتمع، بين الفكر والمادة، وشعر أول ما شعر بهذا الخطر يتهدده لا سيما وأنه قد نبع

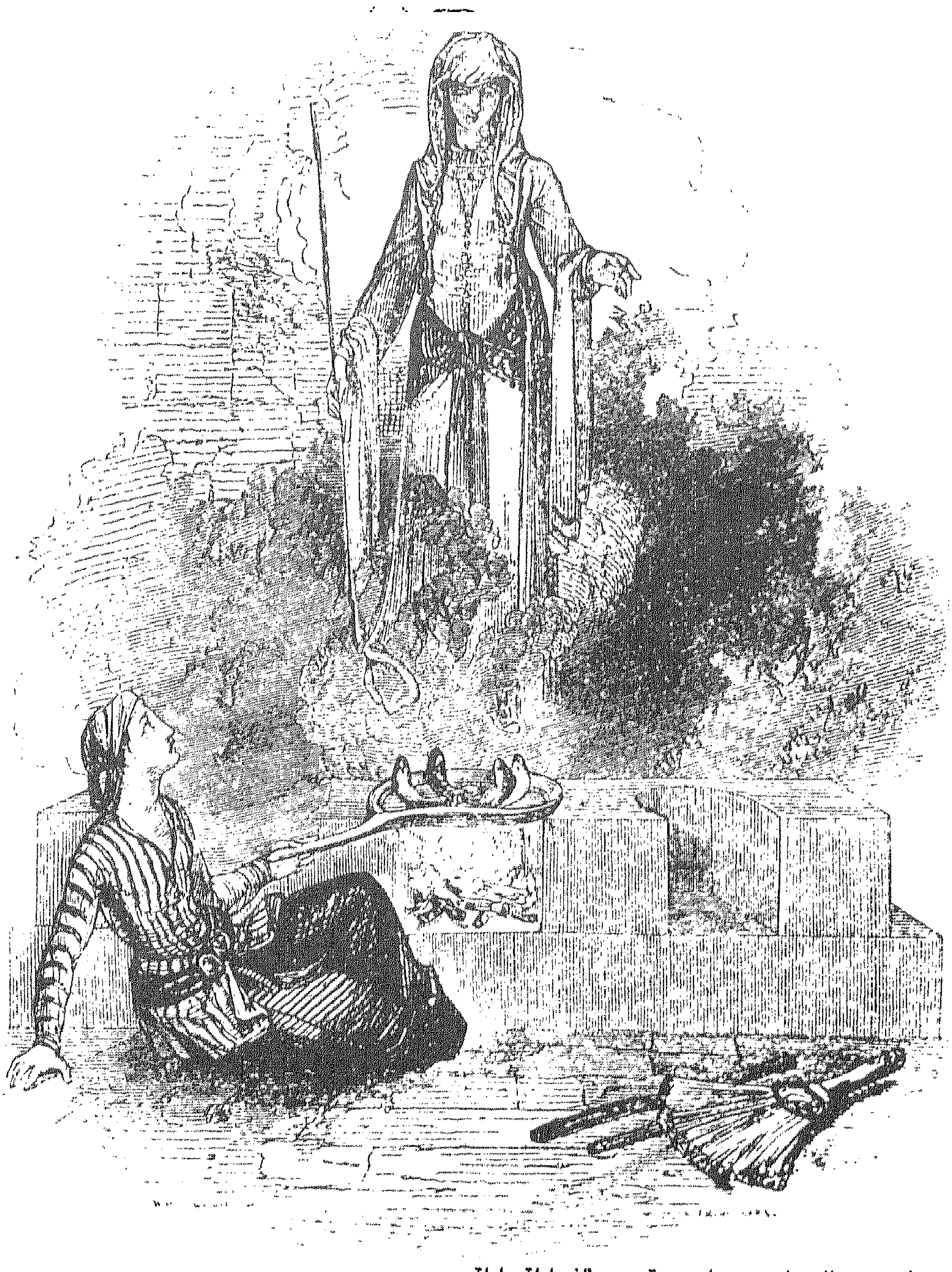

□ مشهد من «الصياد» وهي إحدى قصص الف ليلة وليلة.

في بيئة برجوازية ارستقراطية تؤمن بذلك الفصل وتعززه، فهو في نهاية الأمر يحمى مصالحها ويؤكد لها (خلودها) على مر التاريخ..!

وكانت «أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة» أول انعكاس فني في تاريخ الشاعر هوفمنستال أراد به أن يصور خطورة الانفصال عن الواقع، وفصل الفكر عن الحياة. وحتى يتمكن ن ذلك فقد صور لنا «ابن التاجر» في صورة راهب في محراب الفن اعتزل حياة المجتمع وعاش ما وسعه العيش في دائرة من تأملاته الصوفية الجمالية. ليس الواقع المادي ولا حتى الحس هو الذي تصدر عنه أفعاله ورغباته، وإنما ينظر إلى الواقع من خلال عالمه المثالي الذي يشبه عالم المعبد المعبق بالبخور وهو كاهنه الوحيد. كما لم يصنع لحياته وحدها ثوباً بادي الكمال كهذا، وإنما أيضاً لموته[٩].ويعيش في هذا الواقع المحرف إلى أن يخرج منه ويرى النصف المظلم من الحياة، واقع الطبقات الفقيرة وعندئذ يموت كما يموت السمك عندما يخرج من الماء. وأي منية تنتظره جزاءاً له على رهبنته وصوفيته؟ يموت ميتة الأشرار وكأنه اقترف أكبر ذنب في الحياة: أن يجرؤ على أن ينفصل عن الحياة. وإني أوافق «ريشارد آليفين» على رأيه بأن ذنب ابن التاجر يكمن في «طهارة ذيله» (Unschuld)، أو بمعنى أصح في بعده عن الحياة التي لا تعرف الطهر. ولكني أفتقر لدى مؤرخي الأدب الألماني ومفسريه — و «آليفين» من بينهم — إلى ما يوضح لنا الأسلوب أو الطريقة الفنية التي استخدم بها هوفمنستال ألف ليلة وليلة في صياغة وتقديم مادة قصته هذه. لقد أحدث هوفمنستال عملية جراحية خطيرة توغل فيها بالمشرط إلى بنية ألف ليلة وليلة واستطاع أن يفصل تعاشق المادة بالروح فيها، وهو سر متعتها وإمتاعها، كي يثبت بطريقة عكسية أن هذا الفصل هو أساس الشقاء والموت والفناء. وعندي أن شخصية «ابن التاجر» في قصة هوفمنستال قد جاءت لهذا السبب عكس صورة «أبناء التاجر الذي مات فأسلموا أنفسهم لمغريات الحياة»[١٠] في ألف ليلة وليلة. ولا عجب فأقاصيص ألف ليلة تعكس الواقع من خلال الواقع، من خلال الشعب الذي نسجها، وهي من أجل ذلك كانت تعاني من الكبت والتهوين بل والاستهانة بشأنها في كتب مؤرخي الأدب العربي الذين كانوا خلال القرون الماضية يؤرخون تاريخ آداب الطبقات الحاكمة. ويحدثنا المستشرق «هانس فير» (Hans Wehr) أن بعض هؤلا المؤرخين كان يأخذ على ألف ليلة وليلة جنوحها إلى الخيال[١١]. ومع هذا فإن الخيال هنا أصدق معبر عن الواقع يتوغل فيه ويكشف عنه ويتحرك طليقاً كما يتحرك الطفل ساذجاً وطليقاً في تعرفه على الواقع. أبعد هذا نسأل أنفسنا لِمَ يقبل أطفال العالم على قصص ألف ليلة وليلة؟ ولماذا لا يقبل فنان أصيل كـ «هوفمنستال» على ارتداء بردة هذه الأساطير الشرقية ليحذر وينذر من جزئية وخطورة الاتجاه الجمالي المطلق في الفن؟ وإن كان من أجل هذا (الغرض)[١٢] قد ارتداها بالعكس..؟

إنه يشير في رأيي مباشرة إلى عودته إلى ألف ليلة وليلة أثناء الفترة التي صاغ فيها «أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة». فهو يقول في مقالته التي صدر بها ترجمة «إنو ليتمان» لليالي: «لم نبرح هذا الكتاب حين كنا غلماناً، وحين بلغنا من العمر عشرين عاماً، وحسبنا أن شوطاً بعيداً صار يفصلنا عن طفولتنا، عدنا إليه من جديد، وكم عاد يجذبنا إليه!»... «كم كنا نشبه ذاك الأمير التائه بعيداً عن بلده، وأبناء التاجر الذي مات...»[١٣].

ولكنه جدير بنا ألا ننسى أن هوفمنستال لم يكن قد قرأ ترجمة كاملة لليالي حين وضع أسطورة «الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة» عام ١٨٩٥. فالترجمة الكاملة التي قام بها «إنو ليتمان» لليالي لم تصدر تباعاً إلا ابتداء من عام ١٩٢٣، كما سبق أن ألمحنا في بداية هذا المقال. بينما كانت أشهر الترجمات الأوروبية لليالي الشرقية حتى ١٨٩٥[١٤]:

ترجمة «أنطوان جالان» Les milles et une nuits, contes arabes traduits par Antoine Galland, Paris 1704-1717.

وقد واصلها «كوسان دو برسيفال» M. Caussin de Perceval عام ١٨٠٦.

وترجمة «إدوارد لين» The Thousand and one Nights, commonly called in England

the Arabian Nights Entertainments, translated by E.W. Lane, 3 voll. London 1841.

وترجمة «بيرتون» Sir Richard Burton, Translation of the 1001 Nights, ed. by G.H. Mc Carthy, 6 voll. London 1887.

وترجمة Habicht v.d. Hagen u. C. Schall، الطبعة الخامسة في ١٥ جزءاً، صدرت عام ١٨٤٠ في بريسلاو وشتوتجارت.

ثم ترجمة فرنسية بعنوان: Enis El Djelis ou Histoire de la belle Personne, contes des 1001 nuits, pub. en arabe et traduites avec des notes par A. de Biberstein-Kazimirski, Paris 1846.

ولا يبدو لي أن هوفمنستال قد اطلع على ترجمة (John Payne) التي صدرت عام ١٨٨٢، والتي «زعم (مترجمها) أنها أول ترجمة إنجليزية كاملة للنص العربي» (القلماوي) فهوفمنستال يشكو في مقدمته لترجمة «ليتمان»: «إن ما وقعت عليه أبصارنا في السابق من هذا الأثر لم يعد النقل عنه بتصرف، وعرض محتواه دون التزام بنصه، فمن ذا الذي يستطيع أن يعالج عملاً شعرياً كاملاً في قالب آخر دون أن يحطم أخص مقومات جماله وأعمق ما فيه من طاقة وقوة؟.. ومن المؤكد أنه قد حوفظ على المغامرة في حد ذاتها، فهي لم تندثر وإنما كان يروى مضمونها ويعاد روايتها؛ غير أن الأمر هنا لا يتعلق بمجرد وقائع مغامرة — فماذا لو عرفنا هوميروس عن طريق مجرد سرد مضمون مغامراته»[١٥]. ولا عجب فترجمة (J. Payne) المذكورة صدرت في عدد محدود للغاية لم يتعد الخمسمائة نسخة، وفيها حاول المترجم أن ينقل الشعر العربي في الليالي شعراً إلى لغته، بينما اتجهت معظم الترجمات الأوروبية في القرن التاسع عشر وما قبله، وترجمة «جالان» على رأسها، إلى التصرف والتحوير أو الحذف في بعض المواضع لموافقة الذوق الأوروبي.

ولكني لست أرى أن عدم اكتمال الترجمات الأوروبية لليالي ألف ليلة حتى ١٨٩٥ أو تحوير بعضها للمضمون سواء بالاضافة أو الحذف قد لعب دوراً أساسياً في صياغة هوفمنستال لقصته التي هي موضوع هذا البحث (أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة). فهذه الترجمات، على كل ما يؤخذ عليها من مآخذ لغوية أو علمية، كانت تستهدف إمتاع القارىء الغربي بمحاولة نقل روح الليالي الشرقية إليه. أما أسطورة هوفمنستال فتستهدف على العكس من ذلك إنذار مؤلفها ومن ثم إنذار القارىء بخطورة الاتجاه المعاكس لألف ليلة وليلة: اتجاه التصوف الجمالي والانخراط في تأملات مثالية بعيدة عن الواقع المادي للحياة. وإن أسطورة هوفمنستال لتصدم القارىء الذي لم يستعد لها بكل معاني الصدمة، فهي تريد أن تفتح عينيه على ما لا يراه وتحادثه بلغة الحلم عما يهدد كيانه شر مهدد. وهي بالتالي لا تريد أن تسلي وأن تمتع بل أن تحذر وتنذر بأسلوب غير أسلوب الامتاع مجرد الامياع.. وإنما بالكشف عن متناقضات واقع سقيم جزئي دون استخدام رتوش تخفف من أثر ذلك التناقض المخيف..

أنعجب بعد هذا إذ نرى نفراً من معاصري هوفمنستال ذوي النزعة المثالية في الفن، وعلى رأسهم «جيورجه»، قد انفضوا عن شاعرنا وعدّوه قد مات في عالم الفن الخلاص منذ أن استنّ لنفسه تلك الجادة الفنية التي استهلها بأسطورته المذكورة — عام ١٨٩٥ — ولم يحد عنها بقية حياته الأدبية؟

لكن هوفمنستال لم يمت وإنما اندثر معاصروه المثاليون الذين آثروا أن يتقوقعوا في أبراج كلماتهم الشعرية المتعالية على النزول إلى معترك التاريخ.. ●

■ المقالة مأخوذة من مجلة «فكر وفن» العدد رقم ١٦.

الهوامش

(١) راجع الأصل الألماني: Einleitung zu dem Buche gennant die Erzählungen der Tausendundein Nächte, von Hugo von Hofmannsthal, in: Die Erzählungen aus den Tauseinundein Nächten, übertragen von Enno Littmann, Band I im Insel-Verlag, S. 7-15.

قارن أيضاً ترجمتي العربية لمقدمة هوفمنستال المذكورة بـ «فكر وفن» العدد الحادي عشر، ص ٦٠ — ٦٤.

(٢) راجع الأصل الألماني لهذه القصة في: Hugo von Hofmannsthal, Die Erzählungen, S. Fischer Verlag, 1968, S. 7-28.

(٣) الحاشية رقم (١).

(٤) الأصل الألماني للأسطورة، ص ٧.

(٥) مترجم عن الأصل الألماني، ص ٨ ــ ٩.

(٦) المرجع السابق، ص ٢٨.

(٧) انظر: Die Verwandlung Hofmannsthals; in: Richard Alewyn, Über Hugo von Hofmannsthal, Vandenhoeck & Ruprecht, Göttingen, S. 169-70.

(٨) المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٩) راجع الحاشية رقم (٥): النص المترجم من «وإذ به يرى المنية»... حتى «اسود مجنحة».

(١٠) المرجع السابق.

(١١) راجع تعقيب هانس فير في: Arabische Märchen aus der Welt von Tausendundeine Nacht, W. Goldmann Verlag, München, S. 161.

(١٢) يشير «آليفين» إلى أن «هوفمنستال عندما سئل عما يريده بقصته أجاب منفعلاً أنه على القارىء أن يطالعها كـ «حكاية» ــ بلهجة فيينا الألمانية (G'schicht') ــ ولكني أرى أنه ليس على مؤرخي الأدب أن يلتزموا بتفسير الأدباء لأعمالهم، فهم ــ كما بين مصطفى سويف في رسالته عن «الأسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة» ــ لا يستطيعون في كثير من الأحيان أن يفسروا آثارهم إلا كمن يستطيع أن يفسر سلوكه: من جانب أو جوانب جزئية.
وقد اخترت في نص المقالة كلمة (الغرض) بالنسبة لقصة هوفمنستال حتى أتجنب لفظة «الهدف» وإشعاعاتها التي تخلفت عن معارك الأدب في الوطن العربي خاصة خلال الخمسينات.

(١٣) الحاشية رقم (١).

(١٤) راجع في هذا الصدد: Brockelmann: Geschichte der arabischen Literatur, Bd. II. S. 61.
وكذلك تعقيب «إنو ليتمان» على ترجمته الألمانية لألف ليلة وليلة، وقد سرد فيه تاريخ أهم الترجمات الأوروبية لهذا الأثر الشرقي في نهاية المجلد السادس (انظر الحاشية رقم ١).
ثم راجع أيضاً رسالة الدكتوراه التي قدمتها سهير القلماوي لجامعة القاهرة ونشرتها عام ١٩٦٦ بدار المعارف بمصر تحت عنوان: ألف ليلة وليلة (مكتبة الدراسات الأدبية).
وأخيراً يجدر مراجعة: Thèmes et Motifs des milles et une nuits, Essai de Classification par Nikita Elisséef, Institut Français de Damas, 1949, (Les traductions p. 69).

(١٥) الحاشية رقم (١).

ألف ليلة كما يراها أدباء ألمانيا

يوهان فولفجانج فون جوته Johann Wolfgang von Goethe

● «إن محمداً في إعراضه عن الشعر كان منطقياً مع نفسه إلى أقصى الحدود حين حرم كافة الأساطير. فقد كانت ألاعيب ذاك الخيال الأرعن الذي يحوم فيما بين الواقع والمستحيل ويصور غير الممكن وكأنه حقيقة لا تقبل التجريح، أنسب ما يكون في عرف الحسية الشرقية إلى الراحة الرخية، والكسل المريح. وقد تكاثرت هذه الأشكال الهوائية المتأرجحة فوق أرضية من الأعاجيب إلى ما لا نهاية له في عهد الساسانيين، وهو ما تعرضه لنا «ألف ليلة وليلة» في أمثلة مصفوفة على خيط محلول. وإن طابعها الذي يميزها أن ليس لها غاية خلقية، وعليه فإنها لا تمضي بالإنسان عائدة به إلى ذاته، وإنما تنطلق به إلى خارج نفسه حيث الحرية المطلقة. وما أراد محمد هو عكس هذا على خط مستقيم».

من: الحواشي والتذييلات على «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» لجوته.

وقد انتوى جوته في ديسمبر عام ١٨٢٤ أن يعلق على «ألف ليلة وليلة» في مجلة «الفن والحضارات القديمة» (Kunst und Altertum)؛ وفي نهاية ديسمبر من نفس العام دوّن هذه الكلمات:

«ألف ليلة وليلة. (طبعة) بريسلاو. روعة ورؤيا. يبتهج لها العالم والجاهل».

وهو يكتب في مسودة أحد تعليقاته على ألف ليلة وليلة (عن نفس الفترة): «المادة واقعية، راهنة

ولا شك، كثيرا ما يفعم غناها الذي بلا ضفاف، ولا يثقل أبداً.
المعالجة الخيالية تحرر الفكر، وإن راحت تطوف على الدوام في حلقة معينة.
الأنفاس العاطفية التي في القصائد تجمع الأشتات، عائدة إلى الإحساس الذاتي بما لا يحتمل المقاومة.
وعليه يتعسر أن يوجد ما يفوق هذا الأثر أهمية وخطورة».

جيورج كريستوف ليشتنبرج(*) George Christoph Lichtenberg

● «إن في ألف ليلة وليلة من العقل السليم ما يزيد على ما لدى الكثيرين ممن يتعلمون العربية، وإلا لكانت بين أيدينا ترجمة سائر أجزائها».

الأخوان جريم Die Brüder Crimm

● «تبين الأخوان يعقوب وفيلهلم جريم أن ثمة علاقة تربط بين ألف ليلة وليلة وبين ثمانية من الأساطير الشعبية الألمانية التي قاما بجمعها، وهي: «السماك وزوجته» (De Fisher un sine Fru)، و «المحتال ومعلمه» (De Gaudeif un sien Meester)، و «ستة في رحلة حول العالم» (Sechse kommen durch die ganze Welt)، و «الجبل الذهبي» (Der goldene Berg)، و «العصافير الثلاث» (De drei Vügelkens)، و «ماء الحياة» (Das Wasser des Lebens)، و «الروح الذي في الكوب» (Der Geist im Glas)، و «زيمليبرج» (Simeliberg). ويعلق الأخوان جريم على ألف ليلة وليلة في مجلدهما الذي أصدراه عام ١٨٢٢ ليستكملا به كتاب «أقاصيص للبيت وللأطفال» (Kinder-und Hausmärchen) بقولهما: «إنها تحمل في عمومها طابع الأساطير، جادة ومرحة، وهي لإن كانت قد ارتبطت بزمان معين ومكان محدد بفعل بعض الظروف التاريخية، وخاصة بهارون الرشيد ذائع الصيت، فإن ذلك لم يحل دون انتفاض خيالها، من جهة أخرى، على طويته وراحته. ومن ثم نلمس فيها تكويناً مقصوداً، فهي لا يمكن أن تعد تراثاً تاريخياً خالصاً، ومثال ذلك رحلات السندباد التي تشكل في مجموعها أوديسة صغيرة. (...) إن معظمها يتألف من أساطير بديعة المضمون، شيقة العرض، فيها حلاوة رقيقة. حتى أنه ليصعب على المرء أن يشبع من إطراء هذه الألوان المتوهجة، وذلك العطر الذي يفوح من خيال مزدهر لا تعكير فيه ولا تشويش، وتلك الحياة التي تتنفس من كافة الأنحاء والأرجاء».

هرمان بروخ(**) Hermann Broch

● يعالج في مقالة له حول الأعمال النثرية لهوفمنستال علاقة هذا الشاعر الكبير بألف ليلة وليلة فيقول:
«.. ذلك أن قالب الأسطورة يوافق مواهب وحدود هوفمنستال، وليس أخيراً ما يتميز به من بصرية وكتمان للذات. والأساطير الشرقية على وجه الخصوص بصرية إلى أقصى الحدود لما فيها من سحر يكاد أن يشابه زخارف السجاد، فشخوصها ليست أفراد، ولا هي بالأنا محمولة ولا تحمل «أنا»، إنما هي أنماط مرئية خالصة؛ فهي «الـ» خليفة، و «الـ » وزير، وابن التاجر «الـ» شاب، و «الـ» سقاء، وهي عرائس زجاجية تبدو وكأنها بلا ثقل، شفافة وبدون ظل: فهي شخوص بشرية صغيرة من صنع الخيال قد تستطيع يد راوي الأسطورة الممسكة بخيوطها أن تنفخ فيها حياة علوية عجيبة تبدو وكأنها قابلة للرؤية مع أنها ظاهرية منتحلة، ولكنها لا تستطيع مع ذلك أن تتغلب على زوال الثقل والظل من مسرح العرائس المضاء والحائم حولها؛ فطريقة الرؤية البصرية في الأسطورة راسخة لا ترتج».

ترجمة: مجدي سوف

(*) ولد عام ١٧٤٢ وتوفي في ١٧٩٩. كان أستاذاً للفيزياء في جامعة جوتنجن، وفيلسوفاً، وناقداً ساخراً، وأديباً لامعاً في عصره. ونلمس من العبارة التي أوردناها عنه مرارة سخريته إذ كانت ألف ليلة وليلة لم تترجم كاملة إلى اللغات الأوروبية بعد. (المترجم).

(**) شاعر نمسوي وكاتب روائي. ولد عام ١٨٨٦. تأثر بجيمس جويس. هاجر إلى أميركا، وتوفي في ١٩٥١. (المترجم).

صور من كفاح عرب الخليج في عصور ما قبل الإسلام

خالد بن محمد القاسمي

□ آثار السومريون في منطقة الرافدين، على بعد كيلومترات قليلة من الكويت. (متحف بغداد)

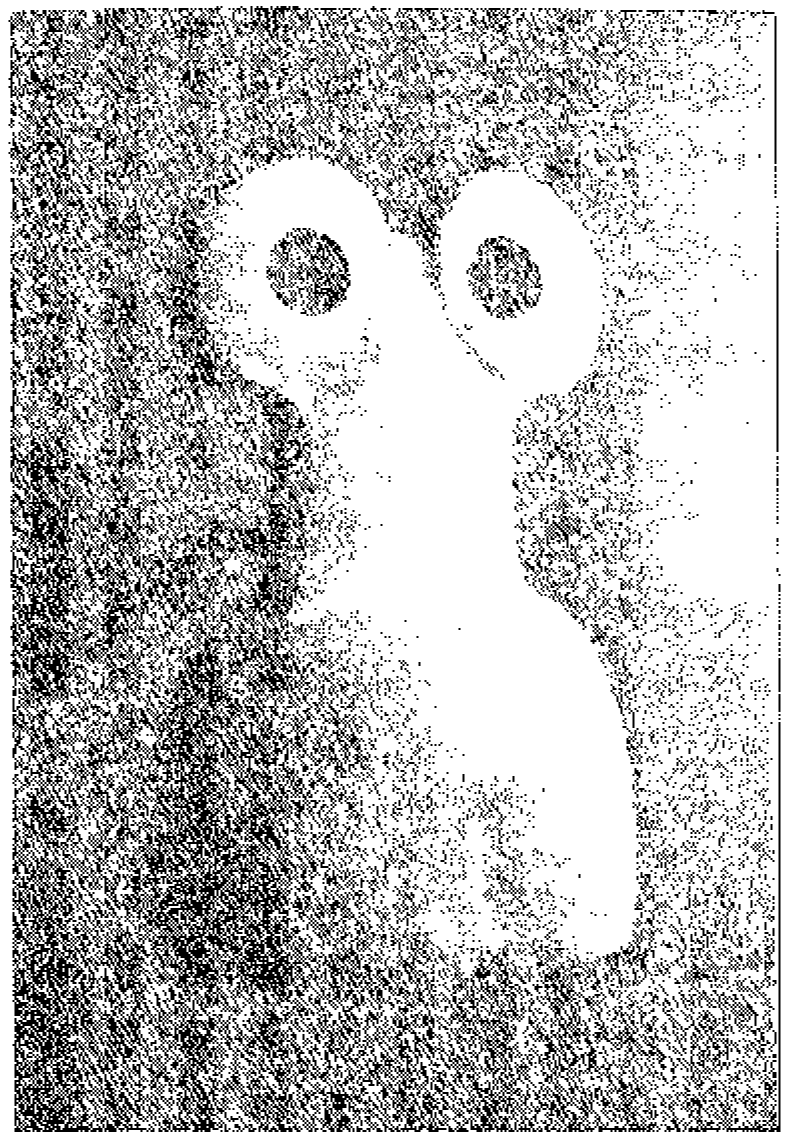

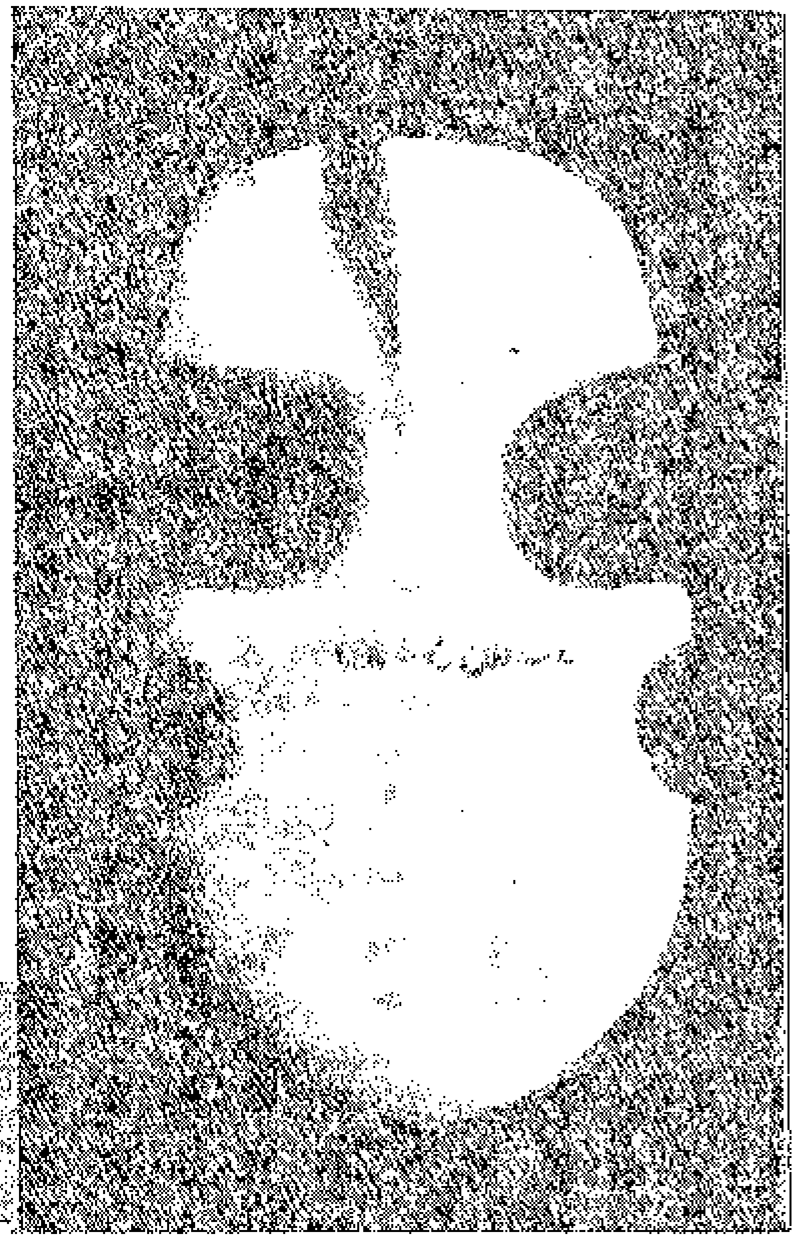

إن للخليج العربي أهمية كبيرة من نواحٍ عدة، لهذا فقد أصبحت هذه المنطقة محط أنظار جميع الدول الكبرى منذ العصور القديمة إلى عصرنا هذا كما أن سمات الخليج كانت وما تزال عربية في مختلف المناحي.

فقد عاش الإنسان العربي على سواحله منذ العصور الحجرية القديمة. وقد أيدت المكتشفات الآثارية التي اكتشفت في مناطق مختلفة منه آثاره. كما جاء ذكر لأقوام عربية مدوناً في الواح السومريين[1] وهذا يدفعنا إلى القول بأن العرب هم شعب هذا الساحل منذ العصور القديمة وقد ذكروا في العصر السومري ــ نتيجة للصلات التجارية ــ وهذه أقدم إشارة عن العرب ترد إلينا، كما أن الشعب المعيني الذي تطورت حضارته في اليمن كان في الأصل من البحرين وللتقارب والتشابه اللغوي بين العرب وسكان العراق ساعد في تنمية الصلات السياسية والتجارية. ولم يكن لعرب الخليج في العصور القديمة دولة قوية[2] مما جعلهم يدفعون الأتاوة إلى حكومات العراق القديم. وبدفعهم الأتاوة أبعدوا عنهم خطر تهديد المواصلات التجارية طيلة حكم الساميين في وادي الرافدين.

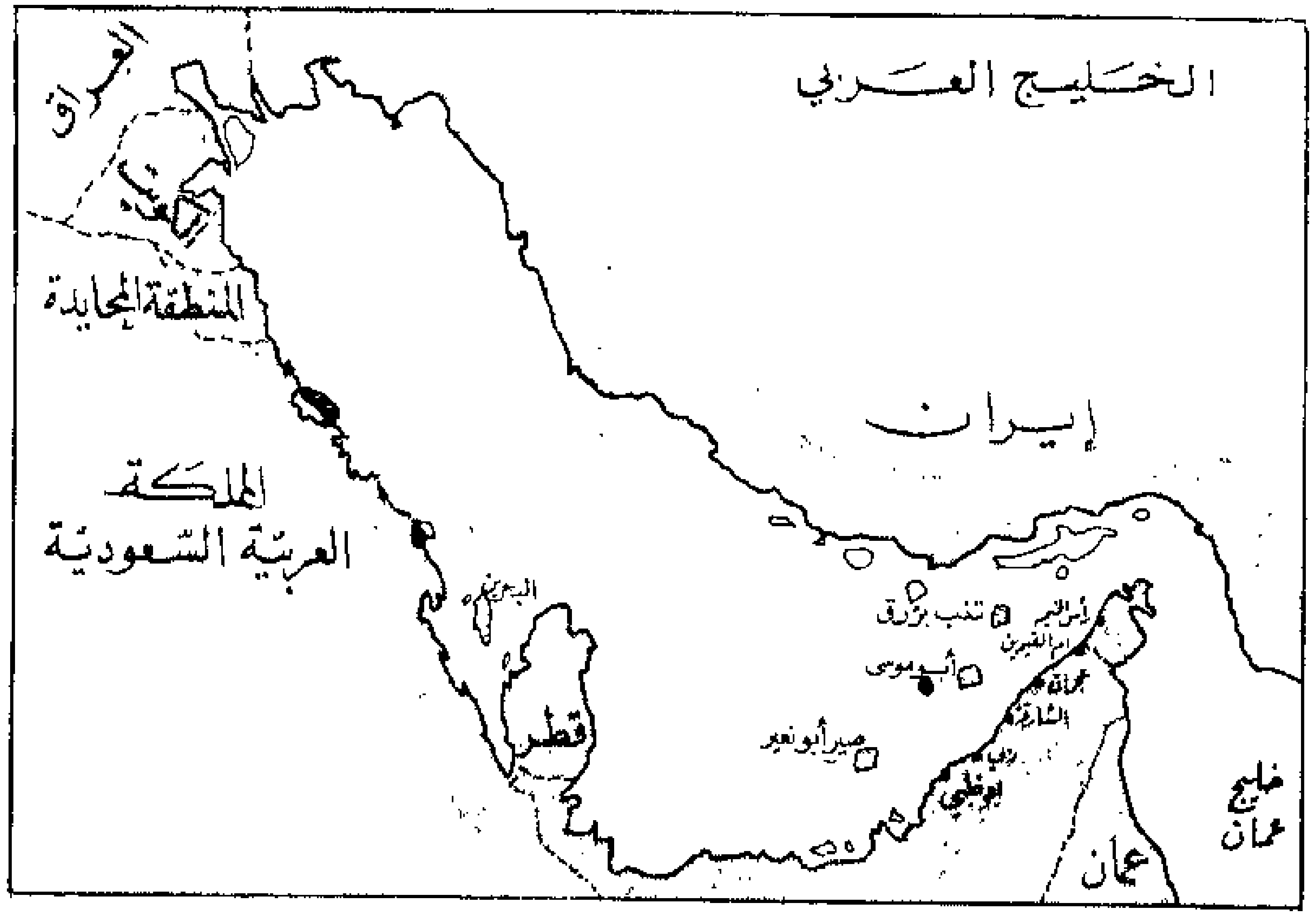

□ خريطة الخليج العربي.

بعد أفول الدولة الكلدانية وسقوط بابل على يد الأخمينيين سنة ٥٣٨ ق.م. بقي الخليج العربي بعيداً عن تحديات هذه الدولة لأنها لم تكن ذات عناية أو أثر واضح على الخليج العربي[3].

وبمجيء الاسكندر الكبير إلى الشرق تبلورت الاطماع الأجنبية بصورة واضحة في الخليج العربي بمشاريعه التي جاء بها لاحتلال شبه الجزيرة العربية ولاكتشاف سواحل الخليج العربي ولهذا فقد قام بما يلي:

١ ــ تحسين الملاحة في نهر الفرات والنهوض بميناء بابل إلى ما كان عليه في العصر الكلداني[4].

٢ ــ بناء مدن باسم الاسكندرية في هذه المنطقة لتكون محطات تجارية مهمة منها مدينة الاسكندرية (حاراكس)[5] والتي نرى أن الدوافع الرئيسية التي حدت به إلى تأسيسها كانت عسكرية وبحرية.

٣ ــ إرسال البعثات الاستطلاعية لمعرفة سواحل الخليج العربي، من أجل السيطرة السياسية والاقتصادية فقد قام:

(أ) آرخاس البيلي برحلة بالخليج العربي وصلت حتى جزيرة (البحرين)[6].

(ب) أندروثينس الثاسوسي الذي مضت رحلته إلى ما هو أبعد بعض الشيء من رحلة سابقة[7].

(ج) هيرون الصولي: ــ الذي تذكر المصادر اليونانية أنه وصل إلى السويس.

(د) #الكسيكارتس: ــ الذي قام برحلة عكس تلك الثلاث إذ أبحر من مصر قاصداً

الخليج العربي لكنها فشلت.

(هـ) نيارخوس: ــ الذي صدرت له الأوامر بالطواف حول شبه جزيرة العرب، ولم يكن يبدأ رحلته حتى توفي الاسكندر في بابل سنة ٣٢٣ق.م، ولكن رغم ذلك لم يكتب لأطماع الاسكندر الكبير النجاح، وذلك لأن هذه الحملات فشلت بسبب لم تذكره المصادر اليونانية والذي نعتقده أن العرب قاوموا هذه الرحلات وأرغموها على الفشل. وبقيام الدولة السلوقية في العراق على أنقاض انقسام إمبراطورية الاسكندر عادت المحاولات من جديد للسيطرة على الخليج العربي. وفي هذه الفترة كانت الإمارة العربية (جرها) هي المسيطرة على الخليج العربي وكانت منظمة تنظيماً جيداً ولها علاقات تجارية مع جنوب شبه جزيرة العرب والهند من جهة ومع بابل والأنباط من جهة أخرى.

كما أن عرب جرها كانوا المجهزين الوحيدين إلى سلوقيا رغم أنها لم تكن مدينة سلوقية أبداً، لكنهم كانوا شركاء السلوقيين في التجارة داخل البلاد العربية.

ولعل ذلك يشبه إلى حد بعيد التعاون السلوقي النبطي من أجل المصالح الاقتصادية المشتركة.

ومن هنا ذكر المؤلفون الكلاسيكيون المدينة ووصفوا أهلها بأنهم أصحاب ثروة طائلة، وكانت أول إشارة لهم جاءت عند أجاثر خدس، ثم ذكرهم سترابون. كما جاء ذكرهم في حملة انيطوخس الثالث سنة ٢٠٥/ ٢٠٤ق.م والتي كان يبغي بها مد نفوذه على الخليج العربي، وبالدبلوماسية والحنكة السياسية أبعدت الإمارة العربية خطرهم عن الخليج[٨].

وما نستنتجه من المؤلفين اليونان والرومان أن أهل جرها عرب زاولوا الزراعة[٩]. كما زاولوا التجارة فكانوا الوسطاء الوحيدين للتجارة بين الهند وجنوب شبه الجزيرة وبين بابل والأنباط في الخليج العربي. مما يؤكد أنهم عرب وجود قائمة تعود إلى جرها وهي تحمل أسماء عربية صرفة من بينها اسم يتم اللات. وقد ذكر لنا الأخباريون العرب أن سكان الخليج العربي هم قبائل عربية منهم قبائل تميم التي جاء ذكرها في جغرافية بطليموس مع جرها[١٠] ثم قبائل عبدالقيس والتي ذكرها بطليموس باسم (Aboukaium)[١١].

كما ذكر بلينوس أسماء قبائل عربية مختلفة كانت تسكن على الجانب العربي[١٢].

وقد ذكر الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب) أن منطقة الجرعاء هي منازل لبني تميم ثم لسعد من بني تميم[١٣]، والظاهر من المصادر العربية أن هذه المنطقة مع كاظمة والبحرين وعُمان هي منازل تميم وعبدالقيس وبكر بن وائل والأزد[١٤].

ومما هو جدير بالملاحظة أن إمارة جرها بقيت مركزاً مهماً ومدافعاً أميناً عن عروبة الخليج طيلة العهد الهيلينستي. ولكن في بداية العهد الروماني أخذت هذه المنطقة تفقد أهميتها تدريجياً، لا سيما بعد أن تحولت خلجانها المائية إلى خلجان رملية، فانتقل أهلها إلى المراكز التجارية الأخرى. فانتقل قسم منهم إلى هرمز واستقروا فيها[١٥] إذ كانت مركزاً تجارياً هاماً في العهد الروماني[١٦] إضافة إلى مدينة خاراكس وفوراث، والتي يشغل فيها العرب مركزاً مرموقاً[١٧] وكانت مدينة خاراكس التي عرفت باسم ميسان فيما بعد[١٨] أهم هذه المدن على الخليج وأكبر ميناء تجاري مع الشرق[١٩] وقد كونت مملكة عربية باسم (مملكة كرخينيا) بعد أن قهر حاكمها العربي (Hyspaosimes) البلدان المجاورة[٢٠] كما كانت هذه المملكة العربية تتمتع بالاستقلال الذاتي طيلة العهد الروماني ــ الفرثي، ولها علاقات تجارية مباشرة مع تدمر وتأتيها الوفود المختلفة مثل الوفد الصيني الذي زار هذه المملكة من أجل التجارة[٢١] ومما هو جدير بالملاحظة أن سكان مدينة خراكس هم من العرب الذين استقروا في هذه المدينة قبل مجيء الاسكندر إلى الشرق. كما عدها بلينوس: بأنها أحد بلدان جزيرة العرب[٢٢] وأنها مأهولة بالعمانيين[٢٣].

كما ذكر أنيسوورث: بأنها تعود لأمير عربي زمن الاسكندر الكبير[٢٤] وكانت هذه الامارة مع المدن العربية الأخرى القوة المدافعة ضد دخول الأجانب عسكرياً إلى الخليج العربي، وقد اتجه العرب في مثل هذه الظروف إلى الاستيطان في جميع سواحل الخليج العربي. وقد ذكر أن العرب قبل العهد الساساني قد استقروا في

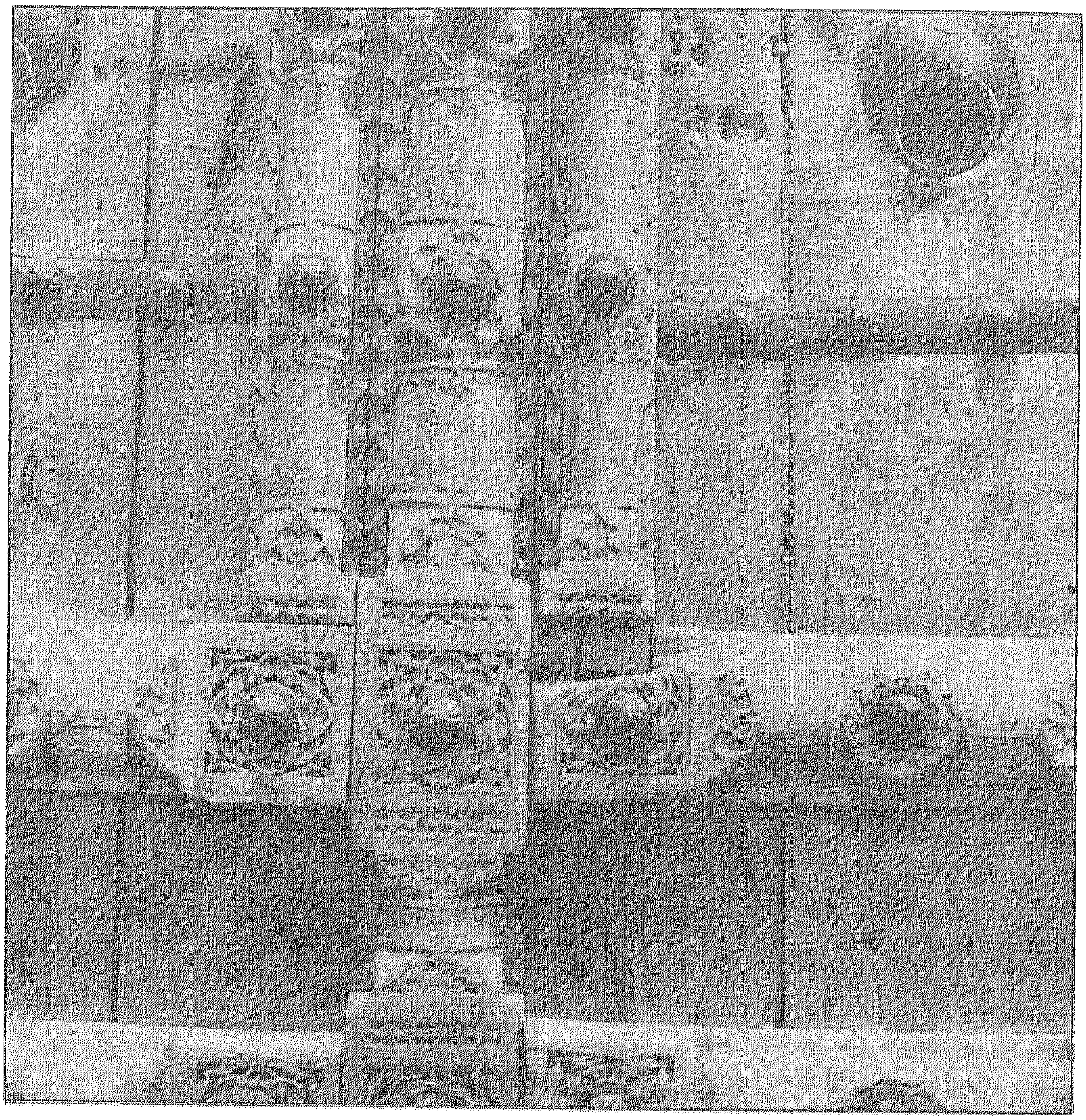

□ نقوش على باب قديم يعود للقرن السابع عشر. (تصوير روجيه فيوليه ــ Roger-viollet)

السواحل الجنوبية من إيران وهيمنوا عليها[٢٥] كما كان للقبائل العربية هناك أثر خطير قبل قيام الدولة الساسانية[٢٦].

حيث بسطوا نفوذهم وسلطانهم على كرمان، ويذكر كورثيوس رفوس أن العرب كانوا في العشرات الأولى من القرن الثالث الميلادي في كرمان وذارس. لذا لم نجد مقاومة عربية في الخليج العربي طيلة العهد الروماني ــ الفرثي وقبيل ظهور الدولة الساسانية لوجود العرب على ساحليه. ثم أن الفرثيين لم يكن لهم اهتمام في الخليج العربي بقدر ما انصب اهتمامهم على طريق الحديد الذي يربط الصين بدول الشرق الأدنى. لذا قاموا ببناء محطات تجارية تطورت إلى مدن مهمة مثل مدينة غولغاش قرب بابل.

أما في العهد الساساني ــ البيزنطي، وبالنظر لأطماع الساسانيين الفرس في الخليج العربي والسيطرة عليه، فإن مقاومة العرب اشتدت ضد هذا التدخل الأجنبي والأطماع التوسعية. وبعد أن وجد عرب الخليج أن الفرس الساسانيين يحاولون ويخططون لاحتلال مناطق الخليج العربي وضرب النفوذ العربي فيه.

فقد قاومت إمارة ميسان العربية الملك

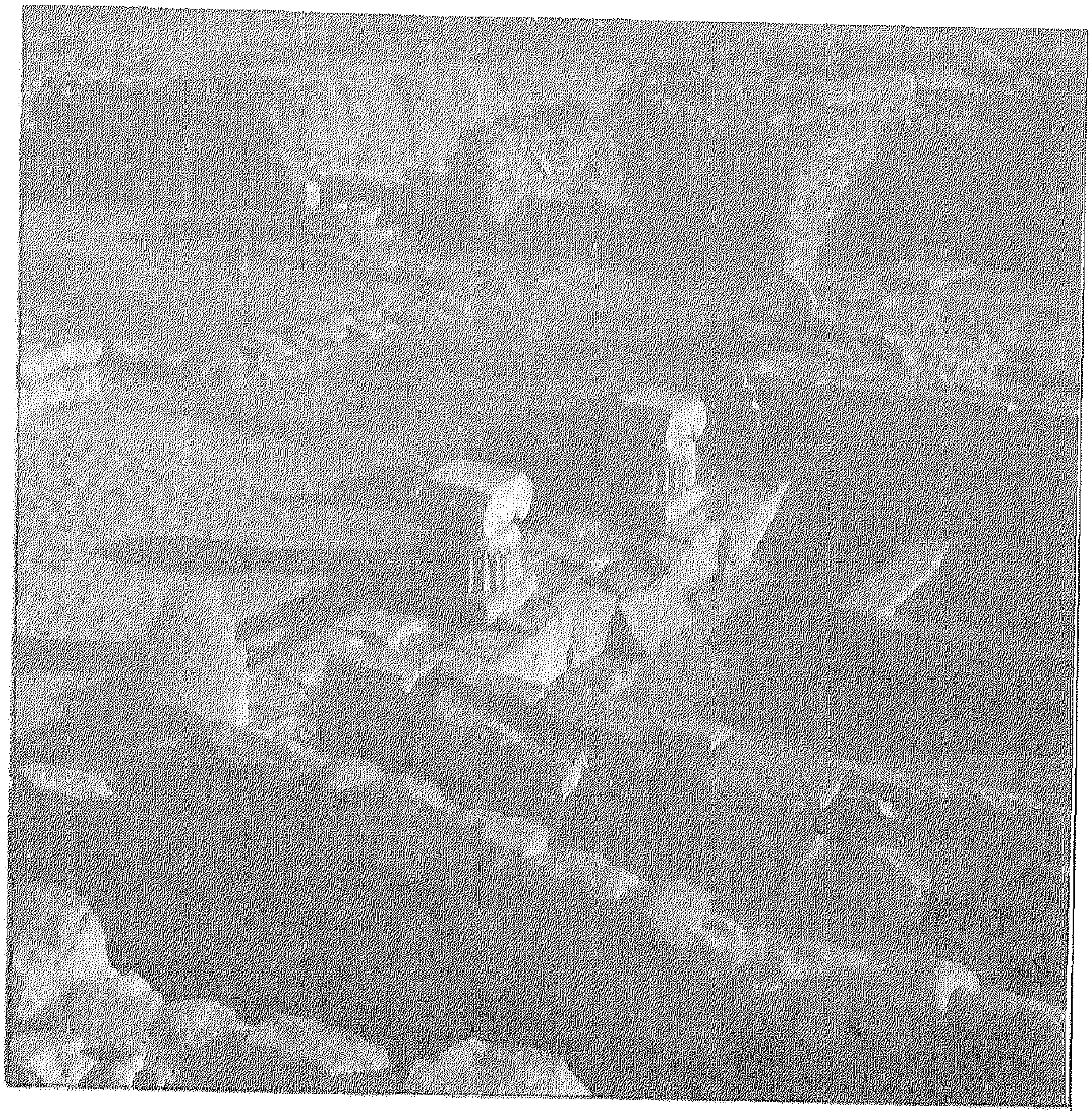

□ بقايا من معبد يوناني في جزيرة فيلكا الواقعة في خليج الكويت.

الساساني أردشير مقاومة ضارية ولم يستطع احتلالها إلا سنة ٢٢٦م وقتل آخر حاكم عربي فيها ثم أننا نجد القبائل العربية في الخليج العربي أخذت تقاوم النفوذ الساساني الذي بدأ يمتد إليه إذ هاجمت قبائل تميم وعبدالقيس حدود الفرس مما دفع سابور الثاني سنة ٣٥٠م إلى مهاجمتهم وغزوهم.

كما ثار عرب البحرين ضد الفرس ويذكر الطبري: أن سابور في حملته على البحرين قضى على المقاومة العربية وقتيبا وبعد الصلح أسكن قبائل تغلب وعبدالقيس وبكر بن وائل منطقة كرمان[٢٨] وبني حنظلة بالرميلة من بلاد الأهواز، وما هذا في الواقع إلا امتداد للوجود العربي والذي سبق هذه الفترة[٢٩].

وقد تجدد كفاح العرب للساسانيين إذ هاجمت قبائل تميم قافلة تجارية ساسانية مما دفع بكسرى ايحسرويز أن يكتب إلى عامله على (هجر) وهو المكعبد أن ينتقم من تميم[٣٠].

والظاهر أن العرب استمروا في مقاومتهم للوجود الساساني ورغم أن قسماً من العرب أرغموا على الاشتراك بالأسطول الساساني، ويذكر لنا رينو: أن العرب اشتركوا مع الفرس في تكوين بحرية فارسية جديدة بالاعجاب[٣١].

لقد كان نفوذ الساسانيين في الخليج العربي نظرياً أكثر منه فعلياً، إذ كانت البحرين تخضع لحكم الساسانيين عند ظهور الاسلام أما حاكمها الفعلي فهو رجل من العرب على دين النصرانية. كذلك لم يحتكر الفرس الملاحة في الخليج العربي، فلدينا اشارات تفيد أن هناك أناساً من العرب يمتلكون السفن التي كانت تبحر في الخليج العربي إذ وردت إشارة إلى تلك السفن في معلقة طرفة بن العبد[٣٢]:

عدولية أو من سفين ابن يامن
يجور بها الملاح طوراً ويهتدي

فسفن عدوليه كما تذكر المراجع نسبت إلى قرية عدولي في البحرين[٣٣] وليس نسبة إلى ميناء أدولس في الحبشة[٣٤] ثم أن ابن يامن يملك سفن تبحر في الخليج العربي أيضاً. يضاف إلى ذلك السفن التغلبية[٣٥] التي أشار إليها عمرو بن كلثوم في معلقته:

ملأنا البر حتى ضاق عنا
وماء البحر نملؤه سفينا[٣٦]

ثم الاشارات الكثيرة إلى الملاحين من قبائل الأزد، التي اعتمدت عليها القوات الاسلامية في حملاتها على السواحل الشرقية في الخليج العربي والهند[٣٧]. ●

الهوامش

(١) إذ جاء ذكر سبأ (دولة سبأ العربية) في النصوص السومرية راجع: د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، بيروت ١٩٦٨ ــ ١/٥٤٤.
(٢) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام.
(٣) ت. ويلسن: الخليج العربي: تعريب د. عبدالقادر يوسف، الكويت، مكتبة الأمل، ص ٨٣.
(٤) د. أسد رستم: تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني إلى الفتح الروماني. بيروت ١٩٦٩، ص ٣١.
(٥) المصدر نفسه، ص ٤٦.
(٦) ويلسن: الخليج العربي، ص ٩٧، والدكتور أسد رستم: تاريخ اليونان، ص ٤١.
(٧) المصادر نفسها.
(٨) جورج فضلوا حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة د. يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨، ص ٤٥.
(٩) والظاهر أن الجرهيين كانت لهم قرى كما بنوا لهم ابراج ويمكن أن يكونوا قد زاولوا الزراعة قبل دخولهم في نزاحات حربية.
(١٠) نقلاً عن د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب ١٨/٢.
(١١) المصدر نفسه ٤/٤٨٥.
(١٢) بيلينوس: بلاد العرب من تاريخ بيلينوس. ترجمة محمود شكري محمد (مجلة المجمع العلمي العراقي) المجلد الثالث ١٩٥٤، ص ١٤١.
(١٣) الهمداني: صفة جزيرة العرب. تحقيق ابن النجدي، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٧٣.
(١٤) الطبري: تاريخ ٢/٥٧، ودائرة المعارف الاسلامية ج ٤١ ٥/٤٧٤ و ٢/٣٧ و ٤/٤١.
(١٥) عبدالرزاق الحصان: الامارة العربية في ميسان، مجلة المجمع العلمي العراقي م ٣، ص ٢٠١ وما بعدها.
(١٦) د. منذر البكر. العرب والتجارة الدولية منذ أقدم العصور إلى نهاية العصر الروماني: مجلة المربد، عدد ٤ البصرة ١٩٧٠، ص ٨٦.
(١٧) حوراني: العرب والملاحة، ص ٤٨.
(١٨) هي مدينة الاسكندرية والتي بناها الاسكندر الكبير سنة ٣٢٤ق. م وتعرف كارخ بالأرمية، للتفصيل راجع: ش. أ. نورلمان، ميسان. ترجمة فؤاد جميل، مجلة الأستاذ م ١٢، بغداد ١٩٦٤، ص ٤٤٥.
(١٩) كذلك كان أكبر ميناء بالنسبة للبحار الجنوبية.
(٢٠) وقد وجدت له نقود تحمل تاريخ ١٢٤، ١٢٣ ق. م.
(٢١) نورلمان: ميسان، مصدر سابق ذكره، ص ٤٥٧، ٤٦١.
(٢٢) بيلينوس، مصدر سابق، ص ٢٠٢.
(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٣٠.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٣١.
(٢٥) عبدالرزاق الحصان: ميسان الامارة العربية، ص ٢٠٢.
(٢٦) ذهبت أعداد كبيرة عن طريق البحر من قبائل عبدالقيس من البحرين وكاظمة، لمزيد من التفصيل انظر:
الدينوري، الأخبار الطوال، القاهرة ١٩٦٠، ص ٨٤، والطبري: تاريخ الرسل والملوك. ط. دار المعارف ١٩٦٨ ٢/٥٥.
(٢٧) أرثر: كريستنس: إيران في عهد الساسانيين، ترجمة د. يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٧، ص ٧٥.
(٢٨) الطبري: تاريخ ٢/٥٧ وحوراني: العرب والملاحة، ص ٩١.
(٢٩) الطبري: تاريخ ٢/٥٧، ودائرة المعارف الاسلامية ٤/٤٣.
(٣٠) إذ أن العرب نزحوا من السواحل الجنوبية من ارض فارس وتوغلوا شرقاً إلى خوزستان ثم كرمان وفارس.
(٣١) الطبري: تاريخ ٢/١٦٩/١٧٠.
(٣٢) الدكتور جواد علي: المفصل في تاريخ العرب ٢/٦٤٨.
(٣٣) ديوان طرفة بن العبد: ترجمة د. علي الجندي، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٣.
(٣٤) يذكر ابن منظور عن الأصمعي أنها قرية بالبحرين. ويقول التبريزي جزيرة أسفل من أوال وأوال أسفل من عمان. التبريزي: شرح القصائد العشر. ترجمة محي الدين عبدالحميد، مصر ١٩٦٤، ص ١٣٦.
(٣٥) مجلة المربد: العدد الرابع، البصرة ١٩٧٠، ص ٦٥.
(٣٦) د. صالح أحمد العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ط ٢، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٧٦.
(٣٧) البيت في معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي. انظر: شرح القصائد السبع لابن الأنباري.

إتفاق بين مصر وانكلترا على السودان (١)

□ بطرس غالي باشا.

وقع يوم ١٩
كانون الثاني
سنة ١٨٩٩

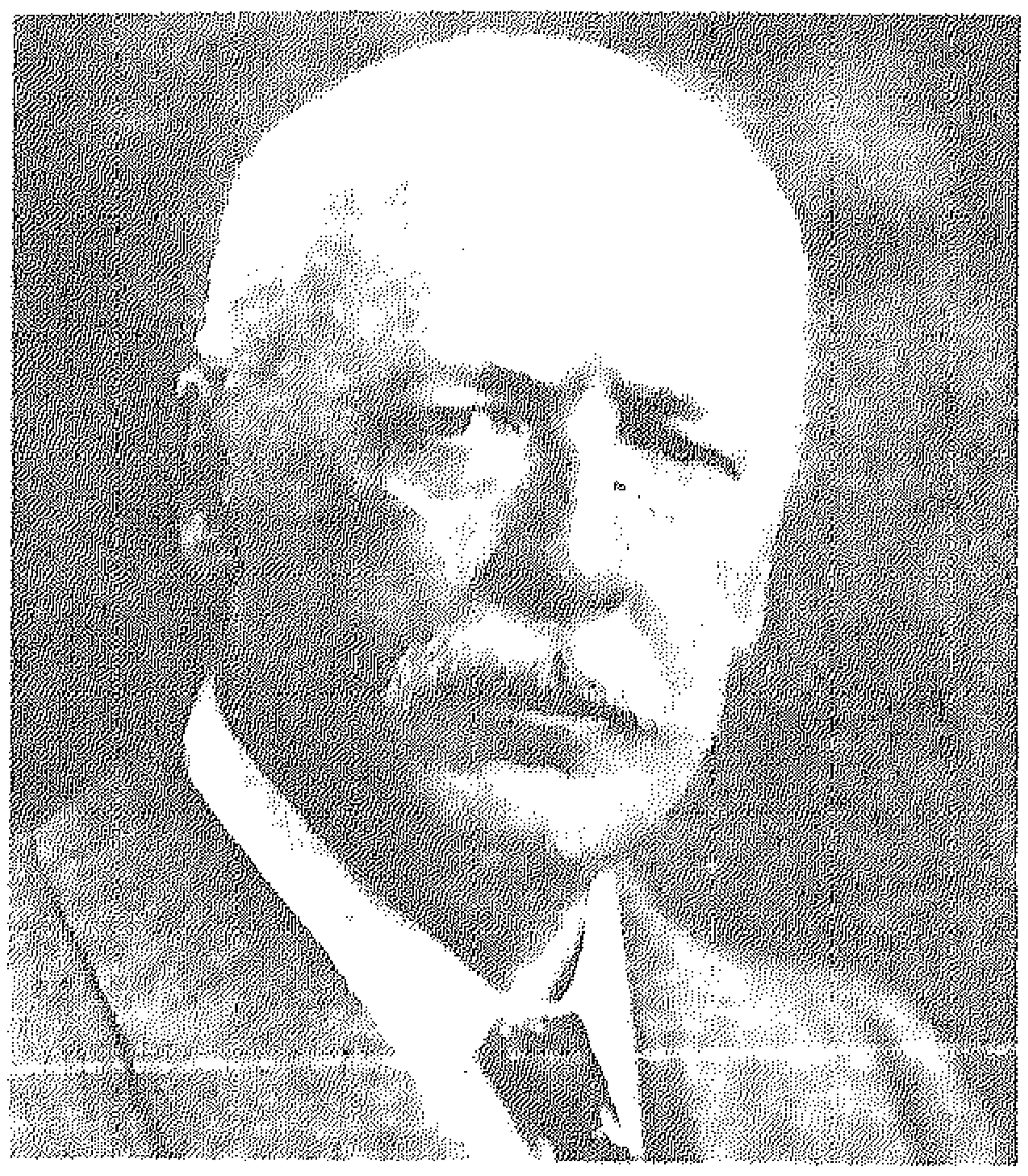

□ اللورد كرومر.

اعداد شذا عدرة

تمثل الفترة الممتدة من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٣٦، ذروة نشاط الاستعمار البريطاني في كل من مصر والسودان.

ففي أعقاب الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢، تدخلت انكلترا في شئون السودان وفرضت على الحكومة المصرية إخلاءه في عام ١٨٨٥، ومن ثم استرداده في عام ١٨٩٦، كما فرضت اتفاقية عام ١٨٩٩ التي تمت بموجبها استعادة السودان باسم إعادة الفتح، وجعلت من انكلترا شريكاً مع مصر في إدارة شؤونه. وظل النزاع قائماً بين مصر وبريطانيا حول تبعية السودان حتى عام ١٩٣٦، حيث ظهرت فكرة وحدة وادي النيل على يد الأحزاب الوطنية في مصر، وتبعها عقد معاهدة ١٩٣٦.

وفيما يلي نص اتفاقية عام ١٨٩٩ التي وقعت يوم ١٩ كانون الثاني/ يناير سنة ١٨٩٩ وتمّ إلغاؤها في تشرين أول/ أكتوبر ١٩٥١.

(١) وقع اللورد كرومر باسم انكلترا، وبطرس باشا غالي باسم مصر في ١٩ كانون الثاني سنة ١٨٩٩ هذا الاتفاق.

«حيث أن بعض أقاليم السودان التي خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التي بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الانكليز والجناب العالي الخديوي.

وحيث قد أصبح من الضروري وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه من الجانب العظيم من تلك الأقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال إلى الآن وما تستلزمه حياة كل جهة من الجهات المتنوعة.

وحيث أنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المرتبة على ما لها من حق الفتح وذلك بالاشتراك في وضع النظام الإداري والقانون الآنف ذكره، وفي إجراء تنفيذ فعوله وتوسيع نطاقه في المستقبل.

وحيث أنه تراءى من جملة وجوه أصوبية إلحاق وادي حلفا وسواكن إدارياً والأقاليم المفتتحة المجاورة لها.

فلذلك قد صار الاتفاق والاقرار فيما بين الموقعين على هذا بما لهما من التفويض اللازم لهذا الشأن على ما يأتي:

المادة الأولى ــ تطلق لفظة السودان على جميع الأراضي التي لم تحتلها الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٣، والأراضي التي كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل الثورة الأخيرة وفقدت منها مؤقتاً، ثم فتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد، والأراضي التي تفتحانها بالاتحاد من الآن فصاعداً.

المادة الثانية ــ يستعمل العلم البريطاني والعلم المصري معاً في البحر والبر بجميع أنحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها سوى العلم المصري.

المادة الثالثة ــ تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان إلى موظف واحد بلقب «حاكم عموم السودان» ويكون تعيينه بأمر عال خديوي بناء على طلب حكومة جلالة الملكة، ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوي يصدر برضاء الحكومة البريطانية.

المادة الرابعة ــ كافة القوانين، وكافة الأوامر واللوائح التي تكون لها قوة القانون المعمول به والتي من شأنها تحسين إدارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها، وكيفية أولويتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحويرها أو نسخها من وقت إلى آخر بمنشور من الحاكم العام.

وهذه القوانين والأوامر واللوائح يجوز أن يسري مفعولها على جميع أنحاء السودان أو على جزء معلوم منه، ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمناً تحوير أو نسخ أي قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة.

وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل إلى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة، وإلى رئيس مجلس نظار الجناب العالي الخديوي.

المادة الخامسة ــ لا يسري على السودان أو على جزء منه شيء ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التي تصدر من الآن فصاعداً إلا ما يصدر بأجزائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السابق بيانها.

المادة السادسة ــ المنشور الذي يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرح للأوروبيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكن بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أوروبية.

المادة السابعة ــ لا تدفع رسومات الواردات على البضائع الآتية من الأراضي المصرية حين دخولها إلى السودان، ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الأراضي المصرية، إلا أنه في حالة ما إذا كانت تلك البضائع آتية إلى السودان عن طريق سواكن أو أية ميناء آخر من موانيء ساحل البحر الأحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التي تحصل عليها عن القيمة الجاري تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة إلى البلاد المصرية من الخارج، ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التي تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت إلى آخر بالمنشورات التي يصدرها بهذا الشأن.

المادة الثامنة — فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة الحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان، ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه.

المادة التاسعة — يعتبر السودان بأجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الأحكام العرفية ويبقى كذلك إلى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام.

المادة العاشرة — لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأموري قنصليات بالسودان، ولا يصرح لهم بالاقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية.

المادة الحادية عشرة — ممنوع منعاً مطلقاً إدخال الرقيق إلى السودان أو تصديره منه، وسيصدر منشور بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن.

المادة الثانية عشرة — قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٣ تموز سنة ١٨٨٠ فيما يتعلق بإدخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والأشربة المقطرة والروحية وبيعها وتشغيلها. ●

● **المرجع: «الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب» أصدرته جريدة الأيام.**

أرسطو (٣٨٤ ق. م — ٣٢٢ ق. م.)

● ولد في ستاجيرا بمقدونيا. ذهب إلى أثينا في الثامنة عشرة. تتلمذ على أفلاطون. وضع نظرية وفلسفة الدولة المدينية متجاهلاً الثورة الكبيرة التي نشبت في عهده: ثورة الانتقال إلى العصر الهليني المقترنة بإقامة امبراطورية وضع مخططها الملك فيليب ملك مقاطعة مقدونيا اليونانية ونفذ المخطط نجله الاسكندر الكبير، ومن المفارقات العجيبة أن أرسطو كان معلم ومدرس الاسكندر الكبير.

يعتبر أرسطو من أكبر المفكرين الذين عرفهم العالم بشتى عهوده. يرى أن الانسان حيوان سياسي بطبعه وأن اكتمال الحياة الانسانية لا يكون إلا من خلال المجتمع السياسي. وتكون الحياة في مثل هذا المجتمع السياسي. وتكون الحياة في مثل هذا المجتمع موجهة وفقاً لقانون موضوع لصالح الفرد والمجتمع على السواء. ويكون هذا القانون هو المقياس الذي يقاس به صلاح الانسان المواطن. وهو يهتم من — الزاوية السياسية — بما يمكن تحقيقه عملياً في ظل الظروف القائمة في بلد ما ومن ثم فهو يعتبر الواقعية من أهم صفات رجل الدولة. ويقوم المجتمع السياسي الذي يدعو إليه أرسطو على الطبقة الوسطى التي يعتبرها العمود الفقري للمجتمع السياسي الذي يدعو إليه. وهو يؤثر بصورة عامة النظام الديمقراطي في الحكم، وعلى عكس أستاذه أفلاطون، يرفض أرسطو فكرة المستبد المستنير. كما يرفض الشيوعية الأفلاطونية. ويتمسك بالملكية الفردية وحقوق المواطن مع استثناء العبيد. وكان أرسطو يمثل فكرة العبودية. ويؤسس القانون على الطاعة. والطاعة على أساس الكرامة الفردية. يقسم أرسطو الحكومات إلى استبدادية وديمقراطية وثالثة وسط بين الاستبدادية والديمقراطية.

تنبأ أرسطو — قبل ماركس — بأن الصراع بين الأغنياء والفقراء هو سبب الثورات. وقال بتقسيم سلطة الحكومة إلى سلطة استشارية تختص بالتشريع والشؤون الخارجية وإلى إدارية — أي تنفيذية — وإلى قضائية. وقد سبق أرسطو أيضاً مفكري العصر الحديث إلى فكرة تقسيم السلطات الثلاث.

لا أسألكم عليه أجراً (*)

قال عثمان بن عطاء الخراسانيّ: انطلقت مع أبي نُريد هشام بن عبدالملك، فلما قرُبْنا إذا بشيخ على حمارٍ أسود عليه قميص دَنِس، وجُبّة دنِسة، وقلنسوة لاطِئةٌ[1] دنسة، وركاباه من خشب؛ فضحكت منه، وقلت لأبي: من هذا الأعرابي! قال: اسكت! فهذا سيدُ فقهاء الحجاز عَطَاء بن أبي رباح[2].

فلما قرب منا نزل أبي عن بَغْلته، ونزل هو عن حماره، فاعتنقا وتساءلا، ثم عادا فركبا وانطلقا حتى وقفا على باب هشام؛ فما استقرَّ بهما الجلوس حتى أذن لهما.

فلما خرج أبي قلتُ له: حدِّثْني ما كان منكما. قال: لما قيل لهشام: إن عَطَاء بن أبي رباح بالباب أَذِن له؛ فوالله ما دخلتُ إلا بسببه.

فلما رآه هشام قال: مرحباً مرحباً! ههنا، ههنا، ولا زال يقولُ له: ههنا ههنا، حتى أجْلَسه معه على سريره، ومسَّ بركبته ركبته — وعنده أشرافُ الناس يتحدثون فسكتوا. فقال له: ما حاجتك يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين، أهل الحرمين أهلُ الله وجيرانُ رسوله تُقَسِّم عليهم أرزاقهم وأعطياتهم. قال: يا غلام: اكْتُب لأهلِ مكة والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لِسَنَة.

ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد! قال: نعم، يا أمير المؤمنين، أهلُ الحجاز وأهلُ نجد هم أصلُ العرب، وقادةُ الاسلام، تردُّ فيهم فضولَ صدقاتهم. قال: نعم! يا غلام اكتب بأن تُرَدَّ فيهم فضول صدقاتهم. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أميرَ المؤمنين؛ أهلُ الثغور يَرُدُّون من ورائكم، ويقاتلون عدوّكم، تُجْرِي لهم أرزاقاً تدرّها عليهم؛ فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور. قال: نعم، يا غلام، اكتب بحمل أرزاقهم إليهم، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين: أهل ذمتكم لا يُكلَّفُون ما لا يطيقون؛ فإن ما تَجْبونه منهم معونةٌ لكم على عدوكم. قال: نعم، يا غلام: اكتب لأهل الذمة بألا يكلَّفوا ما لا يطيقون! هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، اتَّقِ الله في نفسك، فإنك خُلِقْتَ وحدك، وتموت وحدك، وتُحْشَر وحدك، وتحاسَبُ وحدك، ولا والله ما معك ممن ترى أحدٌ!

فأكبَّ هشام يَنْكُت[3] في الأرض، وهو يبكي، فقام عطاء.

فلما كنا عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس لا أدري ما فيه؛ فقال: إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا. فقال: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إنْ أَجْرِيَ إلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمينَ، فوالله ما شرب عنده قَطْرَة ماء. ●

(*) غرر الخصائص: ١١٧.

(١) لاطئة: لازقة.

(٢) تابعي من أجلاء الفقهاء، ولد باليمن ونشأ بمكة، فكان مفتي أهلها، ومحدثهم، وتوفي فيها سنة ١١٥هـ.

(٣) النكت: قرعك الأرض بعود او بإصبع، وهو فعل المفكر المهموم.

ابن باديس، عبدالحميد (١٨٨٧ — ١٩٤٠)

● رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر ١٩٣١، ولد في قسنطينة بالجزائر وتعلم في الزيتونة بتونس. أصدر مجلة «الشهاب». هاجم الاستعمار ورفض تولي أية مناصب دينية. أنشأ كثيراً من المدارس لتعليم العربية والحفاظ على الدين الاسلامي، فحفظ للجزائر عروبتها. ألف تفسيراً للقرآن. وتوفي بقسنطينة.

ليوناردو

د. رياض العالي

كان ليوناردو الابن غير الشرعي للسيد بيرو (Piero) الكاتب بالعدل من امرأة تدعى كاترين (Caterina) وقد ولد في فينشي (Vinci) عام ١٤٥٢. وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره انتقل أبوه إلى فلورانسا (Firenze) وألحقه بمرسم فيروكيو (Verrocchio). هناك برز ليوناردو بين أقرانه التلامذة بسبب مستوى أبيه الاجتماعي وبسبب حسن ثقافته وشخصيته الفريدة، وفوق هذا وذاك بسبب قدرته الأكيدة على الرسم. وكان أشهر عمل له بالاشتراك مع فيروكيو هو عمادة المسيح (صالة افيزي Uffizi). ففي هذه اللوحة رسم ليوناردو الملاك النحيل الأشقر الجميل والموجود على يسار اللوحة. كما رسم جزءاً من المنظر الطبيعي فوق رؤوس الملائكة حيث تتماوج المياه والجبال لتمتزج بالوشاح الرقيق للجو. ويظهر الأسلوب الفلورانسي حتى في أعماله المستقلة مثل لوحات السيدة العذراء الموجودة الآن في ميونيخ ولينغراد، والبشارة التي تشبه إلى حد كبير التوابيت البرونزية التي صنعها الأخوان جيوفاني وبيرو دو ميديتشي (Giovanni e Piero de Medici). ويستطيع المرء أن يرى في جناحي الملاك خلاصة دراسته عن طيران الطيور. وقد كتب ليوناردو في مخطوط طيران الطيور: أن الطائر العظيم سيطير وسيملأ شهرته العالم. وفضلاً عن أن هذه النبوءة تحققت فيما بعد فإن كلماتها

□ الملائكة والمنظر الطبيعي وهو الجزء الأيسر من لوحة عمادة المسيح للرسام فيروكيو Verrocchio — صالة اوفيزي Uffizi — فلورانس — ايطاليا (١٧٧ × ١٥١ سم)

عهد إلى «فيروكيو» رسم لوحة «عمادة المسيح» في العقد الثامن من القرن الخامس عشر وقد أوكل «فيروكيو» إلى تلميذه ليوناردو Leonardo رسم الملاك الموجود على اليسار والمنظر الطبيعي في خلفية اللوحة وتمثل هذه اللوحة مرحلة من اهم مراحل تاريخ الديانة المسيحية. وهي تقثل المسيح للتعميد المقدس من المعمد القديس جوفاني Giovanni في نهر الأردن.

تعبر عن رغبته في أن يفهم آلية عمل الجناح، ذلك السر الذي كان يجعله يحلم في أن يجعل طيران الإنسان أمراً ممكناً.

إلى هذه الفترة تعود الصورة المسماة جنيفرا بنشي (Ginvera Benci) فادوز (Vaduz)، صالة ليختنشتاين (Gall. Liechtenstein) وفيها يظهر السعي الدائب وراء الدقة الفيزيولوجية الذي امتد من الأسلوب الفلمنكي إلى الأسلوب الفلورانسي في التصوير لتلك الفترة.

في عام ١٤٧٢ أصبح ليوناردو عضواً في نقابة الرسامين في فلورانسا، وفي عام ١٤٧٦ شهرت به الرقابة الليلية واتهم بمسلكه اللاأخلاقي، إلا أنه بُرِّىء من التهمة. وفي عام ١٤٨٠ عهد إليه رهبان دير سان دوناتو اسكوبيتو بإعداد نقوش المذبح لكنيستهم. وأطلق على هذا العمل اسم تعبد المجوس (صالة اوفيزي) غير أنه لم يستطع إنهاءه بسبب سفره إلى ميلانو.

تبرز الرسوم في التعبّد كأجرأ تأليف قام به ليوناردو حتى لو قورنت تلك اللوحة بلوحاته المتأخرة مثل لوحة سيدة الصخور ببنائها الهرمي أو لوحة العشاء الأخير بتقسيمها إلى ثلاثات.

، : عذراء القرنفلة أو العذراء والطفل ـ ميونيخ Munich ـ التي بيناكوتيك Alte Pinakothek

هي من اوائل اعمال ليوناردو وهي متواضعة الحجم (٤٧ × ٦٢ سم) يمثل موضوع اللوحة احد اكثر مواضيع الفن العربي انتشارا في تلك المرحلة، حيث مثل فنانو ذلك العصر السيدة العذراء مريم والطفل المسيح بعدة طرق مختلفة. غالبا ما يعتبر هذا العمل واحدا من عملين دعي كل منهما «العذراء مريم» وكان ليوناردو قد رسمها على حاشية أحد رسومه في عام ١٤٧٨. يظهر في الرسم تأثر ليوناردو بأسلوب فيروكيو وذلك في البناء المتماسك للاشكال، غير أن باستطاعة المرء أن يلاحظ فروقا دقيقة في الضوء المنتشر على الثياب والأجساد والأزهار

بعث بها لورنزو العظيم (Lorenzo il Magnifico) إلى بلاط لودوفيكو المورو (Ludo-vico il Moro) سيد ميلانو ليقدم إليه قيثارة. وكان ليوناردو هو الوحيد الذي يستطيع العزف عليها. وبعد انتهاء مهمته بقي في لومباردي (Lombardia) وعرض خدماته على الدوق لودوفيكو في كتاب استدعاء أجمعت الآراء على صحته برغم خلوه من توقيعه. والكتاب الآن جزء من المخطوطات الأطلسية. وقد ذكر فيه ليوناردو كافة الحقول التي بالامكان استخدامه فيها: مهندس عسكري، واضع خطط استراتيجية، صانع أسلحة. وفي أوقات السلم «مؤلف» أبنية، مهندس هيدروليك، رسام، نحات.

وكان ليوناردو كثير النشاط في لومباردي في نهاية القرن الخامس عشر. فقد كان يعمل في هندسة قبة الدوومو (Duomo) في ميلانو والدوومو والقلعة في بافيا (Pavia). ورسم لوحتي سيدة الصخور والعشاء الأخير لكنيسة سانتا ماريا دللي غرازي. وكذلك كان يعد حفلات البلاط ويصمم الأزياء ويدير التمثيل وكان من إنتاجه العمل المسرحي المشهور عيد الجنة الذي قدم في القلعة في ٢٣ كانون الثاني عام ١٤٩٠.

أخذ ليوناردو يستعد لرسم العشاء السري بطريقة (الفرسكو Fresco) على جدار صالة الطعام في كنيسة سانتا ماريا دللي غرازي (Santa Maria delle Grazie) في ميلانو

عبادة الملوك السحرة ـــ صالة اوفيزي Uffizi ـــ فلورانس ـــ ايطاليا

بدأ ليوناردو هذه اللوحة بطلب من «رهبان القديس دوناتو San Donato» في «سكوبيتو Scopeto» وهو موقع قرب فلورانس ـــ ايطاليا وفي نفس العام أرسل سيد فلورانس «لورانس لومانيفيك Lorenzo il Magnifico» ليوناردو إلى ميلانو Milano عند «لودفيكو المورو Ludovico il Moro» فلم يستطع ليوناردو تكملة ما بدأه عند الرهبان ومع ذلك فالمشهد والخطوط يوضحان نسبيا فكرة اللوحة، بالرغم من أنه لم تدخل الألوان إلى اللوحة ولم تكتمل معالم الشخصيات فيها والمشهد بشكل عام يمثل زيارة ملوك الشرق الثلاثة (بلداسار Baldassarre وكسبار Gasparre وملكيور Melchiorre) و تباعهم والكثير من الهدايا الغنية لتقديم ولائهم للسيد المسيح الوليد

فقام بدراسات عديدة وكتب حواشي مفصلة سجل فيها الحركات والوجوه والتعابير. وقد اختار ليوناردو اللحظة التي أعلن فيها المسيح لتلاميذه اقتراب موعد خيانته ليسجل تعابير القلق والحركات المسرحية والدراسة النفسية لكل شخصية في اللوحة. إنه بهذا تخلى عن التنظيم القياسي المتناسق في لوحات القرن الخامس عشر التوسكانية للعشاء السري. علماً بأن ليوناردو قد اتبع في تأليفه النظام الفلورانسي الصارم في ترتيب الأشكال في مجموعات من ثلاثة.

في ميلانو رسم ليوناردو النسخة الموقعة للوحة سيدة الصخور. وفيها تسود الحيوية كل ما في اللوحة ـــ من الصخور والأزهار إلى الأشكال البشرية والشجيرات، روح تنتشر في كل اللوحة وتمتد من الجلد الذي يغطي الأجسام فيها إلى كتل الصخور، ومن تويج الزهرة إلى المياه المتألقة. ويؤكد ليوناردو في مخطوطة ليستر أن للأرض روحاً نمائية. فهو اكتشف توازياً دقيقاً بين البناء الحي وتركيب الأرض. فالجبال هي عظام هذا الكائن الهائل، والصخور المسامية هي غضاريفه وأمّا مجاري الأنهار فهي دمه. وقد رأى في المد والجزر صورة للتنفس، ونار الأرض المتدفقة البراكين مسكن الروح النمائية للعالم. وليس البحر، وذلك حسب المفهوم البطليموسي، سوى النهر العظيم الذي يحيط بالعالم. «بحر

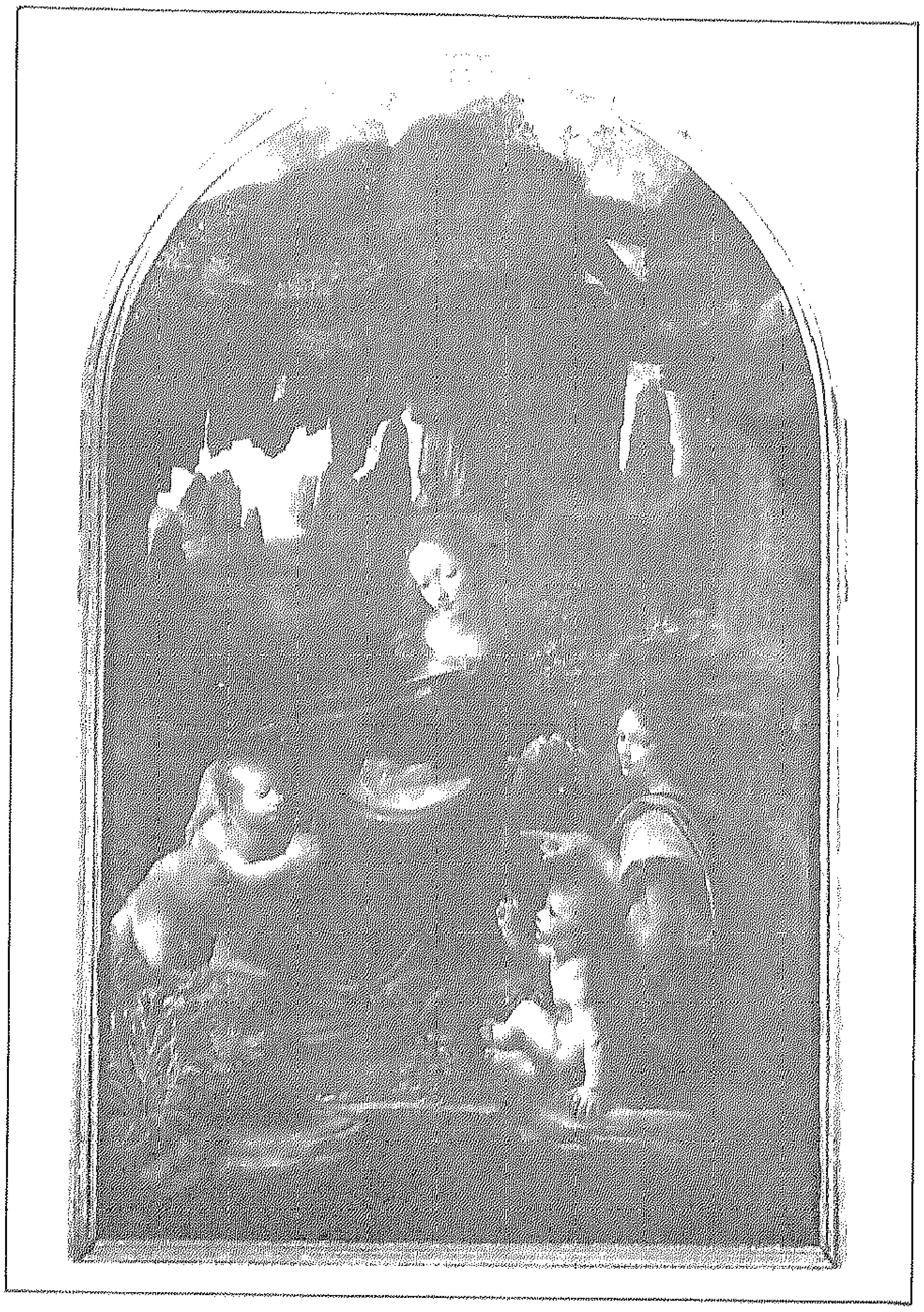

□ **عذراء الصخور ــ باريس ــ متحف اللوفر Louvre (١٢٩ × ١٢٣ سم)**
رسم ليوناردو هذه اللوحة في السنين الأولى من اقامته في مدينة ميلانو في إيطاليا حوالي عام ١٤٨٣م وتأخذ هذه اللوحة عنوانها من المنظر الخلفي المميز بينما يشكل المشهد الأمامي لحظة تأمل هادىء بين العذراء وطفلها المسيح والقديسة آنا Anna والقديس جوفاني Giovanni **الذي كان طفلاً أيضاً في ذلك الوقت مع العلم أن لهذه اللوحة نسخة أخرى رسمها الفنان «دوبريدي De Predis» وموجودة حالياً في الصالة الوطنية في لندن**

الدم المحيط بالقلب».

في عام ١٤٩٩ فرّ لودوفيكو المورو من ميلانو أمام تقدم الجحافل الفرنسية. واتخذ رماة الأسهم الفسكونيون في جيش لويس الثاني عشر من النصب الذي صنعه ليوناردو لفرنسيسكو سفورزا على حصانه هدفاً للتدريب على الرماية. وسرعان ما غادر ليوناردو ميلانو على الرغم مما ظهر من حسن نية السلطات الفرنسية. وهنا بدأت سنوات تجواله. ففي بلاط ايزابللا دستي في مانتوا رسم صورة لم تتح له الفرصة لإكمالها أبداً. ومكث فترة قصيرة في فينيسيا حيث كان مستشاراً للقضايا المعمارية من عام ١٤٩٥ حتى ١٤٩٩. وفي عام ١٥٠١ وخلال إقامة قصيرة في فلورنسا وضع الرسم التمهيدي للقديسة آن المعد لنقوش المذبح في كنيسة العذراء المقدسة (Santissima Annunziata).

ذهب بين عامي ١٥٠٢ و ١٥٠٣ إلى منطقة رومانيا كمهندس عسكري يعمل لسيزار بورجيا. وقد تبدلت أحوال الدوق فالنتينو بوفاة البابا الكسندر السادس، فعاد ليوناردو إلى فلورنسا في عام ١٥٠٣ ليبقى هناك حتى عام ١٥٠٦. وعهدت إليه جمهورية فلورنسا القيام برسم جداري (فرسكو) كبير لمعركة انغياري (Anghiari) على أحد جدران صالة النصائح الكبرى في القصر القديم لتكون قبالة رسم جداري (فرسكو) لمعركة كاشينا

□ **العذراء والطفل المسيح والقديسة آنا Anna ـــ باريس ـــ متحف اللوفر (١١٢ × ١٦٨ سم).**

عهد بهذا العمل إلى ليوناردو ليكون لكنيسة العذراء المقدسة Santissima Annunsiata في فلوراس وذلك في بداية القرن السادس عشر. في عام ١٥٠١ عرض الرسم التمهيدي لهذا العمل على الجمهور فلاقى حماسة شديدة إن الرسم التمهيدي الموجود في الأكاديمية الملكية في لندن هو نسخة أخرى لهذا العمل الشهير. وقد انتهى ليوناردو من رسم اللوحة عام ١٥٠١ ولكنه لم يسلمها للكنيسة بل أخذها معه إلى فرنسا.

(Cascina) لمايكل انجلو (Michel -Angelo). وقد قام ليوناردو بتجربة أسلوب فني جديد فبدأ رسم الفرسكو يتلف على الفور تقريباً. ولم تمض عليه بضع سنوات حتى تلف تماماً. خلال هذه السنوات كان ليوناردو قد بدأ رسم الموناليزا. وقد أحضرها معه فيما بعد إلى فرنسا مع بعض أعماله الأخرى المحببة إليه. وذلك دون أن يعطيها الشخص الذي كلفه برسمها.

في مخطوطة «تريفولزيانو» لليوناردو توجد فكرة هي في الحقيقة صياغة جديدة لحكمة قديمة لهيراكليتوس كتب ليوناردو «الماء الذي يلمسه المرء هو آخر ما مرّ وأول ما سيأتي ـــ كذا هي اللحظة الحاضرة». ومن نداءاته «أيها الزمن، يا مستهلك الأشياء...». ويدعونا أيضاً لأن «ننظر إلى النور ونستشف جماله. أغلق عينيك لحظة، ثم انظر إليه ثانية. فما رأيته لم يبق له وجود، وما كان لم يبق هناك». هذه الأفكار يمكنها أن تمثل أفضل تمثيل إحدى أشهر لوحاته أي الموناليزا التي طغت بسحرها الأخاذ على النقاد والعامة على السواء (انظر كتابات بريتر)، فالتعبير المرتسم على اللوحة، والابتسامة الشهيرة زائلان يفران منك. كذلك الروح غير الملموس الذي يبدو في رقائق الصخور التي تنعكس خيالاتها في المياه الخضر والزرق.

السيدة وحيوان القاقم ـــ كراكوفيا Cracovia. متحف كرارتوريسكي Czartorisky (٥٤ × ٣٩ سم)
هذه اللوحة كانت منذ زمن بعيد موضع شك عند النقاد في نسبها إلى ليوناردو وما زال النقاد يشكون في ذلك لأنها تختلف بميزاتها عن لوحات ليوناردو الأخرى ويقول بعض النقاد أن هذه اللوحة هي «بياتريتشي دستي Beatrice d'Este» زوجة سيد ميلانو «لودفيكو المورو Ludovico il Moro» الذي كان ليوناردو قد أقام عنده فترة طويلة

في أيار من عام ١٥٠٦ طلب أن يؤذن له بمغادرة جمهورية فلورنسا ليعود إلى ميلانو. كان مزمعاً أن يكمل بعض المشاريع التي بدأها هناك والتي تركها ناقصة عندما اضطر إلى الهروب بسرعة في عام ١٤٩٩. وكان الدوق قد منحه قبل هربة بفترة قصيرة حقلاً من أشجار الكرمة خارج بوابة لودوفيكا اعترافاً منه بخدماته. وكان هذا الحقل، إلى جانب مشكلته مع رهبان سانفرنسيسكو حول رسمه «سيدة الصخور»، هو ما جعل فترات مكوثه في فلورنسا قصيرة ونادرة. وفي ميلانو اتصل بالفرنسيين مرة أخرى. وقد طلب شارل دامبوز حاكم ميلانو إلى جمهورية فلورنسا أن تمدد مأذونية ليوناردو. وقد كرر هذا الطلب ملك فرنسا بعد فترة قصيرة. أمضى ليوناردو فترة قصيرة في فلورنسا بين عامي ١٥٠٧ و ١٥٠٨ وذلك لكي ينهي مع أخوته مشكلة العقارات الموروثة عن أبيه. ثم أمضى سنوات عدة في ميلانو بعد أن أعطي لقب «رسام ومهندس عادي» وحدد له راتب ثابت. فأخذ يمضي معظم أوقاته في الدراسات العلمية، وفي هندسة المشاريع التي كان منها مثلاً «حصر مجرى نهر آدا».

عند عودة أسرة سفروزا في عام ١٥١٢ اضطر ليوناردو إلى مغادرة ميلانو ثانية لأن شبهات أحاطت به لتعامله مع الفرنسيين. وأمضى الفترة بين ١٥١٣ و ١٥١٦ في روما في

رسم امرأة أو صورة جنيفرا بنتي Ginevra Benci — الصالة الوطنية في واشنطن — الولايات المتحدة الأميركية (٣٧ × ٤٢ سم)

يعتقد عموما أن هذه هي صورة «جنيفرا بنتي» التي أشار إليها «فاساري Vasari» على أنها «شيء جميل». أن عزو هذا العمل إلى ليوناردو مقبول عند جمهور النقاد الآن غير أنه كان موضع جدال في الماضي. لقد بترت هذه اللوحة في قسمها السفلي حيث كانت اليدان مرسومتين. ويرجح أنهما كانتا متصالبتين كما هو الأمر في «الموناليزا». وهذه اللوحة هي من أكثر اللوحات المحببة إلى ليوناردو، حيث كانت جنيفرا بنتي من أشهر وأجمل نساء عصرها

ساحة بلفديري تحت حماية جيوليانو دي مديشي شقيق البابا ليو العاشر. من المحتمل أنه قام برسم لوحة «القديس يوحنا المعمدان» الدقيقة الغامضة أثناء فترة بقائه القصيرة في روما. وكانت هذه من بين اللوحات التي أخذها معه إلى فرنسا.

وفي روما سبب وجود مايكل انجلو ورفاييل — وهما أصغر سناً من ليوناردو — وضعاً حرجاً له. فقد كان الجو في روما جو تنافس يختلف تماماً عن جوه في ميلانو حيث كان هو سيد الفن بلا منازع في المدينة. وعندما توفي حاميه، قبل ليوناردو دعوة أصدقائه الفرنسيين، وغادر إيطاليا في عام ١٥١٦، ولم يعد إليها بتاتاً. ذهب إلى قلعة كلو قرب امبواز يصحبه تلميذه الوفي ملزي. واصطحب معه أحب لوحاته إليه، وكذلك الرسوم والمخطوطات التي أورثها فيما بعد تلميذه المفضل.

مات ليوناردو في ٢ أيار عام ١٥١٩. ودفن حسب رغبته في دير سان فيورنتينو في امبواز. وقد تناثرت رفاته عندما قام الهيكونوت بنهب الدير في أثناء الحروب الدينية. ●

تعيد مجلة «تاريخ العرب والعالم» نشر هذه الدراسة التي سبق ونشرتها مجلة «دراسات الخليج والجزيرة العربية»، العدد السادس والأربعون ـــ السنة الثانية عشر ـــ ابريل/ نيسان ١٩٨٦م رجب ١٤٠٦هـ. وذلك نظراً لأهميـة تلك الدراسة من حيث إلقاء الضوء على حقيقة مرحلة من أهم مراحل تاريخ الكويت الحديث التي طالما لفّها الغموض وحادّتها الشكوك، وإيماناً منّا بوجوب تعميم الفائدة، خاصة بما يتعلق بتاريخ أمتنا، وإيصال الانتاج العلمي إلى أوسع دائرة من القرّاء العرب.

من المؤسف حقاً أن يكون تاريخ تأسيس الكويت[1]، بهذا القرب منا وهذه الحداثة وتحيط بتحديده الشكوك، مما يجعلنا عاجزين عن الجزم بتاريخ مؤكد لوصول العتوب إلى الكويت. ولا شك أن ذلك القصور نتيجة لعدم العناية بحفظ أصولنا التاريخية ثم عدم الاهتمام بملاحقتها وجمعها[2].

لذا اختلفت المصادر حول تاريخ تأسيس الكويت. فهناك من يذكر أنها انشئت قبل وصول العتوب إليها. وإن كنا نختلف مع هؤلاء لأن وضع الكويت قبل وصول العتوب إليها لم يكن يسمح لها بتوفير الخصائص والمكونات المطلوبة لقيام الدولة، ومع ذلك فإن الكويت بذلك الوضع غير المكتمل كانت موجودة فعلاً قبل آلاف السنين، فمنذ التاريخ

نشأة الكويت وتطورها في القرن

● د. ميمونة خليفة الصباح، مدرسة في قسم التاريخ ـــ جامعة الكويت.

القديم وجدنا لبعض مناطق الكويت مثل فيلكا (IKAROS) و (كاظمة) قرب الجهرة دوراً في حضارات العالم القديم موغلا في القدم، ووجدنا لها كذلك بعض الأدوار في التاريخ الوسيط ولا سيما الاسلامي منه. أما في التاريخ الحديث فلم نجد لها ذلك الدور المؤثر إلا من خلال استقرار بعض القبائل الرحل لبعض الوقت فيها خلال رحلاتهم الفصلية انتقالاً وراء مناطق الكلأ والمرعى بين الجزيرة العربية وبلاد الرافدين، وفيما عدا ذلك لم تظهر الكويت إلا كقرية صغيرة ضمن ممتلكات بني خالد، حيث أنشأ شيخهم براك في منتصف القرن السابع عشر بالتقريب قلعة أو كويتا صغيرا استخدمه كمخزن للمؤن والذخيرة يمر عليه في رحلاته للغزو أو للصيد، وتشير بعض المصادر المحلية إلى أن الذي أنشأ القلعة هو الأمير (محمد بن نفلة بن عريعر)، واستقر بعض البدو من الصيادين حول هذا الكوت أو القلعة. وإذا سلمنا أن الأمير براك هو الذي أنشأ هذه القلعة فإن ذلك يعني أنها انشئت في منتصف القرن السابع عشر، حيث أن حكم الأمير براك كان بين عامي ١٦٦٩ ــ ١٦٨٢م. ومهما يكن الأمر فعند قدوم البرتغاليين إلى ساحل الكويت في القرن السادس عشر لم يرد لها ذكر في رواياتهم، مما يدل على أنها لم تكن قد انشئت بعد. وفي اسم الكويت وكونها تصغيراً لكلمة (كوت) ما يؤكد ما ذهبنا إليه من قلة شأنها قبل وصول العتوب إليها، بحيث لا يمكن اعتبارها مدينة، وأنها كانت قبل نزول العتوب فيها أرضاً فقيرة لا يسكنها إلا لفيف من الأفراد أو العشائر من أتباع بني خالد. وأول من بنى البيوت الحجرية فيها هم العتوب حينما سمح لهم بنو خالد بالاستقرار فيها ووهبوها لهم وسمحوا لهم أن يقيموا حكمهم تحت ظلهم وفي حمايتهم (بنو خالد)، فآل الأمر إلى آل الصباح وبقية الأسر العتبية ولم يحكمهم أجنبي عن القوم الذين أسسوها، ولم ينفرد بالأمر والنهي فيها سواهم[٣]. ولكن هذا لا يتنافى مع ما ذكره د. أبو حاكمه اعتماداً على خريطة هولندية تعود إلى منتصف القرن السابع عشر من أن اسم القرين (الكويت) موجود عليها، أي أن الكويت معروفة منذ أوائل ذلك القرن، إلا أنها كانت بوضعها الذي أشرنا إليه سابقا، ولذلك نستطيع أن نقرر باطمئنان أن العتوب هم الذي أسسوا الكويت. وما دمنا قد وصلنا إلى هذه الحقيقة فلا بد أن نتناول بالإشارة العتوب وأصلهم وانتماءهم قبل أن نتكلم عن تاريخ تأسيس مدينتهم.

□ رسمان عربيان يعودان للعام ١٨٤٧م.
من كتاب «العربي» لنويل دسفرجيه ــ (Noël Desverger).

د. ميمونة خليفة الصباح

الثامن عشر

العتوب وتأسيسهم للكويت

لا يختلف المؤرخون في أن مؤسس الكويت الحديثة هم من العتوب. وهم جماعات كبيرة من العشائر ترجع في أصلها إلى قبيلة عنزة[٤]. وهي قبيلة عربية كبرى تنزل شمال جزيرة العرب. والعتوب ثلاثة فروع رئيسية من عنزة (آل الصباح، وآل خليفة، والجلاهمة) ومعهم أسر أخرى أو فروع أخرى مثل آل زايد (ينتمي إليهم كثير من أسر الكويت المعروفة مثل الغانم والمضف وغيرهم) وينتمي آل الصباح إلى فخذ (جميلة) وبالتحديد فرع (شملان)[٥].

وترجع كلمة العتوب إلى الأصل الثلاثي (عتب) وهو فعل معناه الاكثار من الترحال من مكان إلى آخر[٦]. وقد سمي العتوب بهذا الاسم بعد ارتحالهم من منطقة الهدار في نجد موطنهم الأصلي، أي من الجنوب، شمالاً إلى الكويت، فهم عتبوا بذلك إلى الشمال[٧].

أما سبب هجرة العتوب من موطنهم الأصلي فهو كذلك موضع اختلاف المؤرخين. ولكنها لا بد أن تكون جزءاً من هجرة عنزة الكبرى التي تمت في النصف الأخير من القرن السابع عشر، والتي تفرعت إلى فرعين رئيسيين اتجه الفرع الأول المعروف بـ «الروالة» إلى بلاد الشام بينما اتجه الفرع الآخر (العتوب) إلى الخليج. وأن هذه الهجرة كانت بسبب القحط الشديد الذي أصاب منازلها الأصلية[٨]. إلا أن ذلك خلافاً لما يذكره الشيخ ابراهيم بن محمد آل خليفة يشير إلى أن هجرتهم كانت نتيجة لنزاع حصل بينهم ــ ولم يكن العتوب في الحقيقة قبيلة واحدة بل تألف تحالفهم من مجموعة من بطون القبائل العربية بالجزيرة العربية ــ[٩]. مع بني عم لهم من بطن (جميلة) من عنزة، وكانت عزوتهم واحدة هي (أولاد سالم) أي أولاد سالم، وظلت كذلك إلى أن سكنوا الكويت فزالت هذه العزوة أو الشهرة، وصار كل منهم يلقب باسم عائلته[١٠].

وتختلف المصادر أيضاً على تاريخ هجرة العتوب من موطنهم الأصلي والطريق الذي سلكوه أثناء هذه الهجرة مما يجعلنا غير قادرين على تحديد مسارهم على وجه الدقة كما أننا لا نتمكن من تحديد سنة هجرتهم بشكل قاطع. وهذا ما يضعنا نحن الذين نحاول التأريخ للكويت بوضع مخجل ومحرج أمام عجزنا عن تحديد أوليات تاريخنا القريب! أننا لا نريد أن نضع اللوم على من سبقونا في عدم حفظ ما يوضح لنا هذا التاريخ، فإمكانيتهم الثقافية والاجتماعية تعطيهم العذر، بل ويكفيهم فخراً أنهم أورثونا تاريخاً مضيئاً حافلاً بالأحداث المشرقة النبيلة، خالياً من الشوائب والدنس، مما يجعلنا نسعى إلى إبرازه وإيضاحه ونعد بمواصلة الجهد والعمل للوصول إلى ما خفي منه والعثور على ما فقد حتى نتمكن أن نسهل على من يخلفنا وضع تاريخ متصل الحلقات، واضح الملامح وواضح لوطننا العزيز.

أما عن أقرب تاريخ لهجرة العتوب من الهدار إلى سواحل الخليج فهو العقد التاسع من القرن الحادي عشر الهجري. أي أن هجرتهم كانت قبل أكثر من ثلاثة قرون من التاريخ الحاضر. فإذا وضعنا سنة تقريبية وهي سنة ١٠٨٢ هجرية يكون عام ١٦٧١م كبداية لهذه الهجرة، بل ربما قبل ذلك بقليل حيث تمت في زمن حكم (براك بن عريعر) للاحساء وفتح القطيف عام ١٠٨٢ هجرية، وذلك لأن الأخبار التي تناقلها الخلف عن السلف تؤكد اشتراك العتوب في هذا الفتح، لا سيما وأن هناك واقعة مادية تعزز لنا هذه المشاركة وهي أن الأمير براك منح العتوب مكافأة لهم على مساعدتهم له في هذا الفتح نخلاً في القطيف[١١]. وهو النخل الذي أوقفه الشيخ خليفة بن محمد آل خليفة (الجد الأكبر لآل خليفة) على المسجد الذي بناه عند وصولهم إلى الكويت. ولكن النخل مع مرور الأيام بقي في يد أبناء الشيخ أحمد بن سلمان آل خليفة، ولا يزال في أيديهم يأكلون ريعه. وقد طالبت به وزارة الأوقاف الكويتية على أنه من الأموال الموقوفة العائدة لها والتي ترعاها[١٢]. إلا أنها تنازلت عنه فيما بعد وتركته لورثة الشيخ أحمد بن سلمان آل خليفة.. وهذه الحادثة المادية توضح لنا كذلك الطريق الذي سلكه العتوب في هجرتهم من موطنهم الأصلي إلى الكويت، فمن المسلم به أنهم هاجروا إلى شمال شرقي الجزيرة العربية، إلا أن هذه الواقعة تبين

لنا أنهم نزلوا المبرز في الاحساء قبل توجههم إلى قطر حيث استقبلهم آل عريعر (بنو خالد) وأسكنوهم بين ظهرانيهم حين كان لبني عريعر السيطرة على سواحل الاحساء[١٣]. وهذا ما تؤكده كذلك حجة الوقف الخاص بهذا النخل على مسجد آل خليفة في الكويت[١٤]. والتي تثبت نزول العتوب بالأحساء قبل نزولهم إلى قطر. كما تظهر لنا هذه الحادثة أن بداية العلاقات الطيبة بين العتوب وبني خالد تعود إلى تلك الفترة وهذه الواقعة المشتركة التي عززت العلاقات ودعمتها ودعت بني خالد إلى رعاية العتوب وحمايتهم واستقبالهم لهم في كل الأماكن التي حل بها العتوب أثناء هجرتهم من الأماكن التابعة لآل عريعر.

هذا ومما يؤكد لنا واقعة فتح القطيف وأنها تمت سنة ١٠٨٢هـ (١٦٧١م) هو ما جاء على لسان أحد شعراء القطيف:

رأيت البدو آل حميد لما
تولوا أحدثوا في الخط ظلما
اتى تاريخهم لما تولوا
كفانا الله شرهم (طغى الما)

وكلمة (طغى الما) تساوي عام ١٠٨٢هـ (١٦٧١م) بحساب الجمل فإن (ط = ٩) + (غ = ١٠٠٠) + (ى = ١) + (ل = ٣٠) + (م = ٤٠) + (أ = ١) فيكون المجموع = ١٠٨٢هـ.

ومن كلمة «طغى الما» هذه يؤرخ فتح آل عريعر للقطيف حيث اشترك العتوب فيها مما أوجد بعض الخلط عند مؤرخي الكويت الأوائل وأولهم الأستاذ عبدالعزيز الرشيد الذي أخذ عنه الكثير من المؤرخين. ودعتهم إلى جعل هذا التاريخ هو تاريخ تأسيس الكويت خطأ.

هذا وقد توجه العتوب من الاحساء إلى قطر واستقروا في قرية الفريحة قرب (الزبارة) وكانت قطر تخضع لنفوذ بني خالد في ذلك الوقت، مما مكنهم من الاستقرار بها لبعض الوقت، فاستوطنوها تحت إمرة حكامها آنذاك (آل مسلم).

ومن مسكنهم الجديد في (فريحة) أسسوا لهم روابط قوية مع البحرين، لأن الأسواق والتجارة وبيع اللؤلؤ كانت في البحرين، لذلك وجدناهم ينتقلون بين البحرين وقطر لعدم وجود حواجز وقتئذ تمنعهم من الانتقال كجوازات وجمارك وغير ذلك، بل كان التنقل وحتى التملك ميسوراً بين البلدين دون وجود قوانين تحده[١٥].

وبعد مضي فترة على استقرار العتوب في قطر قتل أحدهم رجلاً من أهلها أهانه، مما أثار حكامها الذين أوجسوا خيفة من العتوب وخشوا استفحال أمرهم، فأمروهم بمغادرة البلاد. وقد لبى العتوب وهاجروا من قطر بواسطة البحر[١٦]. واتجهوا إلى بعض المناطق الواقعة على الشاطىء الشرقي للخليج العربي مثل جزيرة (قيس) و (عبادان) ومن هنا تأتي تسمية المؤرخين الأجانب لهم (Sea Beduin) أي البدو البحريين وأنهم استخدموا السفن في ارتحالهم بدلاً من الجمل المستخدم في الصحراء[١٧].

ويذكر مؤرخنا الأستاذ عبدالعزيز الرشيد أن آل مسلم جهزوا بعد ذلك سفناً وساروا خلفهم يقتفون أثرهم إلى أن أدركوهم في رأس تنورة حيث نزل العتوب إلى البر فوقع بين الفريقين قتال شديد كان النصر فيه حليف العتوب. إلا أن هذا النصر لم يحملهم على العودة إلى قطر للاستقرار فيها، وإنما واصلوا مسيرتهم البحرية فتذهب بعض الروايات إلى أنهم اتجهوا نحو المخراق بالقرب من (الفاو) عند البصرة، ولم يطب لهم المقام فتحولوا إلى الصبية (شمال شرقي الكويت وتبعد عنها نحو ستة عشر ميلا) غير أن السلطات العثمانية القائمة هناك لم تسمح لهم بالاقامة في تلك المنطقة وذلك نتيجة لحدوث اعتداءات على بعض القوافل المارة هناك. وخشية قيام القلاقل والاضطرابات لا سيما عندما علمت تلك السلطات باعتزام جماعات (الظفير) شن هجمات عليهم[١٨]. ومن ثم اضطرت جماعات العتوب إلى ترك هذه المنطقة والاتجاه جنوب كويت بني خالد الذين رحبوا بهم وسمحوا لهم بالاستقرار هناك ومنحوهم تلك المنطقة.

تأسيس الكويت

بالرغم من أن العتوب لم يستقروا دفعة واحدة في الكويت، وأن تاريخ استقرارهم هو الآخر محط لاختلاف المؤرخين ومسرح

لروايات وأقاويل مختلفة ومتعارضة، إلا أننا نستطيع أن نقرر مطلع القرن الثامن عشر كتاريخ لاستقرارهم في الكويت وتأسيس مدينتهم فيها. وذلك لأنه أقرب تاريخ يلتقي عنده المؤرخون، لا سيما من عاصر منهم تلك الفترة أو كان قريباً منها سواء العرب منهم مثل عثمان ابن سند البصري (سبائك المسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد) وابن بشر (عنوان المجد في تاريخ نجد) وصاحب (لمع الشهاب في سيرة محمد ابن عبدالوهاب)، أو المؤرخون المحليون مثل القناعي (صفحات من تاريخ الكويت) والرشيد (تاريخ الكويت). أما النبهاني فيجعل وصول العتوب إلى الكويت في النصف الأول من القرن السابع عشر ويقرن روايته بدليل مادي وهو أن مسجد ابن بحر في الكويت جدد بناؤه (عبدالله بن سعيد بن بحر) عام ١١٥٨هـ الموافق ١٧٤٥م وذلك بعد أن حصل من قاضي الكويت على الاذن ببيع دار كانت موقوفة على ذلك المسجد، ولا سيما أنه من المعلوم أن تقادم المسجد وخرابه لا يكون إلا بعد مرور مدة طويلة على إنشائه تقدر بمائة عام. ويذكر النبهاني أنه فهم من ذرية ابن بحر أن المسجد أنشىء سنة ١٠٨٠هـ ــ ١٦٧٠م فإذا صحت هذه الرواية يكون العتوب قد وصلوا قبل هذا التاريخ الذي يورده الشيخ (محمد بن عيسى آل خليفة) عم أمير البحرين الراحل الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة في خطاب له أرسله جواباً على خطاب الأستاذ سيف مرزوق الشملان الذي يستفسر فيه عن هذه الأمور، أن العتوب وصلوا إلى الكويت في أواخر القرن الحادي عشر الهجري أو أوائل القرن الثاني عشر ويحدده بما يقابل عبارة (طغى الما) ١٠٨٣هـ في حساب (أبجد) وتوافق عام ١٦٧١م.

ويؤيد الأستاذ عبدالعزيز الرشيد الشيخ محمد بن عيسى آل خليفة في كون عبارة (طغى الما) هي تاريخ وصول العتوب إلى الكويت إلا أنه يعود ويرجع التاريخ الذي ذكره الشيخ ابراهيم بن محمد آل خليفة (وهو أديب ومطلع على التاريخ ومن الأسرة الحاكمة في البحرين) من أن سنة ١١٢٥هـ الموافقة ١٧١٢[٢٠] هي تاريخ وصول العتوب.

ويذكر الشيخ يوسف القناعي تاريخاً قريباً للتاريخ الذي حدده الشيخ محمد ابن خليفة وهو عام (١١٠٠هـ الموافق ١٦٨٨م)[٢١].

وبهذا نجد أن المؤرخين العرب القريبين من الأحداث ويؤيدهم المؤرخون المحليون يرون أن تاريخ وصول العتوب إلى الكويت وتأسيس مدينتهم فيها يقع في أواخر القرن السابع عشر وبما أننا قد أشرنا سابقاً إلى أن عبارة (طغى الما) تمثل تاريخ فتح بني خالد للقطيف (الذي شارك فيه العتوب) فلا بد من استبعاد هذا التاريخ واعتماد مطلع القرن الثامن عشر كتاريخ لوصول العتوب إلى الكويت إلى أن يثبت ما ذكره النبهاني نقلاً عن ذرية ابن بحر والمؤرخون الآخرين الذين يؤيدون هذا التاريخ وهو النصف الأخير من القرن السابع عشر والذي لا يعززه حتى الآن إلا هذه الرواية إلى جانب ما وجد من نسخة مخطوطة من كتاب (مدونة للامام مالك) ونجد في آخر الكتاب اسم الناسخ وسنة نسخه وهي ١٠٩٩هـ وأنه نسخ في فيلكا. فلا بد والحالة هذه أن في فيلكا علماء ألفوا ونسخوا مثل هذا الكتاب وغيره[٢٢]. ولما كانت فيلكا من جزر الكويت فإنه إذا ما اعتبرنا عمارها في عهد العتوب فإن وصول العتوب يكون قبل عام ١٠٩٩هـ / ١٦٨٧م. أما إذا اعتبرنا عمار فيلكا استمراراً لعمارها في العصور القديمة فإنها والحالة هذه تعتبر مستقلة عن الكويت عند وصول العتوب للكويت ثم ضموها بعد ذلك. وهذا يتفق مع ما ذكرناه من مجيء العتوب على دفعات ومراحل فقد يكون من وصل من العتوب في أواخر القرن السابع عشر هم أول الدفعات.

كما أن المصادر الأجنبية المعاصرة أو القريبة من الأحداث تؤكد وصولهم في مطلع القرن الثامن عشر، وهذا ما يذكره مسؤولو شركة الهند الشرقية، وإزاء ذلك تجدنا نتجه إلى تأييد هذا التاريخ إلا أن ملاحظات المستر فرنسيس واردن (F. Warden) من موظفي حكومة الهند عن القبائل العربية في الخليج أغسطس عام ١٨١٩م تحت عنوان (عرب العتوب في البحرين) قد حددت وصول العتوب سنة ١٧١٦م وذلك حين اشار في تقريره إلى ما يلي: «حوالي عام ١٧١٦ دخلت ثلاث قبائل عربية ذات شأن هي:

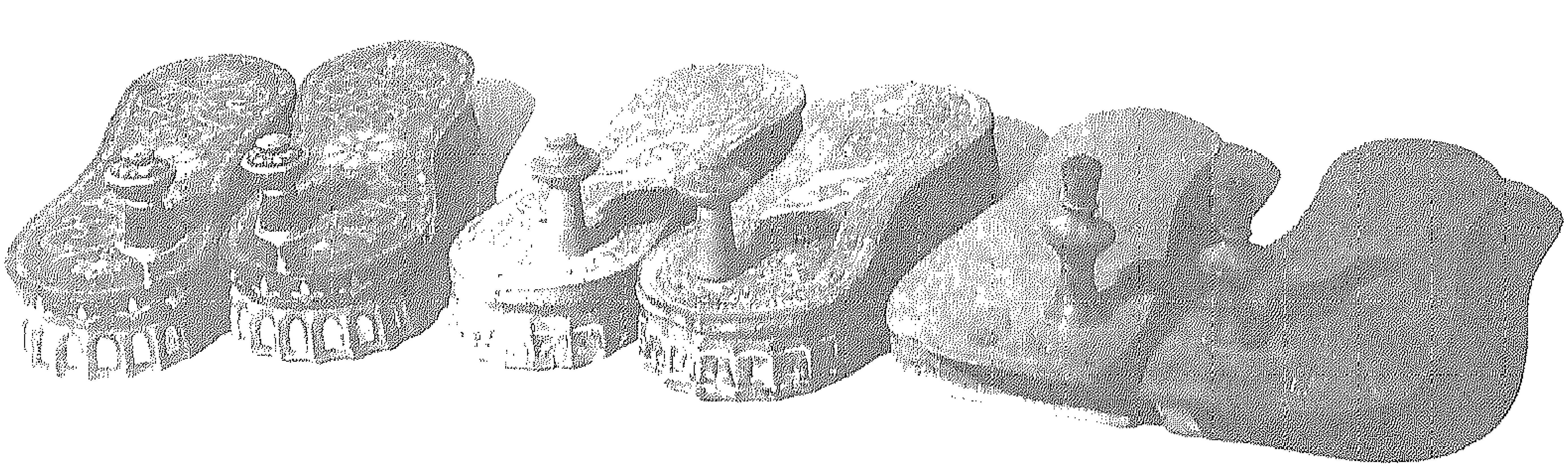

□ قباقيب خشبية تعود للقرن الثامن عشر. (متحف الكويت)

بنو صباح والجلاهمة وآل خليفة تحدوها عوامل المصلحة والطموح في تحالف واستولت على بقعة من الأرض على الساحل الشمالي الغربي من الخليج العربي تسمى (الكويت)، وكان بنو صباح في ذلك الوقت تحت رئاسة الشيخ سليمان بن أحمد، والجلاهمة تحت زعامة جابر بن عتبة، وآل خليفة تحت زعامة خليفة بن محمد.

ويمضي واردن في سرد ملاحظاته، مبيناً أن العتوب اتفقوا عقب قدومهم إلى الكويت على أن تمارس جماعة (آل صباح) شؤون الحكم بينما يشرف (الجلاهمة) على أعمال البحر، وأن يتولى (بنو خليفة) أمر التجارة[٢٣].

وبعد الدراسة والبحث والوصول إلى معلومات مادية ووثائق رسمية ثبت خطأ المستر واردن في كثير من الأشياء التي أوردها في ملاحظاته، وأول هذه الأخطاء تحديده لوصول العتوب بعام ١٧١٦م بينما وجدنا ما نطمئن إليه من وقائع مادية ووثائقية تثبت وصولهم قبل ذلك وتؤكد وصولهم إلى الكويت لا يتعدى عام ١٧٠١م أو عام ١٧٠٢م على أقصى حد من هذه الوقائع المادية إلى جانب ما ذكرناه عن مسجد البحر الذي جدد بناؤه عام ١٧٤٥م بعد مضي مدة كافية أدت إلى تقادمه وخرابه وأوجبت تجديده، ولما كنا لا نستطيع تحديد هذه المدة على وجه الدقة فقد بحثنا عن أثر آخر فوجدنا مسجد آل خليفة الذي أنشأه الشيخ خليفة بن محمد آل خليفة (عام ١٢٢٦هـ الموافق ١٧١٤م) وقد نقش عليه تاريخ بنائه وأوقف عليه نخل الاحساء الذي منحه بنو خالد للعتوب عند مساعدتهم لهم في فتح القطيف، فلا بد والحالة هذه أن العتوب قد وصلوا إلى الكويت قبل ذلك بفترة كافية مكنتهم من الاستقرار وبناء المسجد[٢٤].

كما أن المخطوطات والوثائق التي عثر عليها أخيراً ترجع وصول العتوب في مطلع القرن الثامن عشر، ومن أهم هذه المخطوطات ما ورد في مخطوط (لؤلؤتي البحرين وقرتي العينين لأحمد بن يوسف الدرازي المتوفي عام ١١٨٦هـ) حيث ذكر واقعة في البحرين كان العتوب طرفاً فيها وأرخها بكلمة (شتتوها) والتي تساوي في التاريخ الهجري ما يلي:

ش ٤٠٠ + ت ٣٠٠ + ت ٣٠٠ + و ٦ هـ ٥ + أ ١ = ١١١٢ هجرية الموافقة ١٧٠٠م[٢٥].

وهذا أقدم نص عثرنا عليه ولا بد أن هذه الواقعة الحربية هي نفس المعركة التي أشارت إليها الوثيقة العثمانية (دفتر المهمة رقم ١١١ صحيفة طم ٧١٣) والمرسلة من علي باشا والي البصرة إلى الباب العالي وتنص: «أن في البحرين وهي لأحد بنادر العجم أناساً من الأعجام وعلى مذهبهم، وللعجم اهتمام كبير بهذا المكان، وتقيم في البحرين قبيلة العتوب والخليفيات[٢٦]، ويسكنون قرب بندر فريحة[٢٧] وبندر (كونك)[٢٨] وكانوا نحو سبع أو ثماني عشائر، وكلهم عرب شافعيون وحنابلة، وقد حلت بينهم الفتنة، بين أهل البحرين وهؤلاء العشائر (الهولة) الذين يقيمون حول بندر (كونك) وقد قتل منهم كثيرون، وكان التجار وأصحاب السفن يخافون أن يذهبوا

إلى البصرة خشية منهم لأن (سفنهم) تمر من هذا البندر (الميناء) ومن رأى منهم سفينة أخذها غصبا.

وفي أحد الأيام تقاتل العتوب والخليفيات ومن معهم من العشائر الأخرى من جهة مع الهولة من جهة أخرى بتحريض من والي العجم في البحرين، وبينما كان العتوب في غفلة انقض عليهم الهولة وقتلوا منهم نحو أربعمائة رجل وأخذوا أموالهم وهرب من بقي منهم، وبعدئذ اتفق العتوب والخليفيات وقالوا أن العجم ألقوا بيننا هذه الفتنة فلنذهب ونحاربهم ونخرب البحرين واتفقوا على هذا وأتوا إلى البحرين وخربوا ما حولها وأحرقوها وأخذوا أموالهم وقتلوا رجالهم ورجعوا. ومنذ ذلك اليوم اتفق العتوب والخليفيات وكانوا يقولون لا نسكن في بلاد العجم لأنهم ليسوا على مذهبنا. ونذهب إلى البصرة إلى حماية الدولة العثمانية فجاءوا كلهم إلى البصرة وكانوا نحو ألفي أسرة (عائلة). وكتب والي البصرة إلى السلطان في اسطنبول يقول جاء العتوب والخليفيات ومن معهم من العشائر الأخرى وقالوا نحن مسلمون وتركنا العجم وجئنا إلى بلاد سلطان الاسلام والتجأنا إليه وهذا رجاؤنا فإنهم يريدون أن يسكنوا البصرة ولم يعين لهم الوالي المكان الذي يسكنون فيه وبقوا على تلك الحال. ويقول الوالي إذا أرادوا يسكنون البصرة فسنعين لهم المكان، وكان لهم نحو مائة وخمسين مركباً (سفينة) وعلى كل مركب مدفعان أو ثلاثة مدافع، وعلى كل مركب ثلاثون أو أربعون رجلاً محارباً يحمل بندقية. وكانوا دائماً يكونون على المراكب، وعملهم نقل التجار ونقل أموالهم من مكان لآخر...

ويستطرد الوالي في رسالته إلى السلطان بقوله: «يجب أن نصلح بين القبيلتين العتوب والخليفيات من جهة والقبائل العربية الأخرى من الهولة لأنه إذا لم نصلح بينهم لا يمكن أن يأتي الأتراك إلى البصرة (خوفاً منهم) لأن في مجيء الأتراك سيصير عليهم ضرر أي سيصبح ضرر على عسكر العثمانيين. ثم يقول الوالي في رسالته: «إذا جاء رجل كبير موفد من اسطنبول واصطلح معهم فإننا نأمن من شرهم وحينئذ يسود الأمن والاستقرار هناك»[٢٩].

فإذا حللنا هذه الوثيقة تحليلاً تاريخياً اعتماداً على الوقائع المادية والأحداث الواقعية حسب ترتيبها الزمني نستنتج أموراً كثيرة هامة غير مؤكدة وليس لدينا ما يثبتها، وهي:

أولاً: بما أن هذه الوثيقة التي تمثل كتاباً من والي البصرة إلى السلطان العثماني وقد كتبت بتاريخ ٢١ رجب ١١١٣ هجري الموافق ١٧٠١م وهو يتكلم عن أحداث وقعت قبل كتابة الكتاب، فلا بد أن العتوب وصلوا البصرة قبل تاريخ كتابة هذا الكتاب أي في أوائل عام ١١١٣هـ الموافق ١٧٠١م، إذا لم نقل قبل ذلك. ولما كان الوالي يستأذن السلطان في رسالته بالسماح لهم بالسكن في البصرة والاصطلاح معهم والتوسط بالصلح بينهم وبين (الهولة) خوفاً على الأتراك القادمين إلى البصرة واتقاء لشرهم ــ فهم إذاً يمثلون قوة كبيرة حسب وصف الوالي.

ولما تأخر رد السلطان لم يحدد الوالي لهم مكاناً يستقرون به. لذا ترك العتوب البصرة إلى الكويت في نفس العام أي بين عامي ١١١٢هـ ١٧٠٠م ــ ١١١٣هـ ١٧٠١م ومن هذا يتبين لنا أن أقرب تاريخ لاستقرار العتوب في الكويت هو عام ١٧٠١م، وهذا أيضاً يفسر لنا ما سبق وذكر من أن السلطات العثمانية لم تسمح للعتوب بالاستقرار في البصرة.

ثانياً: لما كانت قرية فريحة تقع في قطر وكانت هي القرية التي يسكنها العتوب في السابق، فلا بد أن تكون قطر هي المقصودة في الوثيقة العثمانية حين أشارت إلى أن العتوب كانوا يقيمون في البحرين. وجاء هذا الخلط عند العثمانيين بين المدينتين نتيجة للتشابك في العلاقة بين البحرين وقطر على مر العصور، فقد ظلت قطر خلال العصر الحديث مزدوجة الولاء للبحرين أحياناً وللدولة السعودية أحياناً أخرى، إلا أن ولائها للبحرين كان أكثر وضوحاً حتى ظهورها كوحدة سياسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فكانت تبعيتها للبحرين دافعاً لبعض المصادر لأن تعدها جزءاً من البحرين وتسميتها باسمها أحيانا. ولعل مما يعزز ما ذهبنا إليه من أن قطر هي المقصودة في بداية الوثيقة وليست البحرين أن الخليفيات هم

آل مسلم حكام قطر، مما يبين لنا أن الخلاف الذي وقع بينهم وبين العتوب عندما كانوا في قطر وطلبوا منهم مغادرتها نتيجة له ـ كان بتحريض من والي البحرين الفارسي. وهذا يؤكد لنا أن هجرتهم من قطر كانت بين عامي ١٦٩٩ ـ ١٧٠٠م حيث وصلوا البصرة في تاريخ سابق لتاريخ كتابة الوالي لكتابه عام ١١١٣هـ الموافق ١٧٠١م بعد المدة التي قضوها في الطريق وجرت خلالها حوادث كثيرة أهمها هجوم الهولة على العتوب بتحريض والي البحرين الفارسي، مما دفعهم إلى أن يصطلحوا مع آل مسلم وكونوا تحالفاً معهم ثم هاجموا البحرين عام ١١١٢هـ / ١٧٠٠م.

ثالثاً: المعركة الأولى والتي وقعت بين اتحاد العتوب والخليفيات (آل مسلم) من جهة بعد أن اصطلحوا، وبين الهولة بتحريض والي البحرين الفارسي هي المعركة التي وقعت في رأس تنورة والتي أشار إليها مؤرخنا الأستاذ عبدالعزيز الرشيد خطأ على أنها وقعت بين العتوب وآل مسلم وهو في الحقيقة خلط بين الأحداث نتيجة عدم اتضاحها وعدم ورودها في المصادر في حينها، وذلك لأن خلافاً فعلياً وقع قبل ذلك بين العتوب وآل مسلم فقد أوقع بينهم والي البحرين إلا أنهم اتحدوا بعد ذلك وواجهوا هجوم الهولة المفاجيء ونشبت المعركة آنفة الذكر في رأس تنورة وخسروا فيها أربعمائة قتيل، لأنهم لم يستعدوا لذلك الهجوم مما جعلهم يقسمون على الانتقام بمهاجمة البحرين وإحراقها وبالفعل تم ذلك فكانت المعركة التي هاجموا بها البحرين واستولوا عليها (مؤقتاً) وهزموا واليها الذي تحصن بالقلاع وكان ذلك عام ١١١٢هـ الموافق ١٧٠٠م كما أرخها يوسف الدرازي بكلمة (شتتوها) بحساب الجمل في مخطوطته.

ورغم انتصار العتوب فإنهم قرروا عدم الاقامة في بلاد يحكمها العجم (البحرين). وذلك لاختلافهم معهم في المذهب. لذا فقد توجهوا إلى البصرة طلباً لحماية الدولة العثمانية ورغبة بالعيش في ظلها كما يؤخذ من الوثيقة العثمانية.

ولما كان مجيئهم إلى البصرة بعد هذه المعركة التي وقعت في البحرين عام ١١١٣هـ ـ ١٧٠٠م مباشرة، لذلك فلا بد أن يكون وصولهم بعد ذلك بفترة قصيرة أي بين عامي ١٧٠٠ ـ ١٧٠١م، وبالتالي لا يتعدى وصولهم إلى الكويت عام ١٧٠١م. (كما ذكرنا)، كما أن تلك المعارك التي وقعت بينهم وبين (الهولة) تفسر تخوف الدولة العثمانية منهم وترددها في السماح لهم بالاقامة في البصرة. ويؤكد ما سبق وذكره مؤرخنا عبدالعزيز الرشيد من أن عدم سماح الدولة العثمانية لهم بالاقامة في أراضيها ناتج عن تخوفها من هجوم (الهولة) عليهم وما ينتج عن ذلك من مشاكل تهدد الأمن في المنطقة. وينفي ما ذكرته المصادر المحلية الأخرى من أن رفض الدولة العثمانية السماح للعتوب بالعيش بين ظهرانيها ناتج عن ممارستهم لضروب من السطو والقرصنة.

ومن خلال اعتمادنا على الوثيقة العثمانية المذكورة[٣٠]، ومخطوطة (لؤلؤتي البحرين وقرتي العينين) لأحمد بن يوسف الدرازي[٣١] ومقارنتهما ببقية المصادر والمراجع العربية والمحلية وبالوقائع التاريخية وتسلسلها الزمني فلا بد أن نعتمد عام ١١١٣هـ الموافق ١٧٠١م كتاريخ وثائقي ومادي لوصول العتوب إلى الكويت والتي أقطعهم إياها بنو خالد حال وصولهم لها فأسسوا مدينتهم فيها. ونعتبر هذا التاريخ هو تاريخ تأسيس الكويت الحديثة، حيث أن الكويت قبل وصول العتوب إليها لا يمكن اعتبارها مدينة بأي حال من الأحوال، ولا يمكن أن يسطر لها تاريخ حديث وهي على ذلك الوضع.

هذا، ويعزز التاريخ الذي اعتمدناه بداية لتأسيس الكويت ما وجدناه من أن أقدم القضاة في الكويت هو الشيخ محمد بن فيروز، وقد توفي سنة ١١٣٥هـ / ١٧٢٢م[٣٢] فإذا كان هذا القاضي قد تولى القضاء قبل وفاته بفترة طويلة نسبيا، فلا بد أن المدينة قد تأسست واستقرت أحوالها المعيشية والادارية بين هذه الفترة وفترة وصول العتوب إليها، أي بين عام ١٧٠١م وعام ١٧٠٢م.

وهناك وثيقة عثمانية أخرى مؤرخة في آخر رجب ١١١٤هـ موجهة إلى متصرف سنجق الكويت وهي الوثيقة الأولى التي يرد فيها اسم الكويت[٣٣]، ولكن لم تثبت صحتها حتى الآن. فإذا ثبتت تكون خير دليل على ما ذهبنا إليه من

أن تـاريـخ وصـول العـتـوب إلى الكـويت هو عام ١١١٣هـ الموافق ١٧٠٢م أو قبل ذلك. وتعزز هذه الوثيقة وثيقة عثمانية أخرى في نفس العام ١١١٤هـ وهي موجهة أيضاً إلى متصرف سـنـجـق الكـويـت، وهـي الأخـرى في دور الدراسة(٣٤).

ومن كـل ما تقـدم يتضـح خـطأ المستـر فرانسيس واردن وجميع من تبعه من المؤرخين المعاصرين في تحديد تاريخ وصول العتوب إلى الكويت بعام ١٧١٦م وأن وصولهم كان قبل ذلك وأقرب تاريخ يمكن تحديده لوصول العتوب إلى الكويت وتأسيس إمارتهم فيها على ضوء ما تقدم من وثائق ومخطوطات ووقـائع مـادية مـؤكدة هو عام ١٧٠١م.

كما أن د. أبو حاكمة (تاريخ الكويت) أخطأ حين رجح أن بدء إقامتهم في قطر والاحساء تحدد بنحو نصف قرن وذكر أن هذه هي المدة اللازمة للتدرب على ركوب البحر، فقد ثبت أنهم على دراية بهذه الأمور منذ خروجهم من موطنهم الأصلي في الأفلاج في نجد فما الأفلاج إلا جمع (فلج) وهـو النهر الصغـير(٣٥). فلا غـرو إذا ما رأيناهم يتأقلمون مع بيئتهم الجديدة في قطر ووجدناهم من أول وصـولهم هناك يحسنـون استخـدام السفن ويعمل بعضهم في الغـوص بحيث أخذوا يتنقلون بين قطر والبحرين طلباً للأسواق والتجارة وبيع اللؤلؤ وهذا مـا يثبت درايتهم البحـرية منـذ نـزوحهم من مـوطنهم الأصلي. ويعزز ذلك إطلاق المؤرخين الأجـانب عليهم (Sea Beduin) أو البـدو البحـريـين، كمـا أنهم سلكوا طريقـاً بحريـاً أثناء رحلتهم وتنقلهم وخاضوا معارك بحرية خلالهـا. وهذا ما أثبتته الوثيقة العثمانيـة حين تحـدثت عن عدتهم وأسلحتهم وسفنهم مما يؤكد معـرفتهم بركوب البحر. وبذلك يكـونون غـير محتاجـين للمكوث في قطر لمدة نصف قرن قبل ارتحالهم إلى الكويت. ونحن لو وافقنا (د. أبو حاكمـة) على رأيه ذلك، فإنه يتوجب علينا اعتماد التاريخ الذي حـدده فرنسيس واردن لوصـول العتـوب إلى الكويت، وذلك إذا عرفنا أن أقرب تاريخ لهجرة العتوب من الهدار في نجد إلى سواحل الخليج هـو قبل سنـة ١٠٨٢هـ المـوافق ١٦٧١م وهي السنة التي اشتركوا فيها مع بني خالد في فتح القطيف كما ذكرنا، فإذا أضفنا إلى هذا التاريخ مدة نصف قرن نكون قد وصلنا إلى تاريخ واردن وهو ما ثبت خطأه وأن العتوب وصلوا قبله.

تولية صباح الأول حاكماً على الكويت

على الرغم من أن تحديد السنة التي تولى بها صبـاح الأول حكم الكويت لا زالت مجهـولة، إلا أننا نستطيع وضع تاريخ تقريبـي لتوليه الحكم، كما أننا نستطيع أن نقرر مطمئنين أن الشيخ صباح الأول هو أول من تولى الحكم في الكويت كما تجمع المصادر المحليـة والأجنبية، وأن ذلك كان في تاريخ قريب من تاريخ وصول العتوب إلى الكويت في مطلع القرن الثامن عشر. وهذا ما يؤكده تسلسل الأحداث التاريخية. فمن الثـابت أن العتـوب عنـد نـزولهم الكـويت واستقرارهم بها أرادوا العيش في وطنهم الجديد بأمان، فذهب صباح الأول على رأس وفد إلى والي بغداد يقدم الولاء للدولة العثمانية ويرجوها أن تتركهم يعيشون مطمئنين في بلدهم على أن يركنوا للسلام ولا يعتدوا على أحد، فوافق الوالي بعد مشاورات مع الباب العالي بشـرط أن تخضع الكويت (خضوعاً اسمياً) للدولة العثمانية وأن يلتزم أهلها جانب السلام ولا يقوموا بغزوات أو عدوان على القوافل المارة على طريقهم. وقد قبل الشيخ صباح الأول هذه الشروط. ومن هذا يتبين لنا أن صباح الأول كان حاكم الكويت منذ استقرار العتوب بدليل تفاوضه مع أكبر دولة في المنطقة وقبوله حمايتها طلباً للعيش في وطنهم الجديد بأمن واستقرار وتأمين جـانب الجارة القوية(٣٦).

كما أن ملاحظات واردن بالرغم من خطئها في تعيين تاريخ العتوب إلى الكـويت، قد وضعت تاريخاً ليس ببعيد عن التاريـخ الصحيح، إلى جانب أنها أوضحت أن شؤون الحكم كانت بيد (آل صـبـاح) وشـؤون التـجـارة آلت إلى (آل خليفة)، بينما كانت أمور البحـر يديـرها (الجـلاهمة)(٣٧). وهـذا التقسيم لأمور الحكم وإدارة البلد من كافة النواحي يمكن اعتماده، لصدوره من مسؤول بريطاني كبير في حكومة الهند التي كانت مهتمة بشؤون الخليج العربـي

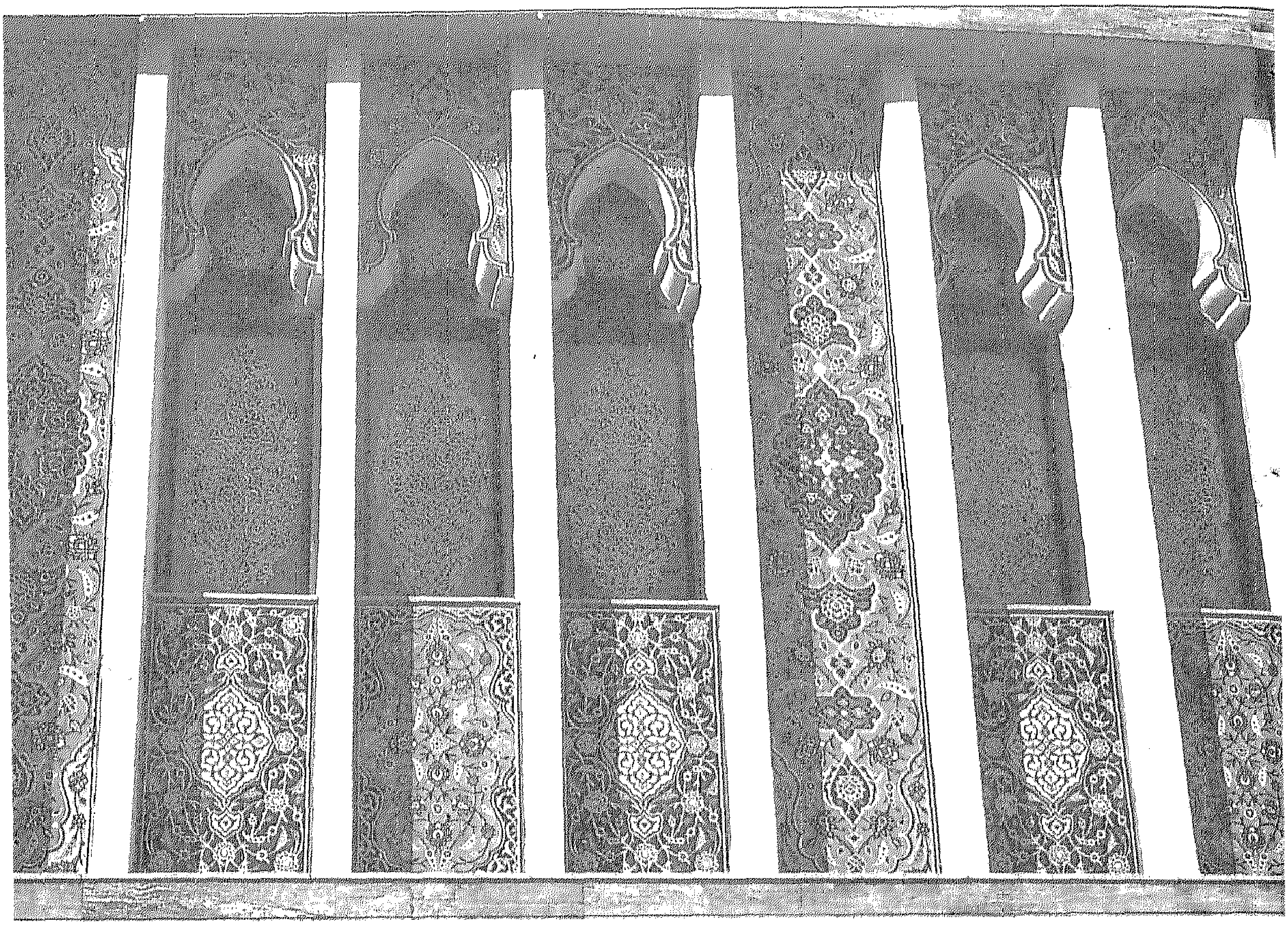

□ واجهة إحدى المباني، تعكس الماضي من خلال الحاضر.

ومتتبعة لأحداثه وذلك من خلال اهتمامها بأمر شركة الهند الشرقية (البريطانية)، وكانت تقاريرها بهذا الشأن تشكل وثائق يمكن الاعتماد عليها بصورة عامة في دراسة تاريخ المنطقة، بصرف النظر عما يقع فيها من بعض الأخطاء الزمنية البسيطة مثل خطأ واردن في سنة وصول العتوب إلى الكويت. فإذا اعتمدنا على هذا التقرير الذي تسانده المصادر المحلية والعربية والأجنبية في كون آل صباح هم الذين حكموا الكويت ولم يحكمها سواهم منذ استقرار العتوب فيها، ثم علمنا أن والد صباح الأول (جابر) قد توفي أثناء رحلتهم وبالتحديد في مدينة (الزبارة)، فإننا نستطيع أن نؤكد تولي صباح الأول منذ وصول العتوب إلى الكويت ما دامت أسرته هي التي تولت شؤون الحكم.

وفي هذا ما يخالف رأي الدكتور أبو حاكمة حين ذكر أن ملاحظات المستر واردن تحمل في طياتها خطأ في الترتيب الزمني للحكام، زاعماً أن صباح وخليفة لم يكونا قد ظهرا على مسرح الأحداث كزعيمين بعد، فهذا أمر غير صحيح لا تقره الأحداث ولا طبيعة الحياة القبلية، لا سيما للبدو الرحل، التي تفترض وجود زعامة معينة للقوم توجههم وتقودهم أثناء ترحالهم وإقامتهم ويرجعون إليها في تصريف أمورهم اليومية الخاصة. فإذا كان صباح وخليفة وجابر بن عتبة، أي زعماء الأسر الرئيسية الثلاث لم يظهروا كرؤساء لجماعة العتوب، فمن قاد هذه الجماعة منذ ارتحالها من موطنها الأصلي في منطقة الهدار في نجد..؟ ومن أدار أمورهم عند استقرارهم في الكويت؟

ومما يثبت شهرة صباح الأول وتوليه شؤون الحكم في الكويت في وقت قريب من تاريخ

استقرار العتوب أن (آل بنعلي) أو بن علي، (وهم جماعة رئيسية من العتوب) في هجرتهم المبكرة من الكويت إلى قطر حاولوا النزول في البحرين فمنعهم (آل بو مهير)، كما منعوهم من المرور بسفنهم بين المحرق والمنامة، وطلبوا منهم المرور شرقي جزيرة المحرق فأبى (آل بنعلي) ذلك، وفي ذلك قال شاعرهم رشيد بن عمار أبياتاً يكيل فيها المديح للشيخ صباح بن جابر[٣٨]. ولما كان للشعر دور في التاريخ فهو سجل تاريخ العرب لذلك نورد هذه الأبيات حيث يقول الشاعر:

يقول رشيد بن عمار ومن بنى
حسن القوافي من بيوت القصائد
يا مبلغ منى صباح بن جابر
فتى الجود جزل ما يمد الزهايد

إلى آخر القصيدة التي لا يهمنا منها في موضوع بحثنا إلا ما ذكرناه. ونحن نختلف مع أستاذنا الدكتور أبو حاكمة حين يبني على خطأ المستر واردن في تسمية زعيم أسرة آل صباح بـ «سليمان بن أحمد» عدة أحداث مهمة جداً في تاريخ الكويت، فبالرغم من أنني أوافقه فيما ذهب إليه في أن سليمان بن أحمد الذي أشار إليه المستر واردن ما هو إلا سليمان بن محمد أحد زعماء بني خالد والذي كان يحكم الأحساء في ذلك الوقت إلا أننا نعتقد أن خطأ واردن كان مجرد خلط في الأسماء، فنختلف مع الدكتور أبو حاكمة فيما بناه على ذلك من أحداث أولها أن الكويت كانت تحكم حكماً مباشراً من قبل بني خالد وأنها تابعة لحكم سليمان هذا بالتحديد إلى حين وفاته عام ١٧٥٢ حيث تمكن آل صباح من الاستقلال بالحكم، فمن الثابت أن بني خالد أقطعوا العتوب هذه البقعة من الأرض وسمحوا لهم بالاستقرار فيها وبناء حكمهم نتيجة لعلاقتهم المتينة السابقة والتي بدأت حين ساعدهم العتوب على فتح القطيف عام ١٦٧١، ولو أن الذي كان يحكم الكويت في تلك الفترة هو سليمان بن محمد على أنها جزء من بلاده لما ذهب صباح الأول على رأس الوفد المشار إليه آنفاً إلى والي بغداد طالباً الأمن. ولما أمكنه التصرف كحاكم للكويت في قبول شروط الدولة العثمانية بفرض حمايتها على بلاده.

ونحن نلوم الأستاذ الدكتور أبو حاكمة على هذه الأخطاء في الأحداث الأولية لتارخ الكويت كونه يعتبر مؤرخ الكويت الرسمي المدعوم من قبل لجنة رسمية عليا هي لجنة تاريخ الكويت، ويتجسم هذا الخطأ حين يأخذ عنه جميع المؤرخين المعاصرين في تسجيلهم لتاريخ الكويت وبنائهم لأهم الأحداث التي وقعت في تلك الفترة فيتبعونه فيما ذكر من أن أول من حكم الكويت حكماً مباشراً هو سليمان بن محمد أمير الاحساء وأن صباح الأول تولى الحكم بعد وفاته عام ١٧٥٢ حين استطاعت الكويت الاستقلال عن حكم بني خالد مستغلة ضعفهم نتيجة للخلافات الأسرية التي وقعت بين أفراد أسرة الخوالد إلى غير ذلك من الأحداث.

فيذكر د. أبو حاكمة تبعاً لما بناه من أحداث نتيجة خطأ واردن بالاسم أنه لم يكن لصباح الأول شهرة كبيرة قبل تسلمه شؤون المدينة وأن والده جابر مثلاً لم يرد له ذكر في الروايات المعاصرة. فلو لم يكن لصباح شهرة تميزه وتجعله أهلاً للحكم فما الذي جعل القوم يختارونه ويولونه ويعاهدونه على السمع والطاعة. كما أنه من الجائز أن جابر بن عتبة الذي ذكره واردن أنه زعيم الجلاهمة ما هو إلا جابر والد صباح الأول لأن زعيم الجلاهمة هو (عذبي) الذي هو جد الجلاهمة وآل بنعلي غير أن المصادر تعود وتسمي زعيماً آخر للجلاهمة هو (رحمة بن جابر) مما يدل أن والده جابر. ومن الثابت أنه كانت لجابر والد صباح زعامة في قومه أثناء رحلتهم من موطنهم الأصلي بالتعاون مع خليفة جد آل خليفة وعذبي جد الجلاهمة[٣٩]. وأنه استمر على هذه الزعامة إلى أن توفاه الله خلال الرحلة في مدينة الزبارة.

وبالتالي فإني أكاد أجزم أن كل ما أشار إليه الدكتور أبو حاكمة بهذا الصدد قد غلب عليه الخطأ، فقد أثبتنا فيما تقدم بالوقائع المادية أن صباح الأول تسلم الحكم في السنوات الأولى التي أعقبت وصول العتوب إلى الكويت حوالي عام ١٧٠١م / ١١١٢هـ. ونضيف إلى ذلك ما أشار إليه الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة (وزير العدل البحريني ورئيس مركز الوثائق التاريخية) حول ملاحظاته عن أعمار المهاجرين

الأوائل من أنه من غير المعقول أن يكون الشيخ صباح الأول قد توفي عام ١١٩٠هـ وذلك لأنه أحد المهاجرين الأوائل من الهدار وهجرتهم كانت قبل عام ١٠٨٢هـ (حيث كانوا في تلك السنة في الاحساء) وبما أن أعمار المهاجرين الأوائل عند هجرتهم تزيد على عشرين سنة أو ثلاثين سنة، فإذا افترض أن الشيخ صباح الأول والحالة هذه قد ولد عام ١٠٦٠ هجرية فإن الفرق بين هذه السنة وسنة ١١٩٠ هو ١٣٠ سنة[٤٠]، فلا يعقل أن يكون قد عاش كل هذه المدة ولا بد أن وفاته جاءت قبل هذا التاريخ بفترة طويلة لا تقل عن ثلاثين سنة أي أنه توفي حوالي عام ١١٦٠هـ الموافق ١٧٤٦م. وإذا علمنا أن الشيخ صباح الأول قد حكم فترة طويلة من الزمن فلا بد أنه تولى في السنوات الأولى لاستقرار العتوب في الكويت.

كما أن عثمان بن سند قد ذكر في كتابه (سبائك المسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد) أنه عندما انتقل رزق والد أحمد بن رزق إلى الكويت كان الحكم في الكويت للشيخ عبدالله بن صباح[٤٠] (الابن الأصغر للشيخ صباح)، ولما كان أقرب تاريخ لهجرة رزق من نجد إلى الكويت هو عام ١١٧٦ هجرية فلا بد أن تكون وفاة الشيخ صباح قبل ذلك بوقت غير قصير، لا سيما بعد أن عرفنا أن الشيخ عبدالله لم يخلف أباه مباشرة وإنما تولى الحكم بعد الشيخ صباح ابن آخر أكبر سناً هو الشيخ مبارك خلافاً لما تذكره المصادر المحلية. وهذا ما عرفناه من تقرير (Kniphausen) مدير شركة الهند الشرقية الهولندية في (خرج) ومساعده جان فان در هولست (Jan Fanehoulest) في سنة ١٧٥٦م وجاء في هذا التقرير عن العتوب ما مجمله أن الشيخ ناصر (نصر) المذكور لجأ إلى العتوب واستنجدهم في فتح البحرين على أن يعفيهم في مقابل ذلك من دفع أية ضريبة على ممارسة الغوص في مغاصات البحرين. وكان العتوب يعيشون في وئام. وأهمهم هو الشيخ مبارك بن صباح ولكنه صغير السن ومحدود الثروة[٤٢].

ولما كان التاريخ رواية ودراية كما يقول الدكتور علي أبا حسين فالرواية تسندها الوثائق، و الدراية هي ما يقبله العقل بالدليل المنطقي. وقد أثبتنا من خلال ما اعتمدنا عليه من وثائق وما توصلنا إليه بالدليل المنطقي بأن الشيخ صباح الأول هو أول من تولى حكم الكويت، وأن فترة توليه لشؤون الحكم تبدأ في السنوات الأولى التي أعقبت استقرار العتوب في الكويت حوالي عام ١٧٠١ وهذا التاريخ هو أيضاً ما أثبتناه من خلال الوثائق والوقائع المادية وتسلسل الأحداث بحيث أكدنا هذا التاريخ بالدليل المنطقي والمادي.

ويؤكد لنا تولي الشيخ صباح الأول في تاريخ مبكر من وصول العتوب إلى الكويت واستقرارهم فيها ما يذكره المؤرخون من أنه كان لأسرة آل الصباح لون من السيطرة السياسية على بقية فروع القبيلة منذ استقرارهم في الكويت، وتأسيس دولة العتوب فيها[٤٣].

نمو الكويت وازدهارها

كان لموقع الكويت الاستراتيجي الهام، ولطبيعة سكانها الجدد المسالمين، ومعرفتهم القوية والأكيدة بأصول التجارة والنقل البحري للتجارة والأفراد، ودرايتهم بفنون الغوص وأماكن المغاصات الغنية باللؤلؤ في الخليج العربي — الأثر الكبير في سرعة نمو الكويت بدرجة تدعو للاعجاب والفخر.

فقد نمت مدينة الكويت من حيث الأهمية والثروة نمواً عظيماً في الخمسين سنة الأولى التي أعقبت تأسيسها، ونجح العتوب بواسطة تحالفهم البحري مع سواهم من القبائل المجاورة وبفضل حكمة حكامها من آل الصباح أن يدعموا وجودهم[٤٤]، في وطنهم الجديد، وأن يوسعوا رقعة أرضهم ويمتدوا بسلطانهم بعيداً في المنطقة المجاورة لهم في الخليج العربي والجزيرة العربية. وقد غدت الكويت محطة للقوافل المسافرة بين حلب وشرقي الجزيرة العربية، وفي هذا دلالة على استقرار الأحوال السياسية في الكويت وعلى نموها وازدهارها التجاري في ذلك الوقت المبكر من عمرها. فقد كانت القوافل المارة بالكويت تحمل معها بضائع الهند التي كانت تصل على السفن الكويتية التي تحمل إلى جانب البضائع الركاب المسافرين إلى حلب وغيرها من الأماكن القريبة ممن يكونون قد وصلوا شمالي

الخليج العربي قادمين من الهند أو جنوبي الخليج العربي[٤٥].

ولعله من المناسب بهذا الصدد أن نشير إلى ما ورد بتقرير مدير شركة الهند الهولندية ومساعده عام ١٧٥٦م إلى الحاكم العام لشركة الهند الشرقية الهولندية (آنف الذكر) عن المنطقة الساحلية للخليج العربي وسكانها، إذ يذكر التقرير أن العتوب يمتلكون ٣٠٠ سفينة معظمها صغير ويستخدمونها للغوص على اللؤلؤ الذي هو مصدر معيشتهم إذا شحت الأمطار. ويبلغ عددهم ٤٠٠٠ نسمة. ولكن صغر حجم مراكبهم لا تسمح لهم بالابحار إلى مسافات طويلة، والمغاصات التي يرتادونها لصيد اللؤلؤ تقع بين البحرين ورأس بردستان[٤٦].

ونستفيد من هذا التقرير معرفة أحوال العتوب وأوضاعهم بصورة عامة وأنهم يمتلكون عدداً لا بأس به من السفن نسبيا، ويشتغلون في الغوص على اللؤلؤ الذي يعتبر مورداً هاماً لحياتهم.

ويعزز **تقرير آخر للدكتور ايفز (Dr. Ives)** ما ذهب إليه التقرير السابق في وصفه لأحوال العتوب. ولما كان الدكتور إيفز هو أول رحالة أوروبي يذكر الكويت بعد تأسيس العتوب حكمهم وذلك في وصفه لرحلته مع رفاقه عام ١٧٥٨م قادمين من الهند إلى أوروبا ـــ لذا كان من المفيد أن نشير إلى هذا التقرير بشيء من الايجاز لتتضح لنا صورة الكويت في ذلك الوقت. فقد حل الدكتور إيفز مع رفاقه في ضيافة البارون (Kniphausin) رئيس الوكالة التجارية الهولندية في (جزيرة خرج)[٤٧] واستفسروا منه عن أسرع الطرق إلى حلب، فأشار عليهم أن يتجهوا إلى الكويت ومنها يستطيعون السفر بسرعة إلى حلب بواسطة القوافل. وأكد البارون أن شيخ الكويت[٤٨] صديق عزيز عليه، وأن له عليه تأثيراً كبيراً نتيجة لفضل سابق قدمه للشيخ. لذا فهو واثق من مساعدته لضيوفه وتسهيل سفرهم عبر أراضيه وبواسطته. وأوضح البارون أن القافلة ستقطع الطريق بين الكويت وحلب في مدة تتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين يوما، وأنهم بذلك يختصرون زمناً يتراوح بين اسبوعين إلى أربعة[٤٩].

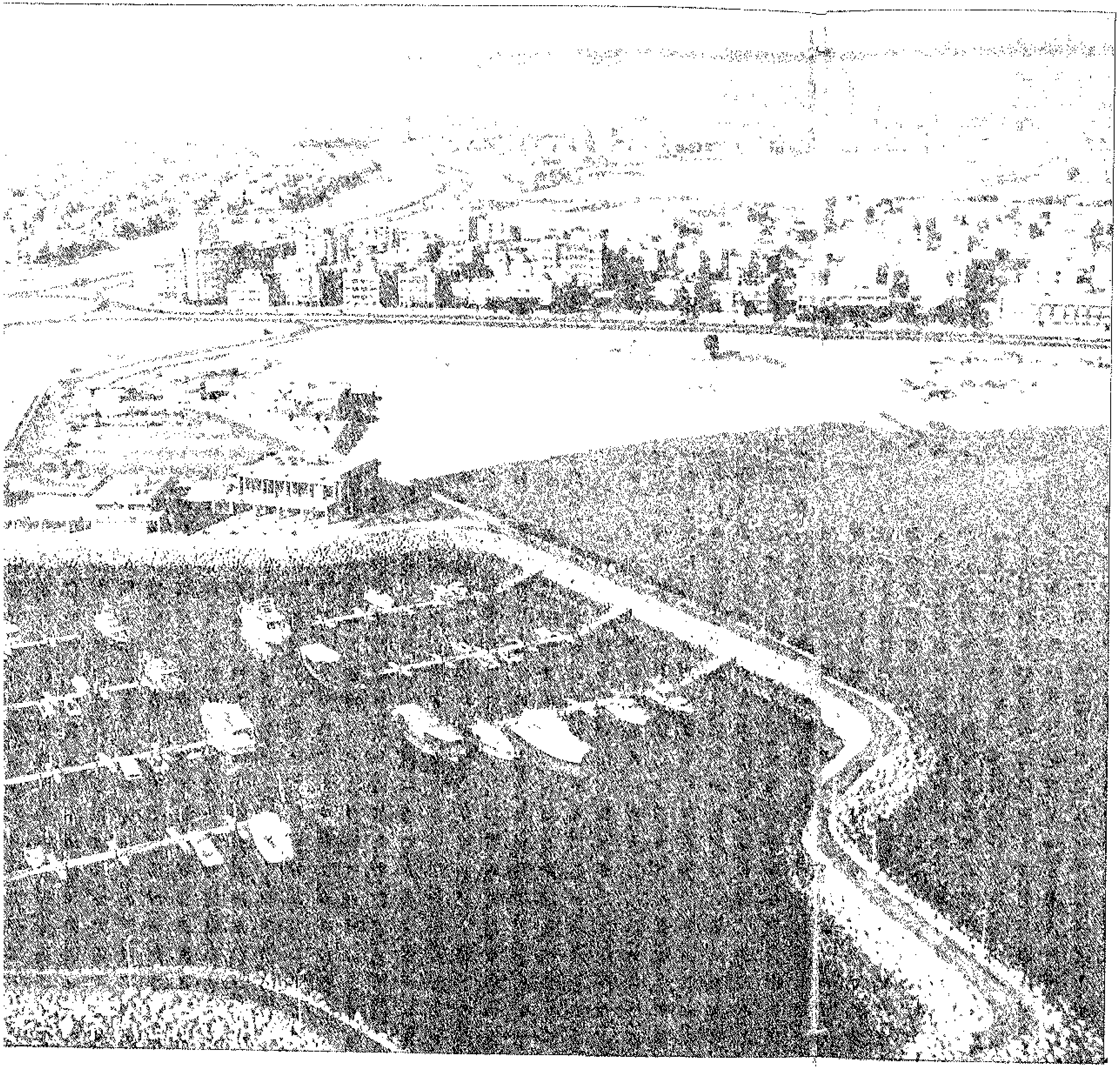

□ الكويت اليوم.

وبالرغم من أن هذه الرحلة لم تتم ـ نتيجة اختلاف البارون مع شيخ الكويت حول المبلغ الذي يتقاضاه الأخير نظير إيصال ضيوفه إلى حلب سالمين ـ إلا أنها أوضحت لنا على أية حال كيف كان البارون مطمئناً وواثقاً إلى أن طريق الكويت والسفر عبره إلى حلب هو أفضل الطرق وآمنها وأيسرها لكي يسلكه الأوروبيون مهما كان عددهم قليلاً دون خوف، مما يدل دلالة واضحة أن هذا الطريق كان معروفاً ومطروقاً بكثرة لأمانه وقصره نسبة إلى سواه من الطرق الأخرى في المنطقة، ونظراً لموقعه الممتاز بين المدن التجارية المشهورة في ذلك الوقت. وهذا لا شك يدلنا على حالة الاستقرار الأكيدة في الكويت، ويظهر لنا ما بلغته الكويت من ازدهار وانتعاش تجاري كبيرين. وهذا بحد ذاته أفاد الكويت فائدة مادية كبيرة لما تمتعت به من شهرة وسمعة طيبة في نقل التجارة عن طريق البحر عبر الخليج العربي من الهند وإليها، والتي كانت تحملها سفن التجار الكويتيين وغيرهم من تجار المدن المجاورة. وذلك إلى جانب الاشتغال بنقل التجارة عن طريق البر بواسطة القوافل من الكويت وإليها. فكانت الكويت وبالذات قرية الجهرة محطة للقوافل المتجهة من الكويت إلى البصرة والشام.

وكان هذا المصدر المادي الكبير المتأتي من تجارة النقل البحري والبري يمثل المصدر الأساسي والأكبر بالنسبة لدخل تلك المدينة الناشئة، يضاف إليه مصدر آخر مهم أيضاً وهو ما يتأتى للكويت من مال وفير بالنسبة لذلك الوقت وهو نتيجة ما تتحصل عليه من الغوص على اللؤلؤ. وقد بلغ عدد السفن المستخدمة في الغوص ثمانمائة سفينة، وذلك وفقاً لرواية الرحالة نيبور (Niebhuhr) عام ١٧٦٥م الذي أشاد بمهارة الكويتيين البحرية(٥٠). والفارق في عدد السفن بين ما ذكره (Kniphausen) عام ١٧٥٦م أن الكويت تمتلكه وبين ما يذكره نيبور عام ١٧٦٥م يوضح التطور السريع الذي سارت عليه الكويت في مجال قوتها البحرية المستخدمة في الغوص بحيث فاقت الزيادة في عدد السفن عن الضعف وقاربت الضعفين في مدة تقل عن عشر سنوات، وهو أمر ملفت للنظر. وقد نستغرب أن يكون للكويت في تاريخها المبكر هذا العدد من السفن التي تستخدمها في الغوص وحده. هذا غير ما عداها من السفن والمراكب مما هو مستخدم في أغراض أخرى مثل التجارة والنقل البحري للتجارة والأفراد، ثم السفن الحربية التي تتطلبها حالة الصراع والتنافس بين القوى في منطقة الخليج العربي، وتستوجب وجودها دواعي حماية المدينة الجديدة. إلا أن عجبنا يتلاشى عندما نتذكر ما جاء في الوثيقة العثمانية (رقم ١١١ في دفتر المهمة) عن قوة العتوب الذين برعوا في ركوب البحر وصار لهم سفن تحمل المدافع والجنود المسلحين. وأصبحوا من القوى التي تسيطر على الغوص والتجارة في الخليج العربي إلى درجة أدعى معها والي البصرة أن سفن التجار لم تتمكن من المرور بأي بندر (ميناء) في الخليج العربي في طريقها إلى البصرة دون التعرض لقوتهم. كما أشارت الوثيقة أن الوالي الفارسي على البحرين بات يخشى هذه القوة البحرية المتزايدة مما دعاه لاغراء (الهولة)(٥١) على محاربتهم ومناوشتهم في البحر لا سيما بعد أن أحسوا بمنافسة العتوب لهم في النقل البحري (القطاعة) والغوص مما دفعهم إلى مهاجمة العتوب بغتة عند (رأس تنورة) وجرت معركة قتل فيها أربعمائة من العتوب(٥٢). وعندما علم العتوب أن ذلك الهجوم كان بتدبير من والي البحرين (مهدي علي خان) قرروا مهاجمة البحرين بالفعل عام ١١١٢هـ، الموافق ١٧٠٠م(٥٣) فاستطاع العتوب السيطرة على البحرين والتجأ واليها الفارسي إلى القلاع وتحصن بها هو وجنده.

ويشير د. أبا حسين أن معركة (رأس تنورة) بين الهولة والعتوب وقعت بعد هذه المعركة، وعلى أثرها يمموا البصرة، وأن ما حصل قبل الهجوم على البحرين بين العتوب والهولة كان مجرد مناوشات. أما بعد مهاجمة البحرين فقد كتب القاضي الشيخ محمد بن عبدالله بن ماجد إلى الهولة حيث كانت الدولة الايرانية أضعف من أن تنجدهم فلبى الهولة وهاجموا العتوب في رأس تنورة(٥٤).

ومهما يكن الأمر سواء كانت معركة (رأس تنورة) قبل أو بعد مهاجمة البحرين، فالذي يهمنا

أن نثبت من خلال هذه المعارك قوة العتوب الكبيرة وكثرة سفنهم ومعداتهم الحربية، واشتغالهم بالتجارة والنقل والغوص على اللؤلؤ. فإذا كانت هذه هي حالهم قبل وصولهم إلى الكويت واستقرارهم فيها وبناء وطنهم الجديد، أي أن تلك كانت قوتهم وهم في مرحلة التنقل والسفر وعدم الاستقرار ـــ فكيف تكون أحوالهم عند استقرارهم وتأسيس حكمهم وإرساء دعائم دولتهم. فمما لا شك فيه أن تلك القوة ستتعزز، وذلك النشاط والازدهار الاقتصادي سيقوى وينمو.

لقد برع أبناء الكويت (الجدد) في مهنة النقل التجاري البحري، وكانوا على دراية واسعة بالمواني القريبة والبعيدة وبأيسر الطرق للوصول إليها، وأماكن رسو السفن، وكان هدوء مياه الخليج العربي عاملاً مشجعاً على ركوب البحر ومزاولة هذه المهنة، لا سيما وأن ميناء الكويت (القرين) اشتهر منذ فترة طويلة كمحطة لرسو السفن مما ساعد سكان الكويت القدماء (في التاريخ القديم والوسيط) على مزاولة مهنة النقل التجاري.

إلا أنه لا بد من التأكيد على أنه حتى الربع الأخير من القرن الثامن عشر اقتصر عمل السفن الكويتية الشراعية على المواني القريبة مثل البصرة ومسقط وفارس وباقي مواني الخليج العربي، وذلك نظراً لكون السفن المستعملة آنذاك كانت صغيرة ومن اليسير عليها الابحار بعيداً عن مياه الخليج العربي، ولكن منذ الربع الأخير من القرن المذكور وبعد أن ازدهرت تجارة الكويت بدأ العمل في بناء السفن الكبيرة للسفر بواسطتها إلى الهند وسواحل أفريقيا.

نمو الكويت السياسي وعوامله

أعقب فترة تأسيس الكويت فترة ازدهار الخليج العربي. ولعل بداية هذا النمو والازدهار يمكن تحديدها ببداية حكم الشيخ صباح بن جابر حين صار شيخاً لجميع العتوب النازلين بأرض الكويت فقد شهدت الكويت تحولات سياسية هامة على أثر توليته كان لها الفضل في إبراز الكويت كوحدة سياسية هامة ومؤثرة في المنطقة وذلك بالرغم من صغر مساحتها وقلة سكانها، إلا أن حكمة ذلك الشيخ الجليل وتواضعه إلى جانب تعاون العتوب ونشاطهم الجاد في مختلف الأمور التي ساعدت على النهوض بوطنهم الجديد وعلو شأنه ومكانته في الفترة القصيرة جداً التي أعقبت استقرارهم في الكويت مما شد الأنظار إلى هذه البقعة القصيرة فكان نجاح العتوب في إبراز كيان وطنهم السياسي المستقل وعملهم الجاد على تطويره وتنميته والارتفاع به إلى أكبر من حجمه مدعاة إعجاب المحيطين والمؤرخين والرحالة الذين بدأ توافدهم على المنطقة يزداد في تلك الفترة.

وتعتبر الخمسينات من القرن الثامن عشر سنوات حسم بالنسبة لتاريخ الكويت حيث استقرت أحوالها بصورة عامة ونضجت أوضاعها السياسية وتطورت تطوراً سريعا وقطعت شأواً كبيراً في النمو والازدهار وتعاظمت فيه قوتها فكانت هذه القوة مما ساعد العتوب على تأسيس دول لهم في جنوب الخليج العربي، فأسسوا في تلك الفترة دولتهم في الزبارة بقطر، ثم مدوا سلطتهم على البحرين، فأدى قيام تلك الدول للعتوب وتحالفها مع عتوب الكويت بدوره إلى زيادة تطور الأخيرة وتقدمها السريع(٥٥)، وبلوغها شأناً عظيماً من الازدهار. وقد تضافرت عوامل عديدة، منها الداخلية ومنها الخارجية مع بعضها البعض لتزيد من سرعة نمو الكويت وتقدمها. ويمكن أن نوجز أهم هذه العوامل والأسباب بما يلي:

أولاً ـــ خروج البرتغاليين من الخليج:

أتاح خروج البرتغاليين من الخليج وانعدام قوتهم الاستعمارية المؤثرة على سير الأحداث، الفرصة أمام عتوب الكويت لتعزيز حكمهم واستقرارهم دون الخوف من خطر البرتغاليين على وطنهم الجديد واستقلالهم به، وترك المجال واسعاً أمام العتوب في الكويت لممارسة نشاطهم التجاري والتوسع به في أنحاء الخليج ومتابعة أعمال النقل البحري والغوص على اللؤلؤ والتوسع في هذه المجالات بحرية وأمان. وبالرغم من أن خروج البرتغاليين كان في فترة متقدمة على إنشاء العتوب لدولتهم في الكويت وبالتحديد كان خروجهم في منتصف القرن السابع عشر بينما كان استقرار العتوب في الكويت في مطلع القرن

الثامن عشر إلا أن خروج البرتغاليين مكن العتوب من إتمام رحلتهم من موطنهم الأصلي في نجد نحو موطنهم الجديد في الكويت بسلام، كما خلصهم من سياسة البرتغاليين القائمة على التعصب والجشع والاحتكار والقسوة(٥٦)، وبالتالي تمكن العتوب من تأسيس حكمهم وتطوير بلدهم سياسياً واقتصادياً دون التعرض لشر الاصطدام بالبرتغاليين. وبالرغم من ظهور قوى أوروبية أخرى في الخليج العربي (الهولنديين والانكليز) إلا أنها كانت أقل تصلباً وتسلطاً في التعامل مع أهله، لذلك لم يكن لهذه القوى أثر معاكس لنمو الكويت وتطورها.

ثانياً ـ القوة البحرية: إن القوة البحرية التي أسسها العتوب للنقل والغوص والتجارة كانت مزودة بأدوات عسكرية كالمدافع والبنادق وغيرها(٥٧)، مما جعلها قوة بحرية كان لها أثرها على مياه الخليج وسواحله في ذلك الوقت، لا سيما وأنهم وصلوا إلى الكويت وهم محافظون على قوتهم البحرية، لأنهم ومن والاهم من العشائر برعوا في ركوب البحر وصار لهم سفن تحمل المدافع والجنود المسلحين، وأصبحوا من القوى التي تسيطر على الغوص والتجارة في الخليج العربي(٥٨). وتعززت تلك القوة البحرية في الربع الأخير للقرن الثامن عشر حين تأسست البحرية الكويتية التي علا شأنها بين دول الخليج العربي في ذات الوقت، مما دعم قوة الكويت الدفاعية وأرسى قواعد استقرارها. فنتيجة لنمو تجارة الكويت زادوا من سفنهم التجارية وكبروا حجمها، وصحبت هذه الزيادة في السفن التجارية زيادة في السفن الحربية لحماية اسطولهم التجاري، وبالتالي فإن الكويت أصبحت ذات قوة بحرية كبيرة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر.

ثالثاً ـ التطور التجاري والاقتصادي: مما لا شك فيه أن الكويت استفادت فائدة كبرى مما حققته من نشاط تجاري ينمو على الأيام، وما بلغته من مستوى مرموق في نقل التجارة عن طريق البحر والقوافل من الكويت وإليها. ثم تتطور مهنة الغوص على اللؤلؤ وصناعة السفن، مما أفادها فائدة مادية كبيرة أثرت في انتعاشها الاقتصادي فانعكس ذلك الانتعاش على نموها السياسي واستقرار الحكم فيها وثبات نفوذه.

رابعاً ـ حماية بني خالد: نشأت الكويت في أول عهدها في ظل حكم بني خالد وتحت حمايتهم مما أعطاها الفرصة للنمو والازدهار دون خشية الهجمات والغارات والاعتداءات الخارجية، حيث كان بمقدور شيوخ بني خالد أن يتصدوا لمن يحاول الاعتداء على ممتلكاتهم وعلى من يستظل بحمايتهم. وقد حرص أمراء بني خالد على استتباب الأمن في ديارهم(٥٩) حتى تكون الطرق التجارية فيها متمتعة بالطمأنينة والأمن. فكان بمقدور بني خالد منح حمايتهم لسائر المدن في المنطقة التابعة لهم. وفي ظل هذا الأمن الخالدي نشأت الكويت وترعرعت، ونمت وتطورت، هذا في الوقت الذي استعرت فيه الخلافات الأسرية فأنهكت الخوالد منذ العقود الأولى من القرن الثامن عشر الميلادي مما أتاح الفرصة للعتوب لكي ينفردوا بحكم المناطق التي استقروا بها وأسسوا دولتهم فيها.

خامساً ـ عدم وجود قوة بحرية ضاربة في الخليج: من العوامل التي ساعدت الكويت على النمو والازدهار وسط ظروف آمنة مستقرة عدم وجود قوة بحرية ضاربة في الخليج إلا قوة العشائر العربية القاطنة على ضفافه بشطريه العربي والفارسي. أما قوة عمان فقد وجهت نحو التوسع خارج الخليج في هذه الفترة التاريخية التي شهدت حكم (سيف بن سلطان) من أسرة اليعاربة والذي امتد حكمه ما بين ١١٠٤هـ / ١٦٩٢م إلى سنة ١١٢٣هـ / ١٧١١م حيث بلغت أمامة عمان أوج عظمتها بفضل تكوينه أسطولاً بحرياً قوياً مد به نفوذ بلاده إلى الهند وشرقي إفريقيا، ونجح اليعاربة في إلحاق الهزيمة بالبرتغاليين مما شغلهم عما يدور في الخليج، فوجد العتوب فرصتهم في ممارسة نشاطهم التجاري وصار لهم اسطولهم الذي يجوب الخليج.

سادساً ـ ضعف بلاد فارس: ساعد اضطراب أحوال بلاد فارس وعدم استقرارها، الكويت الناشئة على النمو والتطور دون أن تتعرض لخطر جشع حكام فارس واعتداءاتهم ودون أن تقع تحت تأثيرهم أو سيطرتهم، فحين استقر العتوب في الكويت في مطلع القرن

الثامن عشر كانت الامبراطورية الصفوية قد دب فيها الهرم نتيجة للفوضى والاضطراب التي سادتها(٦٠)، مما دفع الشعوب الواقعة تحت نفوذها إلى محاولة الاستقلال فقامت بحركات عسكرية للتخلص من سيطرة الفرس، وذلك في الوقت الذي تعرضت فيه فارس للغزو الأفغاني ثم العثماني ثم الروسي على التوالي مما أتاح الفرصة للدول الناشئة في الخليج العربي ومنها الكويت إلى التحرر من أي نفوذ فارسي قد يحاول حكام إيران فرضه عليها. وكان ذلك خلال حكم (سلطان حسين بن الشاه سليمان) ١٦٩٣ ــ ١٧١٢م(٦١). وعندما آل الحكم لنادر شاه عام ١٧٢٦م سيطر على فارس وامتدت أطماعه إلى الخليج العربي وتبنى (سياسته البحرية) في الشمال والجنوب أي في بحر قزوين والخليج العربي، إلا أن هذه السياسة باءت بالفشل لعدم توفر البحارة الفرس اللازمين لمواكبة ذلك الطموح السياسي. وكان قوام اسطوله من الهنود والبرتغاليين(٦٢).

سابعاً ــ أوضاع العراق العثماني: عملت الأوضاع السياسية المهلهلة السائدة في العراق العثماني على أن تحتل الكويت مكاناً مرموقاً في عالم الخليج العربي، فقد شهدت البصرة منذ أواخر القرن السابع عشر ومستهل القرن الثامن عشر الميلادي فترة اضطرابات وفتن استمرت حتى نهاية النصف الأول من القرن الثامن عشر. وقد صاحب هذه الاضطرابات انتشار وباء الطاعون الذي أفنى البصرة وخربها خراباً أدى إلى هجرة بعض أهليها، وبهذا لم تكن أوضاع العراق العثماني بأحسن حال من جيرانهم الفرس. لذا فلم يكن بمقدورهم بالتالي أن يلعبوا دوراً ذا بال في هذه الحقبة من الزمن، بالاضافة إلى أن قوتهم لم تكن قادرة على تحدي قوة بني خالد على السواحل الشرقية للخليج العربي. ويكفي أن نقول أن البصرة خلت من السكان بسبب الطاعون والمجاعة واضطهاد حكامها العثمانيين وتسلطهم(٦٣).

ثامناً ــ احتلال الفرس للبصرة (١٧٧٦ ــ ١٧٧٩): لما كان لاحتلال الفرس للبصرة تأثير سياسي وتأثير اقتصادي، لذا سنتكلم هنا عن التأثير السياسي تاركين التأثير الاقتصادي والأكثر أهمية إلى مجاله. فبالنسبة للتأثير السياسي نجد أن احتلال الفرس للبصرة دفع بكثير من أهلها ــ ولا سيما من كانوا من أصول نجدية وعربية ــ إلى الهجرة إلى الكويت، فزاد ذلك من سكان الكويت بشكل ملحوظ، مما زاد من مسؤولياتها السياسية تجاه القادمين الجدد وترتيب أمور استقرارهم، واتخاذ ترتيبات أمنية لمواجهة أي محاولة فارسية للامتداد إلى الكويت، في الوقت الذي أدى هذا الاحتلال إلى تلاشي أي محاولة من سلطات البصرة إلى تحويل سلطاتها الاسمية إلى سلطات فعلية بفرض تبعية الكويت للدولة العثمانية أو محاولة ضمها.

ومن ناحية أخرى فإن احتلال الفرس للبصرة حول الأنظار إلى الكويت مما دعم مركزها السياسي لدى القوى المحلية (العربية) والقوى الأجنبية المتمثلة بالشركات التجارية مثل شركة الهند الشرقية الهولندية وشركة الهند الشرقية الانكليزية. وهكذا سنحت الفرصة للكويت للظهور والبروز في المنطقة، كما أن الكويت لم تتأثر سلبياً بنتيجة الاحتلال، لأن حكامها عرفوا كيف يتصرفون أثناء الحصار، فاتبعوا سياسة ذات حدين في إرضاء الطرفين لأنهم كانوا يجهلون لمن ستكون الغلبة، فساعدوا (كريم خان) بأن أرسلوا له حوالي مئتي رجل لمساعدته، في حين استقبلوا السفن العثمانية لاصلاحها في ميناء الكويت(٦٤).

تاسعاً ــ النزاع بين القواسم ومسقط: كانت القوتان العربيتان الكبيرتان في الطرف الجنوبي من الخليج العربي وهما القواسم في صور وسلطان مسقط ــ في صراع مستمر وتنافس دائم فمنحت حالة النزاع والشك التي طبعت العلائق بين إمام عمان والقواسم فرصة إضافية للعتوب للنمو بدون الخوف من اعتداء الامام أو القواسم حتى عام ١٧٨٢(٦٥).

عاشراً ــ حرص الشركات الأوروبية على الأمن في الخليج: بعد أن عملت قوتان أوروبيتان متضامنتان على طرد البرتغاليين من الخليج العربي وإقصاء نفوذهم التجاري والسياسي عنه وهما الانكليز والهولنديون(٦٦) سعت كل من هاتين الدولتين إلى تأسيس وتثبيت مصالحها التجارية والسياسية في المنطقة من خلال شركتي

الهند الشرقية الهولندية والهند الشرقية الانكليزية. أما الفرنسيون فيبدو أن وجودهم في الخليج كان سياسياً أكثر منه تجاريا، إلا أنهم أسسوا أيضاً شركة تجارية تسمى شركة الهند الشرقية الفرنسية، وهي شركة بدأت في العمل منذ بداية القرن السابع عشر، غير أنها كانت تضعف ويقل نشاطها بين فترة وأخرى[٦٧].
ومهما يكن الأمر فقد كان يهم شركات الهند الشرقية الثلاث استتباب الأمن والسلام في المنطقة حتى تزدهر التجارة. وكان من الطبيعي أن ازدهار التجارة يشكل الركن الأساسي لنهضة الكويت، إلى جانب أن حرص القوى الأوروبية على الأمن والسلام ساعد الكويت على أن تنمو وتزدهر وهي في مأمن من تعديات الغزاة في المنطقة الذين واجهوا تصدي ومقاومة تلك القوى الأوروبية الثلاث التي كان أكثر ما يهمها هو الأمان والاستقرار في النصف الأول من القرن الثامن بحيث يمكن إغفال أي نفوذ لها في المنطقة في تلك الفترة التي لم تلعب فيها دوراً خطيراً لا في السياسة ولا في تجارة الخليج مما ترك المجال واسعاً للأمتين الأوروبيتين الأخريين اللتين احتلتا مركز الصدارة في تجارة وسياسة الخليج في تلك الفترة من الزمن وهما الهولنديون والانكليز.

وبالرغم من مساهمة الهولنديين بدور كبير في طرد البرتغاليين من الخليج إلا أن الانكليز كانوا موقنين بأن خطر الهولنديين السياسي والتجاري يفوق الخطر البرتغالي، ومن هنا بدأ التنافس والتناحر بين كل من الأمتين، وقد وقعت عدة اشتباكات بين حليفي الأمس في ذلك القرن، مما شغل كلاً منهما عن محاولة فرض نفوذ سياسي له على مناطق الخليج التي لم تكن تابعة له، فعاشت الكويت وتطورت في تلك الفترة وهي مستقلة عن نفوذ أي منهما السياسي على الأقل.

الحادي عشر ـ عدم تعرض الكويت للخطر الوهابي: كانت مراكز الوهابيين[٦٨] في الدرعية وغيرها من بلاد نجد بعيدة عن الكويت، بالاضافة إلى أن قوتهم لم تكن قد ظهرت بعد، فقد تركزت السلطة السياسية في ساحل جزيرة العرب الشرقي بيد شيوخ بني خالد في أوائل القرن الثامن عشر حتى عندما بدأت قوة الدرعية في الظهور إلى حيز السياسة العامة عام ١٧٤٥م بعد أن لجأ لها (محمد بن عبدالوهاب) وتحالف مع محمد بن سعود على نشر دعوته وإقامة دولة الموحدين في نجد، إلا أن الوهابيين اتخذوا من بني خالد موقف المدافع لا المهاجم على مدى عشرين سنة منذ عام ١٧٤٥م وحتى ١٧٦٥م مما حفظ الكويت في تلك الفترة من تعديات الوهابيين وخطرهم حيث لم تكن هجماتهم قد استعرت بنيرانها شمالاً وشرقاً بعد، غير أن العتوب كان ولا بد أن يتأثروا بالهجوم الوهابي على الأحساء في وقت لاحق عندما غير الوهابيون موقفهم واتخذوا موقف المهاجم إذ توالت غزواتهم واشتدت على بني خالد في الفترة ما بين عامي ١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م و ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م[٦٩]. حتى تم لهم القضاء على نفوذهم في الاحساء وشرقي الجزيرة العربية، فالتجأ شيوخ بني خالد إلى الكويت، غير أن كرم ضيافة الكويتيين لبني خالد زاد من عداوة الوهابيين لهم. وهكذا بقيت الكويت بعيدة عن متناول الوهابيين ما دام بنو خالد من القوة بحيث يمكنهم تحدي قوة الوهابيين. وعندما زالت تلك القوة تعرضت الكويت في أواخر القرن الثامن عشر لخطر الوهابيين مما أثر على أحوالها السياسية والاقتصادية.

الثاني عشر ـ عدم أهمية الكويت: بالرغم من اطراد نمو الكويت السياسي والاقتصادي بشكل سريع إلا أنها لم تكن غنية بشكل كاف حتى تلفت أنظار جيرانها الأقوياء[٧٠] كما أن قلة أهميتها السياسية وعدم بروزها بشكل واضح في ذلك الوقت ساعد في عدم اندفاع هؤلاء الجيران وبقية القوى في المنطقة إلى محاولة فرض نفوذهم وهيمنتهم عليها، مما تركها تنمو وتترعرع وتزدهر محافظة على استقلالها وعدم تبعيتها الفعلية إلى أي من هذه القوى والدول.

نظام الحكم في الكويت

بعد أن تتبعنا تاريخ الكويت منذ وصول العتوب إليها وتأسيس حكمهم فيها وقيام دولتهم على أرضها، ثم بحثنا العوامل والظروف التي ساعدت هذه الامارة الصغيرة على ذلك النمو والازدهار السريعين، ولما كانت طبيعة نظام

□ في المركز الوطني للأبحاث العلمية في الكويت

الحكم في الكويت من أكثر تلك العوامل التي ساعدت على نموها وازدهارها أهمية، لذا آثرنا أن نترك هذا العامل الأساسي والحيوي إلى النهاية لنفرد له جانباً نتعرف من خلاله على أهم ما اتصف به نظام الحكم في الكويت بصورة عامة وموجزة لنتبين طبيعة ذلك النظام ومدى مواءمته وملاءمته لشعبه وظروف بلاده وما يحيط بها. بحيث حقق لشعبه ما يصبو إليه من رفاهية ورخاء، وحفظ لبلاده استقلالها وحريتها، وسط ذلك الخضم المتصارع من القوى الكبرى التي أحاطت بالكويت من كل جانب منذ تأسيسها. ولنوضح قبول نظام الحكم لتلك التطورات التي حدثت ونؤكد استجابته لدواعي التقدم والنهوض على المدى الطويل، كما سيتضح في فترة لاحقة مثل الفترة التي نعيشها في تاريخنا المعاصر.

فقد تميز نظام الحكم في الكويت بكونه نظاماً أبويا، يعتمد على التشاور والتراحم والتعاون في كافة صوره. فلم تشهد الكويت منذ تأسيسها تعقيداً في أنظمة الحكم فيها. وذلك نتيجة للظروف التي كانت سائدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حيث كانت البساطة هي الطابع المميز للنظام في الكويت[71]. فإذا أخذنا في الاعتبار الحجم السكاني للكويت، والظروف التي تعيشها فإننا نستطيع القول بأن نظام الحكام كان أقرب ما يكون إلى نظام الشورى في الاسلام[72].

وبصفة عامة فإن معاصري تأسيس الكويت ومتتبعي تاريخها الحديث يشيرون إلى أن نظام الحكم في الكويت يتصف بالشورى. ويدللون على ذلك بأن أول حاكم حكم الكويت في بداية نشأة كيانها (صباح الأول) كان قد تولى مسؤولياته في الحكم بطريقة الاختيار التي تماثل طريقة الانتخاب. ولا شك أن هذه الطريقة في الاختيار تعطي صورة واضحة لما كان عليه أسلوب الحكم والحياة في الكويت منذ البداية[73].

هذا بالاضافة إلى ما يذكره المرحوم الشيخ يوسف بن عيسى القناعي في كتابه (صفحات من تاريخ الكويت) من «أن الشيخ عبدالله بن صباح الأول كان لا يبت في أمر مهم إلا بعد مشاورة جماعته ولا يخالفهم فيما يرونه صوابا»[74]. كما يذكر نفس المصدر أن الشيخ صباح بن جابر تراجع عن قرار كان ينوي اتخاذه لأن أهل الرأي بين جماعته عارضوه فيه[75]. ويذكر الأستاذ جاسم الصقر[76] (عضو مجلس الأمة الكويتي) أن (المرحوم خليفة الشاهين الغانم) روى له روايات حدثت في عهد الشيخ (جابر العيش)[77] تؤكد صحة ما أشرنا إليه من اتباع الكويت لنظام الشورى منذ تأسيسها، إلا أن تأكيدنا هذا لا يجعلنا نذهب بعيداً لنصف نظام الحكم في الكويت بصفة الشورى والديمقراطية في كافة مراحله، بل لا بد أن نعترف بأنه مرت على الكويت بعض الظروف والأحداث التي دعت القائمين على الحكم فيه ينصرفون عن الشورى، ويتجهون إلى النظام الفردي. وكان ذلك في عهد الشيخ مبارك مثلاً. ●

الهوامش

(١) الكويت: هي تصغير لكلمة «كوت» وهي القلعة. ويختلف المؤرخون حول أصل تسمية الكويت مثلما اختلفوا على تاريخ تأسيسها ووصول العتوب إليها وتاريخ اختيار صباح الأول، وتتراوح الآراء بين الاشتقاق اللغوي والمكان الجغرافي، وبين الأصل الأجنبي أو العربي. فبينما يؤكد الأب انستاس ماري الكرملي انها من الكلمات الدارجة لدى سكان جنوب العراق وشبه الجزيرة العربية وبعض أجزاء من فارس وانها تعني البيت الذي يشبه القلعة بحيث يمكن الدفاع عنه إذا تعرض لهجوم ولا يطلق عليه هذا الاسم إلا إذا كان محاطاً بماء سواء كان نهراً أو بحراً، يردها الشيخ محمود شكري الألوسي إلى النبطية، والنبطية وردت عند الناطقين بالضاد (العرب) وهذا يعزز ما ذهب إليه الأب الكرملي، غير أن البعض يذكر أنها برتغالية وانها تعني الحصن. إلا أن الأستاذ العزاوي (مؤرخ عراقي) في كتابه «علم الفلك في العراق» ينفي ذلك ويردها إلى الأصل الهندي حيث سميت كثير من المدن الهندية بهذا الاسم مثل (قال قوت). ومهما يكن أصل الكلمة فإن الجميع يجمعون على اشتقاقها من كلمة (كوت) بمعنى القلعة المربعة.

(٢) بالرغم من أن الدكتور ابو حاكمة يعتبر أول مؤرخ اكاديمي كتب تاريخ الكويت بصورة علمية شاملة معتمداً في ذلك على الوثائق التاريخية والمعلومات التي زودته بها لجنة تاريخ الكويت، إلا انه مع الأسف لم يفدنا بما يفك اللبس عن هذه الأشياء المذكورة ويؤكد ويحدد تاريخها بشكل قاطع. مما يجعلنا في حيرة من أمرنا.

(٣) عبدالعزيز الرشيد تاريخ الكويت، ص ٣١. (منشورات دار مكتبة الحياة ــ بيروت ــ ١٩٦٣م).
(٤) تنتمي أسرة آل سعود إلى نفس القبيلة (عنزة) وبذلك تكون ثلاث أسر حاكمة في الخليج (السعودية والكويت والبحرين) تعود في أصلها إلى هذه القبيلة. ولا شك أن هذا الأصل الواحد يعزز الترابط بين هذه الدول الثلاث.
(٥) عثمان بن سند المصري: سبائك المسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد، ص ١٨. (بومباي ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م).
(٦) لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب (مجهول المؤلف) ص. ص. ٩٥ ــ ١٠٧.
(٧) عن رواية المغفور له الأمير الأسبق الشيخ عبدالله السالم الصباح للكولونيل (ديكسون Dickson) المعتمد البريطاني في الكويت والذي جاء إلى الكويت عام ١٩٣٩م وظل فيها حتى وفاته عام ١٩٦٠ وله علاقات طيبة مع أهلها.
(٨) د. أبو حاكمة، تاريخ الكويت الحديث (١٧٥٠ ــ ١٩٦٥م)، ص ٢٣، (الكويت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٤).
M. Vonoppenheim Die Beduinen, Leipzig 1939. 1.62.
(٩) يقول بن سند: «والذي يظهر أن بني عتبة متباينو النسب، ولم تجمعهم شجرة أم وأب، ولكن تقاربوا فنسب بعضهم إلى بعض».
(١٠) الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة، مجلة الوثيقة، العدد الثالث، السنة الثانية ــ رمضان ١٤٠٣هـ يوليو ١٩٨٢، ص ١٤.
(١١) تعليق الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة على مقالات (البحرين قديماً وحديثاً) بجريدة الوطن الكويتية المنشور في مجلة الوثيقة التي يصدرها مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين ــ العدد الثالث / السنة الثانية رمضان ١٤٠٣هـ ــ يوليو ١٩٨٣م.
(١٢) وقد جددت دائرة الأوقاف العامة مسجد آل خليفة بتاريخ ١٣٧٤/٨/٣هـ الموافق ١٩٥٥/٣/٢٧م، وبلغت تكاليفه ١٤٥,٩٩٩ روبية، لذا فقد تكون المطالبة بهذا الوقف في ذلك التاريخ.
(١٣) الوثيقة، العدد الأول، السنة الأولى رمضان ١٤٠٢هـ ــ يوليه ١٩٨٢م (مركز الوثائق التاريخية البحرين)، ص ٩٤.
(١٤) صورة الوثيقة الخاصة بوقف النخل في المبرز بالاحساء، وعن مجلة الوثيقة، العدد الأول، ص ٩٦.
(١٥) د. علي أبا حسين، مقال (دراسة في تاريخ العتوب) مجلة الوثيقة العدد الأول، ص. ص ٧٨ ــ ١٠١.
(١٦) عبدالعزيز الرشيد، المصدر السابق، ص ٣٣.
(١٧) Bombay Seleckons, XXIV, 140.
(١٨) يمضي الأستاذ عبدالعزيز الرشيد في رواية أدبية محببة في سرد تفاصيل محاولة الظفير مهاجمة العتوب ذاكراً أن الظفير في طريقها لمهاجمة العتوب أمسكت برجل منهم ولم تفلته إلا بعد أن أخذت عليه العهد بألا يخبرهم إلا انه ما كاد يفلت حتى سار إلى قومه وشرع يخاطب أحد زعمائهم (دولة) بقوله:

عمر الغليون يا دولة ترس دنياك معلولة
انـي حلـفت بـالله مـا اقـوله

ففهم الزعيم مما دفعهم من الظفير.
(١٩) سيف مرزوق الشملان، من تاريخ الكويت، ص ١١٣.
(٢٠) عبدالعزيز الرشيد، المصدر السابق، ص ٢٩.
(٢١) يوسف بن عيسى القناعي، صفحات من تاريخ الكويت ــ الطبعة الثالثة ــ الكويت ١٩٦٠، ص ٥٥.
(٢٢) نسخة هذا الكتاب (المخطوطة) موجودة عند الأستاذ عبدالعزيز حسين (وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء السابق).
(٢٣) Extracts from brief notes relative to the rise and progress of the Arab tribes of the (Persian) Gulf prepared in August 1819 by Mr. Francis Warden member of the Council at Bombay under Uttoabec Arabs (Behrein) I. S. BO. Vol. XXIV, pp. 362-372.
(٢٤) صورة وثيقة وقف نخل المبرز في الاحساء على مسجد آل خليفة، منشورة في مجلة الوثيقة (التاريخية البحرينية) العدد الأول، ص ٩٦.
(٢٥) صورة من مخطوطة لؤلؤة البحرين ليوسف بن أحمد والد الدرازي البحراني، نفس المصدر، ص ٩٧.
(٢٦) الخليفيات: فخذ من الأشاجعة من الحلف من الجلاس ــ من المسلم ــ من عنزه. والخليفيات ينتسبون إلى بني عبيدة في اليمن وهم مالكيون (مثل العتوب وليس كما تزعم الوثيقة بأنهم شافعيون وحنابلة) يسكنون البحرين وقطر ولا يزال بقاياهم في قطر والبحرين. وقد ترجم د. ساحلي كلمة (خليفيات) خطأ بـ (الخليعة) في ترجمته لدليل الخليج، ج ٣ ص ٢٩ (١٢٥١/٣).
(٢٧) فريحة: مدينة في قطر وترجمتها (دليمة) والأرجح (فريحة).
(٢٨) كونك: ميناء على الساحل الشرقي للخليج العربي. وكون: جزيرة عربية. و (كونك) تقع على بعد عشرة كيلومترات غرب رأس مسندم.
(٢٩) ترجمة الوثيقة المؤرخة في ٢١ رجب ١١١٣ هجرية في ارشيف رئاسة الوزراء العثماني في اسطنبول في دفتر المهمة رقم الدفتر ١١١ ورقم الصفحة ٧١٣. وهي كتاب من والي البصرة (علي باشا) إلى السلطان العثماني، وترجمها أحمد أغراقجة (جامعة اسطنبول) والسيدة زليخة. والترجمة في الأرشيف العثماني.

(٣٠) الوثيقة العثمانية في دفتر المهمة رقم ١١١، ص ٧١٣ ــ كتاب من والي البصرة (علي باشا) إلى السلطان العثماني ــ أرشيف رئاسة الوزراء العثماني في اسطنبول بتاريخ ٢١ رجب ١١١٣هـ.
(٣١) أحمد بن يوسف الدرازي، (لؤلؤتي البحرين وقرتي العينين) مخطوط.
(٣٢) عبدالعزيز الرشيد، المصدر السابق، ص ٧٦.
(٣٣) هذا عن اسم الكويت التي لم تعمر وتكون إمارة كما ذكرنا إلا بوصول العتوب، أما قبل ذلك فهي عبارة عن كوت أو قلعة، يلجأ إليها ابن عريعر في رحلاته للصيد، ويسكنها بعض صيادي الأسماك وبعض البدو الرحل. أما اسم القرين وهي الكويت الحالية فقد سبق ذكر الكويت بكثير، ومن ذلك ورودها عند الرحالين الأوروبيين بهذا الاسم وورودها في الوثائق العثمانية كذلك بهذا الاسم، واقدم ذكر لها في تلك الوثائق جاء في وثيقة عثمانية مؤرخة في ٢٥ رجب ٩٨٥هـ ٩ اكتوبر ١٥٧٧م وقد أطلق على سفينة تعود لوزير من البحرين هذا الاسم تشبهاً باسم القرين واتجهت إلى البصرة. أما ذكر القرين كمدينة ذات أهمية تجارية فقد وردت في الخرائط الهولندية ١٦٦٠م وفي الوثائق الهولندية عام ١٧٥٠م. وغير ذلك.
(٣٤) رسالة جوابية من الدكتور علي أبا حسين رداً على رسالة لنا نستفسر فيها عن أمور تاريخية تتعلق بتاريخ الكويت. و د. أبا حسين هو مدير مركز الوثائق التاريخية في البحرين.
(٣٥) بالرغم مما يذكره بعض الجغرافيين من أن تلك الأفلاج كانت قد جفت وبالتالي فإن الظروف البيئية للمنطقة قد تغيرت عند هجرة العتوب من موطنهم الاصلي إلا أن وجود هذه الانهار والافلاج أصلاً في المنطقة يؤكد أن للعتوب أصولاً تاريخية في معرفة الطبيعة أو البيئة النهرية، وإن تلك المعرفة لا بد أن يكونوا قد توارثوها عن آبائهم وأجدادهم.
(٣٦) ميمونة الصباح، رسالة ماجستير عن علاقة الكويت بنجد ١٨٩٦ ــ ١٩٣٩ (غير منشورة)، ص ١٢.
(٣٧) Extracts from brief notes felative to the rise and progress of the Arab tribes of the (Persian) Gulf, Prep.
(٣٨) الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة (مقالته السابقة) في مجلة «الوثيقة» التي تصدر عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، العدد الثالث، ص ٢٠.
(٣٩) مجلة الوثيقة البحرينية، العدد الثالث، ص ١٤.
(٤٠) مقالة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة السابقة في مجلة الوثيقة البحرينية، نفس العدد.
(٤١) عثمان سند، سبائك المسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد، ص. ١٨ ــ ١٩.
(٤٢) صورة نيفهاوزن مدير شركة الهند الشرقية الهولندية في (خرج) ومساعده (خان فان دورمولست) عام ١٧٥٦م ــ ١١٧٠هـ إلى الحاكم العام لشركة الهند الشرقية (جيكوب) والصورة بالهولندية وترجمتها بالعربية (منشورة في مجلة الوثيقة البحرينية ــ العدد الثالث ــ ص ١٩).
(٤٣) خالد مسعود الزيد، الكويت في دليل الخليج العربي، ج ١ ص ٢٢.
(٤٤) خالد مسعود الزيد، الكويت في دليل الخليج (جمع المادة من كتاب دليل الخليج للوريمر)، ج ١، طبعة أولى (الكويت ١٩٨١)، ص ٢٣.
(٤٥) د. أبو حاكمة، تاريخ الكويت الحديث، الطبعة الأولى، ص ٢٨.
(٤٦) تقرير مدير شركة الهند الشرقية ومساعده (السابق) في جزيرة «خرج»، عن المنطقة الساحلية للخليج عام ١٧٥٦م.
(٤٧) جزيرة خرج من جزر فارس، واتخذتها الوكالة الهولندية مركزاً لنشاطها التجاري، وهي الآن المكان الذي يتجمع فيه النفط الايراني للتصدير إلى الخارج.
(٤٨) لم يذكر البارون من هو شيخ الكويت في ذلك الوقت.
(٤٩) Dr. Ives, Voyage from England to India, in the year 1753, pp. 207-216.
(٥٠) Niebhuhr, Voyages en Arabie, Description 288-295.
(٥١) الهولة: وهم من العرب الذين تحولوا إلى الساحل الشرقي من الخليج، وأصلهم حوله، ولكن الفرس يطلقون عليهم هولة شأنهم في نطق (الحاء) (هاء) فغلب عليهم الاسم.
(٥٢) الوثيقة العثمانية السابقة (رقم ١١١ في دفتر المهمة) برئاسة الوزراء العثماني في اسطنبول.
(٥٣) مخطوطة يوسف الدرازي السابقة.
(٥٤) د. علي أبا حسين، مقال دراسة في تاريخ العتوب «الوثيقة» العدد الأول، ص. ص ٨٢ ــ ٨٦.
(٥٥) د. أبو حاكمة، المصدر السابق، ص ٦٠.
(٥٦) د. بدرالدين الخصوصي، دراسة في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، الطبعة الثانية ــ ذات السلاسل ــ الكويت ١٩٨٢، ص ٢٨.
(٥٧) الوثيقة العثمانية رقم ١١١ في دفتر المهمة برئاسة الوزراء العثماني في اسطنبول.
(٥٨) د. علي أبا حسين، مقال تاريخ العتوب في مجلة الوثيقة العدد الأول، ص. ص ٧٨ ــ ٨٤.
(٥٩) Report on the trade of Arabia etc., in Saldanha, Selections from State papers, pp. 403-409.
(٦٠) L. Lockart, Nadir Shah, A Critical Study, pp. 1-17.

(٦١) د. علي أبا حسين، المصدر السابق، ص ٨٤.
(٦٢) Sykes, A History of Persia, 271.
(٦٣) د. أبو حاكمة، نفس المصدر، ص. ص ٤٨ ــ ٤٩.
(٦٤) الوثيقة (المجلة التاريخية البحرينية) العدد الأول السنة الأولى، رمضان ١٤٠٢هـ، يوليو ١٩٨٢.
(٦٥) د. حسن علي الابراهيم، الكويت: دراسة سياسية (الكويت ــ بيروت ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، ص ٣٢ و ص ١٩٠.
(٦٦) Wilson, The Persian Gulf-161.
(٦٧) د. أبو حاكمة، نفس المصدر، ص. ص ٤٨ ــ ٤٩.
(٦٨) الوهابيون: جماعة إسلامية، أوجدها محمد بن عبدالوهاب (١١١٥ ــ ١٢٠١هـ/٧٠٣ ــ ١٧٨٧م) وأطلق عليها خصومها اسم الوهابية (نسبة إلى مؤسسها) إلا أن الوهابيين يطلقون على انفسهم اسم (الموحدين) وهم سنيون من اتباع مذهب حنبل كما شرحه ابن تيمية الذي هاجم عبادة الأولياء في كتاباته. ولم تكن فكرة محمد بن عبدالوهاب سوى حركة إصلاحية لانقاذ الاسلام مما دخل عليه من بدع وخرافات.
(٦٩) ابن غنام (حسين) روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الامام، ج ٢، ص. ص ١٨٥ ــ ١٩٢.
(٧٠) د. حسن الإبراهيم، نفس المصدر، ص ٣٧.
(٧١) رسالتي للدكتوراه بعنوان العلاقات الكويتية البريطانية في الفترة بين: ١٩٢٢ ــ ١٩٦١ (غير منشورة)، ص ٣١٢.
(٧٢) لم أقل هذا القول عن نظام الحكم في الكويت بحكم انتمائي لأسرة آل الصباح ــ على الرغم من كون هذه الصفة للحكم هي مصدر فخري واعتزازي ــ ولكني اعتمدت في استخلاص هذه الحقيقة من مصادر حية معاصرة وروايات ذكرها رواة غير مشكوك في صحة رواياتهم. فقد أشار إلى ذلك كل من الأستاذ المرحوم عبدالعزيز الرشيد في (تاريخ الكويت) والشيخ يوسف بن عيسى القناعي في (صفحات من تاريخ الكويت) كما رواها المرحوم أحمد البشر الرومي، والمرحوم خليفة شاهين الغانم، والأستاذ جاسم حمد الصقر وغيرهم.
(٧٣) الأستاذ جاسم حمد الصقر في المحاضرة التي القاها في رابطة الخريجين عن تطور الحركة الديمقراطية في الكويت بتاريخ ١٩٨٢/٢/٨.
(٧٤) الشيخ يوسف بن عيسى القناعي ــ صفحات من تاريخ الكويت ــ ص ١٠.
(٧٥) عن محاضرة الأستاذ جاسم الصقر في رابطة الخريجين بتاريخ ١٩٨٢/٢/٨.
(٧٦) الأستاذ جاسم الصقر هو عضو مجلس الأمة للفترة الانتخابية الماضية وسابقتها. وهو رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الأمة. وقد تلقى تعليمه في بغداد، وتخرج من كلية الحقوق، وينتمي إلى أسرة عريقة جداً من الأسر الكويتية التي ساهمت بجهود كبيرة في تقدم الكويت وتطور الحركة الديمقراطية فيها، فقد كان لوالده الحاج حمد الصقر دور كبير في تشكيل مجلس الشورى ثم المجلس التشريعي عام ١٩٣٨ حيث تمت الانتخابات في ديوانيته، كما كان لشقيقه المرحوم عبدالله الصقر دور في حركة المجلس عام ١٩٣٨ وما اعقبها من حوادث، كما أن شقيقه الآخر الأستاذ عبدالعزيز الصقر له دور بارز في المجالات الوطنية والاقتصادية في الكويت فقد كان وزيراً للصحة ثم رئيساً لمجلس الأمة ثم رئيساً لغرفة تجارة وصناعة الكويت.
(٧٧) جابر العيش: هو الاسم الذي اشتهر به حاكم الكويت الثالث جابر بن عبدالله الصباح، وذلك لكرمه وكثرة ما يتصدق به على الفقراء. فكان العيش (الرز) المطبوخ يوزع يومياً من قصره على الفقراء. وقد سار خلفاؤه من بعده على سنته بتوزيع الرز المطبوخ.

ابن طولون، أحمد (٨٣٥ ــ ٨٨٤)

● مؤسس الدولة الطولونية بمصر وسوريا. تركي الأصل. ولد في سمراء، وجاء إلى مصر (٨٦٨م) والياً من قبل العباسيين فاستقل بحكم البلاد، ورحل إلى سوريا كارهاً. شيد مدينة القطائع (٨٧٠)، وجعلها قاعدة حكمه وبنى بوسطها جامعه الكبير سنة (٨٧٦).

● «أيها الناس إني والله لا أبعث عمالي إليكم، ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إليَّ. فوالذي نفسي بيده لأمكّننه من القصاص».

(الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه)

آل سيفا
صفحة مطوية من تاريخ لبنان

د. فاروق حبلص

آل سيفا من الأسر اللبنانية العريقة التي ساهمت في وضع تاريخ لبنان الحديث وسواحل بلاد الشام بصورة عامّة. وهي واحدة من الأسر المغمورة، كبني فريج وحرفوش والصغير، وربّما غيرها الكثير من العائلات التي لم تلق اهتمام المؤرخين للبنان الحديث، رغم أنّها لعبت أدواراً بارزة في تاريخ المنطقة. فقد تنازع بنو سيفا مع آل عساف والمعنيين بعدهم، على حكم الساحل الممتد من طرابلس إلى جونية، ونقلوا صراعاتهم إلى أماكن أخرى في البقاع والجبل وحصن الأكراد... ثم تنازع آل المرعبي خلفاء بني سيفا في حكم عكار، مع الشهابيين خلفاء المعنيين في حكم جبل الدروز[١]. ومع ذلك نجد كتب تاريخ لبنان الحديث، تتوسّع في تاريخ العائلتين المعنية والشهابية، ولا تأتي على ذكر سواهما من العائلات، إلّا بإشارات مقتضبة حتّمها إتمام السرد التاريخي للأحداث العسكرية آنذاك. وسنحاول في بحثنا هذا إعطاء فكرة مقتضبة عن آل سيفا وامتداد إمارتهم في المكان والزمان، ثم الحديث عن أصلهم وتسميتهم.

إمارة آل سيفا وسياستهم

في أوائل القرن الرابع عشر، وبعد محاولات صليبية متكرّرة لاستعادة أجزاء من الساحل[٢]، لجأ المماليك إلى وضع حاميات على طول الساحل والتلال المشرفة على الشواطىء، لتوطيد حكمهم عليها من جهة[٣]، ومراقبة تحركات الصليبيين من جهة ثانية. وكان من بين هذه الحاميات، آل سيفا الذين نزلوا جبال عكار، بعد أن كُلِّفوا بمراقبة وحماية خليج وسهل عكار[٤]، وقد نزل هؤلاء في منطقة الجومة واتخذوا من قرية عكار العتيقة مركزاً لهم.

ومع بداية الحكم العثماني في بلاد الشام، دخل آل سيفا اللعبة الإقطاعية، وبدأوا يعملون على توسيع إقطاعهم؛ فاصطدموا بآل شعيب في عرقا، ثم تحالفوا مع بني عساف حكام جبيل وكسروان، والامير قرقماز المعني حاكم الشوف، وتمكّنوا مجتمعين من طرد بني شعيب من عكار، واقتسام مقاطعتهم من بعدهم. فأخذ بنو سيفا سهل عكار، وآلت طرابلس إلى بني عساف[٥]. إلّا أنّ تبدُّل موازين القوى الإقطاعية في المنطقة

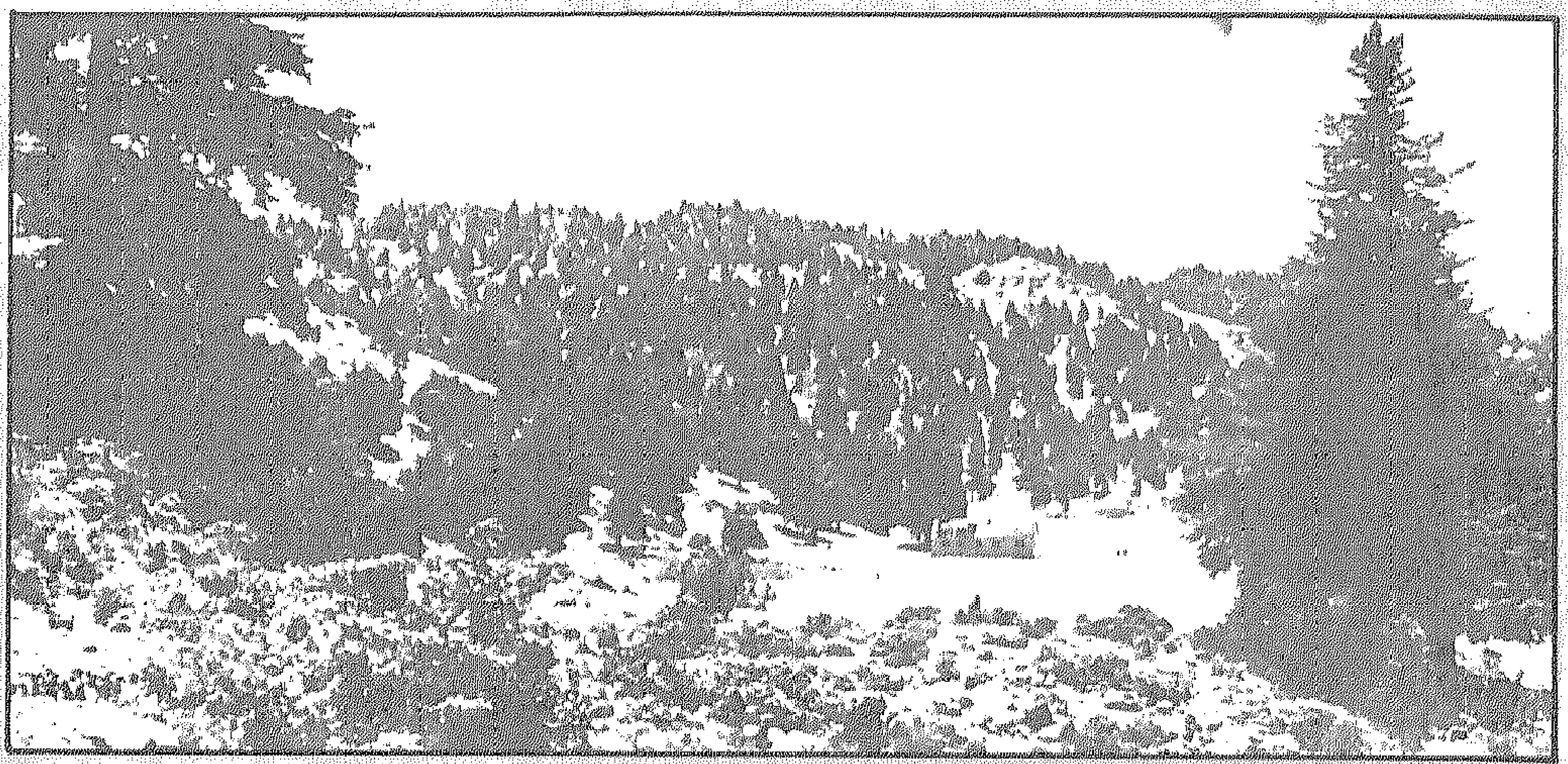

□ مرتفع القموعة — عكار

على هذا النحو، استتبع تغيير التحالفات بصورة جذرية. فانقلب حلفاء الامس إلى أعداء اليوم، بعد أن امتدَّت مطامع يوسف باشا سيفا إلى طرابلس، ومطامع منصور عساف إلى عكار. وجاءت سياسة الدولة العثمانية إزاء تعاظم القوى الإقطاعية في بلاد الشام من جهة، وضعفها وإنهماكها في الحروب في فارس والولايات الأوروبية من جهة ثانية، لتؤجِّج نار العداء بين الإقطاعيين أملاً في إضعافهم والحدِّ من قوتهم الذاتية. فعزلت ابن عساف عن طرابلس وعهدت بها إلى خصمه يوسف باشا سيفا. ثم أعادتها إليه بعد أن عزلت عنها يوسف باشا سيفا، الأمر الذي عجَّل في وقوع الصدام بينهما. وقد انتهى هذا الصدام بانقراض آل عساف وانتقال إمارتهم إلى آل سيفا(٦) الذين باتوا أمراء الساحل من عكار شمالاً إلى نهر الكلب جنوبا.

بيد أن هذه الانتصارات الأولى التي أحرزها آل سيفا، كانت بمثابة طعم استدرجهم نحو الجنوب، وأدخلهم إلى حلبة الصراع مع الإقطاعيين اللبنانيين، بعد أن أصبحوا يسيطرون على أجزاء واسعة من الساحل اللبناني. وبذلك لم يعد باستطاعة أمراء آل سيف التخلّي عن مكتسباتهم الجديدة، والتراجع أمام قوة فتية ظهرت في الشوف وتمثلت بالأمير فخر الدين المعني الثاني، فخاضوا ضدها سلسلة من المعارك في جونية وطرابلس وغيرهما من الأماكن. وكان بنتيجة ذلك أن اتّسع نطاق التحالفات ليشمل دمشق وحلب. فتحالف الأمير فخر الدين مع علي باشا جانبولاد في حلب، وتحالف يوسف باشا سيفا مع الباب العالي الذي أعطاه ولاية دمشق(٧). وقد تخلَّل الصراع بين الطرفين فترات من الهدوء، رافقتها محاولات سلمية قام بها كل من الطرفين لمدِّ نفوذه إلى إقطاع الطرف الآخر، وتمثلت بزواج الأمير علي بن يوسف باشا سيفا من ابنة المعني الكبير من جهة(٨)، وبالمصاهرة التي تمت من جهة ثانية بين علي باشا جانبولاد ويوسف باشا سيفا(٩). وبعد وفاة يوسف باشا سيفا تمكن فخرالدين من مدِّ نفوذه إلى عكار(١٠)، ممّا أدى إلى تداخل مصالح أمراء آل سيفا مع مصالح أمراء جبل الدروز، وزج آل سيفا في النزاعات الحزبية في تلك المنطقة. فأيَّد الأمير علي بن محمد سيفا، آل علم الدين، في حين انحاز الأمير عساف بن يوسف باشا سيفا إلى حزب المعنيين. وقد نتج عن ذلك انقسام الصف الداخلي ضمن أسرة آل سيفا، واقتتالهم حتى ضعفت قوَّتهم وزالت إمارتهم سنة ١٦٣٧(١١)؛ فتهيَّأ السبيل لآل حمادة مشايخ بلاد جبيل وكسروان إلى مدِّ نفوذهم إلى عكار وبسط سيطرتهم عليها(١٢)، قبل أن يؤول أمرها إلى

□ هضبات عكار العالية.

بكوات آل المرعبي في القرنين الثاني عشر والتاسع عشر[١٣].

أصل آل سيفا

اختلف المؤرخون في تحديد نسب آل سيفا وأصلهم. فاعتبرهم البطريرك اسطفان الدويهي، أمراء تركمان، وذكرهم في معرض سرده أحداث عام ١٥٢٣م بقوله: «وكذلك في بلاد عكار كانت خصومة بين الشعيبية أهالي عرقا، وبين بيت سيفا أمراء تركمان...»[١٤]. في حين اعتبرهم طنوس الشدياق من الأكراد، وخصّصهم بفصل من كتابه أخبار الأعيان، وجعل عنوانه «في نسبة الأمراء بني سيفا الأكراد»، وسلسل نسبهم على الشكل التالي: «المقدم جمال الدين الملقب بسيفا وَلَدَ عبدالله. وعبدالله وَلَدَ أولاداً، فَوَلَدَ أحد أولادهم محمداً. ومحمد وَلَدَ ولدين يوسف وحسيناً. فيوسف وَلَدَ سبعة أولادهم: حسين وحسن وعمر وقاسم ومحمود وبلك وعساف. وحسين ولد سليمان. وسليمان ولد علياً. هؤلاء الأمراء ينتسبون إلى المقدم جمال الدين المذكور ابن احد مماليك الجراكسة وعمّالهم في طرابلس وعكار وحصن الأكراد»[١٥].

ثم نقل عنهما المؤرخون، فقسم أخذ برأي الدويهي واعتبرهم تركمانا، وآخر أخذ برأي الشدياق واعتبرهم أكراداً. أمّا الأب لمانس اليسوعي، فقد اكتفى بالقول أنهم إمّا أكراد أو تركمان[١٦]. وكذلك رأى جرجي يني أنّ آل سيفا ربما كانوا أكراداً أو تركماناً، ثم رجّح أنهم تركمان لأنهم يلتفّون حول زعيم عشيرتهم[١٧]، ثم نفى أن يكونوا من المماليك الجراكسة لأن السلطان سليم الأول العثماني أقرّهم على إقطاعهم في عكار وحصن الأكراد، في حين أنّه استأصل شأفة المماليك من سوريا[١٨]. إلاّ أنّ هذه الحجج غير كافية لترجيح نسبة آل سيفا إلى التركمان ونفي أصلهم الجركسي. ذلك أنّ السلطان سليم ابقى على المماليك الذين انحازوا إليه في موقعة مرج دابق، وأقرّهم على مناصبهم أمثال جان برد الغزالي[١٩]. وليس بمستبعد أن يكون السلطان سليم على علم بالنفرة التي كانت بين المماليك في سوريا

□ حلبا وبساتينها.

والسلطان قانصوه الغوري، بسبب تقديمه مماليكه الخاصين عليهم[٢٠]، لذلك لم يجد مانعاً من استخدامهم في إدارة سوريا خاصة وأنهم انحازوا إليه في مرج دابق. أمّا مقولة عدم تعصب المماليك لعشائرهم، فهي تنطبق على أجيال المماليك الذين تمّ شراؤهم حديثاً، ذلك أنّهم مجهولو النسب ولا يعرفون أقاربهم: أمّا أبناؤهم وأحفادهم فليسوا بالضرورة كذلك، ولم يكن يوجد ما يحول دون تكاتفهم، خاصّة وأنهم عاشوا في بلاد الشام حيث كانت العائلة من أقدس مقدّسات الفرد. وبالتالي فلا يعتبر تكاتف بني سيفا والتفافهم حول أميرهم دليلاً على نفي تحدُّرهم من أحد المماليك.

يبدو أن اعتبار بني سيفا أكراداً أو تركماناً، يعود سببه إلى تزامن مجيء جدهم الأعلى إلى ساحل طرابلس، في بداية القرن الرابع عشر[٢١]. مع استقدام المماليك عائلات كردية وتركمانية وإسكانها في تلك المنطقة[٢٢]. إلّا أنّ التدقيق في لقب هذه العائلة المعروف بسيفا من جهة، وتاريخ مجيئها إلى عكار من جهة ثانية، يؤدي بنا إلى نتائج مختلفة، ويظهر أنها ليست كردية ولا تركمانية.

فمن خلال الوثائق والمخطوطات العائدة لهم، نجد أن كلمة سيفا هي تحريف لقب السيفي الذي توارثه أمراء هذه العائلة بصورة رسمية، ورضوا به وأطلقوه على أنفسهم حتى عهد يوسف باشا سيفا عام ١٠٢١هـ. ـ ١٦١٢م، كما نلاحظ من النقش الكتابي المدوّن على جدران جامع التوبة في طرابلس، وهذا بعض ما ورد فيه: «الحمد لله... جدّد هذا الجامع الشريف لوجه الله الكريم بعد هدم جداره ومنبره ومحرابه وسبيل مائه من الفيضة الكبرى... الواثق بالملك الباري أحمد بن محمد الشرابداري الأنصاري كتخداي حضرة حسين باشا بن يوسف باشا السيفي أمير الأمراء بطرابلس... سنة إحدى وعشرين وألف...»[٢٣]. كما وردت تسميتهم «بالسيفي» أو «السيفية» في سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس[٢٤]. وكلمة سيفي أو السيفية، هي لقب أُطلق على مماليك الأمراء، الذين نُقلت خدمتهم إلى السلطان الحاكم بعد أن

مات امراؤهم أو عزلوا عن مناصبهم(٢٥). ومن جهة ثانية يتبيّن لنا من تسلسل نسب آل سيفا، كما أورده طنوس الشدياق، أنّهم يتحدرون من المقدم جمال الدين، أحد مماليك الجراكسة الملقب بسيفا. وبناء على ذلك يمكن القول أنّ آل سيفا هم من الجركس الذين يتحدّرون من المقدم جمال الدين أحد مماليك الجراكسة الذي توفي اميره، فعرف بالسيفي، وانتقلت خدمته إلى السلطان الذي أرسله بدوره إلى طرابلس حيث تولّى المقدميَّة على عشرة من الجند في عكار التي كانت ملحقة بنيابة طرابلس في ذلك الزمان. ومما يؤيّد ذلك أن مقدمي الجند في نيابة طرابلس، إبّان الحكم المملوكي، كانوا بأغلبيتهم الساحقة من المماليك(٢٦).

وعلى عكس ذلك، ولو سلّمنا جدلاً أن هذه العائلة كردية أو تركمانية، فكيف باستطاعتنا تفسير نعتها بالسيفية أو السيفي أو سيفا، في عصر كانت فيه هذه التسمية ذات دلالة معينة تطلق على المملوك الذي توفي سيده، فانتقل إلى خدمة السلطان. ثم إننا نلاحظ من جهة ثانية أن الأكراد الذين عهد إليهم المماليك بحماية سواحل بلاد الشام، هم في الأساس من سكان سوريا الذين أتى بهم الأيوبيون: وكذلك التركمان من حلب، هبطوا إليها من وادي أرمينيا وآسيا الصغرى(٢٧)، ممّا يدلّ على أنّ الأكراد والتركمان لم يأتوا من مصر ولم يسبق لهم أن عملوا في خدمة أمراء المماليك هناك، فكيف لُقبت إحدى عشائرهم بالسيفية أو سيفا؟! ●

الهوامش

(١) كانت هذه التسمية تطلق على الشوف والمتن حتى أواخر القرن الثامن عشر. وفي عام ١٨٦١ ألحقت بها مناطق الكورة والبترون وجبة بشري وبلاد جبيل وأصبحت تعرف بمتصرفية جبل لبنان (كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار، بيروت ١٩٧٨، ص ١٢ ــ ١٣).

(٢) السيد عبدالعزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، الاسكندرية ١٩٦٧، ص ٣٤٤. وعمر عبدالسلام تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، الدار العربية، بيروت ١٩٨١، ج ٢، ص ١٦٠ ــ ١٩٢.

(٣) كمال الصليبي: مرجع سابق، ص ١٨.

(٤) فؤاد قازان: لبنان في محيطه العربي، دار الفارابي، بيروت ١٩٧٢، ج ١، ص ٢٤٠ و:
H. Lammens: La Syrie, Beyrouth 1921, V. 2, p. 68.

(٥) طنوس الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان، تحقيق فؤاد افرام البستاني، الجامعة اللبنانية، ١٩٧٠، ج ١، ص ٣٠٢.

(٦) المطران يوسف الدبس: تاريخ سوريا، المطبعة العمومية بيروت ١٩٠٣، م ٧، ج ٤، ص ٣٤. وطنوس الشدياق: مصدر سابق، ج ١ ص ٣٠٢.

(٧) عبدالكريم رافق: العرب والعثمانيون، دمشق ١٩٧٤، ص ١٥٧ ــ ١٥٨.

(٨) طنوس الشدياق: مصدر سابق، ج ١ ص ٣٠٦.

(٩) عبدالكريم رافق: مرجع سابق، ص ١١٦١.

(١٠) يوسف الدبس: مرجع سابق، م ٧، ج ٤ ص ١٨٣ ــ ١٨٤.

(١١) يوسف الدبس: نفس المرجع، م ٧، ج ٤، ص ١٨٥ ــ ١٩٢.

(١٢) سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس: سجل ١، ص ٦١.

(١٣) أطروحتي: تاريخ عكار الاداري والاجتماعي والاقتصادي، أطروحة دكتوراه، الجامعة اليسوعية، بيروت ١٩٨٤، ص ١٠.

(١٤) البطريرك اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، تحقيق بطرس فهد، دار لحد خاطر ١٩٨٣، ص ٤٠٢.

(١٥) طنوس الشدياق: مصدر سابق، ج ١ ص ١٨٩.

(١٦) H. Lammens: La Syrie, V. 2, p. 68.

(١٧) جرجي يني: آل سيفا، مجلة المباحث، عدد ٢٠، السنة الأولى، ١٥ تشرين الأول ١٩٠٩، ص ٩١٧.

(١٨) جرجي يني: نفس المرجع، ص ٩١٦.

(١٩) عبدالكريم رافق: نفس المرجع، ص ٦٥.

(٢٠) عبدالكريم رافق: نفس المرجع، ص ٦١.

(٢١) جرجي يني: نفس المرجع، ص ٩١٨. وفؤاد قازان: نفس المرجع، ج ١ ص ٢٤٠.

(٢٢) كمال الصليبي: نفس المرجع، ص ١٨. وفؤاد قازان: نفس المرجع، ج ١ ص ٢٤٠.

(٢٣) نقش كتابي مثبت على الجدار الشرقي لصحن جامع التوبة في طرابلس.

(٢٤) سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس: سجل ١٠، ص ٨٣، وسجل ١١، ص ٢٢٩.

(٢٥) عبدالكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، دمشق ١٩٦٨، ص ١٦.

(٢٦) ينظر لائحة بأسماء آراء ومقدمي الجيش في طرابلس في كتاب: عمر عبدالسلام تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، ج ٢، ص ٧٩ ــ ٨٤.

(٢٧) H. Lammens: La Syrie, V. 2, p. 7. وجرجي يني: مرجع سابق، ص ٩١٧.

قطار الشرق
أورينت إكسبرس
من باريس الى استانبول
في ٦٧ ساعة
قسم التوثيق والأبحاث

يوم ٤ أكتوبر عام ١٨٨٣ يوم مشهور في تاريخ السكك الحديدية. ففي ذلك اليوم غادر أول قطار «أورينت إكسبرس» محطة «الشرق» في باريس قاصداً استنبول ليصبح بذلك أشهر قطار في العالم. ولو تعمقنا في تاريخ هذا القطار الشهير لوجدنا أنه يبدأ قبل هذا اليوم بحوالي عشرين عاماً أي عندما غادر البلجيكي الشاب جورج لامبرت ناجلماكرز موطنه بلجيكا وسنه لم يتعد الثانية والعشرون قاصداً نيويورك. كان ناجلماكرز ينتمي إلى عائلة من أشهر عائلات بلجيكا وأكثرها ثراء، وقد غادر بلاده بناء على رغبة والده لينسى «حبه الطائش» لقريبة له. وينسى ناجلماكرز الشاب حبيبته فعلاً، ليس فقط بسبب الانطباعات الجديدة المستحوذة على فؤاده، وإنما لكثرة المهام الملقاة على عاتقه، ويحتل نظام السكك الحديدية الأميركية مكاناً رئيسياً في تفكيره وبالذات اختراع بولكان الجديد وهو «عربات للنوم» تلحق بالقطارات العادية. وتحت تأثير هذا الاختراع تبلورت لدى ناجلماكرز فكرة تقسيم عربات القطار إلى مقصورات منفصلة يعرضها على المسؤولين حال عودته إلى أوروبا.

وإذا ما كان اختراع بولمان الرئيسي يسعى إلى راحة المسافرين، فإن ناجلماكرز يذهب في تفكيره إلى أبعد من ذلك مستهدفاً باختراعه في نهاية الأمر أغراضاً سياسية. فالقطار في تصوره يصلح كأداة لتوحيد أوروبا الممزقة سياسياً واقتصادياً. ذلك أنه مهما كانت رحلة القطار مريحة في بدايتها، فإننا نجد المسافر يعاني من متاعب شتى بمجرد وصوله إلى الحدود: فلكل بلد خطوطه وقضاياه الخاصة به والتي تختلف في نوعيتها عن البلد الآخر، بحيث يضطر المسافر إلى تغيير القطار عدة مرات ويمضي ساعات بطولها في انتظار القطار الجديد.

وكان هدف ناجلماكرز هو تصميم عربات من طراز موحد يمكن استخدامها في جميع البلدان الأوروبية التي تتواجد بها شبكة للسكك الحديدية، والجديد في هذه العربات هو إمكانية تركيبها على أنماط مختلفة من القطارات، ويستدعي ذلك أولاً وقبل كل شيء أن توافق الحكومات المختلفة على أن تعبر قطارات أجنبية حدودها. والصعوبة الأخرى التي واجهت ناجلماكرز هي عدم وجود إدارة مركزية للسكك الحديدية في البلدان المختلفة، إذ كانت تتولى تسيير القطارات شركات متعددة، وكان من الضروري أن يتفاوض مع كل منها على حدة في جميع البلدان التي سوف يقطعها القطار الجديد. وأخيراً وبعد مفاوضات طويلة تم توقيع الاتفاقية النهائية في ١٧ مايو ١٨٨٣ في مدينة ميونيخ. وبعدها بستة أشهر فقط انطلق أول قطار من طراز «أورينت إكسبرس» من باريس إلى استنبول. ولم يكن هذا القطار يصل إلى استنبول مباشرة وإنما كان يتحتم على المسافرين تغيير القطار مرتين ثم استكمال الرحلة بالباخرة. بعدها بست سنوات فقط غادر أول قطار مباشر باريس ـ قاطعاً مسافة ٣١٨٦ كم دون أن يضطر المسافرون إلى مغادرته. وهكذا انخفضت مدة السفر من ١١٤ ساعة إلى ٦٧ ساعة و٤٦ دقيقة. ومنذ ذلك اليوم والأورينت إكسبرس هو مثال للقطار الفاخر المزود بكل وسائل الراحة. وعلى غراره أنشئت قطارات أخرى تربط بين عواصم أوروبا وبين مدنها الكبرى.

كانت «للأورينت إكسبرس» مكانة هامة في الأدب، وقد داعب مخيلة العديد من الأدباء والكتاب ابتداءاً من تيوفيل جوتيه وبيرلوتي وحتى أجاثا كريستي في روايتها المشهورة «حادثة قتل في الأورينت إكسبرس».

ونقدم هنا إحدى الشواهد الأدبية التي تصف لنا أول رحلة «للأورينت إكسبرس» وهي بقلم مراسل جريدة الفيجارو العريقة. وقد نشرت بتاريخ ١٢ أكتوبر ١٨٨٣:

«تعودنا أن نمضي فترات الإجازة القصيرة في غابات فونتنبلو أو في أحد موانىء قناة المانش القريبة. أما الآن فنستطيع السفر إلى استنبول.. في الرابع من أكتوبر غادرت محطة «الشرق» في تمام السابعة والنصف مساء وعدت إليها يوم ١٦ أكتوبر في السادسة مساء أيضاً، بعد أن أمضيت يوماً بأكمله في رومانيا وأربعة أيام ونصف في استنبول. واسم هذا القطار هو «أورينت إكسبرس» وقد كان مكوناً من عربتين لنقل البضائع، إحداهما للحقائب فقط. وكانت الشركة المسؤولة قد نقلت الحقائب من

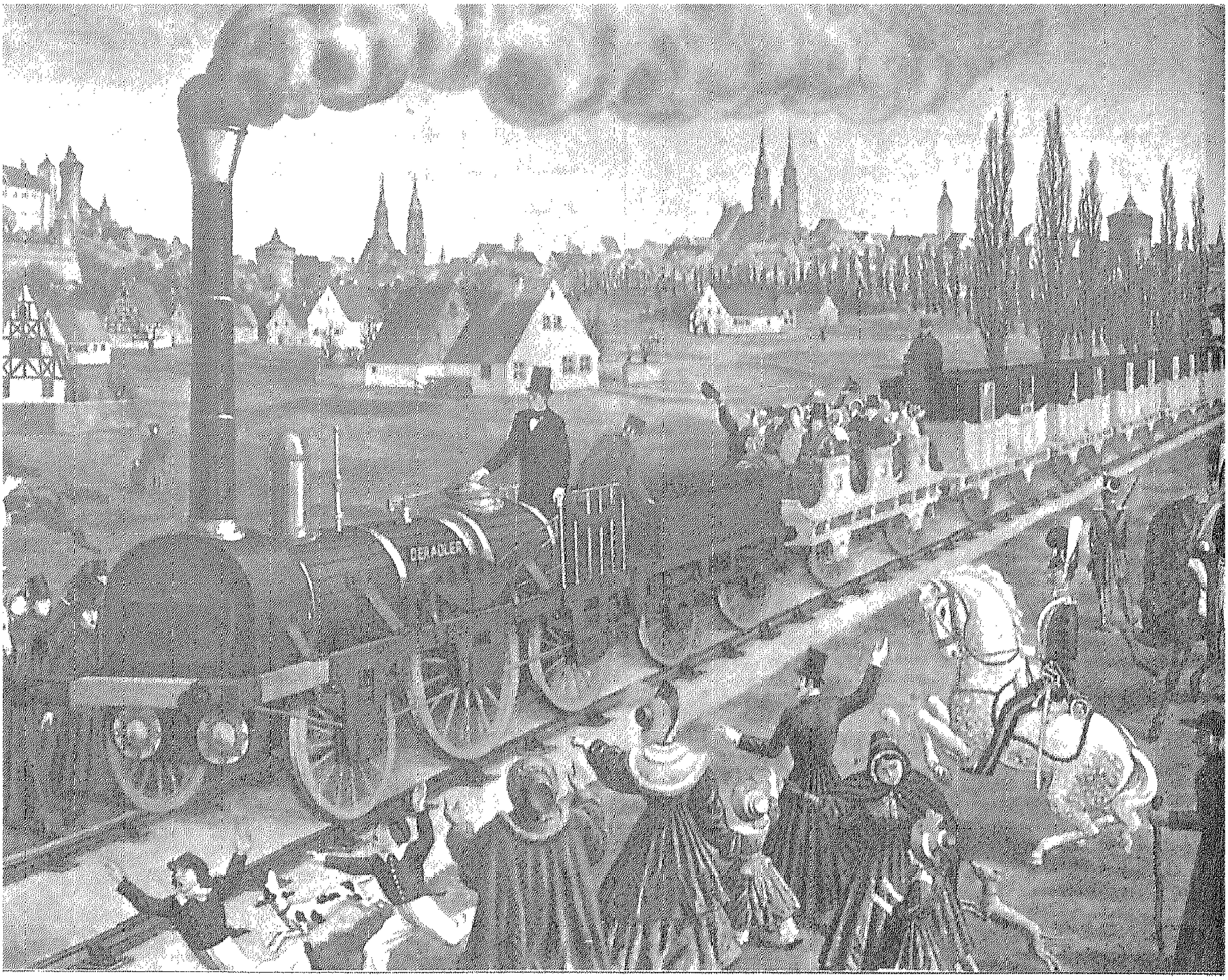

□ أول رحلة لقطار ألماني على الخط الحديدي الرابط بين نورنبرغ وفورت ــ ٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٣٥

المنازل إلى القطار، ووجدناها في انتظارنا في الفندق في استنبول. أما عربة النقل الثانية فكانت مجهزة بصواوين للمخزون من المأكولات والمشروبات والثلاجات وغرف العاملين. يتبع ذلك عربتان للنوم تسعان ٤٠ مسافراً ومجهزتان بأسرّة فاخرة ودورات مياه مريحة، ثم نجد المطعم بأثاثه الفاخر وجدرانه المغطاة بالجلد والجوبلان والقطيفة، وتأتي بعد ذلك عربة هي بين مكتبة وغلافة للتدخين وملحق بها مقصورة تجميل للسيدات ومكتب، ثم المطبخ يرأسه طباخ من الدرجة الأولى..».

تأتي نهاية هذا القصر المتحرك في عام ١٩٧٧، ففي ١٩ مايو من ذلك العام تحرك آخر قطار مباشر من باريس إلى استنبول وكان على المسافرين أن يغيروا القطار (من جديد!) إما في البندقية أو في بلغراد. الخط المباشر الآن هو من باريس إلى بودابست ثم بوخارست، وهو نفس الخط الذي سلكه «الأورينت إكسبرس» في رحلته الأولى عام ١٨٨٣.

كلود سيمون
الحائز على جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٨٥
(من روايته القصر)

... وفي تلك اللحظة خفّف القطار من سرعته، وأطلقت القاطرة ذلك الصفير المضحك والباكي والمحزن، صفير قطارات «الفار ــ وست» (Far-West) وتصادمت عربات التنوب (وفكر الطالب أنها ربما تكون هي نفسها التي أعدّت لصحاري الجبال الصخرية وربما أيضاً من طرف بكيّ أو فانباخ). ثم توقف القطار. صوت المطر على سقف العربة الرهيف، والنوافذ التي

يمكن إدراكها بالحواس من جديد. وأدار الطالب رأسه حتى يتمكن من أن يرى اسم المحطة، والتقى في البداية وجهه ووراءه وجه عازف البيانو الماهر وهو في بزّة ميكانيكي ومنكب دائماً على كنّشه، ثم (أنفه الآن على بلور النافذة) نفس العلم، نفس الخرقة المبللة، الحدادية التي تتدلى في جميع المحطات (معلقة على مظلة الباب أو على عمود كما هو الحال الآن) والذي يجب أن نعرف أن نصفه أحمر، ونصفه الآخر أسود، ذلك أن الأحمر بسبب البلل أصبح أكثر سواداً من الأسود، ثم رأى اسم المحطة (Banons de a guas galdas) أو (Ai gues calentes) أو (A guas Buenas). وهو يستطيع أن يتخيّل عندئذ السيدات العجائز في لباسهن الداكن وهن يتجولن ببطء أو هن جالسات في ممرات حديثة تحت ظلال الدلب الخفيفة وسط رائحة المياه الكبريتية الشبيهة برائحة البيض المتعفن، وربما أيضاً مقهى صغيراً تعزف فيه الموسيقى المحلية، وعربات اللاندو، وعربات الخيول وهي تنتظر هي أيضاً تحت أشجار الدلب المرتعشة وضجيج الشلال الدائم، ورائحة الأوساخ الكريهة والدائمة، وعربات اللاندو عليها خيمة من قماش الخمل، وبنايات الحمامات القديمة ذات الحنفيات المصنوعة من النحاس والتي لها شكل رقبة التم حيث تطفو أجساد السيدات العجائز اليابسة فوق المياه المتعفنة تحت مآزر محتشمة [...] ومن جديد أطلقت القاطرة صفيرها الباكي والحزين في الليل ـ كما لو أنها تحاول أن تشتّت (أن تفتح لنفسها طريقاً في) قطيعاً مبهماً من الجواميس الوحشية، ثم تحرك القطار. ورفع الطالب رأسه للحظة ورأى من خلال الانعكاس المبهم للوجهين على النافذة المغشاة بالمطر الأضواء القليلة، والخرقة الحمراء والسوداء، والأشباح الغاضبة للسيدات العجائز المصابات بالروماتزم وهن يتكئن على عكاكيز من الابنوس، ثم وهن منتصبات على الرصيف غير عابئات بالمطر الذي لا يتوقف، وشرطيي «سوغيريداد» صاحب الثياب الرثة، وصاحب المشية القريبة إلى حد ما من مشية العسكريين (إلى حد أنه لم يكن من الممكن أن نعرف إذا ما كانا هناك ليراقبا شيئاً ما أم ليراقب كل واحد منها الآخر) وهما يتطلعان إلى القطار وهو يمرّ أمامهما وشيئاً فشيئاً يضاعف من سرعته وإلى العربات الأخيرة الفارغة التي كانت أضواءها تنزلق الواحدة بعد الأخرى فوق وجوههم.

ايطالو كالفينو

(من روايته:
إذا ما مسافر في ليلة من ليالي الشتاء)

تبدأ الرواية في محطة من محطات سكك الحديد.

قاطرة تنفخ، صفير مكبس يغطي بداية الفصل.

سحاب من دخان يخفي إلى حدّ ما السطور الأولى من الفقرة، وداخل رائحة المحطة تمر نفحة من نفحات رائحة المشرب.

أحدهم ينظر من خلال بلور النافذة المغشى بالبخار، ثم يفتح باب الحانة البلوري. كل شيء غائم في الداخل كما لو أنه يشاهد من خلال عينين حسيرتين أو أن خبثات الفحم الحجري في حالة هيجان. إن صفحات الكتاب مغشاة بالبخار كما نوافذ القطار العتيق. وعلى الجمل يحط سحاب من دخان. مساء ممطر، سحاب من بخار يغشيه. رنين صفارة. يبتعد على امتداد الخطوط

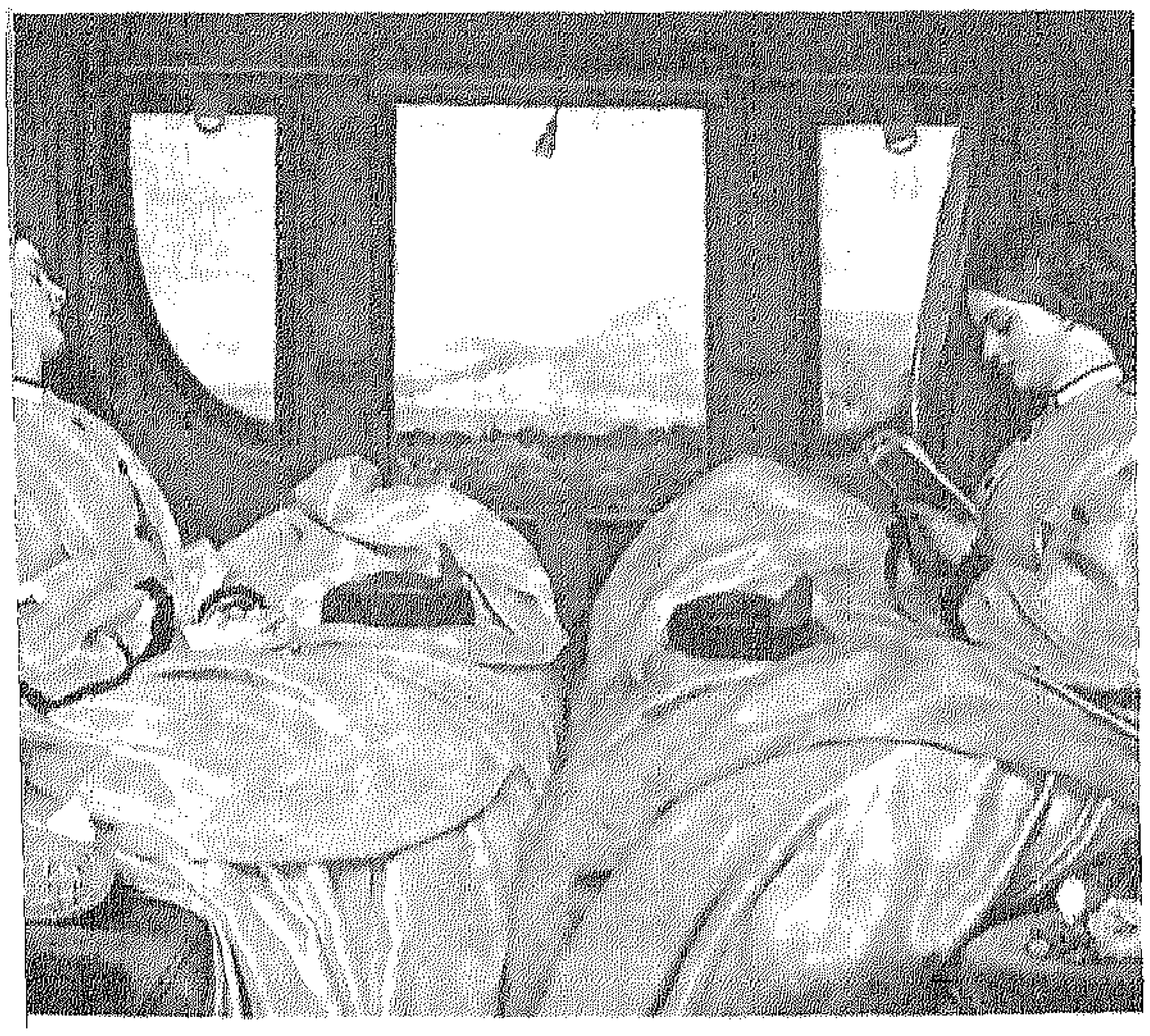

□ فتاتان في عربة قطار.
أوجست ليوبولد ايج.

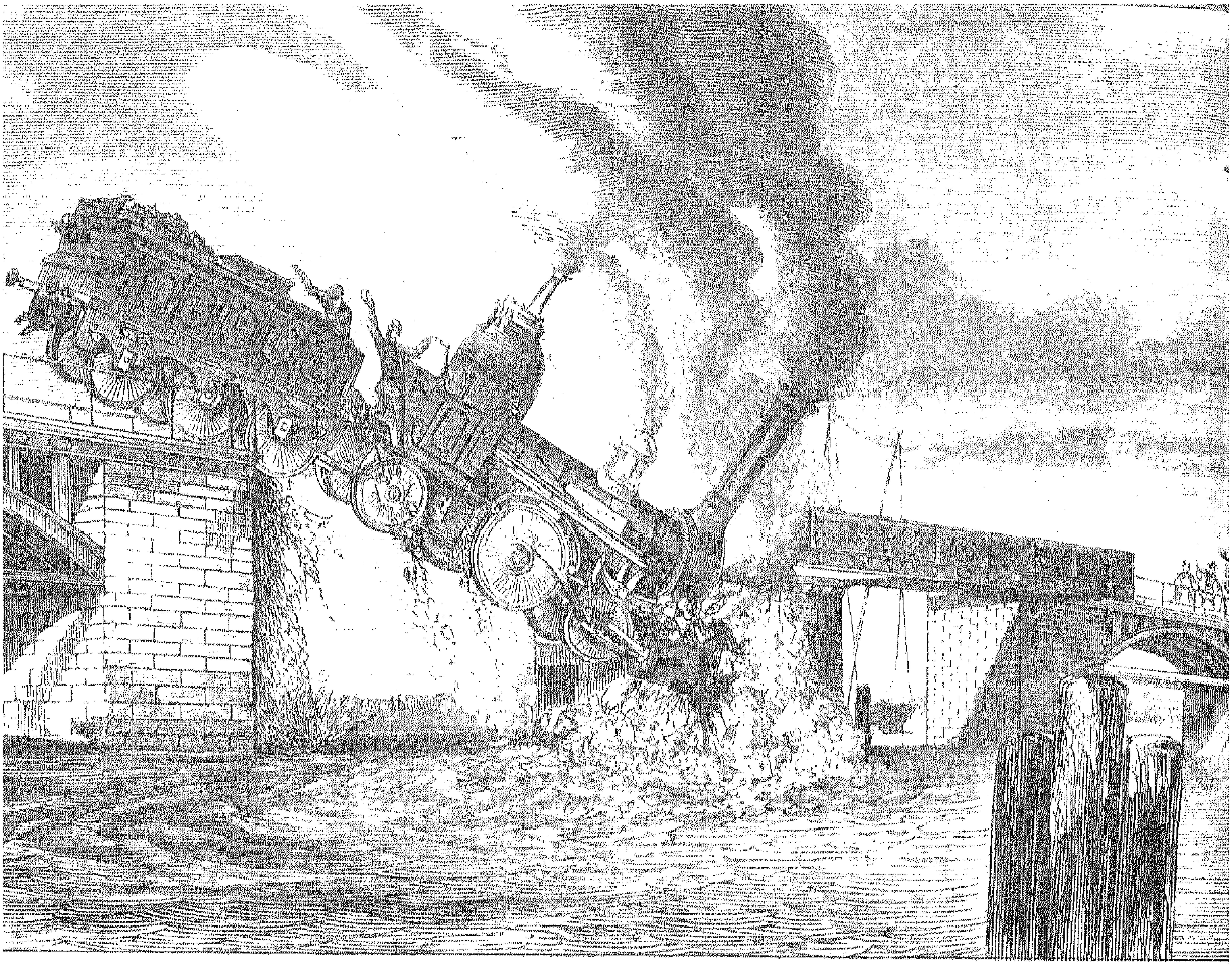

□ حادث قطار.

اللامعة تحت المطر، والممتدة على مد البصر. شيء ما شبيه بصفير قاطرة ودفق من بخار يخرجان من المصفاة التي يضعها العامل العجوز تحت الضغط كما لو أنه يطلق إشارة: وهذا على الأقل ما ينتج عن تتابع جمل الفقرة الثانية، حيث يضم اللاعبون الجالسون حول الطاولة أوراق اللعب إلى بطونهم ويلتفتون إلى القادم الجديد مديرين في الآن نفسه أعناقهم وأكتافهم وكراسيهم، في حين أن حرفاء آخرين واقفين أمام المبسط يرفعون فناجينهم الصغيرة وينفخون على سطح قهوتهم بينما عيونهم وشفاههم نصف مفتوحة. أو أنهم يشربون جعتهم بحذر شديد مخافة أن تندلق منها قطرة واحدة. والقط يستريح مقوّس الظهر، والصرافة تقفل الآلة الحاسبة التي تطلق رنّة. وكل هذه الإشارات تؤكد لكم أن المحطة المعينة محطة صغيرة من محطات الأقاليم تسهل فيها ملاحظة كل غريب وكل وجه غير مألوف.

المحطات تتشابه كلها. وليس مهماً أن لم تتمكن الفوانيس من إضاءة ما بعد تلك الدائرة الضوئية الغامضة: إنه مناخ تعرفه أنت عن ظهر قلب، برائحته رائحة القطار التي تتبقى إلى ما بعد انطلاق القطارات بوقت طويل، الرائحة الخاصة للمحطات بعد رحيل آخر قطار، أضواء المحطة والجمل التي أنت تقرأها تبدو كما أن مهمتها هي إذابة الأشياء وليس كشفها أو إظهارها: كل شيء يبرز من خلال غلالة من العتمة والضباب. هذه المحطة نزلت فيها هذا المساء لأول مرة. وأنا أشعر أما أني قضيت فيها حياة بأكملها. خارجاً من البار وداخلاً فيه متنقلاً بين رائحة المكنسة إلى رائحة نشارة بيوت النظافة المبللة وكل هذا ممزوج برائحة واحدة

هي رائحة الانتظار، ورائحة كابينات التلفون حين لا يبقى سوى استرجاع الفيشات لأن الرقم المطلوب لا يجيب. وهذا الرجل الذي يروح ويجيء بين البار وكابينة التلفون هو أنا. أو بالأحرى هو يسمى «أنا»، وأنت لا تعرف شيئاً آخر عنه تماماً مثلما أن هذه المحطة تسمى «محطة» فقط، وخارجها ليس هناك سوى إشارة دونما جواب لتلفون يرن في غرفة معتمة في مدينة بعيدة. أقطع المخابرة وأنتظر قرقعة الفيشة وهي تنزل خلال العنق المعدني، ثم أدفع الباب البلوري من جديد وأتجه نحو الكؤوس وهي تجف وسط سحاب من البخار.

صلاح عبدالصبور

(فصل من مسرحية «مسافر الليل»)

الراكب:

أنت الاسكندر...

عامل التذاكر:

ليس اسمي الاسكندر

اسمي زهوان.

الراكب:

بم تأمر يا مولاي الـ.. زهوان!

عامل التذاكر:

مذعور.. وغبي!

أولًا تدرك من ثوبي ما أطلب.

أطلب تذكرتك

هذا عملي.. عمل مرهق.

ينزعني من فرشي في بطن الليل.

يحرمني من نومي.. أشهى خبز في مائدة الله.

أحياناً لا تحوي القاطرة سوى حفنة ركاب.

ينتثرون كأجولة ملقاة في مخزن قطن مهجور.

بل أحياناً لا تحوي إلا رجلًا أو رجلين.

تبدو مظلمة باردة خافتة الأنفاس...

كبطن الحوت الميت.

أعرف ذلك حين تُقَعْقِعُ فوق رصيف البلدة.

أنوار مطفأة، وزجاج لا تلمع خلف غشاوته رأس.

لكني أتفقد كل العربات.

هذا واجب!.

أتحسس جلد مقاعدها وأحدق في الظلمة.

أحياناً أقلب ظهر المقعد.

بل إني أحياناً أقعى كي أنظر ما تحت المقعد.

بل إني أحياناً أستخرج مطواتي، وأشق المقعد.

ماذا؟ لا أغفر أن يركب أحد دون تذاكر.

ماذا! هل هدأت نفسك؟.

تذكرتك.

(الراكب يكاد أن ينسى موضع تذكرته، ويقلب جيوبه جيباً جيباً، حتى يجدها في كفه).

الراكب:

هذي تذكرتي.

عامل التذاكر:

شكراً، تذكرة خضراء...

ومربعة تقريباً...

وطريّـة...

هذا يعني أنك رجل طيب.

هل تدري أني صليت المغرب ثم غفوت...

بكامل ثوبي.

استعداداً للنوم.

حتى دق الجرس برأسي، فتركت سريري.

لم آكل لقمة.

خضراء... شكراً لك.

إنك تحرجني إذ تؤثرني، وتفضلني عن نفسك.

كم يأسرني الخلق الطيب.. شكراً لك..

الراوي:

فلننتبه الآن.

فسيحدث شيء من أغرب ما يخطر في بال.

العامل يفتح فمه، يمسح وجه التذكرة بكفه.

يتذوقها بلسانه...

يستطعمها، يقضم منها، يمضغها.

يبلعها، يتجشأ.

تتحسس كفاه معدته، وتدلك كفاه أحشاءه.

يشكر ربه.

ويقبل باطن يده في عرفان ومسرة.

أما الراكب.

فمن الدهشة لا يسعفه الفكر.

بل لا يعرف كيف يفكر.

بل لا يعرف كيف يكون الفكر.

عامل التذاكر:

تذكرتك يا سيد!.

□ رحلة عبر الطبيعة الجميلة (١٨٩٢) ـ ادلف منتسال.

□ مسافرون.

عربة صالون للملك لودفيك الثاني – ملك بافاريا
أعدت سنة ١٨٦٤.

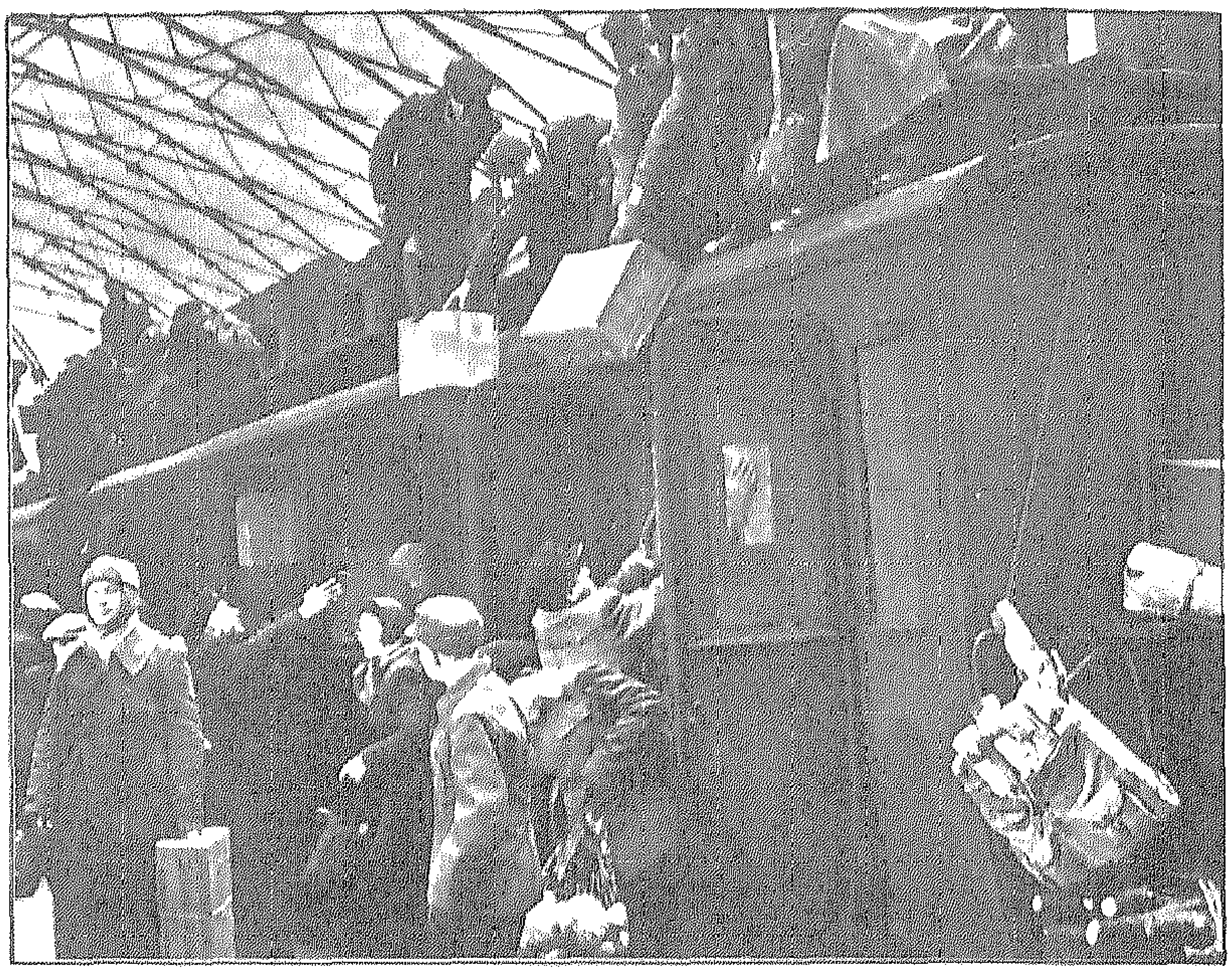

□ العائدون من الحرب.

الراكـــب:
أعطيتك إياها يا سيد.
عامل التذاكر:
أين...؟
الراكـــب:
في بطنك يا سيد.
عامل التذاكر:
لا ترتفع الكلفة إلا بين صديقين.
فالزم حدك.
أقسم أنك رجل ساخر.
لكنك لن تجني من سخريتك إلا ما لا ترضاه.
حقاً، قد تأسرني خفة ظلك.
لكن بحدود.
فالواجب سيظل الواجب.
الراكـــب:
أقسم أني أعطيتك إياها يا سيد.
عامل التذاكر:
وأنا ألقيت بها من هذا الشباك...؟
الراكـــب:
لا، بل أنت أكلــ...
عامل التذاكر:
إيه.. أنا.. ماذا؟
علمني سني أن يتأخر غضبــي.
علمني سني أن يتأخر غضبــي.
أن يتقدم عقل سخطي.
لكني لا أسمح إطلاقاً أن يتقدم عقلي خطوات القانون.
اسمع يا...
عامل التذاكر:
اسمع يا عبده.
فلنتحدث في هذا الموضع الشائك كصديقين.
كرفيقي رحلة.
بدلاً من أن نتحدث خصمين كما يفرض هذا الوضع المؤسف.
(راكب وعامل تذاكر):
إيه.. أوسع لي جنبك.
وسأخلع سترتي الرسمية حتى لا تخشاني.
فلدى بعض الناس حساسية ضد اللون الأصفر.
خذ نصحي كصديق.
لا تتحدث إلا فيما تبغى أن تتحدث فيه.
زن كلماتك بالميزان.
فكر مرات عشراً في كل سؤال.
عشرين لكل إجابة.
احذر أن يضطرب كلامك حتى لا يلتف حبالاً في عنقك.
لكن.. إيه.. ننتظر قليلاً حتى أخلع هذا الثوب الرسمي.

الناصرة

قسم التوثيق والأبحاث

مدينة عربية ومركز قضاء يحمل اسمها. وهي واحدة من أكبر وأجمل مدن فلسطين، ولها مكانة خاصة في نفوس المسيحيين في مختلف أنحاء العالم. فهم يحجون إليها كما يحجون إلى القدس وكنيسة المهد في بيت لحم. وقد نُسب السيد المسيح إليها فدعي بالناصري وعرف أتباعه بالمسيحيين تارة والنصارى تارة أخرى. وإذا كانت صفد عاصمة الجليل الأعلى فإن الناصرة عاصمة الجليل الأدنى. وهي قاعدة لقضاء الناصرة منذ أواخر العهد العثماني. وقد تعرضت الناصرة للاحتلال الاسرائيلي منذ عام ١٩٤٨ فهاجر عدد قليل من سكانها نتيجة لذلك، وصمد أكثرهم رغم قسوة الاحتلال وإهماله شؤون المدينة، وظلّت المدينة على حالها دون تطور رغم مرور أكثر من ثلاثين عاماً على الاحتلال فتراجعت المشروعات فيها وحدث عجز متصاعد في موازنة بلديتها. ولم تتعرض الناصرة العربية للتخلف والاهمال فحسب بل أخذت تعاني الاختناق والتسلط على يد سلطات الاحتلال التي أنشأت مدينة «نزاريت عليت» أي الناصرة العليا، على مرتفع جبلي بالقرب منها للتحكم في رقاب سكانها.

(أ) **الموقع الجغرافي**: تقوم الناصرة في قلب الجليل الأدنى وتطل على سهل مرج ابن عامر من الشمال. فهي لذلك نقطة انتقالية بين منطقة مرج ابن عامر السهلية ومنطقة الجليل الأعلى الجبلية. وقد كان لموقعها الجغرافي أهمية منذ القديم فكانت طرق فرعية تصلها بالطرق الرئيسية التي تربط بين سورية ومصر من جهة والأردن وفلسطين من جهة ثانية. وكانت بعض القوافل التجارية تعرّج عليها أثناء مرورها في سهل مرج ابن عامر (ر: الطرق).

وقد ضمّن الفاتحون خططهم العسكرية السيطرة على الناصرة للتحكم في سهل مرج ابن عامر منفذ الجيوش الطبيعي، ولاتخاذ المدينة قاعدة انطلاق للسيطرة على المناطق المجاورة، جبلية كانت أم سهلية أم غورية.

ولا يزال لموقع الناصرة أهميته التجارية والسياحية والعسكرية. فموقعها الجغرافي في بقعة تتوسط بيئات متنوعة حولها جعلها مركز التبادل التجاري لمنتجات هذه البيئات. ووقوع الناصرة في بقعة مقدسة عند المسيحيين جعلها محط أنظار السياح الذين يفدون إليها لزيارة الأماكن التي ارتادها السيد المسيح ومشاهدة المواقع الأثرية المحيطة بالمدينة والتمتع بالمناظر الجميلة.

ويضاعف من أهمية موقع الناصرة أنها عقدة مواصلات تتفرع منها طرق برية إلى المدن والقرى المجاورة. فهناك طرق معبدة تربطها بسهل مرج ابن عامر مسافة ٥ كم، وبمدينة العفولة مسافة ١٣ كم، وبجنين ونابلس والقدس والخليل جنوباً؛ وطرق معبدة أخرى تربطها بطبرية شرقاً، وبصفد شمالاً بشرق، وبشفا عمرو شمالاً بغرب، وبحيفا غرباً، وباللجون جنوباً بغرب، وببيسان جنوباً بشرق، وبذلك تتصل الناصرة بمدن المرتفعات الجبلية الفلسطينية وقراها، وبالسهول الساحلية والداخلية، وبغور الأردن، وبطرق الأقطار العربية المجاورة في لبنان وسورية والأردن ومصر.

(ب) **طبيعة الأرض**: تقوم الناصرة فوق رقعة متوسطة الارتفاع داخل الجليل الأدنى، ترتفع نحو ٤٠٠م عن سطح البحر، و٣٠٠م عن مستوى مرج ابن عامر، وتحيط بالناصرة جبال مرتفعة هي جزء من جبال الجليل الأدنى التي

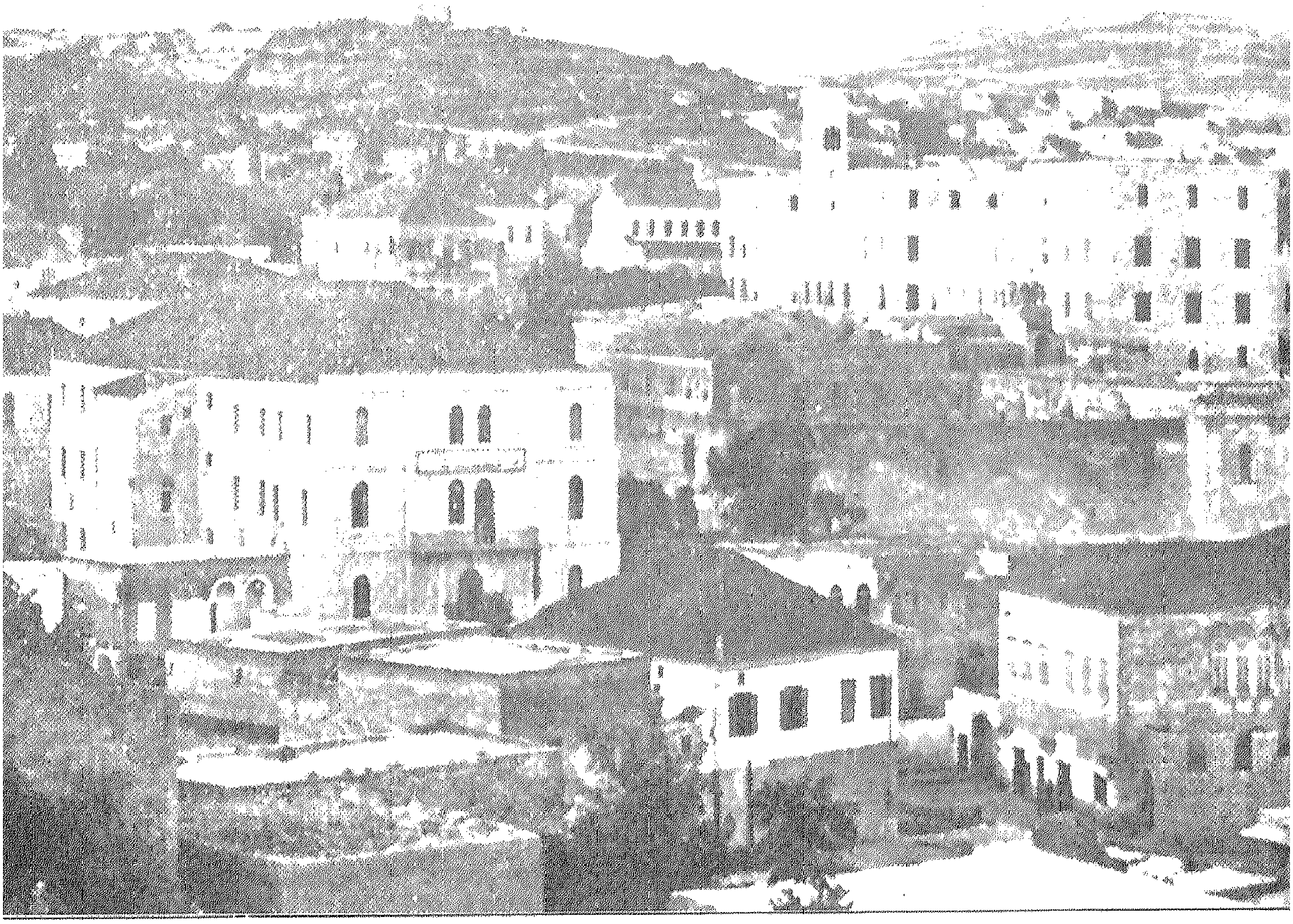

تمتد بصفة عامة من الغرب إلى الشرق وتنحدر تدريجياً نحو سهل مرج ابن عامر. وتحصر السلاسل الجبلية في الجليل الأدنى أودية مستعرضة بينها لها محور الجبال نفسه. ولذا فإن انفتاح الناصرة على المناطق المجاورة في الاتجاه الشرقي الغربي أكثر يسراً منه في الاتجاه الجنوبي الشمالي. وأهم الجبال المجاورة للناصرة جبل طابور (الطور) وجبل صرطبة شرقي الناصرة، وجبل القفزة وتل عداشيم وجبل الدحي جنوبيها الشرقي، وجبل السِّيخ شماليها الشرقي، وجبل الرّينة شماليها.

وتعدّ منطقة الناصرة خط لتقسيم المياه بين وادي الأردن شرقاً والبحر المتوسط غرباً، إذ ينحدر منها وادي البيرة وروافده نحو نهر الأردن، ونهر المقطّع وروافده نحو البحر المتوسط. ونظراً لوجود بعض الصدوع (الانكسارات) التي تمتد على الأغلب في اتجاه شرقي غربي تتخذ الأودية والمنخفضات المنتشرة في المنطقة الاتجاه نفسه. وقد هبطت هذه الأودية بفعل حركات تكوينية على طول الصدوع وأصبحت فتحات طبيعية بين السلاسل الجبلية من جهة ومصادر طبيعية للمياه الجوفية من جهة أخرى. وأهم الينابيع المحيطة بالناصرة عين العذراء وعين القناة وعين أبو راس وعين القسطل وعين موسى وغيرها من الينابيع والآبار.

(ج) **المناخ**: مناخ الناصرة هو مناخ البحر المتوسط المتميز بحرارته وجفافه صيفاً، ودفئه وهطول أمطاره شتاء. ويبلغ المتوسط السنوي للحرارة ١٧°، ولا يزيد متوسطها اليومي من كانون الأول إلى آذار على ١١°. ويعدّ شهر كانون الثاني من أكثر شهور السنة برودة، إذ يبلغ متوسط الحرارة فيه ٩°، وشهر آب من أكثر

الشهور حرارة بمتوسط مقداره ٢٤°. وتتعرض الناصرة في الشتاء إلى هبوب رياح شمالية باردة أحياناً. وتؤدي هذه الموجات الباردة إلى حدوث الصقيع فتسقط الثلوج على الجبال خلال فصل الشتاء. ويراوح معدل الرطوبة النسبية بين ٤٠ ٪ في شهر أيار و٧٣ ٪ في شهر كانون الثاني.

متوسط كمية الأمطار السنوية ٦٣٩ مم. ويتركز هطولها في الفترة من أيلول إلى أيار. ويعدّ كانون الثاني من أكثر الشهور أمطاراً (١٧٢,٢ مم). ونظراً لارتفاع كمية الأمطار التي تهطل على الناصرة وانخفاض درجات الحرارة شتاء، وبالتالي انخفاض قيم البخر والنتح، فإن الموازنة المائية لفصل النمو تتسم بفائض مائي يظهر أثره في كثرة الينابيع والمسيلات المائية في المنطقة.

(د) **النشأة والتطور**: دلّت الحفريات الأثرية على أن الناصرة كانت مسكونة في العصر البرونزي المتوسط وفي العصر الحديدي: وقد وجدت فيها قبور أثرية منقورة في الصخور أو في الكهوف (ر: العصور القديمة).

ويبدو أن المدينة لم تكن ذات شأن في العصور القديمة السابقة للميلاد. فلم يرد لها ذكر في العهد القديم أو في أي مصدر من المصادر الأدبية السابقة للإنجيل الذي ورد فيه اسم المدينة ٢٨ مرة.

وفي القرن الثاني بعد الميلاد ازداد الوجود اليهودي في المدينة وفي منطقة الجليل كلها بعد أن دمّر هادريانوس امبراطور روما مدينة القدس وطرد اليهود منها.

١ ـ **مدينة المسيح**: استمدت الناصرة مكانتها في التاريخ لأنها مدينة السيد المسيح ومريم العذراء. ففي الناصرة استوطنت مريم العذراء ويوسف النجار، وفيها بشّر جبرائيل مريم العذراء في السنة الخامسة قبل الميلاد، كما ورد في الإنجيل ـ بميلاد المسيح، وفيها قضى المسيح ٣٠ سنة من عمره، وفيها حاول اليهود من سكانها طرحه من جبل القفزة للتخلص منه (ر: المسيحية).

وقد منع اليهودُ المسيحيين من الدخول إلى الناصرة في القرنين الثاني والثالث. ومنذ القرن الرابع بدأ تاريخ الناصرة يتحوّل بعد تنصرّ الامبراطور الروماني قسطنطين ٣٠٦ ـ ٣٣٧م.

وذكر في رواية ضعيفة أن الملكة هيلانة والدة قسطنطين شيّدت كنيسة البشارة في الناصرة في القرن الرابع. ولكن الحفريات الأثرية الأخيرة ١٩٥٥ ـ ١٩٦٦ تشير إلى أن أول كنيسة بنيت في الناصرة، وهي كنيسة البشارة، تمّ بناؤها حوالي سنة ٤٥٠م. بيد أن اعتناق قسطنطين للمسيحية مكّن المسيحيين من زيارة الناصرة والتبرّك بالأماكن المرتبطة باسم السيد المسيح ووالدته العذراء.

وفي سنة ٦١٤ انضم يهود الناصرة إلى الفرس في حربهم مع البيزنطيين.

٢ ـ **في عهد الأمويين والعبّاسيين**: دخلت الناصرة في حوزة العرب المسلمين على يد شرحبيل بن حسنة فاتح شمال فلسطين في السنة الثالثة عشرة للهجرة (٦٣٤م)، وكانت تابعة آنذاك لجند الأردن الذي كانت قاعدته طبرية. وفي سنة ١٠٤هـ /٧٢٢م، أي في زمن الخليفة الأموي يزيد الثاني، زار السائح الإنكليزي ولیبلد الناصرة وذكر كنيسة البشارة. ويستدل من تقرير عن المعاهد الدينية المسيحية يرجع تاريخه إلى سنة ١٩٣هـ /٨٠٨م (زمن هارون الرشيد) أنه كان في الناصرة دير فيه ١٢ راهباً، ودير آخر على جبل القفزة.

ويتحدث برنارد الحكيم عن جو الحرية الدينية في المدينة عند زيارته لها زمن العباسيين في سنة ٨٦٩م فيقول:

«يوجد سلام تام بين المسيحيين والمسلمين. ولو كنت مسافراً ومات جملي أو حماري الذي يحمل أمتعتي أترك كل شيء في مكانه بلا حارس وأذهب إلى أقرب مدينة فأستأجر دابّة وأعود فأجد عند رجوعي كل شيء كما تركته».

٣ ـ **في عهد الصليبيين**: يظهر أن الناصرة حلّ بها خراب كبير في القرن الحادي عشر. فالمصادر تشير إلى أن الصليبيين وجدوا المدينة خراباً عندما احتلوها سنة ٤٩٤هـ / ١١٠٠م. وقد عمّر تنكريد مدينة الناصرة وزيّنها وبنى فيها الكنائس بعد أن كان قد دخلها فاتحاً على رأس القوة الصليبية. ونقل الصليبيون أسقفية سكيتوبوليس(بيسان)إلى الناصرة فصارت مركزاً

لها لأول مرة في تاريخها (رَ: الناصرة، كنائس).

وفي سنة ١١٤٠م انعقد فيها مجمع لفضّ الخلاف بين البابا فكتور الرابع والبابا إسكندر الثالث اللذين كان كل منهما يدّعي كرسي البابوية لنفسه.

وفي سنة ٥٨٣هـ /١١٨٧م، أي بعد معركة حطين، استولى مظفرالدين كوكوبوري أحد قادة صلاح الدين على مدينة الناصرة قسراً وملكها. وأظهر صلاح الدين ــ كما فعل في القدس وغيرها ــ عطفاً على أهل الناصرة ولم يمس كنائسها بأذى. وبموجب اتفاقية الصلح التي عقدها مع ريشارد ملك الإنكليز سنة ٥٨٧هـ /١١٩٢م بقيت الناصرة في عهدة صلاح الدين. غير أن الملك الكامل الأيوبي سلّمها لفردريك الثاني امبراطور ألمانيا بعد عقد الصلح بينهما سنة ٦٢٧هـ /١٢٢٩م. وبقيت المدينة في حوزة الفرنجة إلى أن استردّها الخوارزمية سنة ٦٤٢هـ /١٢٤٤م. ثم احتل الصليبيون الناصرة بقيادة لويس التاسع سنة ٦٤٨هـ /١٢٥٠م لفترة قصيرة، وزارها الملك لويس في سنة ٦٤٩هـ /١٢٥١م.

٤ ــ **هدم الناصرة**: نزلت بالناصرة ضربة شديدة سنة ٦٦٢هـ /١٢٦٣م عندما هدم الظاهر بيبرس المدينة وأديرتها وكنائسها وقتل كثيراً من سكانها النصارى. وفي سنة ٦٧٠هـ /١٢٧١م احتلها الأمير إدوارد الإنكليزي (الملك إدوارد فيما بعد) في الحملة الصليبية التاسعة والأخيرة لفترة وجيزة أيضاً. ولكن احتلال الناصرة المتبادل هذا انتهى سنة ٦٩١هـ /١٢٩١م عندما أخرج السلطان خليل بن قلاوون بقية الصليبيين من عكا وأجهز عليهم في الناصرة وهدم كنائسها. وظلّت الناصرة في حالة من الانحطاط أكثر من ثلاثمائة سنة بعد هذا التاريخ.

وقد استوطن المسلمون المدينة بعد طرد الفرنجة، ولكن ظلّ الرهبان والحجاج المسيحيون يزورونها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وكانت المدينة هذا الوقت قرية صغيرة من أعمال صفد.

٥ ــ **في العهد العثماني**: في سنة ٩٢٣هـ /١٥١٧م دخلت الناصرة في حوزة العثمانيين. ويقول الرحّالون الأوروبيون أنه لم يكن في الناصرة رهبان في أواسط القرن السادس عشر الميلادي. وكان عدد المسيحيين فيها لا يتجاوز بضع مئات. وفي سنة ١٠١٥هـ /١٦٠٦م عقدت معاهدة بين السلطان أحمد الأول العثماني وهنري الرابع ملك فرنسا فُوّض الأخير بموجبها أن يقيم قناصل في المدن. وأخذت حالة الرهبان تتحسن. وفي سنة ١٠٣٠هـ /١٦٢٠م سلّم الأمير فخرالدين بن قرقماز المعني الثاني مغارة البشارة إلى الرهبان الفرانسيسكان. ومنذ ذلك الوقت أخذ المسيحيون يتوافدون إلى المدينة بأعداد متزايدة. وقد وفد إليها أولاً مسيحيون موارنة ثم مسيحيون من الروم الأرثوذكس. وكانت المدينة تتعرض في القرن السابع عشر باستمرار لهجمات الأعراب. وكان الحكّام يتعرضون للرهبان أحياناً ويبعدونهم، ولكن هؤلاء كانوا يعودون دائماً.

وفي سنة ١١٤٣هـ /١٧٣٠م بنى اللاتين كنيسة في الناصرة. وكان جوّ التسامح الديني يسود المنطقة منذ عهد الأمير فخرالدين المعني الثاني، ثم في عهد ظاهر العمر الذي استولى على عكا سنة ١١٦٣هـ /١٧٤٩م وجعلها عاصمة ملكه وأطلق الحرية الدينية ومدّ رواق الأمن ووسّع التجارة. وقد كان له فضل كبير في عمران الناصرة. وبعد مقتل ظاهر العمر سنة ١١٩٠هـ /١٧٧٦م تلاه أحمد باشا الجزّار الذي حكم البلاد حكم إرهاب.

وتميّز القرن الثامن عشر بمشاحنات بين طائفتي الروم واللاتين خاصة. وفي أواخر هذا القرن قال الرحالة الفرنسي فولني عن الناصرة: «سكّانها ثلثهم مسلمون والثلثان مسيحيون. وللآباء الفرنسيسيين فيها نزل ومعابد، وهم عادة ملتزمو البلدة».

في نيسان ١٢١٤هـ /١٧٩٩م احتل نابليون الناصرة وزار المدينة ثم ما لبث أن انسحب منها بعد هزيمته عند أسوار عكا (رَ: الحملة الفرنسية).

وفي سنة ١٢٤٢هـ /١٨٢٦م رخّص السلطان محمود العثماني لرهبان الفرانسيسكان بتجديد بعض المقامات وأقطعهم الناصرة وبعض القرى على أن يؤدّوا خراجها للدولة.

وتحدث الرحالة بوركهارت عن الناصرة، وكان

قد نزلها سنة ١٢٢٧هـ /١٨١٢م، فقال: «يتمتع مسيحيو الناصرة بحريّة كبيرة. فالرهبان يذهبون للصيد وحدهم حسب عوائدهم مسافة تبعد عن الدير عدة ساعات دون أن يتعرضوا لأية إهانة من المسلمين».

وشهدت الناصرة والبلاد كلها عهداً من التسامح في فترة حكم إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا المصري ١٨٣١ ــ ١٨٤١م وكان حكمه بداية عصر جديد من الإدارة الحديثة (ر: الحكم المصري).

وفي القرن التاسع عشر بدأت الدولة العثمانية عصر التنظيمات وأخذت تحاول تحسين أوضاع الرعية فيها بصورة عامة. ومنذ بداية هذا القرن أخذت تفد إلى الناصرة أعداد متزايدة من الإرساليات الأجنبية والتبشيرية وتقيم فيها منشآت مختلفة من كنائس وأديرة ومعاهد تعليم لجميع الطوائف.

عانت الناصرة كما عانت سائر المدن الجبلية في فلسطين من زلزال عام ١٨٣٧م الذي دمرّ ٤٢٤ بيتاً فيها وأعطب ٣٧٣ بيتاً آخر وقتل من سكانها ١٢٦ فرداً (ر: الزلازل).

وكانت الناصرة تقوم قبل الحرب العالمية الأولى على أربعة تلال يشكل مجموعها دائرة. ولم تكن المباني تغطي جميع هذه التلال، بل كانت تتلاصق أحياناً وتتباعد مختفية بين تلك التلال أحياناً أخرى. وقد غطيت سطوح معظم مبانيها بالأجر الأحمر (القرميد) وأحاطت بها الأشجار المثمرة، ولا سيما أشجار الزيتون. ولم يكن عدد مبانيها يتجاوز ١,٥٠٠ بناء في ذلك الوقت، وكان نموها العمراني يمتد بخطى واسعة نحو الشرق والغرب.

قدر عدد سكان الناصرة في عام ١٨٥٢ بنحو ٣,٠٠٠ نسمة، وقدّر عددهم في عام ١٨٨١ بنحو ٥,٩٣٩ نسمة. وفي عام ١٩٠٤ بلغ العدد ٦,٤٥٨ نسمة، ثم ارتفع إلى ٧,٩٨٨ في عام ١٩١٢، وإلى ٨,٥٨٤ إبّان الحرب العالمية الأولى. وكان سكانها يعملون في الزراعة والصناعة والتجارة.

وفي الحرب العالمية الأولى كانت الناصرة مقراً لقيادة الجيش الألماني ــ التركي.

٦ ــ **في عهد الانتداب البريطاني**: في أوائل عهد الانتداب البريطاني انخفض عدد سكان الناصرة قليلاً عمّا كان عليه في بداية الحرب العالمية. وقدّر العدد بنحو ٧,٤٢٤ نسمة عام ١٩٢٢. ويعزى هذا الانخفاض إلى أحداث الحرب والأمراض والمجاعات التي أتت على عدد من السكان، بالإضافة إلى عامل الهجرة من الناصرة إلى خارج فلسطين. وفي تعداد عام ١٩٣١ ارتفع عدد سكان الناصرة إلى ٨,٧٥٦ نسمة كانوا يقيمون في ١,٨٣٤ بيتاً داخل المدينة، علاوة على ١٣٨ نسمة كانوا يقيمون في ٢٨ بيتاً بضواحي الناصرة.

شهدت الناصرة، بعدئذ تطوراً ملموساً في سكانها وعمرانها فزاد عدد السكان وجميعهم من العرب، إلى ١٤,٢٠٠ نسمة عام ١٩٤٥. وكان عددهم في نهاية فترة الانتداب البريطاني نحو ١٧,٠٠٠ نسمة. وقد أثرت الزيادة العددية للسكان في الزيادة العددية للمساكن والمنشآت والمرافق العامة. وظهر ذلك في النمو العمراني للمدينة وتوسّعها وامتدادها فوق رقعة تجاوزت مساحتها ٥,٠٠٠ دونم. واتخذ هذا الامتداد شكل المحاور على طول الطرق المتفرعة من الناصرة إلى المدن والقرى المجاورة. ولم يقتصر الأمر على عدد البيوت بل أصاب التطور نوعها وأساليب عمارتها، فبدت الناصرة بيضاء ببيوتها الفخمة التي تضم التجهيزات العصرية، وبشوارعها النظيفة وحدائقها الغنّاء.

ساهمت بلدية الناصرة في تنظيم المدينة والإشراف على إدارتها وشؤونها منذ عام ١٨٧٥ عندما تأسس أول مجلس بلدي في المدينة. ففي عام ١٩٢٢ بلغ مجموع واردات البلدية نحو ٤,٣٠٨ جنيهات، والنفقات مثلها. وفي عام ١٩٤٤ كانت وارداتها نحو ١٨,٠٠٠ جنيه ونفقاتها نحو ١٧,٠٠٠ جنيه. وقد أعطت البلدية عام ١٩٣٥ وحده نحو ١٥٠ رخصة بناء بقيمة ١٧,٠٠٠ جنيه.

٧ ــ **في ظل الاحتلال الإسرائيلي**: ظلت بلدية الناصرة تدير شؤون المدينة بعد عام ١٩٤٨ رغم قسوة الاحتلال الإسرائيلي. فقد أقامت (إسرائيل) مدينة الناصرة العليا الصهيونية «نزاريت عليت» لتكوّن كمّاشة من الأبنية الحديثة على الجبال والهضاب المطلة على

المدينة من جهتي الشرق والشمال. وتسكن هذه المدينة مجموعات من المستوطنين الصهيونيين خصصت لهم الأحياء الشرقية. وأما المنطقة الشمالية فقد خصصت لإقامة عائلات الجنود الصهيونيين المتزوجين.

بلغ مجموع سكان الناصرة العربية أواخر عام ١٩٧٨ قرابة ٤٥,٠٠٠ نسمة، مجموع سكان الناصرة العليا الصهيونية ١٦,٠٠٠ نسمة. ولكن موازنة الأولى كانت ١٧ مليون ليرة إسرائيلية في حين كانت موازنة الثانية ٣٠ مليون ليرة إسرائيلية، أي أن موازنة بلدية الناصرة العليا التي يبلغ عدد سكانها ثلث عدد سكان الناصرة العربية تقريباً

وصلت إلى ما يقرب ضعفي موازنة بلدية الناصرة العربية بل إلى أكثر من ذلك إذا أضيف إليها الدعم المقنّع الذي تقدمه الحكومة باسم صندوق مشاريع التطوير. وبذلك تبلغ مخصّصات الفرد الصهيوني من الخدمات البلدية في الناصرة العليا ٥,٠٠٠ ليرة في العام مقابل ١,٥٠٠ ليرة للفرد العربي في الناصرة.

(هـ) **التركيب الوظيفي للناصرة**: تتنوع الوظائف التي تمارسها الناصرة منذ الماضي بسبب مكانتها الدينية المرموقة وموقعها الجغرافي الهام. فقد جذبت إليها السكان للإقامة والاستيطان، وأخذ هؤلاء يمارسون حرفاً متنوعة تناسب ظروف مدينتهم.

١ ــ **الوظيفة الدينية**: للناصرة أهمية دينية خاصة كما لغيرها من مدن فلسطين المقدسة كالقدس وبيت لحم والخليل. ففيها ٢٤ كنيسة وديراً وعدد من المتاحف الدينية. وتضم كذلك بعض المساجد وأضرحة الشهداء والصالحين من المسلمين. وأبرز معالم المدينة المدنية التاريخية كنيسة البشارة التي تقوم على الموضع الذي بشّرت فيه مريم بأنها ستلد المسيح. وتقع الكنيسة على مقربة من حافة الجبل المطل على مرج ابن عامر وكان اليهود قد حاولوا أن يلقوا بالسيد المسيح من فوقه إلى أسفل. وهناك كذلك كنيسة القديس يوسف التي أقيمت مكان بيت يوسف النجار وحانوته وكنيسة البلاطة أو مائدة المسيح، وكنيسة سيدة الرحمة، وكنيسة المجمع، وعين العذراء.

جذبت أهمية الناصرة الدينية أنظار العالم المسيحي فأخذ يؤمها آلاف الحجّاج المسيحيين والسيّاح سنوياً لزيارة البقاع المقدسة والتاريخية، الأمر الذي يبعث الحياة ويزيد من الحركة والنشاط فيها.

٢ ــ **الوظيفة الزراعية**: تبلغ مساحة الأراضي التابعة للناصرة ١٠,٢٢٦ دونماً منها ١٥٠ دونماً للطرق والأودية. ولم يكن الصهيونيون يملكون من أراضيها شيئاً. ولكنهم وضعوا أيديهم بعد الاحتلال على مساحة من الأرض الجبلية المرتفعة فأقاموا عليها مدينة صهيونية تمهيداً لتهويد الناصرة.

ويقع كثير من الأراضي الزراعية المحيطة بالناصرة فوق سطوح الجبال والهضاب، وعلى سفوحها ومنحدراتها، وفي بطون الأودية والسهول. وتعدّ الأرض الزراعية التي تشغل جزءاً من سهل مرج ابن عامر أخصب أراضي الناصرة. وتستخدم الأراضي حول الناصرة في زراعة الأشجار المثمرة كالعنب والزيتون والتفاح والمشمش والتين والرمان واللوز وغيرها. وهناك مساحة كبيرة منها في السفوح الجبلية الشديدة الانحدار تكسوها الغابات الحرجية. وقد زرع الصهيونيون غابة بلفور جنوبي غرب الناصرة تخليداً لذكرى بلفور صاحب الوعد المشؤوم. وتمتد الأشجار الحرجية على جانبي طريق العفولة ــ الناصرة وتضفي على الطريق منظراً بهيجاً.

وتزرع في أراضي الناصرة المحاصيل الحقلية من قمح وشعير وعدس وفول وحمص وغيرها، علاوة على الخضر على اختلاف أنواعها المعروفة. وتعتمد الزراعة على مياه الأمطار والمياه الجوفية من الينابيع والآبار لريّ مساحات من الأراضي المنبسطة والأخرى الواقعة في بطون الأودية. وبالرغم من أهمية مدينة الناصرة الزراعية فإنها لا تزال تعتمد على المناطق الريفية المجاورة في إمدادها بالخضر والفواكه. وأهم القرى الزراعية المجاورة للناصرة كفركنا والرينة ودبّورية ويافا الجليل وإكسال.

٣ ــ **الوظيفة التجارية**: كانت الناصرة منذ مطلع هذا القرن مدينة زاهرة تعجّ بالحركة

التجارية ويؤمّها القرويون فيجدون ما يطلبون. ولكن الوضع التجاري ركد بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة عندما حلّت مجموعة من المستعمرات الصهيونية محلّ بعض القرى العربية التي كانت تتبع الناصرة في سهل مرج ابن عامر، لأن أهالي تلك المستعمرات لم يعودوا يعتمدون على الناصرة في تجارتهم. وبالرغم من ذلك فإن الناصرة ظلّت سوقاً لأهالي القرى العربية الباقية يعرضون فيها منتجاتهم الزراعية والحيوانية ويشترون منها جميع لوازمهم وحاجاتهم المنزلية.

وتأتي السياحة على رأس العوامل التي جعلت حركة التجارة رائجة في الناصرة. فالمدينة مركز سياحي مرموق يستقبل عدداً كبيراً من السيّاح والحجّاج المسيحيين كل عام. ويشتري هؤلاء أصنافاً متعددة من الهدايا التذكارية ويعودون بها إلى بلادهم. ويأتي الموقع الجغرافي للناصرة ووجود شبكة طرق كثيرة تربطها بجهات مختلفة من فلسطين والأقطار العربية عاملاً هاماً في ترويج الحركة التجارية. وتعدّ منطقة الناصرة ظهيراً جغرافياً غنيّاً لميناءي حيفا وعكا.

٤ ــ **الوظيفة الصناعية**: اشتهرت الناصرة في القديم بصناعة النسيج. فقد كانت فيها أنوال كثيرة لحياكة أنواع المفارش والجوارب. وتصنع في المدينة المناجل والمحاريث. وتعدّ التجارة والمصنوعات الخشبية أقدم ما عرفته الناصرة من الصناعات. ومن صناعات الناصرة كذلك دباغة الجلود وتفصيلها، وخياطة الفراء، وصناعة الفخار والهدايا التذكارية من سجاد ونحاس وخشب محفور. واشتهرت نساء الناصرة بصنع المطرزات الحريرية. وفي الناصرة معاصر الزيتون والسمسم لاستخراج الزيت والسيرج والطحينة. وفيها أيضاً مصانع للصابون (ر: الصابون، صناعة) والبسط والحلويات وغيرها.

٥ ــ **الوظيفة الإدارية**: أصبحت الناصرة مركزاً لمقاطعة الناصرة منذ الاحتلال الصهيوني لها. وكانت في العهد العثماني قضاء تابعاً لمتصرفية عكا. ثم أصبحت في عهد الانتداب البريطاني مركز لواء الجليل الذي كان يتألف من خمسة أقضية هي: الناصرة وعكا وبيسان وصفد وطبرية (ر: الإدارة).

اشتمل قضاء الناصرة عام ١٩٠٤ على ٢٥ قرية، زاد عددها إلى ٣٨ قرية ومزرعة عام ١٩١٠، وفي أواخر الحكم البريطاني ضم قضاء الناصرة ٢٢ قرية وعشيرة واحدة.

بلغت مساحة قضاء الناصرة في عام ١٩٤٥ نحو ٤٩٧ كم^2 منها ٨ كم^2 للطرق والأودية والسكك الحديدية. وبلغ عدد سكانه ٤٦،١٠٠ نسمة في العام نفسه، أي أن كثافة السكان بلغت ٩٢،٤ ن/ كم^2. وتضم مدينة الناصرة الدوائر والمصالح الحكومية والمؤسسات العامة والخاصة التي تؤدي خدماتها لأهاليها وأهالي القضاء.

٦ ــ **الوظيفة التعليمية**: اشتملت الناصرة في أوائل عهد الانتداب البريطاني على عدد من المدارس منها اثنتان للحكومة ومدرسة للكاثوليك وعدة مدارس للأجانب. وكانت فيها دار المعلمين الروسية، وهي من أهم المدارس الفنية. وفي العام الدراسي ١٩٤٢/١٩٤٣ ضمّت الناصرة ثلاث مدارس حكومية، اثنتان للبنين وواحدة للبنات. وقد أصبحت إحدى مدرستي البنين ثانوية كاملة في عام ١٩٤٨، أما المدرستان الأخريان للبنين والبنات فهما ابتدائيتان كاملتان. وقد بلغ مجموع المدارس غير الحكومية ١١ مدرسة في عام ١٩٤٣. وفي العام نفسه بلغ مجموع الطلاب في مدارس الناصرة ١،٧٣٥ تلميذاً ومجموع التلميذات ١،٢٢٤ تلميذة. وتدل هذه الأرقام على أن حياة الناصرة العلمية راقية ظهر أثرها في مستويات الأهالي الثقافية العالية، فقد ساهمت الناصرة في تخريج جيل مشهور من المتعلمين والمثقفين والأدباء.

٧ ــ **الوظيفة الصحية**: يتلقى المواطنون في الناصرة خدمات صحية جيدة، ففيها مستشفيان: الأول إنكليزي كان يضم في عام ١٩٤٤ نحو ٧٢ سريراً، ومجموع المرضى الذين تلقوا معالجة فيه خلال ذلك العام ١،٧٣١ مريضاً. والثاني فرنسي كان يضم ٨٨ سريراً وعولج فيه ١،٢٧٨ مريضاً في العام نفسه (ر: المستشفيات).

● **الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، الطبعة ١٩٨٤.**

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

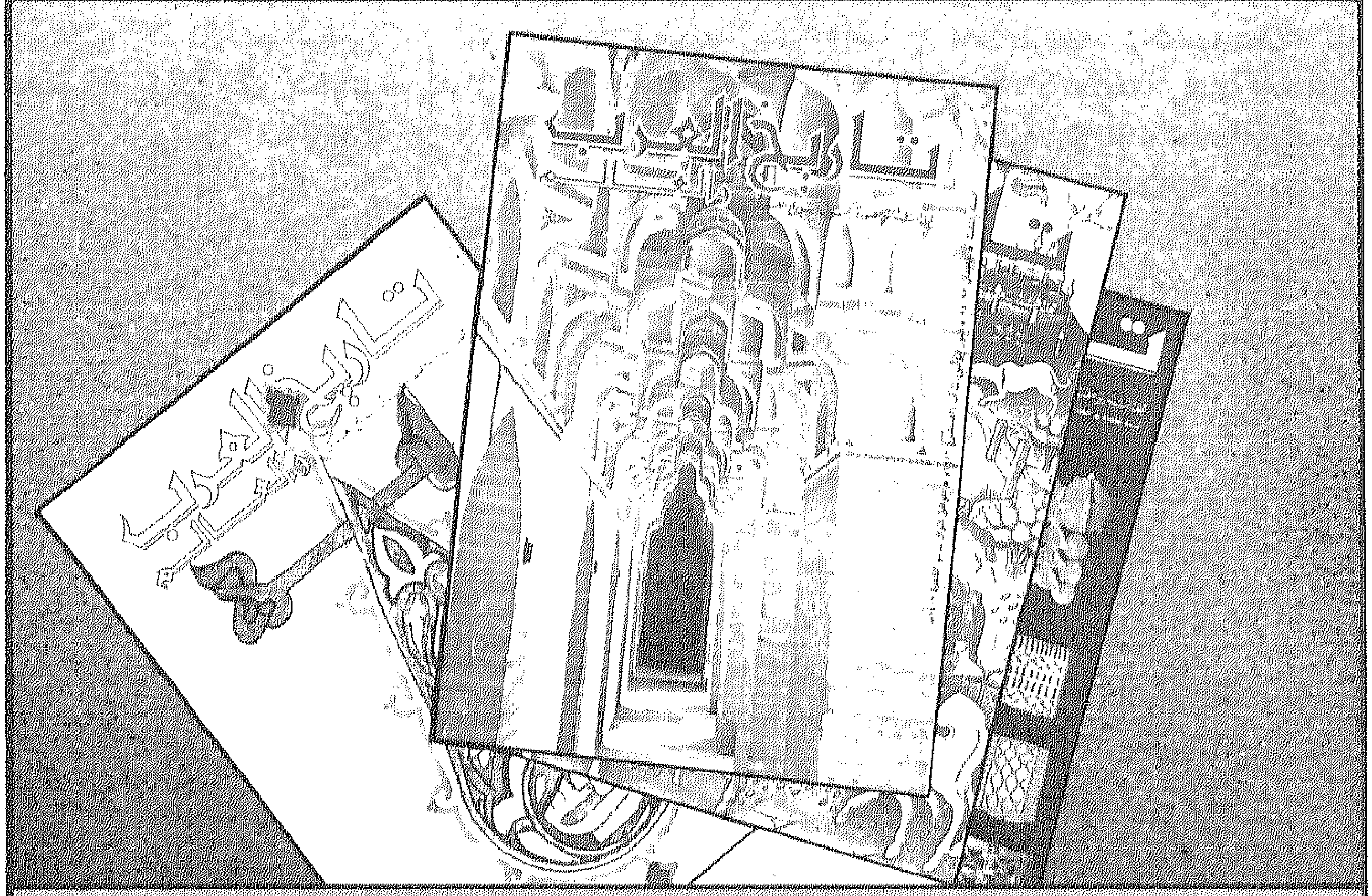

الاشتراكات

- للأفراد في لبنان............... ٢٠٠ ل.ل.
- للأفراد في الوطن العربي... ٣٥ دولاراً
- للأفراد في دول العالم الأخرى ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في لبنان............... ٤٠٠ ل.ل
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي.......... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي........ ١٠٠ دولار

جميع المراسلات توجه بإسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص. ب. / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣

نبذة عن المكتبات الاسلامية في الهند

تقرير كتبه الأستاذ عبدالرحمن عبدالجبار الفريوائي عن مكتبات الهند. ويذكر أن معهد المخطوطات العربية في الكويت قد أرسل بعثة إلى الهند في عام ١٤٠٤هـ وقد شملت زيارة البعثة على خمس مدن وقدم تقريراً عن ١٧ مكتبة مخطوطات وقد سبق معهد المخطوطات جامعتا الامام محمد بن سعود الاسلامية والجامعة الاسلامية في المدينة المنورة عندما ذهبت بعثتان وصورتا مجموعة من المخطوطات المهمة هناك. وتتميماً للفائدة العلمية المرجوة نرفق إلى جانب تقارير تلك البعثات هذا التقرير الموجز عن بعض مكتبات المخطوطات في الهند المعروفة وغير المعروفة.

تقرير عن أهم مكتبات الهند التي تشتهر من حيث المخطوطات او المطبوعات القديمة في التفسير والحديث والفقه والعربية، مع الاشارة إلى أن هناك مكتبات قيمة في كل مركز من مراكز التعليم والتربية المنتشرة في أنحاء الهند:

١ ـ **مكتبة رضا الشعبية**، رام فور (شمال الهند): وهي من اقدم مكتبات الهند الشهيرة للمخطوطات النادرة، أنشأها النواب السيد فيض الله خان بهادر والي رامفور في ١٧٩٤م / ١٢٠٨هـ، وطار صيتها في الآفاق في النصف الآخر من القرن التاسع عشر الميلادي بفضل جهود الأمير السيد كلب علي خان بهادر، وازدهرت المكتبة في عصر النواب محمد رضا علي خان بهادر الذي تولى عرش الولاية سنة ١٩٣٠م، وعين الأستاذ امتياز على عرشي أميناً للمكتبة، وبعد استقلال الهند ادارتها الحكومة، ويبلغ عدد المخطوطات فيها ١٤٠٠٠ مخطوطة، معظمها باللغة العربية والأردية والفارسية. ونشر فهرس المخطوطات العربية في ست مجلدات، وعدد مخطوطات علوم القرآن والحديث وأسماء الرجال ١٤٢٠ مخطوطة.

٢ ـ **مكتبة خدا بخش للعلوم الشرقية**، بانكي فور بتنة، (ولاية بهار): وهي مكتبة عظيمة تمتاز بين مكتبات الهند بمخطوطاتها النادرة في علوم القرآن والحديث، وضع حجرها الأساسي والد خدا بخش الشيخ محمد بخش (ف ١٨٧٦م) الذي كان مولعاً باقتناء الكتب النادرة، وترك لابنه خدا بخش ١٤٠٠ مخطوطة حين وفاته، واستطاع خدا بخش بجهوده الفردية أن يقدم للأمة الاسلامية اروع مكتبة طار صيتها في الآفاق، وسار إليها الركبان، ويبلغ عدد المخطوطات والمطبوعات فيها ٤٦٢٩٨ نسخة، وعدد المخطوطات العربية: ٤١٠٦ نسخة، وقد ظهر إلى الآن ٣٢ جزءاً من فهارسها، منها جزءان للحديث وجزءان للقرآن وعلومه، ويقدر عدد مخطوطات التفسير والحديث ألفي مخطوطة، ومن نفائس المخطوطات: مصحف بخط النسخ بقلم ياقوت (٦٦٨هـ)، والأمالي لأبي القاسم عبدالملك بن محمد بن عبدالله، وتاريخ دمشق، وهي نسخة وحيدة كاملة في العالم.

٣ ـ **مكتبة الجمعية الآسيوية بكلكتا**: هي أيضاً من المكتبات الشهيرة في الهند لمخطوطاتها الكثيرة ولمطبوعاتها، ويقدر فيها عدد المخطوطات أكثر من ألفي مخطوطة، وتديرها حكومة البنغال.

٤ ـ **مكتبة الحكومة الشرقية**: مدراس في جامعة مدراس: هي مكتبة قيمة عظيمة في جنوب الهند، وصدرت فهارسها المشروحة في اللغة الانجليزية، وعدد المخطوطات العربية فيها حوالي ١٥٠٠ مخطوطة، معظمها في الحديث والتفسير والأدب والكلام.

٥ ــ مكتبة أسرة القاضي بدر الدولة، بمدراس: أسرة بدر الدولة من الأسر العلمية التي لعبت دوراً مهماً في نشر الثقافة الاسلامية في الهند، وهاجر بعض أصحابها إلى حيدر آباد واشتهر من هذه الأسرة الأستاذ الدكتور حميد الله (فرنسا)، وتوجد في هذه المكتبة ٧٠٠٠ مخطوطة، غالبها في علوم القرآن والسنة والفقه والكلام والعربية، كما روى الشيخ عبدالغني في حيدر آباد وهو من افراد الأسرة، واشتهرت مكتبة مدراس «بمكتبة أمانتي».

٦ ــ المكتبة السعيدية، بحيدر آباد: هي مكتبة صانية لأسرة القاضي بدر الدولة، وفيها ثلاثة آلاف مخطوطة في الحديث والقرآن والفقه والكلام، ومديرها الحالي الشيخ عبدالغني حفظه الله وكلتا المكتبتين لأسرة القاضي بدر الدولة تملكها السيدة خير النساء زوجة الشيخ محمد غوث، وهي خالة الشيخ عبدالغني المذكور، وكلتا المكتبتين في حالة كئيبة، تحتاج إلى نظام وإدارة وتنسيق ومعونة مادية، وإلا يخشى التلف والفساد عليها.

٧ ــ المكتبة الآصفية: هي مكتبة أنشأها الأمراء المسلمون في حيدر آباد، والآن تديرها الحكومة، وهي كبرى المكتبات في حيدر آباد، وفيها مخطوطات جيدة، ومطبوعات قديمة.

٨ ــ مكتبة متحف سالار جنك: أنشأها نواب مير يوسف علي خان سالار جنك (الثالث)، وهي من المكتبات الشهيرة في الهند، تحتوي على مئتي ألف كتاب من مطبوع ومخطوط، وعدد المخطوطات فيها ٧٦٥٠ مخطوطة، والعربية فيها: ٢٤٥٩، ومخطوطات علوم القرآن والحديث وأسماء الرجال والفتاوي لأهل السنة تبلغ ٢٩٨ مخطوطة. وكتب السنة والتفسير والفقه والفتاوي للشيعة تبلغ ٢٧٤ مخطوطة، ولها فهرس منشور من دائرة المعارف بحيد آباد.

وفي حيدر آباد مكتبات أخرى مثل المكتبة العثمانية ومكتبة آزاد.

وزرنا بعض أسر النواب ورأينا هنا مئات من المخطوطات يعرضونها على المشترين ليبيعوها بثمن بخس.

٩ ــ مكتبة المعهد الهندي، للدراسات الاسلامية (تابعة لمؤسسة همدرد بدهلي): هي مكتبة حديثة أنشأها الحكيم عبدالحميد الدهلوي، وصارت المكتبة من كبرى مكتبات الهند من حيث المخطوطات فتوجد فيها خمسة آلاف مخطوطة معظمها بالعربية. وجدير بالذكر أن فيها مخطوطات كثيرة مصورة من مكتبات روسيا، وهي من أبدع المكتبات في تنسيقها ونظمها وإدارتها.

١٠ ــ ١١ ــ مكتبة الجامعة الملية ــ بدهلي، ومكتبة ابي الكلام، آزاد بدهلي: مكتبتان قيمتان، وفيهما عدد غير قليل من المخطوطات، والجدير بالذكر أن ما في مكتبة الجامعة الملية أهديت إليها من مكتبة دار الحديث الرحمانية وقت استقلال الهند سنة ١٩٤٧م التي كانت من أهم مكتبات الهند.

١٢ ــ مكتبة آزاد، بالجامعة الاسلامية بعلي كره: وهي مكتبة عامة للجامعة ومن كبرى مكتبات العالم وفيها عدد غير واحد من المخطوطات العربية من الكتاب والسنة والفقه والأدب.

١٣ ــ مكتبة دار العلوم ديوبند: هي مكتبة عظيمة شهيرة في الهند، تحتوي على آلاف من الكتب القيمة، وفيها عدد كبير من المخطوطات، إلا أن شهرة المكتبة من حيث كثرة الكتب المطبوعة القديمة.

١٤ ــ مكتبة ندوة العلماء، بلكناؤ: هي مكتبة لدار العلوم، وكبيرة جداً، يرجع تاريخها إلى وقت تأسيسها قبل ست وثمانين سنة، وأهديت إليها مكتبة العلامة عبدالحي الحسني ومكتبة النواب نجم الحسن ومكتبة النواب علي حسن خان بن النواب صديق حسن خان. وعدد المخطوطات فيها: التفسير ٧١ مخطوطة، وعلوم الحديث والمصطلح وأسماء الرجال ٢٢٠ مخطوطة، والفقه وأصوله ١٥٠ مخطوطة.

١٥ ــ المكتبة الناصرية، في

لكناؤ: وهي مكتبة مشهورة بكتبها القيمة النادرة، وفيها مخطوطات جيدة.

١٦ ــ **مكتبة دار المصنفين**، اعظم كره: دار المصنفين تعتبر أكاديمية، علمية، إسلامية، كبيرة، أسسها العلامة شبلي النعماني بعد انعزاله عن دار العلوم ندوة العلماء، ثم خلفه تلميذه البار العلامة السيد / سليمان الندوي، ثم اجتمع في هذه الأكاديمية نخبة ممتازة من المؤلفين، وبجهودهم صارت مكتبتها من نفائس المكتبات، في الهند، ويوجد فيها عدد غير واحد من المخطوطات العربية، وهي أكبر مكتبة في شمال الهند للكتب الدينية والاسلامية.

١٧ ــ **مكتبة طوك**: وقد أخبرني بعض الاخوة أن في طوك عدداً كبيراً من المخطوطات الجيدة في مختلف العلوم والفنون إلا أن مكتبة طوك غير معروفة، ولذلك لا نستطيع القول فيها أكثر من ذلك.

١٨ ــ **مكتبة بومباي**: وهي مكتبة شهيرة تحتوي على كتب قيمة وفيها بعض المخطوطات، وقد سمعت من بعض الاخوة عنها كثيراً، ولكن ليس لدي معلومات عن المكتبة.

١٩ ــ **مكتبة الجامعة السلفية**، بنارس: مكتبة حديثة انشئت سنة ١٩٦٦م، وقد أهديت إلى المكتبة بعض المكتبات الأهلية كمكتبة العلامة محمد أبو القاسم المحدث البنارسي التي يبلغ عددها قرابة خمسة آلاف كتاباً من نفائس كتب التفسير والحديث والأدب.

٢٠ ــ **مكتبة بومباي**: مكتبة شهيرة تحتوي على كتب قيمة وفيها بعض المخطوطات وقد سمعت من بعض الاخوة عنها كثيراً، ولكن ليس لدي معلومات كثيرة.

ومكتبة العلامة الأديب عبدالمجيد الحريري البنارسي التي تحتوي على أكثر من الفي كتاب في علوم الأدب واللغة، والحديث والتفسير ومكتبة عبدالرحمن بقا الغاز يفوري، وبعض مكتبات ميرته وغيرها. وبهذه المكتبات الأهلية صارت هذه المكتبة من انفس المكتبات للكتب القديمة. هذه هي نبذة عن المكتبات الاسلامية التي نالت شهرة عظيمة في بلاد الهند، وطار صيتها في الآفاق، ومعظم هذه المكتبات تحتاج إلى مساعدة مادية وتشجيع أدبي، فإن قلة وجود الخبراء في مكتبات الهند بلغت إلى حد كبير، وقد لاحظنا في بعض المكتبات سوء التنظيم والتنسيق، وهذا لقلة إمكانياتهم المادية والأدبية، حتى رأينا في بعض المكتبات القيمة أن بعض المخطوطات النادرة قد أكلتها الديدان، وتحتاج الكتب إلى تجليد جديد، ونظراً إلى أهمية المخطوطات أصدرت الحكومة الهندية قراراً بمنع إخراج المخطوطات من الهند إلى البلاد الأخرى، ومن المعلوم أن هناك مكتبات أهلية، يعض عليها أصحابها بالنواجذ مع عدم إمكانياتهم ليحتفظوا بها فنلفت أنظار ــ محبي العلم والتراث الاسلامي إلى أن مكتبات الهند تحتاج إلى عناية كبيرة من مساعدات مادية وتشجيع أدبي، ويجب على علماء الهند ومدراء الجامعات أن يلفتوا أنظارهم الكريمة إلى هذا الأمر وإلا يُخشى أن تضيع بعض المكتبات الأهلية ــ لا قدر الله ــ ونسأل الله أن يوفقنا للاحتفاظ بتراثنا الاسلامي والعربي، ويوفقنا لما يحب ويرضاه، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الليث بن سعد

ولد الليث في قلقشندة، وهي بلدة من أعمال القليوبية. وهي بلدة صاحب صبح الأعشى.

وندع لهذا المؤلّف الجليل التعريف بها، فهو يقول: «قلقشندة[1] بلدتنا، وهي بلدة حسنة المنظر غزيرة الفواكه، وهي هكذا باللام كما هي مكتوبة في دواوين الديار المصرية، كما هي هكذا في ابن خلكان. وأبدل ياقوت في معجم البلدان اللام راء، وهو الجاري على السنة العامّة، وعليه جرى القضاعيّ في خططه».

والليث مما سلف نراه مصرياً، نشأ في أرض مصر وبزغ مجده فيها. وقد كان يعرف بالمصريّ، ويعتزّ بهذا اللقب الرفيع. حكى[2] كاتبه أبو صالح أنه كان مع الليث في بغداد، فقال له: سل عن منزل هُشَيم الواسطيّ فقل له: أخوك ليث المصريُّ يقرأ عليك السلام وكانت ولادة الليث في سنة ٩٤هـ في خلافة الوليد بن عبدالملك، وكان الوالي على مصر قُرّة بن شَريك. فتراه أدرك شطراً من دولة بني اميّة التي انقرضت سنة ١٣٢، ثمّ اظلّه عصر بني العبّاس.

أسرته

يحكى الليث أن أهله من اصبهان في بلاد فارس. وكان ولاء هذه الأسرة إلى فَهْم من بطون قيس عَيْلان إحدى القبائل العربيّة الكثيرة العدد والانتشار في بلاد الفتح الإسلاميّ. والليث لهذا يعدّ من الموالي، ولم يكن من صميم العرب. وقد كان ولاء الليث إلى عبدالرحمن بن خالد الفهميّ الذي ولي مصر. وبعد الجزم بأن أهله ليسوا من العرب لا يوقن الباحثون بأصل لهم معيّن. وكان أهله يقولون: نحن من الفرس. وكأنّ هذا جاءهم من قِبَل أنّهم كانوا في أصبهان. ويقول ابن[3] يونس: وليس لما قالوه من ذلك عندنا صِحّة ـ يعني كونهم من الفرس.

نشأته

وقد نشأ الليث في قلقشندة. ولا بد أنه تعلّم مبادىء القراءة والكتابة في مكتبها، ثم أخذ في سبيل العلم ورواية الحديث والآثار، كما هو سبيل المتعلّم في عصره. فأخذ عن علماء مصر ومحدّثيها، ومنهم عمرو بن الحارث (توفي سنة ١٤٨) وعبدالرحمن بن خالد الفهميّ مولاه. وقد استوعب ما عند المصريين من علم ورواية، حتى قال أبو[4] إسحاق الشيرازيّ في طبقات الفقهاء: تناهى علم التابعين من أهل مصر إلى الليث. وقد أخذ عن علماء الحجاز، فروى عن عطاء ابن أبي رَباح، وابن أبي مُلَيكة، ونافع مولى ابن عُمر. ويبدو أن ذلك حين حجّ سنة ١١٣. ولقي حين ذهب للحجاز مالكاً بالمدينة. ويروي أن مالكاً بعث إليه بطبق رُطَب، فجعل الليث على الطبق ألف دينار، وردّه إليه. وحمل عن الزهريّ علماً كثيراً، وكان يجلّه ويعظمه. ولقد رئى الليث آخذاً بركاب الزهريّ، وما فعل ذلك إلاّ لما يكنّه له من الإعظام والإجلال. وأخذ عن علماء العراق حين وفد إليها سنة ١٦١.

سيادة الليث وفضله

ولقد ساد الليث وظهرت نجابته وفَوْقه في سنّ مبكرة. حدّث بعض الرواة قال: أدركت الناس أيّام هشام (١٠٥ ـ ١٢٥هـ) وكان الليث بن سعد حَدَث السنّ، وكان بمصر عبدالله بن جعفر، وجعفر بن ربيعة، والحارث بن يزيد، ويزيد ابن أبي حبيب، وإنّهم ليعرفون لليث فضله وورعه وحسن إسلامه، على حداثة سنّه. وروى بعض الرواة قال: رأيت الليث بن سعد عند ربيعة يناظرهم في المسائل وقد فاق أهل الحَلْقة. وربيعة هذا هو ربيعة الرأي شيخ مالك وفقيه أهل المدينة. وكانت وفاة ربيعة سنة ١٣٦. والظاهر أن هذا حين حجّ الليث سنة ١١٣هـ اي كان ذلك وهو لم يتجاوز العشرين من سنيه.

نزعته في الفقه ومذهبه

يعدّ الليث من أصحاب الحديث. فهو من طبقة الإمام مالك ــ رضي الله عنهما ــ ممّن لا يأخذ بالرأي. ويقول الشافعيّ[٥]: الليث بن سعد أتبع للأثر من مالك. ويقول[٦] ابن حجر: ولقد تتبعت كتب الخلاف كثيراً، فلم أقف فيها على مسألة واحدة تفرّد بها الليث عن الأئمة من الصحابة والتابعين، إلا مسألة واحدة. ومما لا يُرتاب فيه أنه لم يتقيّد في الفقه بمذهب إمام قبله. ويقول ابن النديم في الفهرست[٧]: إنه من أصحاب مالك، ثم اختار لنفسه. والذي يبدو أن هذا وهم من ابن النديم؛ فقد كان الليث قِرْناً لمالك، وكانا يتكاتبان في المسائل، فيرد أحدهما على الآخر، ولم يكن بينهما ما بين المتّبِع والمتّبَع. ويقول ابن خلكان:

«ورأيت في بعض المجاميع أنه كان حنفيّ المذهب، وأنه ولي القضاء بمصر». ومما يردّ هذا الزعم قصّته مع إسماعيل بن اليسع الكندي، وكان من خير قضاة مصر وأقضاهم بالحق، ولكنه كان حنفيّ المذهب، وكان يذهب مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في بطلان الوقف، وكان هذا لا يرضي الليث، فكتب إلى الخليفة بعزله، فعُزل. ومما عرف عنه أن المنصور عرض عليه ولاية مصر فأبى عزوفاً عن السلطان، أفبعد هذا ينسب إليه أنه تولى القضاء!.

ولقد قدّر لليث أن يكون مفتي مصر وفقيهها. ويقول ابن سعد في الطبقات[٨] الكبرى:

استقلّ بالفتوى في مصر، في زمانه، وكان كذلك كثير الحديث صحيحه. وقد كان له مجلس يعقده للحديث والفقه، ومجلس آخر لأصحاب المسائل والفتاوي.

الليث والرشيد

كان قد وقع بين الرشيد وزوجه زُبيدة مناظرة وملاحاة في بعض الأشياء، فقال هارون في عُرض كلامه: أنتِ طالق إن لم أكن من أهل الجنّة. ثمّ ندم على ما فرط منه، واغتما جميعاً. وجمع الرشيد الفقهاء وسألهم، فلم يجد من يمينه مخرجاً. ثم كتب إلى سائر البلدان من عمله أن يحمل إليه الفقهاء. فلما اجتمعوا ــ وكان فيهم الليث ــ سألهم عن يمينه، وهل له منها مخرج. فأجابه الفقهاء بإجابات مختلفة، وسكت الليث. فقيل له: مالك لا تتكلم؟! فقال: يخلي أمير المؤمنين مجلسه إن أراد أن يسمع كلامي في ذلك.

فانصرف من كان بمجلس أمير المؤمنين من الفقهاء والناس. ثم قال له الخليفة: تكلّم. فقال: يا أمير المؤمنين، أتكلم على الأمان وعلى طرح التعمل والهيبة، والطاعة لي من أمير المؤمنين في جميع ما آمر به. قال: لك ذلك. قال: يدعو أمير المؤمنين بمصحف. فأمر به، فأحضر. قال: يأخذه أمير المؤمنين، فيتصفحّه حتى يصل إلى سورة الرحمن. فأخذه وتصفحه، حتى وصل إلى سورة الرحمن. فقال: يقرأ أمير المؤمنين. فقرأ، فلمّا بلغ قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ قال: قِف يا أمير المؤمنين ها هنا. فوقف. فقال: يقول أمير المؤمنين: والله.. فاشتدّ ذلك على الرشيد. فقال له هارون: ما هذا! قال: يا أمير المؤمنين: على هذا وقع الشرط، فنكس هارون رأسه ثم قال: والله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ــ إلى آخر اليمين ــ ثم قال له الليث: قل يا أمير المؤمنين: إنك تخاف مقام الله. فقال هارون بعد القسم: إني أخاف مقام الله. فقال: يا أمير المؤمنين، فهما جنّتان، وليست بجنّة واحدة، كما ذكر الله في كتابه. فسمع التصفيق ومظاهر الفرح من وراء الستر ــ وكان وراءه زبيدة ــ وأجازه الرشيد الجوائز السنيّة، وكذا زُبَيدة.

آثاره

كان الليث من الأئمة المجتهدين. ولكن لم يرزق من الأصحاب والتلاميذ من ينشر مذهبه ويدّون آراءه، كما رزق غيره من معاصرين من الأئمة على أنه قد جمع من مسائله الشيء اليسير. فقد كانت له مسائل في الفقه، تقرأ على عبدالله بن وهب. ويقول ابن النديم: إنَّه خَلّف كتاباً في التاريخ. ونرى الكندي «في تاريخ الولاة والقضاة» يروي بعض حوادث التاريخ عن الليث بسنده إليه. ويظهر أن ذلك عن كتابه هذا الذي ينّوه به ابن النديم. ومن آثاره الباقية لدينا رسالته إلى الإمام مالك. ناقشه فيها في بعض المسائل. وقد حفظها لنا ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين.

موقفه من البدع

كان أهل مصر يتنقصّون عثمان رضي الله عنه، حتى نشأ فيهم الليث، فحدّثهم بفضائل عثمان فكفوا. وهذه يد يشكرها الله وصالحو المؤمنين لليث.

رأي الليث في صلاح مصر

لما قدم الليث على الرشيد في رحلته قال له الرشيد: يا ليث، ما صلاح بلدكم؟ فقال الليث: صلاح بلدنا بإجراء النيل وإصلاح أمرها، ومن رأس العين يأتي الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي. قال: صدقت يا أبا الحارث. وكأنه يريد برأس

العين الخليفة في سياسة الأمور. ينصحه برفق أن يسير على الطريقة المثلى، ويلتزم جادّة العدل والإصلاح، والنيل ومنابعه في الصلاح المادّي للبلاد. ويذكّرنا نظره إلى النيل وإجلاله له بمقال هيرودوت: مصر هبة النيل. وفي سوق هذه القصّة تذكير للمصريين أن يرعوا أمر النيل، ويقوموا على وسائل جريه والانتفاع به.

ثراء الليث وسخاؤه

كان الليث واسع الغنى، له ضياع غنيَّة تدرّ عليه مالاً كثيراً. وكان ينفق النفقة الكثيرة على نفسه وعياله وضيفه. حكى قتيبة بن سعيد قال: قفلنا مع الليث من الاسكندريّة، وكان معه ثلاث سفائن: فسفينة فيها مطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها أضيافه. وقال كاتب الليث عبدالله بن صالح: صحبت الليث عشرين سنة لا يتغدّى ولا يتعشّى إلا مع الناس. وروى بعضهم أنه كان لا يتغدّى كل يوم حتى يطعم ثلاثمائة وستين مسكيناً. وكان له مجلس كل يوم يجلس فيه لأصحاب الحوائج. وكان كثير الفضل على أهل العلم. وصل منصور بن عمار بألف دينار، واحترق بيت ابن لَهيعة فوصله بألف دينار. ووصل مالك بن أنس بألف دينار. وكان يتخذ لأصحابه الفالوذج ويجعل فيه الدنانير ليحصل لمن أكل كثيراً من الدنانير أكثر من صاحبه. وكان يصل مالكاً كل سنة بألف دينار. وكتب إليه مالك: بلغني أنك تأكل الرُّقاق، وتلبس الرِّقاق، وتمشي في الأسواق. فكتب إليه الليث: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ.

الهوامش

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٣.

(٢) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤.

(٣) من الرحمة الغيثية لابن حجر ص ٢.

(٤) المصدر السابق ص ٩.

(٥) من الحلية ٧ ص ٣١٩.

(٦) من الرحمة الغيثية ص ٩.

(٧) ص ٣٨١.

(٨) ج ٧ قسم ثان ص ٢٠٤.

ابن رشد (١١٢٦ ــ ١١٩٨)

● فيلسوف وطبيب وفقيه ومفكر. عربـي وأندلسي. ولد بقرطبة وتولى القضاء في أشبيلية ثم قرطبة. شرح كتب أرسطو بتكليف من أبـي يعقوب يوسف أمير الموحدين. نفي بسبب أفكاره إلى البيسان قرب قرطبة، وعاد إلى مراكش بعد العفو عنه. من أشهر كتبه شروح أفكار أرسطو «الطبيعيات» و «السماء» و «العالم» و «الكون والفساد» و «الآثار العلوية» و «النفس» وأهم شروحه «تفسير ما بعد الطبيعة لأرسطو». وأهم مؤلفاته «تهافت التهافت» الذي رد فيه على كتاب الغزالي «تهافت الفلاسفة».

يعتبر ابن رشد من أقوى المدافعين عن النزعة العقلانية في الفكر الإسلامي. ومن أوائل المدافعين عن كرامة المرأة «وأن تقوم المرأة بخدمة المجتمع والدولة كما يقوم الرجل» وكان له أكبر الأثر في تفكير سان توماس المنادي أيضاً بالعقلانية مما أثار غضب الكنيسة (١٢٧٠ ــ ١٢٧٧). ظلت أعماله تؤثر على الفكر الغربـي حتى القرن السادس عشر وخاصة في شمال ايطاليا مما مهد لعصر النهضة. ويعبر ابن رشد خير تعبير عن الروح الانتقائية للفكر الاسلامي حين انتقت من الفلسفة الأغريقية أرسطو ورفضت أفلاطون لأن أرسطو ينادي بالعقل والمنطق والعقلانية. ولابن رشد صورة من مخطوط في متحف بودابست الوطني في وصف بلاد المجر مما يدل على اهتمامه أيضاً بالجغرافيا والسياسة والاجتماع إلى جوار قدرته الفكرية والفلسفية.

وتطلق «الابن رشدية» (Averroism) ــ في الغرب ــ على التيار الفكري المتأثر بأفكار ابن رشد.

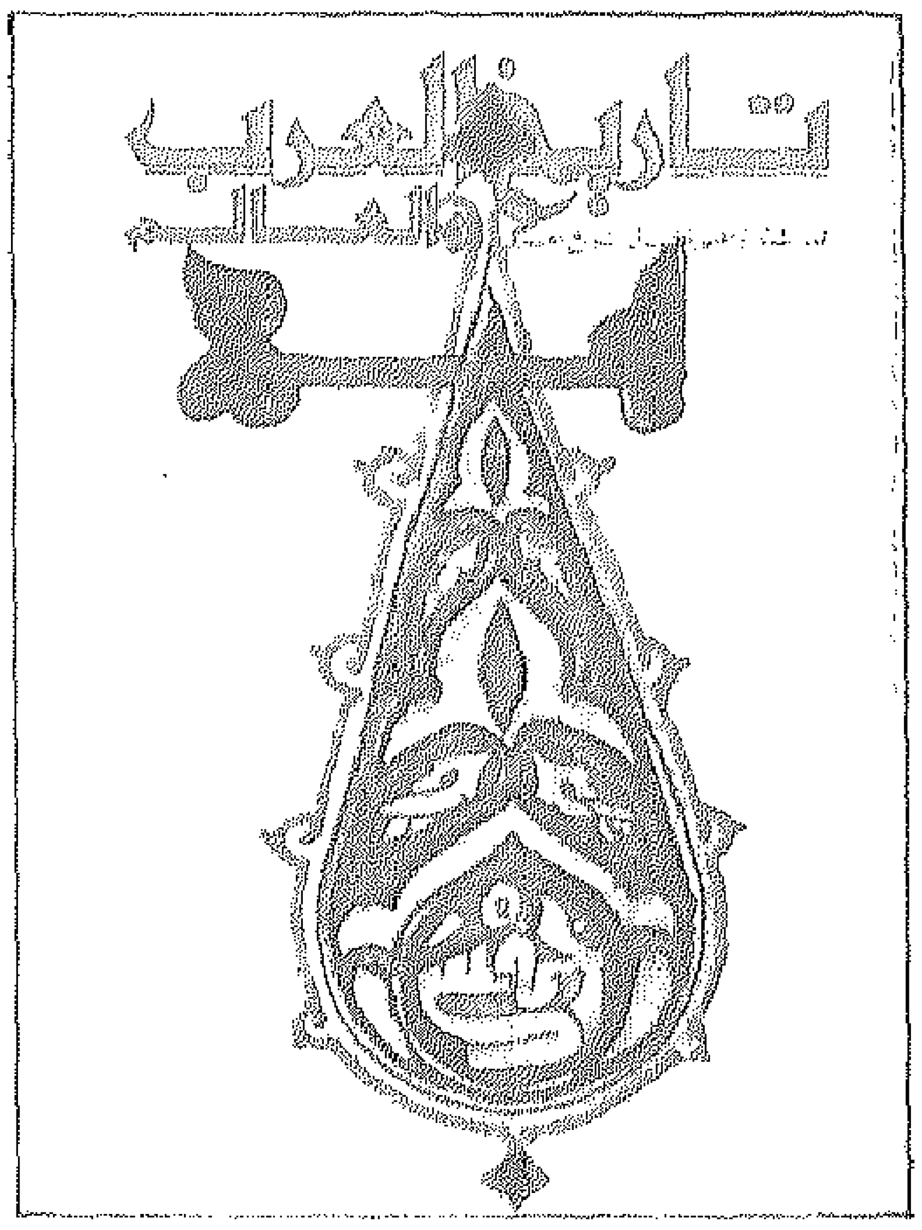

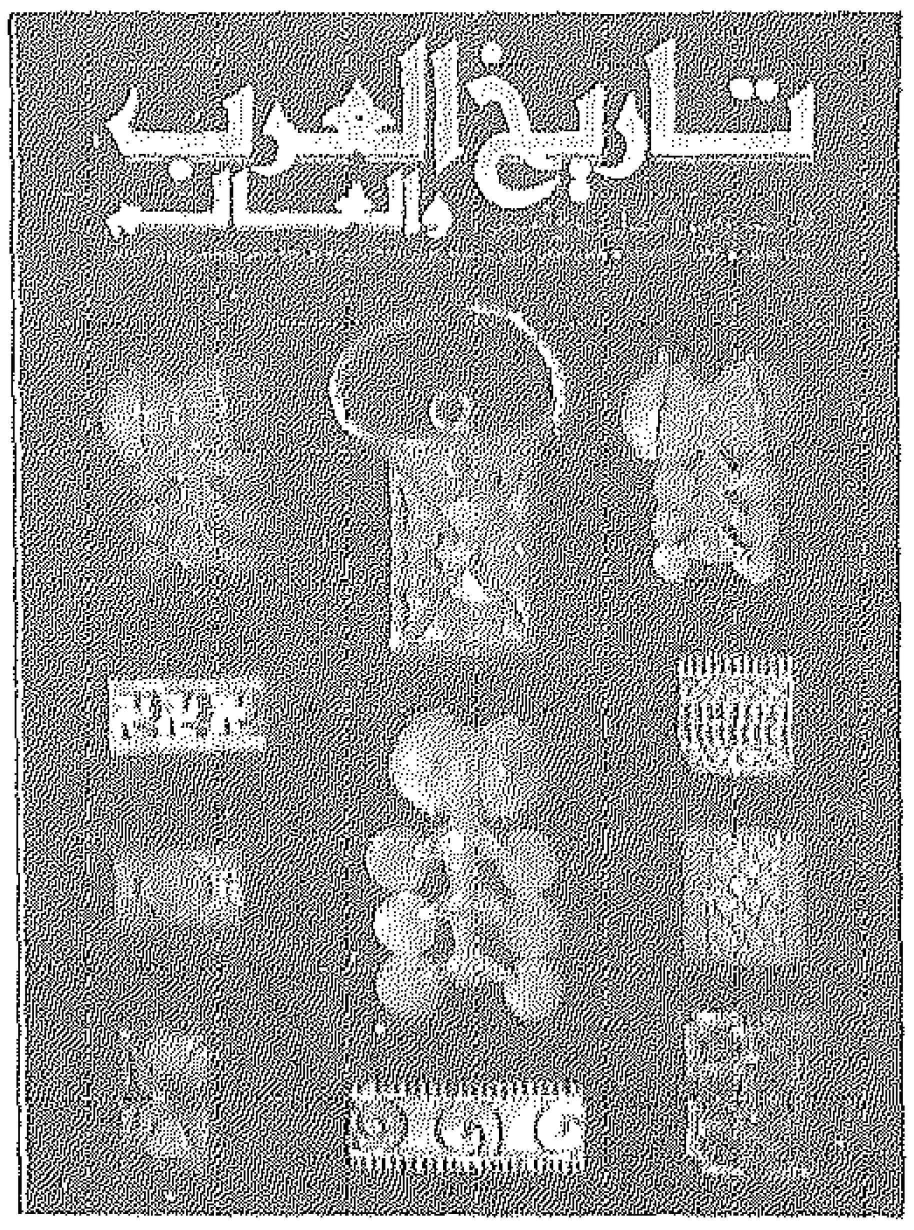

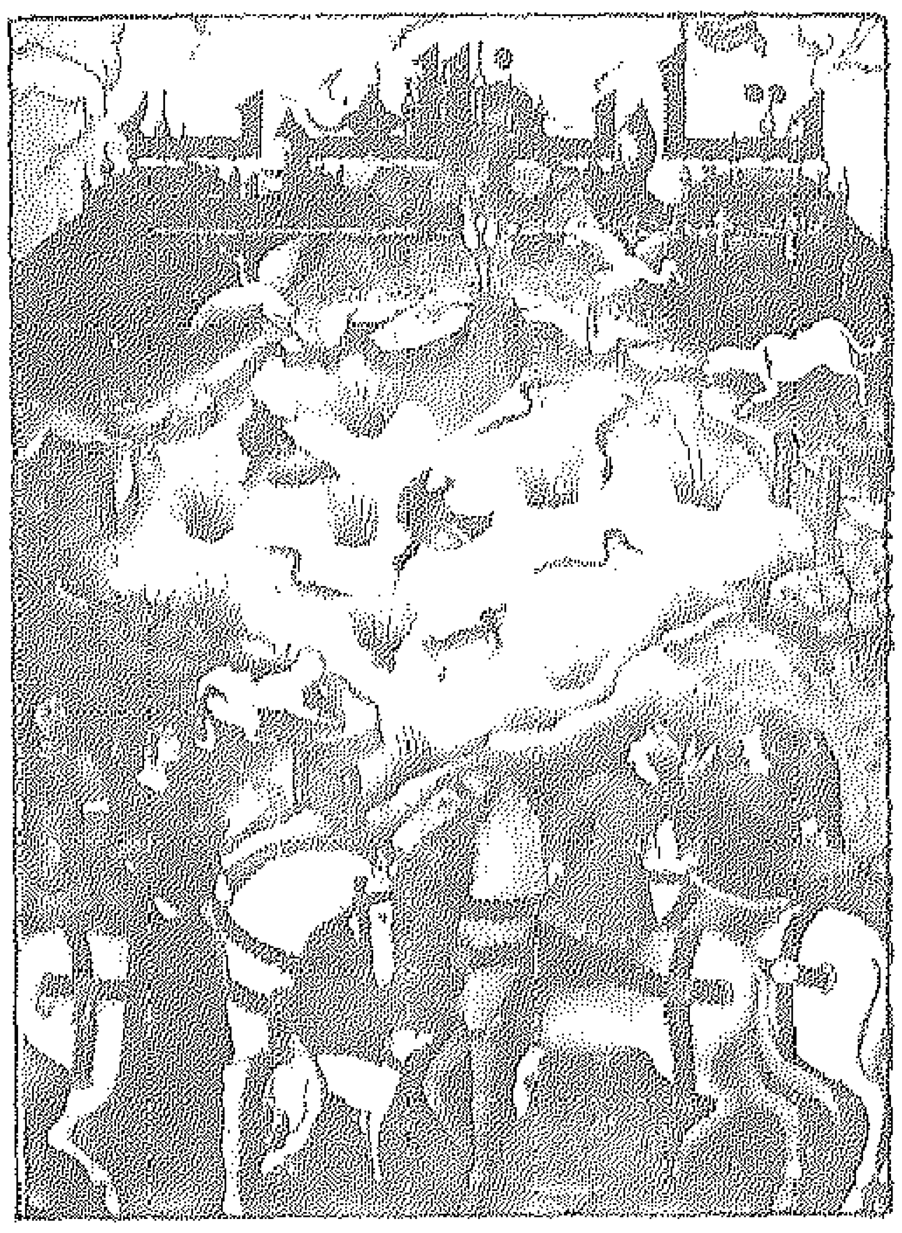
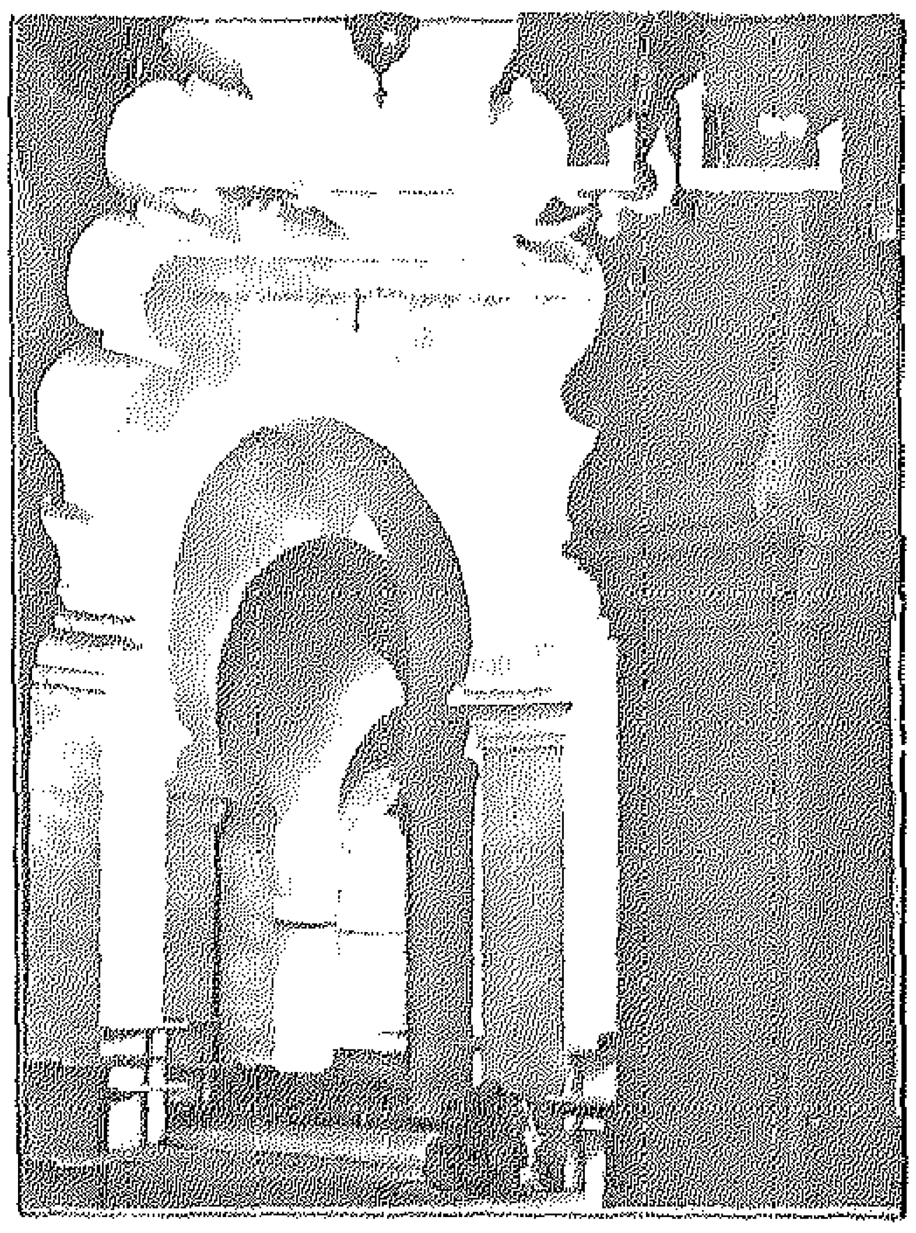
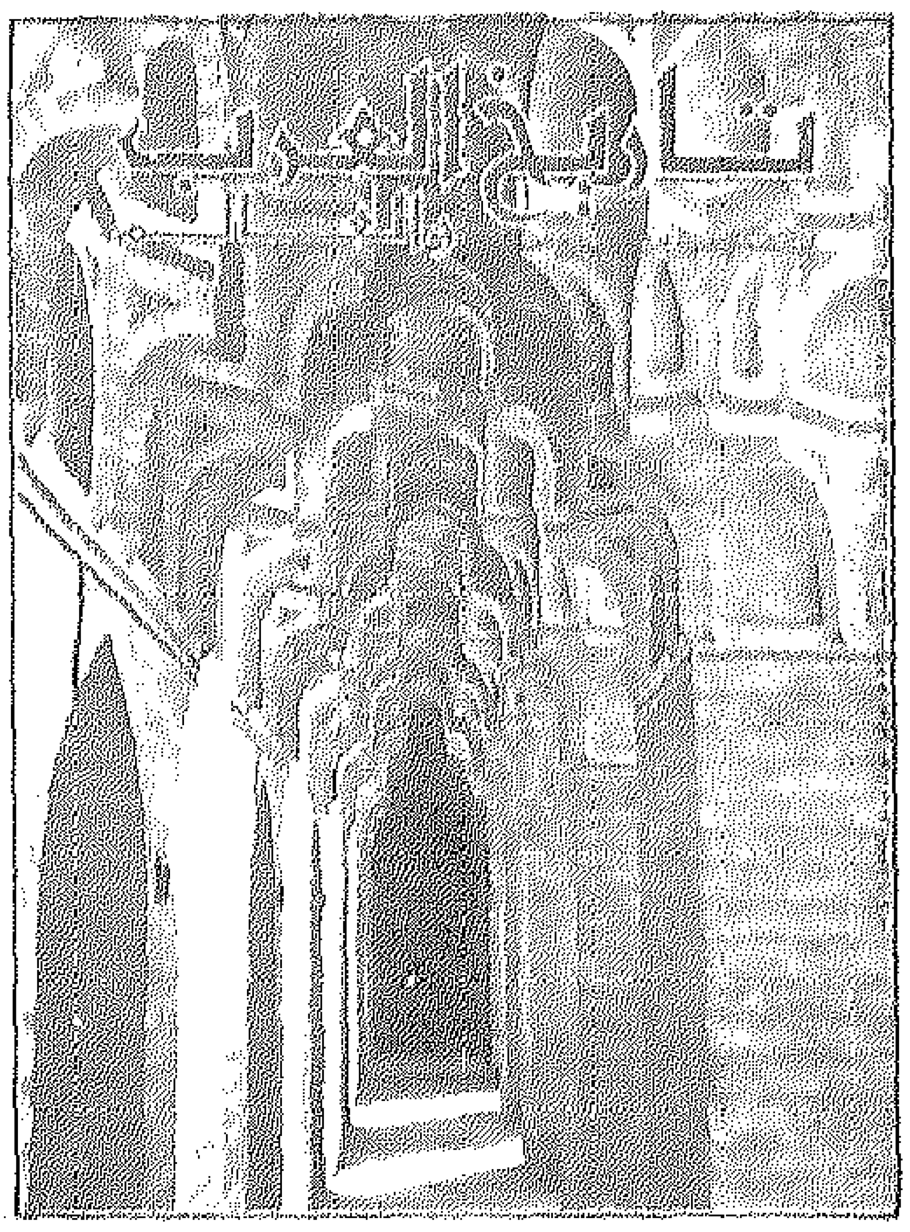
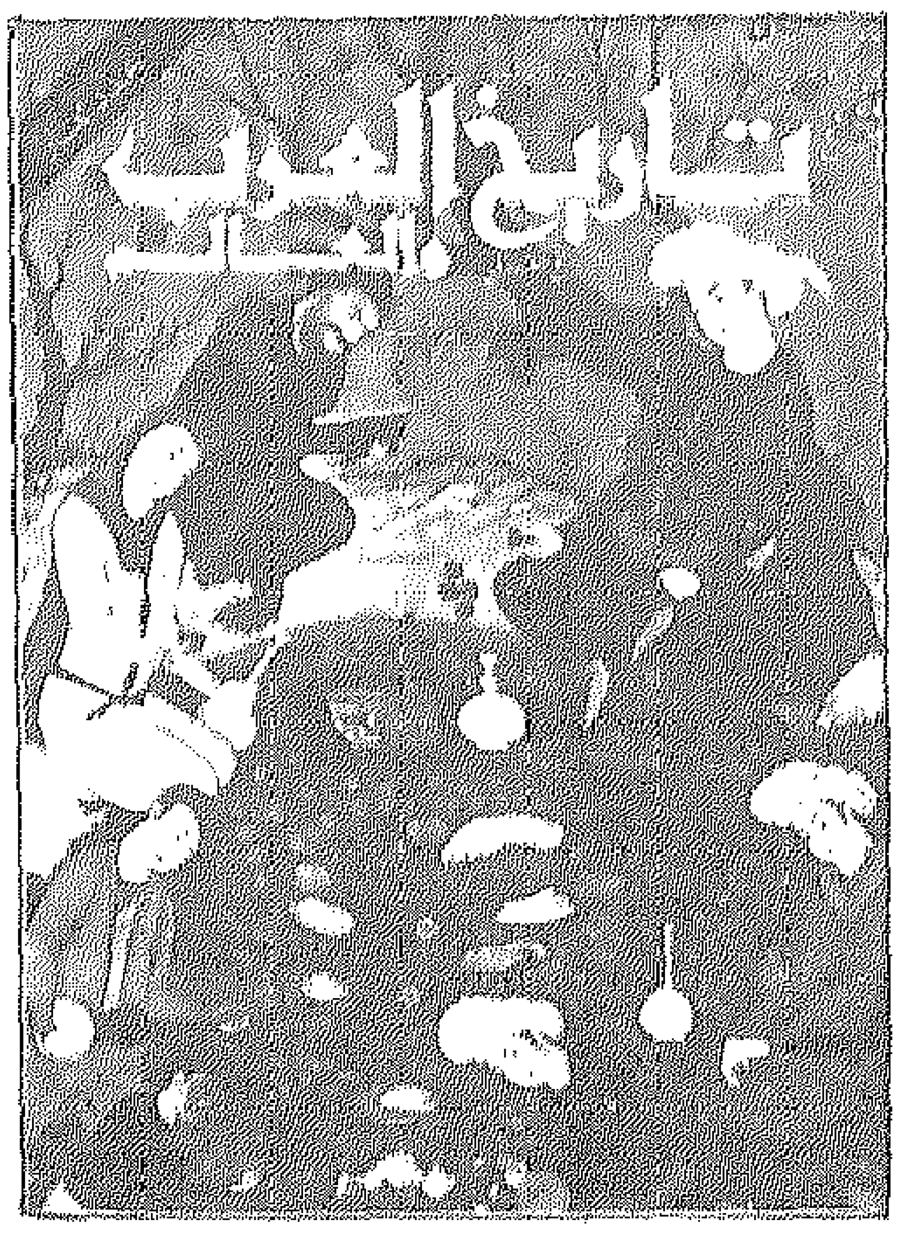

الفهرس العام للسنة الثامنة

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
تاريخ لبنان			
□ سلسلة تاريخ طرابلس، الاسكلة مدينة الميناء التاريخية	د. انطوانيت أديب باسيلي	٨٨/٨٧	٥٦
□ رسائل تاريخية من إبراهيم باشا إلى مصطفى آغا بربر........................	د. عمر عبدالسلام تدمري	٩٠/٨٩	٢

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
□ الجامع الأسعدي بطرابلس وصفحة من العلاقات بين المسلمين والنصارى............	د. عمر عبدالسلام تدمري	٩١ـ٩٢	٢
□ بعلبك في العهد الأيوبي............	رسائل الماجستير والدكتوراه: د. هولو جودت فرج	٩١ـ٩٢	٩٢
□ آل سيفا: صفحة مطوية من تاريخ لبنان........	د. فاروق حبلص	٩٥ـ٩٨	٩٦

التاريخ العربي الاسلامي

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
□ التجارة والتبادل التجاري بين البندقية والمماليك..........	د. غادة المقدم عدرة	٨٥ـ٨٦	٢٧
□ نظام القصر في الامبراطورية العثمانية.........	د. محمود علي عامر	٨٥ـ٨٦	٥٢
□ مسيرة الوحدة اليمنية في عصورها القديمة ...	خالد بن محمد القاسمي	٨٥ـ٨٦	٦٦
□ جذور العلاقة بين الثقافات الافريقية والثقافات العربية. (الحلقة الأولى)	البروفسور يوسف فضل حسن	٨٧ـ٨٨	٢
□ شذرات من تاريخ الشطرنج عند العرب	محمد مراد مسكر	٨٧ـ٨٨	٨٣
□ أعلام الطب: علي بن العباس المجوسي الأهوازي..........	عبدالباقي شنان	٨٧ـ٨٨	٩٢
□ بنو جرّاح أمراء الرملة	د. سامي مكارم	٨٩ـ٩٠	١٤
□ جذور العلاقة بين الثقافات الافريقية والثقافات العربية. (الحلقة الثانية والأخيرة)	البروفسور يوسف فضل حسن	٨٩ـ٩٠	٢٩
□ الادارة في عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدين	خالد بن محمد القاسمي	٨٩ـ٩٠	٦٨
□ القبائل العربية في الجزيرة الفراتية منذ ما قبل الاسلام وحتى العصر العباسي	أحمد سينو	٨٩ـ٩٠	٨٣
□ مدن عربية تحت الاحتلال: النبي يوشع	قسم التوثيق والأبحاث	٩١ـ٩٢	٤٧
□ الصابئة	د. غادة المقدم عدرة	٩١ـ٩٢	٥٥
□ الملاحة البحرية في العصور الاسلامية.........	خالد بن محمد القاسمي	٩١ـ٩٢	٦٤
□ دماء الشهداء ومداد العلماء، حسن كامل الصبّاح	د. وجيه كوثراني	٩٣ـ٩٤	٢
□ ملامح من العصر العباسي	خليل الهنداوي	٩٣ـ٩٤	٧٠
□ أعلام من التاريخ العسكري العربي.........	القرّاء يكتبون فاضل خليل إبراهيم	٩٣ـ٩٤	٩٦
□ مدن عربية تحت الاحتلال: نابلس	«قسم التوثيق والأبحاث»	٩٣ـ٩٤	٨٦
□ نشأة الكويت وتطورها في القرن ١٨	د. ميمونة خليفة الصبّاح	٩٥ـ٩٨	٧٢
□ صور من كفاح عرب الخليج في عصور ما قبل الاسلام	خالد بن محمد القاسمي	٩٥ـ٩٨	٥٤
□ مدن عربية تحت الاحتلال: الناصرة..........	«قسم التوثيق والأبحاث»	٩٥ـ٩٨	١١٠

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة

حضارة عربية

□ التشبيه بالحروف في الأدب الاسلامي	آناماري شيمل	٨٥ـ٨٦	١٦
□ دور المرأة في المجتمع الفاطمي	د. إبراهيم رزق الله أيوب	٨٧ـ٨٨	١٦
□ البعوث العلمية في عصر الدولة العباسية.......	حسن فتح الباب	٨٧ـ٨٨	٣٩
□ تونس: التاريخ.. والتراث من خلال لوحات الزبير تركي	«قسم التوثيق والأبحاث»	٨٧ـ٨٨	٤٦
□ رموز وفضاء في فن العمارة العربي، السوق ــ الجامع ــ الحمام ــ المزار	منصف الوهايبي	٨٧ـ٨٨	٧٨
□ العروة الوثقى والمنار الخط المحوري في ثقافة النهضة..	د. محمد جابر الأنصاري	٨٩ـ٩٠	٥٦
□ روائع أشغال المعادن الاسلامية في فرير	قسم التوثيق والأبحاث	٨٩ـ٩٠	٨٩
□ صور من المجتمع العربي	د. نقولا زيادة	٩١ـ٩٢	١٢
□ اللغة العربية دورها وأهميتها في القرون الوسطى وفي أيامنا الحاضرة	بقلم: د. بيلاوسكي ترجمة: الأستاذ محمد بن زيان	٩١ـ٩٢	٨٦
□ من أدب الرحلات عند العرب، مطالعة في رسالة بان فضلان..........................	فاضل خليل إبراهيم	٩١ـ٩٢	٩٠
□ مجلة المقتطف، رائدة العلم الحديث في العالم العربي	د. عبدالله العمر	٩٣ـ٩٤	١٠
□ الجوسق الخاقاني	د. أحمد كمال عبدالفتاح	٩٣ـ٩٤	٣٦
□ رسالة نصير الدين الطوسي في علم الموسيقى	تحقيق: زكريا يوسف	٩٣ـ٩٤	٥٦
□ ملامح من العصر العباسي	خليل الهنداوي	٩٣ـ٩٤	٧٠
□ معالم الحضارة العربية	د. نقولا زيادة	٩٥ـ٩٨	١٩

تاريخ الفنون

□ متحف فينا، في قصر آل هابسبورغ...........	د. رياض العالي	٨٥ـ٨٦	٤٤
□ زان كريستوف آمان، لويس موييه، وأصدقاءه	ترجمة: ناجي نجيب	٨٧ـ٨٨	٢٥
□ الفن البدائي في افريقيا، فن رجال الأدغال....	عبدالرزاق عبدالغفار	٨٧ـ٨٨	٣٣
□ روائع سورية تطوف أميركا	من الأرشيف	٩١ـ٩٢	٤٨
□ صفحات من تاريخ الفنون القديمة في تركيا ...	«قسم التوثيق والأبحاث»	٩٣ـ٩٤	٤٨
□ ليوناردو دي فينشي	د. رياض العالي	٩٥ـ٩٨	٦٤

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
وثائق ومعاهدات			
□ الاتفاقية المالية الليبية ــ البريطانية..........	«قسم التوثيق والأبحاث»	٩١ــ٩٢	٢٨
□ وثائق من التاريخ ــ القضية الفلسطينية	د. أرنولد توينبي	٩٣ــ٩٤	٦٤
□ اتفاق على اقتسام أملاك الدولة التركية........	إعداد: شذا عدرة	٩٣ــ٩٤	٨١
□ اتفاقية ١٨٩٩ بين مصر وانجلترا على الحكم الثنائي للسودان..........	إعداد: شذا عدرة	٩٥ــ٩٨	٦٠
متفرقات			
□ المدرسة عبر التاريخ	د. نقولا زيادة	٨٥ــ٨٦	٢
□ عندما كانت الولادة تتم بدون طبيب	بقلم: جاك جليس تعريب: د. منى فياض كوثراني	٨٥ــ٨٦	٣٠
□ حائط برلين	د. سامي زكي	٨٥ــ٨٦	٧٩
□ ورقة من تاريخ الاستشراق: هانز هايرنيتش شيدر (١٨٩٦ــ١٩٥٧) (الحلقة الأولى)......	بقلم: أوميليان بريستاك ترجمة: محمد علي حشيشو	٨٩ــ٩٠	٤٤
□ تقاليد الصيد وأساطيره في القرون الوسطى	د. سامي زكي	٨٩ــ٩٠	٧٦
□ مغازي رسول الله (ص)........................	مراجعة كتاب: د. محمد مصطفى الأعظمي	٨٩ــ٩٠	٩٤
□ مواقف الاحتلال الفرنسي من اللغة العربية في افريقيا السوداء..........................	د. عمّار هلال	٩١ــ٩٢	٣٢
□ ورقة من تاريخ الاستشراق: هانز هاينريتش شيدر (١٨٩٦ــ١٩٥٧) (الحلقة الثانية والأخيرة)	بقلم: أوميليان بريستاك ترجمة: محمد علي حشيشو	٩١ــ٩٢	٧٦
□ رجال وأفكار: باستور...........................	ــ	٩٣ــ٩٤	٩٢
□ الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز (الحلقة الأولى)	د. عمر عبدالسلام تدمري	٩٥ــ٩٨	٢
□ هوفمنسان وألف ليلة وليلة	مجدي يوسف	٩٥ــ٩٨	٤٢
□ قطار الشرق أورينت أكسبريس.................	«قسم التوثيق والأبحاث»	٩٥ــ٩٨	١٠١

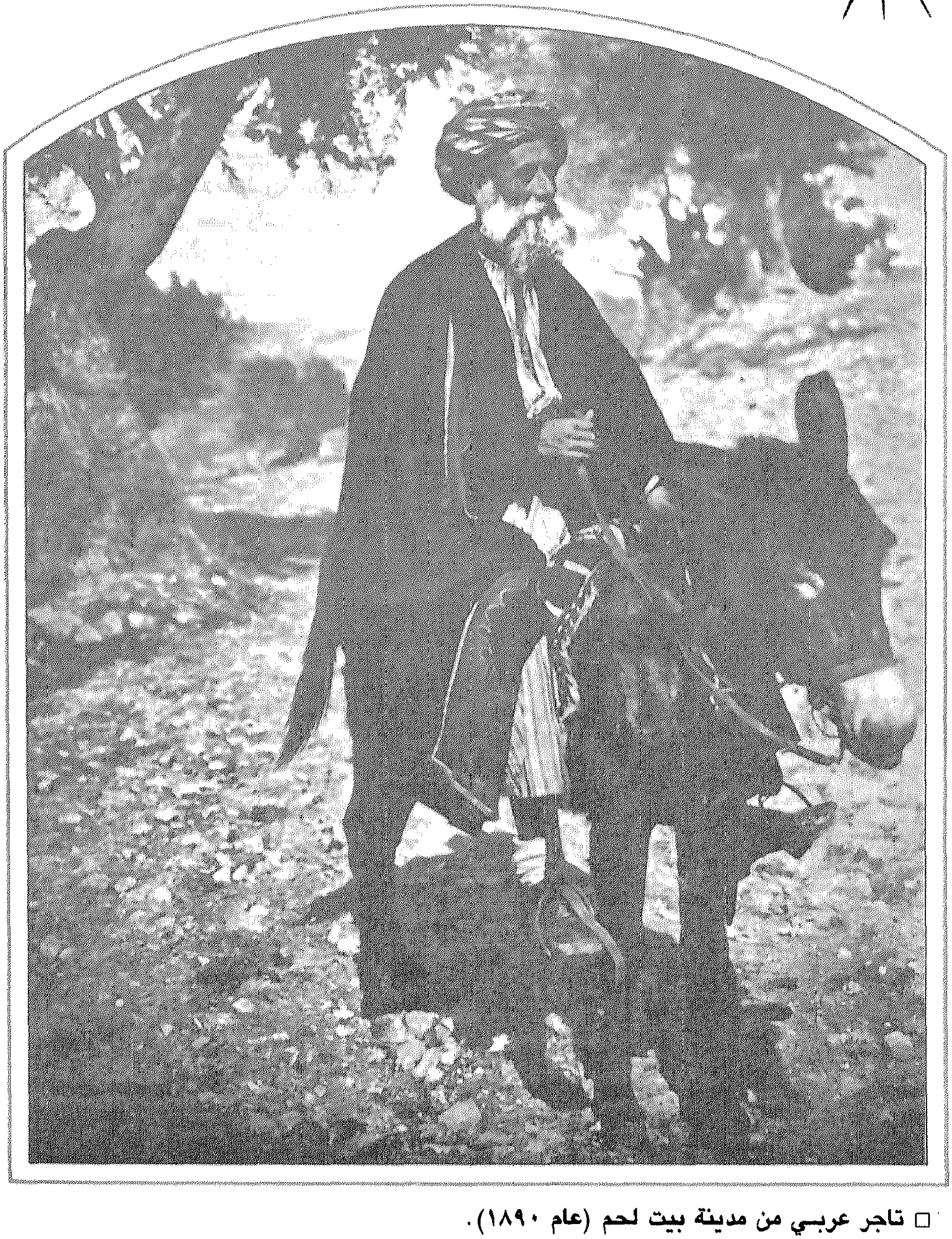

□ تاجر عربـي من مدينة بيت لحم (عام ١٨٩٠).

لدراسان وعدد ايامه تسعة وعشرون وليس فيه عيد ٥ وصومه اليوم السابع عشر
منه ٥ وفيه كسر موسى الالواح وفيه ابتدا آحصن بيت المقدس في الانهدام ايام بختنصر
اياهم ٥ وفيه اتخذ صنم بيت المقدس ووضع في الخراب جرأة على الله وطغيانا ٥ وفيه
احرقت التورية وفيه بطلت القرابين ٥

آب

لدراسان واحد وعدد ايامه ثلثون وصومه اليوم الاول منه وهو الذي مات فيه
هرون بن عمران ٥ ورفع الغمام الذي حمل كرامة له ٥ وفي اليوم التاسع صومه ٥ وفيه
اخبروا في التيه بانهم غير داخلين بيت المقدس فاغتموا ٥ وفيه فتح بيت المقدس ودخله بختنصر
وخربه بالحريق ٥ وفيه خرب البيت خرابه الثاني وحرث ايضا ٥ وفي اليوم الخامس

عشر صومه زوال النار عن البيت وهو خروج بختنصر عنه ورفع الحريق عن خزائنه وهياكله
وفي اليوم الثامن عشر منه صوم سببه اطفاء سراج الهيكل بيت المقدس في ايام اسون النبي وكان
ذلك علامة لغضب الله عليهم ٥

ايلول

لدراسان وعدد ايامه تسعة وعشرون وليس فيه عيد ٥ وفي اليوم السابع منه صوم الخوامس
وهو اليوم الذي رجع فيه الطلائع الى موسى واخبروه الجبارين فاغتم بنوا اسرائيل
وكذبهم يوشع بن نون فاثيب لذلك ٥ ومنهم من يجعل صوم هذا الشهر يوم الاثنين او الخميس

□ صفحة من كتاب «الآثار الباقية» للبيروني، تصف تهديم مدينة القدس على يد بختنصر. من كتاب: عبقرية الحضارة العربية.

إحتفظ بمجلدات السنوات الثماني من مجلّة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

إثنا عشر مجلداً فخماً + اشتراك مجّاني لعام كامل

٦٠٠ دولار أو ما يُعادلها بما فيها أجور البريد المضمون

إقطع هذه القسيمة وأرسلها مرفقة بقيمة المجلّدات باسم مجلة تاريخ العرب والعالم إلى العنوان التالي:
شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان

الاسم الكامل: ______________________

العنوان: ______________________

المدينة: ______________________

الامضاء: ______________________

أرفق القيمة: ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة التاسعة • العددان ٩٩/١٠٠ • كانون الثاني (يناير) – شباط (فبراير) ١٩٨٧ • الموافق جمادى الأولى – جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ

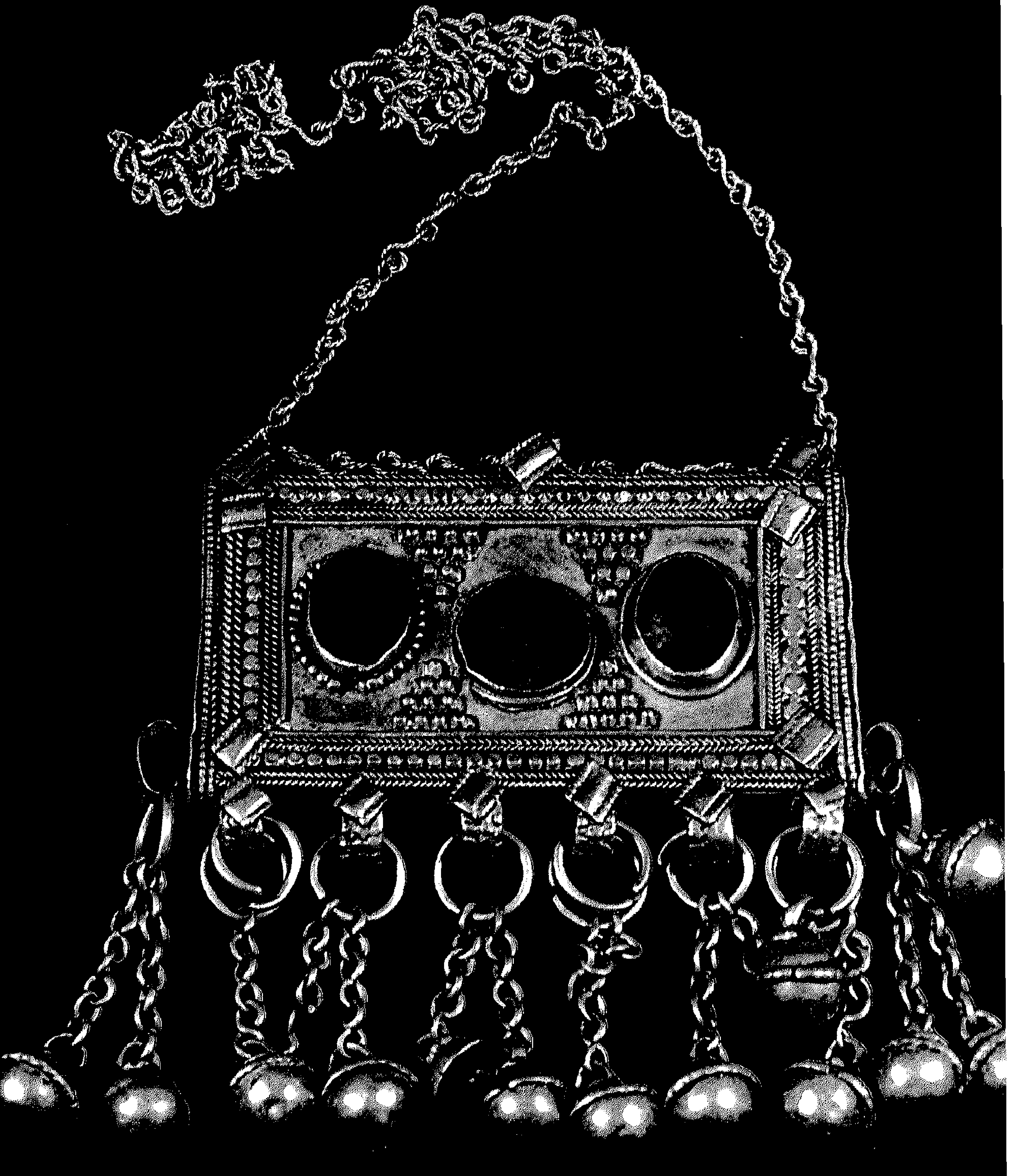

تاريخ العرب والعالم

العددان ٩٩/ ١٠٠ . كانون الثاني ـ شباط ١٩٨٧

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها فاروق البربير

المستشار د. أنيس صايغ المدير المسؤول . محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات علي عبدالساتر

المخرج الفني سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	: ٢٠ ل.ل.	سوريا	: ٢٠ ل.س.
العراق	: ١ دينار	تونس	: ١,٥ دينار
السعودية	: ١٠ ريال	الكويت	: ١ دينار
الاردن	: ٨٠٠ فلس	الامارات	: ١٠ درهم
البحرين	: ١ دينار	قطر	: ١٠ ريال
مسقط	: ١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	: ١,٥ جنيه
صنعاء	: ١٠ ريال	ليبيا	: ١ دينار
		مصر	: ١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٢٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٥٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص ب ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 9 • No. 99/100 • Jan – Feb 1987

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■

□ تاريخ العرب والعالم في عامها التاسع...
فاروق البربير ١

□ الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز
«رحلة النابلسي إلى لبنان»
(١١٠٥هـ / ١٦٩٣م)
تحقيق: أستاذ/ د. عمر عبدالسلام تدمري (الحلقة الثانية والأخيرة) ٢

□ الكتابة
د. يوسف عاد ١٤

□ تاريخ القاهرة الاقتصادي
سليمان مصطفى زبيس ٢٨

□ نساء شهيرات
فيجايا لاكشمي بانديت
قسم التوثيق والأبحاث ٤٠

□ الكهرمان
عباس ميخائيل حدادين ٤٢

□ بصمات مريرة من أيام مريرة
١٩١٤ ـ ١٩١٨
د. رياض العالي ٤٨

□ الهجرة القسرية للفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة (١٩٦٧ ـ ١٩٨٣)
جورج القصيفي ٦٠

□ معاهدات:
رسائل عبدالقادر الجزائري إلى حكومة انكلترا
إعداد: شذا عدرة ٨٨

□ آثار إسلامية
المفجر ٩٢

"تاريخ العرب والعالم" في عامها التاسع

مع هذا العدد تدخل مجلة «تاريخ العرب والعالم» عامها التاسع... الأعوام الثمانية الماضية كانت حبلى بالأحداث التاريخية البارزة من الخليج إلى المحيط.. فمن حرب الصحراء إلى حرب تشاد إلى كامب دايفيد، إلى حرب لبنان القذرة، وأخيراً في الطرف الآخر من أرض العرب، حرب الخليج التي تعمل على استنزاف العرب والمسلمين على جميع المستويات....

في هذا الخضم الخطير من الأحداث، يقف المواطن العربي لاهثاً أمام واقعه الفاسد مستهلماً تراثه وتاريخه المجيد وانتصاراته الرائعة. ويحق للفتى العربي وللفتاة العربية أن يتساءلا: أين العرب؟ وأين أصبحت مشاريع الوحدة التي كانت تملأ السمع والبصر في أواخر الخمسينات والستينات؟ أين أصبح مبدأ عدم الانحياز؟ أين أصبحت مشاريع التكامل العربية الاقتصادية؟

وفي هذا الجو الخانق، نجد إسرائيل عدوتنا اللدودة والمحتلة بالقوة والقهر أرضنا العربية، تخطط مع المعسكر الغربي، وعلى رأسه الولايات المتحدةالأميركية، لحرب النجوم.. بينما نحن نتلهى بصغائر الأمور وبالحروب والنزاعات السياسية والطائفية والاقتصادية التي تستنزفنا وتستنزف طاقتنا، كالطوق الحديدي الذي يلتف حول أعناقنا، إلى أن يقضي على البقية الباقية من آمالنا وأحلامنا.. ولعل ما نواجهه في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا هو «الهوة بين واقعنا وتراثنا وبالتالي شعورنا بالتبعية «للأجنبي» سواء أكانت هذه التبعية سياسية أم اقتصادية أم عسكرية أم ثقافية.. وهنا التحدي الكبير الذي يواجهنا ويفرض علينا إحياء التراث العربي والإسلامي وتطويره مع الاستفادة من الانجازات العلمية الحديثة.

ولقد رافقت حالة التردي التي نعيشها، حملة أجنبية شملت مختلف نواحي الحياة العربية والاسلامية هدفها تفتيت الأمة اجتماعياً وسياسياً وثقافياً، بالاضافة إلى التركيز على أمر هام، وهو محاولة تأريخ التاريخ العربي الاسلامي، على أساس تاريخ حقبات مختلفة ومنفصلة الواحدة عن الأخرى، وليس على أساس تاريخ أمة وعقيدة متكاملة الجوانب الحضارية. وقد هدفت الحملة، إلى التركيز على الجوانب السياسية لاغية دور الأمة في العملية الاجتماعية. ثم انتقل التفتيت إلى مرحلة متقدمة، عندما أصبح التركيز على تاريخ المذاهب داخل الاسلام، وهنا يكمن الخطر الأكبر على الأمة وعلى مستقبلها وتاريخها.

وأخيراً، وعلى الرغم من حرب لبنان القذرة وعلى الرغم من التفتيت الذي يلفنا، وعلى الرغم من الصعاب الأمنية والاقتصادية والسياسية التي نواجهها يومياً، فإن مسيرتنا لن تتوقف وستبقى مجلة «تاريخ العرب والعالم»، بعون من الله تعالى، وبدعم من المشتركين والقراء والأصدقاء، مرآة للتراث الأصيل، تعكس أماني الأمة في الوحدة والكرامة والعدالة الاجتماعية.

فاروق البربير

الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز

(رحلة النابلسي إلى لبنان)

(١١٠٥هـ - ١٦٩٣م)

تحقيق: أستاذ د. عمر عبدالسلام تدمري

(الحلقة الثانية والأخيرة)

يُعتبر الشيخ «عبدالغني النابلسي»، المولود في دمشق سنة ١٠٥٠هـ / ١٦٤١م، والمُتَوفّى فيها سنة ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م، من كبار رجالات التصوّف، ومن اشهر الرّحالة في عصره، ومن اكثر المؤلّفين نتاجاً، بحيث أرْبَتْ مؤلّفاته على المئة مصنّف، وقيل على المئتين، وقيل إنها بلغت ثلاثمئة بين رسالة وكتاب ومجلّدات.

ويهمّنا هنا، من مؤلّفاته، كُتُب الرحلات التي صنّفها، وخاصّة عن زيارته إلى «لبنان»، حيث نجد فيها كثيراً من المعلومات التاريخية والعمرانية والثقافية، وغير ذلك من المعلومات التي لا نجدها في المصادر التاريخية المتداوّلة.

وللنابلسي خمس رحلاتٍ:

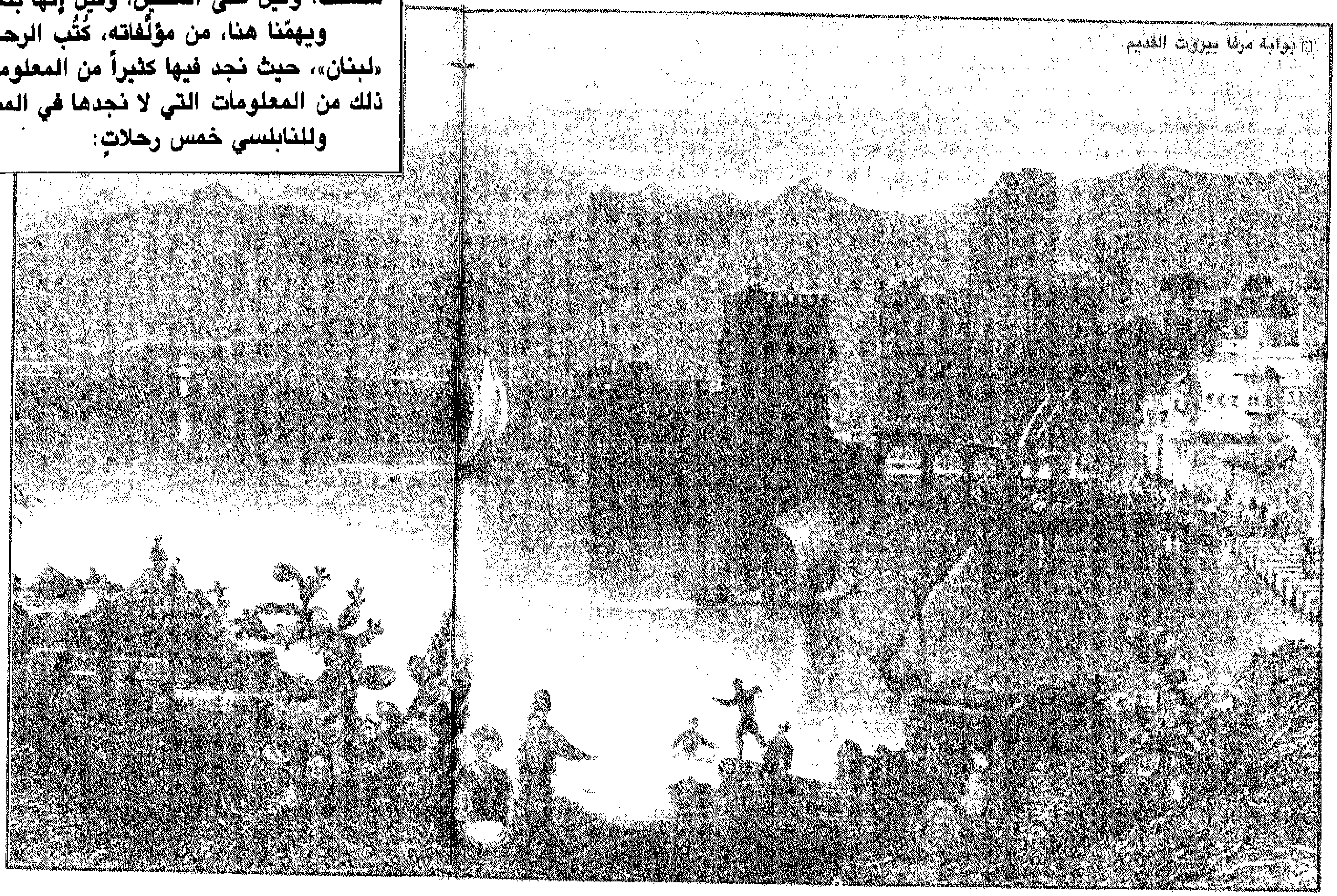

(١) بوابة مرفأ بيروت القديم

(بـــيروت)

ثم دخلنا إلى بيروت المحروسة، ذات الربوع المأنوسة ، وحصل لنا غاية الإكرام، والسرور التامّ.

قال الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق»: «بيروت: فَيْعُول، من البَرْت وهو الرجل الدليل». (انتهى).

وفي «القاموس»(٧٥): «البُرْت: بالضّمّ، السُّكّر الطَّبَرْزد.. والرجل الدليل(٧٦) الماهر.. وبيروت بلاد الشام». (انتهى).

وكان نزولنا في بيروت عند الصديق الصادق.. الحاج مصطفى المشهور بابن القصّار(٧٧)... وهو رجل من أهل المروءآت والكمال، فأكرمنا غاية الإكرام. وبتنا عنده تلك الليلة في أتمّ حضور، وأكمل حبور، إلى أن أصبح الصباح. وكان ذلك اليوم يوم الاربعاء الخامس والثلاثين، سادس صفر، فاجتمعنا بالحسيب النسيب صديقنا السيد أحمد المشهور نسبه ببيت عزّالدّين(٧٨).. وقد كان قدِم علينا إلى دمشق الشام، في ما مضى من الأيام، في سنة ١٠٩٣، وكان يحضر دروسنا ويلازم عندنا..

وهو رجل من الأفاضل الكرام.. فجلس عندنا حصّة من الزمان، وأنشدنا من لفظه لنفسه هذين البيتين، تاريخ وفاة المرحوم الولي.. الشيخ عيسى الصالحي الكناني(٧٩)، شيخ الخلوتية بدمشق الشام، وهما قوله:

حَسْبُنا اللّهُ تعالى وكفى
من هموم أعقبت همّاً وبُؤسا
قد أصِبْنا يا لَعَمْري حسبما
جاء في تاريخه بالشيخ عيسى

والسيد أحمد المذكور له قراءة على والدنا المرحوم العلّامة اسماعيل ابن النابلسي المتقدّم ذِكْره وترجمته في هذا الكتاب. وأجازه وكتب له على نَسَبه الشريف، وكان مولده في سنة ١٠٢٢، فيكون بلغ من العمر ٨٣ سنة، فأنشدنا من لفظه لنفسه قوله:

ثمانون عاماً فما فوقها
مضت يا لَعَمْري بلا فائدة
تقضّت ولم أكُ اشعر بها
كأنّي بها ساعة واحدة
أيا ضيعة العمر حيث انقضى
بآراء سامجة فاسدة
فيا ليت ما اهتمّ به والدي
ويا ليتها حارت الوالدة

وأنشدنا أيضاً من لفظه نفسه قوله الدُّوبيت:

صبري وتجلُّدي باسماعللا
والقلب متيّم باسماعيلا
لو قيل: تسلّ عنهما يا هذا
قالت عيناي: لا وأسْماعي لا

وهو من قول بلديِّنا الشيخ أحمد العناياتي النابلسي(٨٠) الشاعر المشهور، في ديوانه المأثور، من الدُّوبيت أيضاً:

صبري عدمٌ من حبّ اسماعيلا
لا تحسبه في حبّ اسماعيلا
كم قلت له بمن تسمّيت به
أنْعِمْ بنعَمَ، فزاد، اسماعي لا

ولقد كان بين السيد أحمد المذكور وبيننا مؤآنسات أدبية، ومطارحات شعرية، في أيام اجتماعه بنا، وتردُّده إلينا، مع كمال محاضرته.

وقد جمع لُطْفاً ولِينا، وفيه نباهة اعتقادية، وطرف جذب الهيئة. وقد أخبرني مرَّةً أنه رأى في الواقعة المناميّة منشداً ينشده هذا البيت بهذه الطريقة المَرْضِيّة:

الكلّ إشارة وأنت المعنى
يا من لا إله إلّا الله

وكان إذ ذاك يحضر مجلسنا بالبيت في دور وده بلادنا دمشق الشام، وقد سمع مرّة منّا هذين البيتين من بعض أهل العرفان، هما بالمناسبة في الدرس، وهما من الدُّوبيت:

ما آدم في الورى وما ابليس
ما عرش سليمان وما بلقيس
الكلّ إشارة وأنت المعنى
يا من هو للقلوب مغناطيس

ثم طلب منّا أن ننظم له موشّحاً تكون لازمته البيت الأول، لتنشده الفقراء على ذِكْر الله تعالى كما هو طريقتهم، فأجبناه إلى ذلك، فقلنا:

إنّ المولى في كلّ حال معنا
لولاه لما نلنا الهدى لولاهُ
ما الروح وما الجسم الذي في المغنى
ما النفس ما الأشكال والأشباه
ما القرب ما أهل المقام الأسنى
ما البعد ومن بالجهل فيها تاهوا
(الكلّ إشارة وأنت المعنى
يا من هو لا إله إلّا هو)(٨١)

ولقد أنشأ في هذا اليوم قولنا من النظام، في مدح ملك البلاد وما في محاسنها من الانتظام:

بيروت قد حُرست بغير عناية
من ربّها في حسنها المعروف
بلد أمين لا يُشان بريبة
ركن العفاف وملجأ الملهوف
وبها البساتين التي أشجارها
ركعت مع النسمات ذات صفوف
بالطّيب تنفح كلّما هبّ الصّبا
حسن لأبصار وطيب أنوف
والموز كالقوم الدُّعاة لربّهم
مدّت أصابع مدحها الموصوف

خضـراء ملسـاء الذراع لطيفـة
في سـاقها خـرجت عن المألوف
ولهـا ثـمـارٌ قـد تـدلّت حـلوة
في وسـط غفلة أتت بـصنـوف
فكـأنّهنّ أصـابـع مضـمـومـة
زادت على خمس بغيـر كـفـوف
هـو ظاهر في كـلّ فصـل دائمـاً
يـا حُسْن رونق قطفـه المقصوف
فـاق الثمـار جميعـهـا بلطافـه
ودوام عهـد ليس بـالمـاصـوف

وقلت كذلك:

كـأنّـمـا بيـروت فـي حسـنهـا
وقـد بـدت كـاملة في النُّعـوتْ
منظومة قد شاقني بحرها المديدُ
والأبـيـات مـنـهـا البـيـوتْ

واجتمعنـا أيضـاً بـالحسيب النسيب السيد حسين نقيب الأشـراف بـالبلدة المـذكـورة، وبـالفاضـل الكامـل العامـل، الشيخ زين الدين مفتي الشافعية بتلك الديار.

ثم بتنـا تلك الليلة حتى ظهر صُبْـح يـوم الخميس.. سابع صفر. فدعانا حضرة النقيب المذكور إلى داره، وصنع لنا الضيافة اللائقة بحسن كماله، ولطافة جُوده. واجتمعنا ذلك اليوم أيضاً بالسيد أحمد المتقدّم ذِكره، فأنشدنا من لفظه قوله:

أرى هـذا الوجـود خـيـالَ ظلّ
مـحـرّكـهُ هـو الرّبُّ الغـفـورُ
فصنـدوق اليميـن بـطون جـوا
وصنـدوق الشمـال هـو القبـورُ

وأنشدنا أيضاً من لفظه لنفسه:

مـا خـيـال الظلّ إلا
عـبـرة لمـن اعـتـبـر
فـاعـتبـر قـولي أيـا هـ
ذا تـجـده مـعـتـبـر
وكـذا الدنـيـا شـخـو
ص فـتـراءى للنظر
ثـم تـمـضـي وتـولّي
مـثـل لمـح بـالبـصـر

وهو من قول الإمام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ من البيتين المشهورين:

رأيت خيـال الظلّ أكـبـر عبـرة
لمن هـو في علم الحقيقـة راقي
شخـوص وأشباح تمـرّ وتنقضي
وتفنى جميعـاً والمـحـرك بـاقي

ولنا سابقاً تخميس لهذين البيتين، وهو قولنا:

أنـا الهيكل الداني لمـظهر قـدرة
ومن شاخصي قد خرّ أكمل صوره
ولمـا تـأمّلت الوجـود بفكـرتي
رأيت خيـال الظلّ أكـبـر عبـره
لمن هو في علم الحقيقة راقي
على كل شيء سيف عزمي قد انقضى
وفي ليل عيني صبح معـرفة يضي
وكل الورى من بعد ذا لست أرتضي
شخـوص وأشبـاح تمـر وتنقضي
وتفنى جميعاً والمحرّك باقي

ثم ذهبنا إلى ساحل البحر، فزرنا هناك تلك المقبرة مع السيد المذكور، وفيها قبر الشيخ جبـارة من أولاد الشيـخ حسـن الراعي(٨٢) المشهور قبره عندنا في دمشق ــ الشام بقرية قَطَنا، ورأينا الشيخ عبدالرحمن الأوزاعي، التي تأتي ترجمته قريباً عند زيارة قبره.

وكان مقام السيد أحمد المـذكور في تلك المدرسة، وأخبرنا أنّ عليها في الزمان السابق أوقافاً كثيرة، ولكنّها ضُبطت الآن لجهة السلطنة في جملة أموال الساحل الشامي، ورأينا هناك الحمّام الذي مات فيـه الأوزاعيّ، سنذكـره، وهو الآن متهدّم بعضه..

وكان في هذا اليوم المذكور، وكذلك في اليوم الذي قبله مطر شديد مهمور. فأنشَدَنا السيد أحمد المشار إليه من نظمه لنفسه تاريخ قدومنا إلى بيروت المحروسة المأنوسة وإقبالنا عليه، وذلك قوله:

قـد شَـرُفَـت بـيـروت
بـالمـولى الأجـلّ المـعـتـبـر
مـذ حـلّ مـن بـركـاتـه
فـيـهـا أُغِـثْـنـا بـالمـطر

هـو قـدوتـي ذُخـري مـلا
ذي عُـمـدَتـي دون البـشـر
هـو سـيِّـدي عـبـدالغـنـي
النـابـلـسـي حـاز الفـخـر
قـد فـاق أهـل زمـانـه
بـعـلـوم شـتـى وأشـتـهـر

ثم ذهبنا إلى دعوة السيد حسين النقيب، وهو نقيب أشراف بالبلد المذكور، فحصل لنا بذلك غاية السرور. إلى أن قال.. وقد طلب منّا في هذا اليوم عمر بن محمد سعادة أنْ نكتب له شيئاً من النصائح الإلهية، فكتبنا له قولنا من النظام، على حسب المقام:

كن على الصـدق مقيمـاً والأدب
والْزم العِـلْم بـنـهَـم وطَلَب
واتّـقِ اللّـهَ بـقـلـبٍ خـاشـعٍ
واجتنبْ ظلمـة أنـواع السبب

... إلخ.

فلمّا أصبحنا في يوم السبت، وهو التاسع من صفر، عزمنا على المسير إلى زيارة الوليّ الكبير، والعَلَم الشهير، الشيخ أبـي عمرو عبدالرحمن الأوزاعي[٨٣] ــ رضي الله عنه ــ فسرنا ومررنا في الطريق على قبّة صغيرة يقال لها مقام المجذوب.. ولم نزل سائرين إلى أن مررنا على قبّة في رأس جبلٍ عالٍ يقال لها قبّة «شيخ الظهر»[٨٤] دُفن فيها رجل من أهل التُّوبة أرباب الكمال والأدبة.. إلى أن وصلنا إلى مزار الشيخ الأوزاعي، فدخلنا إليـه، فإذا هـو على شكل السور، وقد عمّرته امرأة من بيت سيفا[٨٥]. وفي داخل المزار مكان عليه قبّة وفيه محراب، وعليه الهيبة والوقار والجلال، وعلى الجانب الأيسر من المحراب طاقة صغيرة تدلّ على قبر الشيخ، وهو مدفون تحت الحائط القبلي، وقبره ظاهر إلى الخارج يشبه قبر «كعب الأحبار» الذي زرنا في حمص المحروسة، فقرأنا له الفاتحة، ودَعَوْنا الله تعالى. وقد وقفنا في بيروت على كتاب مستقلّ في ترجمته، مسمًّى بكتاب «محاسن المساعي في تـرجمة أبـي عمـرو الأوزاعي»[٨٦]، قـال فيه:...

ثم إننا نظمنا في ذلك المقام أثناء الزيارة مدْحاً لجناب هذا الإمام الهُمام شيخ المسلمين والإسلام:

اتـحـفَـتْـنـا زيـارة الأوزاعـي
عنـد بيـروت بـالضيـا والشعـاع
إذا قصـدنـا لهـا عشيّـة يـوم
كـان فيـه بمن أحبّ اجتمـاعي
حـضـرة تمـلأ القـلوب سـرورا
وابـتـهـاجـاً بـأمـر ربٍّ مُـطاع
شـطّ بحـر عليـه للعـالم بحـر
طافـح بـالمـكـان والانـتـفـاع
كـان لله عـابـداً بـاجـتـهـاد
تـابـعـاً للكـتـاب والإجـمـاع
يـا أبـا عمـرو الرفيـع مقـامـاً
طالمـا كنت راغبـاً في اتضـاع
يـا أبـا عمـرو الذي عمـرتنـا
زَوْره منـه عنـد خيـر البقـاع
يـا أبـا عمـرو العظيم المـزايـا
عند ربّ الورى الكريم المسـاعي
قـد أتـينـا إليـك والجسـم واهٍ
نشتـكي مـا أهـمّ والقلب واعـي
نـادك الله هـيـبـة ووقـارا
ورعـى الله مـنـك تـربـة راع

وقلت كذلك في ذلك المقام، من لطيف النظام:

كنّـا ببيـروت الأنيسـة في الهنـا
بـالأكـرمين ومـذ دعـانـا الداعي
نلنـا المقـاصـد والمُنَى وتـوزّعت
عنّـا الهمـوم بـزَوْرة الأوزاعـي

ثم بتنا هنالك تلك الليلة في أتمّ سرور، وأعمّ حبور، إلى أن أصبح الصباح، ونادى مؤذّن الفلاح.

(دير القمر)

وكان ذلك اليوم يوم الأحد التاسع والثلاثين، وهو العاشر من صفر الخير، فسرنا إلى جهة الجبل المعروف بجبل ابن معن[٨٨]. وكان سبب ذلك لأنّ هناك في قريةٍ معروفةٍ بدير القمر[٨٩] صديقنا المكرّم، الموصـوف بمحاسن الشِيَم،

إبراهيم آغا، وأخاه مفخر الأعيان خليل آغا، من أعيان القُول[٩٠] الشامي، وأرباب القدْر السامي، لما صار عليهما من طائفة الينكجرية[٩١] ما صار من الفِتَن والمِحَن الكِبار، وكان بيننا وبينهما في دمشق مودّة أكيدة، ومَوَدّة شديدة، فقصدْنا زيارتهما، وتلافي خاطرهما. فلم نزل سائرين حتى مررْنا على قرية «عَيْناب»[٩٢]، فنزلنا هناك حصّةً من الزمان نحن والإخوان، وأكلنا ما تيسّر من الزاد، وقد كفى الله مولانا وزاد.

ثم سرنا، بين تلك الجبال الشامخات، والتلال العاليات، والأودية المنحدرات إلى أن وصلنا إلى النهر المسمّى بنهر القاضي[٩٣]. وله جسر عظيم[٩٤]، فنسينا عنده ذلك العقب الماضي. ونزلنا وصلّينا الظهر هناك بالجماعة، وأحيَيْنا تلك الأماكن الميتة بفقد الطاعة.

ثم سرنا إلى أنْ وصلنا إلى قرية «دير القمر» التي هي منزل الأمير أحمد المعروف بابن معن[٩٥]. فخرج للقائنا صديقنا حضرة إبراهيم آغا المذكور ــ سلّمه الله تعالى ــ ومن معه من الجماعة. فحصل لنا ولمن معنا كمال السرور بلقائه تلك الساعة. ونزلنا معه هناك في جامع غريب[٩٦]، فيه محراب ومنبر، بلا إمام ولا خطيب.

ولنا في قرية «دير القمر» من النظْم حينئذ:

ما مثل دير القمر
إلّا سماء القمر
كم مرتقى مرتفع
ومهبط منحدر
بين جبالٍ شامخات
من الصخور الحجر
في طُرق محدّوْدبات
كقسيّ الوَتَر
إذ قطعنا جبلاً
فغيره في الأثر
وإنْ هبطنا وادياً
كان سواء بالحري
فمن يرم بالطيران
قطعة لم يطر

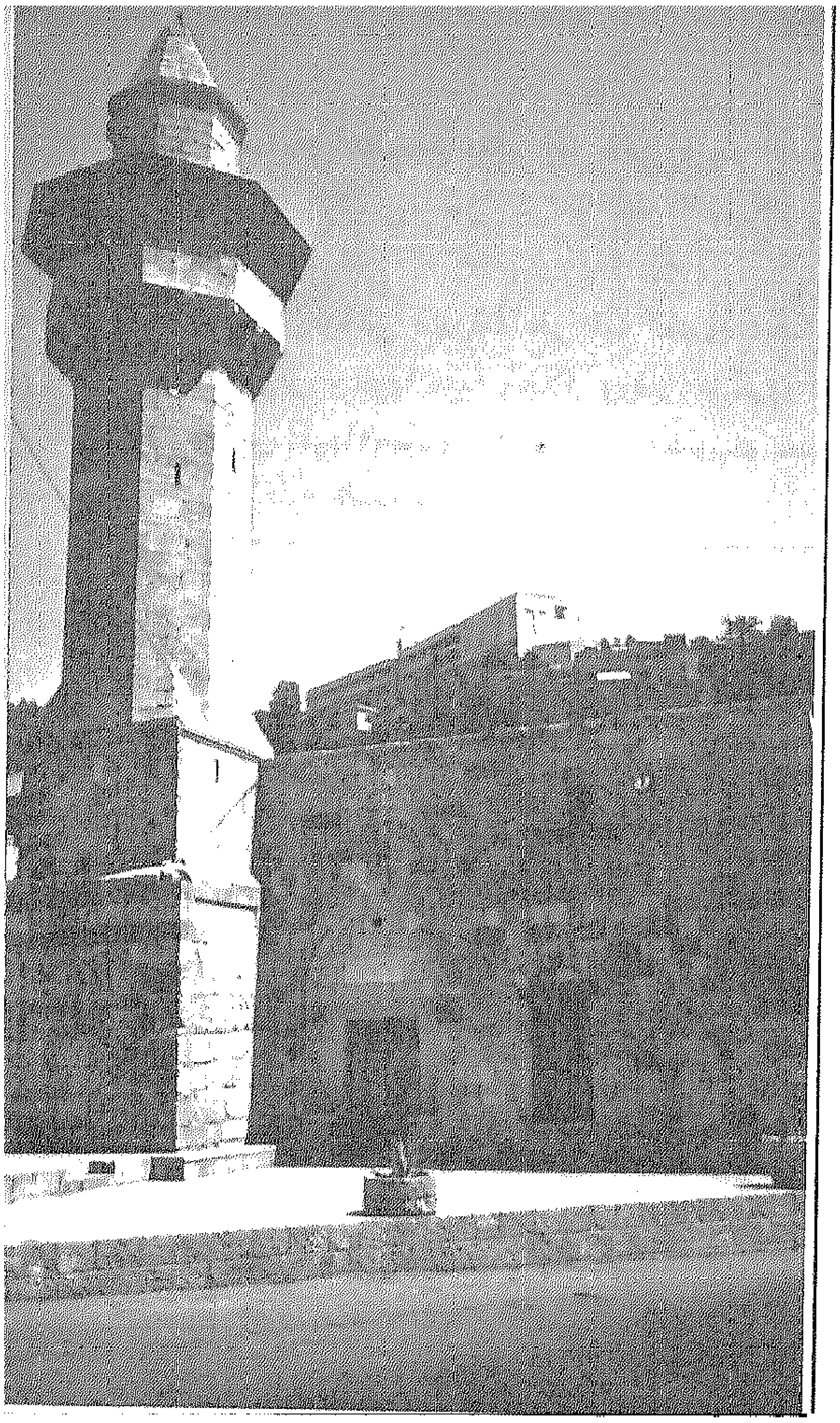

□ دير القمر.

جئناه من بيروت
نبتغي لقاء معشر

ثم أصبحنا في يوم الاثنين، وهو اليوم الأربعون، الحادي عشر من صفر، أخبرنا بعض الناس أنّ شيخ الإمام العارف بالله تعالى «علي بن ميمون»[٩٧]، مدفون في قرية يقال لها «مجدل معوش»[٩٨] من جُرْد بلاد الجبل. وأنّ الشيخ «محمد عراق»[٩٩] مدفون في قرية «دير دورين»[١٠٠]، من أعمال الشوف. ولم يتيسّر لنا الذّهاب إلى زيارتهما.

فلمّا أصبحنا من يوم الثلاثاء، وهو اليوم الحادي والأربعون، الثاني عشر من صفر، عزمْنا على السير... فمررْنا في ذلك الطريق الوعر المسالك، وقطعناه بمعونة القدير المالك. فرأينا

قبّة بيضاء عظيمة، يقال إنّه دُفن فيها الشيخ «عثمان الكردي» من عباد الله الصالحين، فزُرْناه...

ثم سرنا حتى أشرفنا على قبّة أخرى بيضاء، ذات أنوار، وعليها هيبة وجلال ووقار. فذكروا لنا أنّه دُفن فيها سيّدي «ليمون بن يعقوب» نبيّ الله ــ عليه السلام ــ ...

(شحيم)

ثم لم نزل سائرين إلى قرية «شحيم»، وهي من قراء صيداء المحروسة، فنزلنا هناك، وبتنا تلك الليلة في أتمّ سرور، وأكمل حُبُور.

ثم لمّا أصبحنا في اليوم الثاني والأربعين، يوم الأربعاء، الثالث عشر من صفر، زُرْنا في تلك القرية نبيّ الله «رُوبين» ــ على ما يقال ــ ، وهو من أولاد «يعقوب» عليه السلام...

ثم سرنا، فمررنا على ضيعة صغيرة في جانب الطريق بها قبر يقال إنّه قبر الشيخ «أرسلان»، رجل من الأولياء الصالحين... وهو غير الشيخ «أرسلان الدمشقي»...

ثم مررنا على نهر عظيم[١٠٢] يصبّ في البحر، وعليه جسر معقود كالعِقْد في النَّحْر، ثم أقبلنا على السبعة أعْيُن، وذلك المرْج الأخضر، ونزلنا ساعة، فطاب لنا المجلس هناك المحضر، وقلنا في ذلك الروض الأخضر:

نزلنا من حمى صيدا بماء طيّب النُّبْعةْ
فكانت أعيُن السبعة علينا الأعين السبعةْ

(صيداء)

ثم سرنا إلى جهة البلاد، فخرج إلى لقائنا جماعة من أهلها، ذوو الفضائل أمجاد، ونزلنا في الجامع المعروف بجامع الكِتْخِدا[١٠٣] في حجرة هناك لطيفة، ونحن في أنواع مسرّاتٍ بنا مُطيفة. وأضافنا تلك الليلة الشيخ الفاضل، مفخر الأعيان، الشيخ «محمد المعروف بابن قُطَيش»[١٠٤].

ثم لما أصبح الصباح، وكان ذلك اليوم يوم الخميس، الثالث والأربعين، وهو الرابع عشر من صفر، وردت علينا جماعات من الناس، فحصل لنا كمال اللُّطْف والاستئناس، ودعانا إلى ضيافته الشيخ الصالح الحاج «حسين»، فذهبنا إلى داره المعمورة، التي هي بأنواع الخيرات مغمورة.

ثم رأينا قبّة بعيدة على جبلٍ عالٍ، يقال لذلك المدفون فيها سيّدي «حُنَيْن» وهو مشهور بذلك عند العامّة، وأنّه من أولاد «يعقوب» النّبيّ، عليه السلام. وذكر لنا بعض أهل البلاد أنّ اسمه «حنان»، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾[١٠٥]. وذكر بعضهم أنّ المدفون هناك إنّما هو جثّة «يحيى»، عليه السلام.

ثم ذهبنا إلى زيارة «صَيْدون»، وهو كما ذكر الحافظ «ابن عساكر» في أوائل تاريخه لدمشق. حيث قال: قال «الشرقيّ بن قُطَامي»[١٠٦]:

«سُمّيت صيداء التي بالشام بصيدون، نسبة إلى صيدون بن صيدون بن كنعان بن حام بن نوح، عليه السلام». (انتهى) فدخلنا إلى مقامه، وفيه مقبرة، وعليه قبّة مبنيّة، وهناك جلالة وهيبة ووقار. وفي خارج ذلك المكان بعض أشجار، وفيها الياسمين ولطائف الأزهار.

ولَعَمْري، فإنّ صيداء من أحسن بلاد الساحل الشامي، ذات الإشراف التامّ والخير النامي. وقد قيل: إنّ أرضها تُنْبت العيون، فعساهم أرادوا بذلك عيون النرجس، أو عيون الماء، أو عيون الناس، أو أعيانهم، أو تقوّي البصر، أو تُجِدّ النظر لصحّة هواها وطِيب مياهها.

وللأديب «ابن الساعاتي»، وقد هرب غلام له، فأمر أن يمرّ في نرجس صيدا:

لله دَرُّ صيدا من بلادِ لم تُبْق عندي همّاً دفينا
نرجسها حلْية الفيافي قد طبّق السهلَ والحُزُونا
وكيف ينجو به هزيمٌ وأرضها تُنْبت العُيُونا[١٠٧]

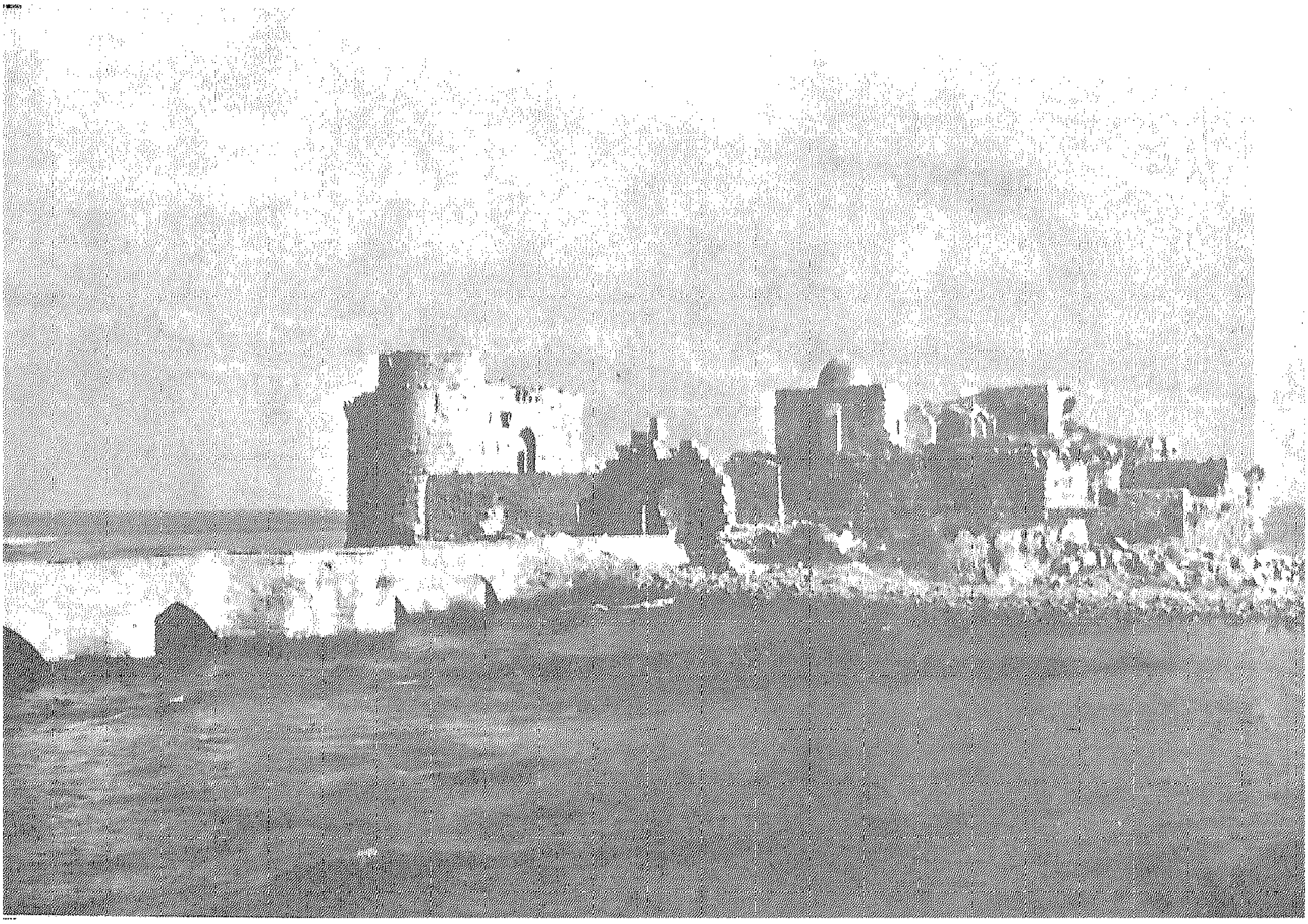

□ صيدا، قلعة البحر.

وقد قلنا في شأن صيداء إطراءً في الثناء عليها وتأييداً:

صاد قلبي هوى الأحبّة صيدا
عندما جئت قاصداً أرض صيدا
بلدة طاب .رونق البحر فيها
فأزالت عنّا من الهمّ قيدا
أعجبتني لطافة الماء منها
والهواء الذي انبرى ترديدا
ساحل مطلق الجوانب غضّ
يقذف الدّرّ من حصاه نضيدا

... إلخ.

ثم ذهبنا إلى زيارة «أبي الرّوْح» وهو «شبيب[١٠٨] بن ذي الكَلاع أبو رَوْحٍ»، صحابيّ، مُخْتَلَفٌ في صحبته، وعليه قبّة معقودة، وبهجة مشهودة، وقلنا في ذلك من النظْم:

يا أبا الرّوْح أنت للرُّوح رَوْح
حيث عَرْف الكمال فيك يفوح
قد أتينا نزور منك ضريحاً
طائر السّرّ في ذُراه يبوح

ورأينا في حال ذهابنا إلى «أبي الروح» المذكور قبّة عظيمة تلوح من بعيد، كأنّها كوكب في سماءٍ من المهابة والتمجيد، فذكروا لنا أنّ هناك قرية يقال لها "دير بيسيم» من أعمال صيدا، وأنّ المدفون في هذه القبّة هو نبيّ الله «داود» عليه السلام.

وقد اجتمعنا في صيدا المحروسة بمفتي السادة الشافعية هناك، وهو الشيخ «رضوان[١٠٩] بن الحاج يوسف الصبّاغ المصري الدمياطي»، وجرت بيننا وبينه مذاكرات علمية، ومباحثات فقهيّة.

فلمّا أصبحنا في اليوم السابع والأربعين، وهو يوم الإثنين، الثامن عشر من صفر، عزمْنا على المسير، فأرسل حضرة الباشا، باشا صيدا المذكور معنا جماعة من أتباعه وعسكره المنصور، وأرسل معهم مكتوباً إلى حاكم عكاء

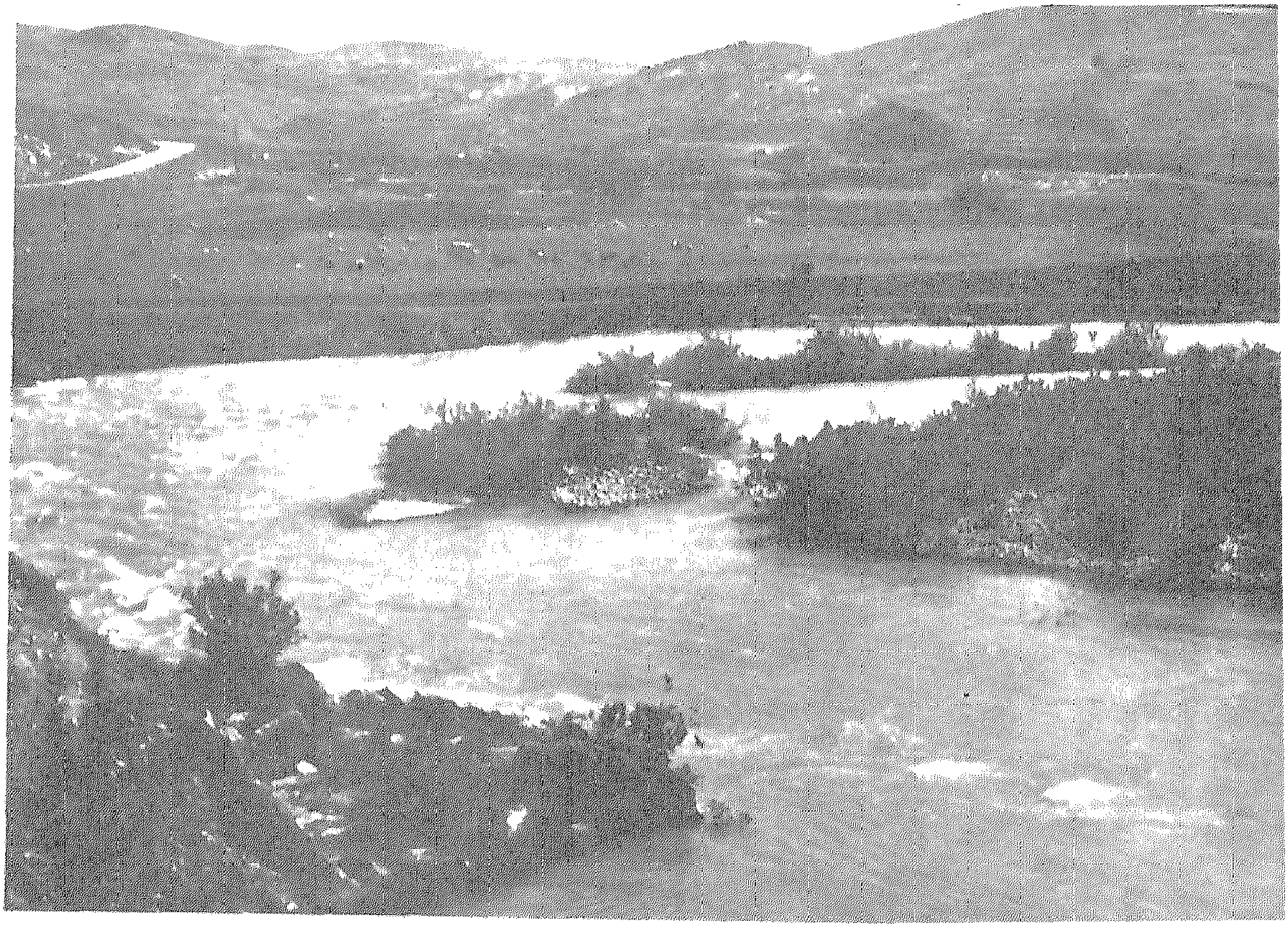

□ نهر الليطاني بجوار مرجعيون.

توصية فينا، وتكريماً لنا، وكتب لنا بيورلدياً[١١٠] مختوماً بختمه الكبير، خطاباً لأهل تلك النواحي من الساحل الشامي الداخلة تحت ولاية قدْره الخطير، وقد خرج معنا لوداعنا الشيخ «رضوان» المفتي، وغيره من أفاضل تلك البلدة وأعيانها.

(القاسميّـــة)

ثم سرنا إلى أن وصلنا «القاسمية»[١١١]، وهي قلعة خراب، كانت في سابقة الزمان معمورةً مبنيَّةً، وفيها الآن بعض البيوت، ويسكنها أُناس من الفلّاحين، فقدّموا لنا بعض الضيافة، وهناك النهر العظيم المُسَمَّى بالنّهر «اللّاطائي»[١١٢] الواصل من أرض البقاع، وعليه الجسر المبنيّ بعقود الحجارة. فيا حبّذا في القـديم هاتيك البقاع، وقد تهدّم الآن بعض بنيانه، وسَطَتْ عليه وعلى أهله أيدي زمانه. فوقفنا هناك وقفة الحائر، ولكنْ مررْنا عليه مرور الطائر، فتذكّرنا قول «ابن حُجّة الحموي»[١١٣] في قاسميّة حماة، وقصره الذي هناك في حماة:

هـــواي يسفح القاسميّة فـالجسر
إذا هبّ تدروا أن ذاك الهوى عُذْري

وهي قصيدة طويلة موجودة في ديوانه.

(صـــور)

ثم قمنا من ذلك المكان إلى صور إلى أنْ وصلنا قلعة صور، وغالبها الآن خراب، وهي في القديم بلد عامر مشهور.

قال ياقوت الحموي في «المشترك»[١١٤]

وصُور: بضمّ الصاد وسكون الواو، وراء، أشهر مدينـة بساحـل بحر الشـام وأحصنها وأحسنها، افتُتحت في أيام عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه...».

وفي «القاموس»[١١٥].

«صـــور: بـالضمّ، بـلا لام، بلد بسـاحـل الشام»...

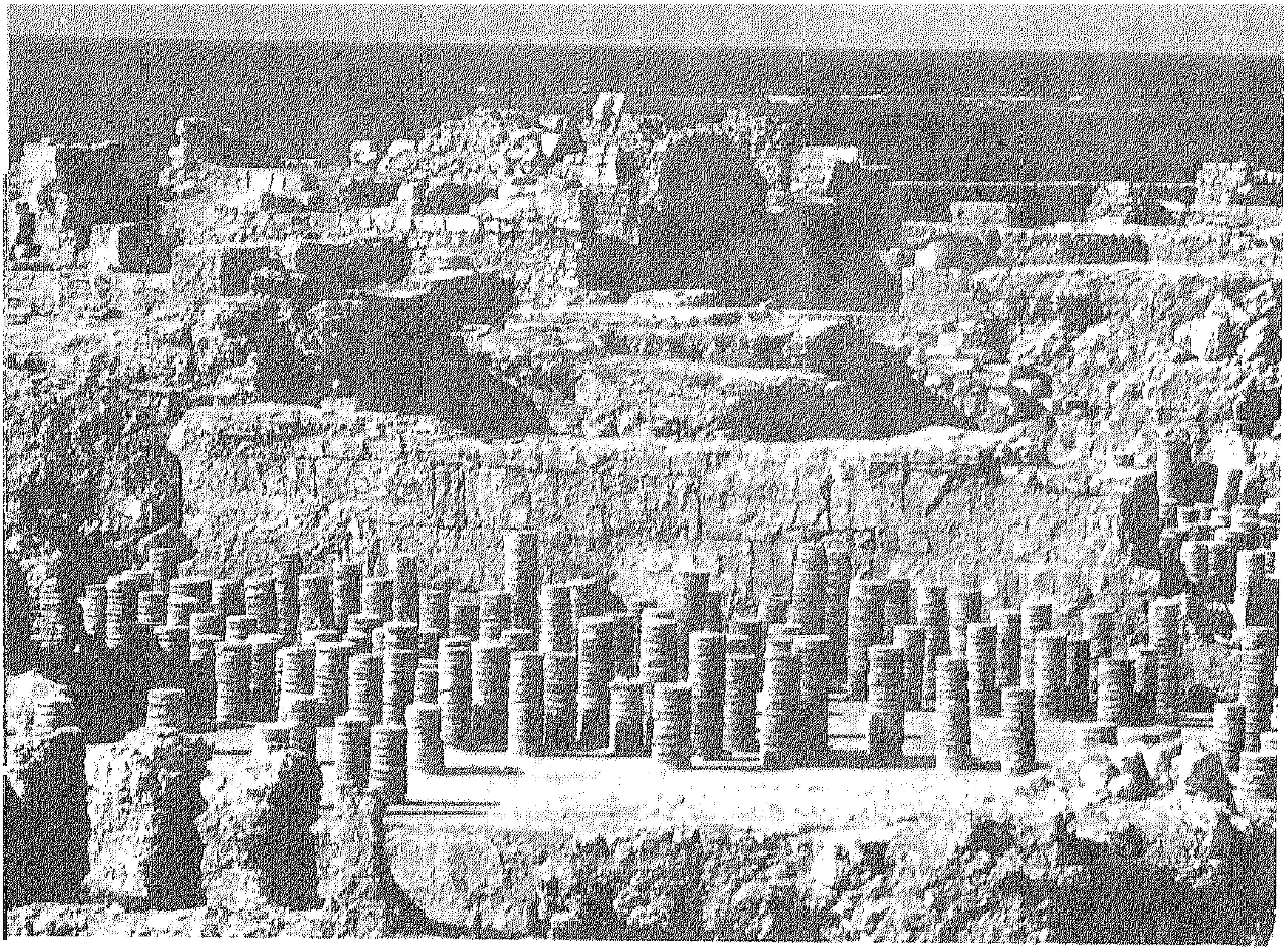

□ صور.

وقد وردنا إلى تلك البلاد في وقت المساء، ونزلنا في القلعة مع جماعتنا، ونحن نقول: «لعلّ» و«عسى»، فثارت علينا الرياح والبروق من الغروب إلى الشروق، وقلنا في ذلك بمعونة القدير المالك:

وبلدة من بلاد الساحل اشتملت
على امتداد لها في البحر مشهور

بتنا بها في هواء فوق قلعتها
حتى شهدْنا هناك النفخ في الصّور

ثم لما أصبحنا في يوم الثلاثاء، الثامن والأربعين، والتاسع عشر من صفر، ركبنا وسرنا نحن والإخوان، في أتمّ راحة وأكمل أمان، حتى مررنا على قبر «شمعون الصفا»، ونحن في غاية المسرّة والصفا، وقبره على جبلٍ عالٍ، وهو مشهور بين أهل تلك البلاد أنّه من الأنبياء أولاد «يعقوب»، عليه السلام، أو من الأحفاد...

(النّاقورة)

ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى تلك العقبة الكؤود، التي على شاطىء البحر حتى أخذنا في الصعود، وسمعنا صوت الماء والأمواج تهدر تحت تلك الصخور. وما تلك النّاقورة وذلك النقار، إلّا كما يقرأ القارىء: ﴿وَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾[116].

وفي ذلك نقول على البديهة:

قد مشينا لنحو عكّة صُبْحا
نقطع السهل من مدينة صور

ورأينا نقّار عكّة لمّا
يهدر الماء تحت تلك الصخور

قلت للقوم: ها هنا حول حشر
نقر اليوم منه في النّاقور[117]

(الزّيب)

ثمّ توجّهنا إلى قرية «الزّيب» بالزّاي، كما

هـو في «القامـوس»[118]، وذاك مشهور على السنة أهل تلك البلاد بالذّال المعجَمَة، ولعلّه تصحيف من الأصل.

وعبارة «القاموس» هي قوله: «وتَزَيَّب لحمه: تكتّل واجتمع. والزَّيب: قرية بساحل بحر الروم»... •

الهوامش:

(٧٥) القاموس المحيط للفيروزابادي ــ ج ١٤٣/١.
(٧٦) أثبتها المعلوف في الموضعين بالذال المعجمة، وهو تحريف. والتصويب عن القاموس.
(٧٧) هو أحد أجداد أسرة آل القصّار المعروفة حتى الآن ببيروت.
(٧٨) هو: أحمد بن عزّالدين البيروتي. ذكره الدكتور صلاح الدين المنجّد في قائمة تلاميذ النابلسي. (انظر مقدّمته لكتاب «رحلتان إلى لبنان ــ ص ٢١ ــ رقم ٤٦ ــ بيروت ١٩٧٩).
(٧٩) هو عيسى بن محمود بن محمد بن كنان الصالحي الدمشقي. كان يدخل بيروت وصيدا وجبل لبنان سياحة ماشياً. وُلد سنة ١٠٤٢ وتوفي ١٠٩٣هـ. (انظر: خلاصة الأثر للمحبّي ٢٤٣/٣ و ٢٤٤، جامع كرامات الأولياء للنبهاني ٢٢٩/٢ و ٢٣٠، وكتابنا: موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان ــ القسم الثالث ــ مجلّد ٤١٥/١٤ و ٤١٦ رقم الترجمة ٩٥٧).
(٨٠) توفي سنة ١٠١٤هـ.. (انظر تراجم الاعيان، للبوريني ــ ج ٩٢/١ ــ ١٠٨، وكتابنا: موسوعة علماء المسلمين ــ القسم الثالث ــ مجلّد ٤٣٢/١٢ رقم الترجمة ١٧٤).
(٨١) وهكذا إلى آخرها، وهي طويلة التزم فيها هذا البيت الرابع بعد كل دور مؤلّف من ثلاثة أبيات. (المعلوف).
(٨٢) انظر عنه وعن المدرسة المنسوبة إليه، كتاب تاريخ المساجد للشيخ طه الولي، ٧٨ و ٧٩.
(٨٣) وُلد في بعلبك سنة ٨٨ وتوفي ببيروت سنة ١٥٧هـ. (انظر مصادر ترجمته في كتابنا موسوعة علماء المسمين ــ القسم الأول ــ مجلّد ٦١/٣ ــ ١١١ رقم الترجمة ٧٧٥).
(٨٤) هكذا في الرحلة، وفي تاريخ المساجد للشيخ طه الولي، ص ١٠٤ «جامع شيخ الضهرة».
(٨٥) بيت سيفا من البيوت العريقة في طرابلس وعكار، حكموا باشوية طرابلس في العصر العثماني، وأوّل حكامهم «يوسف باشا ابن سيفا» الذي تولّى باشوية طرابلس سنة ٩٨٨هـ./ ١٥٨٠م. ولهم تاريخ حافل مع الأمير فخرالدين المعني الثاني. (انظر تاريخ الأمير حيدر الشهابي ٦١٧/١ وما بعدها).
(٨٦) ذكر المعلوف إن هذا التاريخ لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ. وهذا وهْم، والصحيح أن الكتاب لزين الدين بن تقيّ الدين بن عبدالرحمن الخطيب ــ وقد نشره المرحوم شكيب ارسلان ــ طبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.
(٨٧) هنا مقدار ثلاث صفحات مُقْحَمَة من كتاب «محاسن المساعي» لا مبرّر لسردها.
(٨٨) نسبة إلى الأمراء المعنيّين، وهو جبل الشوف شرقي صيدا وبيروت.
(٨٩) دير القمر: بلدة في قلب مقاطعة المناصف، تبعد عن بيروت ٣٨ كلم. وترتفع عن سطح البحر ٨٥٠ متراً.
(٩٠) القول: مصطلح تركي بمعنى العسكر المولجين بالحراسة.
(٩١) الينكجرية: أو الانكشارية (Yeniceri) وتسقط الكاف لفظاً. ومعناها: الجيش الجديد، فهي مركّبة من «يني Yeni» بمعنى «جديد» و «جري Ceri» بمعنى «جيش».
(٩٢) عيناب: بلدة تبعد عن بيروت ٢٣ كلم. وترتفع عن سطح البحر من ٧٥٠ إلى ١٠٠٠ متر. (إعرف لبنان ــ لعفيف بطرس مرهج ١/ دون ترقيم للصفحات).
(٩٣) هو نهر الدامور.
(٩٤) جسر الدامور، انشاه قديماً شخص يُدعَى «الدمياطي» ثم اعاد بناءه «ابو بكـر بن البُصَيْص البعلبكي» حول سنة ٧٤٥هـ./ ١٣٤٤م. وهو الذي بنى الباب الغربي من جامع العطار بطرابلس، وبنى جسر نهر الكلب. (انظر: تاريخ بيروت، لصالح بن يحيى ١٠٤، وكتابنا: تاريخ وآثار.. ــ ص ١٩٥).
(٩٥) هو الأمير أحمد ملحم المتوفى سنة ١٦٩٧ ولم يعقب، وانقطعت به السلالة المعنية. (اخبار الاعيان في جبل لبنان، للشدياق ١٨٧/١).
(٩٦) هو جامع الأمير فخرالدين الأول ابن عثمان المعني، بناه سنة ٨٩٩هـ./ ١٤٩٣م.
(٩٧) هو أبو الحسن علي بن ميمون الهاشمي القرشي المغربي، أصله من فاس، دخل بيروت في أول القرن ١٠هـ.

واجتمع فيها بمحمد بن عراق. وسكن مجدل معوش حتى توفي سنة ٩١٧هـ. (شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ٨/٨١ ــ ٨٤).

(٩٨) قال المعلوف في حاشية الرحلة: «وإلى هذه القرية يُنسب الشيخ محمد بن عبدالقادر بن عكي المعوشي الشافعي من اهل القرن العاشر للهجرة، تلميذ المؤرّخ ابن طولون في دمشق».
وأقول: تبعد مجدل معوش عن بيروت ٥٠ كلم، وترتفع عن البحر من ٨٠٠ ــ ٩٠٠ متراً.

(٩٩) هو ابو علي محمد بن علي بن عبدالرحمن الشهير بابن عراق الدمشقي، نزيل المدينة المنوّرة، نزل بيروت ورابط فيها، وهو من كبار الزّهّاد في عصره. توفي سنة ٩٢٣هـ. (شذرات الذهب ٨/١٩٦ ــ ١٩٩) وانظر كتابنا: موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان ــ القسم الثاني ــ المجلّد ٩ ــ ص ٩١ ــ ٩٧ ــ رقم الترجمة ١٠٩٠.

(١٠٠) المعتمَد انه متوفّى بمكة المكرّمة. (شذرات الذهب ٨/١٩٩).

(١٠١) بلدة تبعد عن بيروت ٤٦ كلم، وترتفع عن البحر من ٥٥٠ ــ ٧٥٠ متراً.

(١٠٢) يقصد نهر الأوّلي الذي يصبّ شماليّ صيدا.

(١٠٣) الكِتْخِدا: بكسر الكاف والخاء المعجَمة، بينهما تاء مثنّاة ساكنة، Kethida اصطلاح تركي بمعنى الممثّل الرسمي للوالي في عاصمة الولاية.

(١٠٤) لم أجد له ترجمة.

(١٠٥) قرآن كريم، سورة مريم ــ الآية رقم ١٣.

(١٠٦) ورد محرّفاً عند المعلوف «الشرفي(بالفاء) بن نظامي»! وهو: الوليد بن الحُصَيْن، كان علّامة نسّابة اخبارياً من اهل الكوفة، كان يدخل على الخليفة أبي جعفر المنصور. (انظر: الوافي بالوفيات للصفدي ١٦/١٣٢ رقم ١٥٤ وفيه مصادر ترجمته).

(١٠٧) انظر الأبيات في ديوان ابن الساعاتي (بهاءالدين ابي الحسين علي بن رستم بن هردوز الخراساني ــ نشره انيس المقدسي ــ طبعة الجامعة الاميركية ببيروت ١٩٣٩ ــ ج ١/١٦٨ ففيه تغيير طفيف ببعض الالفاظ.

(١٠٨) توفي في حدود سنة ٩٠هـ. انظر عنه في الوافي بالوفيات ١٦/١٠٢، ١٠٣ رقم ١١٦ وفيه مصادر ترجمته.

(١٠٩) ذكره النابلسي في رحلته الثانية إلى طرابلس (١١١٢هـ./ ١٧٠٠م.) ــ التحفة النابلسية ص ٦ و ٧ و ٢٤.

(١١٠) بيورلدي (Buyurulti) وتأتي بلفظ «بورلدي» و «بيولدي» بحذف الراء، و «بلردي» وتُجمع على «بيورلديات»، وهو اصطلاح تركي بمعنى: مرسوم، او امر، او بيان، او تعميم، او إعلان.

(١١١) تقع عند مصبّ نهر الليطاني، شماليّ مدينة صور، ويُعرف النهر عندها باسمها.

(١١٢) هكذا عند المؤلّف، وهو «الليطاني» أطول الانهار التي تنبع وتصبّ في لبنان، طول مساره (١٤٥كلم).

(١١٣) هو أبو المحاسن علي بن عبدالله بن حجّة الحموي، رئيس ادباء عصره، صاحب «خزانة الأدب» و «ثمرات الأوراق» وغيره. توفي سنة ٨٣٧هـ./ ١٤٣٤م.

(١١٤) المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ــ ص ٢٨٦.

(١١٥) القاموس المحيط للفيروزابادي ٢/٧٣.

(١١٦) قرآن كريم ــ سورة المدثّر ــ الآية رقم ٨.

(١١٧) يقصد المؤلّف بلدة الناقورة التي تعتبر الآن آخر حدود لبنان الساحلية مع فلسطين المحتلّة.

(١١٨) القاموس المحيط ١/٨٠.

● «ليست هي مفاضلة بين رجلين ولا موازنة بين قدرتين.. ولكنها مسألة التوفيق بين الرجل والموضع الذي ينبغي أن يوضع فيه، والمهمة التي ينبغي أن يندب لها، والوقت الذي يحين فيه أوانه».

(عباس محمود العقاد)

● «ليست قيمة الانسان في الحقيقة التي يملكها أو يتصور أنه يملكها، بل هي في سعيه المخلص للاقتراب من الحقيقة».

«الانسان هو مقياس جميع الأشياء».

(فيثاغوراس)

الكتابة

د. يوسف عاد

□ نموذج من الخط الكوفي النيسابوري، وهو من الخطوط النادرة. وتنص هذه الصفحة قوله تعالى:
«والله يعلم ما تسرون وما تعلنون، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون».

□ الدكتور يوسف عاد ــ الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، الفرع الرابع ــ كسارة.

كانت الاشارة باليد وسيلة من وسائل التفاهم بين الناس، تبعتها الحركة بالراس أو بالجسم، ثم بالرسم بالأشكال فالرواية.

ولما كانت الاشارات الآنفة الذكر غير كافية، او عاجزة عن نقل الآراء بين البشر كافة، كانت الحاجة ماسة إلى اختراع الحرف فاصبحت اللغة أداة التخاطب بين الشعوب، وكانت الرواية إحدى محاولاتها الأولى إلّا انها ظلّت قاصرة عن تبادل الآراء، ونقل المعارف والعلوم.

ولما كان الحفظ إحدى وسائل الرواية، وهو، بالطبع، قاصر عن الوصول إلى الهدف المطلوب بسبب النسيان، أو لهدف عند الحافظ. ومن أجل حفظ الآثار والنقل الأمين والمتبادل، كان لا بد من «ظهور طريقة افضل الا وهي النساخة»[1] اي الكتابة، هذه المحاولة المتقدمة نوعاً ما بالنسبة للطرق المعروفة آنفاً.

فبالاستنساخ والكتابة باليد يمكن نقل العلوم دون الحاجة إلى الانتقال والمشاهدة، وهكذا، وبهذه الطريقة، تمكّن الكتّاب من نقل آرائهم واستنتاجاتهم إلى قرّائهم، فحفظت الآثار للأحفاد. وهكذا، وفي هذه الحالة اصبح من الصعب القضاء على الآداب والعلوم، لا سيما بعد اهتداء الانسان إلى النساخة، ولجبور عبدالنور راي في هذا الصدد إذ يرى ان لوحة الرسام قد تتعرض للفساد او للحريق، وان التمثال قد يتحطم، إلّا ان الأثر الأدبي، لتعدد نسخه وانتشاره في أماكن مختلفة ينجو في معظم الأحيان من الضياع[2].

إذاً، لم يكن بد من النسخ لحفظ آثار السلف، ولتدوين آرائه، ولم يكن العمل متيسراً في ذلك الوقت، بغير هذه الطريقة، الا وهي النساخة. فالنساخة ساعدت على حفظ الآثار من السلف إلى الخلف.

الكتابات القديمة

ورد عند حسن شهاب أن الله انزل الصحف على آدم، وأن هذا الأخير كتبها قبل موته في طين، ثم «طحنه»، لكن لا يُعرف بالتحقيق أول من خط بالقلم بعد آدم[3].

وأقدم ما عُرِفَ من الكتابات ما سطّره البابليون ويعود إلى القرن الأربعين قبل الميلاد.

اما الكتابات السبئية أي العربية القديمة والمعروفة بالكتابة الحميرية فهي من القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

ووجدت بعض الكلمات الكنعانية في مكاتيب تل العمارنة، ويرقى تاريخها إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، عدا الكتابات الفينيقية والآرامية في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد وكتابات الحبشة القديمة المنسوخة في منتصف القرن الرابع بعد الميلاد[4].

وترجع حقيقة بدء التاريخ إلى الكتابة، وأول انواعها هو الكتابة الصورية الدالّة على المعنى بصور تمثل الأفكار والشعور والآراء، وهي مرجع الخط واللغة الهيروغليفية المصرية القديمة وكتابة بعض هنود أميركا[5].

ويقال: إن الفينيقيين كانوا في طليعة مخترعي الحروف الأبجدية للكتابة والتعبير عن آرائهم وافكارهم، ونقل هذه الأفكار إلى سواهم، وقد جاراهم في ذلك المصريون والهنود ثم العبرانيون واليونان والشعوب الأخرى[6]. وهنا لا بد من الاشارة إلى فضل الفينيقيين في ابتكار الأبجدية ونشرها حول حوض البحر المتوسط أثناء تجاراتهم وتنقلاتهم. ولا نغفلن أيضاً، فضل الشعوب الواردة آنفاً.

ويروي منير الخوري: «إن أعظم عمل قام به الفينيقيون للحضارة هو اختراع الحروف الهجائية في القرن الرابع قبل الميلاد. ولقد اشتقت الأبجديات القديمة والحديثة من الأبجدية الفينيقية»، يؤكد هذا القول روايات مؤرخي اليونان على أنهم عرفوا الحروف الهجائية عن طريق الصيدونيين الذين جاؤوا إلى بلاد اليونان حوالي ١٥٨٠ قبل الميلاد[7].

ويقول الأب بولس مسعد: «إن الفينيقيين استنبطوا الأبجدية ونشروها في الأنحاء ابتداء من اليونان بواسطة قدموس الصيدوني»، ويتابع قائلاً: «وحسب الفينيقيين أن تكون الملاحة وفن الكتابة من أخصّ مميزاتهم ليشغلوا المركز الأول بين الأمم التي أسّست الحضارة العالمية»[8].

كذلك اهتمت الكنيسة بنسخ الوثائق، فحفظت هذه الطريقة كميات كبيرة من وثائق الأمبراطورية الرومانية(٩).

إذاً، يُرجع المؤلفون الكتابة إلى القرون السحيقة. وليست النقوش والآثار القديمة الممثلة بالصور وبالرموز المعبرة سوى أدلة واضحة على ما ورد.

الكتابة العربية

ورد عند حسن شهاب أن أول ما كُتِبَ بالعربية هو بالخط الحميري المعروف بالمسند وهو خط بني قحطان، ويعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد(١٠).

أما عبدالفتّاح عبادة فيرى أن أقدم ما كُتِبَ بالخط العربي هو بالشكل النسخي ثم الشكل الكوفي، فأولهما هو الخط النبطي، تعلّمه العرب من الأنباط في حوران أثناء رحلاتهم إلى الشام، وثانيهما متخلف عن الخط السطرنجلي السرياني، وهذان الخطان هما أصل الخط العربي(١١).

ويذكر ابن النديم أن العرب كانوا يكتبون في أكتاف الابل واللِّخاف وهي الحجارة البيض العريضة الرقّاق، وفي العسب، عسب النخل، وأنهم بعد ذلك كتبوا في الجلود المدبوغة، ثم كتبوا في الورق الخراساني(١٢).

ويذكر عن ابن عباس: «إن أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولاق وهي قبيلة سكن أهلها الأنبار، واجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطوعة وموصولة، وقال أيضاً: «سئل أهل الحيرة ممن أخذتم الخط العربي، فقالوا: «من أهل الأنبار»(١٣)... وقال: «إن نفراً من أهل الأنبار من إياد القديمة وضعوا حرف ألف، باء، تاء، ثاء... وعنه أخذ العرب...» وقيل: «أول من كتب بالعربية إسماعيل»، وإن نفيساً ونصراً وتيماً ودومة أبناءه وضعوا كتاباً واحداً، وجعلوه سطراً واحداً موصول الحروف كلها غير متفرّق، ثم فرّقه نبت وهميسع وقيذار»(١٤).

ويقال إن الخط العربي هو من أصل يمني انتقل من اليمن إلى الأنبار والحيرة، وإن نفراً من إياد وضعوا الحروف وعنه أخذ العرب، وإن الذي كتب هذا الخط هو رجل من بني مخلد بن النصر بن كنانة(١٥).

تشير الآراء السالفة إلى أن الخط انتقل بشكله المسند إلى الأنبار وتطوّر فيما بعد فوصل إلينا بشكله الأول. وإن تحسن الخط هو نتيجة ممارسة وجهد قام به المهتمون، وما اجتماعهم ووضعهم الألف باء إلّا بدافع التعلّم والمعرفة، فاقتبسوا وحسّنوا واخترعوا وأضافوا.

ويذكر القلقشندي: «إن أول من وضع الخط والحروف الهجائية العربية ستة نفر من طسم من العرب البائدة كانوا نزولاً عند عدنان، فكانت أسماؤهم: أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت. فوضعوا الخط على أسمائهم، فلما وجدوا في الألفاظ حروفاً ليست في أسمائهم ألحقوها بها وسمّوها الروادف وهي: «ثخذ، ضظغ»(١٦).

يبدو إن آراء العلماء متباينة حول نشأة الكتابة، فبعضهم ارجع فكرتها الأولى إلى حوالي ستة آلاف سنة ق. م. في مصر وأميركا الوسطى. وإلى حوالي أربعة آلاف سنة ق. م. في الصين. وُيرى بعضهم أن فكرة الكتابة الأولى نشأت عند الفراعنة، ثم أخذها الفينيقيون عنهم باعتبارهم صلة الوصل بين العالم آنذاك، فأنضجوا فكرتها، وهذّبوها ونقلوها إلى العالمين اليوناني والروماني. ومنهم من يرجع تاريخ اللغة إلى الأزل. منذ كانت أعمال الناس مسجّلة قبل وقوعها، ومقررة في اللوح المحفوظ حسب علم الله الأزلي قبل أن يولد الانسان(١٧).

يتأكد لنا من هذا الرأي أن الفضل في اكتشاف الأبجدية يرقى إلى شعوب سبقت الفينيقيين ويعني هذا أن فضل الفينيقيين هو في نقلها إلى صورة أفضل، أي في تطويرها، وهذا يناقض قولي منير الخوري وبولس مسعد الآنفي الذكر. وبالرغم من ذلك استمر كل شعب في عمله الكتابي، مما حسّن الخط وهذا ما دفع ابن خلدون إلى القول: «كان الخط العربي بالغاً مبالغة في الاحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف، وهو المسمى بالخط الحميري الذي انتقل إلى الحيرة عندما كان بها دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العرب»(١٨).

الظاهر أن الخط نشأ في الأماكن المتقدمة أو المتفاعلة مع غيرها من حضارات، ثم انتقل إلى

المناطق الأخرى، وهكذا وبهذا الشكل ثم بالانتقال من مكان إلى آخر أخذ الخط ينتشر شيئاً فشيئاً في الجزيرة العربية.

وورد في الأغاني أن زيد بن حماد بن أيوب تولى الكتابة للنعمان الأكبر. وورد أيضاً أن جماعة من الشعراء كانت تكتب مثل المرقش الأكبر وعبدالله بن الزِبَعْري[١٩].

ويجمع أغلب الباحثين على أن الكتابة نشأت وتطوّرت في أرض الوطن العربي القديم، وإن مراحل إيجاد الأبجدية تمّ على الأرض العربية القديمة، سواء أبجدية سيناء أو أبجدية جبيل، او أبجدية رأس الشمرا. وإذا كان الخط الآرامي يعدّ جد الخطوط العربية إذ تفرّع عنه الخط النبطي الذي يعدّ أقرب ما يكون إلى الخط العربي، ثم استعمل عدد من الخطوط في الجزيرة العربية، وهي الخط المسند الصفوي[٢٠] والخط الثمودي، والخط اللحياني[٢١]، والخط الحميري، والخط الحيري[٢٢]. ويقال إنه عثر في أم الجمال، شرقي الأردن، على نقش من ثلاثة سطور، آرامي اللغة، نبطي الخط. وجد هذا النقش بلا تاريخ، وقيل إنه يرجع إلى عام ٢٧٠م. ويليه نقش «النمارة» وقد عثر عليه سنة ١٩٠١م. على أنقاض مخفر روماني قديم، شرقي جبل الدروز، على مقربة من دمشق، وقد كتب تخليداً لذكرى امرىء القيس بن عمرو المتوفي عام ٣٢٨م. وكان ملكاً للحيرة. أما الرسم فهو مدون بالنبطي المتّصل الحروف، ويقال إنه أقدم ما وصلنا مكتوباً من الأدب الجاهلي[٢٣].

وورد في الحوليات العربية أن الحرف العربي اقتبس عن الإسلام، وهذا يؤكّد اكتشاف الكتابات العربية، بخاصة المتكاملة منها في القرن السادس[٢٤]، فالحرف النبطي وصل مع الزمن إلى الأشكال التي نعرفها. وأكثر التطورات التي حصلت له كانت في عصر الاقتباس من الكتابة النبطية أي بين السنوات ٢٥٠ و ٦٠٠ ميلادية تقريباً وفي الكتابات الاسلامية الأولى[٢٥].

واكتشف نقش مستقل عن النقش النبطي، متقدم عنه تقترب صورة حرفه من الصورة المستخدمة الآن، أُطلق عليها اسم «زبد»، وهي مدينة خربة بين قنسرين ونهر الفرات، في الجنوب الشرقي من مدينة حلب. وعثر في حوران، جنوبي

□ سورة الفاتحة في مخطوطة مصحف كتب بالخطين الكوفي والنسخي بيد زين‌العابدين الشريف الصفوي (بدىء بكتابة هذا المصحف في عام ١٣٢٣ في عهد مظفر شاه قاجار في إيران).

دمشق، وشمالي غربي جبل الدروز على نقش أحدث من نقش «زبد» وهو سليم النص العربي، وواضح، ويمكن الاطلاع عليه بسهولة[٢٦]. وذكر ابن جني أن النعمان ملك الحيرة نسخ أشعار العرب ودفنها في قصره الأبيض ولعله النعمان الأكبر وهو النعمان الثاني الذي ولاّه كسرى الأول عرش الحيرة[٢٧].

نستطيع أن نسلّم بأن الخط العربي كان معروفاً في القرن السادس الميلادي وهو عهد قريب من الاسلام وأن النصوص المذكورة في كتب التاريخ والأدب التي تذكر أسماء من كتب الخط العربي وعمله ونشره، تجعلنا نتأكد بأن تكامل الخط لم يكن بعيد العهد. ويحدثنا

البلاذري أن الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة في الجاهلية هم عشرة أشخاص. ثم أصبحوا اربعين شخصاً بعد الاسلام في عهد الرسول[٢٨]، وهذا يدلنا على مدى انتشار الكتابة عند العرب في فجر الاسلام.

وورد عند فيليب دي طرازي أن الجاهلية لم تكن تعرف الكتابة، ولم تكن تعرف من العلوم إلا ما تقتضيه أدنى معيشة كتربية بعض الدواب، وانتجاع منازل الغيث، والعلم بالأنساب ورمي السهام والحداء وغير ذلك من المبادىء التي لا يسع البدوي جهلها، غير أن نصيبهم من العلوم كان قليلاً، فلم يبلغوا فيها إذ ذاك مبلغاً يضطرهم إلى التدوين. ولم يكن الجاهليون يعرفون الكتب، بل كانوا ينهون الناس عن النظر فيها والاعتماد عليها لئلا تتناولها أيدي التصحيف والتحريف أو التزوير المقصود فيقعون في شر أعمال المفسدين، أو خوفاً من أن يقصروا همتهم على اللفظ دون المعنى أو يعتمدوا على الكتب فيهملوا الرواية التي هي عندهم قوام العلوم لا سيما الأدبية والنقلية منها[٢٩]. وتجاه هذا الرأي يمكن أن نتساءل ما إذا كان الجاهلي دوّن قصائده أم نقلها شفوياً، والمطالع كتاب «أدب العرب في عصر الجاهلية وديوان امرىء القيس»[٣٠]، يتأكد أن الجاهلي عرف الكتابة بدليل ورود إشارات في الشعر، إذ شبّهوا الأطلال بالصحف المكتوبة، كقول امرىء القيس:

«لمن طلل أبصرته فشجاني
كخط زبور في عسيب يماني»[٣١]

علاوة على ذكر ابيات أخرى تؤكد وجود الكتابة، يمكن الرجوع إليها عند الشعراء الجاهليين أو عند المؤلف المذكور، حسين الحاج حسن. ويدفعنا هذا الرأي إلى القول بأن بعض آثار الجاهليين قد دوّن وبخاصة الشعر، لكن هذا لا يدفعنا إلى التعميم لان الشعر كان بأغلبه في البادية، وأنّ ما كتب فعلى الحجارة أو على العظم أو على العسب، والتدوين صعب على مثل هذه الأشياء، لذلك قد يكون اقتصر تدوينهم على الضروريات من عهود أو مواثيق وأحلاف وكتب دينية وبعض الشعر، إلاّ انّ الغالبية منها كانت تحفظ في الذاكرة، ومن هنا كان الاعتماد على الرواية والتمرّس بها.

لم يكن ما ذكرناه آنفاً وحسب عن الكتابة، فعلاوة على اهتمام الجاهلي بها، فقد اهتم بتزيينها وتوشية ما يكتب، وهذا دليل على اهتمامه بها، وليس الشعر في هذا الصدد غير تأكيد على ما نقول، يبدو ذلك في شعر طرفة:

«كسطور الرّق رقّشه
بالضحى مرقّش يشمه»[٣٢]

ويرى ابن خلدون أن المسلمين انصرفوا عن الشعر وتدوينه أول الاسلام لانشغالهم بأسلوب القرآن ونظمه، لكن، ما كاد النظام الإسلامي يستقر حتى عاد التدوين.

ويقول طرازي: «لما هاجر المسلمون إلى المدينة وجدوا في أهلها نفراً قليلاً من الأوس والخزرج يعرفون الخط، فاستعملوا منهم أكثر من ثلاثين رجلاً لكتابة الوحي، وأول من كتب الوحي هو ابن أبي كعب الأنصاري. وبعد أن استقر الاسلام في المدينة أمر النبي — صلعم — أن تعلّم صبيانها القراءة والكتابة، واستعمل في ذلك من أسرى بدر من لم يستطع أن يفدي نفسه بالمال، فكان فداء الواحد منهم تعليمه عشرة من أولاد المسلمين الكتابة والقراءة، ونظراً لتعظيم شأن الخط ومكانته إذ ذاك عند العرب وقلّة عارفيه، كانوا يسمون من يعرفه، ويعرف الرمي بالكامل[٣٣].

إذاً، كان للنساخين والخطاطين احترام كبير من بيئاتهم ومن خارجها، وكانوا صلة الوصل بين الدول بنقلهم الآراء وبتوزيعها، وكان من الممكن وقوع الأضرار عندما يخل أحدهم بالأمانة، فيضيف ويحذف حرفاً أو كلمة أو سطراً أو صفحة، لذلك كان المفروض على النساخ أن يكونوا دقيقي الملاحظة عند النسخ ليصلوا إلى الهدف العام وهو الافادة من غير تمييز ونقل علوم السلف بأمانة ودقة.

ويقال إنه عندما اقتبس العرب الخط من الانباط والسريان، كان خالياً من الحركات والأعجام فالحركات فيه حادثة في الاسلام، والمشهور أن أول من وضعها هو أبو الأسود الدؤلي المتوفى عام ٦٩ للهجرة لما كثر في اللحن لاختلاط العرب بالأعاجم في صدر الاسلام، فكانت الحركات إذ ذاك نقطاً يميزون بها الفتح والكسر، فكانت النقطة فوق الحرف دليلاً على

□ لوحة «بالخط النسخ» من مسجد خورشيدخان بمدينة بهاغالبور بولاية بيهار، ترجع إلى الحقبة نفسها.

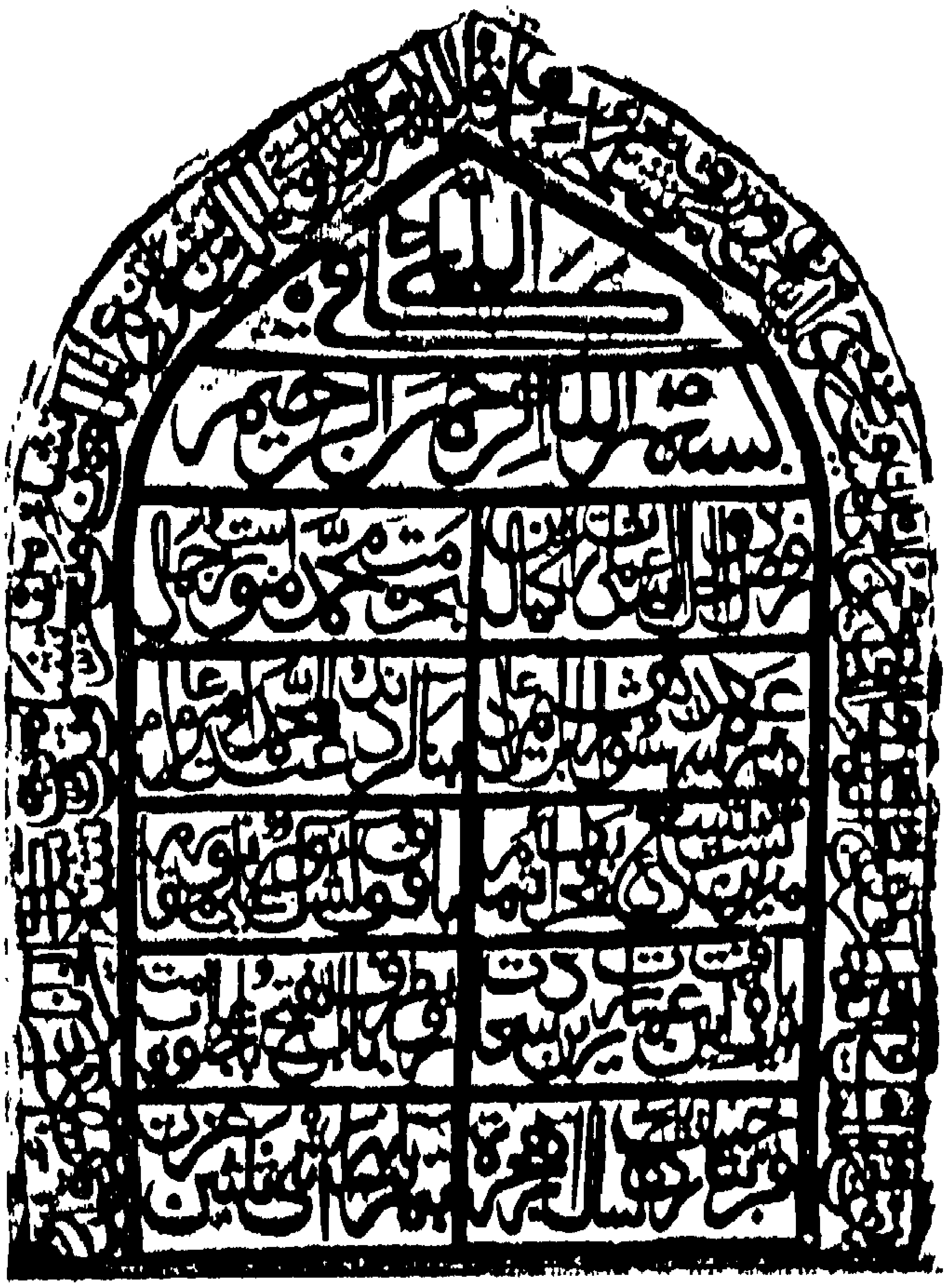

الفتح، وإلى جانبه دليلاً على الضم، وتحته دليلاً على الكسر، ولم تشتهر طريقة أبي الأسود الدؤلي هذه إلّا في المصاحف حرصاً على إعراب القرآن(٣٤). فقد كان الناس يقرأون في مصاحف عثمان وهي غير منقوطة ولا معجمة، فيخطئون في القراءة، فكلمة (سلو) قرأها حفص بن سلمان ابن المغيرة (تبلو)، وقرأها عبدالله بن مسعود (تتلو). وكلمة (سا) قرأها حفص (تثبيتاً) وقرأها مجاهد بن جبر (تبييناً). عدا أمثلة أخرى. وبالرغم من جهد أبي الأسود الدؤلي فلم تتوقف موجة اللحن إذ كثر التصحيف، وانتشر في العراق، واستمر إلى أيام عبدالملك بن مروان، وأدرك الحجاج خطر ذلك فطلب من الكتّاب أن يضعوا للحروف المتشابهة علامات، ويقال إن نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط، فتحسّنت القراءة والكتابة فأتمّ هذا العمل عمل أبي الأسود. ظل الناس يكتبون على طريقة أبي الأسود الدؤلي، ونصر بن عاصم الدولة الأموية، وصدر دولة بني العباس، وفي الأندلس حتى القرن العاشر الميلادي، وبعد هذا التاريخ اخترع الخليل بن أحمد (المتوفى سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م) الشكل المستعمل الآن، فجعل الضمة واواً صغيرة فوق الحرف، والفتحة ألفاً مستعرضة فوق الحرف، والكسرة ألفاً مستعرضة تحت الحرف، والشدّة رأس شين... إلخ(٣٥).

ويقال إنه في مطلع القرن الأول الهجري أصبح التدوين أمراً طبيعياً، فالخطاط خالد بن الهياج كان يكتب للخليفة الوليد بن عبدالملك المصاحف والشعر والأخبار. وأرسل

النبي ــ صلعم ــ كتاباً إلى المقوقس (رئيس اقباط مصر) مع حاطب بن ابي بلتعة سنة ٦ للهجرة / ٤٠ للميلاد، وهذه الرسالة تصور طريقة الكتابة في القرن الأول الهجري. وذكر أن اعشى همدان دوّن قصيدة، في عام ٦٥ للهجرة، تشير إلى الأحداث الحاصلة في تلك السنة. وعثر على نقش آخر في قصر برقة سنة ٨١ للهجرة / ٧٠٠ للميلاد. والخليفة الوليد بن يزيد ١٢٧هـ / ٧٤٤م، أمر بجمع ديوان العرب وأشعارها واخبارها وانسابها ولغاتها[٣٦]. والظاهر أن التدوين كان فردياً، وبالرغم من التنقيط المذكور آنفاً فقد كانت قراءة النصوص صعبة لأنها متلاحقة بعضها ببعضها الآخر، أو غير واضحة الحروف.

وروى التاريخ أسماء رهط عظيم من الخطاطين اشتهروا بنسخ المصاحف في العصور الخالية بينهم سلاطين وخلفاء وأمراء ووزراء وائمة طبّق صيتهم الآفاق[٣٧]. وبما أن الخط اعتبر من اشرف الفنون لأنه كان يخلّد كلام الله في الصحف، لذلك احتل الخطاطون مكانة أعلى بكثير مما كان للمصورين. وتفرد لنقل المصاحف علي بن محمد بن مقلة ٣٢٨هـ، وزير الخليفة العباسي المقتدر بالله، فقد وجدوا له بخطه الرائع مائة مصحف. وكتب أبو عبدالله الناسخ بخطه الف مصحف. ولم يكن خط النساء الخطاطات بأقل من خط الرجال الخطاطين في تحبير المصاحف، فالخطاطة بادشاه خاتون نسخت من المصاحف الشريفة ما لا نظير له[٣٨].

وكان الكتّاب يكتبون من وحي القرآن، فقد كتبوا القرآن كلّه ولم يكتبوا من الحديث إلّا قليلاً، لأن القرآن الكريم هو أول نص إسلامي مكتوب وصل إلينا[٣٩]. وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى الكتابة والقلم واللوح، وهذا يشير إلى أهمية الكتابة في كل عصر ومصر وفي كل وقت.

إذاً، انتشر الخط العربي نظراً للحاجة إليه، بخاصة في كتابة الوحي والرسائل التي كان ينفذها الرسول إلى الملوك والأمراء، وأول من عمل على نشره بطريقة عامة هو الرسول، فقد كان محباً لانتشار الكتابة وتعميمها، وكان بمكة حين الرسالة عدد قليل ممن يخط، وبعد الهجرة ابتدأ الخط يشيع، وقد نهج أصحاب الرسول وخلفاؤه هذا المنهج، واتخذ نساخ كل صقع طريقة لهم في الكتابة، وحينئذ أخذ الخط يترقّى ويتفرّع[٤٠].

إذا بقي الخط على حاله في زمن النبي ــ صلعم ــ وفي زمن الخلفاء الراشدين لاشتغال المسلمين بالحروب حتى زمن بني أمية، ثم ابتدأ بعد ذلك يسمو ويرتقي[٤١]، وسمي بالخط الكوفي، واستعمل في عهد بني أمية، وانتقل في عصرهم إلى أفريقيا، وتولّد منه الخط العربي ثم خط الرسائل الذي استنبط من الخط الكوفي والحجازي في أواخر الدولة الأموية، وتوجد له نماذج متعددة على جدران مساجد القاهرة ومدارسها وسبلها. ثم «الطومار» وهو أصغر من «الجليل»، وقد كتبت به أسماء السلاطين. وظهرت عناية الشام بالخط منذ أواخر القرن الخامس الهجري، فظهرت فيه أشكال جديدة من الخطوط، أهمها النسخي[٤٢].

ولما ظهر الهاشميون وجد خط سمي بالعراقي ولم يزل في الترقي حتى انتهى الأمر إلى المأمون، فأخذ كتابه في تجويد خطوطهم، وبقيت الحال كذلك حتى آلت الخلافة للعثمانيين فبرعوا فيه وأحدثوا الخط الرقعي والهمايوني[٤٣].

لقد أوجد الخطاطون المسلمون أساليب وأنواعاً وزخرفة، فالتزيينات المقتبسة من النبات، والأشكال الهندسية ملأت الدنيا فازدانت بها المساجد، واستخدمت في القصور والحمّامات والأضرحة ودور السكن العامة والأسواق والخانات والقلاع والمخطوطات، وزينت نسخ القرآن الكريم بالخطوط الجميلة البديعة حتى غدا هذا الطراز من الرسم والتزيين صفة عربية سمّاها الغربيون أرَبسك أي الأرقشة أي الفنون الزخرفية العربية[٤٤]. ومنذ العصر العباسي أخذ الخط الكوفي يتنوّع حتى زاد على الخمسين نوعاً، منها المشجّر، والمدوّر والمربّع، وفي العصر المذكور هذا استنبط أحدهم قلم الثلثين (ثلثا الطومار)، واخترع من الثلثين خطاً سمّاه (الثلث)[٤٥].

ويشدد أغلب المستشرقين ومنهم الدكتور غروهمان على أثر الآرامية أو السريانية والأسطرنجيلية في تطور بعض الحروف[٤٦]. ويرى برجه (Berger) أن الخط الكوفي كان

□ لوحة بالخط الثلث نقلها الفنان عن الخطاط المملوكي محمد بن حسن الطيبي في القرن السادس عشر الميلادي.

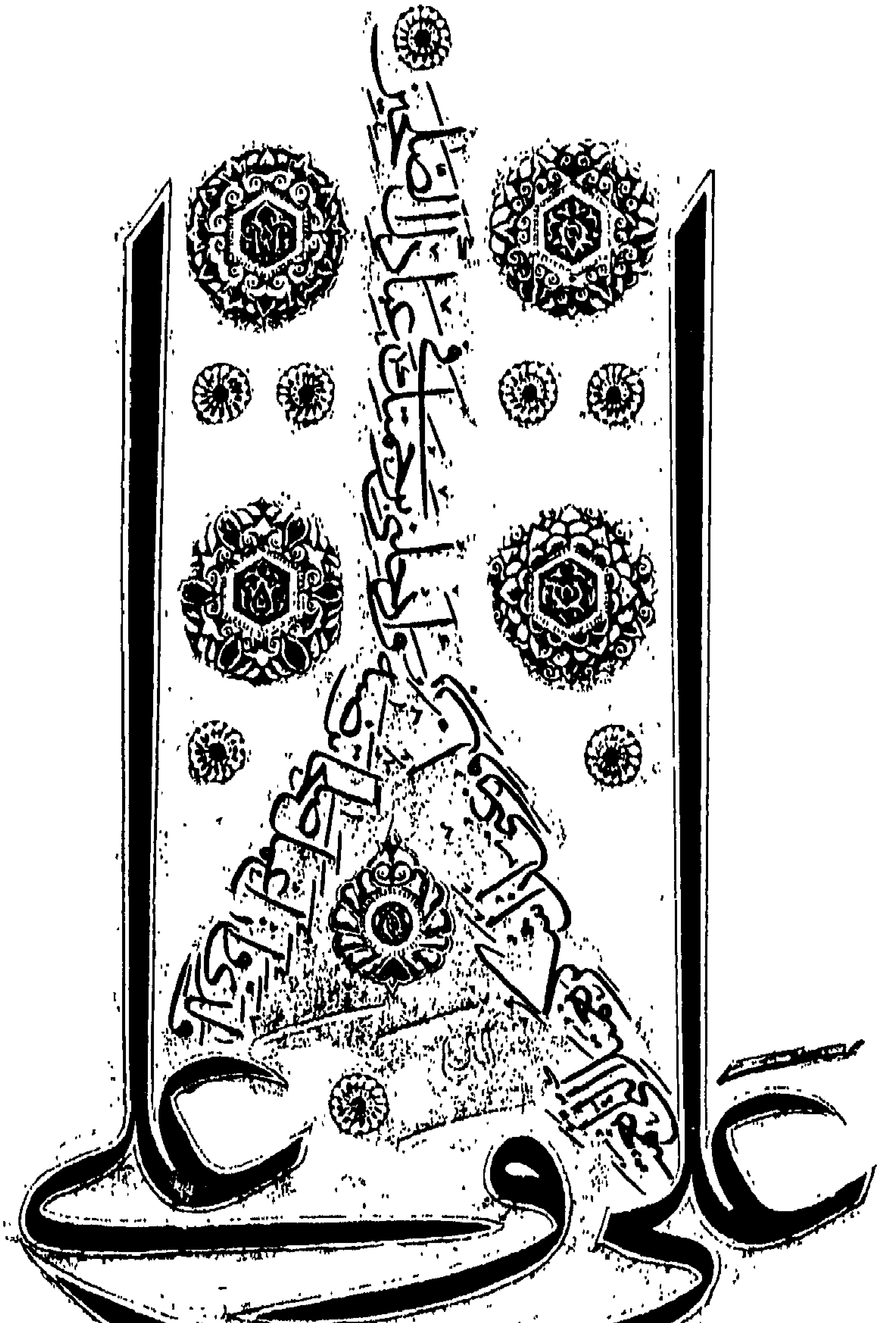

يكتب في بلاد العرب وسواحل سوريا. أما النسخي فكان مستعملاً في مصر(٤٧). اما بلاشير فرأى أن الكتابة السريعة كانت بالخط النسخي أي في اغراض العاجلة والمراسلات والعقود الرسمية أو الخاصة، أما الكوفية فهي مخصّصة للنقوش وحفظ النصوص الدينية(٤٨).

اما تطور الخط في المغرب والأندلس فقد اتّبع طريقاً خاصاً ظهر في الكتابات الأثرية وفي أسلوب الخط الباقي هناك(٤٩) وظل الخطاطون يكتبون على طريقة الخط الحجازي، واستخدموا فنوناً كـ «الجليل» و «الثلث»، كما يشاهد على جدران الحمراء بغرناطة(٥٠)، وتطور هذا الفن في إيران إلى أن وصل إلى خط التعليق الفارسي بأنواعه المتعدِّدة(٥١)، وكان استعماله عاماً في أواسط آسيا وفارس، اخترعه الخطاطون الأتراك من أشكال الخطوط العربية، وحوّلوا بعض أنواعه كـ «الرقاع» إلى ما نعرفه اليوم. واخترعوا من الخط المسلسل الخط «الهمايوني» ومن أشهر خطّاطيهم الحافظ عثمان بن علي(٥٢).

والملاحظ أن النساخة والكتابة والخط تحسّنت وتقدّمت بالتقدم الزمني والاختلاط بين الشعوب بحيث كان يأخذ خطاط من أمة عن آخر من أمّة أخرى، وهكذا وبهذا الشكل، ونظراً للحاجة إلى الكتابة كانت الشعوب تسعى إلى الأفضل، طبعاً، قبل ظهور الطباعة.

أما في مصر فقد برز منذ العصر الطولوني الخطاط طبطب الذي جاء على رأس المدرسة المجوِّدة للخط، ويقال أن مصر نافست دولة العباسيين في ذلك، وفتحت مدارس لتعليم الخط ظلّت عامرة حتى العهد المملوكي(٥٣). ويقال إنه بعد استيلاء صلاح الدين على مصر باع رجاله خزانة كتب، وكانت من «عجائب الدنيا»، وقيل إنه لم يوجد في البلاد الاسلامية دار كتب أعظم منها، فقد كانت تضم الفي مجلّد، منها بالخطوط المنسوبة مئة الف(٥٤)، وكان الخطاطون يتبارَوْن في تنميق الكتب وتجويدها وتوفير عدد نسخها ترغيباً للأدباء والحكام في إحرازها وتزيين مجالسهم بها(٥٥). وجاء في صبح الأعشى: أن الكتابة صناعة روحانية تظهر بآلة جثمانية، فالروحانية هي الألفاظ التي يتخيلها الكاتب في أوهامه، ويصور من ضمِّ بعضها إلى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه، والجثمانيّة هي الخط الذي يخطّه القلم، وتعتبر به تلك الصورة، وتصير بعد أن كانت صورة باطنة معقولة، صورة محسوسة ظاهرة، والآلة هي القلم، وهذا التحديد يشمل جميع ما يسطّره القلم مما يتصوّره الذّهن ويتخيّله الوهم(٥٦).

وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معبّدة الطرق، واضحة المسالك، ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في الأقطار على غاية من الاتقان والاحكام والصِّحة، إلّا أنّ الخط الذي بقي من الاجادة في انتساخ هنالك، إنما هو للعجم في خطوطهم، وأما النسخ بمصر ففسد كما فسد بالمغرب والمشرق»(٥٧).

طريقة تلقي العلم وأخطاء النسّاخ

كان لكل عالم مشهور، طالب ينقل عنه سماعاً أو استملاء أو استنساخاً. وكانت هذه الطرق جيدة كافية، شرط أن يبذل الأستاذ جهده في التصحيح، وأن يبذل الطلبة جهدهم في الكتابة، وأن لا يجيز الأستاذ الكتاب إلا بعد قراءة الخطوط بكامله. فالمخطوط الذي نسخه عالم ثقة، أو كان في حوزة عالم أو أكثر من الثقاة اعتبر نصاً موثوقاً به(٥٨). ومن المفيد هنا ذكر طرق التدوين: فقد كان الأستاذ، أحياناً، يملي على تلاميذه، كما فعل ابن الأعرابي (المتوفى ٢٣٥هـ). أو كان التلميذ يكتب ما سمعه عن أستاذه بعد انتهاء الدرس(٥٩).

لا بد من الاشارة إلى أن وضوح الخط والتأني في النسخ، والأمانة في النقل تساعد الكاتب على إيصال الأفكار الحقيقية، ولا شك في أن النسخ مهنة صعبة جداً تتعب الناقل، لأنه لا يتمكن من إنجاز أعمال كثيرة في فترة وجيزة، لذلك كان الناسخ يسرع في العمل ليتقاضى مبالغ اكبر، وفي هذه الحال كان يقع في الخطأ وهذا يسيء إلى الأمانة في النقل، لذلك وجب محاسبة الناسخين لأن عملهم أصبح تجارة، وفي التجارة لا بد من دفع الثمن مقابل العمل، من هنا كان

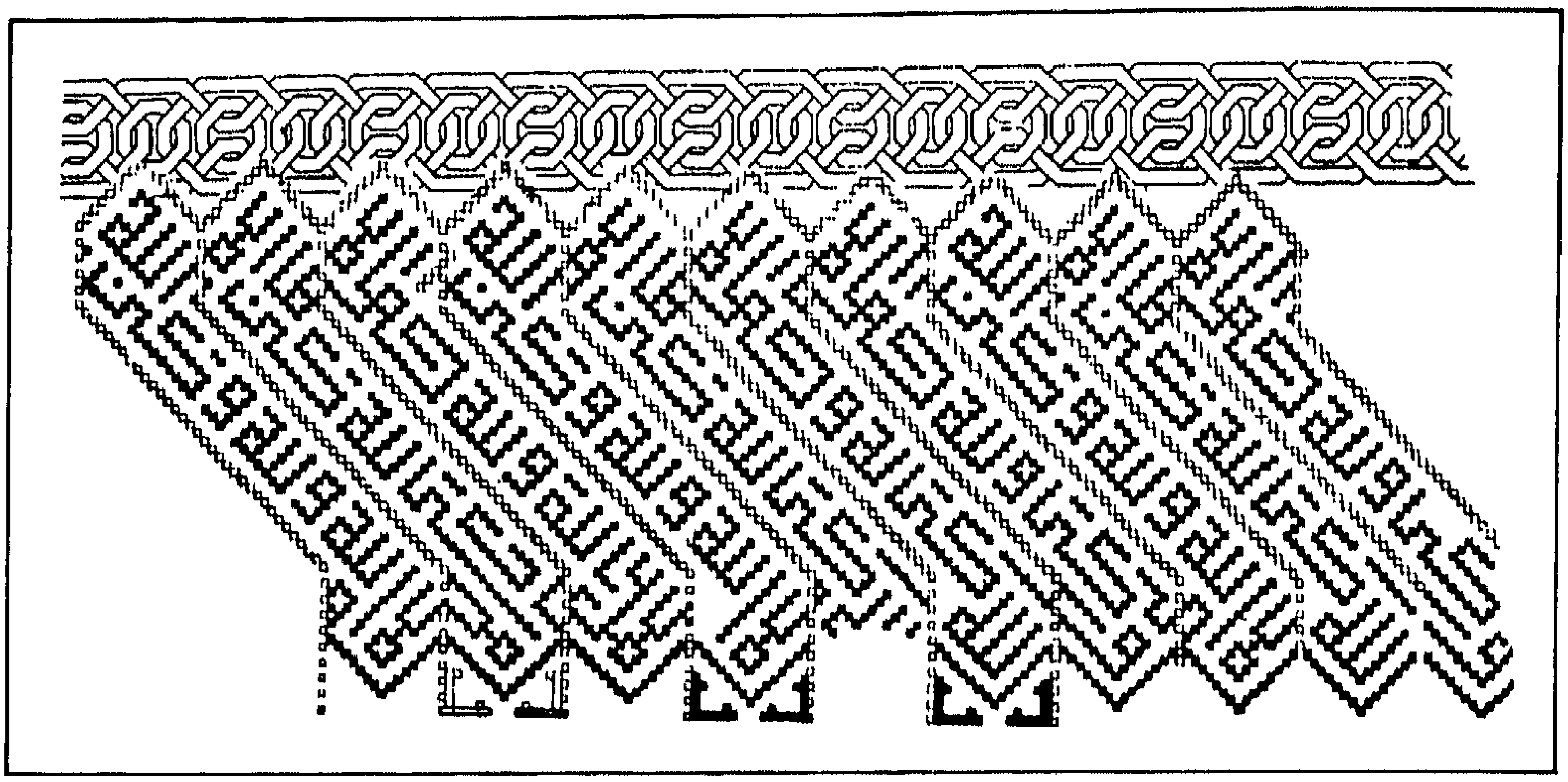

□ هذا الشكل يمثل النصوص الواردة على منارة جامع الحيدر خانة في العراق، ففيها تكرار لكلمة او جملة، وفيها تجميع ثلاثي او رباعي لها، وبها تكرار تناظر. (مقتبسة من كتاب البعد الواحد لشاكر حسن آل سعيد).

لا بد من مراجعة الكتاب قبل. استلامه لمعرفة النواقص والأخطاء اللاحقة به.

وكـان بعض النسّـاخ لا يفهمـون شيئـاً مما كانـوا ينسخونـه من الكتب، في كثير من المواضع، فالناسخ لا يكاد ينسخ نسخاً صحيحاً إلّا ما يفهم معناه، ولهذا نشاهد كثرة التحريف في الأعلام، وتفيد المراجع أن رغبة بعضهم في المطالعة، كان يؤدي بهم أحياناً إلى التغيير نتيجة لعدم وضوح الخط أو التنقيط، وهذا ما حدث للأصمعي، يقـول أبو حـاتم السجتاني: «قـرأ الأصمعي عـلى أبـي عمـرو بن العـلاء شعـر الحطيئة:

وغـررتـنـي وزعـمـت أنـ
ـك لابـنٌ بـالصـيـف تـامـر»

أي يريد أن يقول إنه كثير اللبن والثمر، فقد قرأها الأصمعي: لا تني بالضّيف تأمـر»، أي لا تتوانى عن ضيفك فتأمر بتعجيل الطّعام له. فقال له أبو عمر: «أنت والله في تصحيفك هذا أشعر من الحطيئة وتفسيرك للتصحيف أغلط علي من تصحيفك»(٦٠).

ونرى أحياناً ذكر شيء عن المخطوط الذي استنسخ منه الناسخ، مثال: «الأخبار الطّوال للدينوري، فقد بقي لذلك الكتاب ثلاث نسخ، الأولى فرِغ من نسخها سنة ٦٥٥هـ. والثانيـة سنـة ١٠٠٠هـ، ثم عدم ذكـر الناسـخ تاريخ النسخة، إمّا سهواً، وإمّا للغش رغبة في الترويج، وهـذا يُفضي إلى التضليل إذا لم ينتبـه إليـه الناقد(٦١).

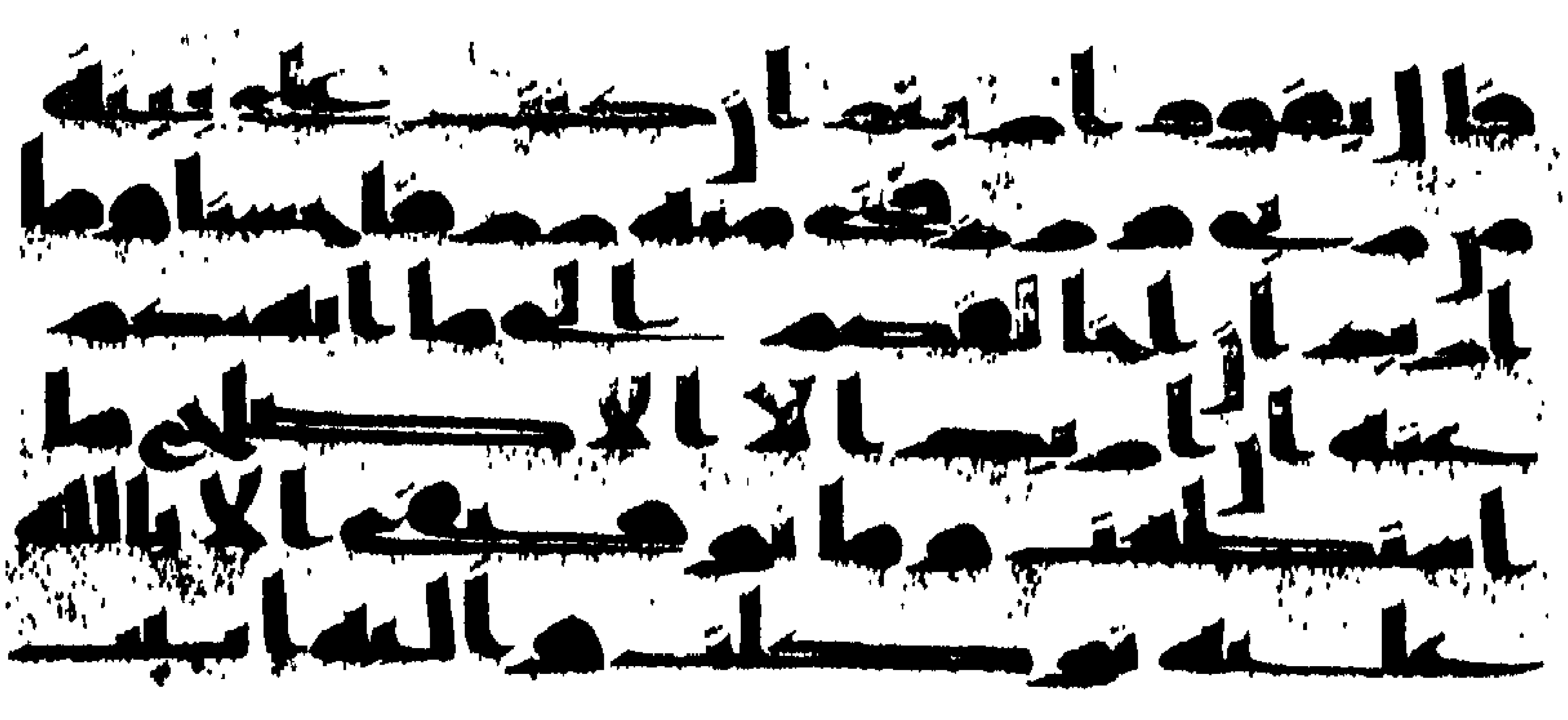

□ الآية ٨٨ من سورة هود، على طريقة الخطاط المغربـي القندوسي في القرن التاسع عشر الميلادي.

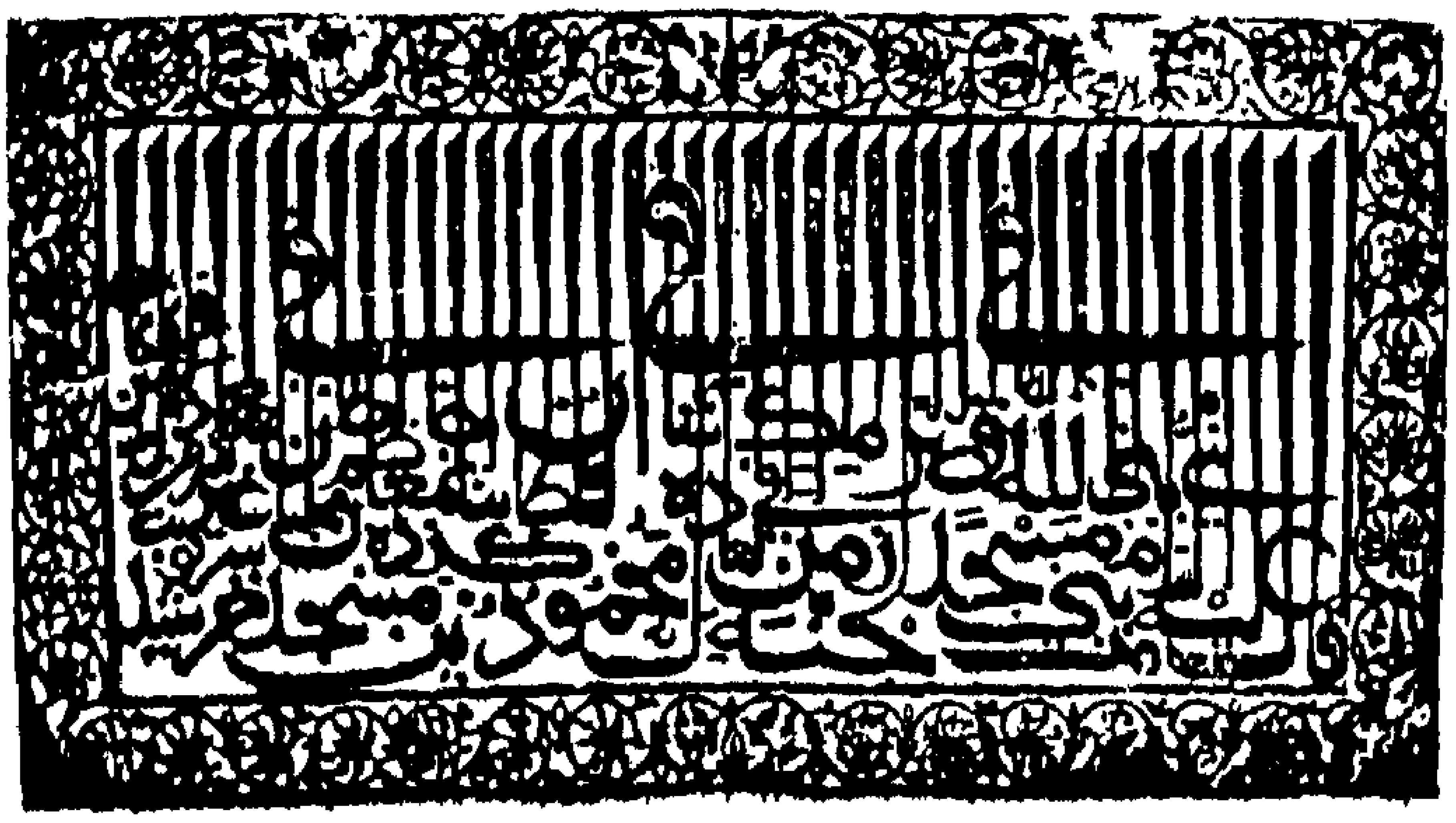

□ لوحة من الخط العربي منقولة عن مسجد خورشيد خان بمدينة بهاغالبور بولاية بيهار. ترجع إلى ٣ آب ١٤٤٦م.

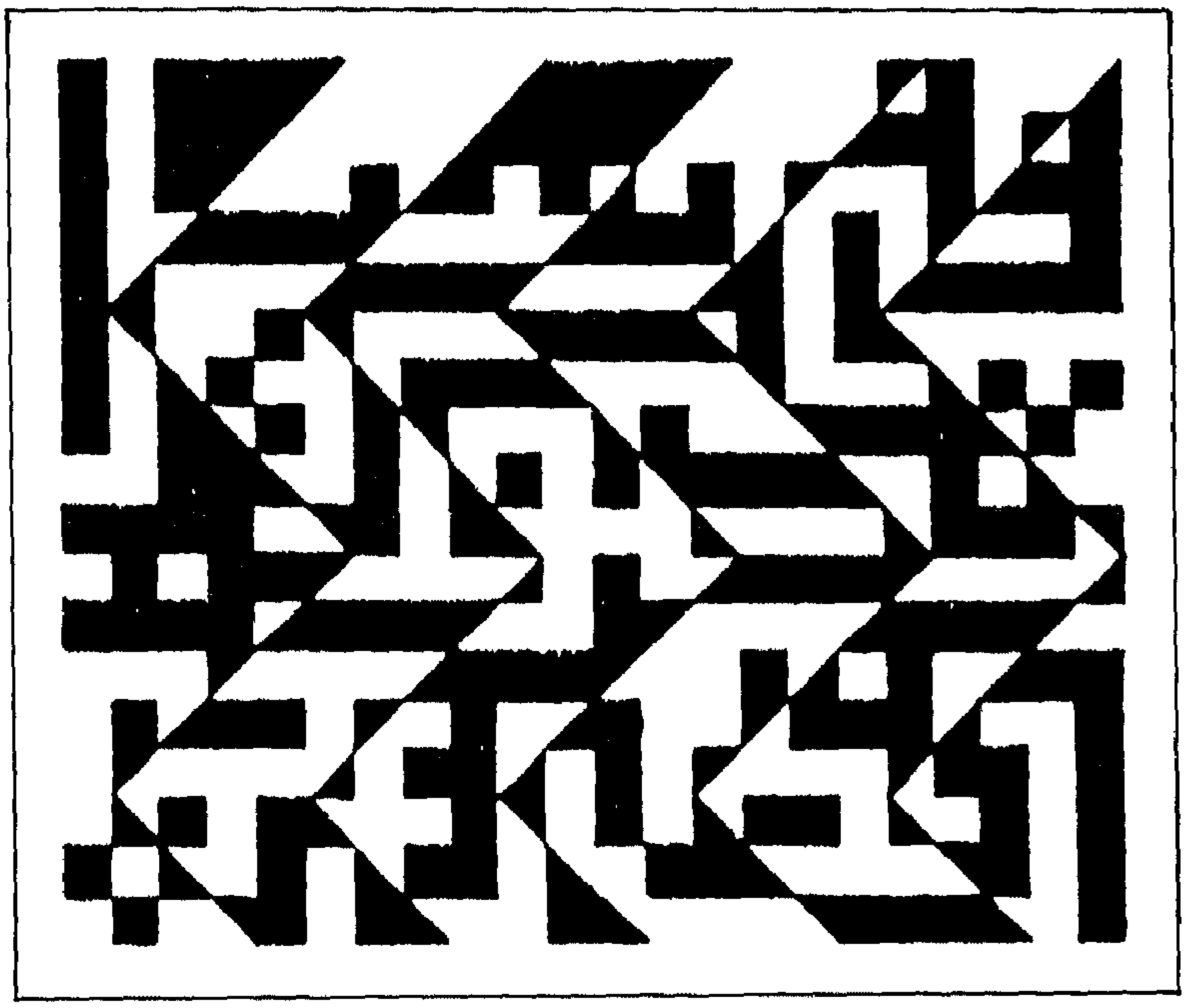

□ رسم تجريدي حديث، وهو مستوحى من الخط العربي الكوفي، وهكذا نلاحظ اثر الخط العربي في الزخرفة الكلاسيكية الاسلامية وقابليته للزخرفة التجريدية.

ولا بد من القول بأن الناسخ يجب أن يعرف أسماء الملوك والمدن والقلاع، فعندما يعرفها يجب أن يضبطها بالشّكل لتكون مقروءة كي لا تختلف في اللفظ بين شخص وآخر، وإذا وجد من تقارب بين الأسماء، لا بد من الاشارة إلى ذلك، ليكون المطالع على معرفة واضحة بما يقرأ فيلفظ الأسماء كما يجب أن تكون، ومن هنا قيمة ما ينسخ وما يكتب.

لكن إذا انفكّت ورقة من كتاب معين، ثم وضعت في غير موضعها، أو سقطت بعض ورقات، ثم نسخ الكتاب من النسخة التي وقع التبادل بين أوراقها، فهنا يقع بالضرورة تقديم أو تأخير أو خلل، كديوان قيس بن الحطيم وله نسختان، الأولى قديمة كتبت سنة ٤١٩هـ، وقد سقطت من هذه النسخة بعض ورقات قبيل آخر الكتاب، ومما يماثل سقوط ورقة سقوط سطر عند نسخ الكتاب، لأن الناسخ بعد إتمام السّطر لا يبدأ بما بعده، بل يجاوز سطراً كاملاً ويبتدىء بالثالث(٦٢).

ويجب أن يشار إلى النسخة إذا كانت كلّها بخط واحد وحجم واحد أو غير ذلك، كأن يقال مثلاً: من قانون ابن سينا ستة عشر مجلداً متداخلة، مختلفة الخط والقطع، أو من الخط المنصوري في الجزء الأول، مخرّم في آخره(٦٣).

وينبغي أن يتنبه الناقد إلى كل فرق في الخط في كل ورقة، وإلى اختلاف الأصل الذي قد

□ سورة الكوثر بأسلوب الخط العربـي المستخدم في القرن الثاني الهجري.

لا يظهر بوضوح أو قد يُطمس، فمثلاً إذا نسخ ناسخ كتاب (المحتسب) بخط واحد، وكان نصه مأخوذاً من أصلين، أو إذا أخذ الكاتب نفسه قسماً من كتاب وقسماً من آخر لعلّة من العلل مثـل: (كتاب الفهـرست لابن النـديم المتـوفى سنة ٣٨٥هـ)[٦٤].

ويقول ابن خلدون: أمّا الشروط المعتبرة في الكتاب فقد استوعبها عبـدالحميد الكـاتب في رسالته إلى الكتّاب، وهي: أمّا بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم.. فجعلكم (الله) معشر الكتـاب في أشرف الجهـات أهل الأدب، والمروءات والعلم والرزانة.. فتنـافسوا يا معشر الكتّاب في صفوف الآداب وتفقّهوا في الدين. وابدأوا بعلم كتاب الله والفرائض، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم[٦٥]. وإبراز الكتاب كان يتم إمّا بإهداء نسخة منه إلى رجل رفيع القدر ألّف له الكتـاب، وإمّا بـالاذن باستنسـاخ الكتاب،

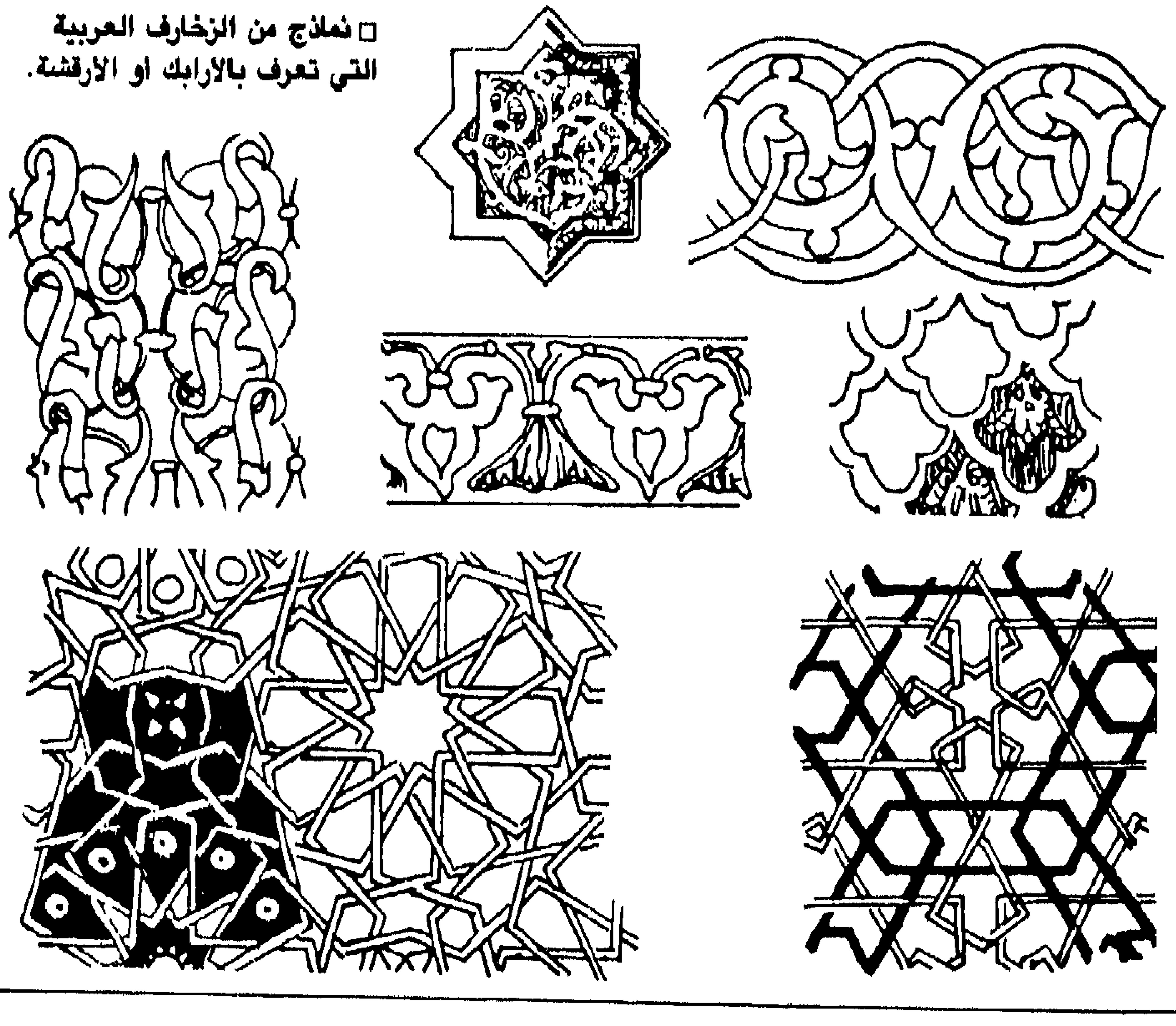

□ نماذج من الزخارف العربية التي تعرف بالارابك او الأرقشة.

أو بإملائه على الطلبة. ولما كان المؤلفون لا يطّلعون على كل ما ينسخ من كتبهم، ازداد احتمال وقوع الفرق بينها مثال ذلك: «درّة الغوّاص إلى أوهام الخوّاص للحريري»(٦٦).

إذاً، كان للنسخ أهمية كبيرة على البشرية لأنه كان وسيلة لنقل المعارف من سلف إلى خلف، فساعد على تلقّي العلم، وتفتح الأذهان، بخاصة لأن النسخ كان الوسيلة الوحيدة لنقل المعارف قبل ظهور المطبعة.

وإن كان نقل النصوص بأمانة قد أفاد فلعل بعضها دخلها التحريف عن قصد أو عن إهمال، فكان من المفروض على العالم المدقق معرفة الصحيح من المغشوش، وذلك بمقارنة الخطوط في المؤلّفات التي وضعها المؤلِّف نفسه بعضها مع بعضها الآخر.

ولا بد، أيضاً، من الاشارة إلى أن بعض النساخ كانوا ثقة، لذلك يصح أن تؤخذ نسخهم كوثائق أساسية.

صحيح أن بعضهم كان بعيداً عن الأمانة أثناء النسخ، لكن لم يكن بد من الرجوع إلى المؤلفات الموضوعة في العصور المختلفة كونها تنقل صورة إن لم تكن واضحة، عن الحقبة التي جرى فيها النسخ، فعلى الأقل أنها تنقل لنا بعض الحقائق التي تفيدنا بعد الدراسة من استخلاص النتائج. •

الهوامش:

(١) فارس (محمد احمد)، الكتابة والتعبير، لا مكان، لا تاريخ، ص ٨.
(٢) عبدالنور (جبور)، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، ط ١، بيروت، ١٩٧٩، ص ٣١٧.
(٣) شهاب (حسن)، دليل الكاتب، ط ١، ١٩٠٩، بلا دار طبع، ص ٧.
(٤) شهاب (حسن)، دليل الكاتب، ص ١٩.
(٥) الخوري (منير)، صيدا عبر حقب التاريخ من ٢٨٠ ق. م. إلى ١٩٦٦. منشورات المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦٦، ص ٣٣.
(٦) صفير (يعقوب)، اختراع الحرف العربي الموحّد، مطبعة الثبات، بيروت، ١٩٤٨، ص ٣.
(٧) الخوري (منير). صيدا عبر حقب التاريخ، ص ٣٣، ٣٤.
(٨) الخوري (منير)، صيدا عبر حقب التاريخ، ص ٣٣، ٣٤.
(٩) تاريخ العرب والعالم، السنة السابعة، العددان ٨١ ــ ٨٢، تموز ــ آب، دار النشر العربية للدراسات، ص ٧١.
(١٠) شهاب (حسن)، دليل الكاتب، ص ٤٠.
(١١) عبادة (عبدالفتاح)، انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي، مطبعة هندية بالموسكي بمصر، ١٩١٥، ص ٨.
(١٢) هارون (عبدالسلام)، تحقيق النصوص ونشرها، ط ٢، مؤسسة الحلبي وشركاه، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٤.
(١٣) مدينة قديمة في العراق.
الرجال الثلاثة هم: مرامر بن مرّة، وأسلم بن سدره، وعامر بن جدره.
(١٤) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٩.
(١٥) الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد ٢٣، الجزء ١ و ٢، تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية، ١٩٧٣، ص ٧٦، ٧٧.
(١٦) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، ط ٢، دار الفكر، ١٩٧٧، ص ١٢٧.
(١٧) فارس (محمد احمد)، الكتابة والتعبير، ص ١٢، ١٣.
(١٨) الحوليات الأثرية العربية السورية، ص ٧٧.
(١٩) الحوليات الأثرية العربية السورية، ص ٧٧.
(٢٠) نسبة إلى جبل الصفا في جبل الدروز.
(٢١) نسبة إلى بني لحيان، ولا يختلف هذا الخط عن الخط المسند.
والثمودي مشتق من المسند والخط الصفوي يشبه الخط اللحياني.
(٢٢) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ١٣٤.
(٢٣) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ص ٣٥.
(٢٤) الحوليات الأثرية العربية السورية، ص ٧٨.
(٢٥) ابو غزالة (اديب)، الكيان المجرد للاحرف العربية، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٤، ص ١.
(٢٦) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ص ٣٧ و ٣٨.
(٢٧) الحوليات الأثرية العربية السورية، ص ٧٧.
(٢٨) الحوليات الأثرية العربية السورية، ص ٧٦.

(٢٩) طرازي (فيليب)، خزائن الكتب العربية ١، ط ١، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢.
(٣٠) الحاج حسن (حسين)، أدب العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط ١، بيروت، لبنان، ١٩٨٤، ص ٨٣.
(٣١) امرؤ القيس.. ديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار المعارف بمصر، ١٩٥٨، ص ٨٥.
(٣٢) طرفة، ديوان، تحقيق مكس سلفون، طبع باري، ١٩٠٠، ص ٦٨.
(٣٣) طرازي (فيليب دي)، خزائن الكتب العربية ١، ص ٣.
(٣٤) عباده (عبدالفتاح)، انتشار الخط العربي، ص ٢٧.
(٣٥) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الادب، ص ٤٧.
(٣٦) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ص ٤٠.
(٣٧) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ١٢٨، ١٢٩.
(٣٨) طرازي (فيليب دي)، خزائن الكتب العربية ١، ص ١٤، ١٥.
(٣٩) هارون (عبدالسلام)، تحقيق النصوص، ص ٩، ١١.
(٤٠) عبادة (عبدالفتاح)، انتشار الخط العربي، ص ١١، ١٢، ١٣.
(٤١) عباده (عبدالفتاح)، انتشار الخط العربي، ص ١٣.
(٤٢) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ٣١.
(٤٣) شهاب (حسن)، دليل الكاتب، ص ٤٨، ٤٩، ٥٠.
(٤٤) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ٤.
(٤٥) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ص ٥١.
(٤٦) الحوليات الأثرية العربية السورية، ص ٧٩.
(٤٧) Berger (Ph.), Histoire de l'écriture, Paris 1981, 291.
(٤٨) Blachère, Histoire de la littérature arabe, Vol. 1, 163.
(٤٩) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ١٣٤.
(٥٠) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ص ٥١.
(٥١) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ١٣٤.
(٥٢) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ص ٥٢.
(٥٣) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ١٣٤.
(٥٤) طلس (أسعد)، مصر والشام في الغابر والمعاصر، دار المعارف بمصر، ١٩٤٥، ص ٦٨.
(٥٥) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ١٣٤.
(٥٦) طرازي (فيليب دي)، خزائن الكتب العربية ١، ص ٩١.
(٥٧) هارون (عبدالسلام)، تحقيق النصوص، ص ١٢، ١٣.
(٥٨) أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ص ١٦، ١٧.
(٥٩) حاج حسن (حسين)، أدب العرب في عصر الجاهلية، ص ٨٧، ٨٨.
(٦٠) السيوطي (عبدالرحمن جلال الدين)، المزهر في علوم اللغة ٢، دار إحياء الكتب العربية، لا تاريخ طبع، ص ٣٥٥.
(٦١) أصول نقد النصوص ونشر الكتب، لا تاريخ، لا دار، ص ١٦، ١٧، ١٨.
(٦٢) أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ص ٢٢، ٢٣.
(٦٣) المنجد (صلاح)، قواعد فهرسة المخطوطات العربية، ط ١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢١.
(٦٤) أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ص ٢٥.
(٦٥) ابن خلدون، مقدمة، يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بالقاهرة، لا تاريخ طبع، ص ٢٤٨، ٢٤٩.
(٦٦) أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ص ٢٦.

- «كان الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يشاور أفاضل الرجال في تعيين كبار موظفيه، فقال لهم يوماً: أشيروا عليّ ودلوني على رجل أستعمله في أمر قد دهمني، فقولوا ما عندكم، فإنني أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم، وإذا كان فيهم هو أميرهم كان كأنه واحد منهم، فقالوا: نرى لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثي، فأحضره وولاه.. فوفق في عمله وقام فيه بما أربى على رجاء عمر وزاد عليه، فشكر عمر لمن أشاروا عليه بولاية الربيع».

- «لا يقال وجدت الحقيقة، بل يقال وجدت وجهاً من وجوه الحقيقة».

(جبران خليل جبران)

الدراسات التاريخية عن المدن في التاريخ العربي — الاسلامي قليلة جداً، ولا سيما فيما يخص أوضاعها الاقتصادية، وفيما يلي مقالة عن تاريخ القاهرة الاقتصادي في العصر الفاطمي تقدمها مجلة تاريخ العرب والعالم كنموذج لدراسة المدينة التجارية الاسلامية التي لعبت دوراً في حلقة الوصل ما بين المناطق في التاريخ العربي.

تاريخ القاهرة الاقتصادي

سليمان مصطفى زبيس

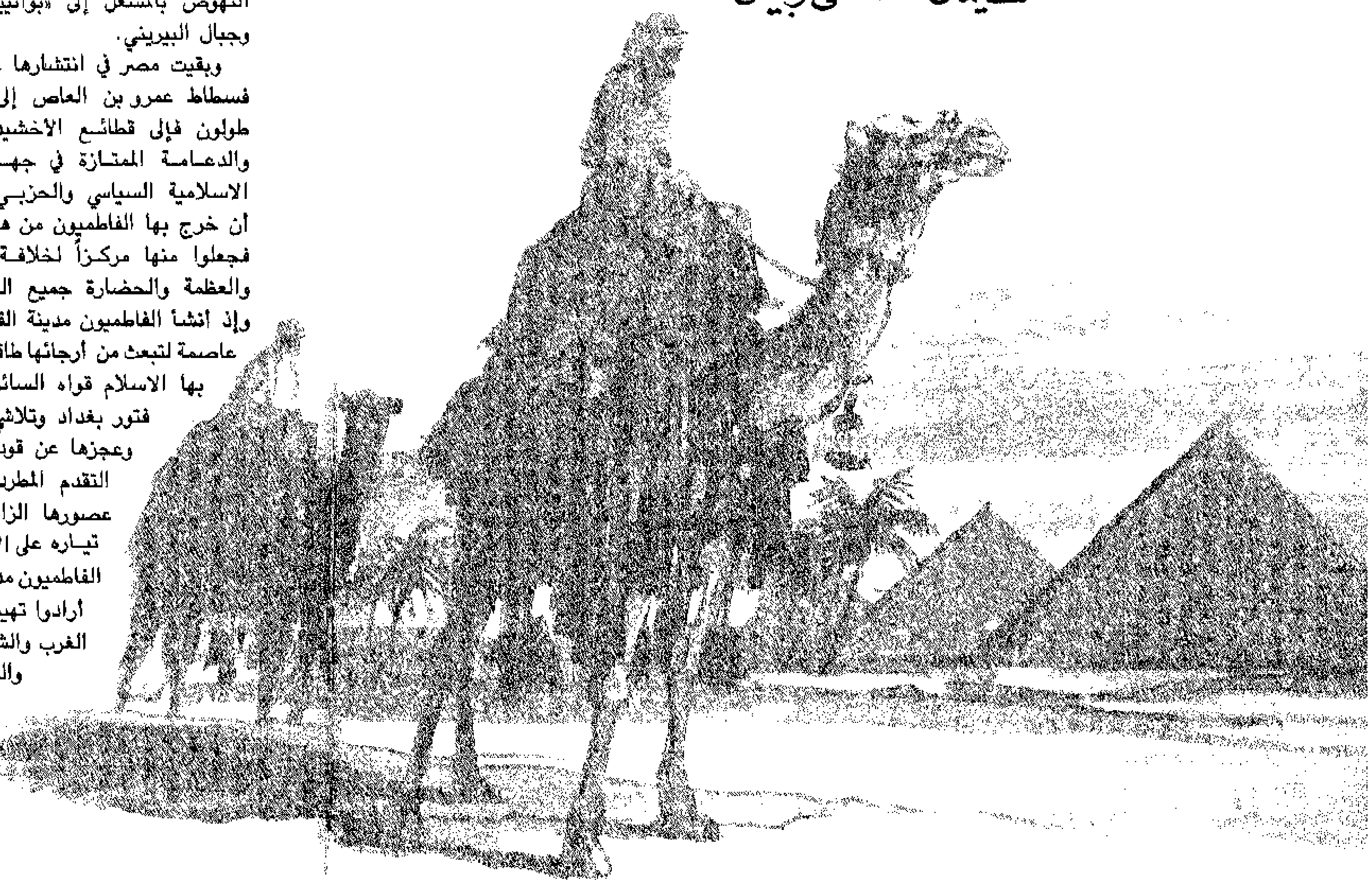

لمحة تاريخية:

ما من شك أن مصر قد كانت بلاداً غزيرة الثروة وقد لعبت بموجب ذلك ادواراً جليلة في السياسة والحضارة وأن الآثار الفرعونية الموجودة في ربوعها لهي دليل ساطع على عظمة المظاهر التي بلغها المجهود البشري في النهوض بالقيم الانسانية المبدعة الخلاقة.

وقد عاشت مصر في كنف هذا الماضي المجيد عيشة الرغد والسعة إلى أن اسدل الاسلام عليها رايته فكانت جوهرة ناصعة في عقد الخلافة وغرة باسقة في جبينها فكانت قاعدة الفتوح الاسلامية والعربية نحو المغرب قبل أن تتولى القيروان النهوض بالمشعل إلى «بواتييه» عبر الأندلس وجبال البيريني.

وبقيت مصر في انتشارها عهداً بعد عهد من فسطاط عمرو بن العاص إلى عسكر احمد بن طولون فإلى قطائع الأخشيد المعقل الرئيسي والدعامة الممتازة في جهاز الامبراطورية الاسلامية السياسي والحزبي والاقتصادي إلى أن خرج بها الفاطميون من هذه التبعية الذهبية فجعلوا منها مركزاً لخلافة فاقت في الأبهة والعظمة والحضارة جميع الخلافات السابقة، وإذ أنشأ الفاطميون مدينة القاهرة فإنما أنشأوا عاصمة لتبعث من أرجائها طاقات جديدة يستعيد بها الاسلام قواه السائرة إلى الوهن بعد فتور بغداد وتلاشي نفوذها وضعفها وعجزها عن قود الأمة في سبيل التقدم المطرد الذي عرفته في عصورها الزاهرة والذي أوشك تياره على الانقطاع، وإذ أنشأ الفاطميون مدينة القاهرة فإنما أرادوا تهيئة مركز وسط بين الغرب والشرق وبين الجنوب والشمال وشرفة على البحر ترصد منها مختلف التيارات السائرة على اليم، فالمظنون ان غايتهم التي تاقوا إليها من احتلال بغداد يوماً من الأيام وزحزحة الخلافة العباسية من الميدان لم تكن تفيد القطع بأنهم يتخذونها عاصمة للخلافة الفاطمية فلعلهم كانوا يرمون فقط إلى الاستيلاء على مدينة السلام وما ولاها ثم العودة إلى الوكر الذي لم يرضوا عنه بديلاً وهو القاهرة بجوار النيل وحقوله الطيبة الكريمة ومنتزهاته الفاتنة.

وعلى كل فإن الواقع الذي حدث أن الخلفاء الفاطميين لم يغادروا القاهرة طوال مدة دولتهم بالرغم من أنهم امتلكوا جانباً من الاقطار الشرقية ليس بالهين، وهذا ما جعل من القاهرة مركزاً سياسياً راسخ القدم طويل النفس في اتجاهاته ومعقلاً لقوة جبارة في عالم ذلك الوقت بل فقد أرسى الفاطميون لهذه المدينة قواعد البقاء والازدهار وضمنوا لها الاستمرار والدوام بالهيبة وحسن الاعتبار فمنها قام صلاح الدين الأيوبي بحملاته الموفقة على الحركات الاستعمارية الصليبية وعن طريقها توزعت خيرات المشرق وذخائره نحو أوروبا والمغرب خصوصاً في أيام المماليك وعن طريقها استمر توزيع هذه النفائس بعدهم وذلك قبل فتح ترعة السويس وبعدها، فلا غرابة إن كان لذلك فضل عظيم في ازدهار اقتصادها ازدهاراً خارقاً متواصلاً وإن كانت محل اعتبار مختلف الدول الغربية جميعها وخصوصاً التجارية منها والبحرية كجنوة والبندقية ثم هولاندا وانجلترا وفرنسا فكانت محل الاعتبار من طرف هذه الدول وكذلك مجلبة للأطماع وهدفاً للحملات الاستعمارية.

وفي هذه الكلمة المختصرة عن أحوال القاهرة الاقتصادية وعلاقتها الخارجية سوف لا نتعدى الفترة الفاطمية لأنها فترة الانشاء والانبعاث وكذلك لاتساع الموضوع وتشعب أبوابه ووفرة مادته إذا حاولنا تجاوز الفترة المذكورة.

وقد تصفحنا في المدة الأخيرة كتاب الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير فرأينا أن نستهل هذه الكلمة ببعض من الفصول التي أوردها عن تحف وذخائر القاهرة وهي ذخائر تصور لنا مكاسب ملوكها وكبرائها وثرواتهم

وروائع كنوزهم ونفيس أعلاقهم في صورة مدهشة.

جاء في كتاب ابن الزبير أن القائد جوهر أهدى «إلى المعز لدين الله بعد ما ملك مصر في سنة ٣٥٩هـ، هدية فيها ٩٩ نجيبة وقبة بأجلة الديباج المنسوجة بالذهب ومناطق من الذهب المكللة بالجوهر و ٢٢٠ ناقة بالديباج والأعنة المحلاة بالفضة و ٥٠٠ جمل، و ١٨ دابة، عليها أجلة الديباج المنقوش والسروج على جميع أصناف الحلية من الذهب ومنها ما هو بالفضة مموه بالذهب ولجمها منها ما هو بالذهب ومنها ما هو بالفضة».

«ولما سار العزيز بالله إلى بلبيس متوجهاً للغزو سنة ٣٨٥ كان في جملة ما خرج معه من المال خمسة آلاف جمل على كل جمل صندوقان كبيران مملوءان مالاً، وألف وثمانمائة بختية وبختي على كل واحد صندوقان في كل صندوق منهما مثل ما في الصناديق المحمولة على الجمال».

وأهدت السيدة الشريفة ست الملوك أخت الحاكم بأمر الله إلى أخيها في التاسع من شعبان سنة ٣٨٧ هدايا من جملتها ثلاثون فرساً بمراكبها ذهباً منها مركب مرصع ومركب من حجر البللور وعشرون بغلة بسروجها ولجمها وخمسون خادماً ومائة تخت من أنواع الثياب وفاخرها وتاج مرصع بنفس الجوهر وشاشية مرصعة وأسقاط كثيرة من طيب من سائر أنواعه وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر».

وقد وجد للأستاذ أبي الفتوح برجوان العزيزي حين قتله الحاكم في سنة ٣٩٠:

— مائة منديل شروب ملونة معممة كلها على مائة شاشية.
— ألف سراويل دبيقية بألف تكة حرير.
— آنية الذهب والفضة ما لا يحصى كثرة.
— الخيل الجياد ١٥٠ فرساً.
— البغال المثقلة ٣٠٠ بغل.
— السروج الثقيلة الحلى ١٥٠ سرجاً.
— الكتب المصورة وكتب الأغاني الشيء الكثير.

«ووجد لقائد القواد الحسين بن جوهر حين قتله الحاكم سنة ٣٩٩ في جملة ما وجد:

— ٧٠٠٠ مبطنة حرير.

٩ مثارد صيني أسود مملوءة حب كافور (من فنصورة وهي بلدة في جنوب جاوة) وزن كل حبة ثلاثة مثاقيل.

وقد أهدى المعز بن باديس صاحب القيروان هدايا إلى الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله في سنة ٤٢٠ فأنفذ إليه الظاهر — على حد قول القاضي الرشيد — هدية جليلة المقدار فيها من غرائب طرف بلاد الهند والصين وبلاد خراسان من سائر أنواع الطيب والجوهر وغير ذلك ما لا يحد، ومن دق تنيس ودمياط وتونة وأعمالها من الملابس والفرش والتعاليق والأعلام والمنجنوقات والبنود والألوية على القصب والفضة المجراة بالذهب من سائر الصور كل بديعة وغريبة قدرها وتمنع وجود مثلها، وحمل إليه القباب والمحافل المعمولة من العاج والأبنوس والصندل المضبب بالذهب والفضة التي عليها أهلة الذهب المجللة بفاخر الأجلة ومن الخسرواني الأحمر المذهب والمخمل والدبيقي المذهب، ومن الخيل العراب ذوات الأثمان الغالية والصفات البديعة شيء كثير على أكثرها سروج الذهب والفضة والجوهر والعنبر والكافور، ومن الدروع والخوذ والجواشن المذهبة والسيوف المجوهرة».

وقد وجد للسيدة راشدة بنت المعز لدين الله حين ماتت سنة ٤٤٢ ما قيمته ألف ألف من الثياب المصممة ألواناً ومائة قطرميز مملوءة كافوراً قنصورياً.

وماتت أختها عبدة بنت المعز في هذه السنة (٤٤٢) بعد ثلاثة أيام فكان مما وجب أن يختم عليه في خزائنها ومقاصيرها وصناديقها مما حوته من موجودها ذهباً أربعون رطلاً من الشمع وأن بطائق المتاع الموجود المسجل لها بلغ ٣٠ رزمة من الورق ووجد لها:

— أربعمائة سيف محلى بالذهب.
— ٣٠,٠٠٠ شقة صقلية.
— أما الجواهر فما لا يحد كثرة.
— والزمرد كيلة أردب واحد.

ووجد لها طست وإبريق من البللور فلما رآهما سيد الوزراء اليازوري فلفرط استحسانه لهما وعظيم قدرهما عنده سأل السلطان فيهما فوهبهما له (واستأثر اليازوري) بمدهن ياقوت أحمر وزنه ٢٧ مثقالاً أخذه سراً من السلطان».

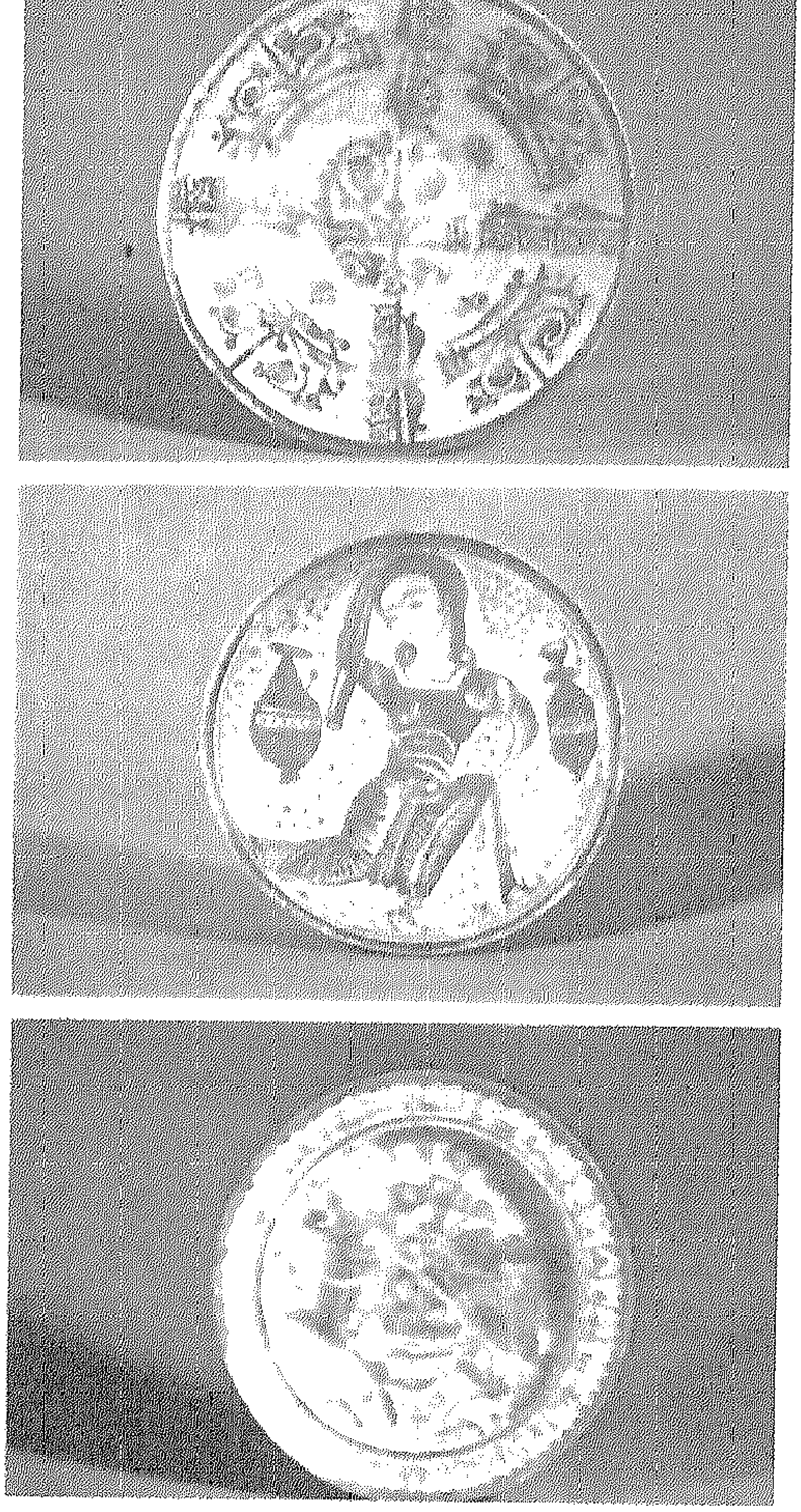

□ قطع فنية من العصر الفاطمي / القرن الثاني عشر ميلادي.

وخلفت السيدة ست مصر بنت الحاكم بأمر الله حين ماتت في مستهل جمادى الثانية سنة ٤٥٥ ما لا يحصى كثرة، وكان إقطاعها في كل سنة يغل ٥٠,٠٠٠ دينار ووجد لها ٨,٠٠ جارية ونيف وثلاثون زيراً صينياً مملوءاً جميعاً مسكاً مسحوقاً ووجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت فيها ١٠ مثاقيل».

واما ما جاء في أخبار المخرج من خزائن قصر المستنصر بالله في سنتي ٤٦٠ و ٤٦١ حين تغلب الأتراك على دولته واستباحوا ما وجد في بيت ماله واقتسم مقدموهم دور المكس والجبايات فحصل لهم من ذلك مال لم يعرف مثله فيما تقدم من الدول منذ ظهر الاسلام إلى وقتنا هذا نفاسة وجلالة وغرابة وكثرة وحسناً وملاحة وجودة وسناء قيمة وغلة ثمن، على أن الذي أخرج يسير من كثير وقليل من جليل، ولقد قيل أنه نقل منه مياسير التجار إلى سائر الأمصار وجميع الأقطار، سوى ما أخذته النار وغرق في البحار وامتلأت قياسير مصر وأسواقها من الأمتعة المجرجة من قصر السلطان المبيعة على الناس بما يعجز الوصف عن وصفه وقد عدد شيئاً منها صاحب كتاب الذخائر والتحف بما يقف الانسان حائراً في أمره أيطلق العنان للاعجاب بالجريدة التي تضمنت هذا العدد العديد من النفائس؟ أم يطلقه لهذا القاموس الفني الغزير الألفاظ الطريف المادة كأنه ألف خصيصاً لهذه الطرف النادرة؟.

بعد هذه الطرائف حول مكاسب بعض امراء الدولة الفاطمية وكبار رجالتها يتضح بجلاء أن مثل هذه الثروات إنما لا تتيسر إلا إذا كان اقتصاد البلاد اقتصاداً مزدهراً، نعم إننا لا ننسى أن القائد جوهر ثم الخليفة المعز قد نقلا جميع ما أمكن نقله من الذخائر والنفائس والأموال والصناع التي انكبت الدولة على جمعها في بلاد المغرب طيلة ما يقرب من السبعين سنة ولكن البلاد المصرية كانت بها ذخائر الأخشيد وممتلكاته وممتلكات أهل بيته وممتلكات رجال دولته وحاشيته وكل ذلك صار في قبضة الفاطميين فدعموا به ثروتهم الطائلة، زد على ذلك صقلية وقد بقيت تابعة للقاهرة بعد خروج الفاطميين إلى مصر لا تابعة للقيروان كما كانت سابقاً فسيقت خيراتها، منذ حل القائد جوهر بأرض مصر، مباشرة إلى القاهرة بعد أن كانت السفن تسير بها إلى مرسى المهدية.

ولا ننسَ في النهاية أن الوزير يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسين قد وضعا منذ سنة ٣٦٣ ــ أي بعد عام من حلول الدولة الفاطمية بالقاهرة ــ وضعا نظاماً جبائياً مبتكراً وقرابة خراج مصر بصورة عظيمة وبالجملة فإن النظام الفاطمي قد كان نظاماً مركزاً على جباية بالغة الالحاح فكانت هناك ضرائب مفروضة على التجارة والصناعة في مختلف أطوار تنقل البضاعة عند دخولها إلى الحدود وفي تجوالها داخل البلاد من مكان إلى مكان مع استلزام

البقاع المخصصة للبيع والمسالخ والمذابخ وعلى مصانع السفن يضاف إلى ذلك احتكار بعض المواد كالشب ودار الضرب ودار الطرز ودار العيار ودار الاحباس.

فلا غرو والحالة هذه أن تكون مداخيل الدولة الفاطمية مداخيل عظيمة تفوق بلا شك موارد الدول العربية السابقة إلا أن الفاطميين لم يكونوا من الملوك الذين يقترون في ميدان الانفاق بل انهم جعلوا من الرياء والتظاهر وحب البهرج قاعدة من قواعد سوس الدولة وكان الخليفة الآمر يطرح الدنانير على الناس من الشباك وكانوا جميعاً يكثرون البذل والأعطيات للجواري والمغنين والشعراء ولكن بيت المال كان محل نزيف رهيب من جراء الرواتب المالية المبذولة للجيش العرمرم من الموظفين لهم ولأبنائهم وأزواجهم وإخوانهم وأصهارهم وذلك بالاضافة إلى الأعطيات القارة والهدايا من أطعمة والبسة وغير ذلك مما جاء مفصلاً في صبح الأعشى والمقريزي، على أن ذلك يشكل معياراً دقيقاً لثروة مصر العامة وسعتها ومرآة للازدهار الاقتصادي الخارق الذي عمر القاهرة منذ تأسيسها وإن ازدهار الزراعة بمصر قد ازداد أشواطاً على ما كان عليه منذ أسس الخليفة المعز لدين الله القاهرة إذ حرص على شق مساحات كبيرة من الأرض كانت جدباء بشبكة ثخينة من الخلجان والأبحر والترع والجسور وتعددت في ايامه مقائيس النيل لرقابة سيله واتخاذ الاحتياطات المحكمة لتفادي المكروه واتقائه ورتبت الاراضي حسب نوعها لتزرع بأنواع البقول والغلال الصالحة لها كما رتبت الزراعة لتكون المحاصيل متوزعة على كامل العام الشتوية منها والصيفية وقد عني الفاطميون بصورة خاصة بزراعة الفواكه من كرم وتين وتفاح وتوت ولوز وخوخ ومشمش ونخل وموز وبالرياحين من ورد ونرجس وياسمين وفل وقرنفل كل ذلك على نسق ما كانوا يتعاطونه في البلاد التونسية في برج عريف وهيبون بضاحية المهدية وبمختلف المنيات التي كانت بضواحي القيروان مثل جلولا وسردانيا والمعروف أن من هذه الأخيرة قد شد المعز لدين الله الرحال إلى القاهرة، ومن جملة انواع الليمون التي أوجدت في مصر ــ على حد قول المقريزي ــ ليمون يقال له التفاحي يؤكل بغير سكر لقلة حموضته ولذة طعمه وكذلك كان فيها ما يسمى بالليمون الشتوي والليمون السائل.

وكان أحسن التفاح بمصر التفاح المسمى بالشامي وكان مضرب المثل في الحسن، كما قال السيوطي في حسن المحاضرة وأما قصب السكر فليس هناك من الاخباريين من ذكره بالنسبة إلى عهد الفاطميين الأول إلا أن الكميات الهائلة من أوراق البردي التي كانت رائجة بمصر قبل ظهور الكاغد دليل قاطع على وفرة قصب السكر بمصر قبل الفاطميين وبعدهم على أن هذا القصب قد زاد وفرة ورواجاً في أيام الفاطميين بصورة محسوسة حتى قال المؤرخ ناصر خسرو (حوالي عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)، في ذلك ما يلي: «وتنتج مصر عسلاً كثيراً وسكراً».

ومن فلاحة مصر الكيماوية للتلوين النيلة والقرمس والزعفران وهي فلاحة رقيقة تستدعي الخبرة والصبر، هذا ومن المعلوم أن فلاحة مصر قوامها ماء النيل فكان توزيعه معقداً متشعباً ولكنه مبني على قاعدة لا تقبل النزاع وهي أن الماء لا يجوز بيعه أو شراؤه فلم يكن جائزاً للأفراد أو للدولة أن يجعلوا من الماء بضاعة للكسب أو للاتجار وقد وفر الفاطميون الانتفاع بماء النيل بربط سدين وذلك منذ صدر دولتهم بالقاهرة وهما سد عين شمس وأسلفه سد سردوس، وقد بني سد عين شمس بالحلفاء والتراب وكان يقام قبل زيادة النيل فإذا اقبل السيل رده السد وعلا الماء فسقى ما وراء السد من ضياع وقد عرف هذا السد أيضاً بخليج أمير المؤمنين.

ولمصر ميزة في تربية الدواجن وخصوصاً في تربية الدجاج بالترقيد الصناعي على النحو المتعارف اليوم والذي يسرته وسائل التكنكة العصرية المتقدمة والظاهر أنها طريقة لم يستعملها غير المصريين في ذلك العهد.

وقد فاقت الصناعات المصرية جميع الصناعات المعروفة في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط وذلك لأن القاهرة بوصفها عاصمة الخلافة قد جلبت إليها من مختلف العواصم التابعة لها أمهر الصناع فتدعم

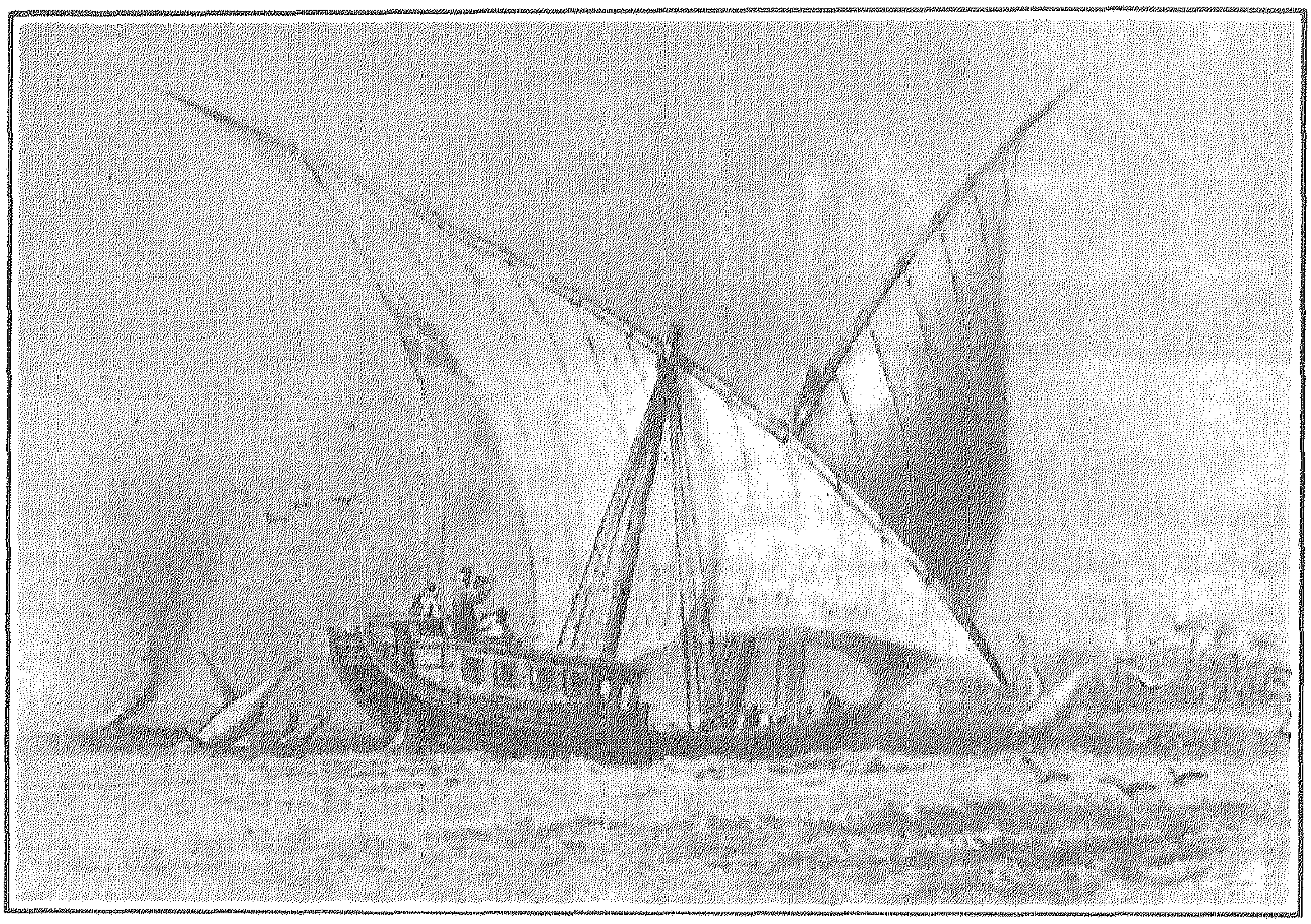

□ الرحيل من القاهرة القديمة / لبارليت.

بذلك ساعد طوائف الصناعات المصرية الأصيلة، فمن المعروف مثلاً أن القائد جوهر عندما خرج من القيروان لبناء القاهرة لم يكن مصحوباً فقط بالجنود والعتاد الحربي، بل كان معه النخبة من أهل الصنائع وأنفس النفيس من التحف المصنوعة في صبرة المنصورية عاصمة الفاطميين بإزاء القيروان. ولنتصور إلى تلك الربعة الصغيرة البديعة الصنعة المحفوظة في المتحف الأثري بمادريد والتي تحمل كتابة مرصعة بالعاج تفيد أنها صنعت في صبرة المنصورية وأنها صنعت برسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمي مع تاريخ سابق لنقلة الخلافة إلى القاهرة، ويفيدنا وجود هذه التحفة الفريدة اليوم في بابها أن مثلها قد كان يصنع في القيروان بالعشرات وأن البعض منه قد نقل إلى المشرق في حقائب جوهر وحقائب المعز وعليه فلنحث الباحثين على التروي عندما ينعتون فريقاً من التحف بأنه فاطمي وأن يتساءلوا هل هو فاطمي من الطور القيرواني أو من الطور المشرقي. كما يتعين على الباحثين إمعان النظر في نوعية الزخارف لأن الطورين يمتازان كل على حدة بميزاته الفنية. فالفن التونسي على جودته لا شك وأنه تطور في بيئته الجديدة وتكيف فخرج بذلك نوعاً ما عن أشكاله ومظاهره الأصلية فلا شك أن إعادة النظر في التحف الفاطمية الموزعة في متاحف الدنيا سوف تفيدنا الافادات الجمة للتفرقة بين فصيلتين من الانتاج الفني الرائع بدل فصيلة واحدة.

وعلى كل فإننا لا نتردد لحظة عن إعادة ما سبق الافصاح به وإن الانتاج الفني المصري في عهد الفاطميين قد كان أبدع وأروع إنتاج عصرهم وقد تناول مختلف الفنون ومختلف المواد.

فقد ازدهر النسيج على اختلاف أنواعه من نسيج الكتان الرفيع الذي كان يصنع بالفيوم ونتيس ودمياط وشطا ومن المنسوجات الحريرية النفيسة المصنوعة بدبيق وقد اشتهرت بالثياب الدبيقية ومنها العمامة الدبيقية المذهب ومنها أيضاً كانت تصنع كسوة الكعبة المشرفة وقد أقام المعز لدين الله دار الكسوة ومنها كان يلبس الأمراء وكبار القوم من البلاط الخلافي وكانت

□ القصر الفاطمي العربي ــ حفر على الخشب.

الأقمشة الرائجة في ذلك العصر محلاة ومطرزة بالذهب والفضة مع مختلف أنواع الزخارف والكتابات الجيدة الرائعة الحاملة لمعلومات تاريخية على غاية من النفاسة.

وقد كان الخشب قليلاً في مصر فكانت السلطات الفاطمية تحتكر جميع الأخشاب الواردة عليها من أي بلاد، وأن شغل الدولة الشاغل هو بناء السفن وتدعيم الأسطول التجاري والحربي بالاكثار المطرد بعددها. وقد بنى المعز لدين الله دار صناعة بالمقس صنع فيها ٦٠٠ سفينة على وتيرة واحدة وكان الخشب يرد من صقلية ومن أوروبا عن طريق سفن البندقية بالرغم من معارضة امبراطور الروم الذي كان لا يرتاح لنمو أسطول مصر بهذه السرعة، وفي غير الأسطول كان الخشب يستعمل في شتى المآرب ولكنه كان مادة سهلة الاستعمال قد يسرت أنواعاً من الصناعات الفنية كالحفر والنقش والترصيع والتطعيم وفي متحف القاهرة للفنون الاسلامية نماذج رائعة لهذه الفنون وخصوصاً المحراب الفاطمي المجلوب من جامع الأزهر.

ولقد عني صناع القاهرة بصناعة الجلد التي حذقوها وأخذوا شيئاً عظيماً من فنون دبغها وتهيئتها عن الأقوام الصحراوية التي استوطنت مصر ولنلاحظ من بين منتوجات الجلد التي يتجلى فيها منتهى الابداع صناعة الكتب، من أوراق الرق الملونة أو الناصعة البياض ومن دفات مجلدة الكتب تحمل أنواع الزخارف وقد ضاعت معظم مجموعات التجاليد الفاطمية المشرقية وبقيت المجموعات الفاطمية التونسية على حالها الأول وعددها بضع عشرات.

وتتمثل البقايا من المصنوعات الزجاجية الفاطمية في مجموعات من القناديل والمشكاوات وفصوص الزجاج والشمسيات والقوارير ومختلف الأواني ولكن هناك مجموعة من البللور الصخري تمتاز عن الكل بالصفاء والرقة والمعروف أن هذا البللور الصخري قد كان يجلب من بلاد المغرب وكما كانت صبرة المنصورية مركزاً ممتازاً لصناعة الزجاج الفاطمي فقد أوجد الفاطميون في الشرق مراكز جديدة لهذه الصناعة وذلك في الفسطاط والأشموريين وقد برع صناع الفسطاط في زخرفة البللور بالميناء والذهب وأنواع الدهن كما حذقوا نقشه ونحته وجرده وترصيعه.

أما الخزف فلم يفت أهل مصر نوع من أنواع فنونه فمنه المطلي طلاء بالذهب له بريق المعدن ومنه الأواني الشفافة ومنه الأقداح والأزيار المنقوشة وعلب البخور والعطور والأزياد المحلاة بمختلف الزخارف فلنذكر بالخصوص تلك الأجرار الصغيرة التي جعلت لكل مصفاة متقوية بطرز فنية مختلفة.

ولصناع مصر براعة في فنون الترصيع والفسيفساء وصناعة الذهب والفضة وتحلية الأقمشة والسروج والسيوف والمصاحف وتكفيت أواني النحاس والبرنز.

وبالجملة فقد كانت القاهرة تجمع جمهرة من الصناعات الرقيقة التي كان لانتاجها رواج عظيم بالخصوص في الخارج فكان ذلك مادة ثراء خارق للبلاد ومادة مبادلة تجني من ورائها البضاعات المحتاج إليها من الأقاليم الأخرى.

وكانت التجارة المصرية تجارة نشيطة سواء أكانت في القطاع الداخلي أم في القطاع الخارجي.

أما التجارة في الداخل فقد كان قوامها الحجم الضخم للبضاعة التي تتجول كمادة خام وكمنتوج مصنوع من مركز صناعي إلى مركز تجاري وأحسن طرق هذا التجوال وأرخصها هو النيل. وفي ذلك تأثير طيب على أثمان البضاعة وتيسير اقتنائها وتنشيط صناعتها وترويجها فلا شك أنه كانت أسواق المدن المصرية وأسواق القاهرة بالخصوص أسواقاً ضاقت بالدكاكين واكتظت بالزبائن بصورة جعلت رقعتها تمتد شيئاً فشيئاً إلى أن اتخذت مساحات ضخمة وكانت القيسريات فيها والخانات تزداد يوماً بعد يوم لايواء التجار القادمين من الخارج وخزن بضاعتهم وبيعها بالجملة لتتوزع على صغار التجار.

وأما التجار الأوروبيون من أهل بيزة وأمالفي والبندقية وجنوة فكانوا يحلون في فنادق لهم على نسق القيسريات. فيها كنيستهم ومصرفهم ومدرستهم وحرسهم وغير ذلك مما يجعلها شبه القلاع تعيش فيها الجاليات الأجنبية عيشة الانفراد عن سكان مصر متى أراد أهلها الانفراد.

هذا ولما كانت التجارة والصناعة في داخل البلاد مرتبطة الارتباط الكلي بما يرد إليها من بضاعة خارجية وما يصدر منها إلى الخارج من بضاعة داخلية بقي لنا أن نستعرض قليلاً مشكل العلاقات بين مصر الفاطمية والعالم الخارجي.

العلاقات الاقتصادية بين القاهرة والأمم الخارجية

لقد لاحظنا أن موقع القاهرة في مفترق الطرق بين الشمال والجنوب وبين الغرب والشرق قد جعلها في المحور الرئيسي الذي كان يدور حوله دولاب التجارة العالمية فكانت القاهرة نقطة التجمع للبضاعة الآتية إليها مركزاً لصنعها وكانت أيضاً المنطلق لترويجها وتوزيعها في البلدان الراغبة في اقتنائها وذلك إما غرباً وإما شمالاً، فهناك غرباً سلسلة من الموانىء تشتمل على الاسكندرية فبرقة فطرابلس فالمهدية وكانت هذه أعظم الموانىء المذكورة جميعاً قبل تأسيس القاهرة منذ كانت المهدية عاصمة الفاطميين الحرية، وكانت السلسلة تمتد إلى الأندلس عبر المغرب الأوسط والمغرب الأقصى مؤلفة في ذات الوقت طريقاً بحرياً للحج وكان الحج إلى بيت الله الحرام هو الباعث على هذا النشاط الاقتصادي والمحرك لتجوال السفن بين مختلف السواحل المغربية والضمان لدوامه واستمراره وإلا فإن المنافسة الشديدة التي كانت بين الفاطميين والأمويين وأخلافهم بالأندلس سريعاً ما كانت لتقوم عرقلة في سبيل التبادل التجاري بين القاهرة وقرطبة ثم بين القاهرة وبعض عواصم الطوائف كبلنسية وغرناطة وإشبيليا التي كانت توزع هي بدورها البضاعة الواردة إليها من المشرق إلى مختلف العواصم الأوروبية وكانت تشتمل هذه البضاعة على العطور والابزار والتوابل والقمارى وخشب الساج والجوهر والياقوت والماس والعقيق وأنواع البخور وكانت السفن تعود من الأندلس إلى القاهرة وقد تزودت بالخشب الطرطوشي والفضة والزئبق، وعند مرورها بالموانىء المغربية كانت تتزود بالقمح والشعير والتمور والصوف والعسل وزيت الزيتون وخصوصاً زيت مدينة صفاقس التونسية ومن الموانىء الساحلية الجزائرية والتونسية كان تصدير المرجان الرفيع والاسفنج والحرير والخفاف وأنواع من الفواكه وخصوصاً

تفاح جربة وقابس ومنها كان أيضاً تصدير البضاعة الواردة إليها من الصحراء وبلاد السودان كالعاج والتبر وكذلك الرقيق الأسود الذي منه الكثير في قصور الخلفاء والجيش.

وكانت الطريق المتجهة من القاهرة غرباً تنعرج أحياناً شمالاً وتتصل مباشرة بصقلية أو تنعكس نحوها بعد أن وصلت إلى المهدية وذلك طالما كانت صقلية مملكة تابعة للفاطميين، فلما امتلكها ملوك النرمان في الربع الأخير من القرن الخامس هـ (الحادي عشر م) انقطعت الصلة مدة بهذه الجزيرة حتى ربط ملوكها علائق تجارية منتظمة فكانت هذه الأخيرة تستورد الخشب الصقلي النفيس لصنع السفن من شيء من قمح الجزيرة وفاكهتها ومعادنها يضاف إلى ذلك أنواع من الأقمشة الحريرية كانت محل اعتبار عظيم في مصر.

وشمالاً كانت للقاهرة علاقات تجارية نشيطة جداً مع مختلف الجمهوريات الايطالية وبالخصوص مع جمهورية المالفي وبيزا وجنوة

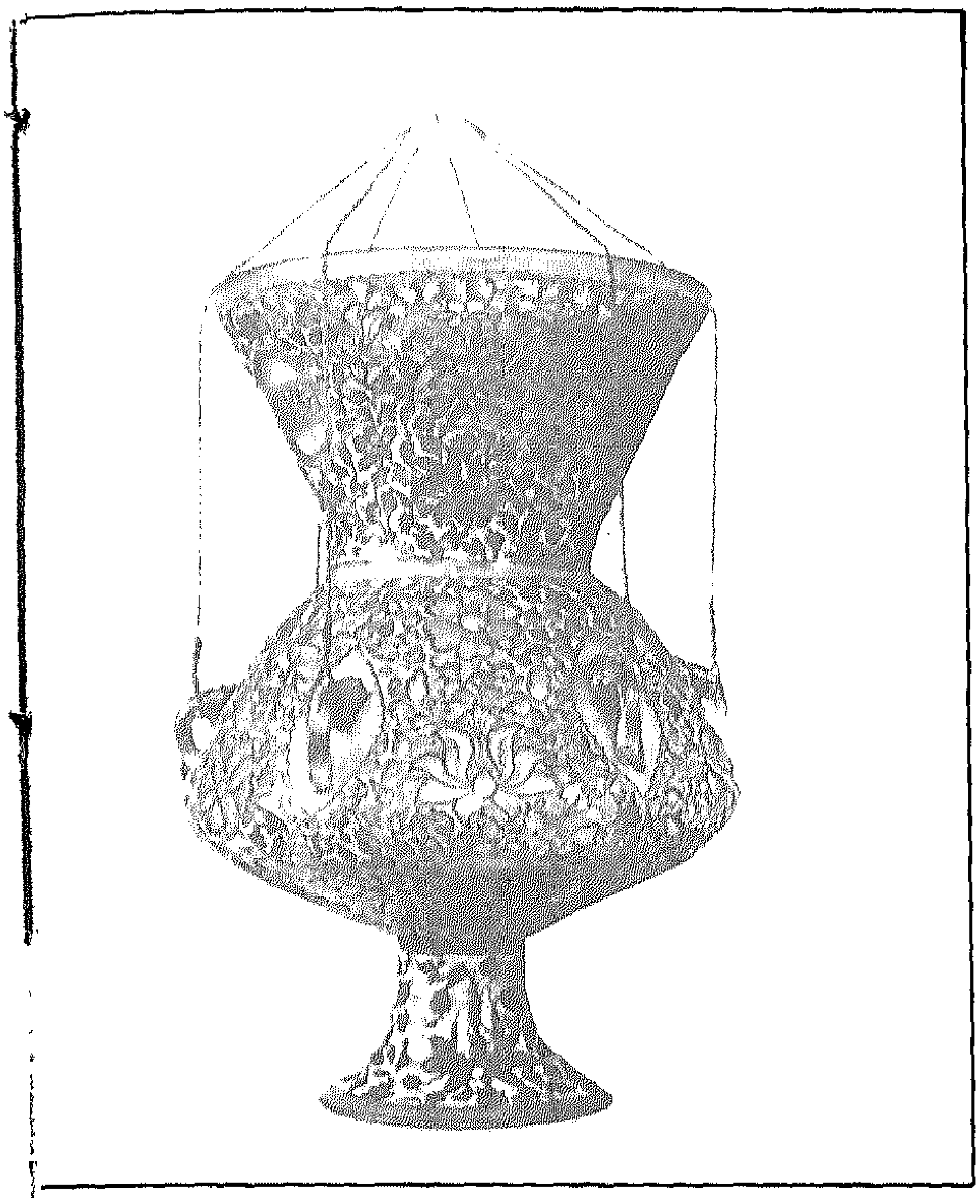

□ مشكاوات إسلامية مصرية.

□ تاجر جوال.

والبندقية فكان لتجارة هذه الدويلات فنادق كثيرة في الاسكندرية وفي الموانىء الشامية التابعة للامبراطورية الفاطمية وخصوصاً في انطاكية وكان حرص التجار الأوروبيين عظيماً على تواصل العلاقات الطيبة مع مصر لا من حيث الحفاظ على الخيرات المغدقة عليهم فقط ولكن أيضاً للتمتع بإمكانية الزيارة لبيت المقدس بدون حرج، وكانت السفن الايطالية تحمل على السواء إلى المشرق البضاعة والحجيج النصارى. أما البضاعة المصدرة على متن هذه السفن فكانت تشتمل على أنواع من المصنوعات اليدوية من نسيج وأوان وبالخصوص الخشب.

وكانت بيزنطية توصي وتلح على جمهورية البندقية أن لا تستعمل سفنها لحمل الخشب إلى مصر وذلك خوفاً من أن يتدعم بذلك الأسطول الفاطمي ولكن البندقية لم تذعن إلى ذلك. قصارى ما في الأمر أنها قصرت في طول هذا الخشب، وكانت هذه الجمهوريات حريصة على تقديم شواهد الود لأصحاب القاهرة كما كانت

شديدة التنافس فيما بينها وذلك لما كانت تجنيه من أرباح خارقة من ترويج بضاعة المشرق في البلاد الأوروبية.

ولم يكن نشاط سفن مرسيليا وسكان بروفنسا بجنوب فرنسا دون نشاط الجمهوريات الايطالية. وقد أبهر البلاد الأوروبية مدى الخيرات التي تزخر بها الموانىء الاسلامية فأدى بها الجشع والطمع في الاستحواذ عليها والاستئثار بها إلى القيام بالحملات الصليبية المعروفة فكان ظاهرها فسح المجال في وجه الحجيج النصارى إلى بيت المقدس وكانت في الباطن عمليات استعمارية ترمي إلى احتكار البضاعة التي كانوا يقتنونها عن طريق موزعيها المسلمين والحلول محلهم لتوزيعها بعد أن يضعوا يدهم على بعض البلاد الاسلامية كي تمكنهم من بلوغ نقاط وصول البضاعة الشرقية كأيلة وجدة في البحر الأحمر وعدن على أبواب المحيط الهندي، هذا من جهة ومن جهة أخرى الفوز بالوصول إلى أبرز سوق تجارية تربط عن طريق البر افريقيا بآسيا وبأوروبا وهي بغداد عقدة المسالك من الهند ومصر والشام إلى دول البلقان وروسيا إلى بخاري وسمرقند والصين، وقد كانت محاولات النصارى أيام عنفوان الدولة الفاطمية محاولات لا تفوت السعي لنيل الامتياز والظفر بإذن التجول والبقاء في منطقة من ترابها حتى بدت عليها علائم الضعف فتجرأ الجانب الأوروبي وأقبل على عمليات الفتح للسيطرة على هذا التراب بحد السيف، وقد نجحت الخطة الحربية الصليبية نوعاً ما فاحتل الصليبيون سواحل الشام مدة من الزمن ولكنهم لم يظفروا لما كانوا عولوا على اجتنائه من الناحية الاقتصادية إذ بقيت القاهرة بعد زوال الفاطميين طوال أيام الأيوبيين والمماليك مسيطرة على احتكار الخيرات الواردة من المشرق تاركة توزيعها نحو البلاد الأوروبية — على نحو ما كان العمل به من ذي قبل — إلى سفن الجمهوريات الطليانية.

ومن الدول العظمى المجاورة لمصر والتي كانت لها علاقات متواصلة مع

□ السقا.

□ صانع السلال.

هذه نذكر بيزنطية وكانت هذه العلاقات تمر بين الفينة والأخرى بأطوار حسنة للغاية تعقبها أطوار تصادم ونزاع وفي الجملة فإن الروم البيزنطيين كانوا شديدي الرغبة في المصنوعات المصرية الرقيقة من نسيج ومجوهرات كما كانت مصر تحتاج إلى الفراء المجلوب من البلاد الروسيّة وإلى غلال هضبة الأناضول.

ولم تفتر الدولة الفاطمية في السعي للوصول إلى بغداد لا لزحزحة الخلافة العباسية عنها فقط، بل وبصورة أوكد لوضع يدها على سوق تجارية عالمية من أبرز الأسواق وأغناها.

ولنلق الآن نظرة على الأمم الواقعة في جنوب مصر فهذه بلاد «النوبة» وكان ملوكها يكنون المودة للقاهرة سالكين معها سلوكاً مرضياً يتفق ومبادىء حسن الجوار اتفاقاً كلياً فكانوا يشترون منها الأقمشة وأدوات الزينة، وكانت السفن المبحرة من الحبشة وزنجبار تحمل إلى مصر أنواع الخشب النفيس والعاج والتبر والماس وذلك بدل المصنوعات اليدوية المصرية، هذا ومعظم أصناف الرقيق التي كانت تدخل القاهرة إنما كانت من بلاد النوبة وبلاد الأحباش.

وأما الضفة الشرقية من البحر الأحمر فكانت عليها بشواطىء الجزيرة العربية مرسى جدة وهو محط الحجيج للمسلمين القادمين عن طريق أيلة والقلزم وعيذاب، ويلي مرسى جدة في الجنوب مرسى عدن الذي كان في مثابة باب مفتوح بين البحر الأحمر والمحيط الهادي ومنه كانت تمر السفن والقوافل المحملة بالتوابل المجلوبة من سواحل ملبار وجزر الهند الشرقية وجزر الملايو والعطور والند والكافور والعنبر الخام زيادة على أنواع البخور النادرة التي تمتاز بإنتاجه جزيرة جاوة مع العود الصيني وكافور زنجبار والقمارى المجلوب من سيلان والهند الصينية.

ومن هذه الحوصلة عن علائق القاهرة بالعالم الخارجي يتضح جلياً أن هذه العاصمة الفاطمية قد كانت محوراً رئيسياً للتجارة العالمية ووسط الدائرة الذي تلتقي فيه وتشع منه جميع تيارات النشاط الاقتصادي في عصر من عصورها الزاهرة. •

جرير وجارية الحجاج (*)

نزل جريرٌ على عَنْبَسَةَ[1] بن سعيد بواسط، ولم يكن أحدٌ يدخلها إلا بإذن الحجَّاج، فلما دخل على عَنْبَسَة، قال له: وَيْحَك! لَقَدْ غرّرت بنفسك، فما حملك على ما فعلت؟ قال: شِعْرٌ قلته اعْتَلَجَ في صدري، وجاشَتْ به نفسي، وأحببتُ أن يسمعه الأمير. فعنفه وأدخله بيتاً في جانب داره، وقال: لا تُطْلِعَنَّ رأسك حتى ننظرَ كيف تكونُ الحيلةُ لك.

ولم يلبث أن أتاه رسولُ الحجاج من ساعته يدعوه في يوم قائظ، وهو قاعد في الخَضْرَاء[2]، وقد صُبَّ فيها ماء استَنْقَع[3] في أسفلها، وهو قاعد على سرير، وكرسيٌّ موضوعٌ ناحية.

قال عنبسة: فقعدتُ على الكرسيّ، وأقبل عليّ الحجاج يحدثني، فلما رأيتُ تطلُّقه وطيبَ نفسه قلتُ: أصلح الله الأميرَ! رجل من شعراء العرب قال فيك شِعْراً أجاد فيه، فاستخفه عَجَبُه به حتى دعاه إلى أن رحل إليك، ودخل مدينتك من غير أن يُستَأْذن له. قال: ومَن هو؟ قلت: ابنُ الخَطَفَي. قال: وأين؟ قلت: في المنزل. قال: يا غلام، فأقبل الغِلْمَانُ يتسارعون. قال: صفْ لهم مَوْضعه من دارك؛ فوصفت لهم البيتَ الذي هو فيه.

فانطلقوا حتى جاؤوا به، فأُدْخل عليه وهو مأخوذ بضَبْعَيْه[4] حتى رُمِي في الخَضْراء، فوقع على وجهه في الماء، ثم قام يَنْتَفِش كما يتنفَّش[5] الفرخ. فقال له: هيه! ما أقدمك علينا بغير إذننا؟ لا أمَّ لك! قال: أصْلَحَ الله الأميرَ! قلتُ في الأمير شعراً لم يقل مثلَه أحدٌ؛ فجاشَ به صَدْري، وأحببت أن يسمعه مني الأميرُ، فأقبلتُ به إليه.

فتَطلَّق الحجَّاجُ وسكَن، واستنشده، فأنْشَده، ثم قال: يا غلام، فجاؤوا يَسْعَوْن. فقال: عليّ بالجارية التي بَعث بها إلينا عاملُ اليمامة؛ فأُتِي بجاريةٍ بيضاءَ مَديدةِ القامةِ. فقال: إن أصبْتَ صِفَتَها فهي لك. فقال: ليس لي أن أقولَ فيها وهي جاريةُ الأمير. فقال: بلى، فتأمَّلْها واسألها؛ فقال لها: ما اسمكِ؟ فأمسكت. فقال لها الحجاج: خَبِّريه، فقالت: أمامة، فأنشأ:

وَدِّع أُمامةَ حَانَ منك رحيلُ
إن الوداعَ لمن تُحِبُّ قليلُ
مثلُ الكَثِيبِ تمايَلَتْ أعطافُه
فالريحُ تَجْبُرُ متنَه وتهيلُ
هَذِي القلوب صواديـاً تَيَّمْتِها
وأرى الشفاءَ وما إليه سبيلُ

فقال الحجاج: قد جعل الله لكَ السبيل إليها، فخُذْها فهي لك. فضرب بيده إلى يَدِها، فتمنعت عليه، فقال:

إن كان طِبُّكم[6] الدلالُ فإنه
حسنٌ دلالُك يا أمامَ جميلُ

فاستَضْحَك الحجاج، وأمر بتجهيزها معه إلى اليمامة.

وكانت من أهل الريّ، وكان إخوتها أحراراً، فاتبعوه، فأعطوه بها حتى بلغوا عشرين ألفاً فلم يقبل ●

(*) الأغاني:٨ — ٧٥، الكامل:١ — ٣١٢.

(١) هو عنبسة بن سعيد بن العاص أحد أشراف بني أمية، حبسه عبدالملك بن مروان يوم قتل أخيه عمرو بن سعيد الأشدق.

(٢) الخضراء: يُراد بها خضراء واسط، وتعرف بالقبة الخضراء بناها الحجاج مع قصره في هذه المدينة.

(٣) استنقع الماء: اجتمع.

(٤) الضبع: العضد كلها أو وسطها بلحمها.

(٥) تنفش الطائر: نفض ريشه.

(٦) الطب: المذهب، والدلال: الدالة.

نساء شهيرات

فيجـايا لاكشمي بانديت

قسم التوثيق والأبحاث

«على المرأة أن تعمل على الحؤول دون وقوع حرب ثالثة، على نشر راية السلم والحق في العالم، وعلى بنـاء عالم أفضل».

هذا ما تقوله دبلوماسية الهند الأولى فيجايا لاكشمي بانديت وشخصية عام ١٩٥٣ في العالم، إذ أنها ترأست الدورة الثامنة للجمعية العمومية في منظمة هيئة الأمم. وقد فازت السيدة العظيمة بهذا المنصب في الخامس من أيلول عام ١٩٥٣، بالأقتراع السري وبأكثرية الأصـوات، ففازت بفوزها الهند ونالت أكبر شرف يمكن أن تمنحه هذه المنظمة الدولية. كان من أهم ما تميز به هذا الأختيار، التأييـد الكبير الذي نـالته السيـدة بانديت، لا من الكتلة العربية الأسيوية الممثلة في هيئة الأمم، ولا من دول الغرب فحسب بل من جانب الولايات المتحـدة والأتحاد السـوفييتي أيضاً... لقد ذاع نبأ انتخابها في العالم كله وأتى دليلاً على أن بـين نسـاء عصرنا عظيمات من الشرق متفوقات من طراز جديد...

ولدت فيجايا لاكشمي في ١٨ آب سنة ١٩٠٠ في بيت آل نهـرو الكبير فأطلق أبوها عليها أسم (سواروب) أي الجميلة وهي شقيقة جواهر لال نهرو زعيم الهند ورئيس وزارئها. كان أبـوها محامياً ثرياً ووطنياً معروفاً بجهاده وإخلاصه فتفتحت عينها وذهنها عـلى جو وطني يفيض بالحماسة ويزخر بالمبادىء الروحية والقوميـة المثلى فتشربت منذ طفولتها هذه المبادىء...

بدأت عملها السياسي وهي في الثامنة من عمرها إذ كانت تستمع إلى المناقشات التي تدور في بيت أبيها وبوجود أخيها جواهر لال أبـان حركـة النضال القومية وكان الزعماء السياسيون على صلة دائمـة بهذا البيت يقصـدونه للمداولة والنصـح...

ولما أطلق المهاتما غاندي صيحة الدعوة إلى النضال في سبيل التحرر من الأستعمار كانت الزعيمـة الصغيرة قـد نضجت وأصبحت على استعداد لخوض المعركة والكفاح من أجل قضية بلادها...

تزوجت عام ١٩٢١ بمحام شاب من المناضلين اسمه بانديت... ونزولاً عند التقاليد الهندية، أطلق عليها اسم فيجايا لاكشمي ومعناه آلهة النصر... وكان السيد بانديت عالماً معروفاً ويعتبر من ألمع رجالات الهند وأكثرهم بغضاً للأنكليـز وحقداً عليهم... ولكن لم تنقض شهور على اقترانهما حتى قـذف به الأنكليـز بين جـدران السجن فأقسمت الزوجة الثائرة على أن تمضي في الكفاح الذي بداه أبوها وشقيقها من قبل، تحت لواء الزعيم الكبير غاندي... الذي أثرت مبادؤه على حياة السيدة بانديت وقد تمكنت فيجايا لاكشمي أن تربط بين القيم السياسية والأخلاقية في كل مواقف حياتها السياسية، فعندما تولت رئاسة وفد بلادها لدى هيئة الأمم عام ١٩٤٦، برهنت عن وجهت نظرها هذه يوم ألقت خطاباً مؤثراً نددت فيه بسياسة التفرقة العنصرية وعرضت فيـه المأساة بكثير من الكبرياء والهدوء، ومما قالته:

— «لو عاد المسيح إلى الأرض وزار جنوب أفريقيا لحرموا دخوله إليها وعاملوه كأي مهاجر...»».

قضت فيجايا لاكشمي في السجن مدة عامين

وتسعة أشهر في فترات مختلفة أولها ستة عشر شهراً ثم سبعة أشهر وأخيراً أحد عشر شهراً عندما اكتشف الأنكليز أنها أشتركت في المؤامرة التي حاكها الزعيم مهاتما غاندي ضدهم... قامت يومئذ بحملة خطابية عنيفة... وهي كانت أول مرة تصعد فيها إلى المنبر وتخطب ساعة كاملة وتهز الجماهير.

تقول السيدة بانديت:

ــ «لم تكن عندي فكرة واضحة عما أنوي أن اقوله... كانت لحظة من أحرج لحظات حياتي، وفجأة حدث شيء ما ... شعرت بأن الجموع المحتشدة إنما هي قطعة من نفسي. وأننا أصبحنا قوة خفية هائلة... فاندفعت الكلمات وراحت تتدفق بسرعة وحماسة تعبر عن إيماننا كلنا بالحق والعدل وعن ثورتنا على الظلم والأستبداد...».

إن السيدة بانديت أم لثلاث بنات... ومع أن الظروف أرغمتها فراقهن بعض الأحيان ولكنها كانت تعوض عليهن أثناء وجودها إلى جانبهن وقد ألّفت كبرى بناتها كتاباً نشرته في انكلترا باللغة الأنكليزية عام ١٩٥٧، ومن أروع ما جاء فيه قولها:

ــ «كانت أمي جميلة رائعة في كل شيء، وقادرة على أن تجعل من الغرفة الصغيرة داراً دافئة سعيدة بمجرد وجودها معنا فيها، وعلى أن تجعل من أي صنف من أصناف الطعام مائدة عامرة بمجرد اهتمامها به...».

لما وصلتا بنتا السيدة بانديت إلى نيويورك، وجدت نفسيهما وحيدين في عالم كبير، صاخب، مخيف... ووجدت نايانتارا، كبراهن، في مفكرتها التي كانت مليئة بمقاطع مختارة من خطابات أمها، مقطعا رائعاً قرأته على اختها، فاتخذته الفتاتان شعاراً لهما في المحيط الجديد...

تقول السيدة بانديت:

ــ «كلما يبرح مواطن هندي بلده إلى مختلف انحاء العالم الكبير يحمل معه قطعة من الهند نفسها، ويجب عليه أن لا ينسى هذه الحقيقة، والا يتجاهلها لأنه مسؤول في تصرفاته عن وطنه، فأما أن يجلب له الخزى والعار، وأما أن يصون ماله من كرامة واعتبار...».

وصلت السيدة بانديت إلى قمة المجد عام ١٩٤٤ يوم مثلت بلادها في الولايات المتحدة حيث ذهبت لتبسط فيها قضية استقلال الهند، فتنقلت من بلد إلى بلد، يدفعها الإيمان بحق بلادها، لتخطب في الجماهير الغفيرة التي كانت تحتشد لسماعها... وبينما كانت الدول العظمى مجتمعة في سان فرنسيسكو عام ١٩٤٥ لبحث قضية نزع السلاح وحق الفيتو وغيرها... كانت السيدة المناضلة تقف في مؤخرة قاعة الاجتماع لترفع صوت الشعوب المغلوبة على أمرها، وتطالب بحقها في الحرية والأستقلال.

ــ ولما عادت إلى بلادها فجعت بموت زوجها، المجاهد العالم الشاب فبعث الزعيم غاندي إليها برقية تعزية قال فيها:

ــ «سيتسابق الناس لتعزيتك في هذه الفاجعة ولكني لا أفعل مثلهم. لماذا؟ لأني لا أجد المناسب أن أحزن عليك، على ابنة رجل شجاع، وأخت رجل شجاع، وزوج رجل شجاع، فأنك ستجدين الشجاعة في نفسك...».

زارت السيدة بانديت مصر وسوريا ولبنان في مرات ومناسبات مختلفة وانتزعت فيها احترام الجميع وإعجابهم... ولقد أوصت النساء العربيات أبان الزيارة التي قامت بها عام ١٩٥٣ بالحفاظ على طابعهن الشرقي، وفي خطاب القته في الجامعة الأميركية ببيروت قالت:

ــ «اقتبسن حضارة الغرب وانطلاقه بقدر ما تخدمكن في تقديم قسطكن للحضارة العالمية، ولا تنسين أنكن شرقيات وأن حضارة الشرق العتيقة هي أساس جميع الحضارات».

من أهم المناصب التى تولتها السيدة بانديت إلى جانب ترؤسها الجمعية العامة لهيئة الأمم منصب وزارتي الحكم الذاتي والصحة وعضوة في المجلس التشريعي وأخيراً سفيرة لبلادها في انكلترا، وتحمل لقب المندوب السامي...

هذه هي سيرة السيدة بانديت مثال العظمة المتواضعة البناءة... إنها قصة كفاح... إنها قصة نصر. •

الكهرمان

عباس ميخائيل حدادين

□ صورة من الكهرمان الاردني.

أهمية الكهرمان

كان للكهرمان أهمية كبيرة جداً في السابق تشبه أهمية الذهب لما له من استعمالات عديدة كحلى للزينة حيث يوضع على صدور الحسان أو يستعمل بخور يحرق في المعابد والهياكل أو لعمل التحف الثمينة.

أما اليوم فأهمية الكهرمان العلمية فاقت أهميته المادية لأنه يضم في داخله حشرات مثل العناكب وتنين الجو (الرعاش) والسوس والذباب والنمل والنحل والعث والخنافس وغيرها، ثم يضم بقايا النباتات مثل الأزهار، الأوراق، البذور وغبار الطلع ويضم أيضاً فقاعات هوائية أو قطرات مائية ورماد البراكين الثائرة وغبار الرياح العاصفة القادمة من الصحراء ثم يدخل

□ عباس ميخائيل حدادين، ليسانس آداب فرع الجغرافية من جامعة دمشق، دبلوم الدراسات الاجتماعية جامعة اليرموك. عمل في المتحف الطبيعي ــ جامعة اليرموك. اكتشف الكهرمان في الأردن. له ابحاث عديدة في العلوم الطبيعية، وله كتاب العنبر الأردني.

الكهرمان هو المادة السائلة اللزجة التي تفرزها انواع من أشجار الصنوبريات (الراتنج) فتجمد على جذوع واغصان هذه الأشجار وعندما طغى البحر على هذه الغابات في الأزمنة الغابرة تحللت الأشجار إلى أتربة، وبقي هذا السائل المتجمد محافظاً على خصائصه الطبيعية ملايين السنين.

وكشف عنه بحر البلطيق الذي قذفه من جوفه عن طريق أمواجه إلى سواحله حيث يجده المصطافون.

ثم وجده الانسان عن طريق الحفريات في المناجم وعلى سطح الأرض وسمي بالأحفورة أو المستحاثة.

واهم مصادره في العالم سواحل بحر البلطيق وبحر الشمال ثم اكتشف في لبنان والأردن والدومنكان وصقليا ومنطقة سيبيريا.

يتراوح عمر الكهرمان بين ١٠ ــ ١٣٥ مليون سنة ويوجد على شكل كرات أو قطع صغيرة يتراوح أوزانها من الغرام حتى الكيلوغرام وألوانه بين الأصفر والعسلي والأحمر والبني والأزرق والأسود ومظهره بين الفاتح الشفاف حتى الداكن المعتم.

في صناعة الأدوية والحلى والتحف والسبحات.

الكهرمان عند القدماء

أول من عرف الكهرمان هم الفينيقيون حيث وجد في قبورهم على شكل حبات من الخرز. ثم استعمله الفراعنة في التحنيط وعرف باسم (الراتنج) وعرفه اليونانيون القدماء واستعملوه كمجوهرات وعرفوا فيه الكهرباء الساكنة عندما يدلك في الصوف فإنه يجذب الشعر والخيوط والأوراق الجافة. ولكن اليونانيين لم يعللوا هذه الظاهرة الكهربائية، حيث سموه (Elektron) وأخذ اسم الكترون من هذه التسمية. ومن هذا اللفظ اشتقت اسم الكهرباء في لغات الغرب فكان (Electricity) وإن اسم الكهرمان بالانجليزية (Amber) وبالفرنسية (Ambre) وتقول المصادر أن أصل هذا اللفظ هو اللفظ العربي عنبر جاءهم من إسبانيا العربية.

وفي عام ٧٧ م طلع بلني بكتابه «التاريخ الطبيعي»، وذكر أن الكهرمان من منتوجات الأشجار. ويذكر بلني أن قطعة من الكهرمان المنقوشة تشتري عبداً. وفي القرن الثاني كتب المؤرخ الروماني تاسيتوس (Tacitus) أول من وصف طبيعة تكوين الكهرمان بأنه مزيج من حامض السكسنيك (Saccinic-Acid)، وقال أن الكهرمان هو صمغ بعض الأشجار الذي يحتوي على كل أنواع الحشرات الزاحفة حول الأرض وحتى الحشرات الطائرة التي أسرت عندما كان سائلاً على الأشجار والآن هو متجمد.

وكتب عن كهرمان البلطيق الذي كان معروفاً منذ زمن قديم وقال: «للكهرمان أهمية وقيمة ثمينة عند الرومان والشعوب التي قبل الرومان حيث كانوا يقايضون به الحديد والنحاس والبرونز».

ولقد انبهر القدماء بجمال الكهرمان وشفافيته السحرية فنسجوا حوله الأساطير من حيث أصله ونشأته. فمنهم من قال بأن الكهرمان نور الشمس المتجمد، بينما قال الآخرون أنه دموع الإله، ثم عرّفه العرب باسم العنبر وأسموه لاقط التبن لأنه يجذب التبن عند دلكه بالصوف.

كيف استعمل القدماء الكهرمان

استعمله الفينيقيون كعقود للزينة واستعمله الرومان في المعابد والهياكل. ويقول المؤرخون بأن نيرون أرسل الجنود للبحث عن أماكن الكهرمان، حتى أن بعض محاربي الرومان يتخذون من الكهرمان دبابيس في ملابسهم التي يلبسونها في

المعارك واستعملوه في الطب فكان يعلق حول الرقبة لشفاء التهاب اللوزتين والحمى والأوجاع وكان مسحوق الكهرمان يعجن بالعسل للتدوي به من العدوى وضعف البصر ويستعمل مراهم للجروح وكان في التجارة يكافىء الذهب وأكثر من ذلك.

طرق تجارة الكهرمان

إن أكبر مكامن العنبر في العالم السواحل الجنوبية الشرقية لبحر البلطيق حيث استخرج منه أكثر من عشرة آلاف طن وإن أهم مكامن الكهرمان هي شبه جزيرة ساملاند (Samland) التي تمتد داخل بحر البلطيق شرقي نهر الفيستول وهناك مكامن أخرى على شواطىء هذا البحر بين نهري الألب والأودر وعلى الشاطىء الغربي من الدنمارك.

كما توجد مكامن أخرى على الشواطىء الجنوبية من سكانديناڤيا.

يغسل بحر البلطيق الكهرمان ويرمي به على الشاطىء فيجده الناس في رمال الكثبان، وقد عثر على الكهرمان في مقابر وحفريات تمت في جنوب وشرق أوروبا وهذا يعني أنه نقل من الشمال إلى الجنوب وإلى ما بعد أوروبا الوسطى وذلك عن طرق بقيت مستخدمة حتى عهد الرومان، ويوجد خمس طرق للكهرمان:

١ ــ طريق يمر من جوتلاندة ومصب نهر الألب عبر وديان نهر الرين والرون ليصل حتى مدينة مرسيليا على شواطىء البحر الأبيض المتوسط.

٢ ــ طريق يمر من وادي نهر الألب وبوهيميا ومورافيا إلى وادي نهر الدانوب حتى ينتهي إلى سهل البندقية.

٣ ــ طريق يبدأ من مصب نهر الفستول ويتبع وادي هذا النهر حتى منعطف (Bydgosesc) ثم يتبع نهر الوارتا فنهر الأودر ويقطع سيليزيا العليا ويتصل بالطريق السابق في منطقة (Pannonie).

٤ ــ الطريق الرابع عند الطريق السابق ويتبع نهر الفستول حتى المصاطب العليا في منطقة غاليسيا ثم يهبط نحو البحر الأسود عبر وادي الدنييستر.

٥ ــ طريق من ساملاند ويتبع نهر النيمن ثم ينحرف نحو الجنوب ويتبع الدنيبر حتى موقع مدينة كييف ثم يهبط نحو الجنوب وعبر السهوب المحيطة بالبحر الأسود ليصل إلى قرب المركز

□ منمنمة من الكهرمان دقيقة الصنع (ارتفاعها ٩,٥ س.م.) تصوّر احتفاء الرعاة بميلاد يسوع المسيح. صنعت حوالي عام ١٦٥٠ في شمال شرقي المانيا.

التجاري الكبير أولبيا.

نجد أن الكهرمان كان ينقل إلى مسافات بعيدة شأنه شأن أي سلعة أخرى مثل التوابل والقصدير والفضة والعاج والسكر والملح.

فقد لعبت تجارة الكهرمان دوراً هاماً على المراكب المنطلقة من البحر الادرياتيكي والبحر الأسود باتجاه جنوب إيطاليا واليونان وشمال افريقيا وبلاد المشرق ومصر وكانت هناك حركة تجارية منتظمة أقدم عهداً على البر والبحر ولا تقف عند حدود الشرق الأدنى وشمال أفريقيا وأوروبا وإنما تتجاوزها إلى مناطق أبعد من هذا بكثير، يذكر منها آسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا والشرق الأقصى وكذلك في مناطق مختلفة من شرق افريقيا وغربها.

فوائد الكهرمان العلمية

إن الكهرمان إحفورة أو مستحاثة تضم في جوفها نباتات وحشرات ومواد أخرى أختزنت

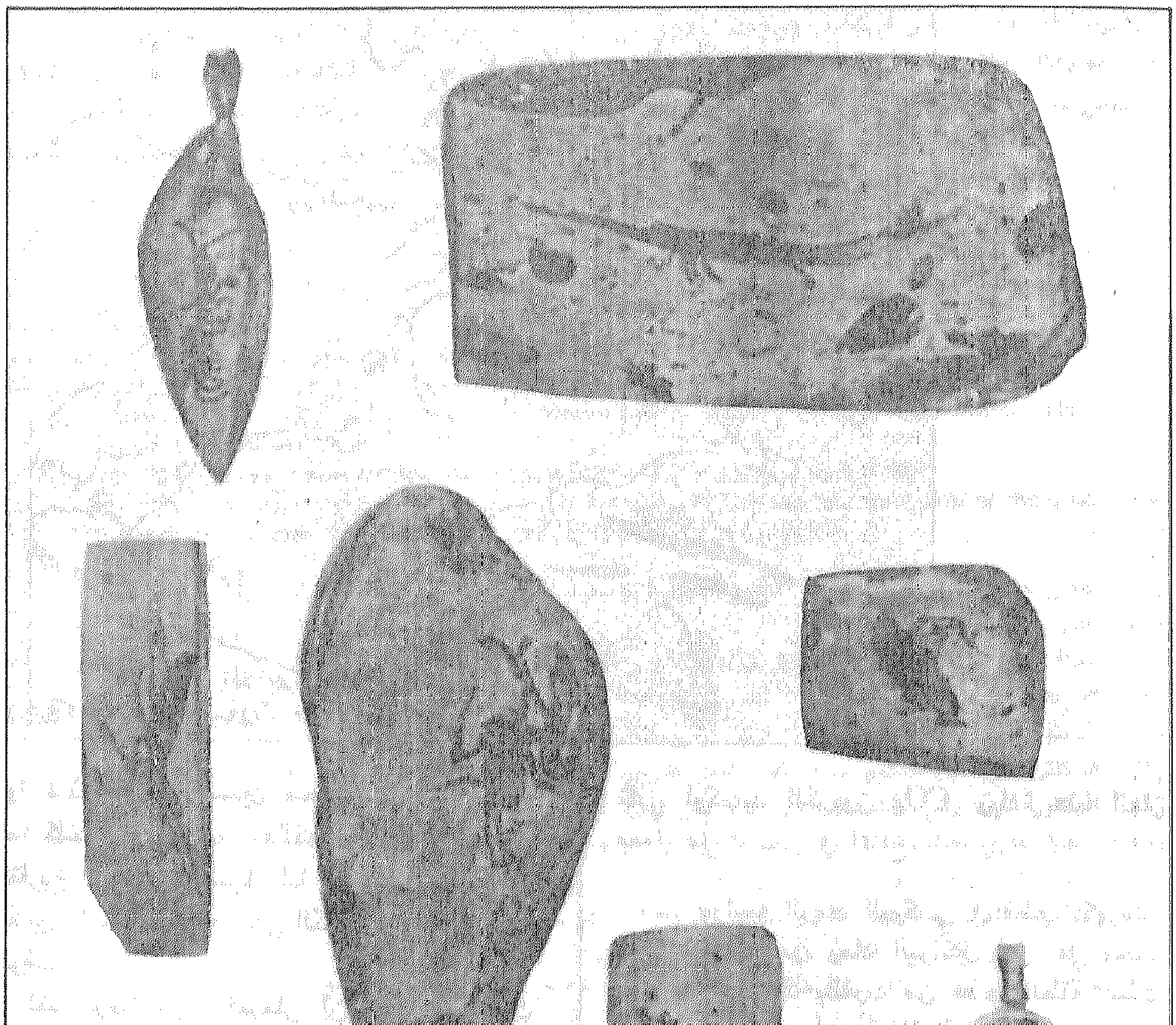

□ صورة لحشرات وحيوانات، ونباتات وقعت في الكهرمان. «من مجلة العربي، عدد ١٩٤، عام ١٩٧٥».

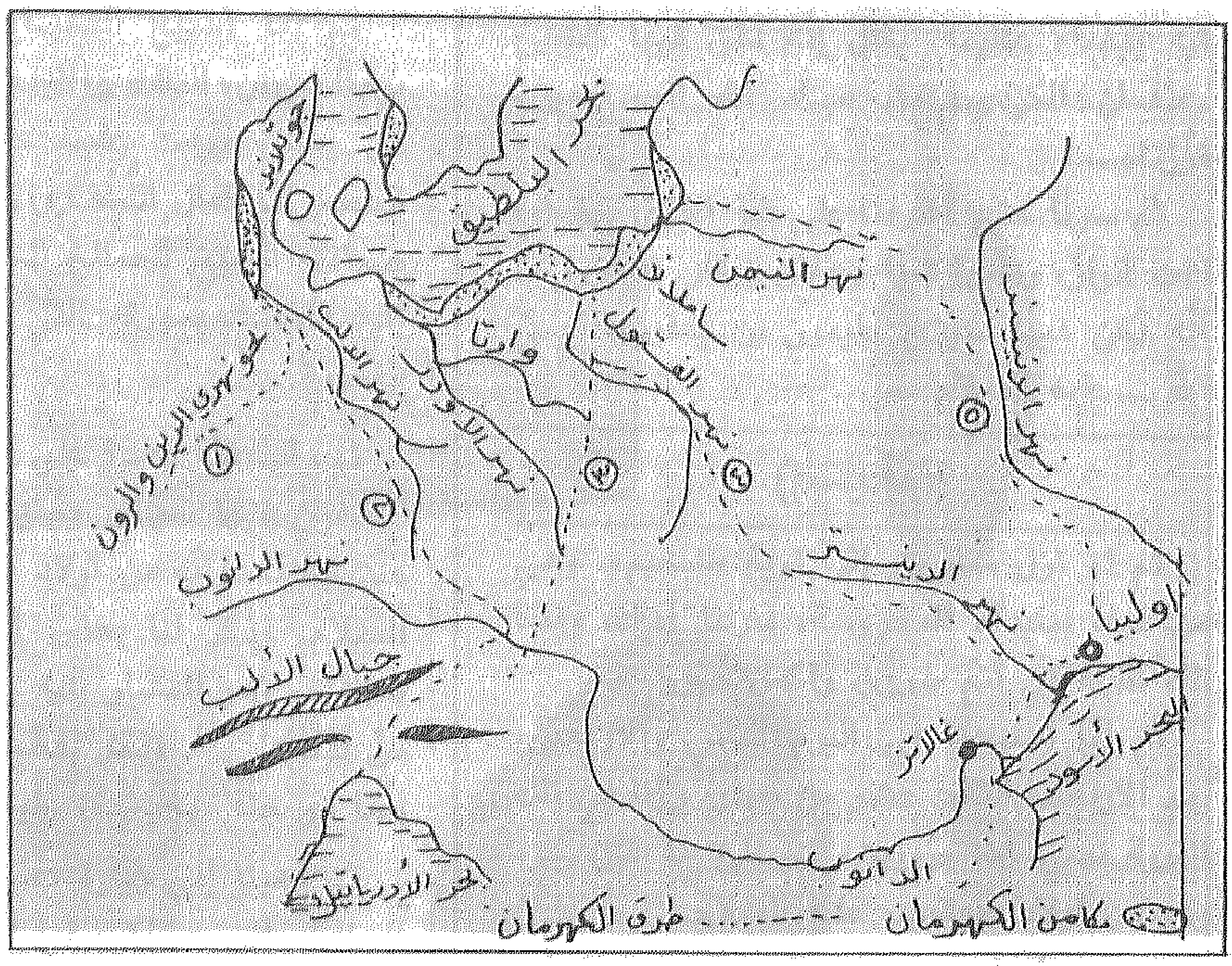

□ خريطة تبين مكامن الكهرمان والطرق التي تصل إليه.

بها منذ ملايين السنين محافظة على شكلها كما كانت في السابق. فالكهرمان هو السجل للتاريخ الطبيعي يسجل لنا ما كان يحفظ منذ ملايين السنين لنتعرف على الكائنات الحية في ذلك الوقت.

لقد عرفنا من الكهرمان أن العناكب والعث والنمل والسوس والنحل ورعاش الجو هي من الحشرات القديمة التي جاهدت أكثر من ١٣٥ مليون سنة حتى الوقت الحاضر لتحافظ على بقائها فوق سطح الأرض رغم التغيرات المناخية والفيضانات والبراكين والنيازك والشهب التي تعرضت لها الأرض والتي نجم عنها انقراض الحيوانات الكبيرة مثل الديناصورات وغيرها. وللكهرمان فوائد علمية كثيرة نذكر منها:

— من الكهرمان ندرس التطور الذي جرى على الحشرات وخاصة الوظائف الفيزيولوجية وتطور قانون الوراثة.

— دراسة النباتات التي كانت تعيش في السابق، دراسة الأوراق والأزهار، وغبار الطلع، والبذور تدلنا على مناخ هذه المناطق ومقارنته مع المناخ في الوقت الحاضر (التطور المناخي).

— دراسة الفقاقيع الهوائية الموجودة في قطع الكهرمان ومن الفقاقيع الهوائية ندرس نسبة غاز ثاني أوكسيد الكربون CO_2، زيادة هذا الغاز يعمل على تسخن في المناخ.

— دراسة الرماد البركاني في قطع الكهرمان فوجود ذرات من رماد البراكين يدل على وجود براكين قد ثارت بالقرب من هذه المنطقة عملت على تخفيض درجات حرارة الجو.

— وجود ذرات من الغبار ذات اللون الأصفر (اللوس) يدل على أن المنطقة قريبة إلى المناطق الصحراوية.

— وجود حشرات البعوض في الكهرمان هو وجود المستنقعات والمناخ الحار الرطب.

— وجود قطرات من الماء سجينة ملايين السنين في الكهرمان هي دراسة تركيب الماء ودراسة الشوائب التي كانت عالقة في الجو.

— إن وجود الكهرمان في منطقة يدل على وجود غابات قديمة في هذه المنطقة انقرضت بواسطة الطغيان البحري الذي عمل عليها ترسبات بحرية ودفنت تحت هذه الترسبات، ووجود ألوان مختلفة من الكهرمان يدل على اختلاف الأشجار وأنواعها، فكل لون يدل على نوع شجر معين من عائلة معينة.

— ويدل وجود الكهرمان على وجود البترول، فوجود الكهرمان في حوض بحر البلطيق هو وجود

البترول في حوض بحر البلطيق ووجود الكهرمان في جنوب العراق يدل على وجود البترول في جنوب العراق.

ويقول العلماء السوفييت بأن وجود الكهرمان هو وجود غابات الصنوبر والأشجار العريضة الأوراق التي كانت تعيش في مناطق دافئة.

إن أحفورة الكهرمان التي توجد بها كائنات متحجرة مثل النباتات والحشرات لا تقدر بثمن لأنها تاريخ طبيعي يحكي لنا قصة عن الخلق القديم. ●

المـــراجـــع

(1) Klous Bandel, Abbas Haddadin: The depositional environment of Amber bearing rocks in Jordan. Dirasat, Volume VI, May 1979, Number I.

(2) A. Acra, R. Milki and F. Acra: Quatrieme reunion science meeting 14/12/1972 Decembre. The Occurrence of Amber in Lebanon.

(3) Albert M.: Quennel Trans Jordan. Jordan East of the Rift Former, London 1951.

(4) Lloyd J.W.: The hydrology of southern desert. Jordan UNDO/F Au investingation of the sand stone Aquifersof east Jordan. Technical Report No. I, 1969.

(١) عباس حدادين: العنبر الأردني. المطبعة الاقتصادية، عمان ١٩٨٣.

(٢) عادل حاتم: الجيولوجيا للجميع.

(٣) مجلة دنيا العلم، العدد ٣٧، السنة الرابعة: حجار الكوريا.

(٤) الدوحة، العدد ٤٢، يونيو ١٩٧٩: الكهرمان.

(٥) الدكتور صلاح باشا: المواصلات والنقل (طرق العنبر).

(٦) الدكاترة نورالدين حاطوم، نبيه عاقل، احمد طربين، صلاح المدني: ص ٥٩٨، ٦٣٣، ٦٥٥، موجز تاريخ الحضارة.

(٧) الدكتور احمد زكي: الكهرمان. مجلة العربي، عدد ١٩٤، يناير ١٩٧٥.

(٨) تحقيق غازي حداد: العنبر الأردني عمره (١٣٥) مليون سنة. مجلة الاثنين، ٣/١٢/١٩٨٤، عمان — الأردن، كانون الثاني، الأسبوع الأول، ١٩٨٤، عدد ٣٥.

(٩) الأسبوع العربي، العدد الثاني، السنة الأولى، ٢٧ أيار عام ١٩٧٤.

(١٠) جريدة الراي الأردنية، الأحد ٤/٤/١٩٨٢: ذبابة عمرها ٤٠ مليون سنة.

(١١) فالتر راونيج: طريق الكهرمان. مجلة اليونسكو، عدد ٢٨١، كانون الأول عام ١٩٨٤.

(١٢) جريدة الرأي الأردنية: الكهرمان في سيبيريا أيضاً، ٢٧/١٢/١٩٨٤.

اتفاقية يالطا

● خلال الفترة الواقعة بين الرابع من شباط (فبراير) ١٩٤٥ والحادي عشر منه، اجتمع في بلدة يالطا الواقعة في شبه جزيرة القرم كل من تشرشل وروزفلت وستالين واتفقوا على مجموعة من الموضوعات والمشكلات التي توقعوا أن تواجههم بعد انتهاء الحرب وفي اثناء الأشهر الثلاثة التي تلت استسلام المانيا وان يضع الاتحاد السوفياتي يده على كل ما كان من ممتلكات روسيا وانتزعته اليابان منها بعد نهاية الحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤ — ١٩٠٥ مثل جنوب جزيرة سخالين ومرفأ بورت آرثر وجزر كوريل ومنغوليا الخارجية الخ... وقد تمَّ هذا الاتفاق في وقت لم يكن فيه الاتحاد السوفييتي يعرف شيئاً عن المخططات الاميركية لانتاج القنبلة النووية. اما فيما يتعلق بالمانيا فقد اتفق على أن تشترك الدول الكبرى الأربع: الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا في احتلالها بحيث تحتل كل دولة منها قطاعاً معيناً من البلاد، وتحل جميع المؤسسات النازية. أما التعويضات المالية الحربية فلم يتم التوصل إلى اتفاق بشأنها. ومن بين ما تم الاتفاق عليه، أن تنال بولندا استقلالها وأن تكون حدودها الشرقية وفقاً لخط كرزون وبذلك يظفر الاتحاد السوفييتي بمساحات واسعة من الأراضي البولندية.

بصمات مريرة من أيام مريرة !!
١٩١٤ - ١٩١٨

د. رياض العالي

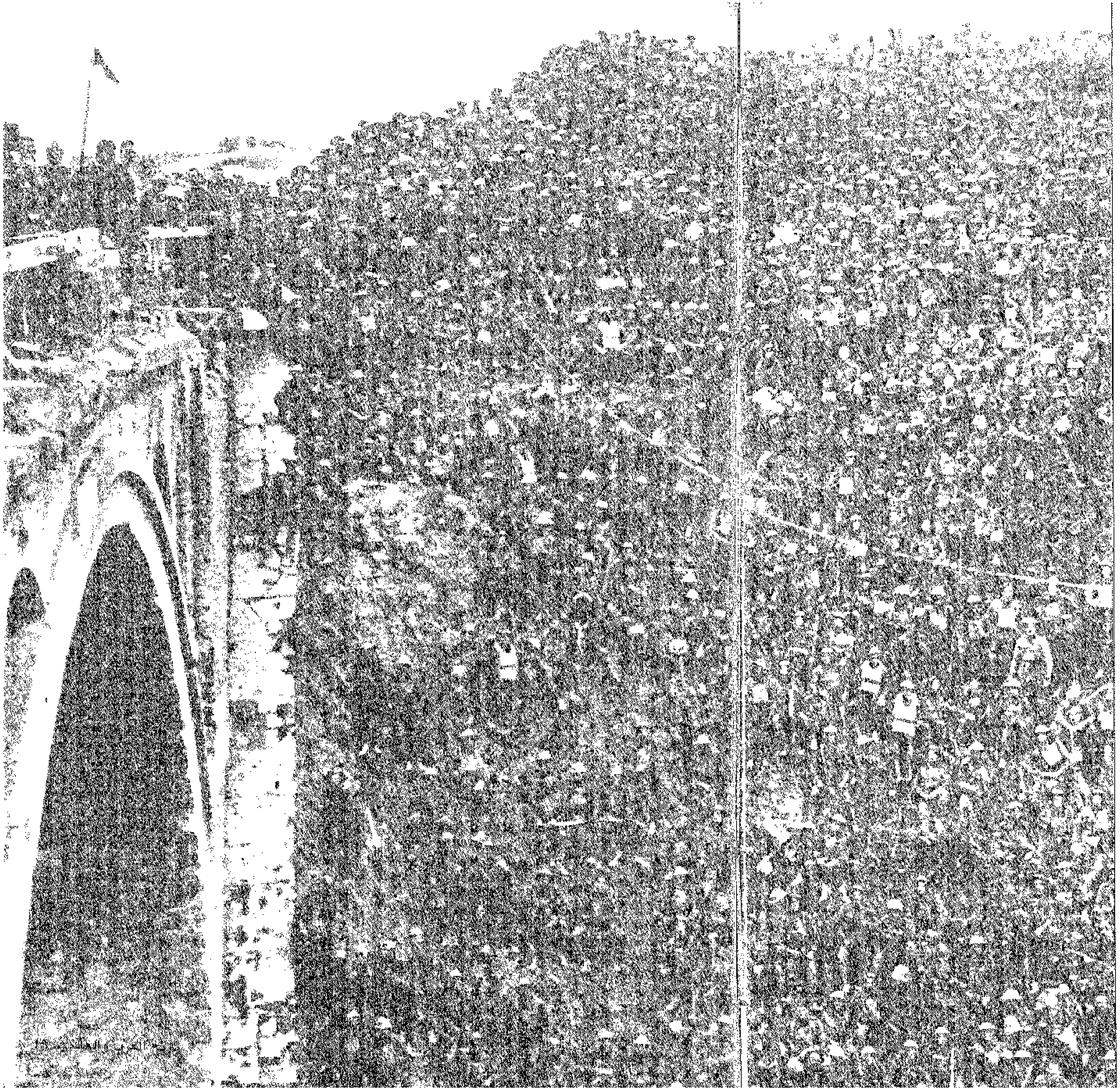

□ قبيل انتهاء الحرب بعدة أسابيع.. كان جند تابعون للّواء المئة وسبعة وثلاثين (ستافوردشاير Staffordshire) ينعمون باستراحة على ضفتي قنال القديس كوينتين (St. Quentin)، كان الارهاق بادٍ على وجوههم – إثر معركة دامت ثلاثة أيام تمّ فيها الاستيلاء على القنال – وفرحة النصر تغمر نفوسهم.

من على جسر ريكويرفال (Riquerval) يخاطبهم نائب الرئيس العميد ج. ف كامبل (J.V. Campell).

ما زالت رائحة الخنادق إبان السنوات ١٩١٥ ـ ١٩١٧، تعبق في أنفي. كانت مزيج من روائح مختلفة، أوحال نتنة، مراحيض تكنات، حامض الجير، جثث لم توارى الثرى كلياً أو جزئياً، أكياس رمل متعفنة، عرق بشري متراكم ورائحة دخان المتفجرات.
وكانت تلك الرائحة تتلطف أحياناً برائحة دخان السجاير ولحم الخنزير المقلي على نار حطب صناديق الذخيرة المحطمة، والتي كانت بدورها تفسد برائحة الغاز السام.

روبرت غرايفز
Robert Graves

□ آب ١٩١٤ جند الامبراطور يزحفون خارجين من برلين. كانوا يتوقعون ان يصلوا باريس في غضون اربعين يوماً كما هو مقرر حسب خطة شليفن (Schlieffen Plan)، لكنهم اضطروا إلى التوقف بعد عدة اسابيع في معركة المارن الأولى.

● كان زحفنا باتجاه المحطة تجربة تبعث في النفس الشعور العميق بالاعتزاز والمقدرة.. إنّ زحفاً كهذا لهو من القدسية بمكان نظراً لما يحمله من المعاني السامية والخطورة. وساعة كهذه بدت وكأنها تختصر العمر كله من حيث غناها وعمقها... كم كان ذلك الحماس عظيماً!! والكتيبة تشق طريقها وسط الهتافات، المناديل تلوح باستمرار والجنود يرتدون الخوذ [السِتر] المزدانة بالزهور، ولا يتعبون من ترداد العهود الرائعة المتجددة باستمرار. تلك الساعة يندر حدوثها في حياة أمة، وقد كانت من الروعة والقوة بحيث تشكل بحد ذاتها، تعويضاً كافياً إزاء الكثير من المعاناة والتضحيات.

والتر ليمر (٢٤ سنة)، تلميذ حقوق في جامعة ليبزغ (Leipzig)، توفي متاثراً بجراحه بتاريخ ٢٤ ايلول ١٩١٤

والدي العزيز

اكتب هذه الرسالة عشية صعودنا عبر القمة، لشن هجوم كبير.. رسالتي هذه توديعية، إذ لن ترسل إلا في حال استشهادي ولولا علمي بذلك لما أقدمت على كتابتها، أعلم، يا والدي العزيز، أنك سوف تتحمل الصدمة بنفس الشجاعة التي مكنتك من تحمل عبء وجودي في هذا المكان، ومع ذلك فإنني أود أن اقدم لك مساعدتي، بقدر الامكان، من أجل أن تتابع تحمل الأعباء وتتجاوز المحنة بقلب جرىء وشجاع.

لقد أنبأتك سابقاً، على ما اعتقد، أني لا أرهب الموت بحد ذاته. ذلك العالم لا يخيفني إطلاقاً، وإني على أتم الاستعداد لأن أموت من أجل قضية وهبتها ثلاث من عمري تقريباً. أملي الوحيد أن أتمكن من أن أواجه الموت بشجاعة كما فعل الرجال الآخرون.

لست نادماً على أي شيء سوى أني قد حُرمت من فرصة بذل أقصى الجهد لرد جميلك إزاء ما أبديته تجاهي من لطف وإخلاص لا متناهين.. وكان أملي أن افعل ذلك أثناء صراعي مع الحياة، إنما يجوز أني أقوم بذلك الآن ضمن الصراع بين الموت والحياة، بين انكلترا والمانيا، بين الحرية والعبودية. في كل الحالات، سوف أكون قد أدّيت واجبي على طريقتي المتواضعة.

أرجو، يا والدي العزيز، أن تكمل مشوار الحياة بقلب محب متسامح، وإذ ذاك، أكون قانعاً وسعيداً. وداعاً يا اعز الآباء.. وداعاً «إي» (E) و «ج» (G) أتمنى أن تحصدوا جميعاً ثمار هذه الحرب العظيمة وتحظون بالفرح والسعادة على مدى العمر.

ولدكم واخوكم المخلص غلين

□ تموز ١٩١٨ الهجوم الذي شنّه الجنرال لودندورف عام ١٩١٨. كان المحاولة الألمانية الأخيرة لكسب الحرب ولكنها منيت بالفشل — في الصورة، يبدو جند فرنسيون جرحى وجندي بريطاني، اثناء عودتهم من معركة المارن الثانية.

□ غلين رايز مورغان (Glyn Rhys Morgan) (٢١ عاماً) ملازم ثان في — فرقة حملة البنادق الويلزية الملكية — استشهد بعد كتابة الرسالة بيومين في الأول من آب عام ١٩١٧.

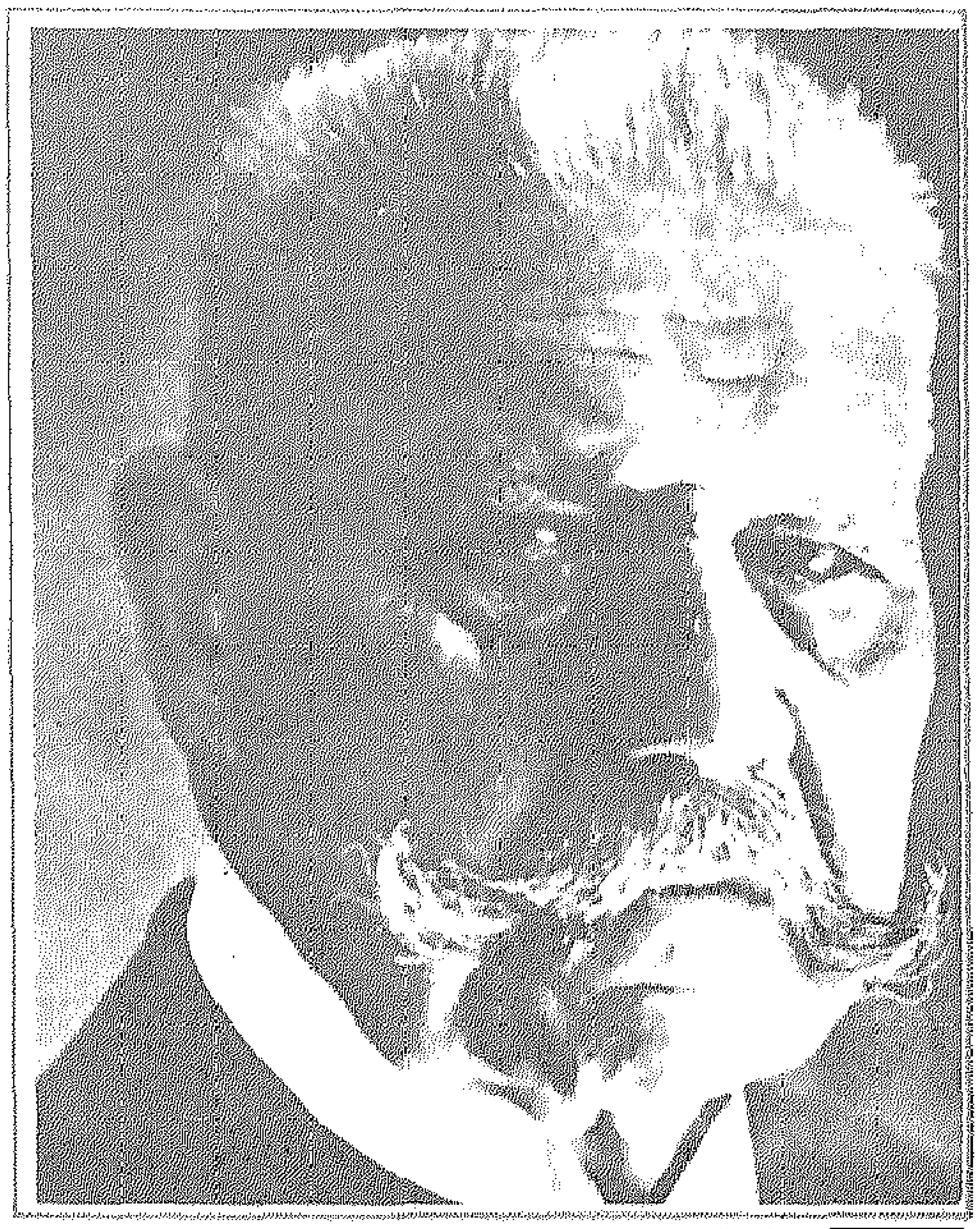

□ المارشال هندنبرغ (Hindenburg): استدعي بعد إحالته على التقاعد لاستلام قيادة الجيش في الجبهة الشرقية.

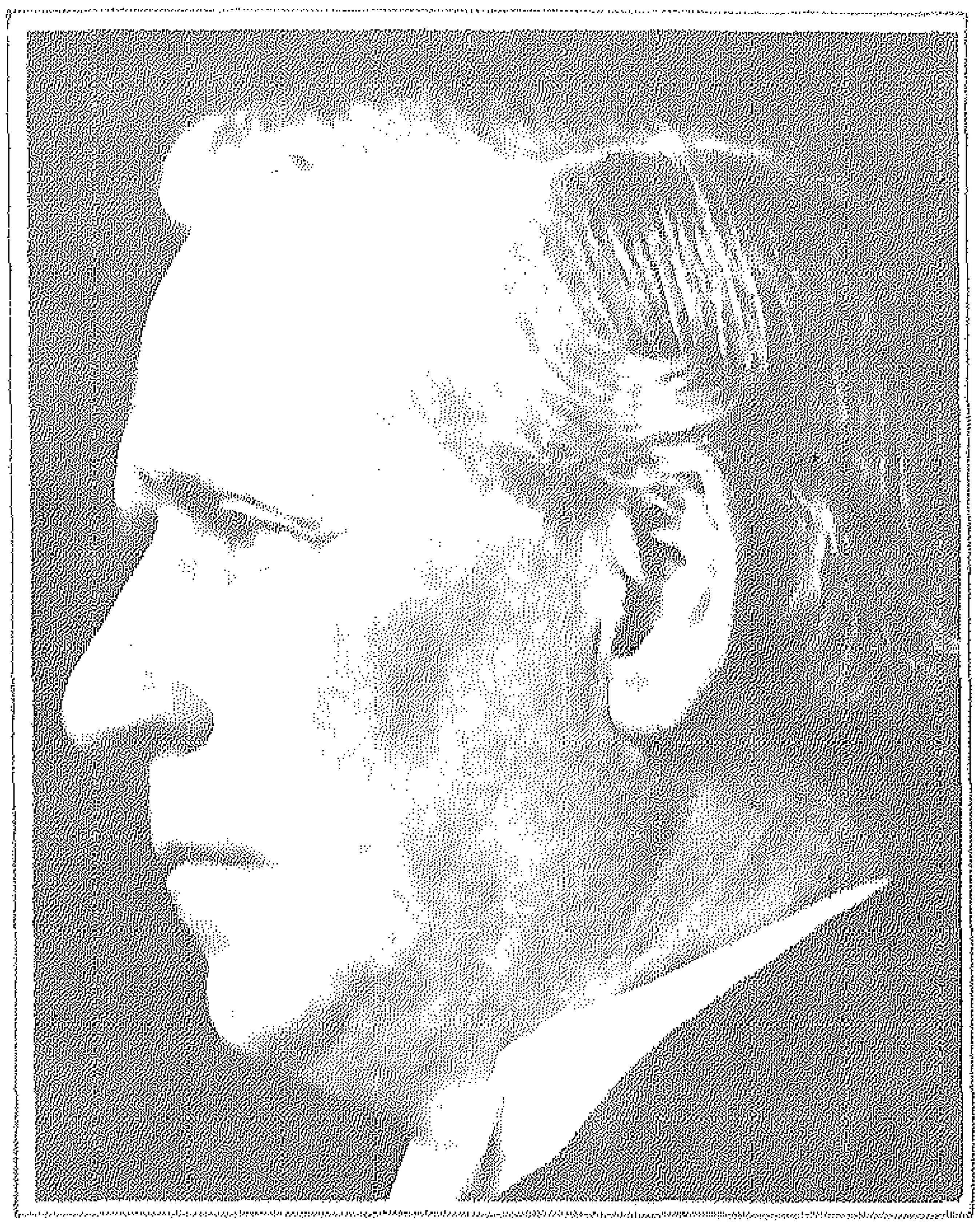

□ هربرت هنري اسكويث (Asquith): شكل (التحالف زمن الحرب) بعد فضيحة النقص في القذائف.

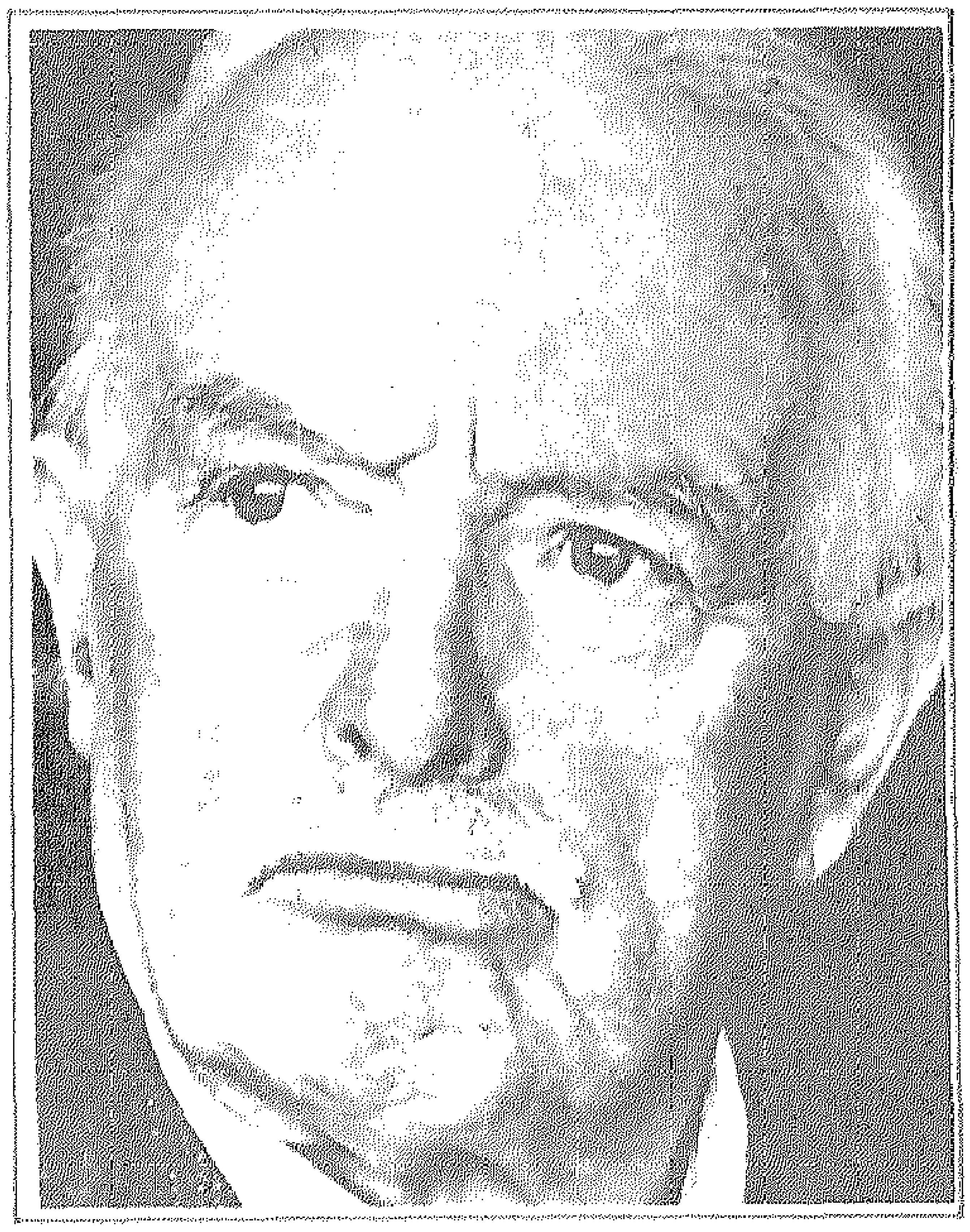

□ لويد جورج (Lloyd George): اثبت جدارته كوزير للذخيرة، شغل منصب رئيس الوزراء بعد اسكويث (Asquith) في كانون اول ١٩١٦.

□ الامبراطور ولهلم الثاني (Kaiser Wilhelm II): الهوْصار [(] جندي (في وحدة) من الوحدات العسكرية الاوروبية المنظمة على طريقة سلاح الفرسان الهنغاري الحقيقي في القرن الخامس عشر (] الاوروبي السفّاح. انتهى به عهد آل هوهنزولرن (Hohenzollerns) في المانيا.

□ المارشال لورد كتشنر (Lord K. tchener): مات غرقاً في حادثة غرق سفينة جلالة الملكة ابّان فيضان سكابا ــ هامبشاير (Hampshire) عام ١٩١٦.

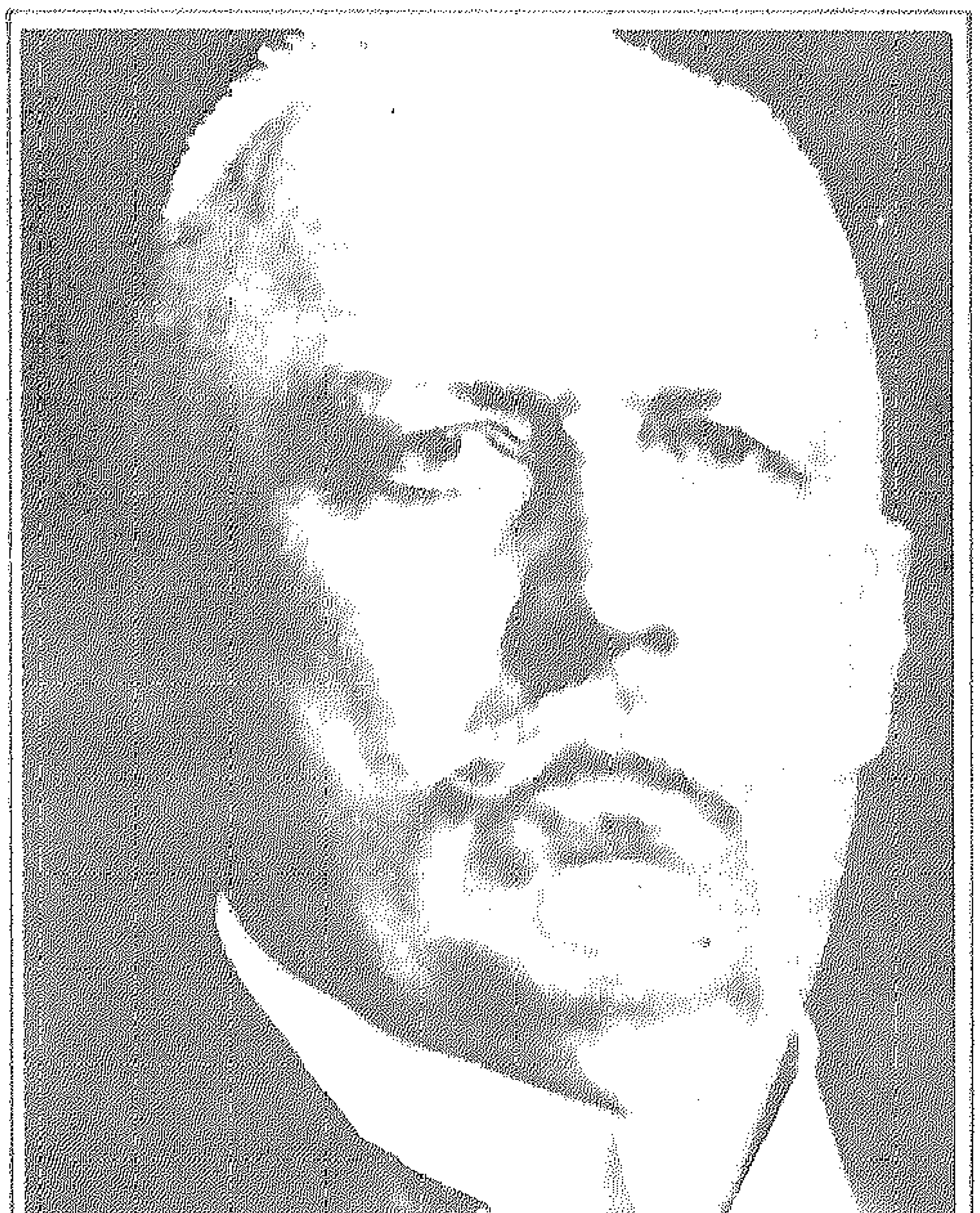

□ الجنرال لودندورف(Ludendorff): نابغة في الأمور العسكرية التنظيمية، ولكنّه سيء الطالع.

□ الادميرال السيّد جون جلليكو (Sir John Jellicoe): تأكدت قوة اسطوله بعد جتلاند (Gutland).

□ الجنرال ڤون مولتك (Von Moltke): اعاق الزحف نحو باريس عام ١٩١٤.

□ الجنرال جون بيرشنغ (John Pershing): قائد المشاة، يتصف بالقسوة وتصلب الراي.

□ الجنرال فوش (Foch): رمز الارادة الفرنسية لاحراز النصر.

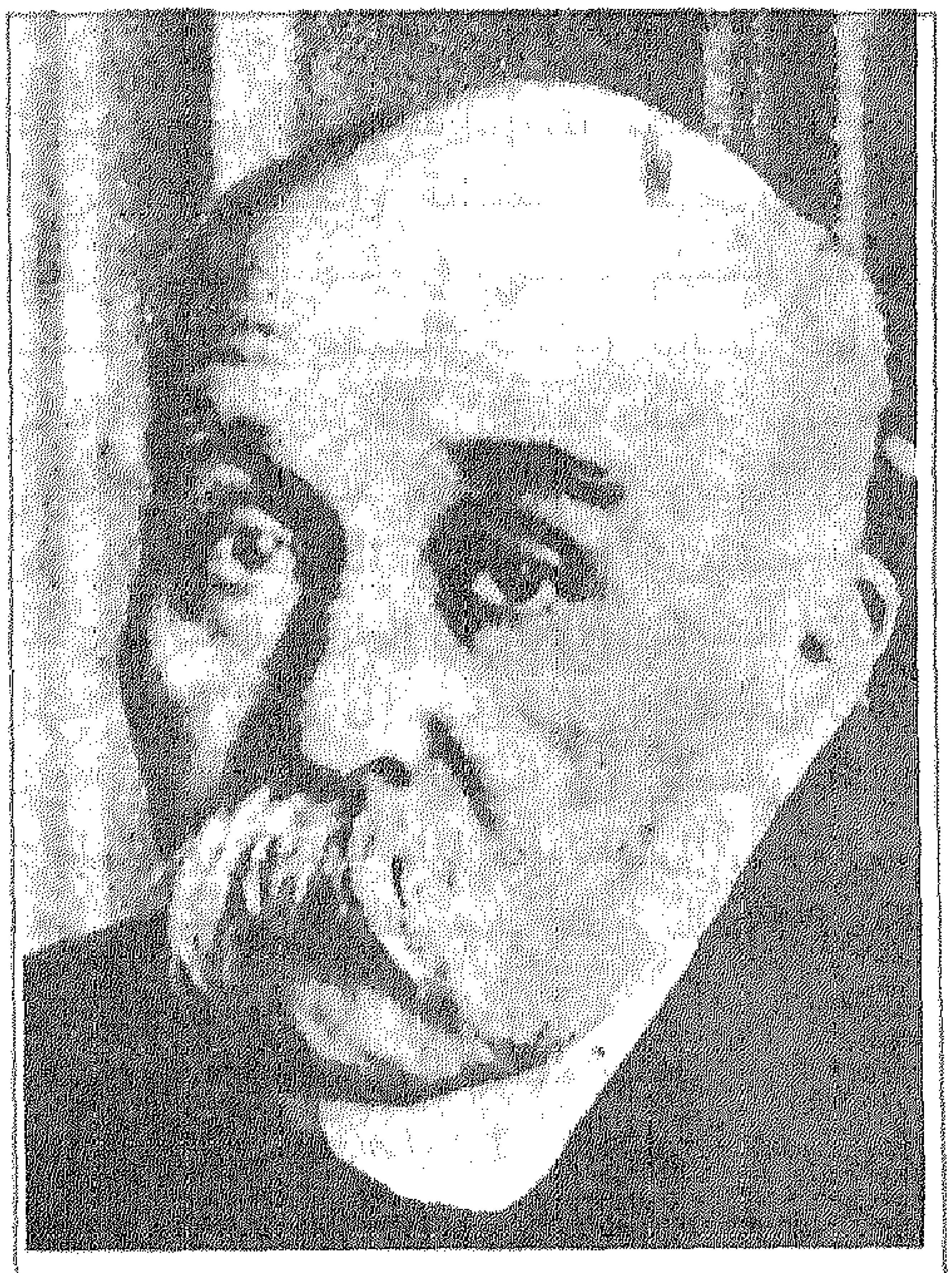

□ م. كليمنصو (M. Clemencean): «النمر» الذي ابقى فرنسا متماسكة في نهاية الحرب.

□ الملك جورج الخامس (George V): بن عم الامبراطور. دعم هايغ (Haig) بقوة مما اثار غضب لويد جورج.

□ ماتا هاري (Mata Hari): رمز الجاسوسة الجميلة، قتلها فرنسيون.

□ ادميرال فون سبي (Von Spee): الد اعداء بريطانيا في البحر واكثرهم شهامة ــ توفي في فوكلاند (Falkland) عام ١٩١٤.

□ الرئيس وودرو ويلسون (Woodrow Wilson): جاهد لانشاء حلفاً بين الامم.. ثم شهد انسحاب اميركا.

□ المارشال لورد اللنبي (Lord Allenby): دخل اورشليم (Jerusalem) عام ١٩١٧ كان اول مسيحي يتسلم مقاليد السلطة منذ الحملات الصليبية.

() وجدت هذه الصورة في علبة شركة تصوير فوتوغرافي (Johnson's of Hendon)، وهي تمثل مركز إسعاف كتيبة متقدم، بعد معركة السوم (Somme) تموز ١٩١٦. كانت موضوعة على الزجاج، ومن المحتمل أن تكون إستعملت كوسيلة ايضاح أثناء المحاضرات التي كانت تلقى بعد الحرب بفترة قصيرة. ما يميزها هو ما تحمله من تفصيلات دقيقة. إلى الشمال، يبدو ممرضان يكتبان أوراقاً تصف حالة كل مصاب وتوضح إن كان قد أعطي المورفين أم لا. كانت تشبك هذه الأوراق إلى كتفية (Epaulettes) بذلة كل جندي، مثل الرجل الذي في وسط الصورة — ويبدو التغير جليا بين الحذاء الرث الذي ينتعله، وكان قد امضى أياماً في الخندق — والحذاء النظيف الذي ينتعله الممرض.
يشاهد أيضاً، سلك كهربائي معلق بواسطة ضمادات، أكوام من الضمادات النظيفة إلى اليسار، وممرضون يقومون بمعالجة الجرحى.

● اذاقتنا يد القدر الصلبة المر، رفعتنا إلى رتبة أتاحت لنا أن ندرك الأمور الخطيرة التي تتحكم بمصير امة. لم تعد قمم المجد الشاهقة ذات أهمية بالنسبة لنا، فقد غابت عن أذهاننا لترتفع مكانها قمم الواجب والشعور الوطني، يغطيها الرداء الأبيض اللامع، فيما بدت قمة التضحية العظمى — وهي تمثل أعلى القمم على الاطلاق، كإصبع يشير بصلابة نحو السماء.

دافيد لويد جورج ١٩١٤

□ قادة بريطانيون: إلى الشمال الجنرال السير هربرت بلومر (Plumer) — ويبدو المارشال السير دوغلاس هايغ (Haig) إلى اليمين، كما يبدو في الوسط رئيس اركانه اللواء السير هربرت لورنس (Lawrence).

● لقد كان موقفي في الصراع بسيطاً واضحاً. فمن وجهة نظري لم تكن النمسا تحارب للحصول على بعض المكتسبات من الصرب، ولكنها حرب المانيا في سبيل الحياة، حرب الشعب الالماني من أجل أن يكون او لا يكون، من أجل الحرية والمستقبل. لا بد من السير في خطى بسمارك. إن على المانيا الفتية أن تدافع مجدداً عما قد حارب الأجداد ببسالة من أجله من وايزنبرغ (Weissenburg) إلى سيدان (Sedan) وباريس. ولكن إذا قدر لهذا الصراع أن يتكلل بالنصر، فإن دولتنا سوف تستعيد بقواها الذاتية، مكانتها إزاء الدول العظمى، ومن ثم فإن الرايخ الألماني سوف يتمكن من أن يصبح حامي السلام القوي، دون الحاجة إلى تقليص كميات الغذاء للأطفال من أجل هذا السلام.

في الثالث من آب، وجهت إلى فخامة الملك لودفيغ الثالث كتاباً خطياً التمس فيه ان يسمح لي بالخدمة في كتيبة بافارية. كانت هناك وفرة في الطلبات المقدمة، وقد كان سروري عظيماً حين قبل طلبي في اليوم ذاته.

الآن تبدأ بالنسبة لي، كما بالنسبة لكل الماني، الفترة الأكثر اهمية وعظمة في حياتي. بالمقارنة مع احداث ذلك الصراع الجبار، يسقط الماضي كله في هوى النسيان الفارغ، إني أتذكر تلك الأيام بمزيج من الكبرياء والحزن، واعود إلى الأسابيع الأولى لنضال شعبنا البطولي، هذا النضال الذي حظيت بشرف المشاركة فيه.

ادولف هتلر

□ ٢ آب ١٩١٤. «الجيش الألماني الامبراطوري» بدأ زحفه». يصغي المواطنون في ميونيخ إلى نبأ إعلان الحرب. بين الجموع يبدو طالب يدرس الفنون ويدعى هتلر.

● إني أعشق الحرب.. فهي أشبه ما تكون بنزهة كبيرة، غير أنها ليست بدون هدف كما كل النزهات.. طوال حياتي لم اكن أكثر سعادة وارتياحاً، ففي غضون الأيام العشرة الأخيرة لم أخلع حذائي سوى مرة واحدة كما لم أغتسل سوى مرتين.. إلاّ انه ليس هناك من يتذمر على الاطلاق من أمور النظافة.

النقيب جوليان هنري فرانسيس (Grenfell)
(٢٧ عاماً) ـــ فرقة سلاح الفرسان الملكية الاولى
توفي متاثراً بجراحه بتاريخ ٢٦ ايار ١٩١٥

● حرب الخنادق في الربيع أمر جميل للغاية ـــ باستثناء الروائح.. تتجمع لدينا الآن كميات هائلة من الجير، ونقوم بالتخلص من أكوام الأجساد الغريبة.

دنيس اوليفر بارنيت (٢٠ عاماً) ـــ ملازم اول في كتيبة لينشر (Leinster Regiment) ـــ استشهد بتاريخ ١٥ آب ١٩١٥

● سنجعلها (اي المانيا) تستنزف حتى الرمق الأخير تماماً كما تعتصر ثمرة ليمون بل وأكثر ـــ ساعتصرها حتى يصبح بالامكان سماع صوت البذور وهي تتحطم.

السّيد اريك جدز (Eric Gedds)، السيد الأول للبحرية

□ جندي بريطاني يقوم بحراسة رفقائه فيما يخلدون إلى النوم في خنادق السوم (Somme).

الهجرة القسرية للفلسطينيين

من الضفة الغربية وقطاع غزة

(١٩٦٧ - ١٩٨٣)

جورج القصيفي

إن تعميم الطابع «القسري» على كافة أشكال الهجرة الفلسطينية بما فيها الهجرة التي بدأت طوعية بأسباب اقتصادية أو أسرية، مرده إلى سياسات رفض حق عودة الفلسطينيين، وقرارات مصادرة ملكياتهم وخصوصاً بالنسبة للمهاجرين من الضفة الغربية وقطاع غزة قبل عام ١٩٦٧، إضافة لتوسيع عمليات الاستيطان.

وقبل التطرق إلى حجم وخصائص المهجرين قسرياً من الضفة الغربية وقطاع غزة بعد عام ١٩٦٧، لا بد من إلقاء الضوء على الحجم الكلي للفلسطينيين وعلى توزعهم حسب مكان إقامتهم.

بلغ عدد الفلسطينيين في نهاية عام ١٩٨٤ ما ينوف عن خمسة ملايين نسمة (٥,٠٧١,٥٠٠)[١]، يتركز قسم كبير منهم (٤٠,٢ بالمائة في فلسطين المحتلة) (١٨ بالمائة، ١٠ بالمائة و ١٢ بالمائة في الضفة الغربية، غزة، وفلسطين المحتلة قبل ١٩٦٧ على التوالي)، وحوالي ربعهم في الضفة الشرقية للأردن (٢٥,١ بالمائة) وأقل من ثلثهم (٢٩,٤ بالمائة) في بقية الدول العربية، مع تواجد ملحوظ في كل من لبنان (١٠,٨ بالمائة) والكويت (٦,٥ بالمائة)، انظر الجدولين رقم ١ و ٢، وعليه فإن المجتمع الفلسطيني الذي سنتطرق إليه في هذا البحث يشكل ما يزيد قليلاً عن ربع مجموع الفلسطينيين، أي (٢٨,١ بالمائة).

الحجم

يجب أن لا يغرب عن بالنا ونحن نتكلم عن الضفة الغربية وقطاع غزة بأننا بصدد مناطق جغرافية ذات مساحات متغيرة. فما كان يسمى بقطاع غزة أيام الانتداب البريطاني فقد مساحة قدرت بحوالي ٧٣٤ كلم^2. وكذلك تقلصت مساحة الضفة الغربية حوالي ١٩٤٦ كلم^2 بعد إنشاء دولة إسرائيل (Kossaifi, 1976). وعندما عمدت

إن الهجرة بكافة أشكالها، قد وسمت الوضع السكاني الفلسطيني بطابعها الخاص، فالشعب الفلسطيني عرف كافة أنواع الهجرات. فمن هجرة عربية وافدة للعمل إلى فلسطين إبان الانتداب البريطاني، إلى التهجير القسري الجماعي الأول الذي لحق بالفلسطينيين مع إنشاء دولة إسرائيل، إلى الهجرة الطوعية للعمل باتجاه الضفة الشرقية للأردن ودول الخليج العربية خلال الخمسينات ومنتصف الستينات، إلى التهجير القسري الجماعي الثاني بعيد حزيران ١٩٦٧، وصولاً إلى التهجير القسري الفردي من الضفة الغربية وقطاع غزة الذي ما نزال نشاهده لغاية يومنا هذا.

وفي مقابل هذا النزف الفلسطيني المستمر من فلسطين، شكل صافي الهجرة اليهودية الوافدة إلى فلسطين ٦٠ بالمائة من مجمل الزيادة السكانية اليهودية في فلسطين المحتلة خلال الفترة ١٩٤٨ ــ ١٩٧١ و ٢٥ بالمائة خلال الفترة ١٩٧٣ ــ ١٩٨٢ (Israel, 1983).

السلطات الاسرائيلية إلى ضم القدس الشرقية بعد حرب حزيران ١٩٦٧ أخذت توسع الحدود الادارية لمدينة القدس بحيث وصلت إلى تخوم بيت لحم. إن هذه الملاحظة لها دلالتها عند دراسة تهجير الفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة لأن أعداد المهجرين من القدس تصبح غير واضحة حيال ضم الأراضي الجديدة وإضافة سكانها عبر إلحاقهم إدارياً بمنطقة القدس، وسوف لن تظهر البيانات أياً من هذه التحركات السكانية إذا لم تؤخذ التغيرات الجغرافية الادارية للمناطق بعين الاعتبار.

مرحلة ما قبل حرب حزيران ١٩٦٧

يبين الجدول رقم ٢ حجم المهاجرين الفلسطينيين من الضفة الغربية خلال الفترة ١٩٥٢ ــ ١٩٦٧. ويبدو أن حجم القاطنين في الضفة قد بقي شبه ثابت خلال الفترة المذكورة، إذ أنه ارتفع من ٧٤٢ ألفاً في ١٩٥٢ إلى ٨٠٤ آلاف عشية حرب حزيران ١٩٦٧، أي بمعدل للنمو السنوي، لم يتعدّ الواحد بالمائة (٠,٥٤ بالمائة) ويعني ذلك أن الهجرة قد استنفذت مجمل النمو السكاني الطبيعي تقريباً. ويبدو أيضاً أن تيار الهجرة كان قد اشتد في بداية الستينات عنه في الخمسينات إذ بلغ معدل النمو العام ٠,٠٥ بالمائة في المرحلة الأولى (١٩٦١ ــ ١٩٦٧) مقارنة بـ ٠,٨٣ بالمائة في المرحلة السابقة (١٩٥٢ ــ ١٩٦١).

وبالطبع فإن عوامل الجذب الاقتصادي والاجتماعي في الضفة الشرقية أولاً، وفي دول الخليج ثانياً، وبالأخص في الكويت، هي التي تفسر تيارات الهجرة هذه إلى خارج الضفة الغربية. فالوضع الاقتصادي والاجتماعي المتردي الذي ساد في الضفة الغربية بعد عام ١٩٤٨ وتركيز المشاريع التنموية في الضفة الشرقية وظهور النفط في دول الخليج، كلها عوامل ساعدت على دفع السكان إلى خارج الضفة الغربية سعياً لتحسين ظروفهم المعيشية.

أما في قطاع غزة، فتدل البيانات المتاحة، إلى أن تيارات الهجرة قد بقيت في مستوياتها الدنيا، إذ بلغ معدل النمو السنوي ٢,٧ بالمائة خلال الفترة ١٩٥٣ ــ ١٩٦٤، وارتفع حجم السكان من ٣٠٦ آلاف في بداية الفترة إلى ٤١٢ الفا في نهايتها (Kossaifi, 1976). ولقد شكل المعلمون والموظفون والطلاب القسم الأكبر من هؤلاء المهاجرين، «في فترة ما قبل الحرب مباشرة كانت هنالك أعداد من المعلمين والموظفين والعاملين في الأقطار العربية وكذلك عدد من الطلاب

الفلسطينيين، وهناك مجموعة أخرى من الشبان من ابناء القطاع أصبحوا مهاجرين بدون قصد وقد كان عدد هؤلاء ٢٢٠٠ موظف» (أبو عمرو، ١٩٨١، ص ٣).

مرحلة ما بعد حرب حزيران ١٩٦٧

بعد حرب حزيران ١٩٦٧ طرأ تغيير نوعي على الهجرة من الضفة الغربية وقطاع غزة كما أشرنا سابقاً، إذ تحول طابعها من الهجرة الطوعية إلى الهجرة القسرية. فالمهاجرون الذين كانوا يغادرون الضفة ويعودون إليها ساعة ما يشاؤون لم يعد بإمكانهم القيام بذلك إلا إذا استحصلوا على «لم شمل» وشريطة أن يبقوا في الخارج مدداً معينة تختلف باختلاف أعمارهم. كما أن قسماً كبيراً ممن كان خارج الضفة والقطاع عشية حرب حزيران لم يتمكن من الاستحصال على «لم الشمل» فبات مضطراً للبقاء خارج وطنه. وبالاضافة إلى كل هذا كثفت السلطات الاسرائيلية عمليات مصادرة الأراضي وبناء المستوطنات.

إن حجم السكان في الضفة الغربية عشية حرب حزيران ولغاية أواخر سنة ١٩٨٢ لم يزد بأكثر من ٧٤ الفاً خلال تلك الفترة، أي بمعدل للنمو السنوي لم يتعد ٠,٥٦ بالمائة[٢]. وبمعنى آخر إن ما يوازي حصيلة النمو الطبيعي السنوي تقريباً كان يهجر إلى خارج الضفة. ولقد بلغت تيارات التهجير القسري أشدها بعيد حرب حزيران مباشرة، إذ هجر حوالي ١٤٨ الفاً خلال الثلاثة أشهر الفاصلة بين حزيران وأيلول ١٩٧٦ (الجدول رقم ٣).

ويمكن تمييز مرحلتين من التهجير بعد نهاية ١٩٦٧ ولغاية نهاية ١٩٨٢. في المرحلة الأولى (١٩٦٧ ـــ ١٩٧٤) بلغ حجم الهجرة حوالي عشرة آلاف سنوياً، بينما ارتفع هذا الحجم إلى ١٥ الفاً في المرحلة الثانية (١٩٧٤ ـــ ١٩٨٢). ويتماشى هذا التمييز مع الانتعاش الاقتصادي الذي عرفه الاقتصاد الاسرائيلي بعد ١٩٦٧ ولغاية منتصف السبعينات، والذي نتج عنه زيادة الطلب على الأيدي العاملة العربية من الاراضي المحتلة، كما يتماشى أيضاً مع تسريع عمليات التحديث في دول الخليج بعد تصحيح أسعار النفط في عام ١٩٧٣، وازدياد الطلب على الأيدي العاملة العربية.

ولم يكن حظ قطاع غزة من الاحتلال الاسرائيلي بأحسن حال من حظ الضفة الغربية، إذ لم يزد حجم سكانه خلال ١٩٦٧/١٩٨٢ بأكثر من ٢٤ الفاً، أي بمعدل للنمو السنوي بلغ ٠,٣٣ بالمائة. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن تيارات الهجرة كانت محدودة في القطاع قبل عام ١٩٦٧، فيعني ذلك أن القطاع قد شهد للمرة الأولى نسبة ركود في حجم سكانه. وكما كانت الحال في الضفة الغربية، فقد بلغت تيارات التهجير أشدها بعيد حرب حزيران، إذ هجر حوالي ١٠٠ الف نسمة من القطاع خلال حزيران / أيلول ١٩٦٧[٣].

وبخلاف الضفة الغربية انخفض حجم المهجرين خلال الفترة ١٩٧٤/١٩٨٢ (ثلاثة آلاف سنوياً) عنه في الفترة السابقة (ثمانية آلاف سنوياً خلال ١٩٦٧/١٩٧٤) ويبدو أن ذلك مرتبط بالارتفاع المستمر للعاملين من القطاع في

□ مخيمات اللاجئين

الاقتصاد الاسرائيلي خلال فترة السبعينات[٤]. وبالحد من قبول طلبات سكان القطاع للهجرة الدائمة إلى الضفة الشرقية. «وشعوراً منها بالاخطار المترتبة على النزيف السكاني من القطاع إلى الأردن، قامت مجموعة مؤلفة من ٦٨ شخصية وطنية بصياغة وثيقة تناشد فيها السلطات الأردنية بإغلاق الجسور أمام المهاجرين وقد أبدت السلطات الأردنية تعاوناً في هذا المجال وبدأت برفض قبول العابرين إلى أراضيها كمهاجرين دائمين». (أبو عمرو، ١٩٨١).

وهكذا بعد مضي أقل من ١٦ عاماً (١٩٦٧/١٩٨٢) على احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة تم تهجير حوالي ربع مليون بعيد حرب حزيران مباشرة (مقارنة بثلاثة أرباع المليون بعد حرب ١٩٤٨). واستمر النزف بعد ذلك التاريخ بمعدل بلغ ١٩ الفاً سنوياً، ولم يزد حجم السكان في هاتين المنطقتين بأكثر من ٩٨ الفاً أي بمعدل للنمو السنوي لم يتجاوز ٠,٤٨ بالمائة.

إسقاط السكان المقيمين في الضفة الغربية ١٩٦٧ ـــ ١٩٨٢

في محاولة لتقدير حجم المهجرين من الضفة الغربية (باستثناء القدس الشرقية) ولدراسة بعض خصائصهم، تم إسقاط السكان المقيمين في نهاية عام ١٩٦٧ بالاستناد إلى التوزيع حسب العمر والجنس الذي وفرته الاحصاءات الاسرائيلية، بعد تصحيحه، وإلى مؤشرات الخصوبة والوفاة المستقاة من المسوحات السكانية التي اجريت في الضفة الشرقية للأردن[٥]. ويدل الجدول رقم ٤ على نتائج هذه الاسقاطات.

يمكن القول إن سكان الضفة الغربية (باستثناء القدس الشرقية) كانوا سيتزايدون بمعدل للنمو السنوي يبلغ ٣,٣ بالمائة خلال فترة ١٩٦٧ ـــ ١٩٨٢، فيما لو استبعد عامل التهجير. وبالواقع فإن معدل نموهم السنوي لم يتجاوز ١,٦ بالمائة خلال هذه الفترة، وعليه فإن معدل التهجير السنوي بلغ ١,٧ بالمائة خلال الفترة المذكورة. وبالاضافة إلى معدلات التهجير التي يمكن احتسابها من الجدول رقم ٤، يمكن أيضاً دراسة بعض خصائص المهجرين، كتوزعهم حسب العمر والجنس كما سنرى لاحقاً.

الخصائص

تصعب دراسة خصائص المهجرين من الضفة الغربية وقطاع غزة بعد ١٩٦٧ وذلك لندرة المسوحات المتخصصة المتعلقة بهم، فلا السلطات الاسرائيلية اهتمت بهذا الموضوع، فيما عدا تقدير الحجم، ولا مختلف الهيئات العربية أولته العناية التي يستحقها. ولقد تم الحصول على إحدى الدراسات النادرة المتعلقة بالخصائص السكانية والاسكانية لسكان الضفة الغربية لغرض استخدامها في هذا البحث[٦]. كما سيتم الاعتماد على خصائص الفلسطينيين / الأردنيين المتواجدين في دول الخليج لاعطاء فكرة حول خصائص المهجرين من الضفة الغربية وقطاع غزة. ولا نخال اننا نخطىء كثيراً في تبني مثل هذا الافتراض، خاصة إذا ما علمنا أن القسم

الأكبر من فلسطينيي/ أردنيي الخليج يفد من هاتين المنطقتين بالذات(٧).

تهجير الأسر

قد تكون أهم سمة لتهجير الفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة، هي أن التهجير أصبح يطال أسراً بكاملها، ولا يقتصر بالتالي على تهجير الشباب الذكور في سن العمل. وهذه الظاهرة هي أحد الأسباب الاضافية التي تحدو بنا لاستخدام تعبير «التهجير» وليس «الهجرة». فالواقع أن التهجير الجماعي للأسر قد تم بعيد حرب حزيران مباشرة، واستمر بعد ذلك ليومنا هذا وسنحاول فيما يلي توضيح هذه الظاهرة بشيء من الاسهاب.

يبين الجدول رقم ٦، التوزيع المئوي للمهاجرين والمهجرين من الضفة الغربية خلال الفترة الممتدة من التعداد الأردني في عام ١٩٦١ (تشرين الثاني) إلى تاريخ إجراء التعداد الاسرائيلي في ١٩٦٧ (أيلول). ويستفاد من هذا الجدول أن ٤٣ بالمائة من المجموع هم من الأولاد في سن ما دون الخامسة عشر، مما يؤكد الطابع الأسري للانتقال السكاني خلال هذه الفترة. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن هجرة الأردنيين إلى الخارج كانت قد اتسمت بطابع هجرة الذكور الشباب في سن العمل في الفترة السابقة لعام ١٩٦٧(٨)، فسيعني ذلك أن نسبة المهجرين دون الخامسة عشر بعيد حرب ١٩٦٧ مباشرة، كانت أعلى من النسبة المذكورة أعلاه (٤٣ بالمائة)، مما يؤكد الطابع الأسري للتهجير.

من ناحية أخرى يبين الجدول رقم (٧) توزيع المهجرين الفلسطينيين من الضفة الغربية (باستثناء القدس) حسب العمر خلال الفترات ١٩٦٧/ ١٩٧٢، ١٩٦٧/ ١٩٧٧، و ١٩٦٧/١٩٨٢. ويستفاد من هذه البيانات أن نسبة الأولاد ما دون الخامسة عشر إلى مجموع المهجرين، بلغت ٨١ بالمائة في الفترة الأولى، ٦٢ بالمائة في الفترة الثانية و ٥٦ بالمائة في الفترة الثالثة. وهذا يؤكد طابع تهجير الأسر من الضفة الغربية بعد نهاية ١٩٦٧(٩).

أخيراً نشير إلى ارتفاع نسبة الأولاد الفلسطينيين / الأردنيين دون الخامسة عشر في دول الخليج إلى أكثر من نصف مجموعهم في عام ١٩٧٥ (٥١ بالمائة)، وإلى أن هذه النسبة قد تجاوزت في حدها الأدنى الثلث بكثير في الامارات العربية المتحدة ١٩٧٥ (٣٨,٩ بالمائة). ومن الملفت للنظر تطور هذه النسبة في التعدادات الكويتية، إذ ارتفعت من أقل من الخمس بقليل (١٩,٢ بالمائة) في ١٩٥٧ إلى ما ينوف عن الثلث (٣٥,٣ بالمائة) في ١٩٦٥ ثم إلى النصف (٥٠,٤ بالمائة) في ١٩٧٠، وليس بمستغرب أن يكون التغيير الكبير قد حصل خلال ١٩٦٥/ ١٩٧٠ حيث يظهر أثر حرب حزيران ١٩٦٧. من ناحية أخرى تجدر الاشارة إلى الانخفاض المستمر لمعدل الجنس العام للفلسطينيين / الأردنيين في الكويت مع الزمن، إذ انخفض من ٣١١ بالمائة في ١٩٥٧ إلى ١٧٨ بالمائة في ١٩٦٥ وصولاً إلى ١١٨ بالمائة في ١٩٧٠ (الجدول رقم ٨). إن كل هذه البيانات إنما تدل بوضوح على أن الهجرة القسرية للفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة قد لحقت بالأسر ولم تقتصر فقط على الشباب الذكور.

مكان الاقامة

تفيد دراسة «الضفة الغربية ـ غير المنشورة» أن المهجرين توجهوا بالتساوي إلى كل من الضفة الشرقية (٢٩,٩ بالمائة) وإلى الكويت وبقية دول الخليج (٣٠,٢ بالمائة)، فيما عدا العربية السعودية التي استقطبت ما مجموعه ١٣,٨ بالمائة. وتجدر الاشارة إلى الارتفاع النسبي للفئة المتوجهة إلى أوروبا (٨,٩ بالمائة) وأميركا (٩,٦ بالمائة). وإذا ما حاولنا أن نتطلع إلى مناطق جذب المهجرين بحسب مكان إقامتهم في الضفة، فسنجد أن مهجري نابلس اتجهوا بشكل خاص إلى الكويت في حين اتجه مهجرو الخليل إلى الأردن والعربية السعودية. أما مهجرو القدس فلقد اتجه أكثر من ثلثهم إلى اميركا.

وإذا ما حاولنا أن نركز على منطقة الخليج بشكل خاص، فسنجد أن مجموع الفلسطينيين / الأردنيين قد ارتفع من ٣٧٥ ألفاً في نهاية ١٩٧٥ في دول مجلس التعاون الست،

ويبدو أن حصة منطقة الجذب الكبرى، الكويت، قد انخفضت من ٦٠ بالمائة إلى ٥٦ بالمائة، ولقد تم ذلك لصالح منطقتي الجذب الثانية، العربية السعودية والثالثة، الامارات العربية المتحدة، إذ ارتفعت حصتيهما من ٢٥ بالمائة إلى ٢٨ بالمائة ومن ٨ بالمائة إلى ١١ بالمائة على التوالي (Kossaifi Unpublished)، (الجدول رقم ١).

حق العودة

لقد سبق وأشرنا إلى أن معظم سكان الضفة والقطاع الذين لم يكونوا متواجدين هناك عشية حرب حزيران ١٩٦٧، لم يتمكنوا من الحصول على «لم الشمل» فيما بعد، وبالتالي منعوا من حق العودة إلى ديارهم. وتفيد دراسة «الضفة الغربية ــ دراسة غير منشورة» إلى أن ٤٠ بالمائة من المهجرين خارج الضفة الغربية لا يمتلكون «جمع شمل» وبالتالي لا يمكنهم العودة إلى الضفة. وترتفع بشكل خاص نسبة المهجرين من القدس بين من حظرت عليهم العودة، إذ تعدت نصف مجموع المبعدين من هذه المحافظة. وإذا ما ربطنا بين تكثيف عمليات الاستيطان في هذه المحافظة بالذات وبين إنكار حق العودة للمهجرين منها لاتضحت ابعاد عملية الانكار أكثر فأكثر.

يبقى أن نشير إلى أن نسبة الـ ٤٠ بالمائة المشار إليها آنفاً هي نسبة الحد الأدنى، إذ أن الدراسة لم تتطرق أصلاً إلى الأسر التي تتواجد بكامل افرادها خارج الضفة. ومن المنطقي الاعتقاد أن هذا النمط من الأسر، إما أنه لم يستحصل أصلاً على «لم شمل» أو أنه لم يهتم بتجديده نظراً لتواجد كافة افراد الأسرة في الخارج، وعليه يمكن القول أن حوالي نصف مجموع المبعدين بعد عام ١٩٦٧ قد خسروا حق عودتهم إلى ديارهم.

المستوى التعليمي

من المعروف أن الفلسطينيين يتمتعون بمستوى تعليمي مرتفع، مقارنة بغيرهم من العرب. ولم يشذ مهجرو الضفة والقطاع عن هذه القاعدة، إذ شكلت فئة الثانويين والجامعيين نسبة مرتفعة بينهم تعدت الخمس، كما أن نسبة الأميين بينهم كانت في حدودها الدنيا نسبياً. وتفيد دراسة «الضفة الغربية ــ دراسة غير منشورة» إلى أن نسبة الأميين بين المهجرين من الضفة لم تتجاوز ٣ بالمائة في حين تجاوزت نسبة الثانويين فأعلى الخمسين بالمائة(١٠). وإذا ما تطلعنا إلى مجالات تخصص المتخرجين من أبناء المهجرين، فسنجد أن أكثر من نصفهم توجه نحو العلوم الانسانية وحوالي خمسهم للهندسة وتوزع الباقي في العلوم الطبية (حوالي العشر) والعلوم البحتة.

من ناحية أخرى يمكن القول أن الفلسطينيين / الأردنيين في دول مجلس التعاون الخليجي، قد تميزوا عن غيرهم من العرب بارتفاع مستواهم التعليمي، إذ تجاوزت نسبة الثانويين فأعلى بينهم الربع (٢٧ بالمائة) في حين لم تزد نسبة الأميين عن الـ ١٦ بالمائة (الجدول رقم ٩). هذا وقد بلغت النسبة الأولى حدها الأعلى في الامارات العربية المتحدة (٤٢ بالمائة) وحدها الأدنى في الكويت (٢٠ بالمائة). «أما بالنسبة للجنسيات العربية فيتميز الفلسطينيون / الأردنيون بمستوى علمي مرتفع، إذ أن متوسط سنوات دراستهم تراوح من سبع سنوات في الكويت إلى عشر سنوات في الامارات العربية المتحدة، كما وأن نسبة الأميين بينهم كانت الأكثر انخفاضاً». (United Nations, ECWA 1982).

التوزيع المهني

تفيد دراسة «الضفة الغربية ــ دراسة غير منشورة» أن مهجري الضفة قد تركزوا في ثلاث مجموعات مهنية رئيسية، إذ فاقت نسبة العاملين منهم في المهن «الفنية والعلمية» و «الخدمات» الربع، كما بلغت نسبة «عمال الانتاج والفعلة» الخمس. وإذا كانت البيانات المجمعة من خصائص فلسطينيي / اردنيي دول الخليج تتوافق مع التركيز الملاحظ في المجموعتين الأولى والثالثة، إلا أنها تبتعد عن نسبة الدراسة المذكورة والمتعلقة بالعاملين في «الخدمات».

لقد تركز حوالي ثلث العاملين من الفلسطينيين / الأردنيين في دول مجلس التعاون الخليجي في ١٩٧٥، في مجموعة «المهنيين والفنيين» (٣٥ بالمائة) وفي

مجموعة «عمال الانتاج والفعلة» (٣٣ بالمائة) إلا أن نسبة العاملين بينهم في «الخدمات» لم تتعد ٦,٢ بالمائة، في حين بلغت نسبة الكتبة ١٤,٥ بالمائة. ويتضح من بيانات تعدادات ومسوحات بعض دول الخليج والتي أجريت في مطلع الثمانينات، إلى أن هذه الفئة من المهاجرين قد حافظت على توزيعها المهني الملاحظ في منتصف السبعينات (الجدول رقم ١٠).

وإذا ما حاولنا أن نتطلع بشيء من التفصيل إلى المهن التي كان يزاولها الفلسطينيون / الأردنيون في الكويت عام ١٩٧٥، فسنجد أنهم «كانوا يزاولون مهناً علمية وفنية تتطلب مؤهلات جامعية من ناحية، كما كانوا يزاولون مهناً تقنية تتطلب تدريباً مهنياً مرتفعاً. فلقد شكلوا ٢٨ بالمائة من مجموع «المهندسين»، ٣٤ بالمائة من مجموع «المساحين والرسامين»، ٣٧ بالمائة من مجموع «الأطباء والصيادلة»، ٢٥ بالمائة من مجموع «العاملين بالتمريض»، ٣٨ بالمائة من مجموع «الاقتصاديين والمحاسبين» و ٣٠ بالمائة من «هيئات التدريس». كما أنهم شكلوا أيضاً ٢٣ بالمائة من «مشرفي الانتاج ورؤساء العمال»، ٢٠ بالمائة من «النجارين»، ٢٥ بالمائة من «الحدادين وصانعي الأجهزة الدقيقة»، ٢٥ بالمائة من «الكهربائيين»، ٢٧ بالمائة من «عمال الأدوات الصحية» و ٢٦ بالمائة من سائقي معدات النقل» (United Nations, ECWA 1982).

السياسات

صادرت السلطات الاسرائيلية، منذ احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة ولتاريخ نهاية ١٩٨٣، ما لا يقل عن ٤٠ بالمائة من مساحة الضفة وحوالي ثلث مساحة القطاع[(١١)]، كما أنها أقامت ما لا يقل عن ١٦٠ مستوطنة واستقدمت حوالي ١٢٨ ألفاً من المستوطنين، تركز القسم الأكبر منهم في منطقة القدس. وفي المقابل، ولغاية إنشاء اللجنة الأردنية الفلسطينية المشتركة إثر مؤتمر القمة العربي التاسع، بغداد ١٩٧٨، كان هناك غياب شبه تام لسياسة عربية فعالة لدعم الصمود في الأراضي المحتلة. وحتى بعد ذلك التاريخ، لم يتسن بعد للجنة المشتركة أن ترسم وتنفذ سياسة عربية فعالة تقف بوجه مصادرة الأراضي وإقامة المستوطنات الصهيونية وتثبت عرب فلسطين في ديارهم.

بقي أن نلقي الأضواء على السياسات التي كان من شأنها استقدام حوالي ثمانية آلاف مستوطن إسرائيلي، وبالمقابل تهجير حوالي تسعة عشر ألف فلسطينياً سنوياً خلال الفترة ١٩٦٧/١٩٨٢.

السياسات الاسرائيلية

□ **مصادرة الأراضي**: إن تاريخ المشروع الصهيوني حافل بنهج سياسة الأمر الواقع من خلال مصادرة الأراضي وإنشاء المستوطنات، وذلك بغية تحقيق أهداف سياسية وعسكرية. إن معظم الاسرائيليين ينظرون إلى احتلال الأراضي كترجمة عملية للمشروع الصهيوني، وعليه فإن سياسات مصادرة الأراضي تنفذ دون كلل (Benvensti, 1984, P. 19). تعكس هذه المقولة بوضوح أن عملية مصادرة الأراضي ليست عابرة في تاريخ المشروع الصهيوني، ويمكن على ضوئها فهم السرعة التي تمت من خلالها مصادرة الأراضي العربية، واستصدار «القوانين» التي تشرع ذلك.

ويبين الجدول رقم (١١) مساحة الأراضي المصادرة في الضفة والقطاع لغاية ١٩٨٣. وتجدر الاشارة أولاً إلى أن المساحات الواردة هنا لا تتضمن تلك التي فرضت السلطات الاسرائيلية قيوداً على استعمالها، كما أن مجموع المساحات الواردة لا يمثل بالضرورة مجموع المساحات المصادرة. لقد كان هناك أربعة «قوانين» رئيسية تم الاستناد إليها لمصادرة الأراضي. الأول وعرف باسم قانون مصادرة أملاك الغائبين، وهم الذين كانوا قد غادروا الضفة قبل ١٩٦٧ أو إبان الحرب، (٤٣٠ ألف دونم و ١١ ألف مبنى في الضفة الغربية و ٨ آلاف دونم في غزة). القانون الثاني يتعلق بمصادرة الأراضي في الضفة بشكل خاص، والتي كانت تمتلكها السلطات الأردنية (٧٥٠ ألف دونم). القانون الثالث يتعلق بالأراضي المصادرة لأغراض التدريب العسكري والتي حولت في معظمها للمستوطنين اليهود لاحقاً (١,١٥٠ مليون دونم). أما القانون الرابع الذي صدر سنة ١٩٨٠ فهو الأخطر إذ قضى بمصادرة الأراضي غير المزروعة وغير المسجلة في الدوائر العقارية[(١٢)]، (مليون دونم في الضفة و ٩٣ ألف دونم في غزة). كما أنه قضى، بخلاف القوانين السابقة، بإسقاط حق الملكية واعتبار الأراضي المصادرة كجزء من الثروة القومية الاسرائيلية، كما أشرنا سابقاً.

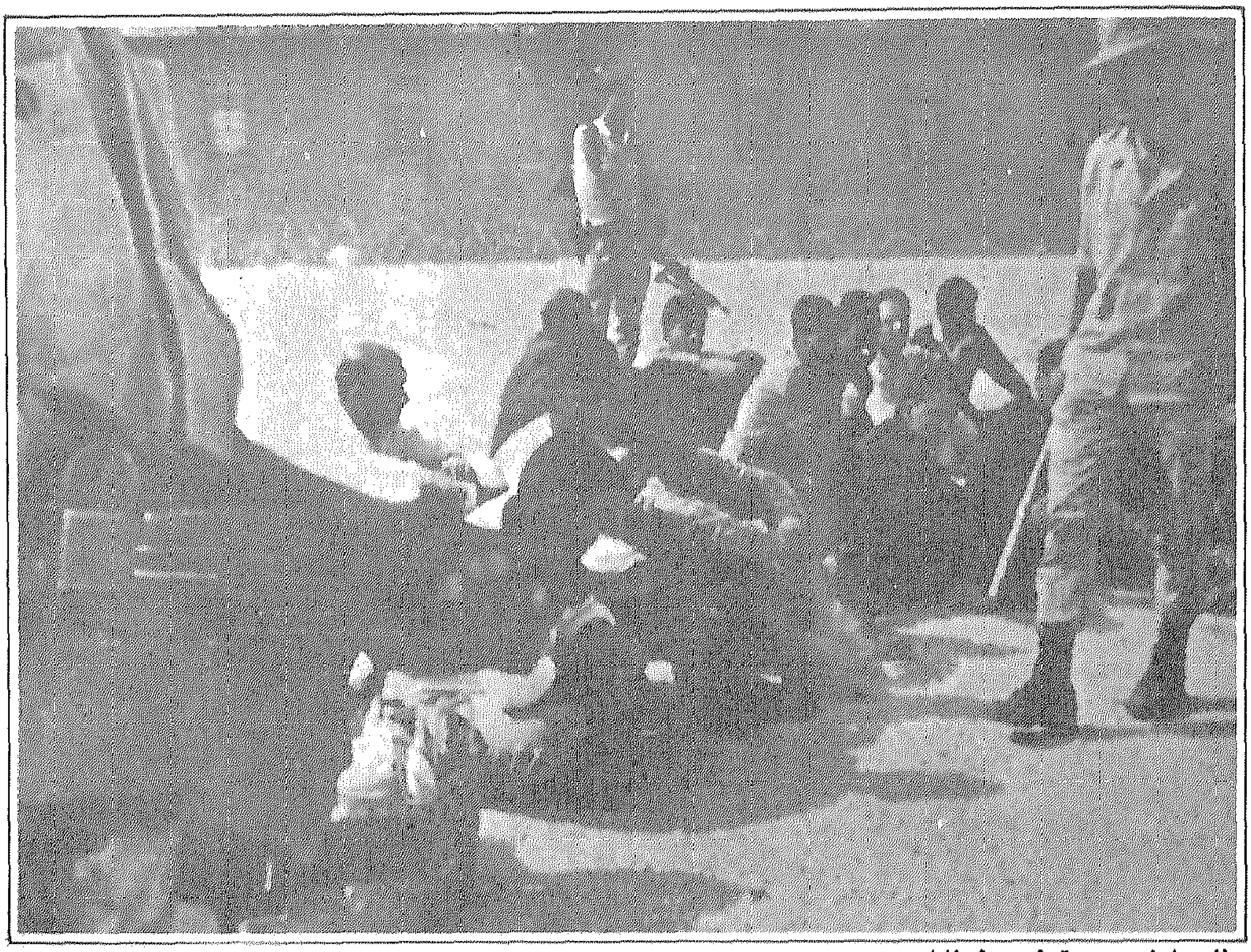

□ فلسطينيون موقوفون في نابلس.

وإذا ما حاولنا النظر إلى توزيع المساحات المصادرة بحسب المنطقة في الضفة الغربية، فسنجد أنه تمت مصادرة ما ينوف عن ثلث مجموع المساحة في منطقة القدس (٣٥ بالمائة)، وحوالي الخمس في كل من مناطق وادي الأردن، الخليل، بيت لحم، أريحا، ونابلس، جنين، طولكرم. وحوالي ٧ بالمائة في منطقة رام الله، البيرة (الجدول رقم ١٢).

ومن المفيد أن نذكر هنا أنه «منذ سبعة وثلاثين عاماً، ١٩٤٧، كان اليهود يملكون أقل من ١٠ بالمائة من مساحة فلسطين الواقعة تحت الانتداب. أما في عام ١٩٨٣ فأصبحوا يملكون ٨٥ بالمائة من هذه المساحة في حين يملك الفلسطينيون، بمن فيهم عرب إسرائيل، أقل من ١٥ بالمائة منها» (Benvensti, 1984, P. 19).

□ **إقامة المستوطنات**: لقد شهدت الحقبة الممتدة من سنة ١٩٧٧ حتى ١٩٨٤ تكثيفاً واسعاً لعمليات الاستيطان[١٣]، أدت لايجاد وقائع على الأرض يصعب إزالتها ووضعت الرأي العام الدولي أمام الأمر الواقع، كما جعلت قضية الاستيطان في الأراضي العربية تمثل ثقلاً خاصاً في السياسة الاسرائيلية الداخلية.

يبين الجدول رقم (١٣) بعض المؤشرات المتعلقة بالاستيطان خلال الفترة ١٩٧٩/١٩٨٣. ويستفاد من هذا الجدول أن الاستيطان قد تركز في منطقة القدس، إذ أصبحت تضم حوالي مئة ألف مستوطن مقارنة بحوالي ٢٧٥٠٠ مستوطن في بقية الضفة الغربية وحوالي ألف في غزة. أما بالنسبة لعدد المستوطنات فقد وصل إلى ١٥٣ مستوطنة في كافة أرجاء الضفة الغربية وإلى ثماني (أو اثنتي عشرة بحسب المصادر) في قطاع غزة.

وإذا ما تطلعنا إلى نمط المستوطنات في الضفة (باستثناء القدس) فسنجد أن حوالي ١٨ بالمائة منها هي حضرية و ٦٦ بالمائة ريفية شبه حضرية و ١٥ بالمائة عسكرية. وجدير بالذكر هنا، أن الجهة الاسرائيلية المسؤولة عن المستوطنة تختلف باختلاف النمط. فوزارة الاسكان تشرف على المستوطنات الحضرية، في حين تشرف المنظمة الصهيونية العالمية على المستوطنات الريفية وشبه الحضرية، كما تشرف

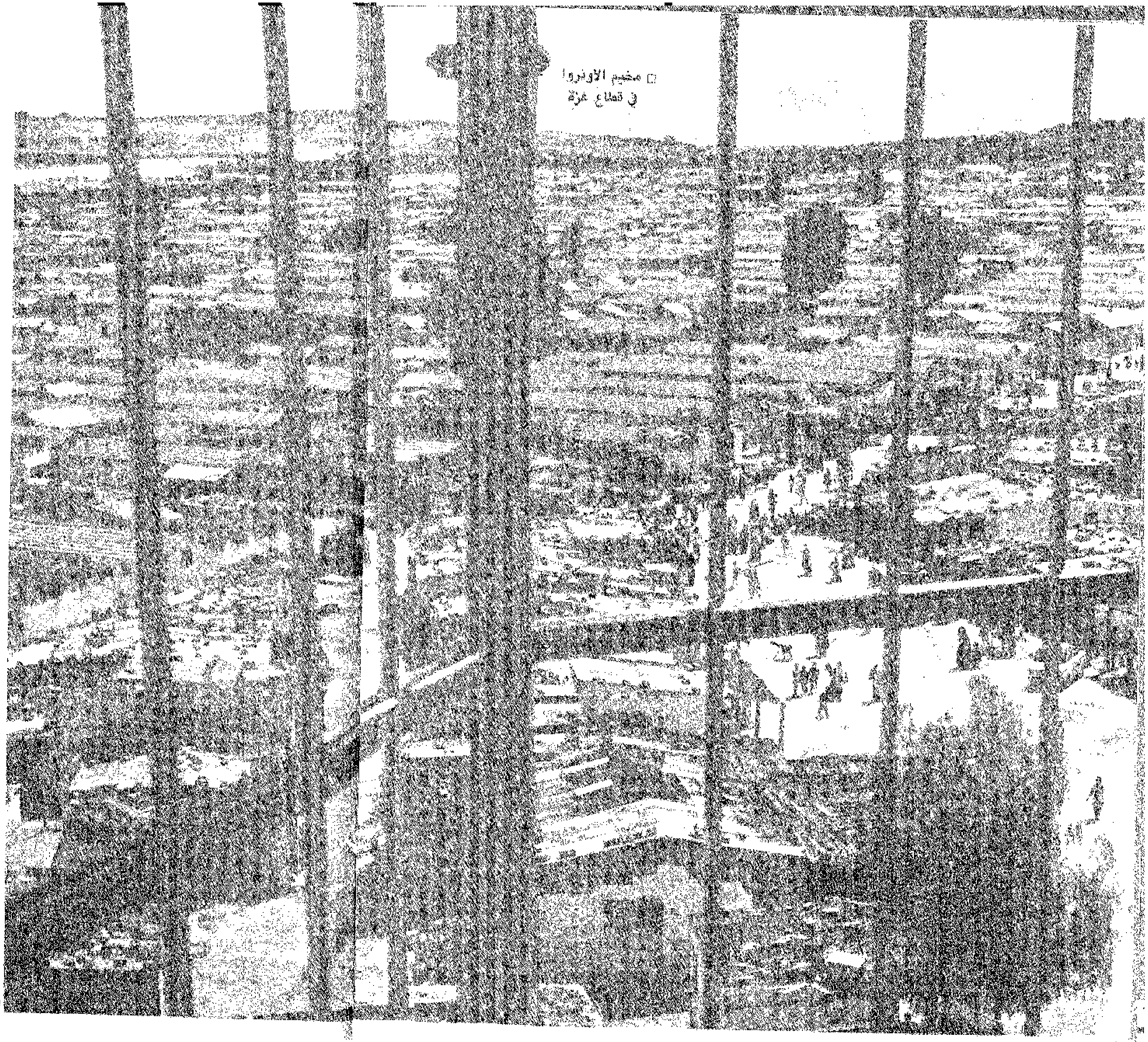

□ مخيم الاونروا في قطاع غزة

وزارة الزراعة على المستوطنات الواقعة في ضواحي المدن.

وتختلف المؤشرات المستقبلية للاستيطان باختلاف المصادر. ففي حين يشير (Benvensti, 1984, 50 and P. 61) إلى أن حجم المستوطنين سيرتفع من ٤٠ الفاً سنة ١٩٨٤ وإلى ٩٠ الفاً سنة ١٩٨٨ ليصل إلى ١١٥ الفاً سنة ١٩٩٠، يشير تقدير آخر (Laipson, 1983, P. 3) بالاستناد إلى خطة الاستيطان التي وافقت عليها الحكومة الاسرائيلية، إلى أن عدد المستوطنات سيصل إلى ١٦٥ في عام ١٩٨٨، كما أن حجم المستوطنين سيصل إلى مئة ألف في ذلك العام. أخيراً تشير بعض «التقارير الطموحة للمنظمة الصهيونية العالمية إلى أن حجم السكان اليهود في الضفة الغربية سيصل إلى ١,٤ مليون خلال الثلاثين سنة القادمة» (Laipson, 1983, P. 4).

وهكذا مع حلول ١٩٨٨، ستستقدم السلطات الاسرائيلية ما لا يقل عن مئتي ألف مستوطن إلى الضفة الغربية وقطاع غزة، وربما ستكون في ذلك العام قد صادرت نصف مجموع هاتين المنطقتين. وبالطبع سيترافق ذلك مع التهجير القسري للفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة. ويبقى السؤال مطروحاً حول السياسات العربية المتوجب اتباعها للتصدي لعمليات التهجير هذه ولتمكين الفلسطينيين من الصمود على أرضهم.

السياسات العربية

□ **اللجنة الأردنية الفلسطينية المشتركة:** مع إنشاء هذه اللجنة في أواخر عام ١٩٧٨، عقب مؤتمر القمة العربي التاسع الذي عقد في بغداد، تكون قد انشئت أول مؤسسة عربية لدعم الصمود في الضفة الغربية وقطاع غزة، وتأمين المحافظة «على مقومات وجود الشعب العربي الفلسطيني في الوطن المحتل وهويته الوطنية بجوانبها السياسية والاقتصادية والثقافية والنفسية والعقائدية» (بسيسو ١٩٨٤، ص ١٠).

لقد حددت اللجنة المشتركة مجموعة من الأهداف الفرعية التي تترجم الهدف العام المذكور سابقاً، والتي يفهم منها أنها تعنى أساساً «بالمحافظة على كيانية الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني بكافة أبعادها وعلى ترابها الوطني» (بسيسو ١٩٨٤،

ص ١١)، مما يؤكد طابعها الوطني العام وليس فقط دورها الاجتماعي والانساني.

«ولتحقيق هذا الهدف العام ينبغي تبني مجموعة من السياسات الرامية إلى تحقيق الغايات التالية:

١ ــ المحافظة على مقومات وجود الشخصية العربية الوطنية بقيمها ومؤسساتها وتوفير ما يمكن لها من أسباب التقدم الحضاري (بشقيه المادي والروحي).

٢ ــ التصدي لكافة أشكال السيطرة السياسية والاقتصادية والثقافية والعقائدية التي تحاول سلطات الاحتلال الصهيوني فرضها على شعبنا.

٣ ــ خلق مختلف الظروف والاجراءات والقوانين، وتبني تنفيذ ما يمكن في ظل الاحتلال من مشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية، بهدف دعم عملية انغراس المواطن العربي في أرضه، والحد من هجرته.

٤ ــ الحد، وإلى الحد الأقصى المتاح، من التشابك في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية مع الكيان الصهيوني، ودعم وتشجيع المحافظة على علاقات الوطن المحتل مع الأردن والعالم العربي الاسلامي.

وتأكيداً على ما سبق، فإن الهدف الاستراتيجي لا ينبغي أن يكون مجرد الثبات في الأرض الفلسطينية المحتلة. وإنما المحافظة على كيانية الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني بكافة أبعادها وعلى ترابها الوطني» (بسيسو، ١٩٨٤).

ضمن هذا التطور الوطني العام لدور اللجنة يمكننا الوقوف قليلاً على نشاطاتها خلال الفترة ١٩٧٩ ــ ١٩٨٣ وذلك من خلال الجدول رقم ١٤ الذي يبين توزيع المخصصات بحسب القطاعات المختلفة. ويستفاد منه أن الخدمات الاجتماعية (تعليم، مجالس بلدية، تنمية اجتماعية، صحة إلخ) قد استحوذت على القسم الأكبر من الميزانية (ما لا يقل عن نصف المخصصات) في حين لم تستحوذ القطاعات المنتجة، الصناعة والزراعة، على أكثر من ١٤,٣ بالمائة، كما أن الاسكان استحوذ على حوالي الخمس (١٩ بالمائة). وعليه يمكن القول أنه لم يكن هناك موازنة بين دعم القطاعات السلعية والتي هي حجر الأساس في الصمود الاقتصادي، وبين دعم قطاعات الخدمات التي توفر الحد الأدنى من متطلبات العيش. ويعود السبب في اتباع هذه السياسة إلى إهمال سلطات الاحتلال الاسرائيلي في القيام بتوفير خدمات الحد الأدنى، لا بل عرقلة الجهود العربية في هذا الاتجاه. إلا أنه يمكننا القول أن حصة القطاعات المنتجة غير كافية، وبالتالي يتوجب رفعها بشكل محسوس لكي تفي بمتطلبات الصمود الاقتصادي. وقد يكون من الممكن التنسيق بين مختلف الجهات العاملة في الضفة الغربية وقطاع غزة في المجالات الاجتماعية والانسانية، (وهي ليست بقليلة العدد كما أنها ليست بمحدودة الامكانات) بحيث توجه إنفاقها إلى المجالات التي تصب مباشرة في أعمال اللجنة المشتركة وخاصة في مجال البنية التحتية والخدمات، فيتحقق بالتالي للجنة وفر يمكن استخدامه في القطاعات المنتجة.

أخيراً تجدر الاشارة، ونحن في معرض سياسات الصمود، إلى قرار كانت اتخذته الحكومة الأردنية عام ١٩٨٣، يقضي بالحد من انتقال الشباب في سن الجندية من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية. إننا نعتقد بصحة هذا القرار من حيث أنه سيحد من تفريغ الضفة الغربية، إلا أنه سيبقى أحادي الجانب إذا لم يوفر للمقيمين هناك الحد الأدنى من متطلبات الصمود.

□ **المحاور الرئيسية للصمود الاقتصادي**: لا بد أولاً من إلقاء الضوء على المعيار الأساسي الذي يتم على ضوئه وضع الأولويات في سلسلة المشاريع الاقتصادية الرامية إلى تعزيز الصمود في الأراضي العربية المحتلة. فإذا ما كان المردود المادي هو المنشود عادة في مشاريع القطاعات المنتجة، إلا أن هذه المقولة لا تصح في حالة المشاريع الانمائية في الضفة الغربية وقطاع غزة، حيث يتوجب تطبيق مفهوم المردود الاجتماعي السياسي بدلاً من المردود الاقتصادي. بمعنى أن يكون الهدف عند وضع أولويات المشاريع الاقتصادية في الضفة والقطاع وعند تقييمها، هو أولاً مدى مساهمة هذه المشاريع في تعزيز الصمود ومدى توفيرها لفرص العمل هناك، ومن ثم النظر للتكلفة المادية لهذه المشاريع. فقد تلجأ الهيئات المختصة في بعض الأحيان إلى شراء المحاصيل الزراعية من المزارعين بسعر تشجيعي وبيعه بسعر أقل من سعر الكلفة، وما ذلك إلا لدعم صمود المزارعين المقيمين في الضفة والقطاع.

يجمع دارسو اقتصاديات الأراضي العربية المحتلة

على أن المحافظة على الأرض هي المهمة الأولى في سياسة الصمود، وبالتالي فإنهم يولون دعم قطاعي الزراعة والاسكان اهتماماً خاصاً. ولقد رأينا كيف أن السلطات الاسرائيلية ماضية قدماً في قضم الأرض في الضفة والقطاع من خلال مصادرة الأراضي وإقامة المستوطنات، وعليه يمسي التمسك بالأرض أولى أولويات دعم الصمود. «إن حماية الأرض لا يمكن أن تتم إلا عبر المحافظة على المساحات المزروعة حالياً أولاً، وعبر الحد من ترك الأرض لصالح النشاطات الاقتصادية الأخرى ثانياً، وعبر استصلاح أراض

□ مسجد عربي في بير سبع، تحول إلى متحف يهودي.

جديدة للتعويض عن الأراضي الزراعية المصادرة من قبل السلطات الاسرائيلية ثالثاً. أما أسباب تركيز الدعم على القطاع الزراعي «فتعود إلى محدودية تطوير القطاع الصناعي، وإلى وجود أراض شاسعة غير مستغلة، وإلى إمكانية الزراعة في مزاحمة المنتجات الاسرائيلية أكثر من إمكانية أي قطاع اقتصادي آخر، وإلى قدرة الزراعة في استيعاب أيد عاملة كثيفة، وإلى كون استصلاح الأراضي لا يتطلب إذناً مسبقاً من السلطات الاسرائيلية» (منصور ١٩٨٤).

كما أن حماية الأرض تمر عبر دعم قطاع الاسكان. ولقد أثبتت التجربة أن الانتشار الأفقي للمساكن يحد من الاستيطان، كما أنه في الوقت نفسه يوفر بعض متطلبات الحد الأدنى من العيش اللائق. وذلك لا يعني بطبيعة الحال إهمال القطاع الصناعي في الضفة والقطاع، إلا أن دعم هذا القطاع يأتي في المرتبة الثانية بعد المحافظة على الأرض. ومن أهم المعايير في انتقاء المشاريع الصناعية، يأتي أولاً انتقاء الصناعات التي تكثف استخدام القوى البشرية، وليس تلك ذات الكثافة الراسمالية، إذ أن المطلوب أولاً هو المردود الاجتماعي (وبالتالي إيجاد فرص عمل للمقيمين في الضفة والقطاع)، وليس المردود الاقتصادي. كما يتوجب في المشاريع الصناعية المنتقاة أن تكون الأقل ارتباطاً بالاقتصاد الاسرائيلي، سواء من حيث استيراد المواد الأولية أو من حيث التسويق. وعليه فإن الدعم يجب أن يتركز حول الصناعات الحرفية والصناعات الزراعية[١٤].

يبقى إيلاء مسألة تسويق منتوجات الضفة الغربية وقطاع غزة الأهمية اللازمة كمحور من المحاور الرئيسية للصمود الاقتصادي، إذ أن تكدس البضائع في فترة معينة، يخفض من سعرها أولاً كما يعرضها للتلف ثانياً، مما ينعكس سلباً على المنتجين. ويجب التخطيط للتسويق ابتداء من التخزين وانتهاء

الجدول رقم (١): الفلسطينيون حسب مكان الاقامة، ١٩٨١ (الارقام بالالاف)

مكان الاقامة	الارقام المطلقة	النسبة المئوية
الضفة الغربية	٨٣٣ر٠	١٨ر٢
قطاع غزة	٤٥١ر٦	٩ر٩
فلسطين المحتلة قبل ١٩٦٧	٥٥٠ر٨	١٢ر٠
مجموع فلسطين	١ ٨٣٥ر٤	٤٠ر٢
الاردن	١ ١٤٨ر٢	٢٥ر١
سورية	٢٢٢ر٦	٤ر٩
لبنان	٤٩٢ر٢	١٠ر٨
الكويت	٢٩٤ر٩	٦ر٥
العراق	٢٠ر٦	٠ر٥
الجماهيرية العربية الليبية	٢٣ر٨	٠ر٥
مصر	٣٤ر٣	٠ر٨
العربية السعودية	١٣٧ر٠	٣ر٠
الامارات العربية المتحدة	٣٧ر٠	٠ر٨
قطر	٢٤ر٠	٠ر٥
باقي الدول العربية	٥١ر٠	١ر١
الولايات المتحدة الامريكية	١٠٥ر٠	٢ر٣
باقي دول العالم	١٤٠ر٠	٣ر١
المجموع	٤ ٥٦٦ر٠	١٠٠ر٠

المصدر: منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٢، ص. ٣٢.

الجدول رقم (٢) : المهاجرون الفلسطينيون من الضفة الغربية خلال ١٩٥٢ - ١٩٦٧

	المقيمون فعليا (أ) في بداية المرحلة	المقيمون فعليا في نهاية المرحلة	المقيمون نظريا (ب) في نهاية المرحلة	المهاجرون	معدل النمو السنوي (٪)
١٩٦١/١٩٥٢	٧٤٣ ٢٨٩	٨٠١ ٣٥٦	٩٥٣ ٩٠٠	٢١٠ ٦٠٠	٨٣ر٠
١٩٦٧/١٩٦١	٨٠١ ٣٥٦	٨٠٣ ٦٠٠	٩٥٥ ٦٠٠	١٥٤ ٢٠٠	٠٥ر٠
١٩٦٧/١٩٥٢	٧٤٣ ٢٨٩	٨٠٣ ٦٠٠	١ ١٣٨ ٥٠٠	٣٩٦ ٢٠٠	٥٤ر٠

المصادر: تقديرات الكاتب بالاستناد الى : Jordan 1953؛ Kossaifi 1976, pp. 240-250؛ و الاردن ١٩٦١.

ملاحظات: (أ) تتوافق بداية المرحلة ١٩٦١/١٩٥٢ مع تعداد المساكن الاردني الذى اجرى في آب ١٩٥٢، كما تتوافق النهاية مع تاريخ أول تعداد للسكان في الاردن في تشرين ثان ١٩٦١. اما التقدير المعطى في ١٩٦٧ فيعود الى عشية حرب حزيران ١٩٦٧ (١٩٦٧/٥/٣١ تحديدا).

(ب) تم تطبيق معدل للنمو السكاني بلغ ٧ر٢ بالمائة خلال ١٩٦١/١٩٥٢، ٣ر٢ بالمائة خلال ١٩٦٧/١٩٦١ و٩ر٢ بالمائة خلال ١٩٦٧/١٩٥٢.

بتصريف البضائع، ليس فقط في الأردن بل وفي غيره من البلدان العربية، وبقية دول العالم.

□ **الوجه السياسي للصمود الاقتصادي:** إذا ما تصورنا جدلاً وجود إمكانية مادية غير محدودة لدعم الصمود، فإن ذلك لن يحقق الأهداف المنشودة كلياً، وذلك لأن السلطات الاسرائيلية تنهج سياسة واعية بتهجير الفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة، فما بالك لو كانت أموال دعم الصمود محدودة اصلاً. فخلال الفترة ١٩٧٩ ـ ١٩٨٣ لم يتم تسديد إلا حوالي ثلثي المخصصات (٦٨,٨ بالمائة)، كما وإنه من المتوقع أن ينخفض حجم المخصصات نظراً للانخفاض اللاحق بالعائدات البترولية.

وإذا ما كانت المشاركة الجماهيرية هي أحد الشروط الأساسية في إنجاح عملية التنمية في اي قطر من الأقطار، فإن هذا الشرط يضحى أكثر إلحاحاً في حالة الضفة الغربية وقطاع غزة، نظراً لممارسات الاحتلال الاسرائيلي هناك. وعليه فإن التخطيط لدعم الصمود في الأراضي العربية المحتلة يقتضي رفع مستوى المشاركة الجماهيرية تعويضاً عن إمكانيات الدعم المحدودة.

وما يقال عن الوجه السياسي للصمود الاقتصادي في الضفة والقطاع، يجب أن يقال أيضاً في بقية أنحاء الوطن العربي، بمعنى أنه يجب أن تحظى منتوجات الأراضي العربية المحتلة بنوع من الدعم الحكومي والشعبي.

لقد ركزنا على المحاور الرئيسية للصمود الاقتصادي، واضعين المحافظة على الأرض، وبالتالي دعم قطاعي الزراعة والاسكان، في أولى الأولويات، وموليين الصناعات الحرفية والزراعية اهتماماً خاصاً، وكذلك موضوع تسويق منتجات الضفة والقطاع. غير أن الصمود الاقتصادي ما هو إلا جانب من جوانب سياسة الصمود عامة بالاضافة إلى الصمود السياسي والصمود العسكري. وعليه يجب النظر إلى حصيلة الصمود الاقتصادي من خلال تفاعله مع جوانب سياسة الصمود الأخرى. •

الجدول رقم(٣): المهجرون الفلسطينيون من الضفة الغربية (باستثناء القدس الشرقية) وقطاع غزة خلال ١٩٦٧/١٩٨٢ (بالالاف)

	المقيمون فعليا في بداية المرحلة(أ)	المقيمون فعليا في نهاية المرحلة	المقيمون نظريا في نهاية المرحلة(ب)	المهجرون	معدل النمو السنوى بالمائة
الضفة الغربية (باستثناء القدس الشرقية)					
١٩٦٧/٦- ١٩٦٧/٩	٨٠٣ر٦	٥٩٥ر٩	٨١٠ر٠	١٤٨ر٣	
١٩٦٧/٩-١٩٦٧/١٢	٦٦١ر٨	٥٨٥ر٩	٦٠٠ر٧	١٤ر٨	
١٩٦٧/١٩٧٤	٥٨٥ر٩	٦٦٣ر٧	٧٣٣ر٢	٦٩ر٥	١ر٧٨
١٩٧٤/١٩٨٣	٦٦٣ر٧	٧٤٧ر٥	٨٦٨ر٧	١٢١ر٣	١ر٤٩
١٩٦٧/٦- ١٩٨٣	٨٠٣ر٦	٨٧٧ر٢	١ ٣٤٢ر٧	٤٦٥ر٥	٠ر٥٦
قطاع غزة (ج)					
١٩٦٧/٦- ١٩٦٧/٩	٤٥٣ر٦(د)	٣٥٦ر٤	٤٥٦ر٣	٩٩ر٨	
١٩٦٧/٩-١٩٦٧/١٢	٣٥٦ر٤	٣٥٣ر٣	٣٥٩ر٣	٧ر٠	
١٩٦٧/١٩٧٤	٣٥٣ر٣	٣٨٤ر٠	٤٤٠ر٩	٥٦ر٩	١ر٢٣
١٩٧٤/١٩٨٣	٣٨٤ر٠	٤٧٦ر٣	٥٠٢ر٧	٢٦ر٤	٢ر٦٩
١٩٦٧/٦- ١٩٨٣	٤٥٣ر٦	٤٧٦ر٣	٧٥٦ر٢	٢٧٩ر٩	٠ر٣٣

المصادر: تقديرات الكاتب بالاستناد الى: Kossaifi 1976, pp. 280-284 ; (Israel, 1968, a.) ; Israel 1983, p. 758.

ملاحظات : (أ) تم إدخال بيانات القدس الشرقية خلال ١٩٦٧/٦ - ١٩٦٧/٩ و ١٩٦٧/٦ - ١٩٨٣.

(ب) تم تطبيق معدلات النمو السنوية المستخرجة من إسقاط السكان في الضفة الغربية خلال ١٩٦٧/١٩٩٢.

(ج) لقد تم إستبعاد سكان منطقة العريش في كافة المراحل.

(د) تم تقدير حجم سكان القطاع في منتصف ١٩٦٤ بـ ٤١٢ر٣ الفا ومعدل النمو خلال ١٩٦٤/١٩٦٧ بـ ٣ر٢ بالمائة.

الجدول رقم (٤): اسقاط السكان الفلسطينيين المقيمين في الضفة الغربية (باستثناء القدس الشرقية) حسب العمر والجنس، ١٩٦٧-١٩٩٢
(الارقام بالآلاف وهي لنهاية العام)

فئات	١٩٦٧			١٩٧٢			١٩٧٧		
العمر	ذكور	اناث	مجموع	ذكور	اناث	مجموع	ذكور	اناث	مجموع
٠ - ٤	٦٢ر١	٥٨ر٢	١٢٠ر٣	٦٩ر٩	٦٦ر٦	١٣٦ر٥	٧٧ر٩	٧٤ر١	١٥٢ر٠
٥ - ٩	٥٢ر٥	٤٨ر٩	١٠١ر٤	٥٩ر٢	٥٥ر٥	١١٤ر٧	٦٧ر٢	٦٤ر٠	١٣١ر٢
١٠-١٤	٤٢ر١	٣٥ر٠	٧٧ر١	٥١ر٧	٤٨ر٢	٩٩ر٩	٥٨ر٥	٥٤ر٨	١١٣ر٣
١٥-١٩	٢٥ر٥	٢٣ر٨	٤٩ر٣	٤١ر٥	٣٤ر٥	٧٦ر٠	٥١ر١	٤٧ر٦	٩٨ر٧
٢٠-٢٤	١٥ر٦	٢٠ر٥	٣٦ر١	٢٥ر٠	٢٣ر٣	٤٨ر٣	٤٠ر٨	٣٣ر٩	٧٤ر٧
٢٥-٢٩	١٣ر٣	١٧ر٤	٣٠ر٧	١٥ر٢	٢٠ر٠	٣٥ر٢	٢٤ر٥	٢٢ر٨	٤٧ر٣
٣٠-٣٤	١١ر٣	١٥ر١	٢٦ر٤	١٢ر٩	١٦ر٩	٢٩ر٨	١٤ر٨	١٩ر٥	٣٤ر٣
٣٥-٣٩	١٠ر١	١٣ر٢	٢٣ر٣	١٠ر٩	١٤ر٦	٢٥ر٥	١٢ر٥	١٦ر٤	٢٨ر٩
٤٠-٤٤	٩ر٠	١١ر٥	٢٠ر٥	٩ر٧	١٢ر٧	٢٢ر٤	١٠ر٥	١٤ر١	٢٤ر٦
٤٥-٤٩	٨ر٢	١٠ر١	١٨ر٣	٨ر٦	١١ر٠	١٩ر٦	٩ر٣	١٢ر١	٢١ر٤
٥٠-٥٤	٧ر٦	٩ر٠	١٦ر٦	٧ر٧	٩ر٥	١٧ر٢	٨ر١	١٠ر٤	١٨ر٥
٥٥-٥٩	٧ر٠	٧ر٩	١٤ر٩	٧ر٠	٨ر٢	١٥ر٢	٧ر١	٨ر٧	١٥ر٨
٦٠-٦٤	٦ر٥	٦ر٧	١٣ر٢	٦ر٢	٦ر٩	١٣ر١	٦ر٢	٧ر٣	١٣ر٥
٦٥-٦٩	٦ر٢	٥ر٩	١٢ر١	٥ر٤	٥ر٦	١١ر٠	٥ر٢	٥ر٨	١١ر٠
٧٠-٧٤	٥ر٩	٥ر٠	١٠ر٩	٤ر٧	٤ر٤	٩ر١	٤ر١	٤ر٣	٨ر٤
٧٤-٧٩	٥ر٠	٤ر٥	٩ر٥	٣ر٩	٣ر٣	٧ر٢	٣ر١	٣ر٠	٦ر١
٨٠ فاكثر	٢ر٨	٢ر٥	٥ر٣	٣ر٧	٣ر٣	٧ر٠	٣ر٥	٣ر٠	٦ر٥
المجموع	٢٩٠ر٧	٢٩٥ر٢	٥٨٥ر٩	٣٤٣ر٢	٣٤٤ر٥	٦٨٧ر٧	٤٠٤ر٤	٤٠١ر٨	٨٠٦ر٢

الجدول رقم (٤): (تابع)

فئات	١٩٨٢			١٩٨٧			١٩٩٢		
العمر	ذكور	اناث	مجموع	ذكور	اناث	مجموع	ذكور	اناث	مجموع
٠ - ٤	٩٦ر٦	٩٢ر٠	١٨٨ر٦	١٢١ر٩	١١٦ر١	٢٣٨ر٠	١٤٨ر١	١٤١ر١	٢٨٩ر٢
٥ - ٩	٧٥ر٣	٧١ر٧	١٤٧ر٠	٩٤ر١	٨٩ر٦	١٨٣ر٧	١١٩ر٢	١١٣ر٦	٢٣٢ر٨
١٠-١٤	٦٦ر٥	٦٣ر٤	١٢٩ر٩	٧٤ر٧	٧١ر١	١٤٥ر٨	٩٣ر٤	٨٩ر٠	١٨٢ر٤
١٥-١٩	٥٧ر٩	٥٤ر٣	١١٢ر٢	٦٦ر٠	٦٢ر٩	١٢٨ر٩	٧٤ر٢	٧٠ر٧	١٤٤ر٩
٢٠-٢٤	٥٠ر٤	٤٦ر٩	٩٧ر٣	٥٧ر٣	٥٣ر٧	١١١ر٠	٦٥ر٤	٦٢ر٣	١٢٧ر٧
٢٥-٢٩	٤٠ر١	٣٣ر٣	٧٣ر٤	٤٩ر٧	٤٦ر٣	٩٦ر٠	٥٦ر٦	٥٣ر٠	١٠٩ر٦
٣٠-٣٤	٢٣ر٩	٢٢ر٣	٤٦ر٢	٣٩ر٤	٣٢ر٨	٧٢ر٢	٤٩ر٠	٤٥ر٦	٩٤ر٦
٣٥-٣٩	١٤ر٤	١٩ر٠	٣٣ر٤	٢٣ر٤	٢١ر٩	٤٥ر٣	٣٨ر٧	٣٢ر٢	٧٠ر٩

الجدول رقم (٤): (تابع)

فئات العمر	١٩٨٢ ذكور	١٩٨٢ اناث	١٩٨٢ مجموع	١٩٨٧ ذكور	١٩٨٧ اناث	١٩٨٧ مجموع	١٩٩٢ ذكور	١٩٩٢ اناث	١٩٩٢ مجموع
٤٠-٤٤	١٢ر١	١٥ر٩	٢٨ر٠	١٤ر١	١٨ر٥	٣٢ر٦	٢٢ر٩	٢١ر٤	٤٤ر٣
٤٥-٤٩	١٠ر١	١٣ر٥	٢٣ر٦	١١ر٨	١٥ر٤	٢٧ر٢	١٣ر٧	١٨ر٠	٣١ر٧
٥٠-٥٤	٨ر٨	١١ر٥	٢٠ر٣	٩ر٧	١٢ر٩	٢٢ر٦	١١ر٣	١٤ر٨	٢٦ر١
٥٥-٥٩	٧ر٥	٩ر٦	١٧ر١	٨ر٣	١٠ر٨	١٩ر١	٩ر١	١٢ر٢	٢١ر٣
٦٠-٦٤	٦ر٤	٧ر٨	١٤ر٢	٦ر٨	٨ر٧	١٥ر٥	٧ر٦	٩ر٩	١٧ر٥
٦٥-٦٩	٥ر٣	٦ر٢	١١ر٥	٥ر٥	٦ر٨	١٢ر٣	٥ر٩	٧ر٦	١٣ر٥
٧٠-٧٤	٤ر٠	٤ر٦	٨ر٦	٤ر٢	٤ر٩	٩ر١	٤ر٤	٥ر٤	٩ر٨
٧٤-٧٩	٢ر٨	٢ر٩	٥ر٧	٢ر٨	٣ر٢	٦ر٠	٣ر٠	٣ر٥	٦ر٥
٨٠ فاكثر	٣ر١	٢ر٨	٥ر٩	٢ر٩	٢ر٨	٥ر٧	٢ر٩	٣ر٠	٥ر٩
المجموع	٤٨٥ر٢	٤٧٧ر٧	٩٦٢ر٩	٥٩٢ر٦	٥٧٨ر٤	١١٧١ر٠	٧٢٥ر٤	٧٠٣ر٣	١٤٢٨ر٧

المصدر: حسابات الكاتب.
ملاحظات: تم تصحيح هرم الاعمار الذي وفره التعداد الاسرائيلي في عام ١٩٦٧ على الشكل التالي:
(أ) تصحيح فئتي العمر: صفر - ٤ و ٥ - ٩ من خلال حساب المواليد خلال الفترتين ١٩٥٧/١٩٦٧ و١٩٦٢/١٩٦٧، (٤٧٦ ٦٥ بدل ٩٨٨ ٥٥ و٤٨١ ٦٣ بدل ١٦٦ ٥١ للذكور والاناث على التوالي في الفئة العمرية : صفر - ٤، و ٣٤١ ٥٥ بدل ٩٧٣ ٥١ و ٥٣٩ ٥٢ بدل ٨٨٥ ٤٦ للذكور والاناث على التوالي في الفئة العمرية ٥ - ٩).
(ب) تصحيح الفئات ٢٥ عاما فاكثر باستخدام التمهيد باليد.
(ج) توزيع فئة «غير مبين» حسب النسب العمرية.

□ منزل عربي في بير سبع، تحول إلى صيدلية يهودية.

الجدول رقم(٥): توقع الحياة عند الولادة ومؤشرات الخصوبة المتوقعة للفلسطينيين خلال ١٩٦٧/١٩٩٢

فئة العمر	٧٢/١٩٦٧	٧٧/١٩٧٢	٨٢/١٩٧٧	٨٧/١٩٨٢	٩٢/١٩٨٧
معدلات الخصوبة حسب العمر(أ)					
١٥ - ١٩	١٠٨	٩٨	٩٤	٩٢	٨٩
٢٠ - ٢٤	٣٨٩	٣٥٣	٣٣٩	٣٣٠	٣٢١
٢٥ - ٢٩	٤٤٩	٤٠٦	٣٩١	٣٨٠	٣٧٠
٣٠ - ٣٤	٣٦٣	٣٢٨	٣١٥	٣٠٦	٢٩٨
٣٥ - ٣٩	٢٦٦	٢٤١	٢٣٢	٢٢٥	٢١٩
٤٠ - ٤٤	٩٦	٨٧	٨٤	٨٣	٧٩
٤٥ - ٤٩	٢٩	٢٦	٢٥	٢٥	٢٤
معدل الخصوبة الاجمالي(ب)	٨ر٥	٧ر٧	٧ر٤	٧ر٣	٧ر٠
توقع الحياة عند الولادة(ج)	٥٣	٥٦	٥٨	٦١	٦٣

المصدر: تقديرات الكاتب بالاستناد الى Shrydeh 1984, pp. 38-41 and 63-67.

ملاحظات: (أ) معدلات الخصوبة حسب العمر لكل ١٠٠٠ امرأة. وتجدر الاشارة الى انه تم إفتراض ثبات نمط الخصوبة حسب العمر، كما وفرته بيانات مسح الخصوبة العالمي في الاردن عام ١٩٧٦.

(ب) معدل الخصوبة الاجمالي للمرأة الواحدة.

(ج) تم إفتراض نفس توقع الحياة عند الولادة للذكور والاناث.

الجدول رقم (٦): التوزيع المئوي للمهاجرين والمهجرين من الضفة الغربية حسب العمر والجنس، خلال ١٩٦١/١١ - ١٩٦٧/٩

فئة العمر	الذكور	الاناث	المجموع
صفر - ٤	١٥ر٣	١٧ر٦	١٦ر٥
٥ - ٩	١٥ر٣	١٣ر٩	١٤ر٦
١٠-١٤	١٢ر٧	١١ر٦	١٢ر١
١٥-١٩	١٧ر٩	١٦ر٣	١٧ر١
٢٠-٢٤	١٥ر٥	١٢ر٤	١٣ر٩
٢٥-٢٩	٧ر٣	٧ر٩	٧ر٦
٣٠-٣٤	٦ر٢	٥ر٧	٥ر٩
٣٥-٣٩	٣ر٣	٤ر٣	٣ر٨
٤٠-٤٤	٢ر٣	٣ر٦	٢ر٩
٤٥-٤٩	٠ر٩	٢ر٢	١ر٥
٥٠ فاكثر	٣ر٦	٤ر٦	٤ر١
المجموع	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠

المصدر: حسابات الكاتب.

ملاحظة : لقد تم الوصول الى هذه الارقام من خلال إسقاط بيانات تعداد تشرين ثان ١٩٦١ الاردني لغاية ايلول ١٩٦٧، وطرحها من بيانات تعداد ايلول ١٩٦٧ الاسرائيلي، والخاصة بالضفة الغربية (بما فيها القدس الشرقية).

الجدول رقم(٧): المهجرون الفلسطينيون من الضفة الغربية (باستثناء القدس الشرقية) حسب العمر(١)، ١٩٦٧/١٩٧٢، ١٩٦٧/١٩٧٧ و١٩٦٧/١٩٨٢

فئة العمر	١٩٦٧/١٩٧٢ الارقام المطلقة	١٩٦٧/١٩٧٢ النسبة المئوية	١٩٦٧/١٩٧٧ الارقام المطلقة	١٩٦٧/١٩٧٧ النسبة المئوية	١٩٦٧/١٩٨١ الارقام المطلقة	١٩٦٧/١٩٨١ النسبة المئوية
٠ - ٤	٢٤ر٣	٤٥ر٠	٢٣ر١	٢٠ر٩	٥٧ر٩	٢٦ر٩
٥ - ٩	١٣ر٥	٢٥ر٠	٣٠ر٠	٢٧ر٢	٣١ر٢	١٤ر٥
١٠-١٤	٥ر٧	١٠ر٦	١٥ر٤	١٣ر٩	٣٢ر٤	١٥ر٠
١٥-١٩	١ر٧	٣ر١	٨ر٩	٨ر١	٢٠ر٥	٩ر٣
٢٠-٢٤	٧ر٠	١٣ر٠	٩ر٠	٨ر١	٢٠ر٠	٩ر٣
٢٥ فاكثر	١ر٨	٣ر٣	٢٤ر٠	٢١ر٨	٥٣ر٩	٢٥ر٠
المجموع	٥٤ر٠	١٠٠ر٠	١١٠ر٤	١٠٠ر٠	٢١٥ر٤	١٠٠ر٠

المصدر: حسابات الكاتب.

ملاحظة : (١) لقد تم طرح حجم السكان المسقط حسب العمر، من توزيع السكان حسب العمر كما ورد في الاحصاءات الاسرائيلية.

الجدول رقم (٨): التوزيع المئوى حسب العمر والجنس للفلسطينيين/ الاردنيين في الكويت خلال ١٩٥٧/١٩٧٠[أ] وفي مجموع دول مجلس التعاون الخليجي ١٩٧٥[ب]

فئة العمر	الكويت			الامارات العربية المتحدة	العربية السعودية	مجلس التعاون الخليجي
	١٩٥٧	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٧٤	١٩٧٥
اقل من ١٥	١٩ر٣	٣٥ر٣	٥٠ر٤	٣٨ر٩	٥٠ر٢	٥١ر٠
١٥-٦٤	٨٠ر٦	٦٤ر٢	٤٨ر٩	٦٠ر٦	٤٨ر٩	٤٨ر٢
٦٥ فاكثر	٠ر٢	٠ر٥	٠ر٧	٠ر٥	٠ر٩	٠ر٨
المجموع	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠
معدل الجنس	٣١١ر٥	١٧٧ر٩	١١٨ر٠	١٦٤ر٥	١١٩ر٧	١١٨ر٦

المصادر: تقديرات الكاتب بالاستناد الى التعدادات الرسمية؛ Kossaifi, unpublished, Table 2.

ملاحظات: (أ) لم تنشر الكويت بعد تعداد ١٩٧٠ الجنسيات مفصلة حسب فئات العمر الخمسية.

(ب) تشير بيانات بعض المسوحات والتعدادات التي أجريت في أقطار الخليج، مع بداية الثمانينات، الى فتوة التركيب العمرى والجنسي للفلسطينيين/الاردنيين، اذ لم تتدن نسبة الاولاد دون الخامسة عشرة عن ٤٥ بالمائة من المجموع. كما ان معدل الجنس تراوح بين ١٣٠ و١٤٠ بالمائة.

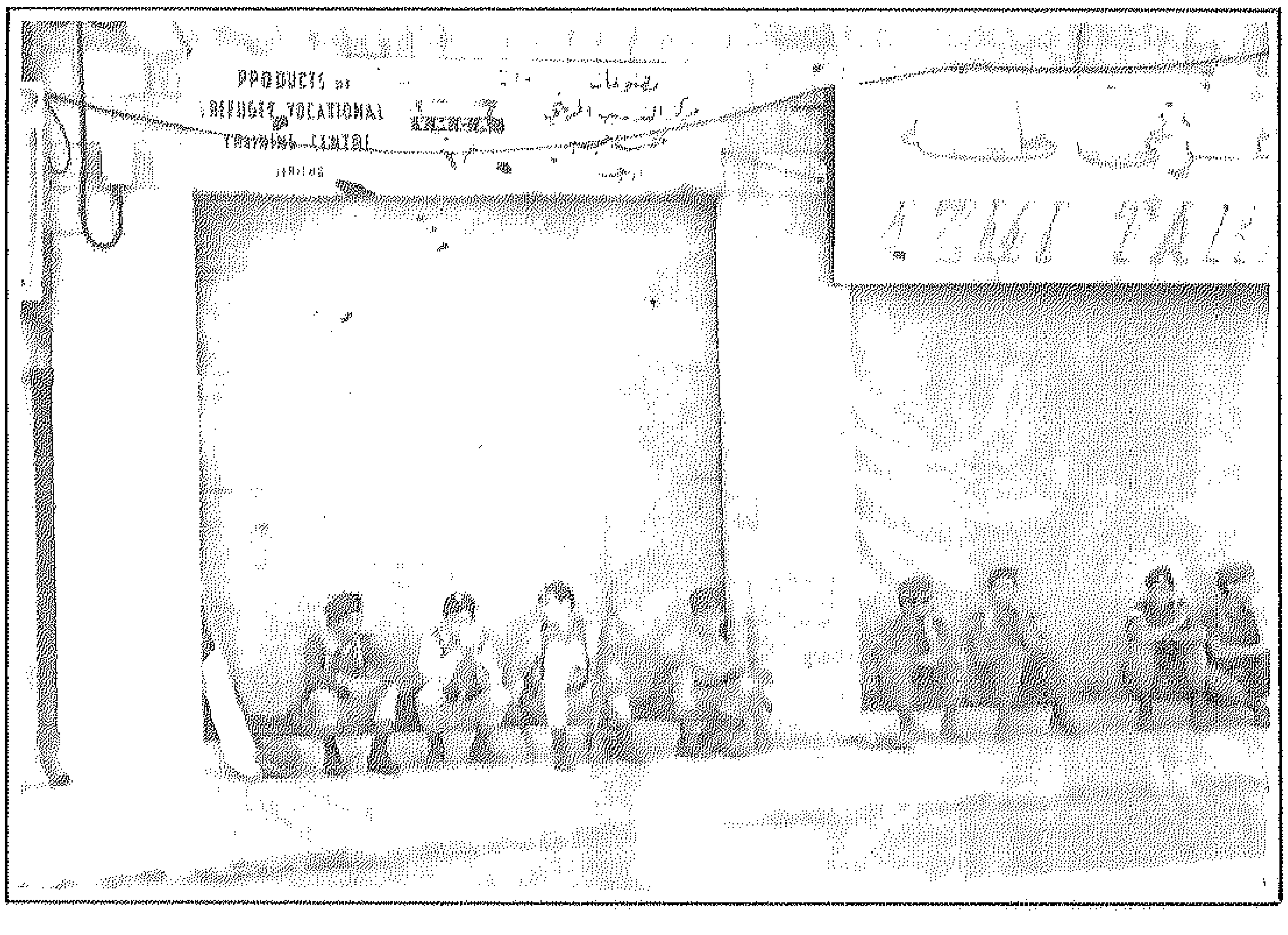

□ مصادرة محلات عربية.

الجدول رقم (٩): التوزيع المئوي للفلسطينيين/الاردنيين (١٠ سنوات فاكثر) في دول مجلس التعاون الخليجي حسب المستوى التعليمي والجنس، ١٩٧٥[٢]

المستوى التعليمي	مجلس التعاون الخليجي			الامارات العربية المتحدة	الكويت	العربية السعودية
	ذكور	اناث	جملة	١٩٧٥	١٩٧٠	١٩٧٤
امي	٥ر٩	٢٧ر١	١٥ر٣	٥ر٤	١٧ر٤	١٢ر٥
ملم	٢٦ر٣	٢١ر٣	٢٤ر١			
ابتدائي	١٨ر٤	١٩ر٩	١٩ر٠	٤٧ر٣	٦٢ر٦	٥٠ر٦
اعدادي	١٤ر٨	١٣ر٨	١٤ر٣			
ثانوي ودون الجامعي	٢٢ر٩	١٦ر٠	١٩ر٨	١٧ر٣	١٥ر٩	٢٣ر٨
جامعي فاعلى	١١ر٣	١ر٥	٧ر٠	٢٥ر١	٣ر٩	١٢ر١
غير مبين	٠ر٤	٠ر٢	٠ر٣	٤ر٩	٠ر٢	١ر٠
المجموع	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠

المصادر: تقديرات الكاتب بالاستناد الى التعدادات الرسمية؛ Kossaifi, unpublished, Table 5.

ملاحظة : (أ) تفيد بيانات بعض مسوحات وتعدادات دول الخليج ان الفلسطينيين/الاردنيين قد حافظوا في مطلع الثمانينات على الارتفاع النسبي لمستواهم التعليمي اذ ان نسبة الأميين فيهم لم تزد عن ٥ بالمائة في حين لم تنخفض نسبة الثانويين فاعلى عن ٥٠ بالمائة.

الجدول رقم (١٠): التوزيع المئوي للفلسطينيين/الاردنيين الناشطين اقتصاديا في دول مجلس التعاون الخليجي حسب المهنة والجنس، ١٩٧٥(١)

المهنة	مجلس التعاون الخليجي ذكور	مجلس التعاون الخليجي اناث	مجلس التعاون الخليجي جملة	الامارات العربية المتحدة ١٩٧٥	الكويت ١٩٧٥	العربية السعودية ١٩٧٤
المهنيون والفنيون	٣٠ر٣	٨٠ر١	٣٥ر٣	٣١ر٨	٢٥ر٢	٥٦ر٢
المديرون	٢ر٥	٠ر١	٢ر٣	٥ر٧	١ر٢	٢ر٦
الكتبة	١٥ر٠	٩ر٨	١٤ر٥	٢١ر١	١٧ر٥	٥ر٤
الباثعون	٦ر٧	٠ر٧	٦ر١	٥ر٤	٨ر٠	٢ر٨
العاملون بالخدمات	٦ر٣	٦ر٤	٦ر٣	٢ر٧	٨ر٦	٣ر٢
العاملون بالزراعة	٢ر٥	٠ر١	٢ر٣	٠ر٧	١ر٩	٣ر٩
عمال الانتاج والفعلة	٣٦ر٥	٢ر١	٣٣ر٢	٣٠ر١	٣٧ر٦	٢٥ر٩
غير مبين	٠ر٣	٠ر٦	٠ر٣	٢ر٥	-	-
المجموع	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠

المصادر: تقديرات الكاتب بالاستناد الى التعدادات الرسمية؛ Kossaifi, unpublished, Table 7.

ملاحظة: (١) تفيد بيانات بعض مسوحات وتعدادات دول الخليج ان الفلسطينيين/الاردنيين قد حافظوا في مطلع الثمانينات على التوزيع حسب المهن المشار اليها اعلاه، اذ بلغت نسب «المهنيين والفنيين» و«الكتبة» و«عمال الانتاج والفعلة» حوالي ثلث وربع وخمس اجمالي الناشطين على التوالي.

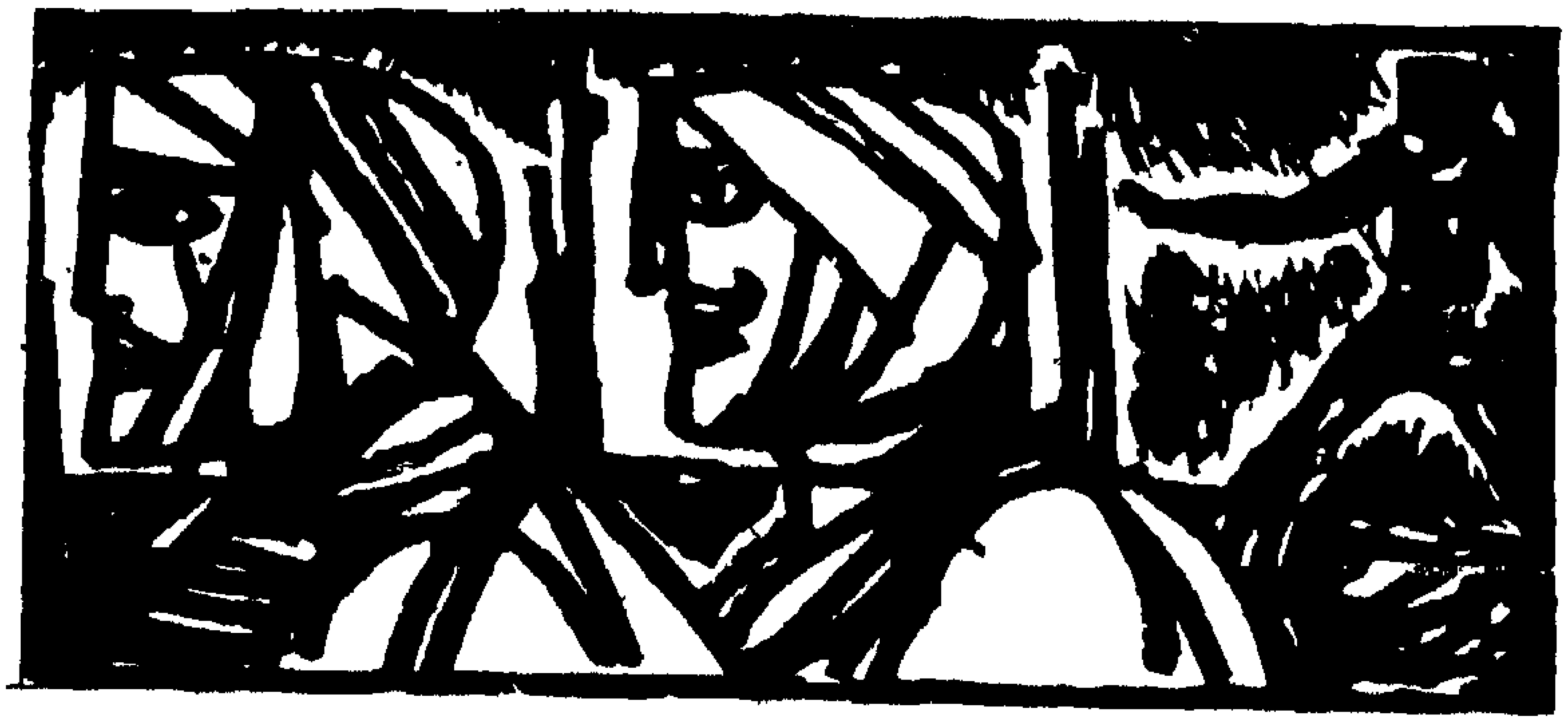

الجدول رقم(١١): الاراضي المصادرة(أ) لغاية ١٩٨٣ في الضفة الغربية وقطاع غزة، حسب السند «القانوني» للمصادرة (آلاف الدونمات)(ب)

السند «القانوني» للمصادرة	الضفة الغربية	قطاع غزة	الملاحظات
املاك الغائبين	٣٤٠ (بالاضافة الى ١١ الف مبنى)	٨	معظم املاك الغائبين سلمت لادارتها كما اعطيت مساحة تقدر بحوالي ٢٥-٣٠ الف دونم للمستوطنات الزراعية الاسرائيلية في وادى الاردن.
اراض باسم الحكومة	٧٥٠	٤٠	اراض كانت مسجلة باسم الحكومة الاردنية في حالة الضفة الغربية. اما في حالة القطاع فقد وردت عبارة «من الاراضي الحكومية».
اراض مصادرة لاسباب عسكرية	٣٥		اتبعت اسرائيل هذه السياسة لغاية ١٩٨٠. وتجدر الاشارة الى ان ملكية الارض لا تتغير في هذه الحالة.
اراض مصادرة للتدريب	١١٥٠		اراض تصادر في البداية لاغراض التدريب وتحوّل لاحقا للمستوطنات الاسرائيلة.
اراض عائدة لليهود	٣٠		اراض عائدة لليهود، كانت تديرها السلطات الاردنية قبل ١٩٦٧ ويقع معظمها في منطقة القدس.
اراض مصادرة للمنفعة العامة	....		اراض تصادر لشق الطرقات للمستوطنات وحفر الآبار.

الجدول رقم (١١): (تابع)

السند «القانوني» للمصادرة	الضفة الغربية	قطاع غزة	الملاحظات
اراض مصادرة باعلانها املاك الدولة	١٠٠٠	٩٣	اخطر «قانون» شرّع لمصادرة الاراضي في ١٩٨٠. ينطلق من «حق» مصادرة الاراضي غير المزروعة اذا لم تكن مسجلة. وقد صدر هذا «القانون» عقب انجاز المسح العقاري في الضفة الغربية عام ١٩٧٨. وبالاستناد اليه تنتفي الصفة المؤقتة للمصادرة وتدخل الاراضي المصادرة باسم الدولة في حكم الثروة القومية الاسرائيلية.

المصادر: Benvensti 1984, pp. 30-36؛ ابو عمرو ١٩٨١، ص١١.

ملاحظات : (أ) لا تدخل ضمن المساحات المصادرة والواردة هنا، تلك التي فرضت السلطات الاسرائيلية قيودا على استعمالها.

(ب) باختلاف التعاريف المستخدمة لمفهوم «المصادرة» تتراوح المساحة المصادرة من ربع الى ثلثي مساحة الضفة الغربية.

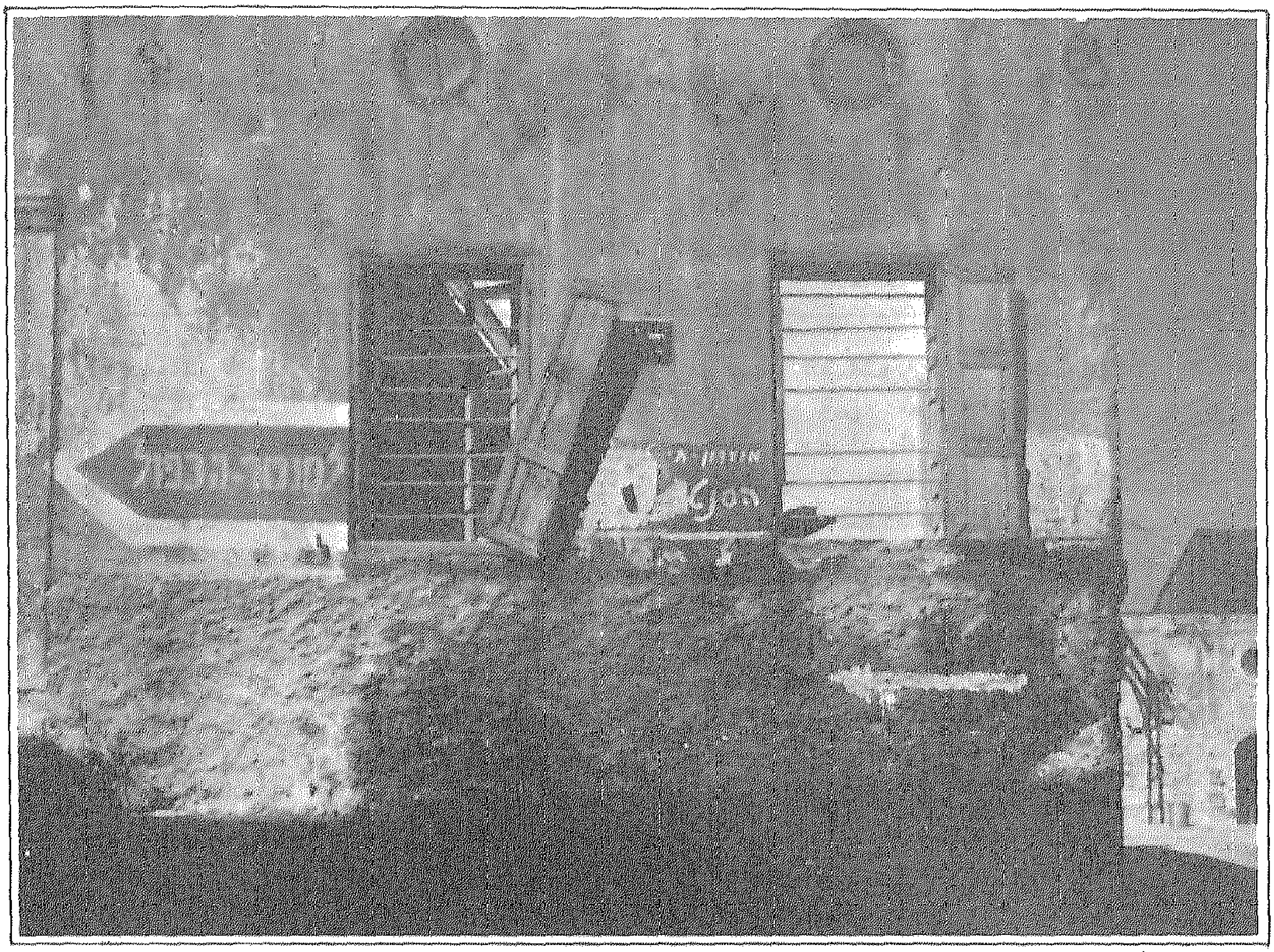

□ كان يوماً، منزل عربي في حيفا.

الجدول رقم (١٢): الاراضي المصادرة لاغراض استيطان ولاسباب امنية في الضفة الغربية حسب المنطقة، ١٩٧٩ - ١٩٨٣
(المساحة بالدونم)

المنطقة	أيار	آب	نهاية ١٩٨٣
القدس	٩٧ ٨٦٤	٣٧٥ ٩٤٩	٤٤٩ ٩٧٤
رام الله والبيرة	٣٦ ٠٠٠	٧٤ ٢٣٠	٩٥ ١٣٥
الخليل وبيت لحم	١٢٣ ٥٠٠	١٧١ ٥٧٨	٢٢٨ ٦٧٨
نابلس، جنين، وطولكرم	٣٦ ٨٥٠	١٧٧ ٢٣٠	٢٦٢ ٣٠٠
وادى الاردن	٨٣ ٧٠٠	١١٨ ٦٠٠	٢٦٢ ٣٠٠
المجموع	٣٧٦ ٩١٤	٩١٧ ٥٨٧	١ ٢٦٩ ٢٤١

المصدر: Saket, Amerah and Assaf, 1983, p. 22.

الجدول رقم (١٣): المستوطنات والمستوطنون في الضفة الغربية وقطاع غزة، ١٩٧٩ - ١٩٨٣

المنطقة	التقدير الاول: المستوطنات ١٩٧٩	التقدير الاول: المستوطنات ١٩٨٢	التقدير الثاني: المستوطنات ١٩٨٣	التقدير الثاني: المستوطنون ١٩٨٣	التقدير الثالث: النمط	التقدير الثالث: العدد	التقدير الثالث: وحدات سكنية ١٩٨٣	التقدير الثالث: أسر	التقدير الثالث: مستوطنون
رام الله والبيرة	١٤	١٨							
الخليل وبيت لحم	١٣	٣١			حضر	١٨	٨ ٨٠٨	٢ ٩١١	٣٧ ٥٠٠(ب)
نابلس، جنين، طولكرم	١٨	٥٠			ريف/شبه حضر	٦٥	٣ ٤٧٨	٢ ١٤٤	
وادي الاردن	٣٠	٣٣			عسكرية	١٥	١٤١	٧٥	
الضفة باستثناء القدس	٦٥	١٢٢			الضفة باستثناء القدس	٩٨	١٢ ٤٢٧	٥ ١٢٠(أ)	٣٧ ٥٠٠(ب)
منطقة القدس	١٨	٣١	١٢	٩٠ الى ١٠٠ الف					
مجموع الضفة الغربية	٨٣	١٥٣	١٥٠	١٢٥ الف					
مجموع غزة	-	-	١٢	١ الف	مجموع غزة	٨	٣٠٤	٣٠٠	٩٠٠

المصادر: التقدير الاول: Saket, Amerah and Assaf, 1983, p. 22.
التقدير الثاني: Laipson, 1983, pp. 3-4.
التقدير الثالث: Benvensti, 1984, p. 50 and 61.

ملاحظات : (أ) تعود هذه البيانات لعام ١٩٨٢، علما ان مجموع الاسر في ١٩٨٣ كان قد بلغ ٦ ٥٠٠ أسرة.
(ب) سيرتفع عدد المستوطنين في الضفة الغربية والقدس، حسب هذا التقدير من ٤٠ الفا في ١٩٨٤ الى ٩٠ الفا في ١٩٨٨ الى ١١٥ الفا في ١٩٩٠، ويشير التقدير الثاني، بالاستناد الى خطة الاستيطان التي وافقت عليها الحكومة الاسرائيلية، الى ان عدد المستوطنات سيصل الى ١٦٥ في عام ١٩٨٨ كما ان حجم المستوطنين سيصل الى ١٠٠ الفا في الضفة الغربية باستثناء القدس.

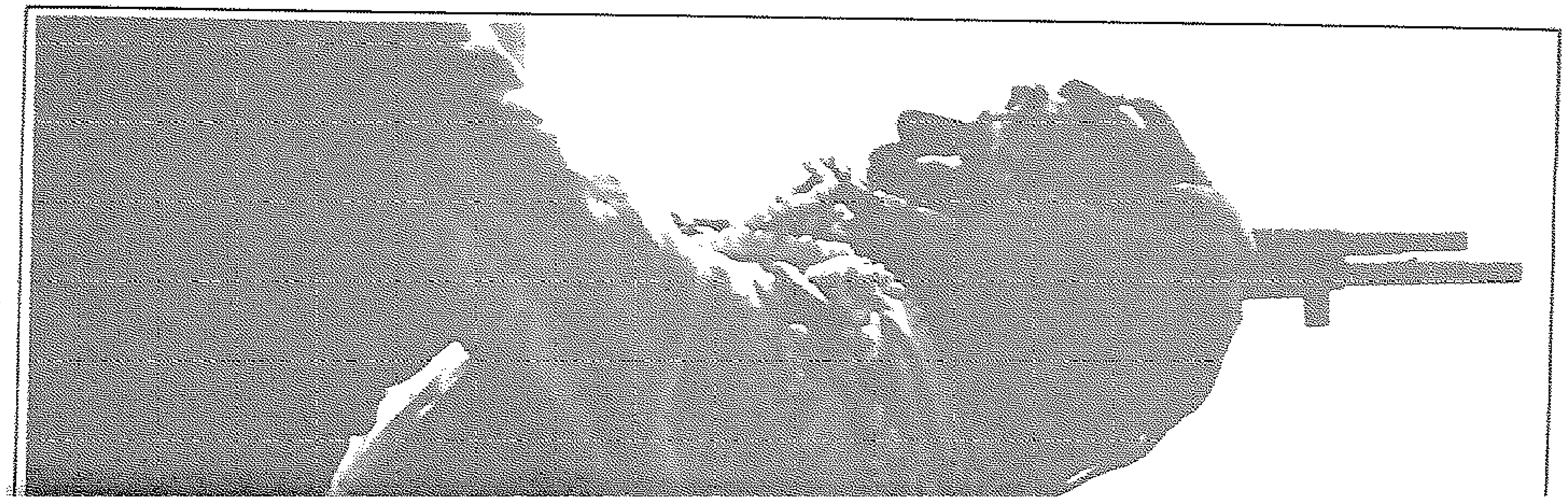

□ «سجّل انا عربي،
انا اسم دون عنوان
راسخٌ في عالم مسعور»

محمود درويش

الجدول رقم (١٤): التوزيع المئوى لمخصصات اللجنة الاردنية الفلسطينية المشتركة حسب القطاعات خلال ١٩٧٩ - ١٩٨٣

القطاع	المخصصات (بالمائة)
التربية والتعليم	٠ر٢١
الإسكان	٠ر١٩
المجالس البلدية	٠ر١٨
التنمية الاجتماعية	٤ر٨
الكهرباء	٣ر٥
المناعة	٣ر٥
الزراعة	٠ر٩
قطاعات اخرى (أ)	٠ر١٤
مجموع المخصصات	٣٩٠ ٥١٩ ١٢٥ (ب)

المصدر: بسيسو ١٩٨٤، ص. ١٥.

ملاحظات: (أ) تدخل ضمن هذه الفئة، المياه، النقل والمواصلات، الصحة، الاوقاف والمقدسات... الخ.

(ب) بالدينار الاردني، وتجدر الاشارة الى ان نسبة التسديد من مجموع الدول المساهمة بلغت ٨ر٦٨ بالمائة خلال الفترة المذكورة.

الهوامش

(١) تقدر منظمة التحرير الفلسطينية حجم الفلسطينيين، في عام ١٩٨١ بحوالي ٤,٥٦٦,٠٠٠. وبافتراض معدل للنمو السنوي ٣,٥ بالمائة نصل إلى الرقم أعلاه.

(٢) هنالك ثلاثة مصادر إسرائيلية خاصة بإحصاءات الأراضي المحتلة. المصدر الأول ويمثله المكتب المركزي للاحصاء والذي يصدر تقديرات السكان الجارية، والمصدر الثاني «سجل عدد السكان» ويصدر عن وزارات الداخلية. والمصدر الثالث هو الحاكم العسكري. وتختلف تقديرات السكان بحسب هذه المصادر، ففي حين قدر المكتب المركزي للاحصاء حجم السكان في الضفة الغربية في نهاية ١٩٨٠ بـ ٧٠٤ آلاف، قدرته وزارة الداخلية بـ ٨٨٧ ألفاً والحاكم العسكري بـ ٧٥٠ ألفاً (Benvensti 1984).

(٣) أورد (أبو عمرو ١٩٨١، ص ٥) تقديراً آخر للمهجرين من القطاع بلغ ٧٠ ألفاً خلال حزيران / كانون الأول ١٩٦٧.

(٤) تشير الاحصاءات الاسرائيلية إلى أن حجم العاملين من الضفة الغربية في الاقتصاد الاسرائيلي قد ارتفع من حوالي ١٥ ألفاً في ١٩٧٠ إلى اقصاه، ٤٢ ألفاً في ١٩٧٤، ليعود فينخفض إلى ٣٥ ألفاً في ١٩٧٧ ويرتفع من ثم إلى ٣٨ ألفاً في ١٩٨٠. أما حجم العاملين من قطاع غزة فقد كان في ارتفاع مستمر إذ بلغ ٦ آلاف، ٢٦ ألفاً، ٢٧ ألفاً و ٣٣ ألفاً على التوالي (منصور ١٩٨٤).

(٥) راجع الملحق (الجدولين ٤ و ٥)، للاطلاع على مؤشرات الخصوبة والوفاة المستخدمة، وعلى تقنية تصحيح هرم الاعمار الذي وفرته الاحصاءات الاسرائيلية في نهاية ١٩٦٧.

(٦) ستتم الاشارة لاحقاً إلى هذه الدراسة على النحو التالي «الضفة الغربية ــ دراسة غير منشورة».

(٧) ورد في تعداد الأردن ١٩٦١ أنه من أصل ٦٢٨٦٣ أردنيا في الخارج، كان ٨٠ بالمائة منهم يقطن في الضفة الغربية.

ولا نخال أن هذه النسبة قد تبدلت كثيراً بعد هذا التاريخ، خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مهجري الضفة الغربية الذين كانوا ينتقلون إلى الضفة الشرقية، كمحطة أولى قبل انتقالهم إلى إحدى دول الخليج.

(٨) جاء في معرض تحليل معدلات الجنس حسب العمر التي وفرتها الاحصاءات الأردنية في ١٩٦١ (التعداد) و ١٩٧١ (المسح المتعدد الأغراض) ما يلي: «يمكن إيعاز نقص الذكور المتبين في فئة العمر ١٥ ـــ ٤٩ إلى نتائج حرب فلسطين وخاصة بعد ١٩٣٦ وإلى هجرة الذكور. وتجدر الاشارة إلى أن هذا النقص كان أكثر بروزاً في عام ١٩٧١ مما يعكس اشتداد تيار هجرة الذكور بعد ١٩٦١» (Kossaifi, 1976).

(٩) في دراسة «الضفة الغربية ـــ دراسة غير منشورة» أجريت عام ١٩٨٣ في الضفة يتبين أن نسبة الأولاد إلى مجموع المهجرين كان قد بلغ ٢٧ بالمائة. ونعتقد أن الفرق مع تقديرنا المذكور أعلاه، يعود إلى أن الدراسة توجهت أصلاً إلى المقيمين في الضفة لتسألهم عن ذويهم المقيمين في الخارج. أما الأسر التي هجرت بكامل أفرادها إلى الخارج فلم تجمع عنها البيانات. ومن الطبيعي أن يكون هرم اعمار هذه الأسر مختلفاً عن هرم اعمار مجموعة الأفراد الذين ما زالت أسرهم تقيم داخل الضفة، بمعنى أن نسبة الأولاد في المجموعة الأولى هي أعلى من نسبتهم في المجموعة الثانية. على كل تجدر الاشارة أن نسبة ٢٧ بالمائة الواردة في دراسة «الضفة غير المنشورة»، هي نسبة مرتفعة إلى حد ما ويمكن أن تعكس جزئياً تهجير الأسر (قارن مثلاً مع نسبة الأولاد اليمنيين دون الخامسة عشرة، إلى مجموع اليمنيين المهاجرين والتي بلغت ١١,٤ بالمائة في الامارات العربية المتحدة سنة ١٩٧٥ و ١٩,٢ بالمائة في الكويت سنة ١٩٧٠ و ٢٣,٤ بالمائة في العربية السعودية منذ ١٩٧٤ (Nations, ECWA, United, 1982).

(١٠) نعتقد أن هذه النسبة مضخمة كما أن نسبة الأميين متدنية.

(١١) باختلاف المفهوم «القانوني» للمصادرة تراوحت المساحة المصادرة في الضفة من الربع إلى الثلثين، راجع الجدول رقم ١١.

(١٢) مع احتلال الضفة الغربية في ١٩٦٧، لم يكن قد تم بعد مسح وتسجيل حوالي ثلث الضفة الغربية.

(١٣) تشير بعض البيانات الخاصة بانفاق المنظمة الصهيونية العالمية على المستوطنات الريفية وشبه الحضرية التي تشرف عليها، «إلى الارتفاع الكبير الذي حصل مع مجيء الليكود. فمن مجموع بلغ ٢٣١ مليون دولار أمريكي خلال فترة العشر سنوات (١٩٧٤ ـــ ١٩٨٣)، تم انفاق ٢٠٥,٣ مليون (٨٨,٧ بالمائة) خلال الفترة الممتدة من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٣» (Benvensti, 1984).

(١٤) لمزيد من التفصيل حول طرق ووسائل دعم الصناعة راجع (منصور ١٩٨٤).

المراجع بالعربية

ابو عمرو، زياد. ١٩٨١ «الهجرة من قطاع غزة، الدوافع الاقتصادية والاجتماعية»، جامعة جورجتاون، واشنطن. مركز الدراسات الريفية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس.

الاردن، دائرة الاحصاءات العامة. ١٩٦١. أول تعداد للسكان والمساكن، ١٩ تشرين الثاني ١٩٦١.

بسيسو، فؤاد. ١٩٨٤ «استراتيجية دعم الصمود الوطني في الأرض المحتلة، الاطار العلمي والتطبيقي» صامد الاقتصادي، السنة السادسة، العدد ٤٩، أيار ـــ حزيران.

منصور، انطوان. ١٩٨٤ «اقتصاديات الصمود». المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

منظمة التحرير الفلسطينية، الدائرة الاقتصادية، المكتب المركزي للاحصاء. ١٩٨٢. «المجموعة الاحصائية الفلسطينية ١٩٨٢». العدد الرابع.

المراجع الأجنبية

Benvensti, Meron. 1984. The West Bank Data Project. A Survey of Israili's Policies. American Enterprise Institute for Public Policy Research, Washington and London.

Israel, Central Bureau of Statistics. 1983. Statistical Abstract of Israel.

——, ——, 1986. West Bank of Jordan, Gaza Strip and Northern Sinai, Golan Heights. Data from full enumeration, Jerusalem, 1968.

——, ——, 1968. Census of Population and Housing. East Jerusalem, Jerusalem, 1968.

Jordan, United States Technical Co-operation Service for Jordan. 1953. 1952 Census of Housing; Statistics for Administrative Divisions and principal towns. Amman, pp. 34.

Kossaifi, George. 1976. Contribution a l'Etude Demographique de la Population Palestinienne (these de Doctorat de 3 em Cycle Universite Paris I, Pantheon-Sorbonne, Institut de Demographic. Paris, Octobre 1976).

——, ——, Some Socio-Demographic Characteristics of the Jordano-Palestinian Population in the Gulf States (unpublished).

Laipson, Ellen. 1983. Israeli Settlement in the Occupied Territories: Israeli, Arab and American Perspectives. Congressional Research Service, Report No. 83-189f, September 30.

Saket, Bassam, Amerah Mohemmand and Assaf Ghazi. 1983. The Occupation Israeli Colonization of Arab Land. Revised Edition, January 1983.

Shrydeh, Borhan. 1984. Population Situation in Jordan. March.

رسائل من عبدالقادر الجزائري إلى حكومة إنكلترا

إعداد: شذا عدرة

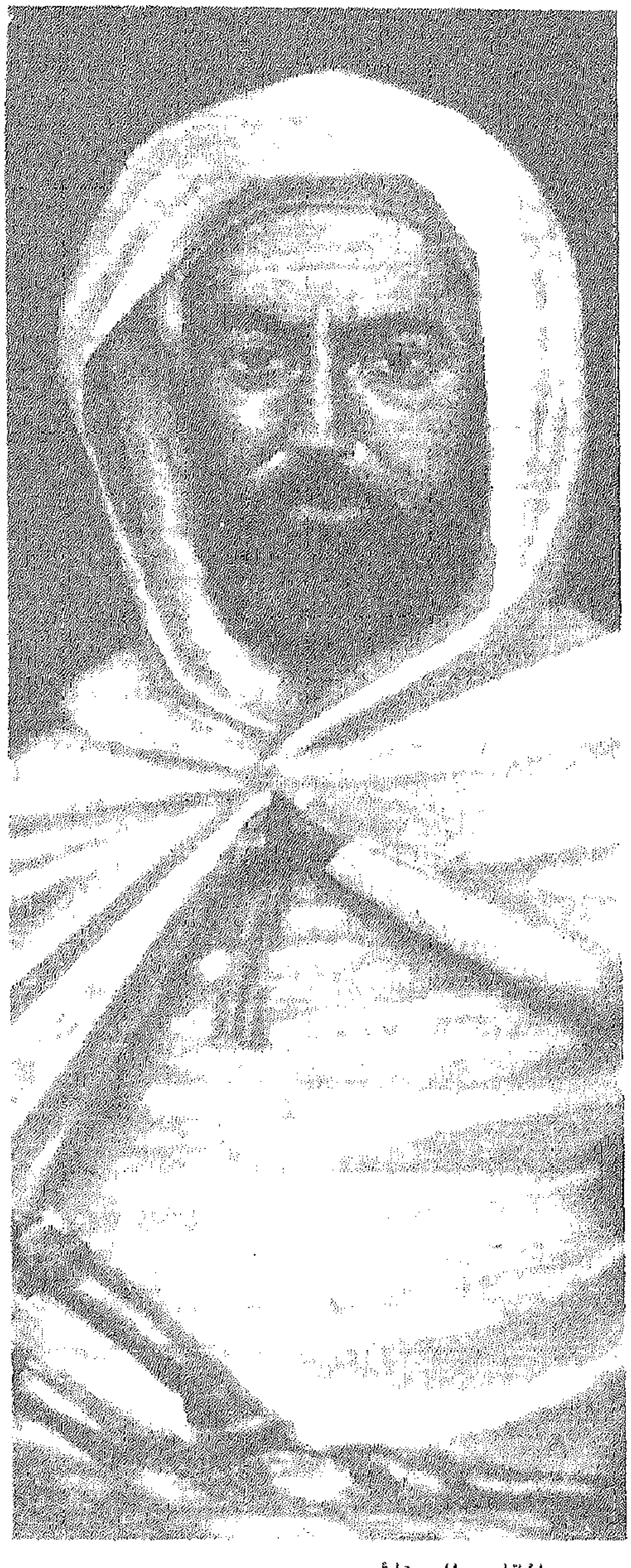

□ عبدالقادر الجزائري.

المرجع: د. عبدالجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي من ١٨١٦ إلى ١٨٧١، الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى مارس ١٩٧٢.

أقدمت فرنسا في عام ١٨٣٠م على غزو بلاد الجزائر وقد تمكنت من الاستيلاء على مدينة الجزائر في الخامس من تموز / يوليو من العام نفسه. أمّا بقية أجزاء البلاد، فلم تخضع للغزاة بل انبرى الجزائريون لمقاومتهم بزعامة الأمير عبدالقادر بن محيي‌الدين. الذي تولى القيادة طيلة خمس عشرة سنة، من عام ١٨٣٢ حتى عام ١٨٤٧م، احرز خلالها انتصارات عديدة على المحتل الغاصب.

وقد وقّعت فرنسا، وهي في حالة حرب مع الأمير عبدالقادر الجزائري، معاهدتين، الأولى، معاهدة دي ميشيل في ٢٦ شباط / فبراير ١٨٣٤، وقد اعترف بموجبها الجنرال الفرنسي دي ميشيل، بسيادة الأمير ومنحه امتيازا تجارياً في آرزيف وقدم له الأسلحة.

والثانية، هي معاهدة التافنه، ٣٠ أيار / مايو ١٨٣٧، اعترف فيها الموفد الفرنسي، بيجو، لعبدالقادر بالسيادة على ثلثي الجزائر ابتغاء الصلح معه ولكن لم يُكتب لهاتين المعاهدتين الدوام، إذ سرعان ما تراجعت فرنسا عن مواقفها الايجابية ولم تعد تعترف بما تعهّدت به للأمير عبدالقادر. الذي نجده بدوره يعاملها بالمثل، وبالتالي يحاول التقرب من انجلترا، عدوة فرنسا التقليدية. فأرسل إليها عدداً من الرسائل: أحدها إلى قنصل انجلترا في طنجة، وأخرى إلى الحكومة الانجليزية، والثالثة إلى رئيس وزراء بريطانيا. وفيما يلي نصوص تلك الرسائل.

الوثيقة رقم ١

الحمد لله وحده[١]   صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

من أمير المؤمنين سلطان النواحي الجزائرية والوهرانية والتلمسانية إلى طاعة افريقية، مولانا السيد الحاج عبدالقادر ابن مولانا السيد الحاج محيي‌الدين، نصره الله، آمين، إلى قونصو (كذا) الانكليز، القاطن بتيطوان (كذا)، السلامعلى من اتبع الحق ورحمة الله، وبعد:

الله، وبعد:

فلا يخفى عليك أننا كنا تعاقدنا مع جنس الفرنصيص عقداً وثيقاً، وتعاهدنا في الصلح والمهادنة على شروط منا ومنهم، ووفينا لهم بجميع ما اشترطوه من مسواقهم (كذا)، وبقينا على تمام الكلمة نحواً من سنة ثم ابتدوا (كذا) التخليط والتبليس (كذا) والخدعة، فخادعوا مراراً، بنقض الميثاق. ولم تختلف كلمتنا معهم في شيء؛ إلى أن أدى بهم عماهم وطغيانهم لجمع جيوشهم، وقوة حروبهم وخرجوا كفرناً[٢] (كذا) غير مظهرين الشر، ووكيلنا عندهم، وقونصهم (كذا) عندنا، وجيوشنا متفرقة، بحيث شرع في نهب الحب. وعلمنا منه قصد الشر، خرجنا للغاية بما حضر من جنودنا، ولاقيناه فنصرنا الله عليه. وصار به ما بلغك من الخذلان والذل والقتل، لما أتى به من الغدر والمخادعة. ولأن (كذا) سمعنا أن جنسكم من بيوت الملوك وأن كلمة ريكم[٣] وافية، وأنه لا غدر فيه ولا خداع بعد العقد والميثاق.

فبعثنا لكم مكتوباً ترسله له صحبة مكتوبك، ولما (كذا) يأتيك الجواب تبعثه لنا ومضمن (كذا) ما في المكتوب أنكم إذا أردتم المزية الظاهرة التي تفوزون بها على كل الجنوس، وتمتازون بها عن غيركم، تلاقوننا في أي مرسى تريدونها (كذا) من مراسي الجزائر، إلى طاعة مولانا أمير المؤمنين، عبدالرحمن، نصره الله، ونلتزم لكم من جانب البر أفضل ما التزمنا قبل الفرنصيص. وننزلكم في منزلة أعلا (كذا) من منزلهم (كذا)، لكونهم خادعين. وأنتم لم تبلغنا عنكم خدعة ولا شك أنكم لو أردتم منا هذا، يحصل من الالفة والمودة بيننا وبينكم ما يسركم ويقويكم ويرفعكم على ساير (كذا) الأجناس. وها هو صاحبنا رجل كيس، فاضل، ذو سياسة وعقل، يصلك بمكتوبين، فاستوصى به، وجد له (كذا) في قضاء ما يريده من مصالحنا، وتكون لك حرمة كبيرة بسبب معرفتك معنا، وتعزم بالبحث على رد الجواب من عندك ومن عند الري.

٢٩ جمادي الأولى ١٢٥١[٤] بامر مولانا أمير المؤمنين، نصره الله، آمين.

(١) F.O. 52/40: نسخة من رسالة عبدالقادر إلى قنصل انفلترا بطنجة.
(٢) يبدو انها من الكلمة الفرنسية (Gouverneur) أي الوالي الفرنسي الذي يدير البلاد.
(٣) هي الكلمة الفرنسية (Roi) أي ملككم.
(٤) ٢٢ أيلول / سبتمبر ١٨٣٥.

الوثيقة رقم ٢

الحمد لله وحده[١]　　　　صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

من أمير المؤمنين بالنواحي الوهرانية والجزائرية وما والاها إلى طاعة تونس مولانا السيد عبدالقادر ابن مولانا السيد الحاج محيي الدين، نصره الله، آمين، إلى عظيم الجيوش الانجليزية، ريهم الأكبر، ورئيس ملوكهم الأفخر، السلام على من اتبع رضى الحق، وبعد:

فإننا كنا تعاقدنا مع كبير الفرنصيص على الصلح والمهادنة[٢]، وتعاهدنا بمواثيق على شرط اشترطناها وقبلوها، وأمور اشترطوها فقبلناها. وحصلت (كذا) أمن الطرق والأسواق بيننا وبينهم، حتى صار الواحد منهم يمشي في طاعتنا بالليل والنهار ولا يخشى بأساً وتآلفنا في قضاء المصالح منا ومنهم، وبقينا على ذلك مدة من عام. ثم شرعوا في الخداع والغدر ونقض العهود مرة بعد مرة. ونحن واقفون عند الكلمة، ما قدرنا نجتازها، ولا نخلف عقودنا، إلى أن جمعوا جيوشهم وقوة حربهم وقونصهم (كذا)[٣] عندنا، ووكيلنا عندهم. وجيوشنا متفرقة. فقطع من بلادنا ثلاثة مراحل، ولاقيناه بما حضر من الجيوش، فنصرنا الله عليه وكان أمره ما بلغكم.

واليوم تحققنا من أخبار الذين خالطوكم، أنكم أهل ميثاق وكلمة وافية، وأنكم من بيوت الملوك، فإن أردتم المصلحة العامة وتكون لكم المودة زيادة على الفرنصيص، نتفق معكم على التسوق في أي مرسى أردتم، من مراسي الجزائر، إلى طاعة مولانا أمير المؤمنين عبدالرحمن، نصره الله. وإنا ملتزمون لكم من جانب البر بما تريدون، لأنا لم نسمع عنكم خدعة. ونرجو أن تكون لك مزية فينا، ورفعة على ساير (كذا) الجنوس. وترد الجواب لقونصك[٤] (كذا) وهو يبعثه لنا.

٢٩ جمادي الأولى ١٢٥١[٥]

ختم الأمير في أعلى الرسالة دون إمضائه

(١) F.O. 52/40: رسالة من عبدالقادر إلى الحكومة الانفليزية، انظر الشكل رقم ٢٧، ص ٢١٦ ـــ ٢١٧.
(٢) هي معاهدة ديمشال المعقودة بتاريخ ٢٦ شباط / فبراير ١٨٣٤.
(٣) قنصلهم.
(٤) اي القنصل.
(٥) ٢٢ أيلول / سبتمبر ١٨٣٥.

الوثيقة رقم ٣

عن إذن مولانا(١) أمير المؤمنين، سيدنا الحاج عبدالقادر، نصره الله، آمين، إلى الوزير الأعظم في دولة الانكلين، المدبر لأمرهم، المتصرف في جميع ما يصلح بهم وبأحوالهم، جلت او قلت، المنسطر(٢) الكبير بالدولة المذكورة، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإن الغرض الموجب لهذا الكتاب، أنك ذو رأي سديد، وعقل متسع مديد، وأيضاً بلغنا على لسان الكوازيط(٣) أن كبراء الانكليز أشفقوا من حالنا ونالوا الكلام في شأننا، وقالوا، إن الفرانصيص ظلم العرب وأضربهم. ولا بد أن تكلموا (كذا) في أمرهم. وبلغنا أيضاً أنهم قالوا، إذا احتاج الأمير عبدالقادر إلى دراهم أو سلاح أو غير ذلك (كذا) نسلف له ونبيع له، كل ما يحتاجه.

فلما تأملنا كلامكم هذا، وجدناه كلام العقلا (كذا) المنصفين، الذين يرضون الصلاح ولا يحبون الفساد. وسرنا ما قلتم كثر خيركم وشكر قولكم. وإذا تممتم ربط المحبة بيننا، لا يكون إلا ما تحبون منا، ولا علمنا محبتكم، وأنكم تذكروننا بخير. نحب منكم أن تعلموا فينا مزية كبيرة، وذلك (كذا) أن لنا مكاتب (كذا) إلى اصطنبول، وليس لنا طريق إليها من غيركم. فنحب منكم أن تبعثوها على أيديكم إلى السلطان عبدالمجيد، وأخرى إلى الوزير الأعظم، وأخرى إلى قبطان باشا(٤) وأخرى إلى صاحبنا كاتب رشيد باشا(٥) في اصطنبول. ونحب منكم أن تحرصوا لنا على رد الجواب من عندهم، فإننا عرفنا محبتكم ونصحكم. فلذلك (كذا) جعلناكم واسطة في هذا الأمر. لأننا نقطعوا (كذا) أن مكاتبنا تصل على أيديكم إلى أهلها. ويأتينا جوابها مع (كذا) أيديكم أيضاً، لأن ليس لنا طريق لا في البحر ولا في البر، إلا من عندكم. وكان مرادنا أن نبعث لكم هدية تناسب مقامكم، ولا زلنا عازمين على بعثها إن شاء الله. لكن (كذا) لنا طريق نبعث لكم منها، وتعمل مزية كبيرة إذا حرصت على الكنباني(٦) الذين أعطيناهم تنس(٧) في علمك، يأتوننا بالعزم وينزلون بها، لكان فيه خير كبير لنا ولكم.

وأما السلطان العصمالي (كذا)، فنحن منه وإليه ونحبكم أنتم تكونوا واسطة بيننا وبينه، وتجعلوه يكون معنا، ويعيننا على الفرانصيص، لأن الأرض له، وله الكلام فيها. وأنتم لكم الكلام معه، ومع غيره في هذا الشأن، ونحب منكم الجواب والله الموفق.

في ٢٥ شوال ١٢٥٧(٨)

في أعلى الرسالة ختم الأمير، دون إمضائه

(١) F.O. 3/44: رسالة عبدالقادر إلى رئيس الوزراء البريطاني، راجع الشكل رقم ٢٨، ص ٢٢٤ ـــ ٢٢٥.

(٢) (Ministre) أي الوزير.

(٣) الصحف.

(٤) هو منصب وزير البحرية قبل عهد التنظيمات الأولى.

(٥) يقصد بذلك حمدان بن عثمان خوجة: ومن المعلوم أن مصطفى رشيد باشا قد ارتبط بعلاقة طيبة مع حمدان. وقد شجع مصطفى رشيد، حمدان على الالتحاق بمركز الدولة العثمانية وليس من المستبعد أن يحتل حمدان خوجة مكانة مرموقة من نفس مصطفى رشيد باشا، الذي تولى المرار العديدة الصدارة العظمى، وأن يصبح حمدان خوجة سكرتير رشيد باشا. كما توحي به هاته الوثيقة.

راجع: BAYSON Cavid, Cezayir meselesi ve Resid Pasanin Paris Elçiligi (المسألة الجزائرية وسفارة مصطفى رشيد باشا بباريس) المنشورة في: المؤتمر التاريخي الثالث والمنعقد بأنقرة ما بين ١٥ و ٢٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٣.

III Turk Tarih Kongresi, Ankara, 15-20 novembre 1943.

(٦) (Compagnie) أي الشركة.

(٧) ميناء مدينة تنس في الساحل الغربي من الجزائر.

(٨) ١٠ كانون الأول / ديسمبر ١٨٤١.

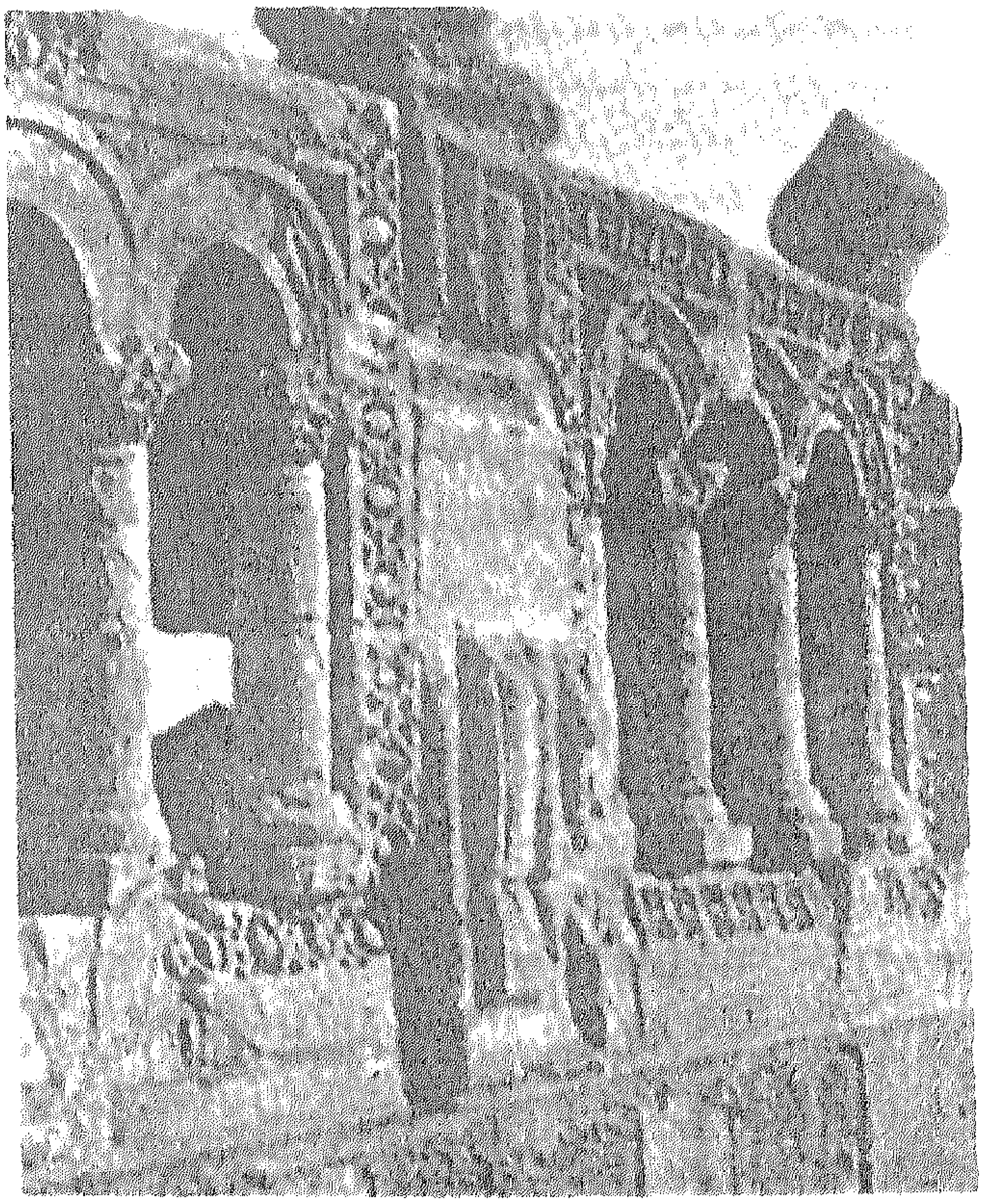

المفجر

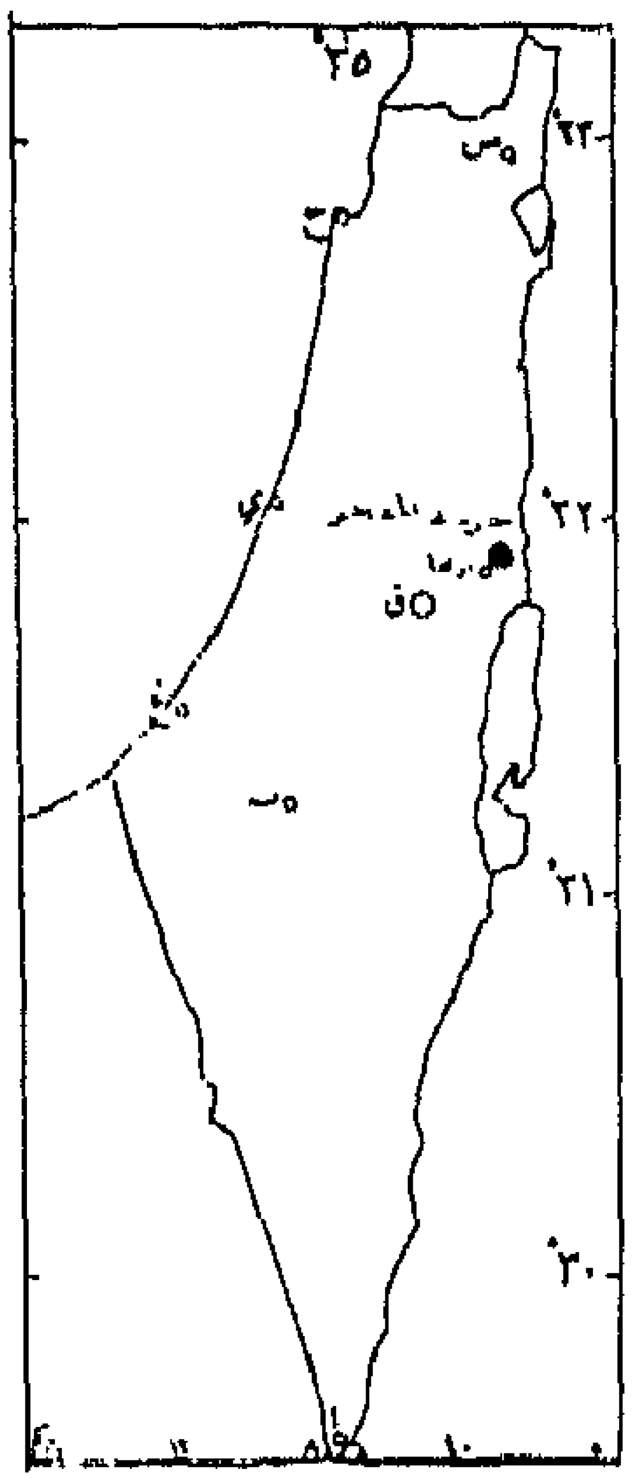

يستدل من أخبار المؤرخين أن الخلفاء والأمراء الأمويين شيدوا في الفترة الممتدة بين سنة ٩١هـ وسنة ١٣٢هـ في فلسطين والأردن وبادية الشام قصوراً يزيد عددها على ٦٠ قصراً. ولم يعثر حتى اليوم إلا على عشرة منها أشهرها الرصافة، وقصر الحير الغربي، وقُصَيْر عمرة، والمشتى، وقصر الطوبى، وخربة المفجر (ر: العصر الأموي).

وخربة المفجر هي أغنى هذه المواقع الأثرية من حيث كثرة مواد البناء وتنوع الزخارف والتماثيل. وهي أبرز شاهد على النهضة العمرانية في العهد الأموي الذي اتسعت فيه الفتوحات وكثرت الغنائم والأموال وتكشفت المواهب المبدعة التي خلقت حضارة جديدة تمازجت فيها عناصر هلنستية وشرقية ــ آسيوية تميزت بطابع عربي خاص.

تقع خربة المفجر على بعد كيلومترين إلى الشمال من أريحا. وعندما زار فريق من الجمعية الانكليزية المعروفة باسم «صندوق استكشاف فلسطين» هذا المكان في سنة ١٨٧٣ سمعوا من السكان العرب أن اسمه «جلجال». ولكن الباحث «بلس» الذي أرسلته الجمعية في سنة ١٨٩٤ ليقوم بوصف الخربة علم أنها كانت تسمى خربة النويعمة، وخربة السمراء، وخربة المفجر، وهذا الاسم الأخير هو المستخدم وحده الآن.

وقد كتب بلس مقالاً في نشرة الجمعية أرفقه ببعض الصور من الزخارف الجصية.

ويبدو أن المنظر للخربة كما وصفه بلس

لم يتبدل كثيراً بعد أربعين عاماً عندما قررت دائرة الآثار القديمة في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين المباشرة بالحفريات الأثرية في سنة ١٩٣٤. إلا أن بعض أكوام الركام القائمة وسط الخربة وجنوبها كانت قد تقلصت بسبب اقتلاع الحجارة والأعمدة منها بعد الحرب العالمية الأولى لبناء دير الفرنسيسكان في أريحا سنة ١٩٢٧. فقد استخدمت في بنائه أكثر من ٤,٥٠٠ كتلة حجرية اقتلعت من الخربة عدا كثير من الأعمدة والتيجان والواح المرمر والجص والتماثيل التي كانت تزين مدخل الدير. وقد اعيدت هذه القطع الأثرية بعد بضع سنوات بطلب من دائرة الآثار في فلسطين.

بدأت حفريات التنقيب في عام ١٩٣٤ ــ ١٩٣٥ واستمرت مدة اثني عشر عاماً حتى توقفت في سنة ١٩٤٨ بانتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين. وقد قام بالتنقيب الدكتور ديمتري برامكي الذي كان آنذاك مفتشاً وباحثاً في دائرة الآثار. وكان يصف نتائج الحفريات في سلسلة من التقارير التي ظهرت في نشرة دائرة الآثار في فلسطين.

ظهر من الحفريات أن خربة المفجر كانت تُزود بالمياه من ينابيع ثلاثة هي: عين السلطان في موقع أريحا القديمة على بعد كيلومترين. وكانت مياها تستخدم للري. وعين الديوك وعين النويعمة على بعد أربعة كيلومترات. وكانت مياه العينين الأخيرتين تصرف في القصر والحمام والجامع (ر: عيون الماء). ويبدو أن هذه المياه كانت تجمع في بركة قبل أن تسقط بشكل شلال من ارتفاع ٣٠ متر تقريباً لتحريك عدة طواحين مائية ما زالت إحداها قائمة على الطريق الحديثة بين اريحا وبيسان وتعرف باسم طاحونة المفجر. وكذلك يمكن اليوم مشاهدة آثار القناطر التي كانت القنوات ممدودة فوقها لجر المياه.

اشتهرت خربة المفجر باسم «قصر هشام» لأن الدكتور برامكي عثر في حفريات ١٩٣٦ ــ ١٩٣٧ على لوح مكسور من المرمر كتب عليه اسم الخليفة هشام بن عبدالملك. ولكن لا يمكن اعتبار هذا اللوح حجراً أساسياً يقصد منه تسجيل إنشاء البناء. فقد كتبه شخص اسمه عبيدالله بن عمر، وهو غير معروف، وعثر كذلك في المكان على كثير من الألواح والحجارة كتبت عليها أسماء بعض العمال كإسحاق بن محمد وعبدالله بن سليم وكلثوم بن عياض وقسطنطين ويوحنا. والظاهر أن هؤلاء العمال كانوا من سكان البلاد الذين يتكلمون اليونانية والآرامية إلى جانب العربية، وكانوا يتلهون بكتابة مختلف الأسماء وبعض العبارات البذيئة أحياناً.

إن الدراسة الشاملة التي قام بها هاملتون دفعته إلى القول إن الأبنية في خربة المفجر ترجع حقاً إلى عهد هشام بن عبدالملك الذي حكم من سنة ٧٢٤م إلى سنة ٧٤٣م وشيّد عدداً من القصور، ولكن ليس هناك من دليل على أن هذا الخليفة نفسه قد سكن في خربة المفجر. ويذهب هاملتون إلى أن ما رواه المؤرخون عن سيرة هشام بن عبدالملك وما اتصف به من وقار ورزانة وميل إلى الاقتصاد والتقتير، بل إلى البخل، يتنافى كله مع مظاهر البذخ والترف في القصر، ولا سيما في عمارة الحمام وزخارفه وتماثيله ورسومه التي تكشف عن حياة الخلاعة والتهتك. وقد تبين من التدقيق في مراحل البناء انه قد طرأت تغييرات وتعديلات كثيرة على التصاميم والمخططات الأساسية، ويستنتج هاملتون أن أعمال البناء في خربة المفجر ظلت مستمرة بعد وفاة هشام إلى أن دمرت المباني كلها بالزلزال الذي حدث في سنة ٧٤٦م وهو يرجّح أن القصر والحمام اختص بهما الوليد بن يزيد الذي تولى الخلافة بعد عمه هشام ويروي المؤرخون أغرب القصص عن سيرته وانقطاعه للصيد والشعر والشراب والغناء وانغماسه في الملاهي والملذات، ويذكرون انه كان يسبح في بركة مملوءة خمراً.

ترجع أهمية خربة المفجر إلى وفرة المواد التي عثر عليها فيها. وقد جُمِعت هذه الموادّ في متحف الآثار الفلسطيني، وهي تشمل مختلف مواد البناء من حجارة ومرمر وآجرّ وجصّ وزخارف فسيفسائية، كما تشمل التماثيل الحجرية والجصية والأقواس والأعمدة والتيجان والرسوم الجدارية الملونة. وكشفت الحفريات كذلك عن الأسس التي قامت عليها الأبنية، الأمر الذي يساعد على رسم مخطط للبناء كله ومحاولة إعادة تشكيله.

وإذا كانت هذه الآثار وما زالت تحتاج إلى التصنيف والدرس والتمحيص فإنه يمكن القول إن خربة المفجر تشبه سائر القصور الأموية في تصميمها وعمارتها وأنها أنموذج كامل للمستوى الذي بلغه تطور الفن المعماري في سورية وفلسطين في العهد الأموي. ولا شك في أن هذا الفن اقتبس بعض عناصره من الفن الهلّنستي وبعضها الآخر من الفنون الشرقية ـ الآسيوية. ولكنه تمكّن من تكييفها حسب بيئة البلاد، وتوصّل إلى إبداع أسلوب خاص متميز. ويلاحظ أن المعماريين والفنانين السوريين ـ الفلسطينيين لم يبرزوا في صنع التماثيل البشرية لأن تقاليدهم المتوارثة المتأثرة بالعقائد الدينية كانت لا تحبذ تمثيل الكائنات البشرية فظلوا لا يعرفون شيئاً عن هيكل الانسان وتشريح جسمه وتكوين عضلاته. وهكذا تبدو التماثيل البشرية القليلة المنحوتة من الحجر، أو المحفورة في الجص، التي عثر عليها في خربة المفجر بعيدة عن التناسب والتناسق والانسجام ولا تعبر عن الصورة الواقعية. وعلى العكس من ذلك كانت تماثيل الخيول وغيرها من الحيوانات.

أما الناحية التي برهن فيها الفنانون والصنّاع السوريون ـ الفلسطينيون على مقدرة كبيرة ومهارة فائقة فهي الزخرفة. فقد عثر في خربة المفجر على عدد كبير جداً من النقوش النباتية والأشكال الهندسية المتنوعة التي تمتاز كلها بدقة الصناعة ورشاقة الخطوط والحياة المتحركة النابضة.

ولا بد من الاعتراف بأن المعماريين والصنّاع من سكان البلاد الأصليين الذين شيدوا مجموعة الأبنية في خربة المفجر استطاعوا أن يلائموا بين التقاليد الفنية المتوارثة في سورية وفلسطين ورغبات الأمراء الأمويين وحاجات مجتمعهم الجديد المندفع وراء الغرائب المتحمس للرياضة والفروسية المحب لروائع الجمال وآيات البديع.

وعلى الرغم من أن التنقيبات لم تنته بعد فقد تبين أن خربة المفجر كانت تضم ثلاثة أبنية هي القصر والمسجد والحمّام. وقد وصفها المنقّب ديمتري برامكي وصفاً دقيقاً هذا نصه:

«يحتوي المكان على صحن أمامي يؤدي من الجهة الغربية إلى ثلاثة مبان، البناء الأول قصر الخليفة، والبناء الثاني حمّام، والبناء الثالث مسجد.

يقع مدخل الصحن الأمامي في الجهة الجنوبية منه. وكان محاطاً من ثلاث جهات، أي الجهة الشرقية والجهة الشمالية والجهة الجنوبية، برواق مظلّل، وفي وسطه تقريباً على بعد ستين متراً من المدخل بركة في وسطها نافورة. وكانت النافورة مسقوفة بقبة تحيط بها مثمّنة تماماً مثل سقف قبة الصخرة المشرّفة، وكان حائط البركة مزداناً بعقود صغيرة.

والقصر مربع الشكل تقريباً، قائم حول صحن مربع داخلي محصن بأبراج مستديرة في زواياه الأربع وبأبراج نصف مستديرة في منتصف الحائط الشمالي والغربي. وفي وسط الحائط الشرقي أقيم مدخل محاط ببرجين مربعين هائلين. وفي منتصف الحائط الجنوبي اقيم برج مربع ربما كان المئذنة. وكانت واجهة المدخل مزينة بنقوش مسدسة الشكل، وبأفريز من الحجارة المنقوشة بأشكال هندسية.

وعلى جانبي المدخل رواقات ذوات طابقين، في الطابق الأسفل انتصبت مجموعة من أربعة أعمدة متلاصقة قائمة على قاعدة مربعة. ويعلو الأعمدة أقواس، أما في الطابق الأعلى فهناك أعمدة من المرمر والاقواس محفورة بإطار ضيق. واقيم بين الأعمدة درابزين من الجبس المنقوش بشكل أعمدة وأقواس صغيرة.

وتقوم على جانبي المدخل مقاعد مزوّدة بمتكآت. وفوق المقاعد إطار مزخرف بأشكال نباتية، وفوق الاطار ثلاثة محاريب على كل من جانبي المدخل يحدّ كلا منها عمودان. ويعلو كل محراب نصف قبة مزخرفة بأشكال نباتية وهندسية. وفوق المحاريب إطار آخر مزخرف بأشكال نباتية. وهذا المدخل كان مسقوفاً بعقد حجارته منحوتة بشكل الأعمدة. وعند واجهة المدخل كانت هذه متوجة بتيجان كورنتيّة صغيرة يبدو وكأنها مجموعة من المحاريب المتلاصقة.

والمدخل مبلط بالحجر الأسود المستورد من مكان قرب مقام النبي موسى. وفي مؤخرة المدخل باب القصر الذي كانت عضادتاه وعتبته مزخرفة بأشكال هندسية ونباتية كل شكل يختلف عن الآخر وقائم ضمن مربعة مستقلة.

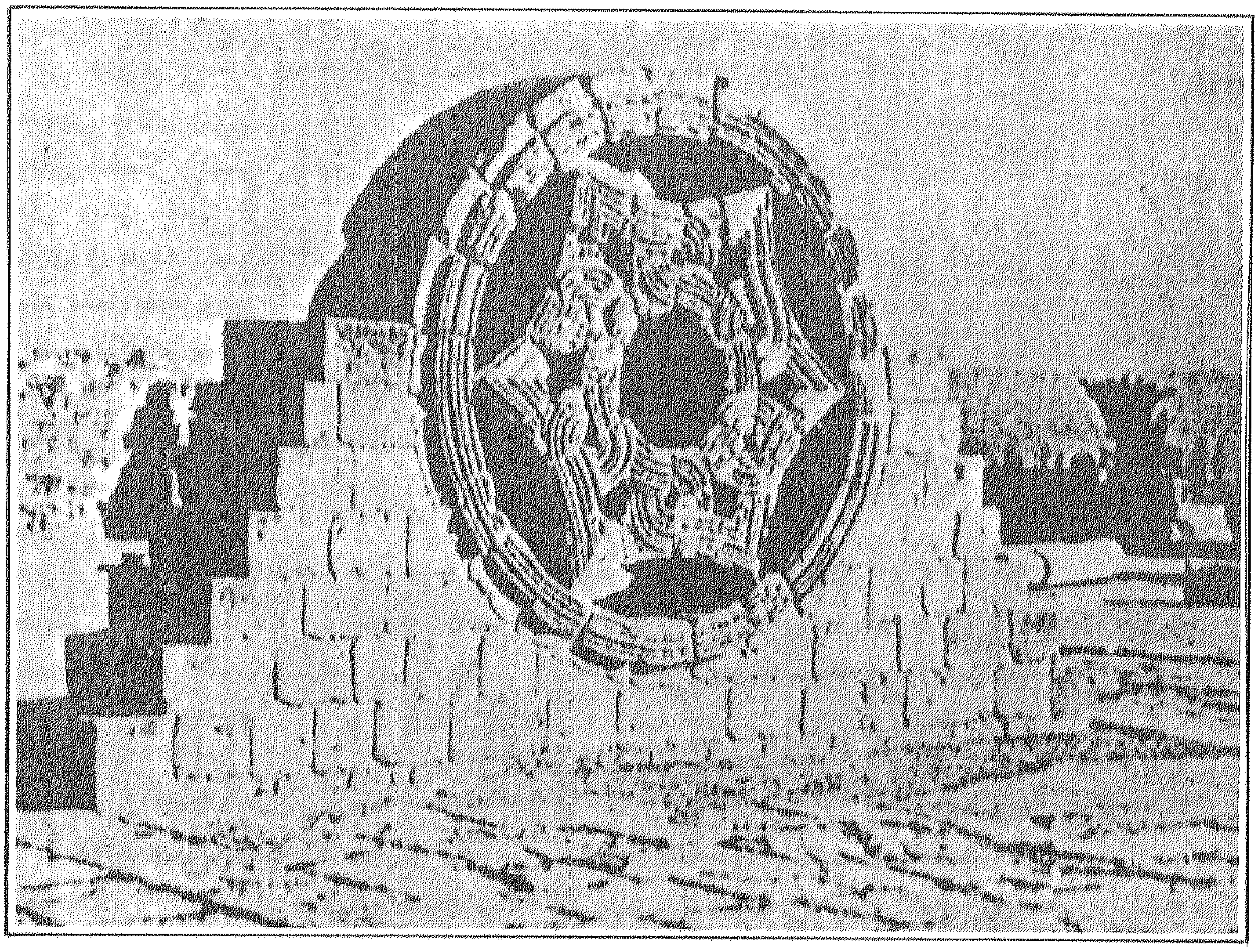

ويؤدي الباب إلى إيوان كبير مزوّد على جانبه أيضاً بمقاعد ذوات متكآت. ويحيط بالمقاعد ويفصلها بعضها عن بعض مجموعات من الأعمدة كل مجموعة تحتوي على ثمانية أعمدة. وكانت هذه الأعمدة والجدران بينها مغشاة بالجبس ومحفورة جميعها بأشكال هندسية يعلوها تماثيل نصفية لأشخاص وحيوانات بينها نساء نصف عاريات يحملن باقات من الزهر.

وهذا الايوان مثل المدخل مبلط ببلاط من الحجر الأسود.

ويقسم الجناح الشرقي من القصر إلى قسمين: كل قسم منهما يحتوي على ثماني غرف، اربع منها تؤدي إلى الرواق الشرقي والأربع الأخرى تطل على الصحن الأمامي. وليس هناك من أبواب بين هذه الغرف والغرف المجاورة الآنفة الذكر. أما جدران غرف الطابق الأعلى فمزخرفة بصورة ملونة وجدت بين الأنقاض في الطابق الأسفل، كما أنها كانت مرصوفة بالفسيفساء، وقد وجدت منها قطع بين الأنقاض في الطابق الأسفل.

وتتوسط الجناح الغربي من القصر دار مؤلفة من إيوان في الوسط وغرفتين على كل من جانبي الايوان تتصل إحداهما بالأخرى بعدة أبواب. وكان الايوان مسقوفاً بعقد (جملون قائم على قوسين من كل جانب. فالأقواس والجدران مبنية من الحجارة، والعقود مبنية بالطوب المشوي. والغرف الأربع المجاورة مسقوفة بعقود أيضاً، والمجموعة بأسرها مرصوفة بالطين. وزيادة على هذه المجموعة كان على كل من جانبيها مجموعتان من الغرف كل واحدة منها مؤلفة من غرفتين يلي ذلك في طرفي الجناح إيوان كبير مربع.

ويتألف الجناح الشمالي من القصر من أربع غرف مستطيلة يتوسطها جامع صغير مزوّد في الجهة الجنوبية بمحراب صغير، وربما كان هذا المسجد خاصاً بالخليفة. والظاهر أن جدران الجامع كانت مغشاة بقطع من المرمر. والجامع والغرف المجاورة كانت مطينة بطين زهري اللون.

ويحتوي الجناح الشمالي على إيوان كبير يمتد من طرف آخر وله باب واحد يؤدي إلى الرواق الشمالي، وكان مسقوفاً بأقواس تحمل العقود،

وربما أعدّ هذا الايوان للولائم.

إن الدرج في الطرف الشمالي من الرواق الغربي يؤدي إلى باب يفضي إلى الحمام الكبير شمالي القصر والمسجد الكبير بجانبه، وللمسجد بابان وباب خلفي قرب المحراب وثلاثة أبواب أخرى في طرف المسجد الشمالي. وللمسجد باحة قسم منها فقط، وهو القسم الجنوبي، مسقوف والقسم الآخر مفتوح على الخلاء. وفي حائطه الجنوبي محراب صغير يكتنفه عمودان صغيران. ويتألف القسم الجنوبي من صفين من الأعمدة ترتكز عليها أقواس تحمل بدورها العقود المصلبة.

ويؤدي الباب في الطرف الشمالي من الرواق الغربي من القصر إلى ممر ضيق مظلل يصل القصر بالحمام الكبير.

ويقع الحمام الكبير غربي الطرف الشمالي من الصحن الأمامي ويفضي إليه بواسطة باب كبير. ولهذا الحمام صحن أمامي صغير يؤدي بذات الوقت إلى الجامع الكبير الواقع جنوبه.

يحتوي الحمام على إيوان كبير للهو وبركة للسباحة وحمام بالماء الساخن وحمام بالهواء الحار ومرحاض.

وإيوان اللهو بناء مربع تقريباً ومزود بثلاث حنايا في جهاته الشمالية والجنوبية والغربية. ومدخل الحمام الرئيسي، في وسط الجهة الشرقية، مواجه لباب الباحة الصغيرة بين المسجد والحمام. وهناك حنيتان أخريان على جانبي مدخل الحمام الرئيس. وثمّ عدا المدخل الرئيسي بابان صغيران أحدهما في الطرف الشمالي من الحائط الشرقي والآخر في الطرف الجنوبي عدا الباب الصغير الذي يؤدّي إلى الممر الذي يصل الحمام بالقصر. وفي الحنيّة الشمالية الغربية باب آخر يؤدي إلى حمامات الماء الساخن والحمامات الحارة. وهناك أيضاً باب سادس يؤدي إلى غرفة المراحيض.

إن إيوان اللهو مقسم إلى عشرين قسماً بستة عشر عموداً ضخماً كل واحد منها مكوّن من أربعة أعمدة مستديرة تتخللها أربعة أعمدة مربعة. وتيجان هذه الأعمدة مزخرفة بأوراق (الأكانث).

وتكوّن الحنايا الثلاث في جنوب إيوان اللهو وثلاثة من أقسام الايوان بركة للسباحة مفصولة عن الايوان بحاجز يبلغ علوه ١,٢٠ متراً وتوصل إليه درجات من الحجر الأسود. وهناك أقنية لملء بركة السباحة، وأقنية أخرى لتصريف الماء بعد الاستعمال.

وفي الحائط خلف الحنايا في إيوان اللهو رفوف صغيرة بعضها مربع والآخر مستدير تعلوها الأقواس الصغيرة.

وإيوان اللهو والحنايا المحيطة به مرصوفة بالفسيفساء المتعددة الألوان بطريقة فنية أنيقة.

ويؤدّي الباب في الحنية الشمالية الغربية إلى غرف فيها مغاطس للاستحمام بالماء الساخن، وأخرى مزودة بأتون تحت الأرض جدرانه مغشاة بالأنابيب لتسهيل مجرى الهواء الساخن إلى مدخنة في أعلى الغرفة. وهناك غرفتان للاستحمام بالهواء الساخن واحدة مربعة والأخرى مستديرة ومزودة بحنايا في حيطانها.

ويفضي الباب في الزاوية الشمالية الشرقية من إيوان اللهو إلى غرفة المراحيض. وهناك مقعد مثقوب بثقوب مستطيلة تحته قناة لمياه تنظيف المراحيض، وفي وسط الغرفة نافورة ضمن طشت صغيرة من الحجر. وهذا المرحاض منقول عن مراحيض مشابهة في العهد الروماني وجدت في صبراطة في ليبيا وسلاميس في قبرص.

وفي الزاوية الشمالية الغربية من الايوان غرفة صغيرة للاستراحة في مؤخرتها حنية كانت مرصوفة بالفسيفساء بشكل شجرة على جانبها الأيمن أسد يفترس غزالاً وعلى جانبها الأيسر غزالان يرعيان العشب الأخضر. وجدران هذه الغرفة وسقفها مغشاة بالجبس المنقوش بأشكال هندسية ونباتية. وكان يزين السقف وردة كبيرة بين أوراقها رؤوس رجال ونساء». •

المراجع: الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، الطبعة ١٩٨٤.

□ جامع الأزهر ـ المجاز والأروقة ٣٥٩ ـ ٣٦١هـ / ٩٧٠ ـ ٩٧٢م

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

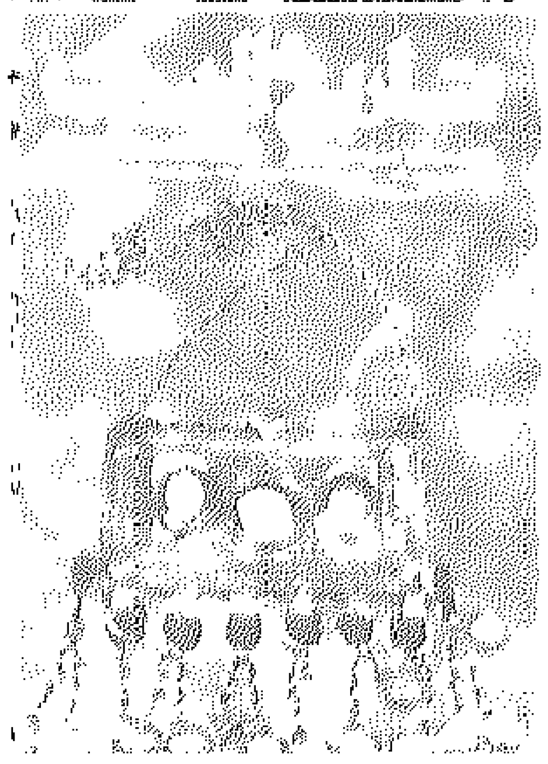

□ عقد من الفضة مرصع بثلاث حبات من العقيق الأحمر.
من كتاب:
SAAD AL-JADIR
Arab & Islamic
Silver

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

إحتفظ بمجلدات السنوات الثماني مِن مجلّة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

إثنا عشر مجلداً فخماً + اشتراك مجّاني لِعام كامِل

٦٠٠ دولار أو ما يُعادلها بما فيها أجور البريد المضمون

إقطع هذه القسيمة وأرسلها مرفقة بقيمة المجلّدات باسم مجلة تاريخ العرب والعالم إلى العنوان التالي :
شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت ، لبنان

الاسم الكامل : ______________________

العنوان : ______________________

المدينة : ______________________

الامضاء : ______________________

أرفق القيمة : ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية

Bibliotheca Alexandrina
05332209